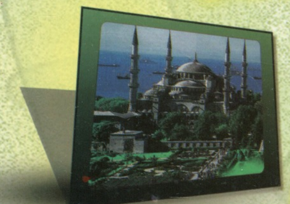
ملوكٌ كرام الأصل طابت فروعهم — وهل يُنسب الدينار إلا إلى التبر
نشروا دين الله بالقرطاس والقلم — في الروم والبلغار والصرب والمجر



منهل الظمآن

لإنصاف دولة آل عثمان









تأليف

محمد أسامة زيد

دار الفوائد

دار ابن رجب

الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان منهل الظما

منهل الظمآن
لإنصاف
دولة آل عثمان

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

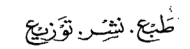
اسم الكتاب : منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان
اسم المؤلف : محمد أسامة زيد
القطع : ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات : ١١١٥
عدد المجلدات : ٢
سنة الطبع : ٢٠١٢ م

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع : ٥٦٨٥ / ٢٠١٢







المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٣٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
فرع المنصورة : ٣٣ شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨
فرع القاهرة : ١٣ شارع البيطار خلف الجامع الأزهر هاتف : ٠٠٢٢٥١٤١٠١٥

ملوك كرام الأصل طابت فروعهم — وهـل ينسب الدينـار إلا إلى التبـر

نشروا ديـن الله بالقرطاس والقلم — في الروم والبلغار والصرب والمجر

منهل الظمآن

لإنصاف

دولة آل عثمان

تأليف

محمد أسامة زيد

المجلد الثاني



دار ابن رجب



تفنيد الشبهات ودحض الأباطيل

خصصت هذا الباب لتفنيد الشبهات ودحض الأباطيل التي ألصقت بالدولة العثمانية. وللذب عن رجالها من السلاطين والقادة الذين شوهت صورهم لا لشيء سوى لانتمائهم لهذه الدولة الإسلامية . مع العلم أنني لن أكون متعصبا تعصب الجاهلية ، بأن أنبري للدفاع عنهم بحق أو بباطل . بل سأبين الأخطاء والمفاسد التي ارتكبها بعضهم ، مظهرا الصورة الحقيقية لهذه الحقبة من تاريخ المسلمين ، مبينا مناقب بني عثمان وفضائلهم وأياديهم البيضاء ، هم وغيرهم من سائر المسلمين الذين شاركوهم في بعث الدولة الإسلامية بعد الإغماءة التي أصابتها من حملات الصليبيين والتتار حتى عادت بفضل الله ثم بفضلهم لتتبوأ موقعها في العالم كما كانت . وسأبين كيف استطاع بنو عثمان حماية بلاد المسلمين من الهجمات الصليبية والرافضية ، فنعم المسلمون في كنفهم بالأمان ، لقرون طويلة من الزمان . مع التأكيد على ذكر الأخطاء والمساوئ . فلذلك ندرس التاريخ ، لأخذ العظة والعبرة من السابقين قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

وستدهش أيما دهشة حينما ترى كيف شوه المستشرقون تاريخنا وكذبوا على أنفسهم وعلى قومهم ، وهم يدعون أنهم أهل الصدق وأهل البحث العلمي النزيه . إلا المنصفين منهم ، وقليل ما هم. وأذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ النمساوي فون هامر والمؤرخين الفرنسيين هنري لورنس وأندريه ريمون وروبير مانتران . والمؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي . ولعلك تزداد عجبا على عجب عندما ترى أن قطاعا عريضا من أساتذة التاريخ ، وممن يسمون أنفسهم بالمثقفين قد انساقوا واتبعوا هؤلاء المستشرقين كما تتبع النوق فصالها ، وتعلموا آراءهم وأذاعوا بها على أنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويظنون أنهم بذلك محايدون لا يتأثرون بالعاطفة الدينية . وكأن الحياد عندهم هو ذم آبائهم والطعن في أجدادهم وتشويه تاريخ أسلافهم . فهم أرادوا أن ينفوا عن أنفسهم تهمة المحاباة وعدم الحياد ، فألصقوا بأنفسهم تهمة الجهل بحقائق التاريخ . فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وبعضهم علماني العقيدة (لا ديني) ولكنه لا يصرح بذلك بل يظهر الإسلام ، إلا أنه راح يطعن في كل نظام حكم يستند إلى أي عقيدة دينية ، سواء أكانت إسلامية أو نصرانية حتى يتسنى له أن يزعم أنه في أعلى درجات الحياد . ثم يدلل على حياده المزعوم بالطعن في الكنيسة الكاثوليكية بسبب تسلطها على الدول الأوروبية في العصور الوسطى . ثم يسحب المفاسد التي أحدثتها الكنيسة بحياة الناس في أوروبا على الدولة الإسلامية التي تحكم بشريعة الإسلام ، ويقول انظروا ، هذه هي مفاسد الحكم المستند إلى الدين . وتراه راح يردد المصطلحات الغربية « كنظرية الحق الإلهي » و « الحكم الثيوقراطي » بالرغم من أن الفارق شاسع بين حكم الكنيسة في العصور الوسطى ، وحكم الدولة الإسلامية . لكنه يساوي بينهما ولسان حاله يقول أنا لا أحابي أحدا . فهو يتوارى خلف ستار واه ويظن أنه مستور . وبعضهم جاهل على الحقيقة ، لا يفقه إلا النقل عن أساتذته ولسان حاله يقول : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣].

لا تتعجب ولا تندهش ولا تظنن أني أفترى الكذب على الأساتذة . ففيما يلي سترى بنفسك أن الأمر جلل والخطب عظيم وأن الحياة الفكرية أسوأ مما تتخيل . وقد سبق أن بينت في كتابي « التنكيل بما يدرس في التاريخ من أباطيل » شيئا كثيرا من الأخطاء التاريخية الجسيمة التي لا تتداولها ألسنة العامة فحسب ، بل تدرس في الجامعات على أيدي أساتذة التاريخ . وإن بدا لك أنني حاد اللهجة أو أنني أشن الغارة على أساتذة التاريخ ، فحنانيك أُخَيَّ ولا تجد عليَّ . فإن لكل مقام مقال ، والمقام هنا جلل والخطب عظيم ، فليس الأمر مجرد أخطاء بسيطة أو خلاف في وجهات النظر التاريخية ، بل إن الأمر قد خرج طوره وتعدى إلى خطايا جسيمة وأباطيل شنيعة أفسدت الحياة الثقافية لأمة بأسرها ، فنحن بصدد تاريخ أمة قد زيف . فما أن تتم قراءة هذا الباب سيتبين لك أنني كنت معهم ألين مما يستحقون . وفي الصفحات التالية سأبين إن شاء الله الأباطيل التي تدرس في المدارس أيضا المتعلقة بالحقبة العثمانية من تاريخ الإسلام . وسأقوم بذلك وفقا للتسلسل التاريخي للأحداث وليس وفقا لأهمية الوقائع من عدمه . ثم سأبين بعض الأباطيل المتعلقة بالدولة ككل وليست مختصة بأحد السلاطين بعينه .

الفصل الأول

السلطان أورخان والسلطان مراد الأول

عهد السلطان أورخان

سأبدأ أولا بذكر مسألتين من المسائل الخفيفة ، وهما ليستا من قبيل الأباطيل الجسيمة ، بل هما من الأمور التي تحتاج إلى توضيح .

المسألة الأولى

هي بشأن عبور سليمان باشا ابن السلطان أورخان إلى أوروبا (الروميلي) ، فقد ذكرت في الباب الأول الرواية التي وردت في المصادر الإسلامية ، ولما كانت الرواية البيزنطية تختلف عنها فوجب تحقيق المسألة . فأما الرواية الإسلامية[١] فقد وجدتها في المصادر الإسلامية التالية :

١- كتاب « بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان » وهو عبارة عن ترجمة من التركية إلى العربية قام بها حسين خوجه بن علي التونسي سنة ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م للجزء العاشر من كتاب « مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار » لمصلح الدين محمد لاري أفندي ، وهذا الجزء العاشر هو في الحقيقة كتاب « تاج التواريخ » لشيخ الإسلام سعد الدين أفندي كما ذكرنا في المقدمة ، ووفقا لما ورد في مقدمة الكتاب المذكور فإن مصنفه اعتمد في كتابه على تاريخ « نشري » وهو المعروف بـ « جهان نامة » ، وعلى ذيله للمولى إدريس الذي كان مرافقا للسلطان سليم الأول[٢].

٢- كتاب « أخبار الدول وآثار الأول » لأحمد بن يوسف القرماني ، فقد ذكر نفس الرواية إلا أنه جعل العبور عام ٧٥٨هـ[٣] ، والقرماني ينسب إلى « بلاد قرمان » جنوب الأناضول إلا أنه ولد بدمشق بمناسبة تولي أبيه لنظارة الجامع الأموي والبيمارستان النوري[٤] ولكن القرماني كان يتردد على العاصمة « اصطنبول » كما ذكر هو بنفسه أنه شهد تمرد الجند هناك عام ١٠٠١هـ[٥].

---

(١) انظر تفصيل تلك الرواية في الباب الأول من هذا الكتاب .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦) . (ورقة ٤) .

(٣) (٣/ ١١) .

(٤) نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٢/ ١٤٨) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ١٣٢) .

(٥) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٨) .

٣- كتاب « تواريخ آل عثمان » للمؤرخ التركي الشهير عاشق باشا زاده (ت٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) وقد ذكر أن العبور كان في عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م وفقا لما نقله عنه د.صلاح محمد ضبيع من الترجمة الألمانية للكتاب[1] ، والذي يظهر لي أن هذه الرواية هي المعتمدة في المصادر الإسلامية سواء ما كان منها عربيا أو تركيا أو فارسيا .

أما الرواية البيزنطية لعبور العثمانيين إلى أوروبا والتي ذكرها المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس (ت ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)[2] والتي اعتمدها المؤرخون المتأخرون من الأتراك والعرب والأوروبيين ، فتبدأ بوقوع الخلاف بين حكام بيزنطة ، فبعد أن توفي الإمبراطور أندرونيكوس الثالث عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م تولى ابنه الصغير يوحنا باليولوجس (يوحنا الخامس) العرش بوصاية أمه الإمبراطورة آنا ، وحنا كانتاكوزين وزير الإمبراطور المتوفى ، فلما اختلف الوصيان وقعت بينهما حرب ضروس ، فاستنجد حنا كانتاكوزين بالسلطان أورخان ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م فأمده بقوات قادها ابنه سليمان باشا ، فانتصروا على جيش الإمبراطورة أنا ، وأصبح يوحنا كانتاكوزين إمبراطورا باسم يوحنا السادس ، وحرصا منه على تثبيت دعائم التحالف مع العثمانيين ، كان قد زوج ابنته « ثيودورا » من السلطان أورخان ، وفي عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م استنجد حنا كانتاكوزين مرة أخرى بالسلطان أورخان لدفع هجوم الصرب على أراضيه ، فأمده السلطان بعشرين ألفا وقيل عشرة آلاف وقيل غير ذلك ، تحت قيادة ابنه سليمان باشا فأوقع هزائم كبيرة بالصرب كان آخرها عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م ، فمنحه الإمبراطور قلعة « جمبه » في شبه جزيرة جاليبولي لتكون قاعدة له يستخدمها عند العبور إلى الروميلي (جنوب البلقان)[3]

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٠٨ - ١١١) .

(٢) د. حاتم الطحاوي : الحصار العثماني للقسطنطينية (ص ٦٦) ، د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٠٠) .

(٣) خليل إينالجيك : العثمانيون النشأة والازدهار. ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص ٤٧) ، إيرين بيلديسينو : عثمان وأورخان ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية ، تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٣٠) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٦) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٦٥) ، د.محمود محمد الحويزي : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٤٣ - ٤٥) .

فما كان من سليمان باشا إلا أن انطلق منها يفتح القلاع والحصون ، وفي تلك الرواية إشارة إلى أن سليمان باشا ما كان ليستطيع أن يفتح الروميلي لولا أن منحه يوحنا كانتاكوزين قلعة فيها ، فجعلها قاعدة لفتوحاته ، ولولا ذلك لما استطاع عبور البحر ابتداء .

والسؤال الذي يتردد الآن هل كان عبور سليمان باشا إلى أوروبا وفتحه الروميلي بمحض اجتهاده هو وجنوده ؟ أم كان بعد أن ثبت سليمان باشا موقعه في قلعة « جمبه » بمنحة من الإمبراطور البيزنطي ؟ .

بالرجوع إلى بعض المراجع الإسلامية المتقدمة نسبيا مثل :

١ - كمال الإنسان في معرفة آل عثمان لـ علي كمال بن السيد محمد أمين أفندي مدرس زاده ، وهو حلبي المولد لم أقف على تاريخ وفاته ولكن يبدو أنه توفي في أواخر القرن ١٣هـ/ ١٩م لأنه ذكر الأحداث حتى وفاة السلطان عبد المجيد الأول عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م ، وقد استقى مادته العلمية من التواريخ التركية كما أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه ، فأما عن روايته لتلك الواقعة فقد ذكر فيها أن حنا كانتاكوزين استنجد بالسلطان أورخان فأمده السلطان بجنود من عنده مرتين . كان سليمان باشا يقودهم في المرة الثانية ، ثم عاد بعدها إلى الأناضول بعد أن حفظ طرقات تلك البلاد وتبين له الضعف الذي حل بحكامهم. فأعد رجاله وعبر بهم البحر في بداية عام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م ثم فتح عدة قلاع حتى فتح قلعة جاليبولى في آخر العام[١]، ونلاحظ هنا أن هذا المؤرخ قد جمع بين الروايتين ولكنه فصل تماما بين واقعة إنجاد السلطان أورخان لكانتاكوزين ، وبين عبور سليمان باشا إلى الروميلي ، ولم يذكر شيئا عن إهداء قلعة « جمبه » لسليمان باشا .

٢ - أما محمد فريد بك في كتابه الجليل « تاريخ الدولة العلية العثمانية » فقد جمع بين الروايتين وفصل بينهما أيضا ، فقد قال ما ملخصه أن الإمبراطور البيزنطي طلب النجدة من السلطان أورخان عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م لصد غارات ملك الصرب ، فأنجده السلطان

---

(١) علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية .(ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ . ورقة ١٦ ، ١٧) .

بجيش عظيم شتت الجيش الصربي ثم عاد إلى الأناضول ، وكانت إقامة الجيش في الشاطئ الأوروبي كفيلة بإغراء السلطان بالعبور ، ففي عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م اجتاز سليمان باشا ابن السلطان وصدر مملكته الأعظم بوغاز الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده ، فقبضوا على بعض القوارب وعادوا بها إلى البر الأسيوي ، فشحنوا فيها الجيش وعبروا به إلى الشاطئ الأوروبي واستولوا على « جمبه » و« جاليبولي » وعدة مدن[1]. نلاحظ هنا أن رواية محمد فريد بك لا تختلف عن رواية على كمال السابقة . فهو قد فصل أيضا بين إنجاد السلطان أورخان للإمبراطور وبين عبور سليمان باشا للروميلي ، وصرح بأنه استولى على القلاع عنوة بما فيها قلعة جمبه . ولكن يلاحظ أن النجدة التي يتحدث عنها محمد فريد بك ، والتي أرسلها السلطان أورخان في ذلك التاريخ الذي حدده (١٣٥٥م) إنما كانت لـ « ماثيو بن يوحنا كانتاكوزين » الذي دب الصراع بينه وبين الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس عقب تنازل يوحنا كانتاكوزين عن العرش سنة ١٣٥٤م[2]. أي أن محمد فريد بك لم يذكر إرسال أي نجدات ليوحنا كانتاكوزين ، ولا إهداء قلعة جمبه لسليمان باشا .

٣- الميرالاي إسماعيل سرهنك ناظر المدرسة الحربية في زمن الخديو عباس حلمي وصاحب الكتاب الجليل الجامع الشامل « **حقائق الأخبار عن دول البحار** » فقد جمع بين الروايتين مع الفصل بينهما أيضا ، فقد ذكر نجدات السلطان أورخان لكانتاكوزين لكنه لم يذكر شيئا عن إهداء قلعة جمبه لسليمان باشا . كما أنه حل لنا إشكال الاختلاف في تاريخ العبور ، فقد ذكر أن العبور والاستيلاء على قلعة جمبه كان عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م أما الاستيلاء على قلعة جاليبولي فقد كان عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م[3]. وعلى هذا فيكون عاشق باشا زاده وأحمد القرماني قد ذكرا تاريخ العبور فحسب ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م وأما سعد الدين أفندي فيكون قد ذكر تاريخ فتح جاليبولي فحسب ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٢٦) .

(٢) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١١٨) .

(٣) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٩٠) .

٤- أما إبراهيم بك حليم مفتش أوقاف دمنهور وهو جركسي الأصل هاجر من بلاده وهو طفل صغير مع أسرته إلى الأناضول بعد استيلاء روسيا على بلاده في حربها مع الدولة العثمانية عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٧م فقد جمع بين الروايتين أيضا في كتابه « تاريخ الدولة العثمانية العلية » الشهير بـ « التحفة الحليمية » ، إلا أنه جعل واقعة إنجاد السلطان أورخان للإمبراطور البيزنطي بعد واقعة عبور سليمان باشا للروميلي واستيلائه على القلاع ، كما يبدو أنه كان يتحدث عن النجدة المرسلة إلى ماثيو بن حنا كانتا كوزين أيضا إذ قال ما نصه : « وفي سنه ٧٥٦هـ عبروا البحر الأبيض واستولوا على كليبولي ، وفي أثناء ذلك حصلت فتنة في عائلة إمبراطور الأستانة (القسطنطينية) وطلب من سليمان باشا الإعانة فأرسل إليه رجالا »[1].

٥- والمؤرخ التركي الكبير « يلماز أوزتونا » ذكر إهداء يوحنا كانتاكوزين قلعة « جمبه » لسليمان باشا نظير مساعداته إلا أنه ذكر أن الفتوحات في الروميلي لم تنطلق منها بل انطلقت من الأناضول ، فقد قال : « وبالحاق دولة قره سي بالعثمانية أصبح للعثمانية أسطول صغير ، فقد كان لبني قره سي أسطول حربي وجنود بحرية وأميرالات مجربون ، طور سليمان باشا هذا الأسطول وجهز رصيف أدنجك (آيدنجيك) المواجه لباندرمه في الرأس الشرقي لخليج أردك ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول ، وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا بوغاز جناقلعة وفتح في ٢ آذار ١٣٥٤ قلعة جاليبولي ذات الأهمية البحرية - كقاعدة - في جهة بحر مرمرة »[2].

خلاصة القول أن المصادر الإسلامية ذكرت أن عبور العثمانيين إلى البر الأوروبي كفاتحين بقيادة سليمان باشا كان في عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م . ففتحوا البلاد دون الحصول على أي منح أو إهداءات من البيزنطيين ، أما المراجع الإسلامية المتقدمة نسبيا فقد ذكرت وقائع إنجاد السلطان أورخان ليوحنا كانتاكوزين ، ولكنها لم تذكر حصول سليمان باشا على أي منح أو إهداءات من البيزنطيين أيضا ، وقد فصلت تماما بين وقائع الإنجاد وواقعة العبور ، أما المصادر البيزنطية فذكرت أن العبور كان عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م بعد استنجاد حنا كانتاكوزين بالسلطان

---

(١) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٣٧) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٩٦) .

أورخان فكافأه بإعطائه قلعة « جمبه » ، ومنها انطلق لفتح سائر القلاع ، لا أستطيع أن أجزم ببطلان الرواية البيزنطية ؛ لأن المصادر التركية دأبت على إغفال بعض التفاصيل في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة ، التي لم تكن الكتابة التاريخية فيها قد بلغت مرحلة النضج بعد ، وقد تكون واقعة إهداء يوحنا كانتاكوزين قلعة جمبه لسليمان باشا من ضمن تلك التفاصيل المهملة .

ولكن يبقى سؤال آخر يتردد ، وهو لماذا لم تذكر المصادر الإسلامية القديمة التي أشرت إليها شيئا عن التحالف بين السلطان أورخان ويوحنا كانتاكوزين إن كان صحيحا ؟! فحتى المؤرخ التركي عاشق باشا زاده الذي كان قريبا نسبيا من الأحداث إذ أنه توفي عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م بعد عمر مديد ، لم يذكر شيئا من ذلك . كما قرره د.صلاح محمد ضبيع من خلال إطلاعه على الترجمة الألمانية لكتابه[1]. فما هي حقيقة التحالف إن صح ، وكيف حصل سليمان باشا على قلعة « جمبه » أفتحها بجنوده أم أهداها إليه الإمبراطور ؟ ولكم وددت أن أطلع على كل المصادر التركية والفارسية التي تؤرخ لتلك الفترة لأجيب على هذا السؤال إجابة شافية ، لكن جهلي باللغتين التركية والفارسية حال دون ذلك ، وإن كنت قد بدأت أتعلم اللغة التركية ولكن ما زال بيني وبين إتقانها مفاوز ، عسى الله أن يعلمنا ما جهلنا .

وبالرغم من العرض السابق لما ورد في المصادر إلا أنني لا أستطيع أن أقبل الرواية البيزنطية كما هي كما لا أستطيع أن أجزم ببطلانها ، قبل أن أطلع على سائر المصادر الإسلامية الفارسية والتركية ، وإنما أردت من خلال العرض السابق أن ألفت النظر إلى إهمال جسيم ، وهو إهمال عملية ترجمة المصادر التركية إلى العربية والذي يتحمل وزره أساتذة اللغات في الجامعات أو المركز القومي للترجمة ، والذي يشرف عليه أساتذة الجامعة أيضا . فإن المركز قد قام بترجمة العديد من الكتب الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولكن ليس من بينها المصادر التاريخية القديمة ، وهذا قصور بلا ريب . أما الكتب التركية والفارسية فيندر أن تجد منها ما ترجم إلى العربية أصلا ، سواء أكانت كتبا حديثة أو مصادر تاريخية قديمة ، أما بعض المصادر

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ٣) .

التاريخية التركية التي ترجمها بعض الباحثين وحصلوا بها على درجة الماجستير أو الدكتوراه فهي لم تنشر ولها سنوات طويلة حبيسة على أرفف مكتبة الكلية يعلوها التراب ، وأما المصادر الثلاثة التي حصلت عليها ، فإنما كان ذلك بشق الأنفس عن طريق معارف ووسطاء لهم علاقات طيبة بالمترجمين ، فليس من العدل أن يكون هذا هو حال البحث العلمي ، وليس مفهوما أن تهمل ترجمة المصادر التاريخية لبقعة من العالم كانت مصر تنتمي إليها دينيا وسياسيا وثقافيا لقرون طويلة ، وبهذه المناسبة أوجه نداء بل استغاثة لأساتذة اللغات في الجامعات المختلفة هلا ترجمتم لنا المصادر التركية والفارسية واللاتينية والبيزنطية ! فمن المؤسف أن ترى الأوروبيين قد ترجموا مصادرنا العربية والتركية والفارسية إلى لغاتهم ، بل ترجموا أيضا مصادرهم اللاتينية والبيزنطية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، لتوفير الوقت والجهد ، فمما لاشك فيه أن الباحث وإن كان يفهم أي لغة من تلك اللغات ، فإن قراءة المصادر بلغاتها الأصلية سيستغرق منه وقتا أطول وجهدا أكبر ، ربما يصل إلى عشرة أضعاف الوقت والجهد اللازم لقراءته إياها بالعربية ، فلم هدر الوقت والجهد يا سادة ؟! ومما لمسته بنفسي ويدل على تدهور البحث العلمي في مصر أنك تجد باحثا في التاريخ الوسيط مثلا يريد أن يترجم نصا لاتينيا أو يونانيا قديما ، فيذهب إلى أحد القساوسة اللاتين أو الروم فيترجم له بضع صفحات إلى العربية ، ثم يأتي باحث ثان يريد أن يترجم نفس النص فيذهب إلى نفس القسيس أو إلى غيره ليترجمه له ، ثم باحث ثالث ورابع وخامس إلى ما لا نهاية ، فترى النص الواحد قد يترجم عشرات المرات ، فهل تقبل هذه الطريقة ؟! فما بال أساتذة اللغات قد تقاعسوا عن أداء واجبهم ؟! وإن زعموا أن هذا ليس بواجب عليهم ، نقول لهم فما هي الفائدة التي تعود علينا من أقسام اللغات في كليات الآداب في الجامعات المختلفة التي تزخر بمن يحملون أرفع الدرجات العلمية ؟!.

فمن مصادر التاريخ العثماني الهامة المكتوبة باللغة التركية ولم تترجم حتى الآن إلى العربية :

١- « داستان تواريخ ملوك آل عثمان » وهي منظومة شعرية للشاعر « أحمدي » عاش في القرن الثامن والتاسع الهجريين .

٢- عدة منظومات عرفت باسم « تقاويم السراي » ، التقويم الأول يعود لعام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م والثاني لعام ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م والثالث لعام ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م .

٣- دستور نامة للمؤرخ « أنوري » (ت ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م).

٤- تواريخ آل عثمان للمؤرخ التركي عاشق باشا زاده (ت ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) وقد شهد فتح القسطنطينية مع السلطان محمد الفاتح .

٥- جهان نامه للمؤرخ التركي محمد بن نشري (ت ٩٢٥هـ/ ١٥٢٠م) .

٦- تاريخ أبو الفتح وهو السيرة الذاتية للسلطان محمد الفاتح كتبها المؤرخ التركي طورسون بك ، الذي كان مرافقا للسلطان في حملة فتح القسطنطينية وغيرها من الحملات .

٧- عدد من المصادر بعضها بعنوان « تواريخ آل عثمان » لمؤرخين مختلفين عاشوا في القرن العاشر/ السادس عشر مثل كمال باشا زاده ورستم باشا ولطفي باشا .

ومن المصادر الفارسية :

١- « مسامرات الأخبار » لمحمود بن محمد الأقسرايي « كتبه عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٣م ».

٢- « بزم ورزم » وهي حوليات كتبها عزيز بن أرشدير الاسترابادي ويتناول فيها تاريخ الأناضول في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي .

٣- « الأوامر العلية في الأمور العلية » للمؤرخ ابن بيبي .

٤- «بهجت التواريخ » للمؤرخ شكر الله بن الإمام شهاب الدين بن الإمام زين العابدين وهو ألباني الأصل (ت٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) .

٥- «مرآة الأدوار ومرقاة الأخبار » لمصلح الدين لاري أفندي (ت ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) ، إما أن يترجم النص الفارسي أو أن يترجم النص التركي الذي ترجمه عن الفارسية شيخ الإسلام سعد الدين أفندي .

فمن المؤسف جدا أن تحرم المكتبة العربية من هذه المصادر التركية والفارسية الهامة ، وهي بلا شك أهم من المصادر العربية التي تتناول تلك الفترة لأن مؤرخيها كان قريبين من أماكن وقوع الأحداث وينقلون أخبارها عن أناس شهدوها أو سمعوها ممن شهدوها ، فترى أن

كتبهم تحتوى على تفصيلات لا يتسنى للمؤرخين العرب في الشام أو العراق أو مصر أن يقفوا عليها ، لذلك فإن المصادر العربية خالية من التفاصيل التي أحيانا ما تكون في غاية الأهمية . أما المصادر البيزنطية التي تحتاج إلى ترجمة فمنها ما كتبه يوحنا كانتاكوزين نفسه ، فقد روى كل الأحداث كما عاشها من عام (١٣٢٠ـ ١٣٥٤م) وقد نشر كتابه هذا باللغة اليونانية مشفوعا بترجمة لاتينية في الحاشية ، وهناك مصدر آخر لأحد المؤرخين البيزنطيين «جورج فرانتز » ولد عام ١٤٠٢م وقد كتب حوليات عن الفترة من (١٢٥٩ ـ ١٤٧٧م) وقد نشرت باللغة اليونانية في المتن واللاتينية في الحاشية(١). وكتاب التاريخ البيزنطي لميخائيل دوكاس المتوفي عام ١٤٦٢م ، ومن المصادر الهامة أيضا كتاب التاريخ التركي للمؤرخ البيزنطي لاونيكس خالكوكونديلاس الذي كان معاصرا للسلطان محمد الفاتح وسجل الأحداث حتى عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م(٢) ، فهذه المصادر البيزنطية يجب أن نطلع عليها ونقبل منها ما يمكن قبوله ونرد منها ما يجب أن يرد استنادا إلى ما جاء في مصادرنا الإسلامية التركية والفارسية والعربية ، وخلاصة القول أن باحثي التاريخ في البلاد العربية بصفة عامة لن يستطيعوا أن يقفوا على التفاصيل التاريخية الدقيقة إلا بأن يتقن كل واحد منهم اللغات التركية والفارسية واللاتينية واليونانية ، وهذا أمر شبه مستحيل ، وقد يفني الباحث عمره قبل أن يجيد هذه اللغات إجادة تمكنه من قراءة المصادر التاريخية وفهمها فهما صحيحا ، ولكن البديل الأولى بالتنفيذ هو أن يتفضل علينا أساتذة اللغات بترجمة المصادر إلى العربية ، فأربأ بأساتذة اللغات أن يتقاعسوا عن أداء واجبهم الذي سيسألون عنه يوم القيامة. كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : عن النبي ﷺ قال : «**لاَ تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ**

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس (ص ١٠) ، إبراهيم مصباح : السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس (ص ١٢).

(٢) د.حاتم الطحاوي : الحصار العثماني للقسطنطينية (ص ٨٦ ، ٨٩).

وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ »(١).

فيجدر بأساتذة اللغات أن يشمروا عن ساعد الجد وينهضوا على ساق العزم ويعملوا فيما علموا... فهل من مشمر ناهض ؟! .

المسألة الثانية

وهي تتعلق برسالة د.صلاح محمد ضبيع التي حصل بها على درجة الدكتوراه في التاريخ عام ١٩٩٨م من سوهاج ، جامعة جنوب الوادي بعنوان : « العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية في عصر أسرة باليولوجوس ١٢٦١م – ١٤٥٣م ».

وبرسالة الأستاذ إبراهيم مصباح التي حصل بها على درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة طنطا عام ٢٠٠٥م بعنوان : « السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس ١٣٢٨ - ١٣٤١م ».

وهما رسالتان قيمتان حقا ، بذل فيهما جهد كبير ، وقد استفدت منهما كثيرا لاسيما من المصادر البيزنطية واللاتينية التي رجعا إليها فهي تلقي مزيدا من الضوء وتفسر بعض الأحداث الغامضة ، لاسيما في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وهو القرن الأول في عمر الدولة العثمانية ، وعادة ما تكون تلك الفترة الأولى في عمر أي دولة عظمى مجهولة ، إذ أن المؤرخين لا يلتفتون إلى تدوين تاريخ هذه الدولة إلا بعد أن تحقق إنجازات وتصبح قوة إقليمية على الأقل ، لذلك لا ترى أحدا من المؤرخين قد أفرد مصنفا خاصا لتاريخ الدولة العثمانية إلا بعد قرن ونصف تقريبا من ظهورها . فالمصادر البيزنطية واللاتينية التي رجع إليها د.صلاح ضبيع والأستاذ إبراهيم مصباح كان فيها فائدة كبيرة بلا شك ، وقد ذكر د.صلاح في مقدمة رسالته أن بعض تلك المصادر قد رجع إليها في نصوصها الأصلية ، وأعتقد أن السبب في ذلك إما أنها لم تترجم إلى اللغات الأوروبية الحديثة أو لأنه لم يتيسر له الحصول على تلك الترجمات إن وجدت ، أيا كان الأمر فلا أعتقد أن د.صلاح يجيد اليونانية القديمة أو

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦١٢) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٨) ، البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٧٧) . وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٢٩) .

اللاتينية ، كما أن المصدرين التركيين الوحيدين الذين رجع إليهما د.صلاح هما تاريخ عاشق باشا زاده ، وقد ذكر أنه رجع إلى الترجمة الألمانية له ، فهل يجيد د. صلاح الألمانية أيضا ؟! والمصدر التركي الثاني هو « تاريخ أبو الفتح » لمؤلفه طورسون بك وقد ذكر د. صلاح أنه بالرغم من أن ذلك المصدر قد ترجم ترجمة مختصرة إلى الإنجليزية إلا أنه فضل الرجوع إلى النص الأصلي التركي ، فهل يجيد د.صلاح التركية أيضا ؟! هذا بخلاف المراجع الإنجليزية والفرنسية والنمساوية ، فهل يجيد د.صلاح كل هـذه اللغات ؟! وقـد رجـع الأستاذ إبراهيم مصباح إلى تلك المصادر نفسها ، فهل يجيد الأستاذ إبراهيم تلك اللغات أيضا ؟! .

أنا هنا لا أقلل من رسالة د.صلاح ولا من رسالة الأستاذ إبراهيم ، ولا أعيب عليهما عدم معرفتهما بتلك اللغات ، فأنا مثلهما لا أعرفهن ، وكذا كل أساتذة التاريخ في بلادنا ، ولكني أتحدث في هذا المقام عن واقع البحث العلمي ، وهو أن كل الباحثين يرجعون إلى مصادر تاريخية مكتوبة بلغة لا يعرفونها ، فكيف ذلك ؟! إن الطريقة التي يتبعها أغلب الباحثين هي أن الباحث يقرأ في المراجع الأوروبية الحديثة التي ألفها مؤرخون أوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر أو في القرن العشرين باللغة الإنجليزية مثلا ، فإذا ما رأى الباحث أن ذلك المؤلف الإنجليزي قد رجع إلى مصدر لاتيني أو بيزنطي بصدد واقعة معينة ، فإنه يحفظ رقم الصفحة أو الصفحتين أو الثلاث في ذلك المصدر اللاتيني أو البيزنطي ، ثم يلجأ إلى أحد القساوسة الذين يجيدون تلك اللغات ، ويطلب منه أن يترجم تلك الصفحات له ، أما إن كانت الصفحات من مصادر تركية أو ألمانية مثلا فإنه يذهب بهن إلى أحد أساتذة تلك اللغة أو إلى مكتب ترجمة متخصص فيترجمهن له ، وهكذا فإن الباحث لا يقرأ المصدر كله ، بل ينتقي منه ما سبق أن انتقاه المؤلف الإنجليزي المتأخر ، وهذ بلا شك قصور بالغ في عملية البحث ، إذ أن الباحث يظل أسيرا لما نقله ذلك المؤرخ الإنجليزي المتأخر من تلك المصادر القديمة ، ثم إن ذلك المؤرخ الإنجليزي قد ينقل شيئا ويخفي أشياء . عن عمد أو حتى عن غير عمد ، فلو افترضنا فيه الإنصاف فإن نظرته للوقائع التاريخية تختلف حتما عن نظرتنا إليها. فلا شك أن تلك الطريقة التي يتبعها أغلب الباحثين تفوت كثيرا من الوقائع التي

أعرض عن ذكرها هذا المؤرخ الإنجليزي أو ذاك لعدم أهميتها بالنسبة له . وهكذا ترى أننا أصبحنا عبيدا للثقافة الغربية لا نرى إلا ما يرونه . وهذا قصور بالغ بلا ريب . وليكن معلوما أني لا أقول هؤلاء الكلمات ألوم بهن باحثي التاريخ . لا أبدا ، ولكني أعرض الحالة العامة للبحث العلمي . فلا ينتظر من أحد الباحثين في التاريخ أن يتعلم أربع أو خمس لغات غربية وشرقية قبل أن يبدأ أبحاثه التاريخية ، فسيفنى عمره دون تعلمهن . ولكن كما ذكرت آنفا فإن الواجب على أساتذة اللغات أن يقوموا بدورهم ويترجموا لنا المصادر كما فعل الأوروبيون وترجموا مصادرنا العربية والفارسية والتركية إلى لغاتهم ، بل وترجموا مصادرهم اللاتينية والبيزنطية إلى لغاتهم الحديثة .

ورسالة د.صلاح كانت مفيدة جدا بالنسبة لي لاسيما في بنود المعاهدات التي تمت بين السلاطين العثمانيين الأوائل والدولة البيزنطية . ولكني أتوقف معه عند مسألتين ، الأولى فيها عتاب والثانية فيها خلاف في وجهات النظر التاريخية مما لا يفسد للود قضية .

العتاب

ففي فقرة نقلها عن المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس بخصوص السلطان أورخان بن عثمان ، عندما قبل أن يساعد يوحنا كانتاكوزين في الجلوس على العرش البيزنطي ، وأن يتزوج من ابنته ثيودورا . قال دوكاس : « عندما سمع أورخان عرض السفراء كان كالثور الذي أصيب بعطش شديد بسبب حرارة الصيف المؤلمة ، وعندما جاء ليشرب فتح فمه على آخره ولكنه كان يشرب من ثقب ضيق في قربة مليئة بالماء البارد ، ولم يكن هذا الثقب قادرا على ملء فمه . إن البربري أورخان كان عاجزا عن ضبط النفس فعندما سمع بالموافقة على زواجه من ابنة كانتاكوزين وحجم المهر والهدايا التي أرسلها له كانتا وافق على وجه السرعة ، وكان أن أغدق أورخان الهدايا على السفراء وأمرهم بالعودة بعد أن أقسم أمامهم أنه كصهر ليوحنا كانتاكوزين سوف يقدم له المساعدات العسكرية بدون تردد كابن إلى والده ، وتم الاتفاق بين الطرفين على إرسال العروس مع المهر إليه قبل الصيف »[1].

---

(١) د.صلاح ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٠١)

لقد نقل د.صلاح كلام دوكاس دون أن يعلق عليه ، وكان الأولى به أن ينكر هذا الكلام ، لأنه ليس كلاما علميا ذكره مؤرخ منصف بل هو كلام رجل بيزنطي حاقد على عدوه حمله بغضه وحقده على قول هذه السفاهات ، ودوكاس له الحق في أن يقول ما يشاء ، أما نحن فلا ينبغي لنا أن ننقل كل ما يكتب ، وإنما يجوز لنا أن ننقل ما لا يتعارض مع مرجعياتنا العقدية والثقافية ، وفي هذه الحالة كلام دوكاس باطل من ثلاثة أوجه :

١- أن الرعيل الأول من آل عثمان رحمة الله عليهم أجمعين لم تعرف الشهوة طريقا إلى قلوبهم ، فضلا عن أن تتحكم في قراراتهم إلى حد الدخول في حرب من أجل امرأة ، وذلك من أول عثمان مؤسس الدولة حتى سليمان القانوني على الأقل ومن درس تاريخ هذه الأسرة بعناية يعرف ذلك حق المعرفة .

٢- ثم بفرض أن الشهوة قد عرفت طريقا إلى قلوبهم فنقول : إن الاتفاق المذكور كان في حدود عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م أي أن السلطان أورخان كان عمره آنذاك ستة وستين عاما ، لأنه ولد عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م مما يعني أنه كان شيخا كبيرا ، فمن المؤكد أنه قد مر عليه أشكال وألوان من النساء من مختلف الأجناس من سبايا الحروب ، فثيودورا ابنه كانتاكوزين لم تكن لتزيده أو تنقصه .

٣- أن الرحالة الشهير ابن بطوطة مر على الأناضول في رحلته الشهيرة في عصر السلطان أورخان وقال عنه : « وهذا السلطان هو أكبر ملوك التركمان وأكثر مالا وبلادا وعسكرا وله من الحصون ما يقارب مائة حصن ، وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لإصلاح شئونه وتفقد أحواله ، ويقال أنه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم »[١].

فكلام ابن بطوطة المذكور يدل على أن ذلك الوصف الذي ذكره دوكاس لا يمكن أن يكون صحيحا ، فالخلاصة أن السلطان أورخان عند زواجه من ثيودورا كان شيخا كبيرا في السادسة والستين أفنى عمره في الجهاد ، ولا يقيم ببلد بل يطوف على الحصون والقلاع

(١) أبو عبد الله بن بطوطة الطنجي : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (٢/ ١٩٧) .

لتنظيم الأحوال ، مر عليه أشكال وألوان من النساء خلال حياته الطويلة ، فلا يمكن أن يكون بهذا الوصف الذي وصفه به دوكاس . ثم إن كل من درس التاريخ يعلم أن زيجات السلاطين والأباطرة غالبا ما يكون لها أهداف سياسية ، وكان هدف أورخان في هذه الحالة هو توثيق عرى التحالف مع يوحنا كانتاكوزين في صراعه مع يوحنا باليولوجوس على العرش البيزنطي ، وكان تدخله هذا قد جعل له ولمن جاء بعده من السلاطين كلمة نافذة في القسطنطينية ، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في الباب الأول . فهذا عتاب أتوجه به للدكتور صلاح الذي ما كان ينبغي له أن ينقل كلام دوكاس إلا للطعن فيه وبيان فساده .

وكما يقول الناس الشيء بالشيء يذكر ، فأود أن أشير إلى موقف الأستاذ إبراهيم مصباح في رسالته القيمة جدا من بعض ما جاء في المصادر البيزنطية ، فقد نقل كلام يوحنا كانتاكوزين وزير الإمبراطور أندرونيكوس الثالث آنذاك فيما يتعلق بمعركة بولكانون عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م . تلك المعركة التي انسحب فيها الإمبراطور بجيشه أمام السلطان أورخان ، نقل الأستاذ إبراهيم كلامه ثم أنكره بقوة ، إذ أن يوحنا كانتاكوزين قد ذكر في تاريخه أن الجيش البيزنطي انسحب من ساحة المعركة بعد أن انسحب السلطان أورخان خوفا من القتال ، وزعم كانتاكوزين أن السلطان أورخان خطب في جيشه قائلا : « لقد رأيتم بأنفسكم مدى بسالة وشجاعة القوات البيزنطية في ميدان المعركة ، وإنكم تعلمون ما تجلبه المعارك المستمرة من خراب ، ولذلك يجب علينا الانسحاب والعودة إلى معسكرنا ». وقد اتخذ أورخان قرار الانسحاب على الرغم من اعتراض القادة العثمانيين على ذلك ».

هذا ما نقله الأستاذ إبراهيم مصباح عن كانتاكوزين ، ولكنه أنكره بشدة قائلا : « من الواضح أن هذه الخطبة وضعها حنا كانتاكوزين على لسان السلطان أورخان لتبرير قرار انسحاب القوات البيزنطية من أرض المعركة ، حيث أنها لا تتفق مع طبيعة شخصية السلطان أورخان الشجاعة وطبيعة الأحداث والنتائج النهائية للمعركة ، فليس من المعقول أن يعمل السلطان أورخان على بث روح الضعف وخفض الروح المعنوية لدى جنوده العثمانيين ، وكذلك لكونها تتعارض مع «وصايا عثمان» لابنه أورخان قبل وفاته بقليل ، فنذكر منها على

سبيل المثال لا الحصر : يا بني انزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير ››[١].

قلت : فهنا اتبع الأستاذ إبراهيم مصباح منهجا علميا بحق ، إذ أنه عرض أقوال المؤرخين البيزنطيين على مصادرنا التاريخية ، وعلى مرجعياتنا الثقافية الإسلامية فلما وجدها تتناقض معها أعرض عنها وأنكرها بشدة ، لذلك أتوقع أن يخوض الأستاذ إبراهيم مصباح صراعا فكريا مع كثير من الأساتذة أسأل الله أن يثبتنا وإياه على الحق .

الخلاف في وجهة النظر

المسألة الأولى

بشأن الفتوحات التي قام بها السلطان عثمان ومن بعده ابنه السلطان أورخان في الأناضول ، فقد تشابهت رؤية د.صلاح ضبيع مع رؤية الأستاذ الكبير د.محمد أنيس الذي قال : ‹‹كان الاستيلاء على نيقيه ونيقوميديا أول أعمال أورخان خليفة عثمان ، وسقوط المدن الثلاث البيزنطية في يد العثمانيين لم يكن نتيجة تفوق حربي من جانب العثمانيين ، ولم يكن نتيجة فتح عنوة بل كان مجرد تسليم من جانب البيزنطيين ، ولم يكن هذا التسليم إلا نتيجة لإحساس سكان هذه المدن بأن الهيئة الحاكمة في القسطنطينية لم تعد تهتم ببذل المساعدة لسكان هذه المدن ، فكان من الطبيعي أن يستبسلم أهلها وأن ينخرطوا في سلك العثمانيين ››[٢].

أما د.صلاح فقد ذكر أن نجاحهم في ذلك كان بسبب قيام الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس بإضعاف الدفاعات البيزنطية في أسيا[٣] ، قال د.صلاح : ‹‹ يعلق المؤرخ البيزنطي

---

(١) إبراهيم مصباح عبد القوي أحمد : السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس (ص ٧٣) .

(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٢١) .

(٣) عندما استولى اللاتين على القسطنطينية عام ١٢٠٤م تشكل ما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية في المنفي في شكل ثلاث إمارات إمارة إيبروس في شمال شرق اليونان وإمارة نيقيه في شمال غرب الأناضول وإمارة طرابيزون في شمال الأناضول على ساحل البحر الأسود ، وفي عام ١٢٦١م تمكن ميخائيل الثامن من دخول القسطنطينية وطرد اللاتين وإعادة الإمبراطورية البيزنطية إلا أنه كان يخشى من منافسية أباطرة نيقيه فعمل على إضعاف قوات الأكريتاي الموالية لنيقيه بالرغم من كونهم الدرع الشرقي للإمبراطورية.

باخيرز على ذلك قائلا : « **إن ميخائيل خوفا من قيام قوات الأكريتاي (الموالية لنيقية) بثورة ضده عمل على إضعاف حدود إمبراطوريته الآسيوية** ». وهكذا قبل اعتلاء عثمان الحكم كان الطريق ممهدا أمام العثمانيين ، وبسبب تجريد الإمبراطور ميخائيل الثامن حدوده الآسيوية ممن يقوم على الدفاع عنها . والحقيقة أنه لم يكن بوسع عثمان وابنه أرطغرل[1] اختراق الحدود البيزنطية الآسيوية لولا ما قام به ميخائيل ... وبعد سنة ١٢٧٠م زالت من الوجود قوات الأكريتاي ، ووجد العثمانيون في مواجهتهم قوات غير كافية من الجند المرتزقة مبعثرين على مساحات متباعدة بطول حدود الإمبراطورية بدلا من مواجهة سكان محليين يحاربون لحماية مزارعهم وأراضيهم »[2].

قلت : هذا ما قاله د.صلاح معتمدا على المؤرخ البيزنطي باخيرز والمؤرخ الأوروبي المعاصر بول فيتيك ، وهذا كلام فيه نظر من وجهين :

١ - لا مراء في أن انقسام البيزنطيين كان عاملا هاما في زوال دولتهم ، ولعمر الله هكذا تفنى الأمم ، فلقد زالت دولة المسلمين في الأندلس بسبب الصراعات الداخلية ، ولقد سقطت الخلافة العباسية أمام التتار لما حل بها من ضعف بسبب الانقسامات وتمرد الولاة وخروجهم عن الطاعة ، وهكذا ، فهذه سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولا شك أن انقسام البيزنطيين مهد الطريق أمام عثمان لفتح بلادهم ، فكان الصواب أن نقول أن ضعف الدفاعات الآسيوية للبيزنطيين كان عاملا مساعدا لعثمان وابنه ، ولكن أن نقول أنه لولا ضعف الدفاعات لما نجح عثمان وابنه فهذا غير صحيح ، والدليل على ذلك أن إمارة عثمان لم تكن هي الإمارة التركمانية الوحيدة في الأناضول التي تقاتل البيزنطيين ، بل إن الإمارات الأخرى التي هي أقدم من إمارة عثمان كانت تقاتلهم أيضا. كإمارة كرميان وإمارة منتشه وإمارة صاروخان وإمارة قره سي ، وقد فصل أخبار تلك المعارك الأستاذ إبراهيم مصباح في الفصل الأول من رسالته المذكورة آنفا ، وكانت هذه الإمارات تحقق انتصارات

---

(١) كذا بالأصل ويبدو أنه خطأ مطبعي والصواب ابنه أورخان .

(٢) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ٣٩) .

على البيزنطيين في كثير من المعارك ، لكنها لم تحقق الانتصارات الحاسمة كتلك التي حققتها إمارة عثمان ، بالرغم من أنهم كانوا يقاتلون في نفس الظروف التي قاتل فيها العثمانيون ، فكما أن الدفاعات البيزنطية كانت ضعيفة أمام عثمان فإنها كانت ضعيفة أيضا أمام سائر الإمارات ، ولكن الإمارة الوحيدة التي ظهرت واستعلت وعظم شأنها هي إمارة عثمان ؛ لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فنذروا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الله ونشر دين الله ، فقد كانوا يقاتلون عن عقيدة لا لمجد شخصي أو نفع مادي .

٢- إن فتوحات عثمان وأورخان رحمهما الله تعدت أمر ضعف الدفاعات ، لأن الإمبراطور أندرونيكوس الثالث قاد بنفسه حملتين في الأناضول لقتال السلطان أورخان فلم يفلح في صده ، الأولى كانت عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م في معركة بلكانون الشهيرة ، وقد جرح الإمبراطور نفسه فيها وعاد إلى القسطنطينية مهزوما ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول . والثانية كانت عام ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م فقد ذكرت المصادر البيزنطية أن السلطان أورخان حاصر أزميد (نيقوميديا) في تلك السنة ، فخرج الإمبراطور أندرونيكوس الثالث بنفسه لإنقاذ المدينة ، لكنه خشي من قتال العثمانيين فتوسل إلى السلطان أورخان أن يعقد معه صلحا فقبل السلطان منه ذلك ، فعقدت معاهدة لمدة عشرين عاما اعترف الإمبراطور بموجبها بفتوحات العثمانيين في آسيا ماعدا ألاشهر (فيلادلفيا) وبيغا ، كما تعهد بدفع جزية سنوية تقدر بمائة وعشرين ألف هيبربيرون مقابل أن يكف السلطان أورخان عن مهاجمة القلاع البيزنطية[1]. فنحن هنا بصدد فشل الإمبراطور البيزنطي نفسه في صد هجمات العثمانيين ، فالأمر أكبر من مجرد ضعف الدفاعات البيزنطية . فإن الإمبراطور لما خرج بكامل قواته لم يستطع الانتصار على السلطان أورخان .

ولعل في ذلك رد على د.محمد أنيس الذي قال عن فتح نيقيه ونيقوميديا أنه لم يكن نتيجة تفوق حربي من جانب العثمانيين !.

---

(١) إبراهيم مصباح : السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس (ص ٧٧) .

عهد السلطان مراد الأول

ويتعلق بالمسألة الثانية من مسائل الخلاف في وجهات النظر مع د.صلاح محمد ضبيع وهي بشأن تعليق د.صلاح ضبيع على حملة أماديو السادس كونت سافوي عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م في عهد السلطان مراد الأول والتي تمخضت عن استيلاء الصليبيين على جاليبولي وسيطرتهم على مضيق الدردنيل فقال د. صلاح : « وينبغي ألا ننسى أن استيلاء الصليبيين على جاليبولي أظهر حقيقة مهمة تمثلت في أنه في غضون ذلك الوقت كانت أي حملة صليبية ضخمة مثل الحملات التي كانت تأتي على بلاد الشام ومصر ، قادرة على وقف نمو العثمانيين ، بل لا نكون قد تعدينا الصواب إذا قلنا أنها كانت قادرة على طردهم من أوروبا ، كما أظهرت حقيقة أخرى تمثلت في ضعف البحرية العثمانية التي تعد السبب المباشر في استرداد مدينة جاليبولي ، ولو حدث وراقبت الدول الإيطالية المضايق في ذلك الوقت لما تمكن العثمانيون من الانتقال من آسيا إلى أوروبا»[١].

قلت : هناك فقرة من كلام د.صلاح لا خلاف عليها ، وهي المتعلقة بضعف البحرية العثمانية مقارنة بالبحرية الأوروبية في ذلك الوقت ، فهذه حقيقة لا جدال فيها ، ومعلوم أن السلطان محمد الفاتح رحمه الله هو الذي أعلى شأن البحرية وجعلها تتفوق على بحرية أوروبا ، أما الشطر المتعلق بأن أي حملة صليبية ضخمة كانت كفيلة بإخراج العثمانيين من أوروبا فهذا غير صحيح من أربعة أوجه :

١- صحيح أن حملة أماديو السادس استولت علي جاليبولي ، وصحيح أنها سيطرت علي الدردنيل ومنعت السلطان مرادا الأول من العبور بقواته من الأناضول إلى الروميلي ، وصحيح أن القوات في الروميلي أصبحت معزولة عن مركز الدولة في الأناضول ، ولكن ما هي النتائج التي ترتبت على ذلك ؟! لا شيء ! ، لأن القوات البرية الصليبية التي كانت تتكون من المجر والصرب والأفلاق والبغدان والبوصنه التي هجمت على الجنود العثمانيين

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٣٥) .

في الروميلي المعزولين عن مركز الدولة في الأناضول ، لم تستطع أن تنتصر عليهم . وقد تمكن لالا شاهين باشا وحاجي إلبيكي بعشرة آلاف مقاتل مسلم من تشتيت العدو الصليبي الذي قدر عدده بستين ألفا وقيل ثلاثين ألفا ، دون أن ينتظروا أي مدد من السلطان في الأناضول ، فاضطر الصليبيون إلى الانسحاب ، وقد ذكرنا ذلك مفصلا في الباب الأول[1] ، ففشل هذه الحملة البرية بالرغم من نجاح الصليبيين في عزل القوات العثمانية في الروميلي عن مركز الدولة في الأناضول لهو دليل على أن أقدام العثمانيين كانت راسخة في الروميلي منذ أن وطئتها أقدامهم قبل الحملة المذكورة بعشر سنوات تقريبا .

٢- بعد بضعة وعشرين عاما من تلك الحملة الصليبية ، وفي عهد السلطان مراد الأول نفسه ، جاءت حملة صليبية أخرى عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م وكانت حملة ضخمة بحق من جنس الحملات التي كانوا يرسلونها لمصر والشام ، وقد قيل أن عددها كان مائتي ألف مقاتل ، فانتصر عليهم السلطان مراد الأول في معركة قوص اوه (كوسوفو) ، ثم جاءت حملة أخرى بعدها بسبع سنوات ، في عهد السلطان يلدرم بايزيد وهى حملة نيكوبلو وكانت ضخمة جدا ، وقد نقل د.محمود الحويري عن المؤرخين الغربيين أنهم قالوا عنها : « **منذ قيام الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الحادي عشر لم تجتمع مثل هذه القوات الضخمة** » ... وقالوا عن رجالها : « **لو سقطت السماء فسوف يرفعونها بأطراف حرابهم** »[2]. وبفضل الله انتصر السلطان يلدرم بايزيد عليهم في معركة نيقوبولو عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م. فهاتان الحملتان لم تنجحا في طرد العثمانيين من أوروبا بالرغم من ضخامتها .

٣- بعد حملة نكوبولو بست سنوات تقريبا جاءت حملة تيمورلنك عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م . وانتصر فيها على الجيش العثماني بل وأسر السلطان يلدرم بايزيد وهى المرة الأولى والأخيرة التي يؤسر فيها سلطان عثماني ، وكانت تلك الحملة وبالا على الدولة إذ اجتاح جيش

---

(١) سأحيلك كثيرا فيما يلي على الباب الأول لتراجع تفاصيل الوقائع ، حتى لا أضطر إلى إعادة سرد الأحداث ، فما عليك إلا النظر في فهرس المواضيع عن رقم الصفحة في الباب الأول ، والتي تتحدث عن الواقعة التي أنت بصددها .

(٢) د.محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٧٦) .

تيمورلنك الأناضول كله حتى وصل إلى أزمير وانقسمت الدولة إلى ثلاث دويلات صغيرة دويلتين في الأناضول ودويلة في أوروبا فيما يعرف بدور الفترة . وبالرغم من ذلك لم يستطع الصليبيون إزاحة هذه الدويلة الصغيرة من أوروبا . واستمر ذلك الحال عشر سنوات كاملة حتى استطاع السلطان محمد جلبي توحيد الدولة من الجديد . ولم يترتب على هذه الحملة التيمورية طرد العثمانيين لا من الأناضول ولا من الروميلي . ومن المعروف أن حملات تيمور كانت من أعنف الحملات في التاريخ العسكري .

٤- حتى وإن قام الصليبيون بمراقبة المضايق كما رأى د.صلاح ، فلم يكن ذلك ليمنع العثمانيين من العبور من آسيا إلى أوروبا. ففي عهد السلطان أورخان دخلت إمارة قره سي التركمانية في طاعته وهى إمارة ساحلية وتمتلك بعض السفن ، معلوم أنها لا تضارع السفن البيزنطية والبندقية . ولكن عزائم بني عثمان تفل الحديد ، وتفعل كل عجيب وليس هذا بجديد على المسلمين بصفة عامة . فلو استعرضنا تاريخهم لتبين لنا أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ عبر البحر في زمن عثمان ابن عفان ﷺ وفتح قبرس عام ٢٨هـ تحت سمع وبصر الأساطيل البيزنطية . وكان هذا أول عهد للمسلمين بركوب البحر وقد قال فيهم رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا » قَالَتْ أُمُّ حَرَام : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ : « أَنْتِ فِيهِمْ » ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُم » فَقُلْتُ : أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « لَا »[1].

كما أن أول معركة بحرية للمسلمين في تاريخهم كانت ضد الأسطول البيزنطي عظيم الشأن ، ولقد انتصر فيها المسلمون انتصارا كاسحا بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح ﷺ ، واستطاع الأسطول الإسلامي أن يدمر الأسطول البيزنطي تدميرا ، كما روي أن السلطان الظاهر برقوق أرسل كتيبة من الفرسان من حلب عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م لقتال تيمورلنك فعبروا نهر الفرات بخيولهم ، بأن صنعوا قربا كبيرة ونفخوها بالهواء وربطوها تحت بطون

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٤٢) ، أبو عبد الله الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٩٩) ، الطبراني في الكبير (٢٥/ ١٣٣) ، البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٥٢) ، أبو بكر الآجري في الشريعة (٥/ ٢٤٤٠).

الخيل فحملت الخيل على صفحة ماء النهر"[1] ، لقد ظهر من المسلمين صادقي الإيمان كثيرا من العجائب على مدى تاريخهم الطويل ، لاسيما تحت حكم بني عثمان فلقد سير السلطان محمد الفاتح سبعين سفينة على اليابسة في فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، وهذا من عجائب الزمان ، ومن العجائب أيضا أن الصدر الأعظم كبرولو زاده فاضل أحمد باشا قد قضى الشتاء بكامل جيشة تحت الأرض في عامين متتاليين أمام قلعة قنديه إبان فتح جزيرة كريد الفترة من عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م ولم يرجع من كريد إلا بعد فتح تلك القلعة عام ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م وقد قدمنا ذلك تفصيلا في الباب الأول .

ما سلف كان من باب الخلاف في وجهات النظر التاريخية الذي لا يفسد للود قضية ، لأن ما ذكره د.صلاح محمد ضبيع هو رأيه الذي خلص به من دراسته للأحداث ، وحقيق علينا أن نحترم رأيه وإن اختلفنا معه ، لأن رأيه ليس من قبيل الأباطيل التي تخالف الحقائق التاريخية المعلومة أو تعارض مرجعياتنا الشرعية والثقافية الإسلامية ، بل هو مجرد خلاف في الرؤية التاريخية .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٤٦٩) انفرد ابن إياس دون غيره من المؤرخين بذكر القرب . فقد ذكر ابن قاضي شهبة في تاريخه مخطوط بمعهد المخطوطات العربية. (ميكروفيلم رقم ٩٩/ ٢) . (ج٢ ورقة ٩٩) . أنهم عبروا الفرات ولكنه يذكر شيئا عن القرب . وابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢٠٥) ذكر الواقعة دون أن يذكر عبور الفرات أصلا . وجدير بالذكر أن ابن إياس ذكر عبور الفرات باستخدام القرب بغير صيغة الجزم ((يقال)) أي أنه ليس مستيقنا من صحة الخبر والله أعلم ، لكن ليس هذا بغريب فالذي مكن السلطان محمد الفاتح من تسيير السفن على اليابسة قادر على أن يمكن فرسان السلطان برقوق من عبور الفرات بالقرب .

الفصل الثاني

السلطان يلدرم بايزيد والسلطان مراد الثاني

عهد السلطان يلدرم بايزيد

يعد السلطان يلدرم بايزيد من أكثر السلاطين الذين تعرضوا لحملات التشويه ، والسبب في ذلك أن سيفه كان شديدا على الصليبيين ، فمنذ أن تجلت شجاعته في حملة قرمان عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م وأطلق عليه لقب يلدرم أي الصاعقة أو البرق لسرعة انتقاله من الروميلي إلى الأناضول ، ثم في معركة قوص اوه مع أبيه السلطان مراد الأول ، ثم انطلق في أوروبا يفتح البلاد ويضم كثيرا من الإمارات التي كانت تنعم بحكم ذاتي تحت السيادة العثمانية إلى الحكم المباشر للدولة ، لذلك لم يسلم من افتراءات وأكاذيب المؤرخين الأوروبيين ، ولعمر الله هذا حال الفاتحين على طول تاريخ المسلمين ، فهم أكثر الناس تعرضا للسب والطعن كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان ومحمد الفاتح وسليم الأول ، وكذلك يلدرم بايزيد رحمة الله عليهم أجمعين ، فالفارس المسلم يناله من أذى اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم بقدر ما ينال سيفه من رقابهم ، ومن جملة ما تعرض له السلطان يلدرم من الطعون هو اتهامه بالشذوذ الجنسي وإدمان الخمور ، من قبل المؤرخين الغربيين القدامى والمحدثين ، وهذه المطاعن تعودنا أن تصدر من أعدائنا وقد قال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران ١٨٦] .

ولكن مما يفطر القلب ويدمي العين ، أن بعض أساتذتنا يتناولون هذه الطعون بأفواههم وتلوكها ألسنتهم ويتندرون بها في كتبهم على أنها حق لا مراء فيه ، فقد قال د.**أحمد عبد الرحيم مصطفى** : « كان بايزيد أول عاهل عثماني يحتسي الخمر على حين يذهب (كريزي ص ٣٤) إلى أن قائده المفضل علي باشا هو الذي أغرى السلطان بذلك ، فإن كثيرا من المؤرخين يعزون ذلك إلى ماريا دسبينا وحاشيتها ، بالإضافة إلى ذلك فإن بايزيد كان يمارس إحدى الآفات التي ما لبثت أن علقت بالأتراك العثمانيين من حيث العلاقات الجنسية الشاذة »[1].

قلت : لقد طعن د.أحمد عبد الرحيم ، بمطعنين على السلطان يلدرم بايزيد ، وكلاهما باطل :

---

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : أصول التاريخ العثماني (ص٥٩) . (حاشية : ١) .

أولا : مسألة شرب الخمر

علينا أن نكون على بينة من أن خلفاء وسلاطين المسلمين بمن فيهم خلفاء وسلاطين بني عثمان ليسوا معصومين من المعاصي الكبائر منها والصغائر ، فأما ما قيل عن شربه الخمر فهذا لم يثبت يقينا ، وقد ذكر بعض المؤرخين المسلمين أن ذلك وقع في فترة زمنية يسيرة من حياته ثم تاب عنها . وقيل أن ذلك كان بتأثير من ماريا وهي إحدى زوجاته وكانت صربية نصرانية أخت ملك الصرب ستيفان لازار ، وكانت بلاده تابعه للدولة العثمانية ويؤدي الجزية منذ أيام السلطان مراد الأول فيما عدا بعض القلاع ضمهن السلطان بايزيد بعد ذلك إلى حكمه المباشر ، وقد ذكر سعد الدين أفندي في تاريخه أن ملك الصرب جهز أخته الجميلة وأرسلها إلى السلطان بايزيد وأوصاها قائلا : « إذا وقع لك من السلطان قبول ، وسحره منك القد والعيون وتمكن بقلبه الشغف والجنون اطلبي لي منه القلعتين المأخوذتين من بلادي وهما سمندره وكورجنلك بأن يردهما إلى وإذ ذاك أعلم أنك عنده في مقام الحب والقبول ».

ويعتقد أن ذلك كان عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م أي بعد عامين من توليه السلطنة ، ثم ذكر سعد الدين أفندي أن السلطان بايزيد انهمك معها في الملذات وعكف على الملاهي وارتكب جميع المناهي مما لم يفعله آباؤه العظام ، وذلك لفترة قصيرة ثم أفاق بعدها ، إذ أن إهمال أمور الدولة أدى إلى تفشي الفساد وانتشار المظالم حتى اجتمع الناس عند قصر السلطان طالبين الإنصاف ، فقال سعد الدين أفندي : « اجتمع المظلومون عند باب السلطان وصاحوا بأعلى أصواتهم من جور القضاة والعمال ، فلما سمعهم السلطان تنبه من نوم غفلته وتوجه للفحص عن أمور مملكته ». وبعد أن أجرى السلطان الإصلاحات اللازمة فوجئ بحملة صليبية من البنادقة والجنوية والأسبان وغيرهم قد دخلت إلى سلانيك واستولت على مرساها . قال سعد الدين أفندي : « فلما وردت هذه الأخبار تاب واستغفر عما مضى وسلك المنهج الذي يرتضى » ، واستعاد سلانيك عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م[1].

يفهم من كلام سعد الدين أفندي أن السلطان قد يكون شرب الخمر في تلك الفترة ، وإن كان لم يصرح بذلك لكنه قد يفهم من قوله : ارتكب جميع المناهي ، كما يفهم أيضا أن ذلك كان

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣١).

شيئا عارضا في حياة السلطان لا يمكن أن يكون قد استمر لثلاث سنوات كاملة منذ زواجه من ماريا حتى استعادة سلانيك لأنه في تلك الفترة كان يتردد بين الأناضول والروميلي ويفتح الفتوحات ويحاصر القسطنطينية وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، والراجح أن ذلك كان لفترة قصيرة وتحديدا لعام واحد أو أقل من عام ، وذلك عندما عاد من حملته الأناضولية إلى الروميلي عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م . والله أعلم . ومما يؤيد ذلك أن العلماء في تلك الفترة كان لهم نفوذ كبير وكلمة مسموعة وقد وبخوا السلطان على أفعاله ، وقد نقل ذلك سعد الدين أفندي ، إذ ذكر أن بعض العلماء اجتمعوا به بعد أن سقط من على ظهر جواده في إحدى المعارك فقالوا له : « إن الذي أصابك في هذه المعركة وسقوطك إلى الأرض وحماك الله من تلك الضربة ، هو تأديب لك من رب الأرباب فتب إلى الله وانته عما نهاك ، فجزم ألا يعود فتاب واستناب واستغفر رب الأرباب ونذر صدقات وحسنات وأنشأ مدارس ومساجد وخيرات ».

ثم عاد السلطان إلى بورصه تائبا لكنه لم يسلم من تقريع علماء الأناضول له لاسيما الشيخ شمس الدين البخاري الشهير بأمير سلطان إذ قال للسلطان يلدرم : « إن هذا المسجد واسع الفناء رفيع البناء هل هو موافق لطبيعة المولى السلطان ، وهل هو عجب من حسنه وبهائه ، فأجابه السلطان وقال له : هل فيه قصور لكماله. فأجاب الشيخ وقال : من اللازم لك في جوانبه الأربع خلوات ومجالس نفيسة لتجتمع فيها مع ندمائك ومن هو موافق لك على سكراتك ، إذ ذاك يكون موافقا على طبع الملك وجلسائه ، فلما سمع السلطان هذه الكنايات والتصريحات خجل من مقالته وأطرق رأسه ، ثم قال الشيخ : إن القوم الذين بنوا مساجد الله خمروا طينها بدمع العيون وأقاموا الصلاة حتى كشف لهم عن السر المكنون ، ومع هذا قلب المؤمن بيت الله وهذه المساجد خلوات الحق وبيت سر الحليم المطلق تلوثونها بأذيال الذنوب والمعاصي ألم تعلم قوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى ﴾ إني رأيتك لهذا الوعيد ناسي (ناسيا) ولمثل هذه النصايح قلبك قاسي إلى آخره ، فلما سمع السلطان هذه النصايح والمواعظ من هذا السيد جيد الآداب رجع إلى الله وتاب وتذكر واقعة الأنكروس وما دفع عنه ربه من البؤس وصار لمسلك العبادة طائعا ولطريق الرشد والهدى طالبا »[1].

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٣٢) .

فإن قيل : أن في كلام سعد الدين أفندي تناقضا ظاهرا ، فهل تاب السلطان بايزيد عندما تجمع المظلومون عند قصره أم عندما وبخه العلماء بعد استعادة سلانيك ، أم عندما قرعه الشيخ شمس الدين البخاري .

يقال : كل هذه الأمور مجتمعة كانت السبب في توبة السلطان بايزيد ، لاسيما وأن الفترة الزمنية بين تلك الأحداث كانت متقاربة ، والتائب إلى الله غالبا ما يتأثر ببضعة مواقف ترده إلى رشده ، فالظاهر أن السلطان بايزيد عندما تجمع المظلومون أمام قصره تنبه وبدأ طريق التوبة ثم اكتملت توبته على يد الشيخ شمس الدين البخاري ، ففيما سبق دليل بالغ على مدى قوة العلماء وهيبتهم ونفوذهم ، فهؤلاء الذين قرعوا السلطان حتى أطرق برأسه أمامهم وخجل من نفسه ، لم يكونوا ليسمحوا بأن يظل سلطانهم مرتبكا للكبائر لاهيا عن أمر الدولة ، مما يدل على أن الفترة الزمنية التي قضاها السلطان في اللهو والعبث كانت قصيرة جدا لا تتعدى عاما واحدا على الأكثر كما سبق أن ذكرت .

تنبيه

هذا ما ذكره بعض المؤرخين ، منهم سعد الدين أفندي كما قدمنا ولكن كثيرا من المؤرخين المعاصرين للسلطان بايزيد لم يذكروا عنه ذلك على الإطلاق كابن قاضي شهبة وابن حجر والمقريزي . فإن قيل هؤلاء كانوا بعيدين عن عاصمة الدولة العثمانية فمن الطبيعي ألا يكون لهم اطلاع على تلك الأحوال. يقال إن أحمد بن يوسف القرماني أصله من بلاد قرمان في الأناضول وهو إن كان متأخرا عن زمن السلطان بايزيد إلا أنه أقام فترة في اصطنبول[1] ولا ريب أنه اهتم بالإطلاع على المصادر التركية ، فلم يذكر في تاريخه شيئا من ذلك ، ومع دراسة أعمال السلطان بايزيد أجد صعوبة كبيرة في تعيين تلك الفترة الزمنية التي قضاها لاهيا عن أمور الدولة منغمسا في المعاصي ، لأن أوقاته لا تخلو إما من حملة في الأناضول أو حملة في الروميلي أو حصار للقسطنطينية ، وهذا يعزز رأى المؤرخين الذي أنكروا قصة شربه الخمر وانغماسه في المعاصي واعتبروها من الأكاذيب والافتراءات والله أعلم . فإن أردنا أن نأخذ بالرواية الأخرى فلا مانع ولكن في إطارها المحدد سلفا ، أما تعميم أوقات اللهو على حياة

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٧٨) .

السلطان يلدرم بايزيد كلها فهذا اتباع للأهواء ولا يقبل عقلا ولا نقلا"(١).

ثانيا : مسألة الشذوذ الجنسي

هي التي ذكرها د.أحمد عبد الرحيم مصطفى فنقول : لم يرد مثل هذا الكلام اللقيط في المصادر الإسلامية العربية منها والتركية ، وإنما جاء في كتب المستشرقين وأذنابهم من أساتذة التاريخ المسلمين المتأخرين الذين ينقلون عنهم ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حذو القذة بالقذة ، ولم يخصوا السلطان بايزيد بهذا الطعن بل سحبوه إلى غيره من خلفائه . فبداية نقول إن كانت الشريعة الإسلامية حريصة على أعراض آحاد المسلمين وعامتهم فحرصها على أعراض سلاطين المسلمين وأئمتهم أشد . وقد أنزل الله ﷻ في سورة النور آيات بينات ليعلم المسلمين كيف يتعاملون مع مثل هذه الأمور. فقد قال تعالى : ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور ١٢ – ١٨] .

أعلم أن واحدا من هنا وآخر من هناك سينبري للرد علي قائلا هذا حجر على البحث العلمي وتقديس للشخصيات التاريخية وإدخال للدين في العلم .. الخ من الكلام الذي لا يستحق أن يرد عليه ، ولكني أقول له إن كنت تؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن كتابا وبمحمد صلى الله عليه نبيا ورسولا ، فها هو كلام ربك وها هي سنة نبيك ، وإن كنت لا تؤمن بهذا فأفصح عن نفسك وأظهر ما في قلبك وعندئذ قل ما تريد فلن نكلف أنفسنا عناء الجدال معك ، فليكن معلوما أن الحكم الوارد في الآيات ليس مختصا بأئمة المسلمين وحكامهم بل بكل مسلم أيا كانت صفته ، فلا يسوغ لأحد كائنا من كان أن يلقى التهم جزافا

---

(١) انظر رد أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك على مسألة شرب بعض السلاطين للخمر : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٩٢ – ٩٧) .

على الناس لاسيما في الأمور المتعلقة بالعرض والشرف إلا ببينة شرعية ، أما أن يخرج علينا أستاذ ليتقمم زبالة كلام المستشرقين وأباطيل أسافل المؤرخين الأوروبيين ، ويطعن في أئمة وسلاطين المسلمين ، فهذا أمر يخرج صاحبة من زمرة الباحثين المحققين ويدخله في زمرة الحاقدين والجاحدين ، ولم ينفرد السلطان بايزيد بهذا التشويه القذر بل امتد هذا الطعن إلى السلطان محمد الفاتح نفسه ، فقد ذكر كريستفورو ريشيرو الذي كان موجودا في القسطنطينية إبان فتحها على يد السلطان محمد الفاتح ، أن السلطان أمر بقتل الابن الأكبر للوزير البيزنطي لوكاس ناتاراس واستحيا ابنه الأصغر للتسرية عنه[١].

وقد رأيت صورا للسلطان سليم الأول رحمه الله منتشرة في بعض كتب التاريخ وفي أذنه قرط ، وهي صورة رسمت في العصور المتأخرة فأذاع المنافقون تهمة الشذوذ الجنسي عن السلطان سليم الأول استنادا إلى هذه الصورة ، بالرغم من أن المعروف عن السلطان سليم الأول رحمه الله الشدة والحزم حتى لقب ياووظ أي القاطع أو الرهيب ، وكان اسما على مسمى بحق ، وعندما عاد من فتح مصر فرأى ولده الأمير سليمان يرتدي ملابس مزركشة فقال له : « **يا ولدى سليمان إن كنت تلبس هكذا فماذا أبقيت لأمك** »[٢]. ولقد امتد الطعن أيضا إلى السلطان مراد الرابع واتهموه بأنه كان ممن يقضون الصيف مع النساء والشتاء مع الغلمان الذكور ، وقد أنكر ذلك أحمد آق كوندز وأطنب في رده[٣]، ولو سألنا أنفسنا ماهو القاسم المشترك الأكبر بين هؤلاء السلاطين العظام لوجدنا أنهم كانوا أشد وطأة على الصليبيين من غيرهم من سائر السلاطين . فهذا دأب الغربيين عندما يعجزون عن المجادلة بالحجة والبرهان ثم يهابون المقارعة بالسيف والسنان ، يلجئون إلى الطعن بالزور والبهتان .

من الواضح أن كل هذه الافتراءات أطلقها المؤرخون الأوروبيون للتنفيس عن أحقادهم ، وكما قلت ليس هذا بالأمر الجديد عليهم فقد دأبوا على ذلك منذ فجر الإسلام ، ولكنهم في مسألة الشذوذ الجنسي تلك قاموا بترويج شبهة وبتحريف الكلام الوارد في بعض مصادرنا

---

(١) كريستوفورو ريشيرو : الاستيلاء على القسطنطينية في يوم التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٣٢٢) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٣٣) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٦٣) .

الإسلامية ، ككتاب « قابوس نامه » الذي يرجع إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، وقد ترجم من الفارسية إلى التركية في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي في عهد السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح ، وهو يحتوي على نصائح للسلاطين ، وأصل الشبهة في هذا الكتاب كلمة (أوغلان) والتي تعني في اللغة التركية الغلمان ذكورا كانوا أم إناثا ، ولكن هذه الكلمة في العصر الحديث أصبحت مقصورة على الشباب الذكور فقط دون الإناث ، فاستغل المستشرقون ذلك التطور في اللغة وقرؤوا كلمة أوغلان الواردة في كتاب قابوس نامه الذي ترجم في القرن التاسع الهجري وفقا لمعناها في العصور المتأخرة ، وقد جاء فيه : « إذا أردت الصحة والسعادة فعليك بالنساء إذا جاء الصيف ، وعليك بالغلمان (أوغلان) إذا جاء الشتاء ».

فهنا ينصح المؤلف السلاطين بأن يكونوا مع النساء في الصيف ومع الفتيات في الشتاء سواء من أزواجهم أم مما ملكت أيمانهم ، ففي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان لفظ (أوغلان) يطلق على الإناث كما يطلق على الذكور ولا يوجد لفظ آخر ، والدليل على ذلك أن العالم التركي مصطفى ضريري الذي عاش في القرن الثامن الهجري ترجم حديث رسول الله ﷺ : « **تزوجوا الودود الولود ...** ». مستخدما لفظة (أوغلان) ؛ لأنه لا يوجد في اللغة التركية آنذاك غير هذا اللفظ للدلالة على الفتيات . فمما لا ريب فيه أن لفظة أوغلان الواردة في كتاب قابوس نامه تعني الفتيات الشابات ، فحرف المستشرقون الكلم عن مواضعه ، وأولوه وفقا لمعنى اللفظة في العصر الحديث ، وروجوا لهذه الشبهة لتشويه هؤلاء الرجال العظام ، وتبعهم أذنابهم من المفتونين بهم ، ممن رضوا بأن يكونوا عبيدا للثقافة الغربية ، ولاكوا أعراض السلاطين بألسنتهم ولم يكلفوا أنفسهم البحث والتحري . ولو نظرنا إلى الأمر من جهة أخرى ، لتبين لنا أنه كان لعلماء الدين في ذلك الزمان ، نفوذ كبير وسطوة ومهابة ، وكان السلاطين أنفسهم يهابون العلماء ويقدرون مكانتهم . ومثال ذلك إضافة إلى ما ذكرناه آنفا عن موقف العلماء من السلطان بايزيد ، نضيف موقفا آخر كان لنفس السلطان مع الشيخ شمس الدين محمد الفناري الذي كان متوليا للقضاء ، فإن السلطان شهد عنده في قضية فلم يقبل الشيخ شهادته لأنه لم يكن يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد ، فقد قال صاحب

الشقائق النعمانية طاش كوبري زاده : « شهد السلطان المذكور (بايزيد) عنده يوما بقضية فرد شهادته ، فسأله عن سبب رده فقال إنك تارك للجماعة فبنى السلطان قدام قصره جامعا وعين لنفسه فيه موضعا ولم يترك الجماعة بعد ذلك »[١]. فلا يظن أنه في زمن كان يتمتع العلماء فيه بالقدرة على توبيخ وتقريع السلطان كما ذكرنا عن المولى شمس الدين البخاري ، بل ورد شهادته كما فعل المولى الفناري لا لشيء سوى لأنه لا يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد - كحال أغلب المسلمين اليوم إلا من رحم ربي - ثم يسكتون على ارتكابه هذه الفاحشة العظيمة ! ، فحقيق على كل أستاذ نقل هذه الطعون في كتابه أن يتبرأ منها ويعترف بذنبه وإلا فإنه يكون قد رضي لنفسه أن يكون ذنبا للمؤرخين الأوروبيين وبوقا للمستشرقين الحاقدين .

ثالثا : مسألة تأثره بالعناصر النصرانية

زعم بعض أساتذة التاريخ أن السلطان بايزيد الأول (يلدرم) قد تأثر بالعناصر النصرانية التي جمعها حوله ، وأن ذلك التأثير وصل إلى حد أنهم جعلوه يتحول من قتال الأمم النصرانية في أوروبا إلى قتال المسلمين من التركمان في الأناضول. فقد قال د.**أحمد عبد الرحيم مصطفى** تعليقا على حملة السلطان بايزيد الأناضولة الأولى في العام الأول من سلطنته ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م : « وبتأثير من العناصر المسيحية في البلاط حول بايزيد أنظاره إلى الشرق طيلة ما تبقى من حكمه ، متخليا بذلك عن تقاليد الغزاة التي سار عليها أسلافه ، فما أن نمت إليه أنباء الهجوم الذي شنه أمير قرمان على أملاكه في الأناضول حتى اكتسح إمارات آسيا الصغرى فضم صاروخان وآيدن ومنتشا ... » . **وقال أيضا** : « حثه مستشاروه مسيحيو الأصل على ترك أوروبا وشأنها حتى يحرموا أعيان التركمان من الفتوحات والثروات الجديدة ، وشجعوه على التوجه إلى الأناضول لاستكمال القضاء على الإمارات التركمانية »[٢].

قلت : لم يفصح د. **أحمد عبد الرحيم مصطفى** ، عن المصدر الأوروبي الذي نقل عنه هذا الكلام ، ولكن د.محمود الحويري نقل نفس ذلك الكلام تقريبا في كتابه وأسنده إلى المؤرخ الأمريكي ستانفورد شو ، فقد قال د.الحويري : « وبتأثير من العناصر المسيحية الموجودة في

---

(١) أحمد بن مصطفى طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٩) .

(٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥١ ، ٥٥) .

بلاط بايزيد حول بايزيد انتباهه إلى الشرق طيلة حكمه وتخلى بصورة كبيرة عن تقاليد الغزاة المجاهدين التى اتبعها أسلافه ... » .. ثم قال د.الحويري نقلا عن ستانفورد شو وكريزي : « بزواج بايزيد من ماريا دسبينا أخت ستيفن (ملك الصرب) الأمر الذي أدى إلى تدفق جديد للمستشارين المسيحيين في البلاط العثماني وزيادة النفوذ البيزنطي والمسيحي في السنوات القليلة القادمة » ..ثم قال أيضا تعليقا على سياسة السلطان محمد جلبي بن بايزيد ، ونقلا عن ستانفورد شو أيضا : « إن محمدا حرص على إبعاد التأثيرات البيزنطية والمسيحية في بلاطه التي جعلت أباه بايزيد يتخلى عن دور الغزاة ، فقام بطرد النساء البيزنطيات والمستشارين البيزنطيين من القصر »[1].

فإن كان د.أحمد عبد الرحيم مصطفى قد أخفي علينا المصدر التي نقل عنه فإن د.محمود الحويري قد أفصح عنه ، فعلمنا من أين ينقل د.أحمد عبد الرحيم ، ثم تبين لي أن المؤرخ الأمريكي بيتر شوجر ذكر نفس الكلام تقريبا فقد قال : « اضطر بايزيد الذي كان حفيدا لأميرة مسيحية وابنا لأخرى وزوجا لثالثة أن يقاتل أمراء الأناضول الأتراك هؤلاء لمدة ثلاث سنوات » ... وقال أيضا : « لقد اتهمت هاتان المجموعتان (الغازي والعائلات التركية) بايزيد ليس فقط بالتخلي عن تقاليد الغازي ، بل بأنه أصبح مسلما فاسقا لأنه كان قد أصبح خاضعا للتأثير المسيحي المتمثل في أمه وزوجته وأصدقائه الأوروبيين»[2].

هكذا تبين لنا أن كلا من ستانفورد شو وبيتر شجر هما أصل هذه الدعاوى . وقبل أن أفندها أود أن أذكر أن ستانفورد شو هذا هو أحد أساطين الاستشراق في القرن العشرين ، وهو يهودي أمريكي يعمل أستاذا للتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا . وقد أمضى عشرين عاما في تركيا ، وله مجموعة من المؤلفات . وقد حصل على منح سخية من مؤسسة روكفلر ومؤسسة جوجنهايم[3] وهما من المؤسسات الصهيونية كما هو معلوم للقاصي والداني ، أما بيتر شوجر فهو أستاذ أمريكي أيضا ، وكان أحد أستاذين أشرفا على إخراج سلسلة

---

(١) د.محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٦٦ ، ٦٧ ، ١٠٢) .

(٢) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٣٦ ، ٣٨) .

(٣) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٧٥) .

دراسات عن تاريخ شرق أوروبا ، وقد حصل على منح من مؤسسة جوجنهايم أيضا كما ذكر هو عن نفسه في مقدمة كتابه(١).

بصرف النظر عن كونهما قد حصلا على منح من جهات صهيونية من عدمه ، فأنهما قد ذكرا دعوى باطلة ، وهذا أمر تعودنا عليه من المستشرقين ، ولكن الطامة الكبرى أن ينقل أساتذتنا عنهما دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتحري ، فأقول والله المستعان وعليه التكلان ، إن هذا الكلام التي كتبه المؤرخان الغربيان والذي نقله الأستاذان العربيان ، كلام باطل لا يسوي الحبر الذي كتب به وذلك من خمسة أوجه .

الأول : من هي العناصر النصرانية التي زعمتم أنها كانت تحيط بالسلطان بايزيد؟ ، إذ يفهم من كلامكما أنكما تعنيان أشخاصا آخرين بخلاف زوجته ماريا لأنكم أكثرتم من قول « المستشارون المسيحيون » ، « العناصر المسيحية » فهلا سميتم لنا واحدا من هؤلاء المستشارين المزعومين ؟! فدعواكم هذه لم تقيموا أي دليل عليها ، وكل دعوى مجردة عن دليل حقيق ألا يلتفت إليها .

الثاني : السبب الذي حمل السلطان بايزيد على قتال الإمارات التركمانية في الأناضول لم يكن تأثير العناصر النصرانية كما زعمتم ، بل العصيان الذي أبداه بعضهم ، والدعم الذي قدمه الآخرون لهؤلاء العصاة ، فقد ذكرنا أن صاحب إمارة حميد قد تنازل للسلطان مراد الأول والد السلطان بايزيد عن خمس قلاع ودخل في تبعية الدولة العثمانية ، كما ذكرنا أن علي بن قرمان تزوج ابنة السلطان مراد الأول وهي أخت السلطان بايزيد وأصبح حليفا للدولة ، وبالرغم من ذلك تمردا على السلطان مراد الأول فقاتلهم وانتصر عليهم ثم عفا عنهم ، ثم لما قتل السلطان مراد الأول في قوص أوه وتولى السلطان بايزيد السلطنة وعزم على التوسع في الروميلي على حساب المهالك النصرانية وأرسل تيمورطاش باشا لضبط بلاد الصرب وأرسل يغيت باشا لفتح أوسكوب وأرسل فيروز بك إلى بلاد الأفلاق ، وبينما يتابع السلطان بايزيد فتوحاته قام علي بن قرمان بإغواء صاحب حميد وانضم إليهما أمراء آيدن ومنتشه وصاروخان وهجموا على العاصمة العثمانية بورصه ونهبوها ، فاضطر السلطان إلى العودة إلى الأناضول

---

(١) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ١٣ ، ١٤).

لمعاقبة صاحب حميد على عصيانه ، وعلي بن قرمان على نقضه للعهد ، وسائر الأمراء التركمان على ما قدموه من دعم لهما ، وينبغي أن نتنبه إلى أن ذلك العصيان كان الثاني من نوعه على الدولة ، فأدرك السلطان بايزيد حينئذ أنه من العبث أن يدع هذه الإمارات على حالها ، ليعاودوا التمرد والعصيان كلما سنحت لهم الفرصة ، مما يهدد وضع الدولة في الروميلي ويعيق سير الفتوحات في أوروبا. فقام بضم هذه الإمارات إلى الحكم المباشر للدولة ، فضم إمارة آيدن كلها صلحا دون قتال ، إلا أزمير أبقاها لصاحبها بشرط التبعية للدولة ، كما ضم منتشه وصاروخان صلحا ، ثم توجه إلى قونيه عاصمة بلاد قرمان ، فهرب منها علي بن قرمان فحاصرها السلطان إلى أن سلمت له ، وفي الواقع فإن تلك الحملة لم يحدث فيها قتال يذكر، وهذا كله مذكور في المصادر الإسلامية العربية والتركية وقد قدمنا ذكره مفصلا في الباب الأول ، وعلى هذا فإن توحيد جبهة الأناضول التي هي مهد الدولة العثمانية كان هو الباعث على حملة السلطان بايزيد تلك ، وليس تأثير من زعمتم أنهم مستشارون نصارى .

الثالث : أعمال السلطان بايزيد نفسها تكذب الادعاء بأنه كان خاضعا لتأثير العناصر النصرانية. ومنها :

١- أنه توسع في أوروبا حتى أدخل كثيرا من حكامها في تبعيته ودعاهم كلهم إلى اجتماع سيريس ليؤكد سطوته عليهم فجاؤوه خاضعين ، كالإمبراطور البيزنطي مانويل وأخوه ثيودور حاكم الموره وستيفن ملك الصرب ويوحنا السابع وقسطنطين دراجاس وبولوص ممانوس أمير بيدامنوس .

٢- أن السلطان بايزيد حاصر القسطنطينية مرتين وقيل ثلاث ، وكاد أن يفتحها في المرة الأخيره لولا أنه اضطر لرفع الحصار عنها للتصدي لتيمورلنك .

٣- أنه بعد انتصارة على حملة نيقوبولو الصليبية أعلن السلطان بايزيد أنه سيفتح معقل النصرانية في روما ، وأنه سيطعم فرسه في مذبح كنيسة القديس بطرس (كنيسة روما) فهل هذه أقوال وأفعال رجل كان متأثرا بالعناصر النصرانية ؟!. والعجيب أن د.أحمد عبد الرحيم مصطفى نفسه قد ذكر تلك المقولة عن السلطان بايزيد(١).

---

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٤) .

الرابع : أن أفعال الأوروبيين أنفسهم لا توحي أبدا بأنهم شعروا أن السلطان بايزيد يلدرم كان خاضعا لنفوذ العناصر النصرانية في بلاطه ، بدليل أنهم أرسلوا عليه حملتين ، الأولى في سلانيك ففشلت فأتبعوها بأخرى في نيقوبولو وكانت حملة ضخمة جدا كما سبق أن ذكرنا في الباب الأول .

الخامس : ما ذكره بيتر شوجر من أن السلطان بايزيد الأول كان حفيدا لمسيحية وابنا لمسيحية فهذا باطل أيضا ، فما كانت جدته نصرانية ولا أمه . فأما جدته فهي نيلوفر خاتون زوج السلطان أورخان بن عثمان رحمه الله ، وكان أصلها نصرانيا وهي ابنة صاحب قلعة بيلجك ، وقد أسرت يوم فتح القلعة ، ثم دخلت في الإسلام على يد السلطان عثمان نفسه فزوجها لابنه ، وحسن إسلامها جدا وهي من الشخصيات المحبوبة في التاريخ العثماني ، وقد قال عنها سعد الدين أفندي : «أسلمت وسميت نيلوفر خاتون وزوجها من ابنه أورخان وحسن إسلامها ، وطهر الله باطنها وظاهرها من لوث الشرك ، وولد له منها ابناه سليمان باشا والسلطان مراد ، وكانت صاحبة خيرات وحسنات فمن حسناتها بناؤها للقنطرة التي على نهر بورصه المعروف اليوم بنهر نيلوفر ، ومنها المسجد الذي داخل حصار بورصه (قلعة بورصه) المعروف بجامع دار الضرب ، ولها صدقات وعمارات كثيرة وخيرات جارية »[1].

وأما أمه فهي « كل جيجك خاتون »[2] ويبدو من اسمها أنه مسلمة ، ولا أعلم إن كانت من أصل نصراني أم لا ، المهم أنها أسلمت ولايعيبها ولا يقدح في إيمان ابنها أنها كانت من أصل نصراني ، فنيلوفر خاتون المذكورة آنفا كانت من أصل نصراني وأنجبت لنا سليمان باشا الذي عبر إلى الروميلي ، وهو أول قائد مسلم تطأ قدمه أرض أوروبا الشرقية فاتحا ، كما أنجبت لنا السلطان مراد الأول الذي امتدت فتوحاته في بلاد الصرب والبلغار والبوصنه ، ثم إن ذلك العصر كان عصر فتوحات ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، فمن الطبيعي أن تجد كثيرا منهم من أصول غير مسلمة ، وكتب التاريخ طافحة بأمثال هؤلاء ، نذكر منهم كوسه ميخال المعروف عن الأوروبيين ميخائيل أوكسيجينوتس ، وهو الذي كان أميرا

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٧) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٧٠) .

بيزنطيا وحاكم « خرمنجق » فأسلم على يد السلطان عثمان الأول رحمه الله وحسن أسلامه وجاهد في سبيل الله[١]، وزاجان باشا (زاجانوس) وهو من أصل ألباني وقد ولد نصرانيا كما يبدو من اسمه. وكان الوزير الثاني للسلطان محمد الفاتح رحمه الله ، وكان يحرض السلطان على تشديد الحصار على القسطنطينية حتى تفتح في الوقت الذي أشار فيه بعض الناس عليه برفع الحصار والاكتفاء بالجزية من الإمبراطور[٢]، ومنهم أيضا محمود باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الفاتح وهو مسلم من أصل صربي[٣] ، ولم يمنعه ذلك من فتح بلاد الصرب نفسها ، فقد أرسله السلطان لفتح سمندره ففتحها عام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م. فألحق السلطان بلاد الصرب بالحكم المباشر للدولة بعد أن كانت ولاية تابعة .

وبناء على ذلك فإن هذه الفتوحات هي فتوحات إسلامية وليست فتوحات تركية ، كما أن الفتوحات في صدر الإسلام لم تكن فتوحات عربية بل كانت فتوحات إسلامية صنعها المسلمون من عرب وعجم وبربر ، أم أنكم تظنون أن الذين فتحوا الهند وبلاد ما وراء النهر وإفريقية كانوا عربا؟! فمن أين للعرب بهذه الأعداد التي تصنع جيوشا جرارة تنتشر شرقا وغربا ، لعمر الله فإن فتح الأندلس كان على يد البربر ، فإن قائد ذلك الفتح طارق بن زياد لم يكن عربيا كما هو معلوم بل كان بربريا ، والجيش الذي عبر به البحر وفتح به الأندلس كان أكثره من البربر وأقله من العرب ، كما ذكره ابن الأثير وغيره ، وقد قدر ابن خلدون أن عدد البربر في جيش طارق بن زياد ، كان نحوا من عشرة آلاف رجل ، بينما كان عدد العرب ثلاثمائة رجل[٤] ، ونظائر ذلك في تاريخ المسلمين أكثر من أن يحصي .

هذه المفاهيم يفترض أنها متأصلة في قلوب المسلمين عامتهم وخاصتهم ، ولا يضرنا إن

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٨) ، د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ٥١) .

(٢) جياكومو تيد الدي : الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الإمبراطور التركي ، ليوناردو الخيوسي : تقرير إلى نيقولا الخامس عن سقوط القسطنطينية ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٠٨ ، ١٦٠) .

(٣) الميرالاى إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥١٣) .

(٤) عز الدين علي بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ (٤/ ٣٩) ، ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (٤/ ١٥٠) .

فهمها الغربيون أم لم يفهموها . فبيتر شوجر هذا ، إن بلغت بنا السذاجة إلى أن نفترض حسن نيته ، وأنه إنما قال ما قاله جهلا منه بحقيقة الحال ، فمن المؤسف جدا أن نرى أكابر أساتذة التاريخ من المسلمين يتبعون هؤلاء ويقتفون هذا الأثر ويضربون على نفس الوتر ، حتى بلغ الأمر أن عرض د.أحمد عبد الرحيم مصطفى بأم السلطان بايزيد قائلا : « فإن بايزيد وهو ابن سيدة يونانية كان مرشح العناصر حديثة العهد بالإسلام بعد أن تخلت عن دينها المسيحي »[1].

ويتبعه د.الحويري فيقول : « أما بايزيد فهو ابن سيدة يونانية وكان يمثل العناصر المسيحية التي اعتنقت الإسلام حديثا »[2].

قلت : ما بالكم تقولون ابن اليونانية ؟! وأي عيب في ذلك ، ألم تعلموا أن أمير المؤمنين يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (ت ١٢٦هـ) كانت أمه فارسية الأصل وهي شاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد الثالث كسرى الفرس ، وقد سباها قتيبة بن مسلم وأرسلها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فولدت منه ابنيه يزيد وإبراهيم وكلاهما ولي الخلافة ، وألم تعلموا أن زين العابدين علي بن الحسين سبط رسول الله ﷺ كانت أمه فارسية أيضا وهي ابنه يزدجرد كسرى الفرس[3]. فالأول والثاني توليا خلافة المسلمين وأما الثالث زين العابدين فهو أحد أكابر علماء وعباد عصره ، فلو قال أحد عن أي منهما « ابن الفارسية » لعد ذلك من سوء الأدب ، وخلاصة القول أنه هكذا تكون الأحوال في عصور الفتوحات ، فلا تسمحوا لأحد أن يلبس عليكم أويخدعكم بكلام باطل .

وجدت شبهة أخرى بثها بيتر شوجر ، لم أجدها في أي كتاب من كتب أساتذة التاريخ ، ولكني رأيت أن أفندها قبل أن ينقلها أحدهم ، من باب أن الوقاية خير من العلاج . إذ زعم شوجر أن السلطان بايزيد كان من دعاة وحدة الأديان وأنه عمل توليفة بين العقائد المختلفة ، فقد قال : « إن العقيدة التوليفية التي تقوم على الانتقاء والاصطفاء والتوفيق بين مختلف العقائد التي كان بايزيد يدين بها ، يمكن إدراكها من واقع الأسماء التي اختارها لأبنائه الأربعة

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٠) .
(٢) د.محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٦٦) .
(٣) شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٥ ، ٤/ ٣٨٦) .

الذين اشتركوا في تلك الحرب الأهلية ، فسليمان وهو الأكبر سولومون في العهد القديم ، والابن الثاني اسمه موسى والثالث اسمه عيسى والرابع محمد ، أحب الأسماء عند المسلمين »[١].

قلت : لقد اعتاد المسلمون منذ فجر الإسلام أن يسموا أبناءهم بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأن الأنبياء عند المسلمين لا يمثلون أديانا مختلفة بل دينهم جميعا الإسلام قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠-١٣٣]

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤]

وقال تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] . وقد أمرنا الله ألا نفرق بين أحد من رسله فقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

لذلك فإن المسلم يسمى أبناءه بأسماء أحب الخلق إلى الله تعالى ، وليس هذا أمر ابتدعه السلطان بايزيد يلدرم ، بل سبقه إليه صاحب رسول الله ﷺ طلحة بين عبيد الله ﷺ وهو أحد السابقين الأولين وأحد العشرة المبشرين . وأسماء أبنائه إبراهيم ويعقوب وزكريا ويحيى وموسى وعيسى ومحمد[٢]. ونذكر أيضا أن عقبة بن أبي عياش الأسدي سمى أبناءه إبراهيم وموسى وعيسى . وموسى هو صاحب كتاب المغازي الشهير ت ١٤١هـ[٣]، ونذكر أيضا السلطان الملك العادل محمد بن أيوب أخا السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب ، فقد سمى أبناءه موسى وعيسى ومحمدا ، وهم المعظم عيسى بن العادل محمد صاحب دمشق ،

---

(١) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٤٠) .

(٢) شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٢/ ٤١ ، ٣/ ٧٠) ، شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦٤ ، ٣٦٥) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : تقريب التهذيب (١/ ٦٢ ، ٢/ ١١٣ ، ٢٢٦) .

والأشرف موسى بن العادل محمد صاحب الرها والموصل وخلاط وسنجار وغالب إقليم الجزيرة ، والملك الكامل محمد بن العادل محمد صاحب مصر(١). تلك أمثلة من عهود مختلفة في تاريخ الإسلام ولا يظن بكل هؤلاء أنهم كانوا من دعاة التوليفة بين الأديان .!! فلا يقعن أحدكم في هذه الشبهة .

رابعا : مسألة الاستعانة بالنصارى على قتال المسلمين .

جاء في المصادر والمراجع الأوروبية أن السلطان بايزيد كان يستعين بأمراء النصارى على قتال أمراء التركمان في الأناضول ، وأن جيشه الذي قاده في حملتيه الأناضوليتين كان يضم عناصر بيزنطية وصربية .

قال د.محمد أنيس : « وكان من مظاهر هذه الصداقة بين ستيفن (ملك الصرب) وبايزيد ، أن رد بايزيد إلى ستيفن كل الميزات والحقوق التي كان يتمتع بها لازار (أبوه) كملك على الصرب . كما وعده بمنح الصرب نصف الغنيمة التي تخرج بها كل من الدولتين من حربهما المنتظرة في آسيا الصغرى (الأناضول) ، كما وافق ستيفن على أن يقوم بدفع جزية سنوية لبايزيد وأن يتولى بنفسه قيادة فرقة من فرق الجيش العثماني »(٢).

قال د.عمر عبد العزيز : « استباح العثمانيون لأنفسهم مقاتلة إخوانهم في الدين (الأتراك السلاجقة) والاستعانة على محاربتهم بعناصر مسيحية »(٣).

قال د.أحمد فؤاد متولي : « ولكن السلطان بايزيد عزم على القضاء على الأمراء المتمردين وتم له ذلك بمساعدة فرق بلقانية »(٤).

قال د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : « وقرب كوتاهية واجه (بايزيد) جيوش القرمانيين بجيشه وجيوش أتباعة من المسيحيين (البيزنطيين والصربيين والبلغار والولاش »(٥).

قالت د.زبيدة عطا : « وأصبحت سيطرة الأتراك أمرا معترفا به وأجبر مانويل على أن

---

(١) شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٢٠ -١٢٧) .
(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٣٥) .
(٣) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٠) .
(٤) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧١) .
(٥) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٢) .

يصحب السلطان في جميع غزواته ، لا تلك التي تهاجم أراضي سلجوقية فقط ، بل أجبر على الاشتراك في محاصرة فلادلفيا آخر معقل بيزنطي في آسيا »[1].

قال د.محمود الحويري : « أسرع بايزيد إلى آسيا الصغرى لمحاربة علاء الدين صاحب قرمان بجيش يتألف أساسا من القوات التابعة من المسيحيين البيزنطيين والصربيين وغيرهم »[2].

قال د.صلاح هريدي : « وانتقل بايزيد الأول إلى بورصه وحشد جيشا ، ولعبت القوى المسيحية الإضافية دورا مهما حيث ساعده مانويل الثاني الباليولوجي وجان السابع الباليولوجي وستيفان لازاريفيتش على رأس وحدة صربية » . وقال أيضا : « كما أن بايزيد قد اضطر إلى تكليف الإنكشارية وتابعيه المسيحيين بمعظم حملاته الأناضولية »[3].

قلت : هؤلاء سبعة من أكابر الأساتذة يجمعون على أن السلطان بايزيد استعان بالنصارى الأوروبيين على قتال التركمان المسلمين في الأناضول. والرد على ذلك من سبعة أوجه :

الأول : أن ذلك لم يذكر في مصادرنا الإسلامية العربية والتركية . فالمؤرخان التركيان سعد الدين أفندي وأحمد بن يوسف القرماني لم يذكرا شيئا من ذلك . وكذلك المؤرخون العرب الذين عاصروا الأحداث كابن حجر العسقلاني والمقريزي وابن قاضي شهبة . ومن جاء بعدهم كمرعي بن يوسف الكرمي ، وابن أبي السرور البكري ، وإبراهيم بن عامر العبيدي . فكتب كل هؤلاء تخلو تماما من أي ذكر لذلك الأمر . كما أن المؤرخين المتأخرين لم يذكروا شيئا من ذلك كمحمد فريد بك والميرالاي إسماعيل سرهنك وإبراهيم بك حليم . وهم الذين اطلعوا على المصادر التركية لاسيما إبراهيم بك الذي صرح في مقدمة كتابه أنه اعتمد على المصادر التركية وقال : « ثم أذكر من يتذكر أن التواريخ الإفرنكية لها صبغة خصوصية ، فيما ينسب للإسلام وللدولة العلية حتى الآن . فمن يجد فيها ما يخالف المدون بهذا الكتاب من الوقائع ، فليعتبره من هذا القبيل ، حيث أن أصحاب التواريخ التركية على اختلاف أوقاتهم لم يقصدوا خلاف ضبط الوقائع الرسمية ، وهم أدرى بها في بيوتهم »[4].

---

(١) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٧٣) .

(٢) د.محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٦٩) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٤٩ ، ٥٦) .

(٤) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٥) .

ثم بدا لي شيء آخر وهو أن أستاذ اللغة التركية د.أحمد فؤاد متولي الذي رجع إلى جميع المصادر التركية تقريبا ،كما هو مبين في قائمة المصادر والمراجع التي ختم بها كتابه ، حينما ذكر وجود عناصر نصرانية في حملتي السلطان بايزيد الأناضوليتين أسند ذلك إلى مرجع معاصر وهو كتاب « العرب والعثمانيون » تأليف د.عبد الكريم رافق ، فلو كان د.أحمد فؤاد متولي وجد لذلك ذكرا في المصادر التركية التي رجع إليها لأثبت ذلك ، ولم يكن في حاجة إلى الرجوع إلى المرجع المتأخر .. الخلاصة ، أن أساتذة التاريخ أثبتوا الواقعة نقلا عن المراجع الغربية بطبيعة الحال ، وأثبتوها كما لو كانت من المسلمات ، ولم يتفضلوا بالإجابة على السؤال الذي يطرح نفسه. لماذا أغفلت المصادر التركية والعربية جميعها ذكر هذه الواقعة ؟! .

الثاني : لو سلمنا لكم يا أساتذة التاريخ بما ذكره الأوروبيون في مصادرهم ومراجعهم فعلينا أن نأخذ الأمر في إطاره الذي ذكروه ، فوفقا للمصادر البيزنطية التي تحبونها وتثقون بها ، فإن مانويل الثاني الذي كان ابنا للإمبراطور حنا الخامس آنذاك ، قد انضم إلى جيش السلطان بايزيد على رأس مائة جندي فقط ، في حملته الأولى ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م . وفقا لما ذكره ميخائيل دوكاس المؤرخ البيزنطي الشهير[1]. فإن كان الإمبراطور البيزنطي بما له من مكانة ، قد أرسل مائة جندي فقط ، فلا يعقل أن يكون حاكم الموره جان السابع ابن الإمبراطور أيضا قد أرسل أكثر من ذلك ، والسؤال الذي يطرح نفسه ، هل كان جيش السلطان بايزيد الذي اكتسح جيوش أوروبا ، يعوزه هؤلاء الجنود المائة أو المائتان أو الثلاثمائة ؟! فإن كان الإستعانة بالنصارى قد ذكر في المصادر البيزنطية وأردتم أن تأخذوا به يا أساتذة التاريخ ، فعليكم أن تضعوه في إطاره ، دون تهويل أو تشنيع ، لكننا رأينا للأسف د.أحمد عبد الرحيم يتحدث عن « جيوش بيزنطية وصربية » ، ود.الحويري يتحث عن جيش بايزيد بأنه « يتألف أساسا من البيزنطيين والصربيين » ، ود.صلاح هريدى يتحدث عن « الدور الهام الذي لعبته القوات المسيحية » ، ولو حكمنا عقولنا لعلمنا أنه من المستحيل أن يعتمد السلطان بايزيد في قتال التركمان على تلك القوات الأوروبية الهزيلة التي دحرت لسنوات عديدة أمام الأتراك ، وتجرعت من كأس الهزيمة أصنافا ورأت من أنواع القهر ألوانا ، حتى أضحت الهزيمة لها شعارا .

---

(١) د.صلاح ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٥٩) .

الثالث : لو أخذنا بما ذكرته المصادر البيزنطية من مشاركة مانويل الثاني ويوحنا السابع ابني الإمبراطور البيزنطي في تلك الحملة الأناضولية ، فما هي طبيعة المهام التي كلفا بها ؟! فقد ذكرت مصادرهم أن السلطان بايزيد قد أرسل ابني الإمبراطور للاستيلاء على فيلادلفيا (ألاشهر) وهي آخر معقل بيزنطي في آسيا، أي أن السلطان بايزيد استخدم البيزنطيين لقتال البيزنطيين[1]، وقد كان هذا في منتهى الدهاء والحكمة منه رحمه الله ، لأنه يوهن من عزائم الحامية البيزنطية التي تدافع عن فيلادليفا حينما يرون ابني الإمبراطور أمامهم يقاتلانهم لحساب المسلمين ، ولو افترضنا أن ابني الإمبراطور رافقا السلطان في سائر الحملة الأولى ضد الإمارات التركمانية ، فإنه لم يقع قتال فيها قط مع التركمان ، إذ أن الأمراء التركمان ما أن علموا بمجيء السلطان على رأس جيشه ، فمنهم من هرب ومنهم من استسلم ، حتى أن على ابن قرمان نفسه هرب ، فحاصر السلطان عاصمته قونيه حتى سلمت بالأمان فتبعتها سائر القلاع وقد ذكرنا ذلك مفصلا في الباب الأول ، وعلى هذا فلم يشهر نصراني سيفه في وجه مسلم أبدا في تلك المعارك .

الرابع : تحدث بعض الأساتذة عن علاقات تحالف وصداقة بين السلطان بايزيد والأمراء النصارى ، وكما هو معلوم ليس الأمر من الصداقة والتحالف في شيء ، بل هي علاقات تبعية وأنهم كانوا يذهبون إلى حيث يوجههم السلطان بايزيد بالأمر وليس بالصداقة أو التحالف ، والمصادر الأوروبية نفسها تؤكد ذلك ، حتى أن مؤرخا بيزنطيا مجهولا كان معاصرا للأحداث قال في حولياته : « وهكذا فإن اثنين من المتنافسين على العرش البيزنطي صاروا وقتئذ كالأقنان في معسكر السلطان بايزيد »...وقال المؤرخ الإنجليزي جيبونز : « هكذا أمسك السلطان بايزيد بكأس الإذلال إلى شفتي الإمبراطور يوحنا الخامس حتى تجرع آخر الرواسب المرة »[2].

الخامس : في الحملة الأناضولية الثانية للسلطان بايزيد يلدرم عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م . والتي

---

(١) د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٦١)

(٢) انظر د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٠ ، ١٦١) .

ورد في المصادر البيزنطية أن مانويل الثاني الذي كان قد أصبح إمبراطورا بعد وفاة أبيه شارك فيها ، فقد جاء في تلك المصادر نفسها ، أن مانويل لم يشارك بقوات برية بل كان على رأس الأسطول في البحر الأسود[1] للاستفادة منه في الحملة على إمارة جاندار (اسفنديار) ، التي كان يتبعها ثغر سينوب على البحر الأسود ، وقد ذكرنا في الباب الأول أن الهجوم عليها لم يحدث فيه أي قتال ، وإنما دخل السلطان بايزيد قصطموني وعثمان جك وصمصون سلما ، وكل هذه المدن ليست ساحلية فلم يدخلها جندي بيزنطي واحد ، أما المدينة الساحلية سينوب فقد هرب إليها اسفنديار ابن كوترم بايزيد حاكم قصطموني ، وأرسل إلى السلطان طلبا بأن يقره حاكما عليها باسمه ، فأجابه السلطان إلى طلبه ولم يحدث أى قتال . أى أن مانويل الثاني لم يشارك في أي عمليات عسكرية في هذه الحملة وفقا لما ذكره البيزنطيون أنفسهم .

السادس : إن صح وجود عناصر نصرانية في جيش السلطان بايزيد في حملتيه على الأناضول فما عساه أن يكون السبب في ذلك؟! أعتقد أن السلطان أراد أن يبقي هؤلاء الأمراء تحت ناظريه ، ليأمن غدرهم وليضمن أنهم لن ينتهزوا فرصة غيابه في الأناضول فيهاجموا بلاد المسلمين في الروميلي ، وهذا يفسر العدد الضئيل الذي شارك به الإمبراطور البيزنطي ، ولأن الإمبراطور البيزنطي جان الخامس كان مريضا طريح الفراش فلا خوف من ناحيته ، ولكن الخوف كان من ولديه مانويل الثاني وحنا السابع ، الذين يتطلع كل منهما إلى العرش البيزنطي ، لذلك أمرهما السلطان بمرافقته في الأناضول ليأمن غائلتهما ، أما بخصوص أعداد القوات الصربية فلم أقف على عددها ، هذا إن كانت شاركت أصلا كما يزعم الزاعمون ، ولكن إن أردنا أن نقيس على واقعة سابقة وهي حملة السلطان مراد الأول على الأناضول بسبب عصيان أمرائها عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م يمكن أن نجد إشارة لذلك ، فقد عبر السلطان مراد بقواته إلى الأناضول واستدعى لالا شاهين باشا أمير أمراء الروميلي بقواته واستدعى قوات صربية قدرها سعد الدين أفندي بألف فارس[2] ، وهذا العدد لا يمثل

---

(١) انظر د. صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والدولة البيزنطية في عصر آل باليولوجوس (ص ١٦٦)

(٢) حسين خوجه بن علي : بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٢٤) .

شيئا بالنسبة لعدد الجيش العثماني آنذاك ، فالجيش العثماني في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م في حملة قوص اوه كان عدده أربعين ألف مقاتل ولم يكن من بينهم نصراني واحد بالاتفاق ، بل كل أتباعه النصارى انضموا إلى الصليبيين ، فهؤلاء الألف فارس لا يساوون شيئا ولم يكن يعوزهم جيش السلطان مراد ، ولكني أعتقد أن السلطان أمرهم بالمجيء لإفقاد ملك الصرب أي قوة قد يغدر بها ويهاجم بلاد المسلمين أثناء غيبة السلطان في الأناضول ، ومن جهة أخرى فإن هؤلاء الألف فارس الصربي لم يقاتلوا أصلا . فقد ذكر سعد الدين أفندي في تاريخه أنه لما حاصر السلطان مراد قونيه وشدد على جميع الجنود ألا ينهب أحد منهم شيئا وإلا تعرض للعقاب ؛ لأنه لا يحل سبي المسلمين أو غنيمة أموالهم وإن كانوا بغاة ، فلما قام بعض الجنود من الصرب بالسلب بعض الشيء ، عاقبهم السلطان عقابا شديدا وأخذ منهم ما نهبوه ورده إلى أصحابه ، فغضب ملك الصرب لذلك وخرج عن الطاعة في العام التالي ثم انضم للصليبيين في قوص اوه[1] ، فإن صح أن قوات صربية اشتركت مع السلطان بايزيد يلدرم في حملة الأناضول فم يكن حالها ليختلف عن حالها في حملة السلطان مراد الأول ، ليس من باب القتال ولكن من باب إبقائهم تحت النظر . ولم يكن ملك الصرب يقود فرقة من فرق الجيش العثماني كما زعم د.محمد أنيس .

السابع : رأيت د.محمد أنيس يتحدث عن اتفاق بين السلطان بايزيد وبين ستيفن لازار ملك الصرب على اقتسام غنائم الحرب في الأناضول ، وهذا كلام ليس له أساس من الصحة. لأن الأمراء التركمان في نظر الشريعة الإسلامية هم مسلمون بغاة ، فقتالهم لا يحل فيه غنم ولا سبي ، وقد تعلم المسلمون ذلك من فعل علي بن أبي طالب ﷺ في الجمل وصفين ، وهذه معلومة يفترض أن يعرفها أدنى باحث في التاريخ فضلا عن أستاذ كبير يعد من أعمدة التاريخ في القرن العشرين ، وقد ذكر القرماني نفسه أن السلطان بايزيد عندما هجم على بلاد قرمان وحاصر قونيه شدد على جنوده ألا يسلب أحد منهم شيئا وإلا تعرض لعقاب أليم ، وكان زمن الحملة إبان موسم حصاد الغلة ، وكانت مطروحة على الأرض خارج أسوار القلعة ، فلم يجرؤ أحد من الجند على أخذ حبة واحدة حتى نزل الفلاحون القرمانيون من

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٢٤) .

القلعة وباعوا الغلة للجنود بثمنها[1]. وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، ولم تكن هذه حال السلطان بايزيد خاصة بل إن أباه السلطان مرادا لما هجم على بلاد القرمان بعد عصيان أميرها علي بن قرمان ، شدد على جنوده أيضا ألا يؤخذ أحد منهم شيئا وألا تعرض لأشد العقاب كما ذكرنا آنفا. والعجب كل العجب من أن المؤرخ الأوروبي النصراني نيقولا فاتان قد عرف ذلك الحكم الشرعي الذي لم يعرفه د.محمد أنيس ، فقد قال فاتان : « إن الغزاة قلما يميلون لشن حروب ضد المسلمين لأن من عيوب هذه الحروب أنها لا تعود بأسلاب »[2].

ولكن أنى للدكتور محمد أنيس أن يعرف ذلك ، وهو الذي لم يرجع إلى مصدر تاريخي إسلامي واحد لا تركي ولا عربي ، فضلا عن الرجوع إلى كتب الفقه والحديث لتعلم أحكام قتال البغاة .

خلاصة القول إن وجود عناصر نصرانية في حملتي السلطان بايزيد الأناضوليتين ليس له ذكر في مصادرنا الإسلامية التركية والعربية المتقدمة منها والمتأخرة ، وإنما جاء في المصادر البيزنطية في إطار محدود ، فقام المستشرقون المتأخرون بإخراجه عن إطاره والتشنيع به على العثمانيين ، وتبعهم في ذلك أساتذة التاريخ دون أدنى بحث أو تحري ، ولكن أنى لهم البحث والتحري وأغلبهم كأستاذهم د.محمد أنيس لم يرجعوا إلى مصدر تركي واحد ، فهم يكتبون تاريخ الدولة العثمانية دون أن يرجعوا إلى مصدر تركي واحد!. فهل هذا هو المنهج العلمي السليم ؟! حتى المصادر العربية التي تتحدث عن تاريخ الدولة العثمانية كتواريخ الكرمي والبكري والعبيدي والقرماني لم يرجعوا إليها إلا في بعض الأحداث التي لا تتعلق بالتاريخ العثماني ، كوقائع تيمورلنك مع المماليك على سبيل المثال ، ولكن عامة نقولهم من مصادر ومراجع أوروبية ، فهل هذا يا أساتذة التاريخ جائز عندكم في منهجكم العلمي في البحث ؟!. فإن كان هذا منهجكم فاعلموا أنه ليس حسنا بل معيبا ، ولله در أبي العلاء المعري الذي قال : «العصا للضرير خير من القائد فيه الفجور والعصيان ». لا تظنن أني أدعو إلى هجر الكتب الأوروبية ،

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٣/ ١٦

(٢) نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران. ترجمة بشير السباعي (١/ ٧٤) .

كلا . ولقد رجعت لهن أكثر من مرة ، ولكن الأخذ عن الأوروبيين له ضوابط ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار ، أهمها ألا نقدمها على مصادرنا . فلا مانع من النقل عن المؤرخين الأوروبين بشرط ألا تكون ثقتنا فيهم أكبر من ثقتنا في مؤرخينا المسلمين ، أما أن نرفعهم على الأسنة ونسلم لهم الأعنة ، وأن نجعل من أنفسنا عبيدا للثقافة الغربية ، فهذا ذل وهوان تأباه النفوس الأبية . قال أبو العلاء المعري :

هل صح قول من الحاكي فنقبله ... أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب ... والعقل غرس له بالصدق إثمار

فائدة

بقى أن نوضح أن السلطان مرادا الأول وابنه يلدرم من بعده عقدا اتفاقيات تبعية مع أمراء النصارى ، يلتزمون بموجبها بتقديم قوات عسكرية متى طلبها السلطان ، وكانت غالب هذه القوات تشارك في حروب السلطان ضد سائر الإمارات النصرانية ، ولا يخفى على دارس التاريخ ما كان بين تلك الإمارات والممالك النصرانية من نزاعات وحروب حتى قبل ظهور العثمانيين ، فيجوز الاستعانة بالمشركين على قتال المشركين ، ولا حرج في ذلك أصلا . وقد استعان رسول الله ﷺ بصفوان بن أمية على قتال هوازن يوم حنين وكان يومئذ مشركا ، واستعار منه رسول الله ﷺ أدراعا فحملها إليه ، وقاتل معه في حنين والطائف . وقد روى ذلك أصحاب السير ، والإمام مالك في الموطأ عن الزهري مرسلا قال : « ... فخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن بحنين فأرسل إلى صفوان بن أمية يستعيره أداة وسلاحا ، عنده فقال صفوان أطوعا أم كرها ، فقال : بل طوعا فأعاره الأداة والسلاح الذي عنده ثم خرج صفوان مع رسول الله ﷺ وهو كافر فشهد حنينا والطائف وهو كافر ... »[1]... كما أن رسول الله ﷺ عاهد اليهود في المدينة على أن يقاتلوا معه قريشا وحلفاءها إن هاجموا المدينة . وهذا مشهور في السير .

أما قول رسول الله ﷺ « لَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » فقد رواه مسلم في صحيحه وغيره من أهل السنن عن أم المؤمنين عائشة قالت : « خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ رَأَوْه .. فَلَمَّا

---

(١) موطأ الإمام مالك (١/ ٥٩٦) .

أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ جِئْتُ لأَتْبَعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ . قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ « تُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِه ؟ » قَالَ : لا ، قَالَ : « فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » . قَالَتْ : ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، قَالَ : « فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ » قَالَ : ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ : « تُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ» . قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ « فَانْطَلِقْ »[1].

اعتمد بعض العلماء على ذلك الحديث وغيره في القول بعدم جواز الاستعانة بالمشركين على قتال المشركين ، وبعضهم فرق بين من يقاتل مع المسلمين مختارا ومن يقاتل معهم مأمورا ، وبعضهم فرق بين أهل الكتاب وبين غيرهم من سائر المشركين ، كما ذكره الإمام الطحاوي مما يضيق المقام عن التفصيل فيه[2].

وفي شرحه لصحيح مسلم قال الإمام النووي : « قال الشافعي وآخرون : إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به . وإلا فيكره . وحمل الحديثين على هذين الحالين ، وإذا حضر الكافر بالإذن رضخ له ولا يسهم له . هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة والجمهور ، وقال الزهري والأوزاعي : يسهم له . والله أعلم »[3]...

وقال ابن حجر : « قال المهلب وغيره : لا يعارض هذا (قصة صفوان بن أمية) قوله ﷺ « لا نستعين بمشرك » ، لأنه إما خاص بذلك الوقت وإما أن يكون المراد به الفاجر غير المشرك . قلت (القائل هو ابن حجر) : الحديث أخرجه مسلم وأجاب عنه الشافعي بالأول ، وحجة النسخ شهود صفوان بن أمية حنينا مع النبي ﷺ وهو مشرك وقصته مشهورة في المغازي . وأجاب غيره في الجمع بينهما بأوجه غير هذه منها أنه ﷺ تفرس في الذي قال له « لا أستعين بمشرك » الرغبة في الإسلام فرده رجاء أن يسلم فصدق ظنه ، ومنها أن الأمر فيه إلى رأي الإمام ، وفي كل منها نظر من جهة أنها نكرة في سياق النفي فيحتاج مدعي التخصيص إلى دليل »[4].

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٩) .

(٢) أبو جعفر الطحاوي : شرح مشكل الآثار (٦/ ٤٠٧ – ٤١٦) .

(٣) محيى الدين النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ١٩٩) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري باب قوله : إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (٦/ ١٧٩) .

خامسا : توحيد الأناضول

شنع أساتذة التاريخ على السلطان بايزيد يلدرم لقيامه بتوحيد الأناضول بعد أن ضم الإمارات التركمانية المجاورة له ، فقد قدمنا أن د.عمر عبد العزيز قال في ذلك : « استباح العثمانيون لأنفسهم مقاتلة إخوانهم في الدين » ، وأن د.أحمد عبد الرحيم مصطفى قال عن السلطان بايزيد في ذلك : « متخليا عن تقاليد الغزاة ». وأن د.الحويري قال : « متخليا بصورة كبيرة عن تقاليد الغزاة المجاهدين ».

وقال د.أحمد فؤاد متولي : « أحس بايزيد بحرج موقفه بعد أن قضى على الإمارات التركية الإسلامية في الأناضول مستعينا في ذلك بقوات غير مسلمة من البلقان خاصة الصرب وبلغاريا والدولة البيزنطية ، وقد جرد عليه عمله هذا نقمة المسلمين في آسيا الصغرى »[1].

وقال د. صلاح هريدي : « كما أن الوضع في الأناضول أقل مدعاة للاطمئنان ، فالإمارات المفتوحة إسلامية ومثل هذه الفتوحات لا تليق بغاز حقيقي »[2].

وهذه العبارة نقلها د.صلاح هريدي نصا كما هي عن المؤرخ الأوروبي نيقولا فاتان[3] ، فإن كانت هذه وجهة نظر الأوروبيين فما هي وجهة نظر المسلمين يا د.صلاح ؟! أفلا يوجد في ثقافة المسلمين ما يمكنهم من تحليل الأحداث ، فتكون لهم وجه نظر خاصة بهم ، هل عدمت أمة المسلمين الخلفية الثقافية التي ينظر العلماء إلى الأحداث من خلالها ؟!. الواقع الأليم وهو أن النقل عن الأوروبيين بلا ضابط ولا رابط هو منهج عامة أساتذة التاريخ إلا من رحم ربي ، وهذا هو أصل البلاء ، والحق أن كل ما تقدم ذكره عن الأساتذة في هذه المسألة ليس من الحق في شيء بل هو من زخرف القول وزيف الكلام .

وفي زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تعب قلت ذا قيء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت حدهما ... سحر البيان يرى الظلماء كالنور

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٤) .
(٢) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٥٦) .
(٣) نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية. تحت إشراف روبير مانتران ترجمة بشير السباعي (١/ ٧٣) .

أقول متوكلا على الباري معتمدا على سنة الحبيب الغالي ﷺ ، إن الأناضول هي الجبهة الشمالية للعالم الإسلامي والبوابة التي دخل منها الصليبيون إلى بلاد المسلمين في أول مرة ، تلك التي انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م . وما تم لهم ذلك إلا بسبب تفكك المسلمين بصفة عامة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وتفكك الأناضول والشام بصفة خاصة ، فبعد وفاة السلطان المعظم ملكشاه بن آلب أرسلان السلجوقي عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م[١] ، وهو الذي امتد ملكه من خراسان إلى الشام والأناضول ، حتى بلغ ملكه نيقيه في أقصى شمال غرب الأناضول بالقرب من ساحل البسفور ، وكان الخليفة العباسي في بغداد يعيش في كنفه ، فلما توفي تفككت الدولة ، فما أن تولى ابنه بركيارق السلطنة حتى خرج عليه عمه أرسلان أرغون في خراسان واستقل بها ، وخرج عليه عمه الثاني تاج الدولة تتش في دمشق[٢] ، أما بلاد الأناضول فقد كان قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش يحكم قونيه وأعمالها[٣] ، وكان ابن دانشمند في سيواس وما جاورها[٤]. وكان مؤيد الدولة ياغي سيان[٥] حاكما على أنطاكية ، ثم إن الأمر إزداد سوءا لما دعا تاج الدولة تتش لنفسه بالسلطنة وخرج لقتال ابن أخيه السلطان بركيارق فلقيه عند الري ، فهزم تتش وقتل في ساحة المعركة عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[٦] فأعلن ولداه العصيان واستقل كلا منهما بالملك ، فاستقل فخر الملوك رضوان بن تتش في حلب ، واستقل شمس الملوك دقاق بن تتش في دمشق ، والأنكى من ذلك أن الصراع نشب بين الأخوين رضوان ودقاق ، فتحالف رضوان مع ياغي سيان على دقاق وحاصرا دمشق عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م قبل مجيء الصليبيين ببضعة أشهر . والأنكى من هذا وذاك ، أن العبيديين في مصر الذين ينسبون أنفسهم إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ويدعون

---

(١) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ص ١٢١)

(٢) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ص ١٢٢ ، ١٢٣) ، عز الدين بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ٨/(٤٠٦) ، شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢١٢) .

(٣) عز الدين بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ (٨/ ٤١٦) ، شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٤٩) .

(٤) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٢/ ٥٠٨) .

(٥) وفي سير أعلام النبلاء للذهبي ياغى بسان.

(٦) محمد بن على بن سليمان الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية (ص ٢١٩–٢٢٠) .

لأنفسهم بالخلافة ، طمعوا في بلاد الشام فأرسلوا إلى الملك رضوان للدخول في طاعتهم فقبل في أول الأمر ثم رجع ونبذ طاعتهم . وفي الوقت الذي كان الصليبيون فيه قد دخلوا بلاد الإسلام واستولوا على نيقيه ثم توجهوا إلى أنطاكيه للاستيلاء عليها ، أرسل العبيديون جيوشهم لانتزاع بيت المقدس من أيدي السلاجقة ، فقد خرج أمير الجيوش الأفضل بن بدر الدين الجمالي على رأس جيشه فحاصر بيت المقدس وضرب أسوارها بالمنجنيق ، واستولى عليها ثم عاد إلى مصر عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م قبل بضعة أشهر من استيلاء الصليبيين عليها[(١)].

كان هذا عرضا سريعا لحال المسلمين في الأناضول والشام قبيل مجيء الحملة الصليبية الأولى ، فالأناضول يتنازعه قليج أرسلان السلجوقي وابن دانشمند وياغى سيان ، والشام يتنازعه فخر الملوك رضوان في حلب ، وشمس الملوك دقاق في دمشق ، والعبيديون في فلسطين ، فلما جاء الصليبيون في حملتهم الأولى كان كل شيء مهيئا لهم ، فنجحوا في تحقيق أهدافهم فاستولوا على نيقيه ثم أنطاكيه ثم معرة النعمان ثم بيت المقدس .

وحتى ندرك أهمية الوحدة فلنعقد مقارنة سريعة بين حال المسلمين إبان الحملة الصليبية الأولى وبين حالهم بعد خمسة وأربعين عاما منها عندما جاءت الحملة الصليبية الثانية عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م. ففي تلك الأعوام الخمسة والأربعين كان المسلمون قد ذعرتهم القارعة التي حلت بهم من غزو الصليبيين بلادهم واستيلائهم على بيت المقدس ، درة بلاد الشام ، فنهض منهم من عزم على تدارك الأمر ، ففي الأناضول استطاع السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي رحمه الله ضم بلاد ابن دانشمند[(٢)] ملطية وسيواس وأعمالها ، فأصبحت دولته جبهة قوية ضد الصليبيين . ومن جهة أخرى كان عماد الدين زنكي رحمه الله صاحب الموصل قد استطاع أن يضم حلب عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م وغيرها من القلاع والحصون . ثم ضم بعلبك عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م[(٣)] ، ثم استرد الرها من الصليبيين عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[(٤)]. كما استطاع أن

---

(١) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ص ١٣٠- ١٣٦) ، كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب (ص ٢٢٩ - ٢٤١) ، شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢١١ ، ٢٣٥ ، ٣١٥) .

(٢) عز الدين بن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ (٩/ ١٢٥) .

(٣) كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب (ص ٣٠١ - ٣٢٢) .

(٤) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ص ٢٧٩) .

يضم حمص وحماه وغير ذلك من البلاد ، ثم عزم على أن يضم دمشق وينتزعها من يد معين الدين أنر حليف الصليبيين ، ولكن أثناء حصاره قلعة جعبر قتله خادمه أثناء الليل عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م[١] ، فقال الناس للقاتل : « اذهب إلى لعنة الله فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله »[٢].

رحل عماد الدين زنكي إلى جوار ربه ولكنه ترك أبناء كانوا خير خلف لأبيهم ، فأكملوا المسيرة من بعده ، مثل سيف الدين غازي ونور الدين محمود رحمة الله عليهم أجمعين ، الشاهد من ذلك أن الحملة الصليبية الثانية لما وصلت إلى بلاد المسلمين وجدت جبهة متماسكة في الأناضول وأخرى متماسكة في الشام ، ففشلت فشلا ذريعا وهلك أكثر جنودها وكاد أن يقتل قائداها كونراد الثالث الإمبراطور الألماني ولويس السابع ملك فرنسا ، وسأنقل لك من كتب الصليبيين أنفسهم شهادتهم على ما حل بهذه الحملة الضخمة التي كان عدد فرسانها مائة وأربعين ألفا من الفرسان الدارعين ، نصفهم في جيش كونراد ونصفهم في جيش لويس . هذا بخلاف المشاة والخيالة الخفاف على ما ذكره وليم الصورى أسقف صور الذي كان معاصرا للحملة[٣].

خرج جيش كونراد من القسطنطينية وعبر البسفور ومضى بفرسانه الدارعين يدكون الأرض دكا دكا ، فهجم عليهم السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي بجيشه فحصدت سيوفهم وسهامهم أكثر من تسعة أعشارهم ، وقد قال في ذلك **وليم الصوري** : « وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال ، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام أو الاشتباك بالعدو في قتال قريب ، كما أنه لم يستطع إمساك العدو وحصره فكلما حاول القيام بهجوم مضاد تفرق التركمان وبددوا جهودهم وركضوا في جميع الاتجاهات . وعندما كان النصارى يعودون إلى مخيمهم كان التركمان ويعاودون رص صفوفهم ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا ويقاتلونهم بضراوة أشد وكأنما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان ... ولم يبق مرئيا من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من أعدادهم الكبيرة

(١) شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٠) .

(٢) كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب (ص ٣٢٦) .

(٣) وليم الصوري : تاريخ وليم رئيس أساقفة صور ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية(٧/ ٣٠٥٩) .

قوات يسيرة فقط ، فمن بين السبعين ألفا من الفرسان الدارعين ومما لا يحصي من الرجالة الذين صحبوهم نجا عشرهم أو أقل من ذلك »[١].

وقال أودو الدويلي الذي كان مرافقا لملك فرنسا في الحملة : « ليس بوسعي أن أصف الخسائر التي مني بها الألمان في تلك الرحلة فالإمبراطور ذاته قد جرح بسهمين ... فلما تقهقر كونراد بما بقى من جيشه إلى نيقيه وقابل لويس وقص عليه ماجرى ترقرقت الدموع في عيون الحاضرين واكتوت قلوبهم بالأسى »[٢].

آخذ لويس السابع العبرة مما حدث لكونراد وسلك طريقا آخر بحذاء الساحل بعيدا عن قونيه عاصمة السلاجقة . واصطحب معه كونراد وما تبقى من جيشه ، ولكن السلطان مسعود لم يضيع تلك الفرصة ، وهجم على جيش لويس وقضى على جزء كبير منه حتى قال أودو الدويلي : « وهكذا فقد ذبلت زهور فرنسا قبل أن تثمر في دمشق وإنني إذ أقول ذلك لا أستطيع أن أكفكف الدموع بل أشعر بالأسى يكويني من أعماق القلب »[٣].

أما وليم الصوري فقد قال : « ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم كان التركمان قد مزقوا صفوفهم وتوقف القتال بالقوس والنشاب والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار على النصارى ... وقتل عدد كبير من النصارى ووقع عدد لا يحصى في الأسر ، وأنزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم »[٤].

وصلت هذه الحملة الصليبية هزيلة إلى أنطاليا . ومنها قرر لويس أن يركب البحر إلى أنطاكيه بالرغم من قصر المسافة بين البلدين ، إلا أنه يبدو أن فلول جيشه التي نجت من

---

(١) وليم الصوري : تاريخ وليم رئيس أساقفة صور ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٧/ ٣٠٦٥) .

(٢) أودو الدويلي : رحلة لويس السابع إلى الشرق . ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٧/ ٣٠٢١ ، ٣٠٢٥) .

(٣) أودو الدويلي : رحلة لويس السابع إلى الشرق . ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٧/ ٣٠٣٦) .

(٤) وليم الصوري : تاريخ وليم رئيس أساقفة صور ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (٧/ ٣٠٧١) .

سيوف السلاجقة لم تكن تحتمل هجمة أخرى ، هكذا منيت الحملة الصليبية الثانية بهزيمة ساحقة في الأناضول بسبب ما قد أنجزه السلطان مسعود ابن قليج أرسلان من توحيد لبعض بلاد الأناضول .

أكمل لويس مسيرته حتى وصل إلى بيت المقدس حيث تم حشد الجيوش الصليبية ، فخرجت الحملة وفيها الإمبراطور الألماني وملك فرنسا وملك بيت المقدس الصليبي متوجهين إلى دمشق للاستيلاء عليها ، ولكن الشام كما ذكرنا كانت قد بعثت فيها روح التوحد على يد زنكي وأبنائه ، فما أن توجه الصليبيون إليها حتى خرج سيف الدين غازي بن زنكي من الموصل على رأس جيشه ، وخرج أخوه نور الدين محمود من حلب على رأس جيشه فالتقيا في حمص ثم توجها معا إلى دمشق لنجدتها ، وكان فرسانها وأهاليها يقاومون الصليبيين بقوة ، فما أن علم الصليبيون بقدوم ابني زنكي حتى رفعوا الحصار عن دمشق وارتدوا على أعقابهم خشية أن يقع قتال نتيجته معلومة مسبقا . لا ينالهم منه ألا سقوط فرسانهم وضياع قواتهم ووقوع دمشق في يد أبناء زنكي(١). وتلك كانت نهاية الحملة الصليبية الثانية . وبعد ستة أعوام استطاع السلطان نور الدين محمود أن يضم دمشق سلما عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م(٢) .

ربما أكون قد أسهبت في شرح الفرق بين حال المسلمين إبان الحملة الصليبية الأولى وحالهم في الثانية ، ولكن كان يجب التأكيد على أهمية الوحدة ليس بالكلام العاطفي الذي يثير الحماس ويلهب الإحساس ، وإنما بالدليل والبرهان ، فما كان يواجهه السلطان يلدرم بايزيد من أخطار لا يقل أبدا عما واجهه عماد الدين ونور الدين ، بل هو أشد لأن زنكي وأبناءه كانوا يصدون غزوات وافدة على بلادهم ، أما سلاطين بني عثمان فقد غزوا الصليبيين في عقر دارهم وأزالوا إمارات وممالك وإمبراطوريات ، ولو لم تكن أقدامهم راسخة في الأناضول لما استطاعوا أن يحافظوا على فتوحاتهم في أوروبا ولطردوا منها ، بل لربما عاد الصليبيون مرة أخرى ولدخلوا الأناضول وسائر بلاد المسلمين كما دخلوها أول مرة ، ثم إن العثمانيين

---

(١) عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ (٩/ ١٥٨) .

(٢) أبو يعلى حمزة بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ص ٣٢٧) .

عمدوا في أول الأمر إلى توحيد الأناضول سلما بالتودد أحيانا وبالمال والمصاهرات أحيانا أخر ، في زمن السلطان أورخان وفي زمن ابنه السلطان مراد الأول ، وما رفعوا سيوفهم على المسلمين إلا بعد أن غدرت فئة منهم ونكثت المعاهدات ونبذت الاتفاقيات وطغت وبغت ، فقاتلهم السلطان مراد والسلطان بايزيد بسيف الشريعة .

خلاصة القول أن الأناضول هذه هي البوابة الشمالية للعالم الإسلامي فيجب أن تبقى محكمة الغلق مهما كلف الأمر . ومن حاول أن يشق ثغرة فيها فليس له إلا السيف ، وليس هذا بالأمر الجديد على المسلمين بل هو متأصل في ثقافتهم المستقاة من شريعتهم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ »[1].

ولقد خاض عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم من أكابر القادة والسلاطين ، حروبا لتوحيد المسلمين ، ولولا ذاك لما استعيد بيت المقدس . ولست في حاجة إلى أن أذكركم يا أستاذة التاريخ أن المسلمين طردوا من الأندلس بسبب تفككهم إلى إمارات صغيرة بغى بعضها على بعض ، وتسمى أصحابها بألقاب السلاطين والخلفاء وقد أنشد ابن رشيق في ذلك فقال :

ومما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

ولو وجد في ذلك الزمان قوة قاهرة تستطيع أن ترد الفئات الباغية عن بغيها ، وتكبت الأطماع الشخصية في قلوب أصحابها ، لما تمكن من المسلمين عدوهم ، وهكذا ! فلو لم يقم بنو عثمان بتوحيد المسلمين في الأناضول ، لطرد منها المسلمون ومما دونها ، ألم نكن نبكي ونتباكى على تفرق الأمة ؟! ألم نكن نتحسر على سقوط الأندلس وغيرها في أيدي الصليبيين ؟! ألم يكن آباؤنا وأجدادنا

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٧٩) ، أبو داود (٤/ ٢٤٢) ، النسائي في السنن الكبرى (٢٣/ ٤٢٨)، أحمد (٣١/ ٣٣٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٩١) ، أبو بكر بن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣١٥) ، أبو عبدالله الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٩) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٤٣) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١١) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٥٥) ، أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٥٥١) . انظر مرعي بن يوسف الكرمي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان. مخطوط بـ مكتبة الإسكندرية. (ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨، ورقة ٩ ، ١٠) .

يسامون سوء العذاب في بيت المقدس وعجز المسلمون عن نجدتهم لعشرات السنين بسبب تفرقهم وتشرذمهم ؟! أولما جاءنا سلطان مجاهد عظيم يوحد شطرا من بلاد المسلمين ويتصدى للصليبيين ، صار عندكم مذموما يا أساتذة التاريخ ؟! أي فكر فاسد هذا الذي تتبعون ؟!

وأما ما زعمه د.أحمد فؤاد متولي من أن توحيد الأناضول قد جرد على السلطان بايزيد نقمة المسلمين في آسيا الصغرى كما نقلنا عنه أنفا . فأقول أن كان يقصد عامة المسلمين من الفلاحين وسائر الأهالي فهذا باطل ، فقد ذكر القرماني وغيره أن أهل قونيه وسائر قلاع قرمان سلموا قلاعهم للسلطان بايزيد لما رأوا فيه من العدل ، وقالوا له أنت أحق بها وأهلها[1]، أما إن كان يقصد نقمة أولئك الأمراء من دعاة الفرقة الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم الخاصة ، فهذا باطل أيضا وهو أشبه بقول من عساه أن يقول (إن اللص نقم على القاضي لأنه حكم عليه بقطع يده) ! والله إني لأشعر بالمرارة وأنا أتصدر للدفاع عن السلطان بايزيد وأنفي عنه تهمة ، يفترض أن تكون من أعظم مناقبه ، إنها لبلية من البلايا أن يأتي علينا زمان يعرض فيها أساتذة التاريخ المسلمون بسلطان مسلم مجاهد لا لشيء سوى لأنه وحد شطرا من بلاد المسلمين فجعلها جبهة واحدة متماسكة في وجه الصليبيين . هذه هي حقيقة الغزو الفكري يا سادة ، تبديل المفاهيم وطرح الثوابت الفكرية للأمة على مائدة المفاوضات ، تلك الثوابت المستمدة من الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة ، بدعاوى تتخذ أسماء براقة كتجديد الأفكار وتنقيح التراث وماَ إلى ذلك ، وما هو في الحقيقة إلا هدم للحصون وفتح للثغور ، لعمر الله إن هذا لأشد على الأمة من الهزائم العسكرية ، فإن الأمم إنما تهزم ثقافيا وعلميا ثم تهزم عسكريا ، فوالله الذي لا إله إلا هو ما استبيحت أراضي المسلمين إلا من بعد ما استبيحت ثقافتهم التي هي أقوى أسلحتهم ، فما أن ألقاها المسلمون وزهدوا فيها وحطموها بأيديهم حتى صاروا كشعب أعزل تخطفه سائر الشعوب .وقد صدق من قال :

كسرنا قوس حمزة عن جهالة ... وحطمنا بلا وعي نباله

وصارت أمة الإسلام حيرى ... وبات رعاتها في شر حالة

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٦) .

سادسا : دعوى العدوان على المماليك

زعم نفر من أساتذة التاريخ أن السلطان بايزيد امتدت يده بالعدوان على دولة المماليك .

قال د.سعيد عاشور : « أغار بايزيد الأول على قيصرية سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولا بحماية دولة المماليك ، وإن كان تخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد اقترابا من حدود دولته ، قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق ، فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة ، ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفا قويا يساعده على دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول أنه وضع تحت تصرفه مائتي ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ، فضلا عن أنه طلب من السلطان أن يرسل إليه طبيبا حاذقا في صنعة الطب ليداويه »[1].

قال د.أحمد فؤاد متولي : « صدقت مخاوف برقوق فقد هاجم بايزيد الأول قيصرية سنة ١٣٩١م (٧٩٤هـ) وقبض على أميرها الذي كان مشمولا بحماية المماليك ، ولكن بايزيد سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأ ما أقدم عليه عندما أحس بالخطر المغولي يقترب من بلاده ، ولا نصير له في المنطقة سوى المماليك ، فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه وأرسل إليه هدية ثمينة مع أحد رسله وطلب إليه أن يبعث بأحد أطبائه المهرة لكي يشرف على علاجه »[2].

أما د.صلاح هريدي : فقد نقل ما ذكره د.أحمد فؤاد متولي نصا ، ولكنه أسنده في الحاشية[3] إلى د.سعيد عاشور ، ويبدو أن ذلك كان خطأ مطبعيا أو سبق قلم مما لا ينجو منه أحد ، ولكن لا أعرف لماذا يرجع د.صلاح إلى د.سعيد عاشور أو د.أحمد فؤاد ؟! بالرغم من توفر مصادر المؤرخين المعاصرين للأحداث كابن قاضي شهبة والمقريزي وابن حجر .

على أية حال ، فإن هذا الكلام الذي ذكره الأساتذة الثلاثة باطل من أربعة أوجه :

الأول : أن ابن قرمان هو الذي بدأ بالعدوان وهجم على بورصه عاصمة العثمانيين في الوقت الذي كان فيه السلطان بايزيد يقاتل الصليبيين ويرسخ قدمه في الروميلي بعد الانتصار

---

(١) د.سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٦٧) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٣) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٢٨) .

الساحق الذي أحرزه أبوه السلطان مراد الأول في قوص اوه التي قتل فيها ، وقد ذكرنا ذلك مرارا مما يغنينا عن الإعادة ، ومن شاء التذكرة فليرجع إلى الباب الأول .

الثاني : إن إمارة قرمان وعاصمتها قونيه ، ومن أهم مراكزها قيصريه ولارنده ، لم تكن تابعة لدولة المماليك آنذاك ، بل كانت مستقلة عنها بالكامل ، ولم تكن تتبعهم بأي صورة من صور التبعية المتعارف عليها . فلم تكن نيابة مملوكية يحكمها أمير يعينه السلطان المملوكي ، ولا من تلك الإمارات التي لها حكم ذاتي لسلاله حاكمة على أن تكون الخطبة والسكة للسلطان المملوكي ، فلم تكن إمارة قرمان من النوع الأول ولا من النوع الثاني ، وإنما دخل جزء منها وهى قيصريه في تبعية المماليك عام ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م أي بعد ثمانية وعشرين عاما من هجوم السلطان بايزيد عليها ، عندما أرسل السلطان المملوكي المؤيد شيخ ابنه إبراهيم لقتال محمد ابن قرمان بسبب حصاره لطرسوس التابعة للمماليك ، فتوغل إبراهيم بن المؤيد في بعض بلاد قرمان مثل قيصريه ولارنده حتى وصل إلى قونيه ، ثم ضبط أحوال قيصريه وخطب بها لأبيه السلطان المؤيد شيخ ، وأصبحت يومئذ قيصريه إحدى أهم مدن إمارة قرمان نيابة مملوكية ، وقد علق ابن حجر على ذلك بقوله : « وخطب فيها باسم السلطان ونقش اسم السلطان على بابها ، وقرر في نيابتها محمد ابن دلغادر نائب السلطنة بقيسارية ولم يتفق ذلك لملك من الملوك الترك بعد الظاهر بيبرس فإنه كان خطب له بها ثم انتقض ذلك »[1].

فهذا نص صريح من ابن حجر مؤرخ السلطنة المملوكية أن قيصرية لم يكن يخطب فيها للسلطان المملوكي منذ أيام الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) وإنما وقع ذلك في أيام الملك المؤيد شيخ ، إذ دخل بعضها (قيصريه) في تبعية المماليك ، أي أن قيصرية في أيام السلطان يلدرم بايزيد لم تكن تتبع المماليك بأي حال ، ولست أدرى ما المراد بقولهم « مشمول بحماية المماليك » فهذا مصطلح غريب والمتعارف عليه أن يقال نيابة مملوكية أو إمارة تابعة للسلطنة المملوكية ، ثم إن كانت قرمان تابعة للمماليك كما تقولون فحري بكم يا أساتذة التاريخ أن تلوموا السلطان المملوكي نفسه وتلقوا التبعة عليه ، لأن ابن قرمان هو الذي بدأ بالعدوان على بلاد السلطان بايزيد ، وكل سلطان مسئول عن أفعال أتباعه .

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ٣٤٤) .

الثالث : لو كانت إمارة قرمان تابعة للمماليك حقا لغضب السلطان برقوق غضبا شديدا من ضم السلطان بايزيد إياها ، ولأعلن عليه الحرب ، أو على الأقل لأرسل رسالة توبيخ وتهديد ، لاسيما وأن دولة المماليك آنذاك كانت لها قوة كبيرة حتى أن السلطان برقوق نفسه خرج لقتال تيمورلنك كما ذكرنا في الباب الأول . لكن السلطان برقوق لم يغضب ولم يهدد بل أرسل هدية إلى السلطان بايزيد بعد ضمه قرمان ببضعة أشهر للإصلاح بينه وبين ابن قرمان كما ذكر ابن قاضي شهبة وابن حجر والمقريزي ، فقبل السلطان بايزيد وساطة السلطان برقوق وأحسن استقبال رسله ، وقد زاد ابن قاضي شهبة أن السلطان بايزيد لبس الخلعة وتقلد السيف الذي أرسله له السلطان المملوكي ، وقال : « **أنا مملوك السلطان ومهما رسم به السلطان على العين والرأس** »[1] ، ولا ريب أن تصرف السلطان برقوق ليس تصرف سلطان قوي اعتدى على بلاده ، أو على بلاد تحت حمايته ، بل هو تصرف سلطان يسعى إلى إيجاد استقرار على حدود دولته ، والدليل على ذلك أن السلطان بايزيد لم يرد لابن قرمان قونيه ولا قيصريه بل رد له لارنده وطاش ايلي فقط[2]. وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، فلو كانت قيصريه تابعة للسلطان المملوكي ، لما تركها ، ولما سكت عنها أبدا ، بل حتما كان سيطلب من السلطان بايزيد أن يردها إليه طوعا وإلا ينتزعها منه قهرا .

الرابع : زعم الأساتذة أن السلطان بايزيد بعد أن ضم قرمان أحس بخطئه وأرسل هدية للسلطان برقوق ليعتذر عما فعل ، وهذا زعم باطل لا أساس له من الصحة وتكذبه المصادر التاريخية المملوكية المعاصرة ، ولاستجلاء حقيقة الأمر فمن الممكن أن نقوم بترتيب الأحداث كما يلي :

١- ضم السلطان بايزيد لقرمان في شوال من عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م[3].

٢- إرسال السلطان برقوق الأمير حسن الكجكني بهدية للسلطان بايزيد للإصلاح بينه

---

(١) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة (ج٢ ورقة ٧٩ ، ٩١) ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ١٢٣، ١٥٨) ، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٢١ ، ٣٤٠) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٢٩) .

(٣) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج ٢ ورقة ٦٩) ، ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٧٦) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣١١) .

وبين ابن قرمان في ربيع الأول ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م[1].

٣- إرسال السلطان بايزيد هدية إلى السلطان برقوق مع الأمير حسام الدين حسن الكجكني بعد قبوله وساطتة في الصلح[2].

فالهدية التي أرسلها السلطان بايزيد لم تكن من باب الاعتذار بل من باب رد الهدية بهدية، وتوثيق أواصر الصداقة بين السلطنتين، وعن أي شيء عساه أن يعتذر السلطان بايزيد !. فهو لم يفعل ما يستوجب الاعتذار، فلست أدري من أين جاء الأساتذة الثلاثة بهذا الكلام، والمؤسف أن د.سعيد عاشور قد زعم أنه نقل ذلك عن ابن قاضي شهبة بالرغم من عدم وجود أي إشارة لذلك عنده، وسأنقل نص كلامه لمزيد من الإيضاح : «وصل البريدي الذي توجه صحبة الأمير حسام الدين الكجكنى نائب الكرك الموجه إلى السلطان أبي يزيد بن عثمان صاحب الروم عند حركته لأخذ بلاد قرمان وسيواس، وأخبر السلطان أنهم لما وصلوا إلى صاحب الروم التقاهم ملتقي حسنا إلى الغاية وأنه لبس التشريف الذي كان السلطان أرسله له، وتقلد السيف وقال أنا مملوك السلطان ومهما رسم به السلطان فعلى الرأس والعين، وحصل الصلح بينه وبين القرماني وكذلك بينه وبين صاحب سيواس»[3].

فهل في ذلك الكلام أي إشارة بأن السلطان بايزيد أرسل هديته اعتذارا للسلطان برقوق ؟! فلو اعتبرنا أن د.سعيد عاشور قد وقع له وهم مما يحدث لجميع المشتغلين بالعلم ولم ينج منه حتى أكابر المؤرخين، أسأل الله أن يجنبنا وإياكم الوهم والخطأ والزلل، فهل وقع الدكتور أحمد فؤاد متولي أيضا في نفس الخطأ، وهو الذي أسند كلامه إلى ابن إياس، وهو وإن كان متأخرا ولم يعاصر الأحداث، إلا أنه يعتبر أكبر مؤرخي زمانه، وسأنقل نص كلامه فيما يلي : « جاءت الأخبار بوصول قاصد ملك الروم أبو[4] يزيد بن عثمان وعلى يده تقادم للسلطان،

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة . (ج ٢ ورقة ٧٩)، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ١٢٣)، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٢١).

(٢) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ٩١)، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ١٥٨)، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٤٠).

(٣) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية . (ميكروفيلم رقم ٩٩/ ٢) (ج٢ ورقة ٩١).

(٤) كذا بالأصل والصواب أبى يزيد .

وكان سبب مجيئه أن أرسل قاصده يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره منه وأن يكون منه على يقظة ، ثم أرسل يطلب من السلطان طبيبا حاذقا وأدوية توافق مرضه ، فإنه كان يشكو بضربان المفاصل . فلما وقف السلطان على مطالعة أبي يزيد بن عثمان وعلم ما فيها ، عين له الريس شمس الدين بن صغير وأرسل صحبته حملين من الأدوية التي توافق مرضه وأرسل له هـدية حافلة على يد قاصدة »[1].

فهل في كلام ابن إياس ما يشير إلى أن السلطان بايزيد أرسل هديته للسلطان برقوق اعتذارا عن أخطائه ؟! هل يمكن أن يكون نفس الوهم الذي وقع للدكتور سعيد عاشور قد وقع أيضا للدكتور أحمد فؤاد متولي ؟! فمن المؤكد أنه نقل عن د.سعيد عاشور لأن كتابه متأخر عن كتابه بسنوات طويلة . كما أن د.سعيد عاشور اسم كبير في تاريخ العصور الوسطى لا سيما التاريخ الأيوبي والمملوكي . أما د.صلاح هريدي فقد صرح بالنقل عن د.سعيد عاشور بالرغم من أن نص كلامه مطابق لنص كلام د.أحمد فؤاد متولي . ولم يكلف خاطره الرجوع إلى المصادر للنقل عنها . فإن كان الأساتذة الكبار لا يرجعون إلى المصادر التاريخية ، فمن عساه أن يرجع إليهن ؟!

سابعا : لقب سلطان الروم

يستوقفني كلام أخر ذكره هؤلاء الأساتذة وغيرهم وهو أن السلطان بايزيد أرسل إلى الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه أن يمنحه لقب سلطان . وقد علق **د.سعيد عاشور** على ذلك بقوله : « ثمة مظهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر ، هو طلب بايزيد العثماني تفويضا شرعيا بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة ١٣٩٤م »[2].

أما **د.أحمد فؤاد متولي** فقد زعم أن ذلك كان مخرجا للسلطان بايزيد من الموقف الحرج الذي أصبح فيه بعد أن ضم الإمارات التركمانية المسلمة من أجل توحيد الأناضول ، وكأن توحيدها كان جرما ينبغي على فاعله البحث عن مخرج منه ، فقد قال : « أحس بايزيد بحرج

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٤٦٢) .

(٢) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٦٧) .

موقفه بعد أن قضى على الإمارات التركية الإسلامية في الأناضول مستعينا بقوات غير مسلمة من البلقان خاصة الصرب وبلغاريا والدولة البيزنطية . وقد جرد عليه عمله هذا نقمة المسلمين في آسيا الصغرى ... أراد بايزيد أن يكسب عمله صفة الشرعية فأرسل في سنة ١٣٩٤م (٧٩٧هـ) إلى الخليفة العباسي في مصر وهو المتوكل على الله طالبا منه تشريفا وتقليدا باعتماده سلطان الروم فبعث إليه المتوكل بهذا التقليد »[١].

أما د.صلاح هريدي فقد قال : « وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا في المجال الدولي والعالمي »[٢] .

أما د.أحمد عبد الرحيم مصطفى فقد ذكر أن السلطان بايزيد أرسل إلى الخليفة العباسي في القاهرة ليمنحه لقب سلطان الروم بعد انتصاره على الحملة الصليبية في نيقوبولو عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م وقال : « حتى يتسنى له (بايزيد) بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعا شرعيا رسميا .. ولم يكن السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي ، يجد مبررا لعدم الاستجابة لطلب بايزيد ، إذ كان يرى في العاهل العثماني حليفه الأوحد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تتهدد كلا الطرفين »[٣].

أما د.محمود الحويري : فقد نقل نص كلام د.أحمد عبد الرحيم وأسنده إليه وإلى المؤرخ الأوروبي كريزي[٤].

قلت : ولنا في هذه الواقعة عدة مسائل ينبغي توضيحها قبل أن نشرع في تفنيد كلام الأساتذة :

الأولى : لم يرد في المصادر المملوكية على الإطلاق أن الخليفة العباسي في القاهرة قد منح السلطان بايزيد لقب سلطان الروم ، فلم يذكر ذلك المؤرخون المعاصرون للسلطان بايزيد ولا المتأخرون عن زمنه ، فلم يذكره ابن قاضي شهبة ولا المقريزي ولا ابن حجر العسقلاني ، ولا ابن تغري بردي ولا ابن إياس ، فهؤلاء هم المؤرخون الرسميون للدولة المملوكية ولم

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٤) .

(٢) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٢٩) .

(٣) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٤) .

(٤) د. محمود محمد الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٨٣) .

يذكر واحد منهم شيئا من ذلك ، وكذلك المصادر العربية التي تؤرخ للدولة العثمانية والتي كتبت بعد الفتح العثماني لمصر والشام لم تذكر ذلك ، فلم يذكره مرعي بن يوسف الكرمي ولا مراجع أوروبية مع الأسف الشديد فقد نقلها د.سعيد عاشور عن المؤرخ الفرنسي دوسون والمؤرخ الإنجليزي توماس أرنولد أما د.أحمد فؤاد متولي فقد نقلها عن د.محمد مصطفى زيادة دون أن يذكر في ذلك أي مصدر يعول عليه ، أما د.أحمد عبد الرحيم مصطفى ود.صلاح هريدي فكلاهما نقل عن المؤرخ الألماني كارل بروكلمان ، أما د.محمود الحويري فقد نقل عن د.أحمد عبد الرحيم مصطفى وعن كريزي .

الثانية : جاء في بعض المصادر التركية أن الخليفة العباسي في القاهرة ، قد أطلق على السلطان يلدرم بايزيد ، لقب سلطان الروم بعد انتصاره على الصليبيين في حملة نيقوبولو ، في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م. فقد ذكر ذلك إبراهيم بك حليم ، الذي لا ينقل إلا عن المصادر التركية كما قدمنا. فقد قال : « وفي عام ٨٠٠ هـ أرسل أمير بخاري للسلطان بايزيد سيفا على سبيل الهدية والتعظيم وكذلك أعطى الخليفة العباسي الموجود بمصر للسلطان لقب وعنوان (سلطان أقاليم الروم) »[1].

خلاصة القول أنه مما سبق يتبين أن المصادر العربية في العصرين المملوكي والعثماني لم تذكر حصول السلطان بايزيد على لقب سلطان الروم من الخليفة العباسي في القاهرة على الإطلاق ، أما المصادر التركية فقد جاء فيها أن الخليفة العباسي أطلق على السلطان بايزيد هذا اللقب عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م تكريما له بعد النصر الكبير في نيقوبولو ، ولكن أغلب أساتذة التاريخ يصرون على أن ذلك كان عام ١٣٩٤م ، فيما عدا د.أحمد عبد الرحيم مصطفى الذي قال أن ذلك كان عام ١٣٩٦م . والتوقيت هنا عنصر هام جدا وسترى أهميته قريبا فكن على بينة منه واحفظه في ذهنك .

الثالثة : إن كانت المصادر المملوكية المعاصرة للسلطان بايزيد لم تذكر صراحة منح الخليفة إياه لقب سلطان الروم ، إلا أننا يمكن أن نجد فيها ما يدل على أن السلطان بايزيد قد حصل فعلا على ذلك اللقب عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م بعد انتصاره في نيقوبولو ، وذلك لأن المؤرخين

---

(١) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٤٨) .

حتى عام ٧٩٩هـ كانوا يذكرونه باسم صاحب الروم أو ملك الروم ولكن بعد عام ٨٠٠هـ أصبحوا يذكرونه باسم سلطان الروم ، مثلا ابن حجر العسقلاني قال عند حديثه عن نيقوبولو في حوادث عام ٧٩٩هـ : « وفيها كانت الوقعة بين أبي يزيد بك بن عثمان صاحب الروم وبين الإفرنج فكسرهم كسرة عظيمة »...أما في سنة ٨٠١ هـ فقال : « سلطان الروم أبو يزيد بن عثمان »[١]...وكذلك ابن قاضي شهبة فقد قال في تاريخه في أحداث ٧٩٩هـ عن موقعة نيقوبولو : «وصل إلى القاهرة رسل صاحب الروم أبي يزيد بك بن مراد بك بن عثمان إلى القاهرة ومعهم هدية للسلطان من نحو ثمانين مملوكا وأخبروا بالواقعة الكائنة بين ابن عثمان والفرنج وأنه قتل منهم مقتلة عظيمة »...وفي أحداث عام ٨٠١ هـ قال : « وصل الخبر أن السلطان ابن عثمان أخذ البلستين من صدقة بن سولي »[٢].

ما سبق يعد دليلا على أن السلطان بايزيد قد أصبح فعلا يلقب بسلطان الروم بعد انتصاره الساحق في نيقوبولو ، وهو وإن كان ليس خبرا صريحا في المصادر إلا أنه إشارة واضحة ويعد دليلا علميا لا سيما إذا ما وضعناه إلى جانب ما ذكرته المصادر التركية .

فإذا أردنا أن نلخص نتائج الاستقراء السابق لمصادرنا نقول :

١- جاء في المصادر التركية صراحة أن السلطان بايزيد قد حصل على لقب سلطان الروم من الخليفة العباسي في القاهرة عام ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م .

٢- جاء في المصادر التركية أن الخليفة العباسي هو الذي أطلق على السلطان بايزيد ذلك اللقب ، ولم يطلبه السلطان .

٣- جاء في المصادر العربية ما يشير إلى أن السلطان بايزيد قد حصل فعلا على لقب سلطان الروم عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م.

وبالرغم من ذلك نجد أن كلا من د.سعيد عاشور ود.أحمد فؤاد متولي ود.صلاح هريدي ذكروا أن السلطان بايزيد هو الذي أرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يمنحه لقب سلطان الروم عام ١٣٩٤م ، أما د.أحمد عبد الرحيم مصطفى فقد أصاب بعض الحقيقة وهو

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٣٢٣ ، ٤/ ١) .

(٢) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ١٢٣ ، ١٤٥) .

حصول السلطان بايزيد على لقب سلطان الروم بعد نيقوبولو ، ولكنه أخطأ في إدعاء أنه طلب ذلك من الخليفة لأن المصادر المملوكية التي ذكرناها لم يرد فيها ذلك وهي التي ذكرت فحوى المراسلات والهدايا الكثيرة التي كان يتبادلها السلطانان ، فليس من المعقول أن تغفل ذكر رسالة هامة كتلك ، ولو وقعت الغفلة من أحد المؤرخين فليس من المعقول أن تقع منهم جميعا ، فمن الراجح أن السلطان بايزيد قد أطلق على نفسه هذا اللقب ولم يعترض الخليفة أو بالأحرى السلطان برقوق على ذلك تكريما له على انتصاره على الصليبيين في نيقوبولو .

الحديث عن هذه الواقعة ملتبس ويحتاج إلى يقظة وانتباه ، ولعل أفكارك الآن قد تاهت ونفسك قد ضاقت. وتقول في نفسك ما هذا التنطع؟! وأي فرق في أن يكون السلطان بايزيد هو الذي طلب الحصول على اللقب من الخليفة أو أن يكون الخليفة هو الذي منحه إياه من نفسه ، وأي فرق في أن يكون حصل عليه عام ١٣٩٤ أو بعد انتصار نيقوبولو ؟ **الجواب** : هو أنني أردت أن أفصل المسألة تفصيلا كاملا ليميز الخبيث من الطيب وليتبين الخطأ القبيح الذي وقع فيه كل من د.سعيد عاشور ود.أحمد فؤاد متولي ، هذا إن جاز أن نسميه خطأ ، فقبيح جدا من د.سعيد عاشور أن يقول « تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بسلاطين المماليك » . وإذا أردنا أن نلخص الأباطيل التي ذكرها د.سعيد عاشور في هذا الشأن فنقول :

١- أنه قدم الواقعة أربعة أعوام عن تاريخ حدوثها حتى يتسنى له إدعاء التمسح .

٢- أنه استغل تقديم الواقعة أربعة أعوام عن زمن حدوثها حتى يتسنى له تجاهل السبب الذي لأجله حصل السلطان بايزيد على لقب سلطان الروم ، وهو النصر الكبير على الحملة الصليبية في نيقوبولو عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م.

٣- أنه زعم أن السلطان بايزيد هو الذي طلب الحصول على هذا اللقب تمسحا بسلاطين المماليك .

فلماذا تجاهل د.سعيد عاشور كل هذه الحقائق التاريخية ؟ ولماذا قدم زمن الواقعة أربع سنوات ؟ ولماذا تجاهل النصر على الصليبيين في نيقوبولو ؟! ولماذا زعم أن السلطان بايزيد طلب أن يلقب بسلطان الروم تمسحا بسلاطين المماليك ؟ هذه الأسئلة يمكن إضافتها إلى سلسلة الأسئلة التي سبق أن وجهناها إلى د.سعيد عاشور من قبل. وهي : لماذا أغفل ذكر

إرسال السلطان برقوق هدية إلى السلطان بايزيد ، مما يدل على مكانة السلطان العثماني عند السلطان المملوكي ؟!. ولماذا زعم أن إمارة قرمان كانت تحت الحماية المملوكية ؟! ولماذا زعم أن السلطان بايزيد أرسل هدية ليعتذر للسلطان برقوق عن ضم قيصريه ؟! بالرغم من أن المصادر ذكرت أن تلك الهدية كانت ردا على هدية السلطان برقوق وعلامة على قبول وساطته وليست اعتذارا ، لكن د.سعيد عاشور يتجاهل كل تلك الحقائق التاريخية حتى وصل به الأمر إلى أن غير توقيت الأحداث وقدم فيها وأخر لتوافق الفكرة المسبقة في ذهنه ، وهى أن د.سعيد عاشور يمعن في تحقير العثمانيين والحط من شأنهم بحق أو بباطل ، وهذا أبعد ما يكون عن المنهج العلمي وعن الحياد الذي صم أساتذة التاريخ آذاننا بكثرة الحديث عنه ، فالمنهج العلمي أيها الأساتذة الأفاضل هو أن مجموع الأدلة يقود الباحث إلى حقيقة تاريخية معينة ، وليس أن يعتقد الباحث في شيء معين ثم يبحث له في المصادر التاريخية عن أدلة تؤيده .! وإن قيل أن د.سعيد عاشور لم يقدم الواقعة عن عمد ولم يتعمد إغفال كل ما ذكرت ، ولكنه نقل عن دوسون وتوماس أرنولد . قلت : فوالذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم إن هذا لأشد قبحا..... فأي بلية هذه تلك التي ابتلينا بها ؟! فهذا أستاذ جامعي حقيق بأن يسمى أستاذا ، ويعتز بهذا اللقب ، ويحمل أعلى الدرجات العلمية ، ثم ينقل عن الأوروبيين دون أن يكلف نفسه عناء البحث في المصادر بنفسه .

أما د.صلاح هريدي فقد قدم أيضا الواقعة أربعة أعوام أيضا وذكر أنها كانت في عام ١٣٩٤م. ود.صلاح لم يتعمد ذلك ولكنه نقل عن كارل بروكلمان وهذة أيضا بلية كبرى ، فهذا الرجل مستشرق ألماني خبيث جدا ويتدثر بعباءة المنصفين ، ود.صلاح ينقل عنه ولا يبالي ، ثم إن سياق كلام كارل بروكلمان يبدو غريبا ، إذ أنه تحدث عن موقعة نيقوبولو عام ١٣٩٦م والهزيمة الساحقة التي ألحقها السلطان بايزيد بالصليبيين وتوسعه في أوروبا ثم قال : « وفي عام ١٣٩٤. أرسل بايزيد وهو في أوج انتصاراته بعثة إلى الخليفة المتوكل المقيم في القاهرة طالبا منه أن يخلع عليه لقب سلطان الروم »[1].

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٢٠) .

فيمكن أن تكون السنة خطأ مطبعيا ، هذا لو افترضنا حسن نية ذلك المستشرق ، ولكن يرد ذلك أن د.سعيد عاشور نقل عن أوروبي غيره وأرخ الواقعة في عام ١٣٩٤ فهل هي أخطاء مطبعية أيضا ؟! ثم نقول ما لنا ولكل هذا التلبيس ومصادرنا واضحة نقية ، ما الداعي للرجوع إلى بروكلمان أو إلى غيره ؟! هل عزت علينا مصادرنا ؟!. هل ضاع منا تراثنا ؟! أعجزنا عن فهم تاريخنا فلجأنا إلى أوروبي ليعلمنا إياه ؟!

أما بشأن د.أحمد فؤاد متولي ، فيمكن أن نلحص الأباطيل التي ذكرها في هذا الشأن فيما يلي :

١- أنه حذا حذو د.سعيد في تقديم الواقعة أربعة أعوام ، حتى تتوافق زعمه التالي .

٢- أنه زعم أن السلطان بايزيد طلب الحصول على لقب سلطان الروم للخروج من مأزق ضم الإمارات التركمانية .

٣- أنه تجاهل السبب الحقيقي الذي لأجله حصل السلطان بايزيد على لقب سلطان الروم وهو النصر على الحملة الصليبية في نيقوبولو .

وبالرغم من أن د.أحمد فؤاد متولي أستاذ في اللغة التركية ، إلا أنه نقل عن محمد مصطفى زيادة . فلماذا لم ينظر في المصادر التاريخية التركية التي تطفح بها قائمة المصادر والمراجع التي ختم بها كتابه ؟!. فنقول للدكتور الفاضل من أين جئت بهذا الكلام؟! هل أنكر أحد من علماء المسلمين على السلطان بايزيد ضم الإمارات التركمانية ؟! هل عاب علماء المسلمين على السلطان بايزيد قيامه بقتال البغاة من الأمراء لأجل توحيد الأناضول؟! هل ورد مثل ذلك في المصادر التركية أو المصادر العربية ، أم إنها تخيلات ؟! أم أنه من باب ذم العثمانيين بحق أو بباطل ؟! أم لعله من أساليب السيطرة النفسية على ذهن القارئ حتى يتأصل في نفسه أن السلطان بايزيد قد ارتكب جرما بتوحيد الأناضول ، ثم يتمادى د.أحمد فؤاد متولي في مزاعمه فيقول : « لبى تيمورلنك نداء الإغاثة الذي وجهه إليه الأمراء المسلمون الفارون الذين احتموا به خوفا من بطش بايزيد الذي استولى على ديارهم ، واستجاب لتحريضهم على الانتقام من السلطان العثماني على ما اقترفه تجاه الأمراء المسلمين »[1].

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٩) .

فهنا يتحدث د.أحمد فؤاد متولي عن السلطان بايزيد وكأنه الطاغية المجرم الذي انتهك بلاد المسلمين ونكل بحكامهم ففروا من بطشه وعسفه ، وقد قدمنا بطلان تلك المزاعم ، وأنه ما ضم الإمارات التركمانية إلا بعد تكرر عصيانهم وتمردهم ، كما ذكرنا أنه دخل معظم تلك البلاد سلما بدون قتال ، وأن ذلك يعد من أعظم مناقبه ، ولذلك أمتدحه أكابر المؤرخين وقالوا عنه أنه كان من أجل ملوك الإسلام ، وقد ذكرنا قول ابن حجر في الباب الأول : « كان من أكبر ملوك الإسلام وأيمنهم نقيبة وأكثرهم غزوا في الكفار وكان ينكر على ملوك الأرض تقاعدهم عن الجهاد وأخذ المكوس ».. وأضيف إليها قولا ثانيا له :« وكان أبو يزيد بن عثمان من خيار ملوك الأرض » .. وقولا ثالثا : « وكان يؤثر العدل ويحب العلماء ويكرمهم »[١].

وقد ذكرت في الباب الأول أقوال السخاوي وابن تغري بردي وأعرضت عن ذكر أقوال غيرهم خشية الإطالة ، فعلى أي شيء استند د.أحمد فؤاد متولي في دعواه تلك ؟! فراح يزعم أن ضم السلطان بايزيد للإمارات التركمانية قد جرد عليه نقمة المسلمين في آسيا الصغرى[٢] ، هل أصبح أساتذة التاريخ في زماننا أفقه من ابن حجر العسقلاني قاضي قضاة مصر والشام وإمام الشافعية في زمانه ؟!. هل أصبحوا أفقه من الحافظ السخاوي تلميذ ابن حجر وإمام المحدثين من بعده ؟! هل أصبحوا أفقه من الشيخ محمد بن أبي السرور البكري الذي قال : « لزم على السلطان بايزيد أن يستولي على أمراء الطوائف»[٣].

فإن قيل أن د.أحمد فؤاد متولي قد نقل عن د.محمد مصطفى زيادة قلت : هذا عندي كفيل بأن يخرجه من زمرة الباحثين المحققين إلى زمرة الكتبة والناسخين ، وودت لو أن حصلت على بحث د. زيادة الذي نقل عنه د.أحمد فؤاد متولى ، ولكنه لم يطبع استقلالا وإنما نشر في المجلة التاريخية عام ١٩٥١م. ولم يتيسر لي الحصول عليها . ثم أن د.أحمد يتحدث عن تيمورلنك كما لو كان الحاكم المسلم العادل التقي الذي لبى نداء المسلمين وانتصر للضعيف من القوي وأقر العدل وحقق الأمن .! ولم ينفرد د.أحمد فؤاد بذلك بل صرح به أيضا

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٥٦ ، ٥٨ ، ١٢٨) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٤) .

(٣) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٥) .

د.أحمد عبد الرحيم مصطفى فقال : « على أن تيمور باعتبـاره مسلما صالحا كان يرعى العلماء ورجال الدين »[١].

إياك أن تظن أن هذا هـو رأى د.أحمد عبد الرحيم الذي خرج به من مطالعة المصـادر. بل هو رأي كارل بروكلمان ونقله عنه د.أحمد. فقد قال بروكلمان : « وعطف تيمور بوصفه مسلما صالحا على العلماء ورجال الدين »[٢].

أما د.صلاح هريدي فقد قال : « كان تيمور جورهان المعروف باسم تيمورلنك قد استأنف الفتح المغولي وبوصفه تركيا ومسلما كان قد وحد إمبراطورية شاسعة تمتد من الهند إلى بلاد الرافدين فارضا سيادة الإسلام »[٣].

إياك أن تظن أن هذا هو رأي د.صلاح ، بل هو رأي نيقولا فاتان[٤] وقد نقله د.صلاح نصا . أنظر بالله عليك كيف ينقل أساتذة التاريخ عن الأوروبيين حرفيا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث للخروج برأي مستقل ؟!

وقد حصلت في عام ٢٠٠٥م من أحد طلاب كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وكان آنذاك بالفرقة الأولى في قسم اللغات الشرقية ، على كتاب التاريخ التركي الذي كانوا يدرسونه ، ولسوء الحظ لم يكن الكتاب كاملا وقد ضاعت منه الصفحة الأولى التي عليها اسم مؤلفه ، ولا أدري حتى الآن من مؤلف هذا الكتاب ، ولكنه من المؤكد أستاذ جامعي لأن الكتاب كان يدرس في كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٥م ، وقد ورد في هذا الكتاب مغالطات تاريخية فاضحة بل سفاهات وجهالات وسأتعرض لها فيما يلي مشيرا إلى المؤلف « بالأستاذ المجهول ». ولقد بلغني أن هذا الأستاذ المجهول لم يعد يدرس في قسم اللغات الشرقية. وقد حل محله الأستاذ الفاضل د.سيد محمد السيد. وإن كنت لم أشرف بلقائه ولكني تعرفت عليه من خلال كتبه الجليلة ، وقد أظهر من خلالها أنه أستاذ محقق يفتش وينبش

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٦) .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٢٠) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٥٤) .

(٤) نيقولا فاتان : صعـود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٧١) .

في المصادر حتى يصل إلى الحق ، ثابت الجنان سليم الهوية ، عسى الله أن يثبتنا وإياه وأن يبارك لنا فيه ، قال هذا الأستاذ المجهول (ص ٨٠) : « ومن صفات تيمورلنك الشخصية الصمت والإخلاص في العقيدة الدينية والحدة والصلابة خاصة في المسائل التي تمس العدالة ».

قلت : لماذا يا أساتذة التاريخ لا ترجعون إلى مصادرنا الإسلامية ؟! التي لم يرد فيها ذكر تيمورلنك إلا مقرونا بلفظ « الطاغية » في أغلب الأحوال ، صحيح أنه كان يرعى العلماء ، لكن ذلك لا يعدل تخريبه للبلاد وسفكه لدماء العباد. قال عنه **ابن حجر العسقلاني** : « مات الطاغية تمرلنك الخارجي في سابع عشر شعبان بعلة الإسهال القولونجي وله تسع وسبعون سنة ، وكان بصفته بطالا قد أباد البلاد والعباد وأكثر في الأرض الفساد ... هلك بالقولونج وأراح الله منه ». **وقال أيضا** : « وكان مغرى بغزو المسلمين وترك الكفار ... وكان يقدم قواعد جنكيزخان ويجعلها أصلا ولذلك أفتى جمع جم بكفره »[1].

وكان **المقريزي** كثيرا ما يصفه بالطاغية . فقد قال في حوادث عام ٨٠٥هـ : « كانت وقعة الطاغية تيمور كركان ملك الشرق مع خوند كار أبي يزيد بن مراد » . وقال في حوادث ٨٠٦هـ : « قدم رسل الطاغية تيمورلنك » ... وقال عند ذكر خبر وفاته : « وخرب مدن العالم وحرقها وهدم بغداد وأزال نعم الناس ، وكان قاطع طريق ، أول ظهوره سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة »[2].

وقال **أبو المحاسن بن تغرى بردي** : « وطرق الطاغية تيمور بلاد الشام في سنة ثلاث وثمانمائة وخرب حلب وحماة وبعلبك ودمشق حتى صارت دمشق كومًا ليس بها دار. وقتل من أهل الشام مالا يحصى عدده ». **وقال أيضا** : « توفي الطاغية تيمورلنك »[3]. **وقال أيضا** : «وبالجملة فكان تيمور لعنه الله فردا من الأفراد ، وكانت وفاته حسبما ذكرناه في ليلة الأربعاء تاسع عشر شعبان سنة سبع وثمانمائة ، لعنه الله وجعل الجحيم مأواه »[4] ...

وكان الحافظ السخاوي أيضا يلقبه بالطاغية[5].

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني :إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥) .

(٢) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٨١ ، ٩٧ ، ١٦٩) .

(٣) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٣/ ١٥١ ، ١٦٠)

(٤) جمال الدين بن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي(٤/ ١٣٨) .

(٥) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ٥٢ ، ٣/ ٢٩٧ ، ٦/ ٢٤٩) .

هكذا ترى أن جمهور المؤرخيين اتفقوا على أن تيمورلنك كان طاغية سفاكا لدماء المسلمين مخربا لبلادهم وأفتى جمع جم بكفره أصلا . لكن أساتذة التاريخ يعتبرونه مسلما يلبي نداء المظلوم ويفرض سيادة الإسلام.! بل اعتبره د.أحمد عبد الرحيم مسلما صالحا.! واعتبره الأستاذ المجهول مخلصا في العقيدة الدينية وصلب في العدالة.! وأنا تعمدت أن أنقل كل هذه النقول عن العلماء ليتبين أن مؤرخينا الأقدمين كانوا في واد وأساتذة التاريخ الآن في واد آخر. فالسلطان بايزيد الذي أطنب المؤرخون في مدحه والإشادة بعدله ، ذمه أساتذة التاريخ واعتبروه معتديا . وتيمورلنك الذي ذمه المؤرخون وأفتى جمع جم بكفره اعتبروه مسلما يجير من استجار به ، وبعضهم اعتبره مسلما صالحا ، ثم أي عدالة تلك التي يتحدث عنها الأستاذ المجهول وكتب التاريخ طافحة بأخبار جرائمه ، وأنه كان يبني المنارات من جماجم القتلى !!. فيبدو أنه كما كان تيمور مغرما بقتال المسلمين وترك قتال الكفار ، فكذلك أساتذة التاريخ فإنهم مغرمون بآراء الكفار ، معرضون عن آراء علماء المسلمين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لا تتعجب ولا تندهش فالبلية أكبر من ذلك وسترى المزيد فيما سيأتي .

ثامنا : ضم السلطان بايزيد ملطيه وأبلستين

هناك أمر آخر شنع به أساتذة التاريخ على السلطان بايزيد وهو قيامه بضم ملطية وأبلستين وبعض الحصون بعد وفاة السلطان برقوق بالرغم ، من أنهما مدينتان تابعتان للسلطنة المملوكية .

قال د.سعيد عاشور : « في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارنده ولا شك أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بني عثمان »[١].

قال د.صلاح هريدي : نص ما قاله د.سعيد عاشور حذو القذة بالقذة[٢].

قال د.أحمد فؤاد متولي : « على أن أطماع العثمانيين التي كانت تدفعهم من آن لآخر للإغارة على بعض المناطق المشمولة بالحماية المملوكية ، لم تجعل العلاقات الطيبة بين الدولتين تستمر في صفاء ووئام . فقد توجس المماليك خيفة من هذه الأطماع التي تسفر عن وجه العثمانيين

---

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٦٨) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٢٩) .

الحقيقي ، وقد تحققت مخاوفهم في سنة ١٣٩٩م (٨٠١هـ) فقد استولى بايزيد الصاعقة على ملطيه دارنده ››[١].

قال د.محمود الحويري : ‹‹ استأنف بايزيد غزواته في الشرق وكان هدفه المباشر إمارة دلغادر التابعة لسلطنة المماليك ، فانتهز فرصة قيام الفوضى التي أعقبت موت برقوق فضم تلك الإمارة إلى ممتلكاته في أغسطس ١٣٩٩، ثم استولى بايزيد على معظم قليقية من المماليك››[٢].

صور أساتذة التاريخ هذه الواقعة على أنها عدوان على المماليك وانتهاز لفرصة الفوضى التي حلت بهم وإظهار لوجههم الحقيقي وبيان لمطامعهم.

قلت : لو نظرنا في الحوادث بدقة لتبين لنا أن الأمر ليس كذلك . فقد ذكرنا في الباب الأول تفصيلا بأن تحالفا ثلاثيا قد عقد بين السلطان المملوكي الظاهر برقوق والسلطان العثماني بايزيد يلدرم وسلطان القفجاق طوقتمش خان ضد الطاغية تيمورلنك في عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م. وأن هذا التحالف قد آتى ثماره ، إذ نجح في رد تيمورلنك عن الشام في نفس العام . فبعد أن دخل تيمورلنك الرها وعزم على قصد الشام فخرج إليه السلطان برقوق من مصر لقتاله ووقع القتال بين طلائع الجيشين بالقرب من الرها[٣] ، فانسحب تيمورلنك بجنوده وعاد إلى بلاده[٤] ، بعد أن بلغته أنباء دخول طوقتمش خان إلى بلاده واستيلائه على بعضها[٥] ، وذكر ابن إياس أن تيمورلنك عاد إلى بلاده بعد أن بلغه نبأ استعداد الجيش العثماني ، قال ابن إياس : ‹‹ ابن عثمان ملك الروم جهز للسلطان مائتي ألف مقاتل بسبب قتال تمرلنك وكذلك صاحب سيواس ، فلما بلغ تمرلنك ذلك رحل إلى بلاده››[٦] .

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٧٥) .

(٢) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٨٧) .

(٣) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة :. ج٢ ورقة ٩٩ ، ١٠٠) ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢٠٥) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٤٩ - ٣٥١)، جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٤٨ - ٥٢) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٢١٠) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٥٦) ، جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٦١) .

(٥) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ١٠٦) .

(٦) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٤٧١) .

فلم يكن تيمورلنك ليتقدم إلى الشام في ظل تلك الظروف وإلا لكان وقع بين شقي الرحى ، جيش السلطان برقوق من أمامه وجيش السلطان بايزيد من خلفه ، وطوقتمش خان داخل أراضيه مما قد يهدد سمرقند نفسها عاصمة ملكه ، فتراجع إلى حين ، وقرر تيمورلنك تفكيك هذا التحالف الثلاثي فبدأ بطوقتمش خان فقاتله وظفر به وقتله ثم توفي الظاهر برقوق عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م وأصبح على السلطان بايزيد أن يواجه تيمورلنك منفردا وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول . والأنكي من ذلك أن السلطان فرج بن برقوق الذي تولى السلطنة بعد موت أبيه ، كان صغير السن جدا فتمرد عليه أمراؤه بدعوى أنه لا يصلح للسلطنة ، فاستولى كل من نائب دمشق ونائب حمص ونائب حماه على قلاعهم وأعلنوا جميعا العصيان[١]، وكان الأمير تنم نائب الشام قد تزعم هذا العصيان وأخذ يكاتب الأمراء فأطاعه نواب البلاد المذكورة ثم انضم إليهم نائب صفد ونائب طرابلس[٢].

هكذا ترى أن الفوضى عمت بلاد الشام يومئذ فأصبحت لقمة سائغة يسهل على تيمورلنك أن يبتلعها ، وهو لن يتوانى عن أن يعيد الكرة عليها وهو آمن الظهر هذه المرة بعد أن قضى على طقتمش خان ، فيبدو لي أن السلطان بايزيد أراد أن يقطع طريق الشام على تيمورلنك ، لأن الشام إن وقعت في يده ستصبح السلطنة العثمانية محاطة بجيش تيمورلنك ليس من الشرق فحسب بل من الجنوب أيضا ، وسيصبح موقفه حرجا جدا ، ولما كانت «ملطيه» هي المدخل إلى الشام الذي طالما طرقه تيمورلنك :

١- في عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م استولى تيمورلنك على آمد ففر منها قرا محمد إلى ملطية[٣] ، وذكر ابن إياس أن طلائع جيش تيمورلنك قد وصلت إلى ملطية[٤].

٢- وفي عام ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م عندما قدم تيمورلنك إلى أطراف السلطنة المملوكية خرج له الأمير ألطنبغا الأشرفي والأمير دقماق المحمدي نائب ملطيه وقاتلاه وانتصرا على طليعة

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ١٤٤) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٤٥٣) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٤/ ٣٠ ، ٩٧) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ٢٥٧) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ١٩٩) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٣٨٦) .

جيشه[١].

٣- في عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م جاء تيمورلنك على رأس جيشه إلى حدود السلطنة المملوكية واقترب من ملطيه ، فأرسل السلطان برقوق جيشا من دمشق إلى ملطيه وجيشا من حلب إلى أرزنجان فتراجع اللنك[٢].

فلما كانت ملطيه هي مدخل تيمورلنك لبلاد الشام التي عمتها الفوضى بعد موت السلطان برقوق ، فقد قرر السلطان بايزيد أن يضمها وما حولها من البلاد لتحصينها ولتكون درعا يحمى بلاد الشام ، وكذلك ليؤمن حدوده من هجمات تيمورلنك . فقام السلطان بايزيد في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م بضم أبلستين وملطيه وحاصر درنده[٣].

قال ابن حجر : « حاصر ملطية بعد موت الظاهر فأخذها بالأمان ورفق بأهلها فسلموا من النهب »[٤]...وقد ذكر **ابن إياس** أن السلطان فرج بن برقوق أرسل الأمير سودون الطيار إلى دمشق وحلب لتجهيز الجيش لقتال السلطان بايزيد . ثم قال : « جاءت الأخبار بأن ابن عثمان وصل ملطيه وملكها ثم رجع إلى بلاده ولم يشوش على أحد من الرعية ، وأمر عسكره ألا ينهبوا من الناس شيئا ما قيمته الدرهم الفرد ، فلما جاءت هذه الأخبار بطل أمر التجريدة »[٥].

مما سبق يتبين أن ضم السلطان بايزيد لملطيه وأبلستين كان أمرا حتمته الظروف لتأمين حدوده من غارات تيمورلنك بعد وفاة السلطان برقوق وشيوع الفوضى في الشام ، ولم يكن ذلك غدرا منه ولا طمعا في السلطنة المملوكية ، ومما يؤكد ذلك أن السلطان بايزيد لم يتوغل في السلطنة المملوكية ، وهو لم يكن ليستعصى عليه دخول حلب وحمص بل ودمشق نفسها ، لكنه اكتفى بتأمين الحدود ثم رجع إلى بلاده ، فعدل السلطان فرج عن الخروج لقتاله كما ذكر ابن إياس ، ومما يدلل على ذلك أيضا أنه جاء في تاريخ ابن قاضي شهبة ما يمكن أن نستنتج

---

(١) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٤٨/١٢) .

(٢) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ١٢٤ ، ١٢٥) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٤/ ٣٥) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٤٥٩) ، محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٥٤٧) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ١٢٨) .

(٥) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٥٤٨ ، ٥٤٩) .

منه أن السلطان بايزيد رد تلك البلاد إلى السلطان فرج بن برقوق بمجرد أن طلبها منه بعد أن تمكن من إخماد عصيان أمراء الشام الذين كان قد استفحل أمرهم ، لاسيما بعد أن انضم إليهم الأتابكي أيتمش وأصبح زعيما لهم إلا أن السلطان فرج انتصر عليه وقتله وأخمد العصيان في الشام ، قال ابن قاضي شهبة في حوادث عام ٨٠٢هـ : « إن السلطان مقيم بدمشق منتظر جواب قاصده الذي أرسله إلى ابن عثمان يطلب منه ملطيه فإن هو أرسل بتسليمها فالعود إلى مصر ، وإن لم يسلمها فلا بد من التوجه إلى تلك البلاد ، وفي كتاب آخر أن السلطان أرسل إلى ابن عثمان بأن يعيد جميع البلاد التي أخذها إلى ما كانت عليه في الزمان الماضي » ... ثم ذكر ابن قاضي شهبة بعد ذلك أن السلطان فرج عاد إلى القاهرة[1].

فأظن أن هذا يعني ، أن السلطان بايزيد أعاد تلك البلاد إلى السلطان فرج بن برقوق ، أو على الأقل تم التوصل إلى تسوية ما بينهما لكن المصادر لم تذكر ذلك صراحة . والدليل على عودة العلاقات بين السلطنتين أن السلطان بايزيد في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م أرسل إلى السلطان الناصر فرج بن برقوق هدية قيمة ، قال المقريزي : « قدم رسل أبي يزيد بن عثمان – ملك الروم – بهدية فيها عشرة مماليك وعشرة أرؤس من الخيل وعشر قطع من الجوخ وشاربان من الفضة وعشر قطع فضة ما بين أطباق وغيرها وعدة هدايا إلى الأمراء فقرئ كتابه في العشرين منه »[2]... وقد ذكر ابن إياس أيضا في نفس التاريخ أن السلطان بايزيد أرسل رسالة إلى السلطان الناصر فرج[3] ، لكن أي منهما لم يفصح عن فحواها ، أما ابن تغري بردي فقد ذكر أن الرسالة كانت عرضا للتحالف بين السلطنتين ضد تيمورلنك ، ورواية ابن تغري بردي تعتبر في غاية الأهمية لأن أباه (تغري بردي) كان من أكابر أمراء المماليك في زمن الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج ، قال : « ثم وصلت بعد قليل رسل ابن عثمان إلى الديار المصرية وكتابه يتضمن اجتماع الكلمة ، وأن يكون مع السلطان عونـًا على قتال هذا الطاغية تيمورلنك ليستريح الإسلام والمسلمون منه ، وأخذ يتخضع ويلح في كتابه على اجتماع

(١) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ١٦٠ ، ١٦١) .
(٢) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٦٧) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١/ ٥٩٢) .

الكلمة فلم يلتفت أحد إلى كلامه ، وقال أمراء مصر يوم ذاك : « الآن صار صاحبنا وعندما مات أستاذنا الملك الظاهر برقوق مشى على بلادنا وأخذ ملطية من عملنا فليس هو لنا بصاحب ، يقاتل هو عن بلاده ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا ». وكتب له عن السلطان بمعنى هذا اللفظ »[١].

فإرسال الهدايا وطلب التحالف على نحو ما سبق لا يمكن أن يكون بين دولتين متحاربتين متنازعتين ، فهذا يجعلنا نقول بأن السلطان بايزيد أعاد البلاد إلى المماليك أو تم تسوية الخلاف بطريقة ما لم تذكرها المصادر، ومع الأسف رفض المماليك التحالف مع العثمانيين مما سهل على تيمورلنك محاربة كل منهما منفردا فوقعت الفاجعة في الشام بعد اجتياح تيمورلنك إياها حتى وصل إلى دمشق ودمرها ، ثم التفت إلى الأناضول وانتصر على السلطان بايزيد في معركة أنقره عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م وتفككت الدولة العثمانية ، ودخلت في حرب أهلية لعشر سنوات حتى استطاع السلطان محمد جلبي بن بايزيد أن يعيد توحيدها مرة أخرى .

كان ذلك عرضا للأوضاع العامة والظروف التي حملت السلطان بايزيد على ضم بعض المدن والحصون المملوكية الحدودية ، وهكذا يتسنى لنا فهم الأحداث التاريخية على نحو صحيح ، أما المسارعة بالاتهام بالغدر والطمع والعدوان ، كما فعل أساتذة التاريخ فهذه أقوال أبعد ما تكون عن أقوال العلماء ، ورؤية أساتذة التاريخ في هذه المسألة لا يعجز عنها أحد ، فأي شخص كان ، حتى ولو كان أميا لا يقرأ ولا يكتب يستطيع أن يخرج بمثل استنتاجهم المذكور ، ويبادر إلى اتهام السلطان بايزيد بالطمع والعدوان . وهذا الرأي من الأساتذة كان يمكن أن نعتبره مجرد وجهة نظر تاريخية غير صحيحة نختلف معهم فيها ، لكن للأسف الشديد فأساتذة التاريخ إلا من رحم ربي ليس لهم عندنا رصيد من حسن الرأي والتحري ودقة البحث والإلمام بآراء المؤرخين المسلمين ، ما يجعلنا نفعل ذلك ، فحقيقة الأمر أن رأيهم هذا ما كان إلا تعبيرا منهم عن المناخ الثقافي العام السائد في البلاد وهو بغض العثمانيين والطعن فيهم بحق أو بباطل ، فهم في ذلك إنما يسيرون مع التيار ، وليسوا إلا ظلا للمؤرخين الأوروبيين يتبعونهم أينما حلوا كما تتبع النوق فصالها . ليس هذا مجرد طعن مني في

---

(١) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٢١٧) .

أساتذة التاريخ بل لقد قدمت فيما سبق أكثر من دليل على ذلك ، وما زال عندي المزيد مما ستراه في الصفحات القادمة . مثل الأسباب التي ذكرها أساتذة التاريخ لهزيمة السلطان بايزيد أمام تيمورلنك في معركة أنقره ، وسأبدأ أولا بذكر أسباب الهزيمة كما جاءت في مصادرنا ، ثم أذكر ما قاله أساتذة التاريخ ، حتى يتبين لك كيف أن مؤرخينا الأقدمين كانوا في واد وأساتذة التاريخ المعاصرين في واد آخر .

معركة أنقره

في عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٢م استولى تيمورلنك على سيواس ، وكان فيها يومئذ الأمير سليمان ابن السلطان بايزيد ، فدمرها وخربها ثم استولى على ملطيه ثم عينتاب ثم حلب ثم دمشق ثم عاد لقتال السلطان بايزيد في الأناضول ، فاضطر السلطان بايزيد أن يرفع الحصار عن القسطنطينية بعد أن كادت تسقط في يده وأن يجهز جيشا ضخما ، يجمع فيه كل ما يستطيع جمعه من الرجال والعتاد ليواجه جحافل تيمورلنك ، الذي كان جيشه يتكون من ثلاثمائة ألف مقاتل وقيل أكثر والله أعلم ، ثم إن الروميلي وهى الجزء الأوروبي من الدولة لم تكن مساحتها ضئيلة آنذاك ، فكان على السلطان أن يترك فيه قدرا لا بأس به من الجند ليأمن من تعدى الصليبيين ، فأعتقد أن هذا يفسر وجود عدد كبير من جنود التتر في جيشه ووجود جنود من الصرب التابعين له ، وقد ذكرنا ذلك كله في الباب الأول ولكن الله ﷻ يقول : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

أطنب المؤرخ الشهير أبو المحاسن جمال الدين بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) في ذكر تفاصيل المعركة ، ولروايته أهمية كبرى إذ إن أباه كان من أكابر أمراء المماليك ، كما أنه هو نفسه كان مختلطا بكثير من الأمراء من جيل أبيه وغيرهم ممن شهد حروب تيمورلنك كما سيأتي ، لذلك يطيب لي أن أنقل نص كلامه بصفة خاصة دون غيره من سائر المؤرخين كالقرماني وسعد الدين أفندي وابن عربشاه وابن أبي السرور البكري وغيرهم ، وكلهم لم تخرج روايتهم عن روايته وقد نقلنا عنهم في الباب الأول ، قال أبو المحاسن بن تغري بردي :

« ولما بلغ ابن عثمان مجيء تيمور إليه جمع عساكره من المسلمين وجمع من علوج النصارى خلقا ، وطوائف الططر فأتوه بمواشيهم ، فلما تكاملوا سار لحرب تيمور . فأرسل تيمور قبل وصوله

إلى الططر يخدعهم ويقول لهم : نحن جنس واحد وهؤلاء تركمان ، نرفعهم من بيننا ويكون لكم الروم عوضه ، فانخدعوا له وواعدوه أنهم عند اللقاء يكونون معه . وسار ابن عثمان في شهر رمضان وفي ظنه أنه يلقى تيمور خارج سيواس ويرده عن عبور أرض الروم ، فسلك تيمور لعنه الله غير الطريق ومشى في أرض غير مسلوكة ودخل بلاد ابن عثمان ونزل بأرض مخصبة ذات ماء كثير وسعة ، فلم يشعر ابن عثمان إلا وقد نهبت بلاده ، وقد قامت قيامته وكر راجعا ، وقد بلغ منه ومن عساكره التعب مبلغا ، أوهن قوائمهم ، ونزل على غير ماء وكادت عساكره تموت عطشا ، فلما تدانوا للحرب كان أول بلاء نزل بأبي يزيد بن عثمان مخامرة الططر بأسرهم عليه ، فضعف بذلك عسكره لأنهم كانوا معظم عسكره ، ثم تلاهم ولده سليمان بن أبي يزيد ورجع عن أبيه بباقي عسكره وقصد مدينة بورصا دار ملكهم . فلم يبق مع أبي يزيد إلا نحو الخمسة آلاف ، فثبت بهم حتى أحاطت به عساكر تيمور ، فصدق وصدق من معه في ضربهم بالسيوف والأطبار حتى أفنوا من التمرية أضعافهم ، هذا مع كثرة التمرية وشدة عزمهم . واستمر القتال بينهم من ضحى يوم الأربعاء إلى العصر، فكلت عساكر ابن عثمان وتكاثر التمرية عليهم يضربونهم بالسيف إلى أن صرع منهم جماعة من أبطالهم ، وأخذ أبو يزيد بن عثمان المذكور قبضا باليد ، على نحو ميل من مدينة أنقره في يوم الأربعاء المذكور سابع عشرين ذي الحجة سنة أربع وثمانمائة بعد أن قتل غالب عسكره بالعطش ، فإنه كان يومئذ ثامن عشرين تموز »[1]...أما ابن عرب شاه فبعد أن ذكر استئثار تيمورلنك بموارد المياه ، واستبداد الظمأ بجنود السلطان بايزيد ، فقد ذكر انصراف عسكر التتر عن جيش السلطان ، ولحاقهم بجيش تيمور فقال : « وكانوا هم صلب العسكر والأفر من عساكر ابن عثمان والأكثر حتى قيل أن جماعة التتر كانوا نحوا من ثلثي ذلك العسكر الجرار »[2].

أما سعد الدين أفندي فقد بالغ في ذكر تفاصيل أكثر مما ذكره ابن تغري بردي . وسأكتفي بنقل ما يتعلق بها نحن بصدده ، فبعد أن ذكر استيلاء تيمور على موضع للماء وردم سائر الآبار والعيون في طريق الجيش العثماني ، قال سعد الدين أفندي : « واشتد الحال بين الجانبين

---

(١) جمال الدين بن تغرى بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٤/ ١٢٧) .

(٢) شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ١٣٥) .

فبينما هم في أثناء ذلك انخذل عسكر كرميان وهربوا إلى جانب العدو ، لأن حاكمهم كان قد انضم إلى تيمور ، ولحق بهم أيضا وانخذل عسكر آيدن ومنتشا وصاروخان وهربوا لهم وانضموا إلى عسكر تيمور ، وهربت أيضا جماعة من عسكر التتر ... ومن انخذل كان أكثر من نصف العسكر والعدو أضعافا مضاعفة » ...ثم وصف نهاية المعركة فقال : « وأقبل الليل في ظلمة جوانبه وتفرق من كان معه من شدة العنا وكثرة الفنا ، وتفرق جمعه وتمزق واختال عليه العدو كالبرق الخاطف وأحاطوا به ، فلما رأى انكساف كوكب دولته وانحطاط جلال صولته نزل (بايزيد) من التل الذي كان عليه كالبرق الخاطف والريح العاصف على من كان محيطا به (من جنود تيمور) ومزقهم كل ممزق وخرق منهم الصفوف وغرق في الدماء وكلت منهم السيوف ... ولكن لما تكاثر العدو عليهم لم تكن لهم طاقة لديهم سلموا الأمر إلى الله تعالى واستشهد من الأمراء جمع كثير ». ثم ذكر سعد الدين أفندي أن السلطان أسر وسيق إلى تيمور(١).... أما قطب الدين النهروالي فقد قال : « ولما التقى الفئتان قرب أنكوريه (أنقره) هرب من عساكره طائفة التتار وعسكر منتشا وعسكر كرميان وتركوا مولانا السلطان بايزيد وحده ، وهربوا إلى تيمور ووقع بينهم الحروب الشديدة ، وقتل من أولاد السلطان بايزيد مولانا السلطان مصطفى وشرع عسكره في الانهزام ، وثبت هو قليلا بمن معه يقاتل إلى أن وصل إلى تيمور بسيفه المشهور ، وقد عجزوا عنه لشجاعته وقوته فرموا عليه بساطا وأمسكوه وحبسوه »(٢)...أما ابن أبي السرور البكري فقد نقل عن النهروالي مع اختلاف بسيط في الألفاظ(٣)...وأما القرماني فقد بين أن السلطان بايزيد سار بجنوده لملاقاة تيمور خوفا من هجومه على البلاد. فقال : « وخاف من الهجوم على بلاد الروم فأجرى (بايزيد) من عساكره السيول الهامرة وأخذ بهم على قفار غامرة ، وكان غالب عسكره من التتار وهم قوم ذو يمين ويسار ، فأرسل تيمور إلى زعمائهم والكبار من رؤسائهم وكبرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فوعدوه بالمعاونة

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٣٨) .
(٢) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٢٥٤) .
(٣) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٧) .

والمعاودة ... واندفعت من عساكر العثمانية التتار واتصلت بعسكر تيمور كما رسم أولا وأشار وكانوا هم صلب العسكر والأوفر والأكثر »[1].

يمكن أن نخلص من كلام المؤرخين أن أسباب الهزيمة كانت تنحصر فيما يلي :

١ - تخاذل التتر في جيش السلطان بايزيد وانضمامهم إلى تيمورلنك فازاد بهم قوة إلى قوته.

٢- خيانة أمراء الطوائف التركمان الذين كانوا في طاعته فتركوه وانضموا بعساكرهم إلى تيمورلنك فازداد بهم قوة على قوته ، وهذا يفسر هروب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد لأنه كان قائدا للميمنة التي كانت عبارة عن جيوش الإمارات التركمانية كما ذكر سعد الدين أفندي[2]. فلما فرت طوائف التركمان وانكشفت جبهته فر هو أيضا .

٣- تعرض ما تبقى من جيش السلطان بايزيد إلى الإنهاك الشديد بسبب المسير في صحراء الأناضول في الصيف مع عدم الماء . ولم يكن للسلطان بايزيد بد من ذلك كما سنبين .

فهكذا رأى المؤرخون المسلمون أسباب الهزيمة في معركة أنقره ولكن أساتذة التاريخ كان لهم رأى أخر .

أولا : زعم **الأستاذ المجهول** أن السلطان بايزيد تسبب في الصدام مع تيمورلنك فقال ص ٨١ : « وصلته (بايزيد) أنباء زائفة من بعض السفراء عن قوة خصمه الحقيقية ومن ثم اتبع اسلوب إثارة تيمور حتى يدفعه للدخول معه في معركة ». **وقال أيضا** : « أرسل (بايزيد) حملة بقيادة ابنه سليمان في ١٣٩٩ ضد أحد الأمراء التركمان الذين كانوا تحت حماية تيمورلنك وهو قره يوسف وتمكن من أسره ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يثور فيها تيمور ضد بايزيد وكتب إليه طالبا إعادة الأسير » .

قلت : هذا كلام أستاذ لم يقرأ المصادر التاريخية أصلا ولا اشتم رائحتها وذلك من وجهين.

١ - إن تيمورلنك ليس بحاجة إلى استفزاز بل إن دأبه الغزو والتخريب وإفناء الدول . وكل المراسلات التي تسبق الحروب ما هي إلا ذرائع يستثير به تيمور العداوة . وقد قال ابن

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٩) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، (ورقة ٣٧) .

حجر عن تيمور : « وكان هذا دأبه إذا بلغه عن مملكة كبيرة أو ملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها ، إلى أن يحصل مقصوده فيتركها بعد أن يخربها ويرجع ، فعل ذلك بالشرق كله وبالهند وبالشام وبالروم إلى أن أهلكه الله تعالى »[1].

وقد ذكر ابن عرب شاه موقفا آخر لتيمور شبيه بهذا الموقف ولكنه كان مع المماليك ، عندما طلب منهم تيمور إرسال قريبه « أطلميش » الذي كان محتجزا عندهم ، فقد قال ابن عرب شاه : « جعل ذلك حجة للعداء وسببا له »[2].

وقد ذكرنا آنفا أقوال العلماء في تيمورلنك مما يغني عن الإعادة ، وإن كان الأستاذ المجهول ليس مقتنعا بأقوال العلماء ، فحسبه قول تيمور نفسه عن نفسه ، في رسالته التي أرسلها إلى السلطان الظاهر برقوق ، والتي أوردها ابن عرب شاه والمقريزي وابن تغري بردي في كتبهم . قال تيمورلنك : « اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من حل عليه غضبه ، لا نرق لشاكي ولا نرحم باكي قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا . فقد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأظهرنا في الأرض الفساد »[3].

وبالرغم من ذلك فإن **الأستاذ المجهول** يقول ص ٨٦ : « واجه (بايزيد) الدمار مع المغول الذين لم يكن لهم سوى هدف واحد هو تأمين حدودهم الغربية وإيجاد السلام مع دولة العثمانيين الغزاة ».

قلت : والله لا أدرى ما أقول ولا أستطيع أن أتمالك نفسي من الضحك عند قراءة هذه العبارة ، وقد قيل إن شر البلية ما يضحك ، « كان هدف تيمورلنك السلام » !! .

٢- وهو دليل أيضا على أن الأستاذ المجهول لم ينظر ولو نظرة عابرة في المصادر التاريخية. فإن قره يوسف الذي يزعم الأستاذ المجهول أنه كان مشمولا بحماية تيمورلنك وأن السلطان بايزيد أسره ، إنما هو حاكم تبريز ، وقد قاتله تيمورلنك أكثر من مرة ، وفي آخر مرة فر من تيمورلنك ولجأ إلى السلطان بايزيد مستجيرا به من طغيان تيمور . فلما طلبه تيمورلنك من

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٦١ ، ١٢٨) .

(٢) شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ٩٠) .

(٣) شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ٧٠) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣٥٠) ، جمال الدين بن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٣/ ٣٢٠) .

السلطان بايزيد أبت عليه عزته وشجاعته أن يتخلى عمن استجار به . **قال ابن حجر** : « وكان السبب في قصد اللنك بلاد ابن عثمان أن أحمد بن أويس وقرا يوسف كانا قد فرا إليه فأجارهما ، فراسله اللنك بعد أن غلب على بغداد فيهما ، فامتنع فجعل ذلك ذريعة إلى قتاله ، فتوجه إليه »[١]... **وقال ابن عرب شاه** : « واستقر رأيه (أحمد بن أويس) على أن لا قرار ، ثم استناب نائباً يدعى فرج وأوصى إليه وإلى ابن البليقي بأمور ، وصحبه قرا يوسف إلى الروم »[٢]..وقال **ابن تغري بردي** : « كان السلطان أحمد بن أويس قد استناب ببغداد أميرًا يقال له فرج وتوجه هو وقرا يوسف نحو بلاد الروم »[٣].

قال سعد الدين أفندي : « اتفق هو (أحمد بن أويس) مع قره يوسف وتوجهوا للالتجاء بحماية السلطان يلدرم بايزيد خان »[٤].

لقد عمدت إلى نقل كل هذه النصوص لأبين أن أمر قره يوسف ليس من قبيل الأخبار الدفينة في بطون المصادر ، بل هو ظاهر في أكثر من مصدر تاريخي ، وأخباره كما لو كانت تنتظر من يقرؤها ، لكن الأستاذ المجهول آثر عدم النظر في المصادر ، ولعله نقل عن أي مرجع .

ثانيا : أفتى أساتذة التاريخ بأن من أسباب الهزيمة هو خطأ بايزيد بضم الإمارات التركمانية متخليا عن تقاليد الغزاة ، فإن **د.أحمد عبد الرحيم مصطفى** أغفل ذكر تخاذل التتر وهو أهم أسباب الهزيمة على الإطلاق ، واكتفى بذكر انحياز أمراء الطوائف بجنودهم إلى تيمور ثم قال : « الدولة كانت تفتقد إلى كل ما يجعل منها إمبراطورية في الوقت الذي لم يدرك فيه بايزيد الاتجاه الحقيقي صوب إقامة إمبراطورية ، فهي دولة غزاة تحارب الكفار ومن ثم خطأ بايزيد إلى ضم دول إسلامية »[٥].

أما **د.محمود الحويري** فقد ذكر معاناة الجيش العثماني من نقص المياه ولكنه أغفل ما هو أهم

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٦١) .

(٢) شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ١٢٤) .

(٣) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٢٦٦) .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ .ورقة ٣٤) .

(٥) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٨) .

من ذلك وهو انصراف التتر من الجيش العثماني وهروبهم إلى تيمور ، كما أغفل ذكر انصراف جنود الإمارات التركمانية من جيش السلطان بايزيد إلى جيش تيمورلنك أثناء المعركة. ولكنه اكتفى بأن يقول بأسلوب مبهم : « حصل تيمور على مساعدة معظم التركمان الذين أعاد إلى أمرائهم أراضيهم وممتلكاتهم بعد أن أخذها من العثمانيين » .

وهناك فرق شاسع بين ما قاله د.محمود الحويري وبين حقيقة ما حدث وذكرته مصادرنا من أن جنود الإمارات التركمانية تركوا مواقعهم في جيش السلطان بايزيد أثناء المعركة وانضموا إلى جيش تيمورلنك . أما كلمة « مساعدة » التي استخدمها د.محمود فلا تعبر عن حقيقة الحال ، أتدرون من أين جاءت البلية ؟! جاءت البلية لأن د.محمود الحويري نقل ذلك عن المؤرخ الأمريكي اليهودي ستانفورد شو ولم يكلف خاطره النظر في مصادرنا ، ثم إن د.محمود الحويري علل أسباب الهزيمة بقوله نقلا عن ستانفورد شو أيضا : « لقد انهار جيش بايزيد بسهولة في موقعة أنقرة لأنه تخلى عن تقاليد الغزاة وهم الذين يحاربون الكفار الذي عاد بالنجاح على أسلافه . فأبعد الضباط والجنود الذي قادوا الفتوحات السابقة »[1] .

قلت : أود أن أسأل د.محمود الحويري عن هؤلاء الضباط والجنود الذين زعم أن السلطان بايزيد أبعدهم بعد أن حققوا الفتوحات السابقة ؟! فهذا القول ليس له أساس من الصحة ، وقد ذكر لنا سعد الدين أفندي أسماء القادة الذين شاركوا في معركة أنقره ، فمنهم علي باشا وهو الوزير منذ أيام السلطان مراد الأول والد السلطان بايزيد ، وممن شارك أيضا في معركة أنقره تيمورطاش باشا وأرنوص باى وفيروز باى وغيرهم[2] ، وكل هؤلاء كانوا من قادة الجيش منذ أيام السلطان مراد . وقد ذكرنا فتوحاتهم في الباب الأول ، فهلا ذكر لنا د.محمود الحويرى اسم واحد من هؤلاء الضباط الذين زعم أن السلطان بايزيد أبعدهم ؟! أم أنه قرأ هذه الجملة في مرجع أوروبي أو حتى عربي فأعجبته فدونها في كتابه !

وأما الأستاذ المجهول فقد أغفل أيضا انصراف التتر من جيش السلطان بايزيد وانضمامهم إلى تيمور ، كما علل تخاذل جنود الإمارات التركمانية بسوء ترتيب السلطان بايزيد لقوات

---

(١) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٨٩ ، ٩١) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٢٤ ، ٣٧) .

جيشه . فقال (ص ٨٤) : « لكنه وضع فروسية الأناضول في الصفوف الأولى وهؤلاء بعد أن بدأت المعركة شاهدوا أمامهم عدوا مرعبا فما لبثوا أن غادروا أرض المعركة وانضموا إلى جيش تيمور ».

قلت : هذه علة عجيبة لم ترد في أي مصدر من المصادر كما قدمنا ، كما أنها تخالف صريح العقل ، فإن من يتملكه الرعب والخوف في ساحة المعركة يفر ويولي الدبر ، ولا ينضم إلى العدو .! كما أن الأستاذ المجهول يخالف المصادر التاريخية ويصر على أن تيمور لم يستغل أمراء الطوائف التركمانية فقد قال : (ص ٨١): « وكانوا يسعون إلى استعادة إماراتهم مرة أخرى من العثمانيين وكان بعض هؤلاء الأمراء يعيش في بلاد تيمورلنك إلا أن الأخير لم يفكر جديا في مشاكلهم أو أن يستخدمهم كأداة ضد العثمانيين ».

لست أدرى من أين يستقي الأستاذ المجهول أوهامه ، كيف لم يستخدمهم تيمور وهم قد تركوا مواقعهم في جيش السلطان بايزيد أثناء المعركة وانضموا إلى تيمور ، ألا يعد هذا استخداما ؟! . **وقال الأستاذ المجهول** ص ٨٦ : « لقد فشل بايزيد لأنه تجاوز الحدود وخرج على تقاليد الغزاة من أجداده في آسيا الصغرى وأوروبا ، لقد دخل في صراع مع إمبراطورية شرقية دون أن يحسن تقدير موارده ولم يستمع لنصائح رجال الدين في مدينة بورصا المقدسة فواجه الدمار مع المغول ».

قلت : لقد بينا سابقا بطلان الزعم بتخلي السلطان بايزيد عن تقاليد الغزاة بضمه الإمارات التركمانية مما يغني عن الإعادة ، ولكن أود أن أوجه سؤالا إلى الأستاذ المجهول ، من هم رجال الدين الذين رفض السلطان بايزيد الاستماع إلى نصائحهم ؟! وما هو وجه القداسة في مدينة بورصه ؟! نحن لا نعرف مدنا مقدسة سوى مكة والمدينة والقدس ، أما بورصه فهذا أمر لم يسمعه أنس من قبل ولا جان. إن الأستاذ المجهول غارق في الأوهام . يا حسرة على الطلاب الذين خرجوا من تحت يده . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

ثالثا : أما الأساتذة الذين أنكروا على السلطان بايزيد خروجه بجيشه وعبوره الأناضول في شدة الحر لملاقاة تيمورلنك فسأذكر كلامهم جميعا ثم أرد عليه .

فأولهم د.محمد أنيس أحد أعلام التاريخ الحديث ، فقد ذكر انضمام التتر إلى جيش تيمورلنك

ولكنه أغفل انحياز أمراء الطوائف التركمان بجنودهم إليه ، بل إنه زعم أن سائر الجيش كان مخلصا منظما ، فقد قال وفي قوله العجب لأنه يخالف جمهور المؤرخين المسلمين الترك والفرس والعرب : « ففيما عدا العناصر التترية في المقدمة كانت كل وحدات الجيش مخلصة في ولائها له واعتادت الحرب مع بعضها بنظام وشجاعة »[١].

ثم ذكر د.محمد أنيس أن من أسباب الهزيمة : « لم يكن في الواقع ما يدعو ببايزيد إلى الخروج لملاقاة تيمور فقد كان من الممكن له أن يتحصن غربي أنقره بدلا من أن يرهق نفسه وجيشه تحت شمس يوليه المحرقة لملاقاة تيمور ، فبهذا العمل أجهد جيشه وحتى مع ذلك لم يحسن اختيار الموقع المناسب لمقابلته ، كان يجب أن يترك تيمور ليستنفذ بعض قواه في سقوط أنقره نفسها ثم يقابله بجيشه وراء أنقره مباشرة ، لكن بايزيد لم يقبل هذا بل فضل وهو فيما كان عليه من اضطراب وتوقع للكارثة أن تكون المعركة أمام أنقرة. وفي اضطرابه وبلبلته العقلية ارتكب خطأ استراتيجيا جسيما وهو ما كان يريده تيمور ».

كما أنكر د.محمد أنيس على السلطان بايزيد مبادرته بالهجوم على تيمورلنك ورأى أنه كان من الأولى به أن يتخذ موقف الدفاع لأن الجنود العثمانيين إنما يجيدون الدفاع عن الهجوم[٢].

أما د.أحمد فؤاد متولي فقد ذكر انضمام أمراء الطوائف التركمان إلى جيش تيمورلنك ولكنه أغفل ذكر أهم الأسباب وهو انضمام التتر ، وقال كلاما شبيها بكلام د.محمد أنيس . فقد قال د.أحمد فؤاد : « وبدلا من أن يتراجع بايزيد بجنوده خلف التلال ليريح رجاله بعد الرحلة الطويلة التى قطعوها ، دفع بهم إلى المعركة مباشرة وهاجم تيمورلنك في منطقة مرتفعة من الأرض »[٣].

قلت : كأن تيمورلنك كان سيمهل الجيش العثماني فرصة حتى يستريح ويستعيد قوته ا. فمما لا شك فيه أن تيمور لم يكن ليضيع فرصة الهجوم على الجيش العثماني قبل أن يستريح الجنود .

أما د.زبيدة عطا فقد أغفلت كل أسباب الهزيمة ، فلم تذكر انضمام أمراء الطوائف ، ولا التتر

---

(١) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٤٨) .

(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٤٨) .

(٣) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٨٢) .

إلى تيمور ، ولا ذكرت الموقف العسكري للطرفين ، وإنما اكتفت باتهام السلطان بايزيد بالجهل والشح والبخل دون أن تذكر مصدر تلك المعلومة فقالت : « وتسبب جهل بايزيد في وضع نفسه في مركز سيء من الناحية التكتيكية ، وكان جنوده لا يميلون إليه بسبب شحه وبخله »(١).

ومما يلفت النظر أن د.أحمد عبد الرحيم ذكر كلاما شبيها بكلام د.زبيدة ولم يذكر مصدره أيضا فقال : « في عام ١٤٠٢ في الوقت الذي فقد فيه بايزيد ثقة قواته بسبب بخله »(٢).

أما د.صلاح هريدى فقد أغفل أيضا ذكر انصراف التتر من الجيش العثماني وانضمامهم إلى جيش تيمورلنك ولا عجب في ذلك فإن د.صلاح ينقل نصا عن نيقولا فاتان ، ونيقولا فاتان لم يذكر ذلك فعلينا أن نوجه اللوم في هذه الحالة إلى نيقولا فاتان وليس للدكتور صلاح!! ثم طعن د.صلاح في السلطان بايزيد بمطعن آخر فقال : « في حين أن جيش بايزيد المؤلف من عناصر مختلفة والذي يحارب لحساب أمير صلف لا يهتم كثيرا بالقاعدة أقل مدعاة للثقة »(٣) .

أما الأستاذ المجهول فقد ذكر أن القادة أشاروا على السلطان بايزيد باتخاذ موضع الدفاع بدلا من الهجوم ثم قال (ص ٨٣): « لكن بايزيد رفض الاستماع لهذه الآراء وتعجل ودفع بقواته جهة الشرق على طول الطريق إلى سيواس ... وبرغم ذلك استخف بجميع التحذيرات وسار بقواته كأنه ذاهب إلى رحلة صيد فحصد الجوع والعطش الآلاف من رجاله ».

قلت : هكذا عاب الأساتذة على السلطان بايزيد خروجه لقتال تيمورلنك وعبوره صحراء الأناضول في شدة الحر... نعم كان يمكن للسلطان بايزيد أن يقيم بجيشه غرب أنقره بأن يقيم في بورصه مثلا أو حتى في نيقيه محتفظا بجيشه معافى مسترحيا منتظرا قدوم تيمورلنك عليه بجيش منهك أحرقته شمس الصيف الأناضولية ، فيسهل عليه دحره ، بل لا نكون قد ذهبنا بعيدا لو قلنا أن السلطان بايزيد كان يمكنه أن يبقى في الروميلي ولا يعبر للأناضول أصلا ويترك ساحة الأناضول لتيمورلنك يفعل فيها ما يشاء ، لأنه حتما عاجلا أم آجلا سيعود إلى بلاده ويترك الأناضول ، كما فعل من قبل في بغداد وحلب ودمشق وغيرهن

---

(١) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٧٨) .

(٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٧) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٥٦) .

بعد أن خربهن فأصبحن خاويات على عروشهن ، ولكن في تلك الحالة فإن تيمورلنك كان سيجتاح البلاد ويعيث في الأرض الفساد وينهب ويهدم ويقتل ويخرب ، فهذا دأبه كما هو معلوم للعامة والخاصة ، ولكن لا ، ليس هذا من شيم سلاطين بني عثمان ، ولو كان السلطان بايزيد قد بقي في غرب الأناضول منتظرا قدوم تيمورلنك عليه ، فيكون عندئذ قد تقاعس عن أداء واجبه تجاه رعيته ، وهو حمايتهم من أي عدوان عليهم مهما كان عظيما ، والسلطان بايزيد إمام عادل وسلطان شجاع ليس هو الرجل الذي يقبع بجيشه بعيدا عن الأخطار ويذر رعيته تواجه الأهوال والقتل والسبي والتشريد وانتهاك الأعراض . وتيمورلنك يعرف ذلك عن السلطان بايزيد واستغله أحسن استغلال . فأخذ يغير اتجاه سيره جنوبا ثم شمالا ثم غربا ، وهو يعلم أن السلطان بايزيد سيضطر إلى تتبعه محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الرعية . ثم سيطر تيمور على أحد منابع المياه ليؤمن الماء لجيشه وردم سائر الآبار والعيون التي في طريق الجيش العثماني ، ولم يكن السلطان بايزيد غافلا عن ذلك ولكنه كان مضطرا لقطع كل هذه المسافة لمقاتلة تيمورلنك ، ولنر ما قاله مؤرخونا الأقدمون في ذلك الشأن . لتعلموا أن أساتذة التاريخ لا يقرأون مصادرنا وإن قرؤها فلا يأخذون بها .

فقد قال ابن عرب شاه : « فأما ابن عثمان فإنه خاف منه الهجوم ، على بلاد الروم ، لأن الزروع كانت قد استحصدت ، وصدور الفواكه والثمار قد استنهدت ، وخضروات الأرض قد اسودت ، والرعايا في ظل الأمن والرفاهية قد امتدت ، فخشي ابن عثمان أن يصيب العباد منه ضرر ، أو يتطاير إلى قبائل بلاده من لهيب ناره شرر ، فبادر إلى ملاقاته »[١].

وقد نقل سعد الدين أفندي عن السلطان بايزيد قوله : « لم يكن ولم يتصور لنا دفعه (تيمور) عن الهجوم لبلاد الروم ونهبها وسبي نسائها وبناتها إلا بمقابلة الصفوف والمقاتلة بالنبال والسيوف وآخر قوله : سيكفيني الإله وحد سيفي لدى الهيجا تحسبه شهابا »[٢].

وقال القرماني : « وكان السلطان يلدرم بايزيد على مدينة اصطنبول (القسطنطينية) محاصرا آثمها وكفارها وقد قارب أن يفتحها وتضع الحرب أوزارها. فتركها وتوجه لقتاله

---

(١) شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ١٣٣) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٣٧) .

(تيمور) واستعد لاستقباله ، وخاف من الهجوم على بلاد الروم فأجرى من عساكره السيول الهامرة وأخذ بهم على قفار غامرة حذرا على رعاياه من مواطىء مطاياه فإنه كان على الضعيف من رعيته شفوقا وبالفقير من خدمه وحشمه رفيقا »[1].

هذا الإيثار والتضحية والبطولة من السلطان بايزيد بل والشجاعة إذ أنه بقي يقاتل حتى النهاية بعد أن فر من فر وخان من خان ، ولم يبق معه غير خمسة آلاف رجل أمام مئات الآلاف من جيش تيمور ، فإن د.محمد أنيس يسمى ذلك « اضطرابا وبلبلة عقليه » وتسميه د.زبيدة « جهلا » ، وبعضهم قال بخل وشح وصلف !!. قلت : يا أيها الأساتذة ما لكم كيف تحكمون ... ألا إنما قولكم هذا هو الجحود والنكران بعينه ، بل هو سوء أدب ورب الكعبة ، ثم من أين جئتم يا أساتذة التاريخ بهذا الكلام ؟ لا ريب أنه من كتب الأوروبيين ، فإن مصادرنا التاريخية لا ترد فيها مثل هذه الزلات . وما من مؤرخ من المؤرخين ممن كتبوا عن بني عثمان إلا وأثنى على السلطان بايزيد وقد ذكرنا أقوالهم فيما مضى ، أما المؤرخ الغربي ، حتى وإن كان منصفا فإنه لن يستطيع أن يفهم أبدا نفسية السلطان بايزيد ولا الروح التي كان يقاتل بها عدوه تيمورلنك ، ولا المرجعية التي يبني عليها قراراته ، لأنها بمنتهى البساطة تنبع من ثقافة غريبة عليه لا يستطيع أن يفهمها ، فهو على أي حال ابن ثقافته الغربية الحديثة المادية التي تجحد القيم الروحية لأنها تتصل بما يسمونه الميتافزيقا (عالم ما وراء الطبيعة) فكل ما لا يدرك بالحواس الإنسانية فهو عندهم غير موجود ، لذلك تراهم لا يؤمنون بالملائكة ولا بالجن ولا بمعجزات الأنبياء بل ولا يؤمنون بوجود الله أصلا[2]. لذلك فإنهم يفسرون التصرفات الإنسانية بدوافع المصالح المادية ، فلن يستطيعوا أبدا أن يفهموا ما فهمه ابن عرب شاه وسعد الدين أفندي والقرماني من حقيقة المشاعر والدوافع التي كانت تختلج في نفس السلطان بايزيد

---

(١) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٩) .

(٢) هنا أتحدث عن الثقافة الغربية بوجه عام . بالطبع يوجد في أوروبا أناس يؤمنون بوجود الله بل وبالأنبياء أيضا وبمعجزاتهم لكن ليس هذا هو التيار الثقافي العام السائد في أوروبا ، بل إن الثقافة العامة عندهم أن الدين من الخرافات الإنسانية . وقد ذهب فرويد إلى أنه مرض نفسي ، ويقول الفيلسوف الإنجليزي جود لا أستطيع أن أعد أكثر من ستة من معارفي ممن أعدهم مؤمنين بالمسيح والمسيحية في حين أستطيع أن أعد بسهولة أكثر من مائة من معارفي الملحدين . انظر : العلمانية نشأتها وتطورها ... لسفر الحوالي (ص ٣٤٩) .

في ذلك الموقف ، ولن يستطيعوا فهم الفرق بينه وبين تيمورلنك ، فالسلطان بايزيد إمام عادل يحفظ الأمانة التي طوق الله بها عنقه ، أما تيمورلنك فهو قاطع طريق فاسق وقيل كافر .

وبمطالعة كتب مؤرخينا الأقدمين مثل الحافظ ابن حجر العسقلاني وابن تغري بردي وابن عرب شاه وسعد الدين أفندي وقطب الدين النهروالي والقرماني وابن أبي السرور البكري وإبراهيم العبيدي(١) يتبين أن أسباب الهزيمة هي الثلاثة التي تقدم ذكرها وأهمها انضمام التتر إلى جيش تيمورلنك ، فهؤلاء سبعة من مؤرخينا الأقدمين أجمعوا على ذلك . ولكن أساتذة التاريخ تغافلوا عنه(٢) ثم راحوا يذكرون أسبابا أخر مثل الجهل والبخل والشح والصلف والتخلي عن تقاليد الغزاة وضم الإمارات التركمانية وغير ذلك من الكلام الذي لا يسوي الحبر الذي كتب به ، ثم إن هناك سببا رابعا للهزيمة ذكره ابن تغري بردي وهو رفض السلطان المملوكي الناصر فرج التحالف مع السلطان بايزيد ، قال ابن تغري بردي عن عرض التحالف : « وكان ما قاله أبو يزيد بن عثمان من أكبر المصالح ، لأنه حدثني فيما بعد الأمير أسنباي الظاهري الزردكاش ، وكان أسره تيمور وحظي عنده وجعله زردكاشه ، قال : قال لي تيمورلنك ما معناه أنه لقي في عمره عساكر كثيرة وحاربها ، لم ينظر فيها مثل عسكرين : عسكر مصر وعسكر ابن عثمان المذكور ، غير أن عسكر مصر كان عسكرا عظيما ليس له من يقوم بتدبيره لصغر سن الملك الناصر فرج ، وعدم معرفة من كان حوله من الأمراء بالحروب ، وعسكر ابن عثمان المذكور ، غير أنه كان أبو يزيد صاحب رأي وتدبير وإقدام ، لكنه لم يكن معه من العساكر من يقوم بنصرته. قلت : ولهذا إن المصلحة كانت

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٦١) ، جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٢٦٦) ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (٤/ ١٢٦) ، شهاب الدين بن عرب شاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور (ص ١٣٥) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٣٨) ، قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٢٥٤) ، أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ١٩) ، محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٧) ، إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان . (مخطوط بمكتبة الإسكندرية ، ميكروفيلم رقم ٤٦٧٨ ، ورقة ٣٠) .

(٢) لم يذكره إلا د. محمد أنيس كما سبق أن بيناه.

تقتضي الصلح مع سليمان بن أبي يزيد بن عثمان[١] المذكور فإنه يصير للعساكر المصرية من يدبرها ويصير لابن عثمان عساكر مصر مع عساكره عونا فكان تيمور لا يقوى على مدافعتهم ، فإن كلا من العسكرين كان يقوى على دفعه لو لا ما ذكرناه ، فما شاء الله كان »[٢].

وهذا السبب الأخير من أسباب الهزيمة لم يذكره أساتذة التاريخ أيضا ، لأنهم ببساطة لا ينظرون في مصادرنا وإنما يكتفون بالنظر في المصادر الأوروبية التي أشربوها في قلوبهم ، ومما يشير إلى أن أساتذة التاريخ لا ينظرون في مصادرنا إلا قليلا أن إحدى المدن واسمها « آق شهر » وهو اسم مركب من كلمتين آق تعني أبيض ، وشهر بكسر الشين والهاء تعني مدينة فيكون الاسم (المدينة البيضاء) ، ولكنك ترى أن د.محمد أنيس يذكرها باسم « عك شهر »[٣] وذلك لأنه ينقل عن المصادر الأوروبية التي تكتبها Ak Shehir فظن د.محمد أنيس أن حرف A إنما هو يعبر عن حرف (ع) ولو كلف خاطره بالنظر في مصادرنا لما وقع في هذا الخطأ ، ومثل ذلك عند د. زبيدة عطا فقد ذكرت أن الصدر الأعظم للسلطان محمد الفاتح إبان فتح القسطنطينية كان اسمه هلال باشا[٤] ، هذا خطأ فادح ، بل إن اسمه خليل باشا ولكن من الواضح أن د.زبيدة نقلت عن المصادر الأوروبية التي يكتب فيه اسمه Halil فظنت أن اسمه هلال ، والصواب أن اسمه خليل ولو كانت د.زبيدة رجعت إلى المؤرخ التركي طاش كوبري زاده في كتابه القيم « **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية** » الذي كتبه باللغة العربية (ص ١٢٤) ، أو لو أنها رجعت إلى كتاب سعد الدين أفندي الذي ترجمه حسين خوجه إلى العربية وسماه « **بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان** » أو لو أنها رجعت إلى الميرالاي إسماعيل سرهنك في كتابه الماتع « **حقائق الأخبار عن دول البحار** » (١/ ٥١٢) لعلمت الصواب ، ومثل هذه الأخطاء كثيرة في كتب الأساتذة ، والسبب كما قلت إنهم زهدوا في مصادرنا وأشربوا في قلوبهم المصادر الأوروبية. والله أعلم بما يكتمون .

ويستوقفني في كلام د.زبيدة شيء آخر وهو أنها قالت عن السلطان بايزيد أن جهله أوقعه

---

(١) سليمان هو الابن الأكبر للسلطان بايزيد الذي كان حاكما على سيواس قبل هجوم تيمورلنك .
(٢) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢/ ٢١٧) .
(٣) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٢٦) .
(٤) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٨٩ ، ١٩٤) .

في خطأ تكتيكي . وغيرها من الأساتذة وصفه بالبخل والشيح والصلف . وهذا يتعارض مع كلام تيمورلنك نفسه الذي ذكره ابن تغري بردي – وأوردناه آنفا – نقلا عن الأمير أسنباي الظاهري الذي كان زردكاشا لتيمورلنك من أنه قال أن السلطان بايزيد كان صاحب رأى وتدبير وإقدام ، فنحن هنا بصدد شهادة تيمورلنك أحد أشهر القادة العسكريين في التاريخ العسكري في العالم ، من ذوى الحنكة العسكرية الفائقة والقدرة الحربية الساحقة ، وبعد أن خاض بنفسه ضد السلطان بايزيد معركة ضخمة تعد من المعارك الفاصلة في العصور الوسطى ، يصفه بأنه كان صاحب رأى وتدبير وإقدام ، لكن أساتذة التاريخ خالفوا تيمورلنك في رؤيته العسكرية التي أيدها جمهور المؤرخين المسلمين بل إن فتوحات السلطان بايزيد وانتصاراته الكثيرة تشهد له بذلك .

ويستوقفني أيضا كلام د. محمد أنيس الذي قال فيه أن العثمانيين يجيدون الدفاع عن الهجوم ، فأقول له هل فتح العثمانيون كل هذه الفتوحات بالدفاع يا د.محمد ، لقد نقلنا في الباب الأول أقوال المؤرخين البيزنطيين واللاتين الذين كانوا في القسطنطينية إبان فتح السلطان محمد الفاتح إياها ، التي بينوا فيه انبهارهم بهجمات الجنود العثمانيين فليراجعها من شاء ، في الواقع إنك ترى الآن أن أساتذة التاريخ يتدثرون بعباءة جنرالات الحروب ويدلون بدلائهم في الأمور العسكرية ، وبل ويخالفون أحد أشهر رجال الحرب في العالم وهو تيمورلنك دون أن يسوقوا أي دليل على ذلك ، ومن قبل ، رأيتهم يتدثرون بعباءة الفقهاء ويتهمون السلطان بايزيد بالعدوان على المسلمين عندما ضم الإمارات التركمانية ، وهو ما لم ينكره عليه أحد من علماء عصره بل أفتى الشيخ ابن أبي السرور البكري بلزومه كما قدمنا. فأقول لهم : قال الله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

عهد السلطان مراد الثاني

ذكر بعض الأساتذة شيئا سخيفا عن السلطان مراد الثاني ، فقد ذكر د.سعيد عاشور أن السلطان مراد الثاني أرسل سفارة إلى السلطان المملوكي الأشرف برسباي ، ثم قال : « وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرس

سنة ١٤٢٧، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان ، ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني فبادر في العام التالي ١٤٢٨ بإرسال خمسين أسيرا مسيحيا أوروبيا هدية للسلطان برسباي »[١].

نقل د.سعيد عاشور هذا الكلام عن محمد مصطفى زيادة من بحثه الذي نشر في المجلة التاريخية المصرية بعنوان نهاية سلاطين المماليك ..وقال د.أحمد فؤاد متولي نقلا عن محمد مصطفى زيادة أيضا : « ويقال أن الغيرة التي أثارها مشهد الأسرى القبارصة في مصر هي التي أدت بالسلطان مراد الثاني أن يرسل إلى برسباي ١٤٢٨م (٨٣٢هـ) خمسين أسيرا مسيحيا إثر انتصاره على المجر عند الطونه »[٢]..أما د.صلاح هريدي فقد نقل نص كلام د.سعيد مع اختلاف في بعض الكلمات ، وأسنده إلى د.أحمد فؤاد ، قال د.صلاح : « ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني فبادر في العام التالي ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م بإرسال خمسين أسيرا أوروبيا للسلطان برسباي »[٣].

قلت : كلام هؤلاء الأساتذة الثلاثة باطل وليس له أصل في المصادر التاريخية . وذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : ذكر مؤرخو دولة المماليك أن سفراء السلطان مراد الثاني كانوا في مصر إبان الاحتفال بفتح قبرس ، وأنهم شهدوا وقائع الاحتفال ومرور الأسرى وعلى رأسهم جانوس ملك قبرس ، ولم يذكر أي منهم أن ذلك أثار الغيرة في أنفسهم أو في نفس السلطان مراد .

قال ابن حجر العسقلاني : « فلما وصل إلى الدرج (جانوس) باس الأرض ومشي في قيده إلى أن وقف قدام السلطان بالمقعد ، وحضر ذلك أمير مكة ورسل ابن عثمان ورسل ملك تونس ورسل أمير التركمان ورسل ابن نعير وكثير من قصاد أمراء الشام »[٤].

وقال المقريزي : « فكشف رأسه وخر على وجهه إلى الأرض فقبلها ثم انتصب قائمًا ودخل يرسف في قيوده حتى مثل بين يدي السلطان قائما ، وقد جلس السلطان بالمقعد وفي

---

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام (ص ٢٦٩) .

(٢) أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٠٦) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣١) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٨/ ١٠٤) .

خدمته أهل الدولة من الأمراء والمماليك والمباشرين ، وحضر الشريف بركات بن عجلان أمير مكة ورسل ابن عثمان ملك الروم ورسل صاحب تونس ورسل أمراء التركمان ورسل عذراء أمير العرب ومماليك نواب البلاد الشامية »[1].

وقال ابن تغري بردي : « وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البحرة المقابل لباب الحوش السلطاني في موكب عظيم من الأمراء والخاصكية ، وعنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة وهو جالس فوق الأمراء ورسل خوند كار مراد بن عثمان متملك بلاد الروم ورسل صاحب تونس من بلاد المغرب ، ورسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشامية »[2]...**قال ابن إياس** : « فلما دخل صاحب قبرص بين يدي السلطان كشفوا رأسه ومن معه من أعيان الإفرنج. ثُم إن السلطان أخلع على الأمراء الذين حضروا خلعا سنية ، وكان يوما مشهودا وموكبا حافلا وزينت المدينة سبعة أيام ، وحضر في ذلك اليوم رسل ابن عثمان ملك الروم ورسل صاحب تونس ورسل جماعة من أمراء التركمان ورسل ابن نعير أمير العرب بحماه وحضر هذا الموكب الشريف بركات أمير مكة المشرفة »[3].

كل هؤلاء المؤرخين كانوا معاصرين للواقعة فيما عدا ابن إياس ، وعذرا إن كنت قد أثقلت عليك بنقل كل هذه النقول عنهم . وإنما أردت أن يخبرني أهل الرأي والعقل والحكمة منكم ، إن كان في كلام هؤلاء المؤرخين أدنى إشارة لوقوع الغيرة في قلب السلطان مراد الثاني .

الثاني : ولماذا عساه أن يشعر بالغيرة ؟! هل كان السلطان مراد الثاني خاملا متكاسلا متقاعسا عن الفتح والجهاد ؟! فقبل أن يفتح السلطان المملوكي برسباى قبرس ، كان السلطان مراد الثاني قد استعاد كل الأراضي التي أخذتها بيزنطة بعد هزيمة أنقره على يد تيمورلنك ، وفي أثناء فتح قبرس كان السلطان مراد الثاني على رأس جيشه يقاتل ملك المجر سجسمند وانتصر عليه ، كما أنه أرسل جيشا إلى ستيفان دوشان أمير الصرب فانتصر عليه وأدخله تحت الطاعة ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، ثم إن انتصارات السلطان مراد الثاني على الصليبيين

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ١٤٠) .

(٢) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٤/ ٣٠٠) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ١٠٨) .

حتى قبل انتصاره الساحق عليهم في وارنه عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م وفي كوسوفو الثانية عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨م كانت تفوق انتصارات برسباي في قبرس ، فلماذا عساه أن يغير منه ؟! .

الثالث : وهو الوجه المؤسف القبيح ، لأنه يبين الخطأ الشنيع في كلام الأساتذة . إذ أنهم استدلوا على ما زعموه من وقوع الغيرة في قلب السلطان مراد ، بأنه أرسل في العام التالي خمسين أسيرا أوروبيا للسلطان برسباي ، وهذ كذب محض ؟! أتدري متى أرسل السلطان مراد الثاني أسرى أوروبيين إلى السلطان المملوكي؟ كان ذلك في عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م أي بعد عشرين عاما من فتح قبرس ، وكان ذلك بمناسبة انتصار السلطان مراد الثاني على الحملة الصليبية في وارنه ، ولم يكن السلطان الأشرف برسباي يومئذ على قيد الحياة ، بل كان السلطان المملوكي آنذاك هو الظاهر جقمق ، وقد ذكر ذلك جميع المؤرخين . **قال ابن حجر العسقلاني** في حوادث عام ٨٤٩هـ بعد أن ذكر تفاصيل معركة وارنه : « **وجهز ملكهم** (مراد الثاني) بعض الأسرى إلى سلطان مصر ، فسلمهم للأمير الزردكاس فحسن لهم الإسلام فأسلموا ففرقهم السلطان على الأمراء »[١]...**وقال ابن تغري بردي** في حوادث عام ٨٤٩هـ : « قدم قاصد مراد بك ابن عثمان متملك بلاد الروم ومعه جماعة من الأسرى الذين قبض عليهم وكان لدخولهم القاهرة يوم مشهود »[٢].

وكان **المقريزي** يومئذ قد توفي وآخر ما دونه كان أحداث عام ٨٤٥هـ . ولكن **الحافظ السخاوي** ذيل عليه وذكر في حوادث عام ٨٤٩هـ أن الأسرى المرسلين كهدية كانوا ستة عشر أسيرا بالإضافة إلى خمسين مملوكا وخمسة من الجواري ، قال الحافظ السخاوي : « قدم أمير من أمراء ابن عثمان المشار إليه ومعه جماعة الأمراء وغيرهم ممن قبض عليهم ، باللبوس والزنود والخود التي على رؤوسهم مثل الطشوت وهم في الحديد والفولاذ راكبون الخيول إشارة إلى أنهم على الهيئة الممسوكين فيها ، وكان لقدومهم ضجة أعظم من يوم المحمل ، بحيث لم يبق من الرجال والنساء والأطفال كسر أحد لم يبرز لرؤيتهم والتفرج عليهم ، ومع القاصد هدية للسلطان مرسلة وهم خمسون مملوكا وخمسة من الجواري البيض الخاص وجملة

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٩/ ٢٣٢) .

(٢) جمال الدين بن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (١/ ١١٢) .

مستكثرة من القماش والحرير »[١].

قال ابن إياس في حوادث عام ٨٤٩هـ بعد أن ذكر المعركة : « بعث ابن عثمان جماعة ممن أسر من بني الأصفر ، فلما حضروا بين يدي السلطان أعرض عليهم الإسلام فأسلموا عن آخرهم طوعا »[٢].

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرسل فيها السلطان مراد الثاني أسرى للسلطان المملوكي ، فلقد ورد في المصادر ذكر كثير من السفارات المتبادلة بين السلطنتين محملة بالهدايا ، ولكن المرة الأولى التي أرسل فيها السلطان مراد الثاني أسرى أوروبيين كانت عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م بمناسبة انتصاره على الصليبيين في وارنه ، وبناء عليه فإن الزمن بين الفتح المملوكي لقبرس وبين إرسال السلطان مراد للأسرى كان عشرين عاما وليس عاما واحدا كما زعم الأساتذة الثلاثة نقلا عن أستاذهم ، ومن ذلك يتبين بطلان ما ذهب إليه الأساتذة من ادعاء أن السلطان مراد الثاني أصابته الغيرة من فتح قبرس ، وأنه أرسل الأسرى مدفوعا بذلك الشعور ، لأن ما زعموه من أنه أرسل أسرى أوروبيين لبرسباي ليس له أصل في المصادر التاريخية ، ومن زعم أن عنده نقلا عن أحد المؤرخين بذلك فليخرجه لنا .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

نحن هنا بصدد كارثة علمية منهجية من الدرجة الأولى ، ويبدو أن الأساتذة يكثرون من تغيير زمن الأحداث التاريخية ، فقد رأينا آنفا د.سعيد عاشور قد قدم واقعة حصول السلطان يلدرم بايزيد على لقب سلطان الروم أربع سنوات لتوافق الفكرة المسبقة في ذهنة ، وهي أن الدولة العثمانية كانت تتمسح بالسلطنة المملوكية . ورأينا أيضا د.أحمد فؤاد متولي قد فعل الشيء نفسه ليوافق الفكرة المسبقة في ذهنه ، وهى رغبة السلطان بايزيد في الخروج من المأزق الحرج الذي وضع نفسه فيه بعد « توحيد الأناضول » !. ولكننا في هذه المرة نشهد حالة مختلفة . فإن الأمر تعدى مجرد تغيير زمن الوقائع التاريخية ، ووصل إلى حد وضع وقائع لا أصل لها في

---

(١) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك (ص ٩٨) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٢٤٧) .

التاريخ ، ومما يجعلني أؤكد ذلك أن د.سعيد عاشور ذكر الواقعة الصحيحة في نفس الصفحة ، وهى واقعة إرسال السلطان مراد الثاني بعض الأسرى إلى السلطان المملوكي الظاهر جقمق بعد معركة وارنه ، فقد قال د.سعيد عاشور نقلا عن محمد مصطفي زيادة أيضا : « وعندما ارتقى جقمق دست سلطنة المماليك ازدادت أواصر الصداقة ... وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوروبي عند فارنا ١٤٤٤ »[١].

وقال د.أحمد فؤاد متولي نقلا عن السخاوي : « وعلى اثر انتصار العثمانيين سنة ١٤٤٤م على جيوش الصليبيين في مدينة وارنه (ببلغاريا الحالية) أنفذ مراد الثاني خمسين مملوكا وخمسة من الجواري البيض وكمية من القماش على سبيل الهدية إلى جقمق »[٢].

قلت : إن د.أحمد أغفل ذكر الستة عشر أسيرا الذين ذكرهم السخاوي من ضمن الهدية . وهـذا عجيب ! فلا ينسى د.أحمد ذكـر القماش والجـواري ، ولكنه ينسي ذكـر الأسرى الستة عشر الذين أفاض السخاوي في ذكر أوصافهم.!

قال د.صلاح هريدى نقلا عن د.سعيد عاشور: « وقد انتصر مراد الثاني على هذا التحالف ولقي لادسلاس ملك المجر مصرعه وأسر الكثير من الصليبيين ، فأوفد مراد الثاني إلى جقمق بعض الأسرى ومنهم بعض الأمراء»[٣].

هنا يتبين أن الأساتذة كانوا على علم بالواقعة الصحيحة وزمن حدوثها وأثبتوها في كتبهم ، مما يعني أن ما فعلوه لم يكن مجرد خلط في زمن الحدث وقع لهم من قبيل السهو والغفلة ، بل إنهم اختلقوا الواقعة الأولى من عند أنفسهم ، أو بالأحرى اختلقها محمد مصطفي زيادة لتوافق الفكرة المسبقة في ذهنه من أن السلطان مراد الثاني شعر بالغيرة من السلطان الأشرف برسباي ، ثم نقلها هؤلاء الأساتذة الثلاثة عن أستاذهم الكبير دون أي بحث أو مراجعة ، فإن كانوا اختلقوا تلك الواقعة فتلك مصيبة عظيمة وإن كانوا نقلوها عن أستاذهم فالمصيبة أعظم . لم يتسن لي الحصول على بحث محمد مصطفي زيادة ولكن إن صح ما نقله عنه

---

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٦٩) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٠٨) .

(٣) د.صلاح أحمد هريدى : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣٣) .

د.سعيد عاشور فهذة نكبة كبرى ، لأن محمد مصطفى زيادة ليس أستاذا كبيرا فحسب بل هو مرجعية تاريخية لكل أساتذة التاريخ . وهو الذي حقق تاريخ ابن إياس (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وراجع تحقيق كتاب (السيف المهند في سيرة الملك المؤيد) لبدر الدين العيني ، ونشر كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي ووضع له حواشيه .

بقي أن نتناول واقعة انفرد بذكرها د.صلاح هريدي . فقد قال : « ونجح في ذلك (برسباي) وأسر ملك الجزيرة جانوس لوزجنان وأقام احتفالا بذلك ، وقد صادف هذا الاحتفال وجود بعثة عثمانية شهد أعضاؤها الاحتفالات المقامة ، ولما عادت البعثة العثمانية أعادت ذكر الاحتفال والاستقبال أمام سلطانهم الذي أثارته الغيرة ودفعته إلى القيام بحملة ضد إينال وزحف على بلاده فاستولى على طرسون وأدرنه وكولك ، وما أن سمع السلطان بهذه الأخبار عين على الفور تجريدة إلى ابن قرمان وقد استطاعت هذه القوات إعادة النظام والأمن إلى هذه المنطقة واستعادة البلاد التي انتزعها ابن قرمان »[1].

قلت : هذا الكلام في غاية الاختلاط واللبس ، وقد التبست فيه الأحداث التاريخية بعضها ببعض . من ثلاثة أوجه :

الأول : لا يوجد مدينة اسمها طرسون في هذا المكان ، أما أدرنه فهي في أوروبا إلى الغرب من اصطنبول ، ولا ريب أن ذلك خطأ مطبعي ، وأن د.صلاح كان يعني « طرسوس » و « أدنه » .

الثاني : ذكر د.صلاح أن غيرة السلطان العثماني من فتح قبرس دفعته إلى القيام بحملة ضد إينال ، والسلطان المملوكي الوحيد الذي يحمل هذا الاسم هو السلطان الأشرف إينال العلائي التي تسلطن عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م[2] ، أما فتح قبرس فكان كما ذكرنا عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م ، أي أن بين فتح قبرس وسلطنة إينال ثمانية وعشرين عاما . ثم إن السلطان مراد الثاني لم يدرك سلطنة إينال أصلا فقد توفي عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م .

الثالث : ربما كان د.صلاح يريد التجريدة التي أرسلها السلطان إينال إلى إبراهيم بن قرمان

---

(١) د.صلاح أحمد هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣٢) .

(٢) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ٥٧) ، محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٠٧) .

بمناسبة عدوانه على طرسوس وأدنه وكولك عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م فهذا صحيح[١] ، ولكن ما علاقة فتح قبرس بهذا الأمر والزعم بغيرة السلطان مراد الثاني من ذلك ، والزعم بإرساله حملة على مدن مملوكية تنفيسا عن غيرته ؟! في الحقيقة إن هذه الفقرة من كلام د.صلاح كلها مغالطات تاريخية . ومما يسترعي الانتباه أن د.صلاح لم يوثق هذه الفقرة ولم يفصح عن مصدر تلك المعلومات على غير عادته .

وبالجملة إذا نظرنا إلى ما كتبه أساتذة التاريخ في هذا الأمر نقول ، هذه هي آفة المنهج الذي يتبعه أساتذة التاريخ ، فإن أصول المنهج العلمي في البحث تقضي بأن مجموعة من الأدلة تقود الباحث إلى عقيدة معينة ، لكن الأستاذ الكبير قلب المنهج رأسا على عقب وراح يعتقد فيما يشاء ويهوى ثم بحث لهذا الاعتقاد عن أدلة في المصادر ، فلما لم يجد دليلا واحدا على صدق اعتقاده اختلق دليلا ليوافق أهواءه .! وهكذا فإن المنهج الذي يتبعه الأساتذة حتما سيقود صاحبة إلى الوضع واختلاق القصص ، ثم هل من الممكن أن يكون د.سعيد عاشور قد نقل عن محمد مصطفي زيادة دون أن يتحقق من المصادر بنفسه ؟! وهو أستاذ كبير وقد حقق كتاب السلوك المذكور آنفا للمقريزي وراجع تحقيقه هذا محمد مصطفى زيادة ، ثم نقول : ولماذا لم يرجع إلى المصادر عينها ؟ وهو أستاذ كبير وقد رجع لكل هذه المصادر في أحيان كثيرة ، وإن كان لم يرجع إلى المصادر حقا وكذلك د.أحمد فؤاد متولي ود.صلاح هريدي ، فنقول لهم هذا لا يعفيكم من المسؤلية ولا ينجيكم من الكذب . فقد علمنا رسول الله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا فقال : « **كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع** »[٢] .

أتدرى لماذا لم يرجع الأساتذة إلى المصادر؟! ، لأن الطعن في العثمانيين يوافق المناخ الثقافي العام ، فعندما تطعن فيهم أو تنسب لهم منقصة أو مذمة فالأمر فيه سعة ، حدث ولا حرج . فإن صادفتك أي كلمة طعن في أحد من بني عثمان فبادر بتدوينها في كتابك ، ولا تشغلن بالك أحقا كانت أم باطلا ، فلك أن تقمش ما تشاء من سقط الكلام ، ورذيل

---

(١) جمال الدين بن تغرى بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ٩٧) ، محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٣٤) .

(٢) رواه مسلم ١/ ١٠ ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٣٧) ، ورواه أبو داود (٤/ ٢٩٨) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١/ ٢١٣) ، أبو عبد الله الحاكم في المستدرك (١/ ١٩٥) بلفظ كفي بالمرء إثما.

الأوهام ، فلن يفتش أحد وراءك ، وإن فتش وتبين له كذبك فاطمئن فسيغض الطرف عنك ، لأنه هكذا أريد للأمور أن تكون .!! والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

وأما نائبة النوائب هي أن ينقل كل أستاذ عمن سبقه دون مراعاة أسس المنهج العلمي السليم !!. فهكذا تنتقل الفيروسات الفكرية يا سادة ، وهي أشد فتكا من فيروس الإيدز ومن فيروس أنفلونزا الطيور ، فإن د.سعيد عاشور ود.أحمد فؤاد متولي ينقلان عن محمد مصطفى زيادة ، ود.صلاح هريدي ينقل عن د.أحمد فؤاد متولي ، ومحمد مصطفي زيادة ينقل لست أدري عمن ، وكأن المصادر التاريخية التي كتبها علماؤنا الأقدمون إنما كانت زينة وزخرفا ، تزين بها أرفف المكتبات وقوائم المصادر والمراجع التي يذيل بها الأساتذة كتبهم ، فلو علم ابن حجر والمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي وابن إياس ، أنه سيأتي زمان يعبث أساتذة التاريخ بكتبهم ، التي أفنوا في تدوينها أعمارهم لأحرقوها أو لدفنوها معهم في قبورهم ، فمنهج البحث الذي يتبعه أساتذة التاريخ هو منهج فاسد لا يصلح للدراسات العلمية على الإطلاق .

وأود هنا أن أشير إلى منهج مؤرخينا الأقدمين فبالرغم من أنهم كانوا تابعين لدولة المماليك ، وأن السلطان يلدرم بايزيد ضم ملطيه وأبلستين قبيل معركة أنقره كما قدمنا ، وهما تابعتان للسلطنة المملوكية ، فإن أحدا منهم لم يتهم السلطان بايزيد بالعدوان لأجل ذلك بل إنهم لما ترجموا له في سنة وفاته أثنوا عليه بما هو أهله ، هو وكل من ترجموا له من آبائه من سلاطين بني عثمان ، وذلك لأن علماءنا الأقدمين كانوا يتبعون منهجا علميا سليما ، يقوم على تأصيل المرجعيات الفكرية أولا ، ثم الإحاطة علما بكل ما يحيط بهم من أحداث ، ثم إسقاط الأحداث على تلك المرجعيات وعلى ذلك الواقع ، ومن ثم يتمكنون من فهم الوقائع التاريخية فهما صحيحا ، فلم يكن علم التاريخ عندهم هو مجرد التلخيص من الكتب السابقة كما يفعل أساتذة التاريخ في زماننا إلا من رحم ربي ، وليت أساتذة التاريخ اقتصروا على النقل من المصادر دون تبديل ما فيها ، ولكنهم غيروا وبدلوا فضلوا وأضلوا .

ها هو المنهج الذي كان يسير عليه علماؤنا منذ ستة قرون وها هو المنهج الذي يتبعه أساتذة التاريخ اليوم ، فانظر بالله عليك وأخبرني أنتقدم نحن أم نتأخر ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الثالث

السلطان محمد الفاتح

أشعر بالمرارة إذ أجد نفسي أقف هذا الموقف للدفاع عن السلطان محمد الفاتح . فلم تكن الافتراءات التي رماه بها الصليبيون والمستشرقون لتشعرني بالمرارة على الإطلاق فقد قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران ١٨٦] .

لكن المؤسف هو أن أتصدى للدفاع عن السلطان محمد الفاتح من طعون أبناء جلدتنا من المسلمين ، وقد وصل الأمر ببعضهم أن اتهمه بإتيان كبيرة عظيمة وهي شرب الخمر ، دون أن يقدموا أي سند لتلك الدعوى ، ولست أدرى كيف طاوعتهم أنفسهم على ذلك بالرغم من أن رسول الله ﷺ قد أثنى عليه فقال : « لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ »(١).

وسأبدأ فيما يلي بتفنيد ما جاء من أباطيل في بعض كتب أساتذة التاريخ ملتزما بالتسلسل الزمني . فأبدأ أولا بما قالته د.زبيدة عطا عن سبب عودة السلطان مراد الثاني للحكم بعد أن كان تنازل عنه لابنه محمد الفاتح .

سبب عودة السلطان مراد الثاني للحكم بعد تنازله عنه لابنه

فمن باب التذكرة نقول أن السلطان محمد الفاتح اعتلى العرش ثلاث مرات مرتين في حياة والده والثالثة بعد وفاته ، فقد تنازل السلطان مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد الفاتح عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م ، ولكنه عاد إلى الحكم بعد بضعة أشهر بناء على طلب ابنه وأركان الدولة من الوزراء والقادة والعلماء للتصدي للحملة الصليبية ، وبعد أن نصره الله عليهم تنازل عن الحكم مرة أخرى لابنه محمد الفاتح ، ثم صدر من جند اليني جري بعض المفاسد ودهموا بعض المحال والبيوت ، فقرر السلطان مراد العودة إلى الحكم مرة أخرى وذلك في عام ٨٥١هـ/ ١٤٤٦م ، وبقي في الحكم حتى توفي حتف أنفه بعد عامين ، وتولى الحكم من بعده ابنه السلطان محمد الفاتح .

---

(١) رواه أحمد (٣١/ ٢٨٧) ، البخاري في التاريخ الصغير (١/ ٣٤١) ، الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٦٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٣٨) ، والحديث مختلف في صحته ، فمن العلماء من حسنه ومنهم من ضعفه ، كما ذكرنا في الباب الأول . الصواب خليل باشا وقد ذكرنا سبب اختلاط الاسم على د.زبيدة .

قالت د.زبيدة **عطا** بمناسبة تولي السلطان محمد الفاتح للملك بعد وفاة أبيه السلطان مراد الثاني : « لم تكن هذه المرة الأولى التي يلي فيها العرش بل سبق أن تولاه بناء على رغبة مراد ، حينما رغب الأخير في الاعتزال والاعتكاف بعيدا فتولى العرش تحت وصاية هلال باشا[١] ، لكن محمد كان قاسيا متهورا ربما يعود ذلك لصغر سنه ، فقتل الدراويش في فارس بإيعاز من هلال باشا ، وهوجم حكمه بمعارضة من الجيش والشعب واضطر مراد إلى العودة لتولي مهام الدولة ، في حين أرسل محمد إلى أماسيا حيث ظل أمره مهملا لا يظهر إلا نادرا بصحبة أبيه في بعض الحملات »[٢].

هذا ما قالته د.زبيدة عن تولي السلطان محمد الفاتح للحكم وهو باطل من أربعة أوجه :

الأول : إن السلطان محمدا الفاتح تولى الحكم ثلاث مرات. تولاه مرتين في حياة أبيه والثالثة بعد وفاته كما ذكرنا آنفا.

الثاني : قصة قيام السلطان محمد الفاتح بقتل الدراويش في فارس ، هي قصة ليس لها أصل ولم أجدها لا في المصادر ولا في المراجع . ود.زبيدة نقلت هذه القصة عن الترجمة الإنجليزية لمرجع أوروبي حديث بعنوان تاريخ الدولة البيزنطية لمؤلفه Ostrogorsky ويبدو من اسمه أنه روسي أو صربي ، فنحن هنا بصدد فصل آخر من فصول إعراض أساتذة التاريخ عن مصادرنا الإسلامية والشغف بالمصادر أو بالأحرى بالمراجع الأوروبية ، ثم إن هذه القصة تحمل في ذاتها عناصر بطلانها لأن فارس في ذلك الوقت لم تكن تابعة للدولة العثمانية على الإطلاق بل كانت تحت سيطرة إمارة قره قويونلو[٣] ، وكان أميرهم يومئذ جهان شاه بن قره يوسف ، وحتى شرق الأناضول لم يكن تابعا للعثمانيين في تلك الفترة بل كان تحت حكم إمارة آق قويونلو وأميرهم يومئذ جهان كير بن علي بن عثمان قره ايلوك ، فلم تكن للدولة العثمانية آنذاك أي علاقة بفارس ، وهذه معلومات بدائية يفترض أن تكون معلومة لأي دارس للتاريخ. ولست أدري من أين جاء المدعو Ostrogorsky بهذه القصة ،

---

(١) الصواب خليل باشا وقد ذكرنا سبب اختلاط الاسم على د.زبيدة .

(٢) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٨٩) .

(٣) كلمة من مقطعين ، قره تعني أسود ، قويون تعني شاة ، إمارة الشاة السوداء.

ولكن الأهم من ذلك هو على أي أساس تقوم د.زبيدة بنقل هذه القصة اللقيطة وتقديمها لطلابها على أنها حقيقة تاريخية ، ثم تبني عليها تحليلا لشخصية محمد الفاتح أنه كان قاسيا متهورا ، ولا يشفع لها أبدا قولها (ربما يعود ذلك لصغر سنه) وقد قدمنا في الفصل الأول ما يكفي من أقوال المؤرخين أن السلطان محمدا الفاتح كان أحد أعاجيب الزمان في فن الحرب والتنظيم الإداري والدهاء السياسي .

الثالث : قولها : (وهوجم حكمه بمعارضة من الجيش والشعب) باطل أيضا بلا ريب ، ونعود فنقول أن هذه هي عاقبة النقل عن المراجع الأوروبية دون الرجوع إلى مصادرنا الإسلامية . لقد جاء في مصادرنا أن جنود اليني جري دهموا بعض البيوت والمحال ونهبوها ، ويبدو أن ذلك كان بسبب صغر سن السلطان فلم تكن له هيبة في قلوب الجند.

قال سعد الدين أفندي : « وكان من قدر الله أن وقع حريق كبير في المدينة أدى إلى خرابها واشتعلت النار في أماكن كثيرة منها ، وتحركت طائفة الانكشارية ونهبوا الأماكن المحترقة وأفسدوا إفسادا كبيرا ولم يمتثلوا لأمر الوزير وأرادوا الفتك به ، وهرب إلى صراية السلطان ، وكانت هذه من الوقائع المهولة ، وطلبوا من السلطان طلبات ليس لها معنى ولا مناسبة وأرضاهم وسكنهم بزيادة ترقيات في علوفاتهم نصف عثماني لكل واحد منهم . واتفقت الوزراء وخليل باشا وجميع كبار الدولة على رجوع السلطان إلى تخت الملك والتصرف في المملكة ما دام بقيد الحياة ، لنظام الملك وزجرا لأعداء الدين ، لأنا لا نأمن ولا نطمئن لمكر الكفار وغدرهم . هذا ما كان من رأيهم ... »[1].

ومما سبق يتبين أن الجيش لم يعارض حكم السلطان محمد الفاتح في حياة أبيه ، بل إن طائفة من الجيش وهي الييني جري ، لم تقع في قلوبهم مهابة السلطان الصغير ، فانتهزوا فرصة شيوع الفوضى في المدينة بعد الحريق الكبير فنهبوا البيوت المحترقة ، ثم طالبوا ببعض المطالب الغير معقولة حتى سكنهم السلطان بزيادة في المرتبات ، صحيح أن الييني جري هم أهم طائفة في الجيش ، لكن عددهم لم يكن كبيرا كما يظن الناس لاسيما آنذاك ، ففي عام

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ٦٠) .

٨٥٥هـ/ ١٤٥١م وهي السنة التي توفي فيها السلطان مراد وتولى السلطان محمد الفاتح كان عددهم ثلاثة آلاف[1] ، فالذي حدث حقيقة هو أن طائفة من الجيش استقلت هيبة السلطان الصغير ورامت الحصول على مكاسبْ مادية ، وهذا لا ينطبق إطلاقا على قول د.زبيدة : (هوجم حكمه بمعارضة من الجيش والشعب) ثم أين هو الشعب الذي عارض ؟! فلم يذكر سعد الدين أفندي شيئا عن الشعب. ورواية القرماني لا تختلف عن روايته فقد قال القرماني : «تحركت طائفة الإنكشارية وعاثوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها ، وكان ذلك في سنة خمسين وثمانمائة وعند ذلك رأي الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراد خان إلى الملك ليستهيبوه فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك »[2].

من خلال استقراء المصادر يمكن القول أن عودة السلطان مراد الثاني للحكم في المرة الثانية كان سببها :

١- صغر سن السلطان الجديد فاستخف به بعض الجنود وتمردوا بغية الحصول على مكاسب مادية .

٢- خوف الوزراء وأركان الدولة من أطماع الصليبيين ، مما يحتم وجود سلطان قوي قادر على حفظ النظام للتصدي لهم ، وقد صدق حدس الوزراء وجاءت حملة صليبية جديدة عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨م وتصدى لها السلطان مراد وانتصر بفضل الله .

أما ما ذهبت إليه د.زبيدة (معارضة الجيش والشعب) فليس هو من الكلام العلمي في شيء ، بل هو شبيه بالكلام الذي يكتب في الصحف اليومية أو في الروايات المسرحية للإثارة والتشويق ، ولو رجعت الدكتورة إلى مصادرنا أو حتى إلى مراجعنا ككتاب محمد فريد بك أو كتاب الميرالاي إسماعيل سرهنك[3] لما وقعت في ذلك الخطأ.

الرابع : قول د.زبيدة (ظل أمره مهملا ...) لا ينطبق على الواقع فقد ذكر سعد الدين أفندي أن السلطان محمدا الفاتح كان قائدا لطائفة اليني جري إبان حملة كوسوفو الثانية عام

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٩٥) .

(٢) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٦) .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ١٥٨) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٠٤) .

٨٥٣هـ/١٤٤٨م[١] ، أي أنه كان قائدا لأهم فرق الجيش في معركة هامة ضد حملة صليبية ضخمة ، فكلام د.زبيدة ليس خطأ فحسب بل تفوح منه رائحة الازدراء والتهوين من شأن السلطان محمد الفاتح . وكما قلت آنفا أن الانتقاص من سلاطين بني عثمان أو الطعن فيهم غالبا ما يلقى ترحيبا من أساتذة التاريخ لأنه يوافق المناخ الثقافي العام السائد في البلاد .

الزعم بقتل السلطان الفاتح لسفراء بيزنطة

ذكرنا في الباب الأول أن السلطان محمدا الفاتح لما عزم على فتح القسطنطينية ، قام ببناء قلعة على البر الأوروبي للبسفور مقابلة لقلعة كوزل جه حصار على البر الأسيوي للبسفور ، حتى يتمكن من إغلاق مضيق البسفور نهائيا لإحكام الحصار على القسطنطينية ، فأدرك الإمبراطور نية السلطان محمد من محاصرة المدينة ، فأرسل سفارة ليعترض على ذلك ، فلم يقبل السلطان اعتراضه ، ولكن دعونا ننظر كيف قدم بعض أساتذة التاريخ هذه الواقعة .

قالت د.زبيدة عطا : « ذكر كريتوفولوس أن السلطان قال لهم (سفراء بيزنطة) أن لديه ممتلكات في كلا الضفتين[٢]، من الشاطىء الأسيوي والأوروبي منفصلين ، وأن لديه أعداء في كلا الجانبين ، وأن سفن البندقية كانت تعترض والده وتمنعه من الاتجاه إلى المجر ، وطلب منهم عدم التدخل في شئونه الخاصة ، ثم أرسل قسطنطين بعثة أخرى كان مصيرها أسوأ من سابقتها ، إذ وضع الرسل في السجن ثم قطعت رؤوسهم »[٣]... **وقال د.محمود الحويري :** « وتم بناء هذه القلعة في أواخر أغسطس سنة ١٤٥٢م ، وعندئذ بعث الإمبراطور البيزنطي سفراءه للاحتجاج على هذا العمل ، فأمر محمد الثاني بهم فقطعت رؤوسهم »[٤]... **وقال د.صلاح هريدي :** « لكن السلطان العثماني رفض محاولات الإمبراطور البيزنطي ، بل إنه تمادى في إعلان عدائه لبيزنطة بعدما تم تشييد قلعة الروميلي ، حيث أمر باستبقاء سفيرين للإمبراطور البيزنطي وأمر بضرب عنقيهما إيذانا ببدء المواجهة العسكرية بينهما »[٥].

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٦١) .

(٢) الصواب كلتا الضفتين.

(٣) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٩٢) .

(٤) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٢٩) .

(٥) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٧٤) .

وقال الأستاذ المجهول (ص ١٠٦) : « وقد أرسل الإمبراطور سفارة للاعتراض على هذا التصرف ، واعتبره خرقا للمعاهدة الموقعة بين الطرفين ، وذكر محمدا بأن السلطان بايزيد استأذنه قبل أن يشيد قلعته ، ولكن السلطان رفض استقبال سفارة الإمبراطور ، وعندما بدأ بناء القلعة أرسل الإمبراطور الهدايا والمواد الغذائية أملا في توفير الحماية للقرى الواقعة على البسفور ، ثم كانت السفارة الأخيرة والتي طلبت من السلطان التأكيد على أن بناء القلعة لا يحمل أي تهديد بالهجوم على القسطنطينية ، فما كان من السلطان إلا أن سجن السفراء وأمر بقطع رؤوسهم ».

قلت : واقعة قتل السلطان محمد الفاتح لسفراء الإمبراطور البيزنطي لم ترد في مصادرنا التاريخية على الإطلاق ، فلم يذكرها سعد الدين أفندي ولا القرماني ولا البكري أما بشأن المصادر التركية الأخرى التي لم يتسن لي الاطلاع عليها ، فلا أظن أنها ذكرتها أيضا ، وذلك لأن المراجع المتأخرة التي كتبت في القرن التاسع عشر والتي رجع مؤلفوها إلى المصادر التركية كما أشاروا في كتبهم لم تذكر تلك الواقعة إطلاقا فلم يذكرها محمد فريد بك ولا الميرالاي إسماعيل سرهنك ولا على كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده ولا إبراهيم بك حليم ، إنما وردت هذه الواقعة في المصادر البيزنطية فحسب ، ومع ذلك فلم ينقلها أساتذة التاريخ بتمامها كما وردت وإنما أنقصوا منها ، كما سأبينه لك فيما يأتي . فمن أراد منكم يا أساتذة التاريخ أن ينقل عن المصادر البيزنطية ، فلينقل منها الرواية كاملة وبدقة ، وأن يحاول الجمع بين ما جاء في جميع المصادر ، أما أن يرجع الأستاذ إلى مصدر واحد ويغفل عن سائر المصادر ، أو أن يقدم مصدرا على سائر المصادر دون أن يذكر سببا لذلك ، أو أن ينقل بعض الرواية دون بعضها ، فهذا هو القبح بعينه ، وأبعد ما يكون عن المنهج العلمي السليم .

ذكر المؤرخ البيزنطي الذي كانا معاصرا لفتح القسطنطينية ميخائيل دوكاس أن الإمبراطور البيزنطي أرسل سفراءه إلى السلطان محمد الفاتح مرتين ، ففي المرة الأولى رد عليهم السلطان مبينا أن من حقه أن يبني ما يشاء في أملاكه ، ثم صرفهم بعد أن تهددهم بأنه سيقتل أي سفير آخر إذا جاءه ليتحدث في ذلك الأمر، فلما أرسل له الإمبراطور سفارة ثانية قطع رؤوسهم ، قال دوكاس عن السفارة الأولى : « كان رد محمد (الفاتح) هو التالي : ... لماذا تحاول إثنائي

عن بنائها ألا أستطيع أن أقوم بذلك ضمن ممتلكاتي؟ اذهب وأخبر إمبراطورك أن هذا الحاكم يختلف عن أسلافه ، وأن الذي لم يكن لدى أسلافه القدرة على تحقيقه قد أصبح الآن ملك يمينه ، ومن السهل عليه إنجازه ، كما أن لديه الإرادة والرغبة الشديدة لإنجاز ما لم يحاول أسلافه القيام به ، وإذا ما عادت أية سفارة للحديث في هذا الموضوع ثانية فلابد أنها تسعى إلى الإطاحة برؤوس أصحابها»[1] .

هكذا ترى أنه طبقا لرواية المؤرخ البيزنطي دوكاس فإن السلطان محمدا الفاتح لما أعدم رجال السفارة الثانية ، إنما كان ينفذ وعيده الذي أعلنه للسفارة الأولى ، لكنك ترى أن أساتذة التاريخ لم يذكروا ذلك التهديد أصلا ، ومنهم من اكتفى بذكر السفارة الثانية دون الأولى ، فأما د.زبيدة فقد صرحت بأنها نقلت خبر السفارتين عن المؤرخ البيزنطي المعاصر للأحداث كريتوفولوس ، ولكنك إذا ما رجعت إلى ما كتبه كريتوفولوس نفسه[2] ، سترى بنفسك أنه لم يذكر إعدام السفراء بل إنه لم يذكر السفارة الثانية أصلا ، بل اكتفى بذكر الأولى فحسب . وبالرغم من ذلك فإن د.زبيدة نسبت خبر السفارة الثانية وإعدام السفراء إليه وهو منه براء ..!! نحن هنا بصدد أستاذة جامعية كبيرة تنقل عن مصادر تاريخية ما ليس فيها وتحمل المؤرخين ما لم يقولوه .! ثم من أين جاءت د.زبيدة بخبر السفارة الثانية وإعدام السفراء ؟! هل نقلته عن دوكاس ؟! لا أظن ذلك لأنها لم ترجع إليه في طول كتابها وعرضه ، ثم إن كانت قد نقلت عنه ، فلماذا لم تنقل عنه ما ذكره من تهديد السلطان محمد الفاتح للسفارة الأولى؟! هل نقلته عن نيقولو باربارو ؟! ذلك الطبيب البندقي الذي كان معاصرا للأحداث ؟! لا أظن ذلك أيضا لأنها لم ترجع إليه ، ثم إنها إن كانت قد نقلت عن باربارو ، فتكون قد وقعت في نفس الخطأ الذي وقع فيه كل من الأستاذين الكبيرين د.صلاح هريدى ود.محمود الحويرى كما سأبينه لاحقا ، فمن أين عساها أن تكون قد جاءت بذلك الخبر ؟! لا يبقى إلا أن نقول أنه نقلته عن

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٢٣ ، ٢٢٧) .

(٢) Kritovoulos : History of Mehmet The Concueror.Translated From Greek By Charles Riggs. P ١٧

كريتوفولوس : تاريخ السلطان محمد الفاتح. ترجمه من اليونانية تشارلز ريجز (ص ١٧) .

أحد المراجع المتأخرة ثم ألصقته بكريتوفولوس لصقا .

أما د. محمود الحويري ود.صلاح هريدي فإن كل منهما قد أغفل ذكر السفارة الأولى أصلا ، ولم يذكرا إلا السفارة الثانية التي أعدم السلطان أصحابها ، على أنها هي السفارة الوحيدة التي أرسلها الإمبراطور ، وقد نقل هذان الأستاذان الكبيران تلك الواقعة عن مصدر لاتيني وهو يوميات حصار القسطنطينية للطبيب البندقي نيقولو باربارو الذي كان موجودا في القسطنطينية أثناء فتحها، وباربارو هذا لم يذكر أمر السفارة الأولى ولا تهديدات السلطان محمد الفاتح ، وما كان ينبغي للأستاذين الكبيرين أن ينقلا عن باربارو فهذا خطأ كبير وقع كلاهما فيه ، فإن المنهج العلمي السليم يحتم على الباحث أن يقدم رواية المؤرخين البيزنطيين دوكاس وكريتوفولوس على رواية باربارو ، لأنهما من أهل القسطنطينية ، وهما أعلم بها في بيوتهم . وكما تقول العرب : (أهل مكة أدرى بشعابها) ، ومن المعلوم ، أن المؤرخين غالبا ما يكونون على اتصال بكبار الشخصيات السياسية في الدولة لمعرفة الأخبار ، أما باربارو فهو بندقي الأصل ، ووجوده في القسطنطينية أمر طارىء ، كما قال هو نفسه : « منذ أن وجدت نفسي في مدينة القسطنطينية سيئة الحظ ، قررت أن أقوم بكتابة التقرير التالي ...» « ... وقد وصل إلى القسطنطينية في سبتمبر ١٤٥٢م أي قبل فتحها بثمانية أشهر فقط ، كما رجح ذلك د.حاتم الطحاوي الذي قام بترجمة كتابه[١]. في حين أن السفارة الأولى كانت في ربيع عام ١٤٥٢م[٢] ، فلم يكن باربارو قد وصل القسطنطينية بعد ، ومن الجائز جدا أن يكون خبر تلك السفارة لم يصله ، فكان ينبغي على الأستاذين الكبيرين أن يجمعا بين روايات المؤرخين الثلاثة كريتوفولوس ودوكاس وباربارو ، فيذكرا السفارتين ويذكرا تهديد السلطان محمد الفاتح للسفارة الأولى ، وبذلك نكون قد وفقنا بين ما جاء في المصادر كلها دون إغفال أي منها ، أما الاقتصار على رواية باربارو منفردة فهذا قصور في البحث العلمي أدى في النهاية إلى تشويه صورة السلطان الفاتح ، لأن العقاب دون إعذار ينطوي على الغدر الذي هو أبعد ما يكون

---

(١) نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٥٠ ، ٨١) .

(٢) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٢١) .

عن سلاطين بني عثمان ، لاسيما أحد أعظم سلاطينهم وأجلهم شأنا ، أما إن كان قد بدا للأستاذين الكبيرين ما يجعلهما يقدمان رواية باربارو على الروايتين البيزنطيتين ، فكان عليهما أن يبينا السبب .

أما الأستاذ المجهول فقد انفرد بالعجائب كما هو دأبه ، فقد ذكر أمر السفارة الأولى . لكنه ذكر أن السلطان محمد الفاتح لم يقابل أعضاءها أصلا ، ولست أدري من أين يستقي هذا الأستاذ المجهول أوهامه ، هذه مآس ورب الكعبة ، فمن المفترض أن يكون الأستاذ الجامعي محل ثقة . وإذا ما نقل لنا شيئا عن المصادر التاريخية فإننا نثق في أن نقله دقيق وكامل ، ولكن ما نحن بصدده الآن هو تحريف لما في المصادر ، سواء بإغفال بعض الأحداث أو بتبديلها سواء أكان ذلك عن عمد أو عن غير عمد ، فالله أعلم بها في صدور العالمين . ولكن النتيجة واحدة هي تبديل حقائق التاريخ ، فكيف لنا أن نثق بعد الآن في أي شيء يكتبه أستاذ جامعي ، فمن المفترض أن أساتذة الجامعة هم المرجعية الفكرية والثقافية للمجتمع كل في مجاله ، فهل ترى الآن أنهم أهل لذلك ؟!.. ويطيب لي في هذا المقام أن أذكر أن د.صلاح محمد ضبيع في رسالته القيمة قد اتبع المنهج العلمي حقا ، فقد ذكر أمر السفارتين البيزنطيتين ، وذكر تهديد السلطان محمد الفاتح للسفارة الأولى بعد أن رجع لمعظم المصادر البيزنطية واللاتينية[1].

مما ينبغي أن ننبه عليه أن واقعة قتل السفراء لا تثبت يقينا ، لأن مصادرنا لم تذكرها أصلا ، أعلم أن أساتذة التاريخ سيعترضون على ذلك ، وربما يقول قائلهم أن المؤرخين المسلمين الأقدمين كانوا لا يهتمون إلا بكيل المديح للسلاطين والأمراء ويتجنبون ذكر أخطائهم ، فهنا سنرد عليه قائلين لقد ذكر المؤرخون المسلمون وقائع قتل السلطان مراد الثالث لإخوته الخمسة ، وقتل السلطان محمد الثالث لإخوته التسعة عشر ، وأدانوا ذلك كما ذكرنا في الباب الأول . وسيأتي مزيد تفصيل لهذا الأمر إن شاء الله ، ولا شك أن قتل الإخوة أعظم بكثير من قتل السلطان محمد الفاتح لسفراء بيزنطة ، فلم يكن المؤرخون المسلمون ليتعمدوا إغفال هذا وذكر ذاك .

---

(١) انظر د.صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والعثمانيين في عصر آل باليولوجوس ص ٢٥١ - ٢٥٣

تنبيه

جاء في المصادر البيزنطية أن الإمبراطور البيزنطي عاتب السلطان محمد الفاتح على بناء القلعة بنية حصار القسطنطينية ، لأن ذلك يعتبر نقضا للمعاهدات التي عقدت مع آبائه والتي عقدها هو بنفسه مؤخرا ، وأن السلطان يلدرم بايزيد حصل على إذن من الإمبراطور البيزنطي عندما بنى قلعة كوزل جه حصار على الضفة الآسيوية للبسفور ، وقد نقل كثير من الأساتذة هذا الكلام دون أن يعلقوا عليه ، وما كان ينبغي لهم ذلك . بل كان يجب عليهم توضيح الأمر ، فأقول وبالله التوفيق :

أولا : أما ما قاله الإمبراطور عن حصول السلطان يلدرم على إذن لبناء القلعة ، فهذا كذب فاضح ، ويرده ما تواتر ذكره عن المؤرخين البيزنطيين أنفسهم عن طبيعة العلاقة بين السلطان يلدرم بايزيد وبين الإمبراطور ، فقد ألزمه السلطان بايزيد بهدم التحصينات التي أحدثها في القسطنطينية ، كما أنه كان يستدعيه فيأتيه ، وأن الإمبراطور كان يدفع الجزية للسلطان . وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، فليس من المعقول والحالة هكذا أن يستأذن السلطان من تابعه لبناء قلعة .

ثانيا : إن الذي نقض المعاهدات هم البيزنطيون وليس العثمانيون فقد ذكر دوكاس ما قاله السلطان محمد الفاتح لسفراء الإمبراطور : « لابد أنكم نسيتم المشاكل التي سببتموها لوالدي والوضع الخطر الذي حاق به ، عندما عقد إمبراطوركم تحالفا مع المجريين الذين هاجمونا عن طريق البر ، بينما كانت سفن الفرنجة تتسلل إلى بحر مرمره وتغلق الطريق إلى جاليبولي مانعة والدي من العبور ، ونتيجة لهذا فقد اضطر للتوجه إلى أعلى »[1].

وأما المعاهدة التي عقدوها مع الفاتح فهم الذين نقضوها أيضا ، فكما ذكرنا في الباب الأول أنهم كانوا يحتجزون عندهم الأمير أورخان بن سليمان بن بايزيد رهينة ، وقد تعهد السلطان محمد بأن يدفع لهم مبلغا نظير نفقات إعاشة الأمير أورخان ، وألا يهاجم أراضيهم . لكنهم جاءوا بعد فترة وطلبوا زيادة المبلغ المتفق عليه وهددوا السلطان بإطلاق سراح الأمير أورخان

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٢٢) .

ودعمه للمطالبة بالعرش العثماني . أي هددوه بإشعال فتنة داخلية على غرار الفتنة التي أشعلوها أيام السلطان مراد الثاني عندما أطلق الإمبراطور البيزنطي الأمير مصطفى (دوزمجه مصطفى) وأمده بالمال لقتال السلطان مراد الثاني ، وقد ذكرنا ذلك تفصيلا في الباب الأول ، فاعتبر السلطان محمد الفاتح ذلك نقضا للعهد ، فنبذ إليهم عهدهم وبدأ يدبر في الاستيلاء على القسطنطينية . ولأن البيزنطيين قد نقضوا عهودهم أكثر من مرة ، فحق عليه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال ٥٥ – ٥٨] .

قال الطبري في تفسير الآية : « إذا ظهرت أمارُ الخيانة من عدوك وخفت وقوعهم بك ، فألق إليهم مقاليد السَّلم وآذنهم بالحرب ، وذلك كالذي كان من بني قريظة إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين ، إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ ، ومحاربتهم معهم بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسولَ الله ﷺ على المسالمة ، ولن يقاتلوا رسولَ الله ﷺ فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك موجبًا لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم»[1] .

مدفع السلطان محمد الفاتح

تحدث أساتذة التاريخ عن المدفع الضخم الذي صنعه السلطان محمد الفاتح ودك به أسوار القسطنطينية ، على أنه اختراع للمهندس المجري أوربان عرضه على السلطان محمد ، فأمره بسبكه ثم استخدمه في هدم أسوار القسطنطينية ، وحقيقة الأمر أن ذلك المدفع الضخم هو من اختراع السلطان محمد الفاتح نفسه ، وأنه هو الذي صممه بنفسه ، ثم أسند عملية سبكه إلى التركي مصلح الدين صاريجه ، وعاونه أوربان المجري في ذلك ، وسأنقل أولا كلام أساتذة التاريخ في ذلك الشأن ، ثم لنر أموافق هو للمصادر أم لا .

قالت د.زبيدة : « العثمانيون حصلوا على معدات حديثة ومدعمة بمدافع قوية ، وكانت

(١) محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٤/٢٦) .

أوروبا قد استخدمت المدافع قبل هذا التاريخ بمائة عام فقط ، وقد صنع مهندس مجري لمحمد مدافع ضخمة كان لها دورها في سير القتال ، حتى قال الإغريق إن المدافع حسمت الأمر »[1].

قال د.محمود الحويري : «وبينما كان محمد الثاني يوجه تعليماته الخاصة بمحاصرة المدينة ، جاءه مهندس مجري يدعى أوربان ، ويعد أمهر صانع للمدافع وكان قد ذهب للقسطنطينية ليقدم خدماته للإمبراطور ، ولكن أحدا لم يأبه له فتوجه إلى السلطان محمد الثاني ، وسأله السلطان إذا كان باستطاعته صنع مدفع ضخم يدك به أسوار القسطنطينية رد المهندس بالإيجاب ، فغمره السلطان بما يحتاجه وانتهى المهندس من صنع المدفع الذي لم ير مثله في ضخامته وكبر حجمه ، وذلك في خلال ثلاثة شهور »[2].

قال الأستاذ المجهول (ص ١٠٧) : « هذه المدافع كانت من صنع مهندس مجري يدعى أوربان ، خبير في سبك المعادن ومتخصص في سلاح المدفعية ، وكان قد عرض اختراعه على الإمبراطور البيزنطي ولكنه عجز عن دفع ثمنه ، فلجأ إلى السلطان وعرض عليه صنع مدفع عملاق ، لا يستطيع دك أسوار القسطنطينية فقط بل أسوار حصن بابليون ذاته ».

قلت : هكذا ترى أن هؤلاء الأساتذة لم يجعلوا للسلطان محمد الفاتح ولو نصيبا ضئيلا من أمر المدفع ، واقتصر دوره وفقا لكلامهم على إغداق المال على أوربان . وهذ باطل بلا ريب ، الصواب هو ما ذكرته آنفا ، ولبيان ذلك لنا في تلك القصة أربع مسائل :

الأولى : لم يرد في المصادر الإسلامية التي اطلعت عليها شيء عن أوربان هذا أصلا. بل إن سعد الدين أفندي عندما تعرض للمدفع الكبير قال : « رجع (السلطان الفاتح) إلى مدينة أدرنه وشتى بها تلك الشتوة وباشر في عمل مدافع كبار وغيرها من آلات الحروب »[3].

وقال القرماني : « ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح مدينة قسطنطينية فأكثروا منها »[4].

---

(١) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٩٥) .

(٢) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٣٣) .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ٦٧) .

(٤) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٢٨) .

أما بشأن المراجع الإسلامية التي كتبت في القرن التاسع عشر فإن الميرالاي إسماعيل سرهنك وعلي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده وإبراهيم بك حليم لم يذكروا شيئا عن أوربان كذلك . أما محمد فريد بك فقد ذكر أوربان قائلا : « مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه أوربان »[1].

ثم بدا لي أن أحمد مختار باشا صاحب كتاب « فتح جليل قسطنطينية » ، قد ذكر أن سبك المدفع قام به كل من مصلح الدين صاريجه والمجري أوربان[2]. ثم رأيت أن المؤرخ الكبير د.محمد حرب حفظه الله صاحب الكتاب الجليل « العثمانيون في التاريخ والحضارة » ذكر أن الذي صنع المدفع هما مصلح الدين وأوربان[3]. ولكن بالرغم من ذلك لا يمكن أن أثبت صحة قصة أوربان هذا قبل مطالعة جميع المصادر التركية . وهنا نعود إلى المعضلة التي تحدثت عنها في صدر الكتاب ، وهي عدم وجود ترجمات عربية للكتب التركية . وأنا مازلت شاديا في اللغة التركية وأحتاج إلى وقت حتى أتمكن من قراءة المصادر التركية القديمة وفهم نصوصها فهما صحيحا . ومما يلفت النظر أن اثنين من أشهر المؤرخين الأتراك المعاصرين عندما تعرضوا لذكر المدفع في كتبهم ، لم يذكروا شيئا عن أوربان هذا . فقد قال يلماز أوزتونا : « أمر (السلطان الفاتح) بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل . ومدافع الهاون التي استعملت لأول مرة في التاريخ وقد خطط لهذه المدافع بنفسه كما اختبرها بنفسه »[4].

وقال أحمد آق كوندز : « بدأ على الفور بصب المدافع التي صممها ورسمها بنفسه ثم أجرى التجارب عليها وهكذا حصل على أفضل أسلحة الحرب آنذاك »[5].

فنحن هنا بصدد سؤال هام : هل قصة أوربان هذا ، لم يذكرها إلا المؤرخون البيزنطيون واللاتين فقط . وأن أحمد مختار باشا ومحمد فريد بك ود.محمد حرب نقلوها عنهم ، وإنما هي قصة ليس لها أصل في المصادر التركية . ولأجل ذلك أعرض عن ذكرها يلماز أوزتونا وأحمد

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (١٦١) .

(٢) انظر د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٢٠) .

(٣) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٥٥) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٣٢) .

(٥) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٢١) .

آق كوندز ؟!. وخروجا من هذه المعضلة سأفترض جدلا أنها وردت في بعض المصادر التركية وأن أوربان هذا كان له دور ما في سبك المدافع ، كبيرا كان أو صغيرا . وبالرجوع إلى المصادر البيزنطية واللاتينية التي عاصرت فتح القسطنطينية ، سترى أن أساتذة التاريخ مرة أخرى أخرجوا الكلام عن سياقه وتزيدوا عليها وتخيلوا أمورا ليست حقيقية . سأبينها في المسائل التالية .

الثانية : أضاف أساتذة التاريخ من عندهم لقب مهندس لأوربان بالرغم من أن المصادر البيزنطية واللاتينية وصفته بأنه صانع مدافع . **قال ليوناردو الخيوسي** : « كان صانع المدافع الذي لم يدفع له بشكل واف من جانبنا قد انضم للأتراك لهذا السبب » ...**وقال لاونيكوس خالكوكونديلاس** : « كان صانع مدفع السلطان يدعي أوربان الداشي المولد ، وكان يعمل في السابق في معسكر البيزنطيين لكنه رحل عنهم ... » ... **وقال ميخائيل دوكاس** : « وحدث أنه بينما كان محمد مشغولا في بناء القلعة أن حضر من القسطنطينية حرفي بارع مجري الجنسية يتصف بمهارته الكبيرة في سبك المدافع »... **وقال جورجي دولفين** : « وقام بدفع أجر كبير لصانع المدافع الألماني بحيث يصبح تحت إمرته وقتما وأينما يريد من أجل صنع مدفع له »[1].

هذه أربعة مصادر معاصرة لفتح القسطنطينية ، اثنان لاتينيان هما الأول والرابع ، أما الثاني والثالث فهما بيزنطيان. وقد جاءت صفة أوربان فيهن بأنه صانع المدافع . ولم يصفه أحد بالمهندس إطلاقا . فإن قيل أن لفظ مهندس لم يكن له وجود آنذاك وأن الأساتذة استخدموا لفظا حديثا للدلالة على نفس المعنى . نقول كلا ، فإن لفظ المهندس كان معروفا قبل ذلك العصر بقرون طويلة ، فقد قال **ابن خلكان** (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) عن أبي الوفاء المهندس المتوفى عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م : « أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها »[2].

وقد ذكر **ابن قاضي شهبة** (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) ، في وفيات عام ٧٩٢هـ : « علاء الدين

---

(١) ليوناردو الخيوسى ، لاونيكوس خالكوكونديلاس ، ميخائيل دوكاس ، جورجى دولفين : ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ، ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٤٥ ، ١٨٣ ، ٢٢٩ ، ٣٢٨) .

(٢) شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٥/ ١٦٧) .

التدمري المهندس بن المهندس ، وكانت له مكانة عند الأمير منجك ، وصار أمير مرعش ، وكان هو المشار إليه في فتح الأبواب والكراوات للعمائر »[١].

هكذا ترى أن أساتذة التاريخ أسبغوا على أوربان لفظ مهندس بلا مسوغ ، ووجه الاعتراض على ذلك هو أن هذا اللقب يوحى بأنه هو مخترع المدفع الضخم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، بل إن المخترع هو السلطان محمد الفاتح نفسه وهو الذي صمم المدفع ، أما أوربان فإن كان له دور في الحقيقة فهو لا يتعدى التنفيذ ، ودليلنا على ذلك هو المسألة التالية .

الثالثة : الحوار الذي دار بين السلطان محمد الفاتح وبين أوربان كما نقله لنا المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس ، يدل على أن التصميمات كانت من عمل السلطان نفسه .

قال دوكاس : « سأله محمد عما إذا كان بإمكانه صنع مدفع ضخم بما فيه الكفاية لإطلاق قذيفة تحدث تأثيرا في أسوار القسطنطينية برغم سمكها ومناعتها. فأجاب الرجل (أوربان) : إذا ما رغبت فإنني أستطيع أن أصنع لك مدفعا أكثر ضخامة من ذلك إذا ما تم توضيح ذلك لي الآن ، إنني أعلم أن أسوار المدينة معروفة بمناعتها ، لكن القذائف التي سوف تخرج من المدفع الذي سوف أقوم بصنعه ستقوم بقهرها وإخضاعها حتى ولو كانت تضاهي أسوار بابليون نفسها ، سوف أقوم بكل ما في وسعى لصناعته بشكل دقيق لكنني لا أعرف مقدار المسافة بين القذيفة والأسوار ولهذا فإنني لا أستطيع أن أضمن ذلك تماما ، أجابه السلطان : اصنع لي هذا المدفع وسوف أهتم بهذا الأمر بنفسي »[٢].

يبدو من سياق الحوار أن السلطان محمد الفاتح قد عرض على أوربان تصميما لمدفع ضخم وسأله إن كان بإمكانه أن يصنعه ، فأجاب أوربان بأنه يقدر أن يصنع أكبر منه بشرط أن يوضح له ذلك ، فيكون تأويل كلام أوربان : حدد لي القياسات التي تريدها وأعطني تصميما واضحا وسوف أقوم بالتنفيذ ، كما أن تصريح أوربان بأنه لا يضمن تأثير القذيفة على الأسوار لأنه لا يعرف مقدار المسافة ، وتصريحه بأنه لا يضمن شيئا لأنه لا علم عنده بهذه الأمور

---

(١) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، (ميكروفيلم رقم ٩٩/ ٢) ، (ج٢ ورقة ٦٢) .

(٢) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ، كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٢٩) .

ليؤكد أن أوربان ليس مخترع المدفع ، ولو كان أوربان هو الذي اخترعه فحتما كان سيعرف مدى القذيفة التي يطلقها وكان سيخبر السلطان بها ، بأن يقول له أن اخترعت مدفعا يطلق قذيفة وزنها كذا ومداها كذا وتأثيرها كذا . ولكنه لم يفعل.. ثم إن تصريح السلطان محمد بأنه سيتولى أمر تقدير المسافة بنفسه لدليل آخر على أن أوربان ما كان إلا منفذا لتصميمات السلطان محمد الفاتح. فالسلطان هو الذي وضع تصميم المدفع وقياساته وفقا للمكان الذي قرر أن يضعه فيه أمام الأسوار وفقا لخطة الهجوم التي أعدها ، أي أن المدى المؤثر للقذيفة كان من تقديرات السلطان محمد ، فإن أردنا صياغة الأمر بصطلحات العصر الحديث فنقول أن السلطان محمدا الفاتح كان هو المهندس أما أوربان فكان مقاول التنفيذ ، فكما أن المهندس الاستشاري في زماننا هذا يقوم بوضع التصميمات للعمائر الكبيرة ، ثم يقوم مقاول البناء بتنفيذ ما جاء فيها ، فكذلك وضع السلطان محمد الفاتح التصميمات ثم قام أوربان بتنفيذها ، وليس هذا بغريب على السلطان محمد فإن له باعا طويلا في علم الهندسة فهو الذي صمم قلعة روميلي حصار وأشرف على بنائها بنفسه وهو الذي اخترع مدفع الهاون أثناء فتح القسطنطينية وفقا لرواية البيزنطيين أنفسهم .

الرابعة : إن السبب الذي حمل السلطان محمدا الفاتح على اختراع مدفع الهاون ، وقد ذكرناه في الباب الأول مفصلا من رواية المؤرخ البيزنطي **كريتوفولوس** ، هو أن مدافع الحصار لم تتمكن من إصابة السفن البيزنطية في القرن الذهبي بسبب تواريها خلف أسوار غلطه ، فلما عرض الأمر على السلطان صمم مدفعا جديد وهو مدفع الهاون الذي يطلق قذائفه إلى أعلى باتجاه السماء لتتفادى الاصطدام بالسور ثم تسقط على الهدف ، وهو أول مدفع من نوعه في التاريخ، وهنا يحق لنا أن نتساءل ، أين كان « المهندس » أوربان ؟! ، لماذا لم يتول حل ذلك الإشكال إن كان مهندسا بارعا حقا كما تقولون ؟!. إن هذا ليؤكد أن أوربان ما كان إلا صانع مدافع وأن السلطان محمدا الفاتح كان هو المهندس المخترع .

ومما يدعو إلى العجب والأسى أن أساتذة التاريخ المذكورين وغيرهم لم يذكروا شيئا عن مدفع الهاون على الإطلاق فضلا عن ذكر أنه من اختراعات السلطان الفاتح نفسه ! وهذا أمر له العجب ، فهم لم يفتهم أن يذكروا وجود شخص اسمه أوربان صنع المدفع الضخم ، في

الوقت الذي تجاهلوا فيه تماما اختراع السلطان محمد الفاتح لمدفع الهاون .!! ولا أستطيع أن أجد لهذا التجاهل العجيب إلا سببا واحدا ، وهو أن أغلب أساتذة التاريخ مدجنون ! أي أنهم ليست لهم رؤية تاريخية خاصة يفترض أنهم خرجوا بها من مطالعة المصادر التاريخية وفحصها بدقة ، بل هم تبع للأوروبيين فلا يرون إلا ما يريهم إياه المستشرقون وأذنابهم من المتفرنجين .. ولكني أود أن أؤكد أن الحق يأتي أحيانا على لسان بعض المستشرقين المنصفين ، فقد صرح المؤرخ النمساوي فون هامر بأن السلطان محمد الفاتح هو مؤسس علم الباليستك (الاختصاص بالقذائف)[١].

خلاصة القول أن رواية المؤرخ البيزنطي **دوكاس** إذا ما قرأناها بعناية نخرج منها بأن أوربان إنما كان منفذا لتصميمات السلطان محمد الفاتح ، وهكذا يمكن الجمع بينها وبين الروايات التركية التي تذكر أن السلطان محمد هو الذي صمم المدفع الكبير ، ويمكن تفسير إغفال **يلماز أوزتونا** وأحمد آق كوندز لذكر مصلح الدين وأوربان أصلا ، لأنهما ما كانا إلا منفذين لتصميمات السلطان محمد الفاتح ، أما أساتذة التاريخ المذكورون آنفا فقد قدموا لنا الأمر كما لو كان المدفع الضخم هو اختراع أوربان وأنه ما كان للسلطان محمد الفاتح من الأمر شيء سوى أن طلب صناعة ذلك المدفع ووفر المال اللازم لذلك . بل إن الأستاذ المجهول صرح بأنه اختراع أوربان .!

على أية حال ، سواء عليك أوافقتني على هذا البيان أم لم توافقني عليه فإن الأمر لا ينبغي أن يكون محل خلاف كبير ، فإن رجح لديك أن المدفع هو من اختراع أوربان فلا بأس ، ولكن محل الخلاف الكبير هو استدلال أساتذة التاريخ برواية أوربان تلك على أن العثمانيين كانوا ينقلون العلوم الحديثة عن أوروبا ! وهذا باطل بلا ريب. ويستوقفني ما جاء في كلام د.زبيدة المذكور آنفا من قولها (وكانت أوروبا قد استخدمت المدافع قبل هذا التاريخ بمائة عام فقط) ، وهذا الكلام شبيه بكلام أستاذ كبير آخر هو **د.محمد عبد المنعم الراقد** الذي قال : « بل إن الدولة العثمانية ذاتها قد نقلت عن أوروبا استخدامها لسلاح المدفعية عندما جلب محمد الثاني (الفاتح) صناع المدافع والمعلمين المختصين بهذا الفن من ألمانيا والمجر »[٢].

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٨٢) .
(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٣٢) .

وقال بمثل ذلك د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : « في القرن الخامس عشر اقتبسوا (العثمانيون) المدفعية التي كان قد جرى اختراعها وشيكا »[١].

فهل معنى هذا الكلام أن العثمانيين نقلوا تقنية المدافع من أوروبا بعد مائة عام من ظهورها فيها ؟!. أي أن أوروبا كانت تسبقنا علميا بمائة عام ، هذا كلام غير صحيح على الإطلاق ، فمعلوم أن المدافع كانت موجودة قبل السلطان محمد الفاتح وقد استخدمها الأوروبيون وغيرهم ، ويعتقد أن أول من صنعها كان مسلمو الأندلس ، ثم انتقلت إلى سائر بلاد المسلمين مع المهاجرين الأندلسيين الذين فروا من مذابح الأسبان ، ولقد ورد في المصادر التاريخية أن المماليك استخدموها ، على سبيل المثال في الفتنة التي وقعت بين الأمير الكبير يلبغا الناصري والأمير منطاش بعد خلع الظاهر برقوق (من سلطنته الأولى) في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م. قال ابن تغري بردي : « والرمي من القلعة بالنشاب والنفوط والمدافع متواصل على المنطاشية ، وعلى من بأعلى المدرسة الحسينية ، حتى أصاب حجر من حجارة المدفع القبة الحسنية فخرقها ، وقتل مملوكًا من المنطاشية ، فلما رأي منطاش شدة الرمي عليه من القلعة ، أرسل أحضر المعلم ناصر الدين محمد ابن الطرابلسي وكان أستاذًا في الرمي بمدافع النفط »[٢]... وكان هذا قبل فتح القسطنطينية بستة وستين عاما ، بل كان العثمانيون أنفسهم يستخدمون المدافع قبل فتح القسطنطينية ، فقد ذكر المقريزي وغيره في عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م : « وقتل ناصر الدين محمد باك بن علي باك بن قرمان متملك بلاد قرمان في صفر بحجر مدفع أصابه في حرب مع عساكر مراد بن كرسجي متملك برصا »[٣].

والأسبان بدورهم تعلموا صناعة المدافع من مسلمي الأندلس ثم نقلوها إلى سائر أوروبا ، فخلاصة القول أن المدافع كانت تستخدم عندنا وفي أوروبا قبل فتح القسطنطينية ، ولكنها لم تكن سلاحا فعالا ، ولم تكن مفتاح هدم أسوار القلاع . فلما جاء السلطان محمد الفاتح اخترع ذلك المدفع الضخم الذي كان نقطة تحول في فن الحرب وأصبح هو الوسيلة

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ١٣٨) .
(٢) جمال الدين بن تغرى بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١١/ ٣٣٨) .
(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٨٩) .

الفعالة في هدم أسوار القلاع لذلك قال مؤرخ الأسلحة الشهير : Courtlandt Canby أن قصف القسطنطينية عام ١٤٥٣م هو أول قصف ناري مدفعي منتظم في التاريخ ، كما ذكرنا في الباب الأول ، وبالرغم من كل هذه الحقائق فإن الذي يفهم من كلام د.زبيدة وكلام د.محمد الراقد وكلام د.أحمد عبد الرحيم أن المدفع سلاح كان يستخدم في أوروبا ثم نقله العثمانيون إلى بلادهم بعد مائة عام كاملة واستخدموه في هدم أسوار القسطنطينية ، وهذا كلام غير صحيح على الإطلاق ، بل إن المدفع الضخم الذي يدك أسوار القلاع كان اختراعا إسلاميا بحتا قام به السلطان محمد الفاتح ثم اقتبسه الأوروبيون عن المسلمين العثمانيين بعد ذلك بعشرات السنين ، وللأستاذ المجهول كلام شبيه بكلام الأساتذة المذكورين آنفا ، إذ قال (ص ١٠٧) : « ولما كان السلطان يهتم بالتطورات الحديثة في العلوم العسكرية ويعتزم تجهيز قواته بأحدث الأسلحة وكان دائم الاطلاع على الدراسات الفنية الخاصة ببناء القلاع وآلات الحصار وطالما تشاور مع الخبراء الأجانب في هذا المجال ... ».

قلت : ليس هذا كلاما علميا بالمرة بل هو وهم كبير ، وكأنه يقول أن السلطان الفاتح كان حريصا على الإطلاع على التطورات التقنية في أوروبا ليجلبها إلى بلاده ليقوي بها جيشه ، وأنه استقدم الخبراء الأجانب في ذلك الأمر ، هذا ليس وهما فحسب بل هذيانا على الأرجح ، فعن أي خبراء أجانب يتحدث هذا الأستاذ ، إن كلامه يدل على جهل مطبق بحقائق التاريخ وبتوازن القوى العلمية في تلك الفترة ، فكل مبتدئ في دراسة التاريخ يعلم يقينا أن أوروبا في تلك الفترة كانت تعيش عصر تخلف علمي ، أطلقوا عليه عصر الظلام ، فقد كان الجهل ضاربا أطنابه في ربوع بلادهم ، وكانت العلوم تنتقل من بلاد المسلمين إليهم وليس العكس كما توهم الأستاذ المجهول ود.زبيدة عطا ، ثم إن الأمر ظاهر ولا يحتاج إلى تأصيل ، فلو كان في أوروبا كل هذه التطورات العلمية والخبراء الأفذاذ الذين زعمتم أن السلطان محمد الفاتح استعان بهم ، فلماذا لم تحقق أوروبا أي انتصارات تذكر على العثمانيين ؟! ولماذا ظلت أوروبا تتراجع أمام الزحف العثماني حتى حاصرهم العثمانيون في فيينا مرتين ؟! ولماذا بهت البيزنطيون واللاتين عندما رأوا المدفع حتى شبهه **دوكاس** بأنه « حيوان خرافي » ، وشبه

خالكوكونديلاس قذيفته بأنها محملة بقوة شيطانية شريرة(١) ، وقد ذكرناه في الباب الأول . ووصفه المؤرخ البيزنطى كريتوفولوس بأن له زيرا مخيفا وصوتا لم يسمع من قبل ولهبا يضيء كل ما يحيط به. ونص كلامه :

« There was a fearful roar first, and a shaking of earth beneath and for along way off, and a noise such as never heard before. Then, within an astounding thunder and a frightful crashing and a flame that lit up all the surroundings »(٢)

فلا مجال بعد ذلك لأن يقول أي أحد كان ، أن السلطان محمدا الفاتح استعان بالأوروبيين ليصنعوا له مدفعا ضخما ، ولو كانوا يستطيعون لصنعوه لأنفسهم..! وفي حقيقة الأمر لقد كانت أوروبا متأخرة علميا عن الدولة العثمانية قرنا وربع قرن ، والدليل على ذلك أن سنان باشا الذي فتح تونس عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م قد عثر داخل قلعة حلق الواد التي كان يسيطر عليها الإسبان ، على خمسة مدافع كبار وعلى خمسة من العمال المهرة في سبك هذه المدافع . قال سعد الدين أفندي : « عندهم من المعلمين الماهرين في علم المدافع الكبار التي يعجز عن صنعها جميع الكفار ... وظفر حضرة الوزير في قلعة حلق الواد وقلعتي تونس المأخوذتين بمائتي مدفع ، وخمسة مدافع كبار »(٣).

وهذا نص صريح في أن أول مرة يعثر فيها قائد عثماني على مثل هذه المدافع عند الأوروبيين ، كان بعد مائة وخمسة وعشرين عاما من إنتاج السلطان محمد الفاتح إياها. وقد ظل هذا التفوق المدفعي عند العثمانيين حتى انقضى القرن السابع عشر. قال اللورد Rycault : « إن المدافع العثمانية حتى أواخر العصر ١٧ تعد أجود أنواع المدافع العالمية »...ويسجل السائح

---

(١) لاونيكوس خالكوكونديلاس : التاريخ التركي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٨٤).

(٢) Kritovoulos : History of Mehmet The Concueror.Translated From Greek By Charles Riggs. P ٤٥

كريتوفولوس : تاريخ السلطان محمد الفاتح . ترجمه من اليونانية تشارلز ريجز (ص ٤٥) .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ١٨١) .

الفرنسي Mourand في أواسط العصر ١٦ أن أكبر مسبك ومعمل للمدافع في العالم هو طوبخانه اصطنبول ، وقد قال Arthur Thomas : « إن المركب الكيماوي للقذائف العثمانية يتفوق بكثير على مثيلتها الأوروبية »[1].

وهذا بلا شك يعكس مدى تفوق المسلمين على الأوروبيين في علم الكيميا. وقد ذكرنا في الباب الأول أن كمال رئيس هو أول من ثبت المدافع بعيدة المدى على ظهور السفن في عهد السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح ، فكانت مدافع سفنه تصيب سفن العدو دون أن تصل قذائف العدو إلى سفنه .

فبلاد المسلمين كانت منبع العلوم آنذاك ، ومع ازدهار الدولة العثمانية وفد إليها العلماء من شتى عواصم بلاد الإسلام ، من تبريز وأصفهان والقاهرة ودمشق وسمرقند وبغداد ، لا من بلاد أوروبا كما ظننتم ، وسيأتي تفصيل ذلك في محله . وإني لأتعجب كيف يجهل بعض أساتذة التاريخ هذه الحقائق ، وفي الحقيقة لا يمكن لأمة ما أن تستورد العلوم من الخارج لاسيما من أعدائها ثم تنتصر عليهم ، وفي القرن التاسع عشر عندما قامت الدولة العثمانية بتغيير جيشها وفقا للنظم الأوروبية وأسندت ذلك إلى خبراء أوروبيين وأنفقت الدولة خزائنها لهذا الغرض ، فبالرغم من ذلك لم تنتصر عليهم في حرب واحدة . فقد كانت إنجلترا في تلك الفترة تقوم بتسليح الجيش العثماني بالقدر الذي يحفظ للدولة العثمانية تماسكها خوفا من أن تبتلعها روسيا ، فيصل عندئذ الأسطول الروسي إلى البحر المتوسط كمنافس للأسطول الإنجليزي ، فقد كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت بالنسبة لإنجلترا دولة حاجزة تبعد عنها الأخطار الروسية ، وكذلك الحال بالنسبة لجيش محمد علي باشا في مصر ، فلقد حرصت الدول الأوروبية لاسيما إنجلترا وفرنسا على تجهيز جيش قوي لمحمد علي باشا بالقدر الذي يمكنه من ممارسة الضغوط على السلطان العثماني فحسب ، دون أن يصبح مصدر تهديد لأوروبا . ولما حاول الباشا أن يخرج عن الدور المرسوم له ، وظن أنه أصبح سلطانا ، ولسان حاله يقول إنما أوتيته على علم عندي ، تم تدمير جيشه في عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م.

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٨٣) .

خلاصة القول في مسألة المدفع الضخم ، هو أن المصادر الإسلامية يفهم منها أن السلطان محمد الفاتح هو الذي صمم المدفع الكبير ، ولم تذكر لأوربان دورا في ذلك ، كما أن النظرة المتفحصة للمصادر البيزنطية تبين أيضا أن السلطان محمدا الفاتح هو الذي صمم المدفع الكبير ، وما كان أوربان إلا صانعا ماهرا ، ولا شك أن مهارته تجلت في قدرته على تنفيذ العمل الموكل إليه على أكمل وجه ولكنه يظل أقل درجة من المهندس الذي فكر وصمم وخطط ، ولكن أساتذة التاريخ أعلوا من شأن أوربان أكثر مما يستحق وجعلوه مهندسا ومخترعا ، وتغافلوا عن أي دور للسلطان محمد الفاتح إلا إمداد أوربان بالمال .! ولو أنهم ذكروا الروايتين كلتيهما حتى دون الترجيح بينهما لكان خيرا وأحسن تأويلا .

تسيير السفن على البر

ذكرنا في الباب الأول أن العقبة الكبيرة التي واجهت السلطان محمدا الفاتح عند فتح القسطنطينية ، هي تلك السلسلة الحديدية الضخمة التي سد بها البيزنطيون خليج القرن الذهبي ، فقام السلطان محمد بإخراج سبعين سفينة من البحر ثم سيرهن عبر التلال ، على بكرات وضعت على ألواح خشبية مدهونة بالزيت والشحم ، حتى تخطى بهن موضع السلسلة ثم أنزلهن في البحر مرة أخرى داخل القرن الذهبي ، لكن يبدو أن بعض أساتذة التاريخ استكثروا هذا العمل العظيم على السلطان محمد الفاتح فنسبوا تلك الفكرة إلى رجل إيطالي ، فقد قالت د.زبيدة : « ثم قرر نقل قواته وسفنه عبر الأرض بناء على إشارة بعض من في خدمته من الإيطاليين ، عن طريق نقل السفن من البسفور إلى القرن الذهبي عبر ربوة ترتفع عن البحر مائة قدم »[1]...وقال **الأستاذ المجهول** (ص ١١٢) : « ولإيجاد مخرج لهذا الوضع واتته فكرة بارعة ربما أشار بها عليه أحد الإيطاليين الذين يعملون في خدمته ، وهي أن ينقل سفنه بالطريق البري من البسفور إلى القرن الذهبي ».

قلت : وقد ورد في بعض المصادر اللاتينية ، أن صاحب الفكرة كان رجلا مسيحيا ، دون

---

(١) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ١٩٩) .

تحديد جنسه أو اسمه[1] ، لكن سائر المؤرخين التي رووا تلك الواقعة لم يذكروا شيئا من ذلك ، بل إن المؤرخ البيزنطي دوكاس نسبها إلى السلطان محمد نفسه فقال : « فقد ابتدع الخطة الجسورة التالية ليثبت أنه رجل في غاية الذكاء .. »[2].

أما مصادرنا الإسلامية فلا تذكر شيئا عن رجل إيطالي أو غيره ، وقد صرح سعد الدين أفندي بأن السلطان هدي إلى تلك الفكرة بعد أيام لم يذق فيها طعم النوم ، فقال : « وبقى أياما مستغرقا في بحار الأفكار وبات ليال لم يطرق النوم عينيه وآخر الأمر اتفق رأيه الشريف الصائب المنيف أن جمع من أهل المعرفة والهندسة وأرباب الصناعات وحذاق رؤساء البحر والتجار وأصحاب المراكب ، وتكلم معهم في جذب مراكبه من البحر إلى البر »[3].

لكن د.زبيدة والأستاذ المجهول تلقفا الرواية اللقيطة اللاتينية وأثبتاها في كتابيهما ، وهي باطلة بلا ريب كتبها المؤرخان اللاتينيان مدفوعين بحقدهما وبغضهما للسلطان محمد الفاتح ، وأنا لا يعنيني صدور هذا الكذب منهما ، ولكن يؤلمني حقا ورود ذلك عند أستاذين مسلمين يدرسان في الجامعة ، إذ راحا ينقلان تلك المعلومة الكاذبة إلى طلابهما ، ويطيب لي في هذا المقام أن أسجل موقف د.حاتم الطحاوي حفظه الله الذي لم يقبل أن يكون عبدا لمؤرخ غربي حاقد أو تابعا لمستشرق ذي رأي فاسد ، إذ أنكر تلك الرواية قائلا : « أبدع ذهن السلطان محمد الفاتح فكرة عبقرية تمكن بمقتضاها من نقل أكثر من سبعين سفينة ... على أن الملاحظة الهامشية التي أبداها باربارو والتي ذكر بمقتضاها أن شخصا مسيحيا هو الذي أوحى لمحمد الفاتح بهذه الفكرة ، تلتقي مع ما يقوله ليوناردو الخيوسي ، على أن عدم تحديدهما لشخصية ذلك المسيحي يجعلنا نعتبرها محاولة منهما لتجريد السلطان محمد الفاتح من شرف إبداع هذه الخطة العبقرية ومن مجد ذلك الإنجاز التاريخي »[4].

---

(١) انظر ليوناردو الخيوسي : تقرير عن سقوط القسطنطينية ، ترجمة د.حاتم الطحاوي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية (ص ١٤٠) ، نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٣١) .

(٢) ميخائيل دوكاس : التاريخ التركي ترجمة د.حاتم الطحاوي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية (ص ٢٥٧) .

(٣) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٦٧) .

(٤) د.حاتم الطحاوي : الحصار العثماني للقسطنطينية (ص ١٤٠ هامش ١) .

هنا احتفظ د.حاتم الطحاوي بشخصيته المستقلة كباحث ، ولم يجد في صدره حرجا من تكذيب خبر جاء في مصدر غربي ، أسأل الله أن يثبته ويبارك لنا فيه . ويكفيه قيامه بترجمة عدد من المصادر الأجنبية إلى العربية ، فأمد الباحثين بمعين من المعلومات كانت خافية عليهم ، عسى الله أن يعينه على تقديم المزيد .

ولو نظرنا في كلام د.زبيدة وكلام **الأستاذ المجهول** فلا ينبغي أن يتملكنا العجب . بل إن كلامهما في تلك الواقعة يتسق تماما مع كلامهما عن المدفع الذي نسباه إلى أوربان ، ومع ما زعمه الأستاذ المجهول من أن السلطان محمدا الفاتح أحاط نفسه بالخبراء الأجانب ، وقد وقع الأستاذان الكبيران في هذا الوهم لأنهما أسقطا تلك الرواية على مرجعية باطلة ، وهي أن أوروبا كانت أكثر تطورا من بلادنا آنذاك . لذلك فإنهما تقبلا الرواية الغربية بسهولة ويسر . وهذا هو بيت القصيد ، فكم من مرجعية فاسدة متأصلة في عقول أساتذة التاريخ وغيرهم من المفكرين الأكابر ، قد حرص المستشرقون على تأصيلها في حملة غزو فكري نفذت بعناية فائقة ، ودقة متناهية ، بدأت مع استهلال القرن التاسع عشر ونجحت في تأصيل مرجعيات فكرية باطلة في عقول شباب غض طرى العود ، أصبحوا فيها بعد مفكرين وكتابا وأساتذة كبارا ، فسهل عليهم تقبل الأفكار الفاسدة والأخبار الكاذبة ثم نقلوها إلى تلاميذهم ، ثم تمضي الأيام ويصبح التلاميذ أساتذة فينقلونها بدورهم إلى تلاميذهم . وهكذا سار الحال حتى وصلنا إلى هذا الزمان الذي نحن فيه ، فإذا ما تفوهت بالحقائق ردوا عليك قائلين : ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين .

ومما يسترعى الانتباه أن **د.محمود الحويري** قد ذكر الواقعة بتمامها ونسبها إلى السلطان محمد الفاتح وذكر أثرها على البيزنطيين و في فقرة وافية تامة ، ومما يسترعي الانتباه أيضا أن كلا من **د.محمد أنيس** و**د.أحمد عبد الرحيم مصطفى** و**د.صلاح هريدي** لم يذكروا واقعة تسيير السفن برا على الإطلاق عند حديثهم عن فتح القسطنطينية ، وهذا أمر له العجب ، لأن هذه العملية البارعة للسلطان محمد الفاتح هي الحالة الوحيدة في التاريخ ، فلم يسبقه إليها أحد ولم يقلده فيها أحد . وقد أدهشت العدو قبل الصديق وقد وقف العسكريون البيزنطيون

وإخوانهم اللاتينيون الذين وفدوا عليهم لمعاونتهم ، أمام هذا العمل العظيم مشدوهين فاغري الأفواه وكأن على رؤوسهم الطير . وقد ذكرنا ما قاله دوكاس في الباب الأول . فلست أرى مبررا واحدا لإغفال هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار ذكر تلك الواقعة .

أما د.أحمد فؤاد متولي فقد أشار إليها إشارة عابرة قائلا : « وقام الجنود تحت جنح الظلام في ٢١ إبريل بتزليق السفن على البكر من طوبخانه شمالي غلطه على بحر مرمره إلى « قاسم باشا » على شاطيء القرن الذهبي ، ثم أنزلت في المياه وقد أمكن نقل سبعين سفينة تقريبا في ليلة واحدة تحت ستار من المدفعية »[1].

وهكذا لم يذكر د.أحمد فؤاد كيف تم نقل السفن بتعبيد الطريق أولا ثم وضع الأخشاب ودهنها بالزيت والشحم ، وفرد أشرعتها واستخدام الثيران في جرها عبر ربوة عالية إلخ ، ولم يذكر أيضا أن ذلك عمل فذ لم يسبق إليه السلطان الفاتح . ولم يذكر أيضا أثر ذلك على البيزنطيين ... فهكذا مر د.أحمد فؤاد علي تلك الواقعة الفريدة مرور الكرام كما لو كانت أمرا عاديا يحدث في الحروب كل يوم !.

مزاعم نهب القسطنطينية

من المعروف وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية أن الأراضي التي تفتح حربا تنتقل بكاملها إلى بيت مال المسلمين ، وأن الغنائم التي يجمعها الجنود بعد الفتح ، تجمع كلها ثم يحصل الجنود على أربعة أخماسها ، أما الخمس الأخير فيذهب للإمام لينفق منه على نفسه وعلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[الأنفال : ٤١]

وهذا مفصل في كتب الفقه فمن شاء المزيد فليرجع - على سبيل المثال- إلى الأحكام السلطانية للماوردي والجزء العاشر من الشرح الكبير للإمام ابن قدامة المقدسي ، والجزء

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٣٣) .

التاسع عشر من المجموع للإمام النووي ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ، وقد ذكرنا في الباب الأول أن السلطان محمدا قد عرض على الإمبراطور البيزنطي أكثر من مرة أثناء الحصار ، أن يسلمه المدينة مقابل الأمان لأهالي القسطنطينية جميعا ، فرفض الإمبراطور ذلك وفضل أن يموت تحت أسوارها ولم يحاول حتى الفرار ، وتلك شجاعة نشهد له بها ، ولكن نقول ليتها كانت في سبيل الله .!... فبما أن القسطنطينية فتحت حربا فإن الجنود يقومون بجمع ما استطاعوا أن يجمعوه من غنائم ، من الأموال والأسرى من الرجال والنساء والذراري ، مما يكون ملقى في الطرقات بعد تشتت الجيش البيزنطي ، أو يكون داخل بيوت الأمراء والقادة والجنود الذين قتلوا في المعارك ، أو أسروا أو فروا خوفا من القتل أو الأسر .

كانت تلك مقدمة لابد منها . لأن كثيرا من أساتذة التاريخ نقل ما جاء في المصادر البيزنطية واللاتينية ، عن قيام الجنود المسلمين بعد الفتح بالسلب والنهب وهدم المنازل وانتهاك أعراض النساء ، وتحطيم التحف والآثار ، وتدمير المخطوطات والكتب إلخ ، ولكن أصول البحث العلمي تقتضي عدم الانسياق التام لما في تلك المصادر للأسباب التالية :

أولا : هؤلاء المؤرخين هم في حقيقة الأمر يرون السلطان محمدا الفاتح وجنوده أعداء لهم ، وخصوما وهذا أمر طبيعي لا ننكره عليهم ، لاسيما وأنهم كانوا موجودين في القسطنطينية أبان فتحها ، بل إن بعضهم باشر القتال بيده ، فمن الطبيعي أن يبالغ في كيل الطعون والسباب للسلطان محمد الفاتح وجنوده ، ومن أصول منهج البحث التاريخي ألا يقبل قول الخصم في خصمه .

ثانيا : هؤلاء المؤرخين كانوا أبناء الثقافة الأوروبية في العصور الوسطى ، التي كانت تسمى عندهم عصور الظلام ، لما انطوت عليه من جهل وتخلف ، ولم يكن عند علماء أوروبا في ذلك الوقت ذلك الرقي الفكري الذي تمتع به علماء المسلمين آنذاك . لذلك فهم لم يستطيعوا أن يتحملوا صدمة ضياع القسطنطينية فظهر في كتبهم كثير من الأوهام والأكاذيب التي كتبوها بدافع من الحقد أو الصدمة العظمى بسبب ضياع القسطنطينية من أيديهم أو ربما بسبب التخلف الثقافي الذي كانوا فيه ، وقد ورد في كتبهم تناقضات عجيبة ، مثال ذلك ما

قاله ليوناردو الخيوسي رئيس أساقفة متلين : « كان الأتراك يتصفون بالشجاعة ويجيدون القتال عبر عمليات الالتحام »، ثم قال بعد بضع صفحات : « فقد كانوا يتصفون بالجبن ولديهم انخفاض في الروح المعنوية ولا يملكون تماما أسباب النصر »[١].

وهذا تناقض ظاهر بلا شك ، ومثال ذلك كثير في كتبهم بل ، إن الأمر تجاوز عندهم إلى حد أن بعضهم ذكر أمورا لا يصدقها العقل ، مثلا ما قاله ليوناردو الخيوسي أيضا من أن السلطان محمدا الفاتح كان يخلط الخمر بالدماء البشرية ، وما قاله كريستوفورو ريشيرو من أن السلطان محمدا الفاتح أتى بالأسرى مقيدين ، ثم أمر بتقطيع بعضهم إربا إربا من أجل التسلية والترفيه[٢].

قلت : وهذا الكلام بطلانه ظاهر لا يخفي ، وهو يخبرنا كيف فقد هؤلاء المؤرخون توازنهم بسبب سقوط القسطنطينية ، فراحوا يكتبون كلاما أشبه بالأساطير والخرافات التي كانت تسيطر على عقول الأوروبيين في تلك الفترة الحالكة من تاريخهم ، كل ذلك يجعلنا نتحفظ على كثير من الروايات التي وردت في كتبهم ، ولكن أساتذة التاريخ كعادتهم نقلوا الكلام الوارد في المصادر الأوروبية نصا كما ورد فيها بألفاظه ، دون حتى مراعاة الألفاظ الصحيحة الموافقة للثقافة الإسلامية ، فقد قالت د.زبيدة : « وانتشر جنوده (السلطان محمد) في المدينة يسلبون وينهبون ويقتلون من يصادفهم ودمروا كثيرا من الأبنية »[٣].

قال د.محمود الحويري : « نهبت ودمرت المنازل الخاصة والكنائس والأديرة ، وتعرض القصر الإمبراطوري للتلف ، وحطمت الأيقونات والتحف والمخطوطات النادرة الثمينة ، وانتزعت أطر الأيقونات الثمينة من الذهب والفضة. وألقى بالأيقونات للنيران ، وقتل الأتراك كل شيء حي وقف في طريقهم ، وجرت الدماء في الشوارع ، وقد سمع الجنود

---

(١) ليوناردو الخيوسي : تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينيه ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٥٠ ، ١٥٩) .

(٢) ليوناردو الخيوسي : تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية ، كريستوفورو ريشيرو : الاستيلاء على القسطنطينية ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٧١ ، ٣٢١) .

(٣) د.زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى (ص ٢٠٥) .

الأتراك أن أغلى ما يستحق النهب يوجد في كنيسة أيا صوفيا ، وكان الإنكشارية أول من توجه إلى هناك ، وكانت الكنيسة مزدحمة بالخائفين المذعورين الذين فروا إلى هناك وأغلقوا الباب عليهم ، لكن الجنود سرعان ما شقوا طريقهم إلى داخل الكنيسة وحطموا التحف الثمينة»[1]... **وقال الأستاذ المجهول** (ص ١١٧) : « وبعد أن دخل الجنود إلى البوابات تجول الجيش المنتصر عبر طرقات المدينة وسط الدماء ، وأعمل أفراده السلب والنهب المألوف لديهم في الكنائس والأديرة والأسقفيات والقصور والمنازل ، واستولوا على الأموال والأنفس ..... ثم قال أيضا : « وبينما ظل الرهبان ينشدون عند المذبح ، قيد المتعبدون مع بعضهم بالأغلال ومزقت ثياب النساء وأخرجن إلى الشوارع أمام الجنود الذين تنازعوا على امتلاك الفتيات والشباب والشيوخ الأثرياء ».

قلت : هذا الكلام باطل من ستة أوجه :

الأول : مما يؤسف له أن الأساتذة استخدموا نفس ألفاظ المؤرخين الأوروبيين (سلب ونهب) وكان الأولى بهم استخدم لفظ المسلمين وهو جمع الغنائم ، كما قال **سعد الدين أفندي** : « وغنمت العساكر منها (القسطنطينية) غنائم من أموال وأرزاق وأشياء وجواهر ونفايس ما لا يحصى ولا تحيط به دائرة الحد والاستقصاء»[2]...**وقال القرماني** : « فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله في عصر من الأعصار »[3].

الثاني : فيما يتعلق بقولهم (جرت الدماء في الشوارع) ، (طرقات المدينة وسط الدماء) ، هذا الكلام لا يوجد حتى في المصادر السبعة البيزنطية واللاتينية المعاصرة للفتح والتي كتبها شهود العيان وترجمها د.حاتم الطحاوي ، وإنما تفرد به **نيقولو باربارو** ، بالرغم من أنه لم يشهد يوم الفتح أصلا بل هرب من القسطنطينية هو وبني جلدته من البنادقة مبكرين ولجئوا إلى مدينة بيرا الجنوية (أحد أحياء اصطنبول الآن) كما قل هو عن نفسه : « **وعندما رأي الوفيكس** ديدو الضابط المسؤل عن الميناء وقائد الشينة القادمة من تانا أن القسطنطينية قد سقطت تماما

---

(١) د.محمود الجويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٤٦) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٦٨) .

(٣) أحمد بن يوسف القرماني : أخبار الدول وآثار الأول (٣/ ٣٠) .

هبط في الحال من سفينته حيث توجه إلى بودستا بيرا ... أمر البودستا الجنوي لمدينة بيرا بإغلاق بوابات مدينته وحجز القائد (البندقي) بداخلها مع بارتلوميو فيوريان صانع الدروع على الشواني القادمة من تانا ونيقولو باربارو الطبيب والجراح الخاص بالشواني » ....ثم يواصل باربارو حديثه بأنهم أبحروا بالسفن حتى وصلوا إلى السلسلة فقام رجلان بقطعها. ثم تجاوزوها حتى وصلوا إلى المكان المسمى بالأعمدة فألقيت مراسي السفينة وبقوا منتظرين هناك حتى انتصف النهار ثم تابعوا الإبحار[1].

فكلام باربارو السابق يشهد عليه بأنه لم يشاهد شيئا مما حدث في القسطنطينية عند فتحها. فوفقا لروايته فإنه قد خرج منها إلى بيرا وأحتجز فيها ، ثم أبحر بالسفينة مسافة ثم وصلوا إلى السلسلة فقطعوها ثم أبحروا مسافة أخرى ثم انتظروا مدة ، كل ذلك قبل الظهر ، مما يعنى أنه غادر القسطنطينية في الصباح الباكر. ومهما كان قد جرى من المذابح وفقا لمزاعمه فلا يمكن أن يصل إلى حد جريان الدماء في الشوارع في ذلك الزمن اليسير جدا ، فباربارو لم يشاهد شيئا ولكنه سرح بخياله وتوهم وكذب ثم صدق أكاذيبه ، ثم تلقف **د.محمود الحويري والأستاذ المجهول** تلك الأوهام والأكاذيب وأثبتوها في كتبهم على أنها حقائق تاريخية ، دون أن يجهدا نفسيهما بقليل من التفكير .

الثالث : فيما يتعلق بقولهم قتل كل من صادفهم أو وقف في طريقهم ، فهذا باطل أيضا . وبالرغم من وروده في المصادر البيزنطية واللاتينية إلا أنه يخالف ما ورد في مصادرنا الإسلامية . ويخالف أيضا ما ورد عند المؤرخ البيزنطي المعاصر للفتح **ميخائيل دوكاس** ، والذي يبدو أنه بين الحين والآخر كانت تنفلت الحقائق من قلمه دون أن يشعر بها ، في خضم الخرافات والأساطير التي كتبها هو وغيره عن البلطان محمد وجنوده . فقد ذكر **سعد الدين أفندي** أن المسلمين عندما اقتحموا الأسوار وتقابلوا مع جنود العدو وضعوا السيف فيهم جميعا ، ثم بعد أن دخلوا المدينة اقتصر القتل على المحاربين من الجنود والرجال. قال **سعد الدين أفندي** بعد أن ذكر الهجوم على الأسوار : « ووضعت الراية الشريفة السلطانية على أعلامنا ،

---

(١) نيقولوا باربارو : يوميات الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٧٩ ، ١٨٠).

ونصبت بها ألوية الإسلام والمسلمين ، وأعلنت بكلمة التوحيد وإعلان أصوات المؤذنين، ووضع السيف في جميع الكفار الفجار وقتلوهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار ، وتملكوا عليهم والحمد لله رب العالمين ، وأخذ السيف فيمن كانت له قابلية على القتال من جندهم ورجالهم وسبوا من الغلمان والنساء والأطفال ما لا حد له ولا حساب »[1].

قال دوكاس : « وقاموا بقتل كل من شاهدوه أمامهم حتى أولئك الذين فضلوا الهرب ، فقاموا بقتل حوالي ألفين من الجنود الذين أصابهم الرعب . وكان الأتراك متأكدين من وجود خمسين ألف جندي بالمدينة ولهذا بادروا بقتل ألفين منهم . لكنهم بمجرد أن علموا أن أعداد المدافعين عن المدينة لا تزيد عن ثمانية آلاف جندي فقط ، توقفوا عن إزهاق روح جندي واحد بعد ذلك »[2].

هذه هي شهادة المؤرخ البيزنطي الذي شهد الأحداث بعينه ، وقد ذكر بينفينوتو قنصل أنكونا بالقسطنطينية أن السلطان محمد الفاتح قبل الهجوم النهائي بيومين قد أعلن للبيزنطيين أنه سيتم السماح لكل من أراد أن يغادر المدينة أن يغادرها لئلا يتعرض للقتل[3].

ومن ذلك يتبين بطلان قول د.زبيدة (قتلوا كل من صادفهم) ، وقول د.محمود الحويري (قتلوا كل شيء حي أمامهم) ، فإنما كان ذلك لحظة اقتحام الأسوار عندما تلاقى الجيشان ، فلما تبين لهم أن الجيش البيزنطي أضعف مما يظنون توقف ذلك ، ولعمر الله هكذا تكون الحروب فبعد أن يتم فتح المدن بالقوة ، يجب التأكد من إفقاد جيش العدو قوته الضاربة ، حتى لا يستجمع شتات جنوده ويستعيد قوته ويعاود الكرة علينا ، لذلك فقد جعلت الشريعة الإسلامية أمر الأسرى للحاكم وهو مخير فيهم بين القتل أو الفداء أو المن أو الاسترقاق ، إنما يرى المصلحة ، ولو رأي الحاكم أن الأصلح هو قتل جميع الأسرى من الرجال فله ذلك ، وذلك مفصل في كتب الفقه ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك مع يهود بني

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٦٨) .

(٢) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٧٥) .

(٣) شهادة بنفينيتو قنصل أنكونا ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٣٥٥) .

قريظة عندما حاصرهم في حصنهم بعد يوم الأحزاب بسبب غدرهم وتحالفهم مع قريش ضد المسلمين ، ناكثين بذلك ما أخذ عليهم من عهود ، ونزلوا يومئذ على حكم سعد بن معاذ ﷺ فحكم بأن يقتل الرجال وتسبى النساء والذراري ، فقال رسول الله ﷺ أصبت حكم الله فيهم ، وكانوا أربعمائة ، والخبر مذكور في كتب السنن والتاريخ السير[١].

ولو رأي الحاكم المصلحة في العفو عن جميع الأسرى بلا فداء فله ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ مع أسرى حنين ، إذ أطلقهم جميعا لما جاءه وفد هوازن وسألوه العفو فعفا عنهم[٢].

ثم إنه لمن العجائب أن د.محمود الحويري[٣] قد نقل خطاب السلطان محمد الفاتح لجنوده قبل الهجوم الأخير ، وهو يحرضهم على القتال وينهاهم عن التعرض للكنائس والمعابد والقسس والضعفاء والعجزة . ثم قال بعد ذلك أن الجنود عندما دخلو المدينة (قتلوا كل شيء حي) ، وقال أيضا (جرت الدماء في الشوارع) ، فهل يعني ذلك أن الجنود خالفوا أوامر السلطان ؟! أم ماذا ؟! هذا تناقض يحتاج إلى تفسير ، ولا يسوغ لأي أستاذ جامعي أن ينقل هكذا من المصادر والمراجع بلا تحقيق ولا تمحيص ، ولا يشفع له ما قاله نقلا عن الأوروبيين أيضا : « إن معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية كانت أرحم من معاملة الصليبيين لهم أثناء احتلالها عام ١٢٠٤م »[٤].

قلت : أكثر الله من خيراتكم إذ شهدتم بأن العثمانيين كانوا أرحم من الصليبيين في العصور الوسطى ، هذا أسلوب مشهور عند المستشرقين ، وهو طعم غالبا ما يتلقفه أساتذة الجامعة ، فهذا ذم في صورة المدح ، فقد جعلوا أساتذة التاريخ يقرون بأن العثمانيين كانوا متوحشين ولكنهم أقل وحشية من الصليبيين ، فحينما يقول قائل إن الذئب أرحم من الأسد فليس هذا

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٣٥) ، صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٨) ، سنن الترمذي (٤/ ١٤٤) ، مسند أحمد (١٧/ ٢٥٩) ، عبد الملك بن هشام : السيرة (٢/ ٢٤٠) ، محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك (١/ ٦٩٧) .

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٩٩) ، عبد الملك بن هشام : السيرة (٢/ ٤٨٨) ، محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك (١/ ٧٨١) .

(٣) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٤٢) .

(٤) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٤٦) .

مدحا للذئب بل هو إقرار بوحشية الذئب ، ولكنه أقل وحشية من الأسد !. وأنا على يقين من أن د.محمود قد نقل هذا الكلام من باب مدح العثمانيين ولم يلتفت إلى ذلك الفخ ، وهذه عاقبة من يتبع المستشرقين وينقل من كتبهم كما لو كانت الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وفخاخ المستشرقين ما أكثرها ، ولا نجاة منها إلا لمن اعتصم بمنهج مؤرخينا الأقدمين وأقر لهم بفضلهم وسعة علمهم ، وفهم حقيقة دور المستشرقين وصنوف حيلهم وألاعيبهم .

الرابع : أما ما يتعلق بما زعموه من تحطيم المنازل والتحف والكتب ، فهذا كلام لا يقبله كل ذي عقل سليم فضلا عن أستاذ كبير يحمل درجة الدكتوراه ، فأي جندي بعد الفتح ينصرف همه إلى جمع ما يستطيع جمعه من الغنائم بسرعة قبل أن يأمر السلطان بالكف عن ذلك ، فهل من المعقول أن يضيع ذلك الوقت الثمين في هدم منزل ؟! وأي فائدة ستعود عليه من ذلك ؟! ثم إن السلطان محمدا الفاتح كان حريصا على سلامة المدينة لأنه كان يريد أن يجعلها عاصمة له ، وقد ذكر دوكاس نفسه أن السلطان قبل الهجوم الأخير أعلن للجنود أنه سيتنازل لهم عن نصيبه من الغنائم وأنه سيحتفظ بالمباني والأسوار ، قال دوكاس : « وأقسم بأنه لن يحتفظ لنفسه سوى بمباني وأسوار المدينة أما الباقي كله كالأسلاب والغنائم والأسرى فإنه سوف يقوم بمنحها إلى قواته »[1].

أما بشأن التحف ، فلا يتصور عاقل أبدا أن يقوم الجنود بتحطيمها ، فهي غنائمهم التي سيعودون بها . فلو قالوا أخذوها أو نهبوها لكان الكلام مقبولا ، أما أن يقولوا بأنهم حطموها فهذا لا يستقيم أبدا . لاسيما ما قاله د.محمود الحويري في ذلك الشأن لأنه يحمل تناقضا بين ثناياه ، إذ قال ما مضمونه - مما نقلناه عنه آنفا - أن الجنود هرعوا إلى أيا صوفيا عندما سمعوا بوجود التحف فيها ، فلما دخلوها قاموا بتحطيمها . هل هذا كلام يقبله النظر السليم ؟! كما أن ما ذكره د.محمود عن تحطيم المخطوطات النادرة الثمينة. يخالف ما ذكره دوكاس نفسه من أن السلطان عندما رحل عن القسطنطينية بجيشه حملوا معهم كثيرا من الكتب. قال دوكاس :

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٦٧) .

« ما هي تلك الأسلاب والغنائم التي قام الأتراك بحملها ؟ إنها الملابس الغالية والمرتفعة القيمة والفازات الذهبية والفضية وتلك المصنوعة من البرونز والقصدير كما حملوا معهم عددا ضخما من الكتب »[1].

إن كلام د.محمود الحويري لا يخالف الواقع فحسب بل يخالف شخصية السلطان محمد الفاتح المغرمة بالعلوم . فإن العثمانيين عندما دخلوا القسطنطينية غنموا تلك الكتب اليونانية النادرة والثمينة التي علاها التراب على أرفف المكتبات ، بسبب ما كان سائدا في أوروبا من جهل وتخلف . ولكن علماء المسلمين لما بلغتهم هذه الكتب عكفوا على ما فيها من علوم وقاموا بتطويرها وأضافوا إليها حتى أصبحت اصطنبول منارة علمية بحق . وذلك العدد الضخم من المخطوطات التي يزخر بها متحف « طوب قبو » والمكتبة السليمانية في اصطنبول تشهد بذلك . وسيأتي الكلام عما بلغه المسلمون من تطور علمي في العصر العثماني . وتذكرني تلك الواقعة بما فعله الفرنسيون عندما دخلوا مصر مع بونابرت عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وأخذوا ما في مكتبة الأزهر من الكتب النادرة واستفادوا منها أيما استفادة وأسسوا عليها نهضة علمية في أوروبا . بعد أن أهملها المسلمون لفترة وعلاها التراب أيضا على أرفف مكتباتهم ، فكان جزاؤهم أن حرموا منها . إن سنن الله لا تحابي أحدا . لأن العلم نعمة متى أهملت نزعت . لا يفرق الله في ذلك بين مسلم وكافر. فإن مَن جد وجد ومن زرع حصد قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣] .

الخامس : من الواضح أن البيزنطيين واللاتين الذين ذكروا تلك المطاعن في كتبهم ، إنما فعلوا ذلك من باب إثارة حمية الأوروبيين على تجهيز حملة صليبية ضخمة لمقاومة ذلك المد الإسلامي ، فلربما تتمكن من استعادة القسطنطينية. وهذا ظاهر في قول ليوناردو الخيوسي في تقريره المذكور : « سوف أحكي لهم فقط عن موت أحبابهم بيد أعدائهم لكي يتصاعد حزنهم ويتحول إلى أفكار نشطة من أجل ضرورة الانتقام والثأر لما جرى » ... وقال أيضا موجها

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٩٨) .

خطابه لبابا روما : « وعندما تومئ لكل أمير مسيحي سوف يكون مستعدا للثأر لما أصاب رفاقه المسيحيين ، وإذا لم يقم بفعل هذا فيجب أن تعلم أن تعالي وغطرسة السلطان (محمد الفاتح) سوف تصل إلى ذروتها لأنه لا يستحي أن يتباهى ويجاهر بنيته في النفاذ إلى البحر الأدري (الأدرياتي) من أجل الوصول والاستيلاء على مدينة روما »[1].

قال أنجيلو جيوفاني قنصل جنوه في بيرا (حي في القسطنطينية) وكان شاهدا على الفتح : «إذا لم يقم المسيحيون بعمل حاسم وسريع فإنه (السلطان) سيقوم بأعمال سوف تملؤهم بالدهشة والذهول ، ومن ناحية أخرى فإن الأتراك إذا ما قاموا باتخاذ الاستعدادات العسكرية الضرورية ، فإن القسطنطينية ستكون فقط مجرد أولى المدن التي تتعرض للخراب والدمار على أيديهم »[2].

وهكذا يبدو أن هؤلاء كتبوا كتبهم وتقاريرهم ورسائلهم وفقا لتوجه خاص ، وهو تحريض أوروبا على القيام بعمل عسكري ضد العثمانيين ، واستخدموا في ذلك الدعاية الزائفة لاستثارة حماس أبناء جلدتهم . ولكن الواقع على الأرض يؤكد بطلان تلك المزاعم .

السادس : بالنظر في أعداد السكان في القسطنطينية يتبين لنا كذب ما جاء في المصادر البيزنطية واللاتينية ، فقد ذكر نيقولا فاتان أن عدد القادرين على حمل السلاح في القسطنطينية قبيل حصارها كان بمن في ذلك الرهبان ٤٩٨٣ يونانيا و٢٠٠٠ أجنبي ، وذلك وفقا لإحصاء المؤرخ سفرانتزيس الذي كلف بتلك المهمة في مارس عام ١٤٥٣م ، كما ذكر فاتان أن إجمالي سكان القسطنطينية عشية الحصار كان لا يزيد كثيرا عن أربعين ألفا[3] وقد ذكر يلماز أوزتونا أنه في عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م أي بعد خمسة وعشرين عاما من فتح القسطنطينية ، أجرى إحصاء لعدد السكان داخل أسوار القسطنطينية ، فكان مائة وثمانية وأربعين ألفا منهم تسعون ألفا من المسلمين[4]. وهذا الإحصاء قريب جدا من الإحصاء الذي ذكره المؤرخ

---

(١) ليوناردو الخيوسي : تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٢٣ ، ١٧٣) .

(٢) أنجيلو جيوفاني : رسالة عن سقوط القسطنطينية ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٣٤٣) .

(٣) نيقولا فاتان : صعود العثمانيين ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٢٠ ، ١٢٣)

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٦٢٦) .

الأمريكي بيتر شوجر ، فقد ذكر أنه في نفس العام كانت نسبة المسلمين في اصطنبول ٢ ,٥٨٪ ونسبة النصارى ٦ ,٣١٪ ونسبة اليهود ٢ ,١٠٪[1]. فإن كان عدد السكان ٠٠٠ ١٤٨ ألفا ونسبة النصارى ٦ ,٣١٪ فإن عددهم يكون ٧٦٨ ٤٦ أي أن عدد النصارى بعد خمسة وعشرين عاما من الفتح كان أكثر من عددهم قبل الفتح بنسبة ١٧٪ تقريبا ، وهذه النتائج تؤكد بطلان قول من قال أن العثمانيين قتلوا كل من صادفوه من سكان القسطنطينية ، وأن الدماء جرت في الشوارع ، و إلا فمن أين جاء كل هذا العدد من النصارى ؟! ولو كانت قد جرت مذابح حقا كما يزعمون ، فإن أهالي القسطنطينية إما أن يكونوا قد قتلوا فيها أو فروا منها . فلا يمكن أن يزيد عددهم بأي حال ، بل إن تلك الزيادة تؤكد أن كثيرا من أهل القسطنطينية الذين فروا منها قبيل الفتح العثماني ، قد عادوا إليها بعد أن تأكدوا من أنهم سيكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم تحت حكم المسلمين من آل عثمان . وفي إحصاء عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م الذي أشرف عليه قاضي حلب زكريا أفندي . قال يلماز أوزتونا كان عدد الأزقة كما يلي : « ٣٩٧٣ زقاقا للمسلمين ، ٤٥٨٥ زقاقا للمسيحيين ، ٢٥٨٥ زقاقا للموسويين ، والحقيقة ، أن عدد سكان المسلمين كان يفوق هذا العدد ، بسبب تجمعهم في الأماكن كالسرايات والثكنات (الوحدات العسكرية) »[2].

وهذا الإحصاء يطابق تقريبا ما ذكره حسين خوجه بن علي طبقا لوثيقة رآها في اصطنبول : أن عدد محلات (أحياء) المسلمين ٣٩٧٣ وعدد محلات النصارى ٤٥٨٦ وعدد محلات اليهود ٢٥٨٥[3]، وكل هذه الأرقام تؤكد أن النصارى نعموا بالأمن منذ اليوم الأول للفتح العثماني وظلوا كذلك لسنوات طويلة ليس في اصطنبول فحسب بل في سائر بلاد السلطنة ، ولم يتغير ذلك إلا عندما عمد الأوربيون إلى استغلالهم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، بغرض إحداث انقسام في الدولة ، كما ذكرناه مفصلا في الباب الأول ، وسأنقل فيما يلي نص فرمان السلطان محمد الفاتح الذي منحه لرهبان البوصنه ، بالرغم من أنهم كانوا من اللاتين أي يتبعون البابوية في روما ألد أعداء السلطان ، ليعلم

---

(١) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٦٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٦٢٦) .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ٢٤٣) .

أساتذة التاريخ سماحة السلطان الفاتح ، في الوقت الذي كان المسلمون يتعرضون للمذابح في الأندلس ويطردون من بلادهم : « أنا السلطان محمد خان فليعلم العوام والخواص جميعا ، إن فيض عنايتي ظهرت على حاملي هذا الفرمان السامي رهبان بوصنه ، فأمرت ألا يمانعهم أو يزاحمهم أحد في كنائس المذكورين ، وأن يستقروا في مملكتي بغير حذر من شيء ، وأن يضمن أمن وأمان من فر ورحل أيضا ، فليسكنوا في ممالكنا الخاصة بلا خوف ويمكنوا في كنائسهم فلا يؤذى المذكورون بتدخل أو تعرض من حضرتي السامية أو من وزرائي أو من عبيدي أو موظفي أو من رعيتي أو من الخلائق جميعا في مملكتي ، في أبدانهم وأرواحهم وأموالهم وكنائسهم . وأيضا فيمن يأتي إلى ممالكي الخاصة من الخارج . فأقسم يمينا غليظا بالله الرب خالق السموات والأرض وبالقرآن الكريم وبحق الرسول الأعظم وبحق الأنبياء المائة والأربعة وعشرين ألفا[1] وبحق السيف الذي أتمنطقه ، أن لن يخالف أحد ما هو مكتوب هنا . ما داموا مطيعين لأمري ومنقادين فلتعلموا على هذا الوجه .. »[2].

ما سبق يبين مدى السماحة الدينية التي نعم بها اليهود والنصارى في ظل الحكم العثماني ، ويؤكد أيضا على أن أولئك البيزنطيين واللاتين الذين عاصروا الفتح وكتبوا ما كتبوه من مطاعن على السلطان محمد الفاتح وجنوده ، إنما كان بتأثير من الصدمة الكبرى التي وقعت على رؤوسهم بضياع القسطنطينية من أيديهم ، وبدافع من تحريض سائر الأوروبيين على اتخاذ إجراءات حاسمة لمقاومة المد الإسلامي ، وليس هذا بالأمر الجديد عليهم وقد فعلوا مثله قبل فتح القسطنطينية بأكثر من ثلاثة قرون ونصف ، لما أذاع الرهبان والقساوسة دعايات زائفة عن اضطهاد النصارى في بيت المقدس والتنكيل بهم ومنعهم من أداء شعائرهم ، لأجل استشارة الحمية الدينية عند ملوك وأمراء أوروبا ، وقد نجحوا في ذلك وجاءت أول حملة

---

(١) يشير إلى ما رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧٨) بسنده عن أبي ذر ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، كم النبيون ؟ قال : « مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي » . قال : قلت : كم المرسلون منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر » . واعلم أنه لا يجوز للمسلم أن يحلف بغير الله ﷺ لما رواه البخاري (٨/ ٢٧) بسنده عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٥٦١) .

صليبية واستولت على بيت المقدس عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م ، ثم سلك أحفاد هؤلاء الرهبان والقساوسة نفس طريق آبائهم وصنفوا كتبهم لهذا الغرض . ومما يؤكد على ذلك أنهم لم يذكروا سماح السلطان محمد الفاتح للرهبان بانتخاب بطريرك لهم ليتولى كافة أمور طائفته ، بالرغم من أن دوكاس وخالكوكانديلاس كانا موجودين داخل القسطنطينية آنذاك .

وجدير بالذكر في هذا المقام ، قول فولتير المفكر الفرنسي الشهير تعليقا على فتح القسطنطينية بعد ثلاثة قرون من وقوعه ، قال : « إن الأتراك لم يعاملوا النصارى بقسوة كما نعتقده نحن ، ولا تجيز أمة من أمم النصارى أن يكون للمسلمين مسجد ببلادها أصلا ، بخلاف الأتراك فإنهم يسمحون لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائس ، وكثير من هذه بجزائر الأرخبيل تحت مراقبة أحكامهم ». وقال فولتير أيضا : « مما يثبت صراحة أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حكيما . تركه للمسيحيين المقهورين الحرية في انتخاب بطريرق لهم ، ولما انتخب ثبته هو مع التعظيم وسلمه عصا البطارقة ، وألبسه الخاتم حتى قال ذلك البطريق عند ذلك : إنني خجل مما لاقيته من التبجيل والاحتفاء الذي لم يفعله ملوك النصارى أصلا مع أسلافي »[١].

أنا لست ممن يركنون إلى المصادر والمراجع الأوروبية . ولكني نقلت كلام فولتير لأبين أن المفكرين الأوروبيين بعد أن خرجوا من عصور الظلام ، وانصرف كثير منهم عن دينه ، واتخذ الإلحاد مذهبا ، ومن هؤلاء فولتير الذي تخلص من كل عقائده النصرانية وانتماءاته الصليبية ، استطاع أن يرى الحقيقة التي لم يستطع أساتذة التاريخ المسلمون أن يروها حتى الآن . فلقد انتكس أهل العلم عندنا إلا من رحم ربي وصاروا يتحدثون بنفس اللهجة التي كان يتحدث بها الأوروبيون في عصور الظلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

لم يتهم المؤرخون الأوروبيون السلطان محمدا الفاتح بالوحشية في القسطنطينية فسحب ، بل نسبوه إلى ذلك في أغلب فتوحاته للأسباب المذكورة آنفا ، ومما يؤسف له أن بعض أساتذة التاريخ يقتفون أثرهم بغير علم . فقد قال د.محمود الحويري عن حملة صربيا الأولى : « وقد أحرق الأتراك الأراضي في تلك الحملة ونهبوا وذبحوا الأهالي بقسوة ووحشية حتى ظهر كأن

---

(١) نقلا عن الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥١٠ ، ٥١١) .

شيئا لا يمكن أن يشبع عطشهم إلا دماء المسيحيين ، وقتلوا كل الذكور فوق أربعين سنة وساقوا النساء والشباب إلى الأسر »[١].

وقد نقل د.محمود هذا الكلام من كتاب The Shadow of Crescent (ظل الهلال) ومن الواضح أن مؤلفه استقى معلوماته من مصادر صليبية ، كل هم مؤلفيها تأجيج كره السلطان محمد الفاتح في قلوب الصليبيين . ومن المؤسف أن ينقل أساتذة التاريخ هذا الكلام على أنه حقيقة علمية.! وقد ذكرت من الأدلة آنفا أن كل تلك الاتهامات تتعارض مع شخصية السلطان محمد الفاتح . فالرجل الذي سمح لسكان القسطنطينية بالخروج منها قبل الهجوم الأخير لئلا يتعرضوا للقتل ، والرجل الذي مكن الرهبان في القسطنطينية من انتخاب بطريرك لهم دون أن يتدخل في ذلك . والرجل الذي أقسم ألا يؤذى أحد من نصارى البوصنه لا في ماله ولا في نفسه ولا في عرضه ، ليس بالرجل الذي يروى عطشه من دماء الناس كما زعمتم . ومن الكلمات المأثورة للسلطان محمد الفاتح عندما استأذنه الجنود بأن يلحقوا بعدوهم الهارب من ساحة القتال ، فلم يأذن لهم ورد عليهم قائلا : « **إن من عادات آبائنا وأجدادنا ألا يلحقوا الهارب أبدا ومن عاد فينتقم الله منه** »[٢].

فالسلطان الذي لا يرى اللحاق بجنود العدو الفارين من أرض المعركة شفقة بهم . أويقدم على ذبح الأهالي من غير المحاربين أصلا ؟! فكل أستاذ في التاريخ يسمح لنفسه أن ينقل عن الصليبيين قبائح أقوالهم ودفائن أحقادهم . فإنما يلحق بنفسه عارا وشنارا ولن يجد له من دون الله أنصارا . ومن المدهش بحق أن **د.محمود الحويري** قد ناقض نفسه فيما تلا ذلك من كلام ، إذ أنه تحدث في أواخر كتابه عن سياسة الاستمالة التي كان يتبعها العثمانيون لاسيما السلطان محمد الفاتح عندما استمال الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية عندما فتحها. **قال د.محمود** : « يمكن تعريف سياسة الاستمالة هذه بأنها تقوم على جذب الأهالي والسكان من غير المسلمين واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية . وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم ثم إرساء دعائم الحكم العثماني في مناطقهم بعد ذلك » . **ثم قال د.محمود** : « وقد جعل التسامح

---

(١) د.محمود الحويرى : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٥٥) .
(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ٧٣) .

الديني الذي منحته الإمبراطورية العثمانية للإغريق ، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم ، وإيثار سيادة السلطان العثماني على أي سلطة مسيحية أخرى »[1].

قلت : إن كانت هذه سياسة السلطان محمد الفاتح ، فهل يمكن أن يبنيها على إقامة مذابح للأهالي في القسطنطينية وصربيا كما زعمتم؟!. لقد سئمنا من هذا الكلام المتناقض. هلا ثبتم على قول واحد ..!! .ثم إن د.محمود ذكر كلاما آخر أكثر تناقضا من الذي قبله فقد قال : « لكن المناظر التي تدعو للأسى والتي ما زالت كامنة في الخيال الشعبي لشعوب البلقان المسيحية ، والتي تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء ، ما هي إلا نتيجة للدعاية التي سادت يوم كانت الروح الصليبية هي الغالبة ، وكان الهبسبورج وباباوات روما هم عصب هذه الدعاية »[2]... نقل د.محمود هذا الكلام عن « بول كولز » من كتابه « العثمانيون في أوروبا » ، ففي أول كلامه ذكر د.محمود أن العثمانيين كانوا متعطشين لدماء المسيحيين في صربيا ، وهنا يقول أن تلك الصورة غير حقيقية بل هي نتيجة للدعاية الصليبية . فأين الحق وأين الصواب ؟! أم هو مجرد نقل من المصادر والمراجع . فمتى يذكر أي أستاذ قولين متعارضين فعليه أن يرجح أحدهما على الآخر . في الحقيقة إني أجد كثيرا من هذا التناقض في كتب أساتذة التاريخ وكأنهم يعمدون إلى ذكر وجهات النظر كلها حتى لا يتهمون بالتحيز !.

وردت طعون أخرى على السلطان محمد الفاتح هي من سفاسف الأمور وصغائرها ، كالقول بأنه نقض عهد فلان أو غدر بفلان وأشياء أخر ، من الأولى أن نترفع عنها متمثلين قول من قال :

لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا لصار الصخر مثقالا بدينار

ولكن مما يجب التنبيه إليه لأنه كان يدرس للطلبة في الجامعة ، هو ما ختم به الأستاذ المجهول حديثه عن السلطان محمد الفاتح فقال (ص ١٧٢) : « وبرغم تسامح السلطان فقد كان مثالا سيئا للمسلمين ، إذ كان يشرب الخمر حتى الثمالة ، وكان يعاني من البدانة وتهاجمه

---

(١) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٣٣ ، ٢٣٤) .

(٢) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٣٦) .

نوبات مرض النقرس وداء المعدة ، وأحيانا كان لا يستطيع التحرك من مكانه »... ثم قال (ص ١٧٣) : « لقد ظل السلطان محمد يخرج على رأس الحملات العسكرية على مدى جيل من الزمان ، ولكنه لم يحقق نجاحا كبيرا في توسيع حدود دولته ، فقد فشل في بلجراد ورودس وأوترانتو ، ولم يصبح سيد البرين والبحرين كما ادعى ولكنه كغازي نجح في إقامة دعائم إمبراطورية إسلامية عظيمة .... ».

قلت : إن هذا الأستاذ المجهول تعدي مرحلة الأوهام والهذيان ودخل في مرحلة سوء الأدب بل إلى مرحلة الحمق والسفه . فإن كلامه يدل على أنه لا يعي ما يكتب ، وما درس التاريخ أصلا وما اشتم رائحته ، ولست أدري أي شيطان أوحى له بهذا الكلام ، فقد جزم هذا الأستاذ بأن السلطان محمدا كان يشرب الخمر حتى الثمالة وهذا افتراء بطلانه ظاهر لا يحتاج إلى رد. فلم يكن رسول الله ﷺ ليثني على شارب خمر أبدا ، ولاريب أن الأستاذ المجهول نقل هذا الكلام الفارغ عن المصادر الأوروبية ، وقد ذكر صاحب الشقائق النعمانية أن أحد المشتغلين بالعلم في زمن السلطان محمد الفاتح يدعى « المليحي » كان مبتلى بشرب الخمر ، فنهره السلطان الفاتح لأجل ذلك فتاب منها إلا أنه عاد إليها بعد وفاة السلطان محمد رحمه الله[1]، فالقول بأن السلطان محمدا الفاتح كان يشرب الخمر هو ضرب من السفه ، ويشهد على قائله بأن عقليته تحاكي عقلية مؤرخي أوروبا في العصور الوسطى ، عصور الظلام والجهل . فمستشرق ألماني شهير يدعى كارل بروكلمان بالرغم من أنه وصف السلطان محمدا الفاتح بالوحشية الشديدة ، إلا أنهم لم يجرؤ على اتهامه بشرب الخمر ، ليس حبا فيه ، بل لأنه مستشرق حاذق لا يسارع إلى التفوه بالأكاذيب الواهية التي تشهد على صاحبها بالجهل أو الكذب ، والحقيقة أن رسول الله ﷺ لم يشهد للسلطان محمدا الفاتح فحسب بل شهد لجيشه كله، إذ قال (لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) ، فهذا الجيل من الرجال الذي قاتل مع السلطان محمد كان من خير الأجيال ، ولم يستطع بروكلمان أن يمنع نفسه من مدح النظام في الجيش العثماني فقال : « والحق إن جميع المصادر الأوروبية

---

(١) أحمد بن مصطفى طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣٣ ، ١٣٤) .

حافلة بإطراء روح النظـام التي تكشف عنها الجيش العثـماني ، فلم يكن فيه مكان للخمـر أو القمار أو البغاء ، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوروبا لذلك العهد »[١].

وشهادة بروكلمان هذه ينبغي أن تكون عديمة القيمة بالنسبة لنا ، لأن عندنا شهادة رسول الله ﷺ ولكني ذكرتها لأبين للأستاذ المجهول أن هذا المستشرق لم يحمله بغضه للسلطان محمد على أن يتهمه بهذا الاتهام الواهي ، لأنه رجل حاذق يعلم أن تلفيق الأخبار فن له أصول ينبغي أن تتبع ، والحقيقة أن اجتناب الخمر كان سمة عامة للمجتمع الإسلامي في جميع عصوره بما في ذلك العصر العثماني ، حتى أن ذلك أثار انتباه الأوروبيين أنفسهم ، ومنهم والراهب الدانماركي **أولوف إيلجسون** الذي كان أسيرا عند العثمانيين ، فلما أطلق وعاد إلى بلاده كتب مذكراته ونشرت في أوائل القرن ١١هـ/ ١٧م فجاء فيها : « كان الطعام الذي يقدم لنا نحن الفورسا (الأسرى المجدفون) من نفس الطعام الذي يقدم للضباط الأتراك في مقصوراتهم ، وشيء آخر وهو أن الأتراك كانوا يقدمون للفورسا الراغبين البيرة ، الشراب والبراندي رغم أنهم لا يشربون المشروبات عدا الماء »[٢].

والكاتب الإنجليزي **وليم كونجريف** كتب مسرحية The Way of the World عام ١٧٠٠م جاء فيها أغنية تقول :

- الشرب خاصة نصرانية .
- لا يعرفها التركي .
- دع المحمديين يعيشون ملتزمين بقواعدهم .
- ولكن دع الإنجليز يغنون ويشربون .
- على صحة الملك .
- وأف للسلطان والصوفية[٣].

ومما سبق يتبين أن الأستاذ المجهول غارق في أوهامه ولا يرجى له الإفاقة إلا أن يشاء الله ،

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٦٨) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٣٦) ، وانظر أيضا برنارد لويس : الإسلام والغرب (ص ٦٨) .

(٣) برنارد لويس : الإسلام والغرب (ص ٦٨) .

والأنكى من ذلك هو زعم ذلك الأستاذ المجهول أن السلطان الفاتح كان مثالا سيئا للمسلم ، لعمر الله إن لم يكن محمد الفاتح قدوة لكل مسلم منذ عصره حتى الآن ، فمن عساه أن يكون قدوة لهم؟! فرسول الله ﷺ يقول عنه أنه نعم الأمير ثم يأتي هذا الأستاذ ويقول أنه كان مثالا سيئا للمسلم ؟! كنت أقول أن علماءنا الأقدمين كانوا في واد ، وأساتذة التاريخ اليوم في واد آخر ، أما هذا الأستاذ المجهول فيبدو أنه لا يعيش على كوكبنا أصلا ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

أما أن السلطان محمدا الفاتح كان مريضا بالنقرس فصحيح ، وأما أنه كان أحيانا لا يستطيع أن يتحرك من مكانه فباطل بلا ريب ، وقد استعرضنا حملاته في الباب الأول وأنه خرج في خمس وعشرين حملة عسكرية وانتصر على تحالف صليبي من أكثر من خمس وعشرين دولة شرقا وغربا ، وكان يتردد بين الأناضول والروميلي ممتشقا حسامه يبيت على صهو جواده ، ولما بلغ نبأ وفاته أوروبا تنفسوا الصعداء وتخلصوا من الرعب ، وقد عبر رامبو عن ذلك بقوله « إن أيام حكم فاتح بالنسبة لأوروبا كانت كيوم من أيام القيامة » والأستاذ المجهول نفسه يناقض نفسه فيقول : « كانت الرسالة التي حملت نبأ الوفاة إلى جمهورية البندقية تقول : (مات النسر الكبير) وآن الأوان لأن يتنفس الغرب ثانية ويتحرر من الرعب القادم من الشرق ». فهل يمكن أن يصاب الغرب بهذا الرعب من رجل تنتابه نوبات مرض النقرس وأحيانا لا يقدر أن يتحرك من مكانه؟! إن الأستاذ المجهول يكتب كلاما متناقضا يدل على أنه لا يعي ما يكتب . أما قوله أن الفاتح « لم يحقق نجاحا كبيرا في توسيع حدود دولته » ، فهو قول يشهد على صاحبه بالجهل المطبق ، ولست أدرى كيف حصل هذا الأستاذ على الدكتوراه أصلا .

لقد ذكرنا في الباب الأول أن فتوحات السلطان محمد الفاتح كانت أكبر من مساحة الدولة التي تسلمها من أبيه ، لقد أضاف الفاتح إلى دولته دوله أخرى أكبر منها ، ثم يستدل هذا الأستاذ المجهول على كلامه الفاسد بالقلعتين الوحيدتين التين امتنعتا على الفاتح ولم يوفق في فتحهما بلغراد ورودس ، غفل الأستاذ المجهول عن أن السلطان محمدا الفاتح قد فتح سبع عشرة دولة ، ترى على كم قلعة كانت تحتوى تلك الدول السبعة عشر ؟! ففي حملة الموره وحدها عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م فتح السلطان محمد الفاتح ٢٩٢ قلعة ، وفي ذلك إشارة إلى

العدد الضخم من القلاع التي فتحها في سائر حملاته ، ولكن الأستاذ المجهول لا يذكر له إلا هاتين القلعتين!! أما أوترانتو فقد ذكرنا أن كديك أحمد باشا فتحها أولا ، ثم خرج السلطان من اصطنبول ليلحق به فما لبث أن توفي ، ووقع النزاع بين ابنيه بايزيد وجم فاضطر أحمد باشا إلى أن يعود بجنوده .. هل يمكن أن يبلغ الجهل إلى هذا الحد ؟! هذا سفه ورب الكعبة ، كنت أظن أن درجة الدكتوراه لا تمنح إلا لمن بلغ مبلغا كبيرا من العلم وسعة الفكر ، ولكن يبدو أن الأمر ليس كذلك ، ثم إن الطامة الكبرى أن هذا الأستاذ المجهول يدرس هذا الكلام لطلاب الجامعة ، ألهذا يرسل الناس أبناءهم إلى الجامعة؟! لتفسد عقولهم ولتمسخ هويتهم ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

قبل أن نختم الحديث عن السلطان محمد الفاتح أود أن أؤكد على ما سبق أن أشرت إليه ، من أن المؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى بسبب تفشي الجهل والتخلف في بلادهم ، فإنهم لم يكونوا على تلك الدرجة من الرقي الفكري والثقافي التي كان عليها علماؤنا ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم كانوا شديدي الجهل بعقائد المسلمين الذين قاتلوهم عصورا طويلة وأقاموا بين أظهرهم ما يقرب من قرنين ، أيام الحروب الصليبية على مصر والشام . وما يقرب من ثمانية قرون في الأندلس . وبالرغم من ذلك ترى أن المؤرخ البيزنطي **دوكاس** يظن أن المسلمين وثنيين وأن المسجد هو بيت رسول الله محمد ﷺ ، فقد قال بصدد قيام السلطان محمد الفاتح بتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد : « الكنيسة العظمى وصهيون الجديدة يصبح اليوم مذبحا للوثنيين ومنزلا لمحمد » ... أما **كريستوفورو روشيرو** فلم يفهم حقيقة الصيام ، فقد وصف اليومين الأخيرين قبل الهجوم الذين أمضاهم الجنود في الصيام والقيام بقوله : « وبدأ كل جندي في تجهيز وإعداد أسلحته ومعداته اللازمة ولم يقرب أي جندي الطعام بالنهار ، هكذا كان انضباطهم شديدا ... وعندما حل الليل وبدأت النجوم تومض جلسوا لتناول الطعام والشراب »[1]... أما **نيقولوا باربارو** فقد ظن أن المسلمين يصلون

---

(١) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ، كريستوفورو روشيرو : الاستيلاء على القسطنطينية ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د. حاتم الطحاوي (ص ٢٨٦ ، ٣١٥) .

لمحمد ﷺ فقال : « حتى منتصف الليل عندما خبت النيران وطوال ذلك النهار والليل أخذ الكفار الوثنيون في الصلاة إلى محمدهم من أجل أن يجلب لهم النصر »[١].

هكذا يتبين لك مدى جهل هؤلاء المؤرخين بعقيدة المسلمين ، وإذا ما نظرنا إلى درجة إلمام علماء المسلمين بحقيقة عقائد النصارى والاختلافات بين فرقهم ومذاهبهم وما ألفه العلماء في ذلك مثل :

- « الملل والنحل » للشهرستاني .
- « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الأندلسي .
- « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لشيخ الإسلام ابن تيمية .
- « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » لابن القيم .
- وما ذكره القرطبي في تفسيره المسمى « الجامع لأحكام القرآن وما تضمنه من السنة وأي الفرقان ».

وغير ذلك مما صنفه علماء المسلمين ، لتبين لك كيف أن البون بين علمائنا وعلمائهم كان شاسعا ، وإذا ما عقدنا مقارنة بين موقف المؤرخين البيزنطيين واللاتين من السلطان محمد الفاتح وما افتروه عليه من الأكاذيب بسبب بغضهم له ، وبين موقف علمائنا كابن حجر العسقلاني والمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي عندما ترجموا لتيمورلنك ، أحد أكثر الرجال شرا وطغيانا في التاريخ ، الذي قتل مئات الآلاف في حلب ودمشق وبغداد وتبريز وكان يبني المنارات من رؤوس القتلى ، وبالرغم من ذلك فإن هؤلاء العلماء عندما ترجموا له ذموه في مواضع الذم حتى أقر بعضهم بأن جمعا من العلماء أفتى بكفره ، ولكنهم أثنوا عليه في مواضع الثناء كإقرارهم له بالشجاعة والفروسية والذكاء والدهاء السياسي والحرص على التعلم وتقريب العلماء ، ولم تحملهم أفعاله الوحشية على اختلاق أمور أسطورية كشرب الدماء البشرية مع الخمر ، أو التسلية بتقطيع الأسرى إربا إربا كما ذكره المؤرخون الأوروبيون زورا وبهتانا عن السلطان محمد الفاتح . أي أن بشاعة وشناعة أفعال تيمورلنك لم تفقد علماء

---

(١) نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٦٧)

المسلمين حيادهم ، ولم تحملهم على التخلي عن الأمانة العلمية ، تلك التي كان يفتقر إليها مؤرخو أوروبا في ذلك الزمان ، فهذا هو منهج علمائنا منذ ستة قرون خلت حاد عنه أساتذة التاريخ وزهدوا فيه واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، واتبعوا ذلك المنهج الأوروبي المشئوم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

الفصل الرابع

السلطان بايزيد الثاني

جهاد السلطان بايزيد الثاني

يردد أساتذة التاريخ مقالة عن السلطان بايزيد الثاني بأنه كان ميالا للسلم . وذلك بسبب مهادنته للقوى الصليبية المتمثلة في البندقية والمجر ، وسيتطلب الأمر للرد على ذلك الكلام تأصيل مفهوم الجهاد ، وما سنه الله في هذا الكون من حتمية التدافع بين الناس . ولنا في هذا الأمر مسألتان :

الأولى : تتعلق بقولهم أن السلطان بايزيد كان محبا للسلام ، وأنه لم يدخل الحروب إلا مضطرا. فقد قال د.**محمد أنيس** : « كان مسالما بطبعه فلم يلجأ إلى مد الأملاك العثمانية شرقا وغربا »[1]. وقال د.**أحمد فؤاد متولي** : « كان بايزيد الثاني ميالا للسلم أكثر منه للحرب محبا للعلوم الأدبية مشتغلا بها ولهذا سماه بعض مؤرخي الترك بايزيد الصوفي . لكن دعته سياسة الدولة إلى ترك أشغاله السلمية المحضة والاشتغال بالحرب »[2]. وقال د.**أحمد عبد الرحيم مصطفى** : « كان بايزيد الثاني ميالا إلى السلام والتأمل »[3]. وقد نقل د.**محمود الحويري** نص كلام د.محمد أنيس المذكور ثم قال : « سهما كان بايزيد الثاني مسالما فإن سياسته الخارجية أملت عليه القيام بنشاط حربي عندما كان الوضع يسمح بذلك »[4].

قلت : هل يفهم من كلام الأساتذة أن أسلاف السلطان بايزيد الثاني كانوا معتدين ؟! لأنهم لم يفتروا عن خوض الحروب .؟! ألم تكن حروبهم جهاداً في سبيل الله ﷻ ، لفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد ؟!. ألم يتخذوا من رسول الله ﷺ أسوة حسنة في ذلك ؟!. ألم يقتدوا بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ؟!. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ، فَقَالَ : « إِيمَانٌ بِالله وَرَسُولِهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرُورٌ »[5].

---

(١) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٦٠) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٧٠) .

(٣) د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني (ص ٧٦) .

(٤) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ١٩٣) .

(٥) رواه البخاري (١/ ١٤) ، مسلم (١/ ١٨٨) ، النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٧) ، أحمد (١٣/ ٣٣) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٢٠٧) ، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٤٣٠) ، عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٠) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١/ ٣٦٥) ، الدارمي (٣/ ١٥٤٧) ، أبو عوانة في المستخرج (١/ ٦٤) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : « دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ قَالَ : لا أَجِدُهُ قَالَ : هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلا تُفْطِرَ ، قَالَ وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ »[1].

أشعر بالأسى الشديد إذ أننا أصبحنا في زمان نحتاج فيه إلى تأصيل هذه المفاهيم ، التي من المفترض أن تكون معلومة لعامة المسلمين فضلا عن الأساتذة الجامعيين . فإن من يتأخر عن الجهاد مع القدرة عليه لا يكون مسالما ، بل يكون متخاذلا متقاعسا . فإن مفهوم المسالمة وفقا للمعنى الذي أراده أساتذة التاريخ ، إنما هو معنى غريب على ثقافتنا الإسلامية ، وهو في حقيقة الأمر أقرب إلى الذم من المدح . وحاشا السلطان بايزيد الثاني أن يكون متخاذلا متقاعسا عن الجهاد . بل إنه انشغل أولا بعصيان أخيه جم ، ثم إنه اضطر إلى مهادنة الصليبيين لأنهم ظفروا بالأمير جم وتحفظوا عليه واستخدموه في تهديد الدولة . بأنهم قد يطلقونه ويمدونه بما يحتاج إليه في المطالبة بالعرش ، فتشتعل حرب داخلية في الدولة العثمانية وهي أشد خطرا على الدولة من الحروب الخارجية كما يعلم أولو البصائر . والدليل على ذلك أن السلطان بايزيد لم يتأخر عن ضم إمارة البغدان كما بينا في الباب الأول لأنها لم تكن تابعة للبلاد التي هادنها . ثم انشغل السلطان بعد ذلك لمدة خمس سنوات في القتال مع السلطنة المملوكية . ويعد ذلك بقعة سوداء في تاريخ المسلمين بصرف النظر عمن الظالم ومن المظلوم . ثم بعد أن توفي الأمير جم ووضعت الحرب مع المماليك أوزارها عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م ، استأنف السلطان بايزيد الجهاد وعاد إلى ساحات القتال مع المجر ومع البنادقة . فبدأ بإخضاع شمال بلاد الأرناؤوط (الألبان) ، فأرسل الصليبيون حملة فهزمت . وتوغل القائد يعقوب باشا حاكم البوصنه في حدود النمسا . كما وصلت جيوش السلطان بايزيد إلى داخل بلاد لهستان (بولونيا) وتوغلت فيها حتى اقتربت من بحر البلطيق . ثم خرج السلطان لفتح ما تبقى من قلاع الموره ، ففتح اينه بختي ، كما تصدى لحملة صليبية شاركت فيها البابوية وفرنسا ففتح عدة قلاع من البنادقة . وظل يجاهد حتى أقعده المرض عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م وقد اقترب من سن الستين وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في الباب الأول .

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٥) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٢٢١) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٦٥) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤٦٥) .

والمدهش أن أساتذة التاريخ على علم بتلك الحقائق وذكروها في كتبهم . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفهموا أن توقف السلطان بايزيد الثاني عن الفتوحات في أول حكمه كان اضطراريا وليس بغضا للغزو والجهاد . فنقول لهم لو كان السلطان بايزيد مبغضا للجهاد والفتوحات كما زعمتم ، فما الذي دفعه لخوض الحملات في بلاد البغدان والأرناؤوط والموره ولهستان ؟! فهذا السؤال مما لم يتفضل علينا أساتذة التاريخ بالإجابة عنه . والسبب في سوء الفهم الذي طم على عقولهم ، هو أنهم أسقطوا تلك الأحداث التاريخية على مرجعيات أخرى بخلاف المرجعية الإسلامية ، فخرجوا باستنتاج فاسد . ومن أبرز الأدلة على فساده هو أن مؤرخينا الأقدمين لم يصف أحد منهم السلطان بايزيد الثاني بأنه كان ميالا للسلم أبدا . لأن مسالمة الصليبيين الذين يتربصون بالمسلمين ليس مما يحمد عليه سلاطين المسلمين ، بل يذمون لأجله ، وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة عند العلماء . لكن أساتذة التاريخ لهم مرجعيات أخرى يردون الأحداث إليها ، لذلك وصفوه بالمسالم وأن الظروف هي التي كانت تضطره أحيانا لخوض المعارك . ونقلوا ذلك عن المستشرقين وظنوا أنهم بذلك يمدحون السلطان بايزيد . ولم يعوا أن ذلك من فخاخ المستشرقين وحبائلهم وأشراكهم التي دأب الأساتذة على الوقوع فيها كما يقع العصفور في شراك الصياد . وانظر بالله عليك إلى قول ذلك المستشرق الحاذق كارل بروكلمان الذي يضع السم في العسل بمهارة لا تخفى ، إذ يقول : « وقد يكون للرهينة (الأمير جم) التي استولت عليها الدول الغربية فترة طويلة من الزمان أثر فعال في اتجاه بايزيد نحو سياسة السلم . ولكن هذه السياسة كانت تنسجم مع أمياله التي فطر عليها » ، ثم وصف السلطان بعد ذلك بأنه « السلطان المحب للسلام »[1].

لقد أدرك بروكلمان أنه لا يستطيع أن يغفل دور الرهينة في حمل السلطان بايزيد على مهادنة الصليبيين لئلا يتهم بالجهل . فأتى بذكر الرهينة مقرونا بوصف السلطان بايزيد بالمسالم . ثم زعم أن طبيعة السلطان توافق ذلك . فكأنه يقول لا تظنوا أن الرهينة وحدها هي التي منعت السلطان بايزيد من قتال الصليبيين . بل لأنه كان مسالما محبا للسلام . هكذا نرى أسلوب الحذاق من المستشرقين في دس المفاهيم الغريبة على الثقافة الإسلامية ، مع الإيهام بوجود

(١) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٤٤ ، ٤٤٥) .

أمثلة لها في التاريخ الإسلامي . وأساتذة التاريخ يلتقطون تلك الأفكار عنهم ثم يقدمونها في كتبهم ، ولكن بأسلوب صريح واضح . وهذا دليل على أن نواياهم طيبة لكن مرجعياتهم التي يردون إليها الأحداث فاسدة .

الثانية : وهي شبهة أخرى يرددها بعض أساتذة التاريخ نقلا عن الأوروبيين بلا شك . وهي أن سبب توقف الحروب في زمن السلطان بايزيد يرجع في زعمهم إلى أن أباه السلطان محمدا الفاتح قبل أن يتوفى ، كان قد اكتفى بالمساحة التي وصلت إليها الدولة لأن التوسع أكثر من ذلك سيجلب معه المتاعب . **قال د.محمد عبد المنعم الراقد** : « إن بايزيد كان مقتنعا بوجهة نظر أبيه (محمد الفاتح) باعتبار أن ما وصلت إليه الدولة العثمانية في توسعاتها هو الحد الذي يجب ألا تتعداه ، لأنه كان يعلم يقينا أن أي توسع جديد في أملاك الدولة العثمانية سواء في الميدان الأوروبي أو الآسيوي ، لابد وأن يؤدى إلى صراع مرير مع القوى الكبرى سواء في الشرق أو الغرب » ... **ثم قال أيضا** : « إنه (بايزيد) كان متأثرا بسياسة أبيه التي وضعها بإحكام وأصر على تنفيذها طوال حياته ، ولم يحاول أن يغير منها . على اعتبار أن الدولة العثمانية قد حققت التكامل في كيانها ، وكان يرى أن أي مد إمبراطوري جديد أمر بالغ الخطورة سواء في الميدان الأوروبي أو الآسيوي . وعلى هذا الأساس ظلت حدود الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ثابتة تقريبا »[1].

قال د.عمر عبد العزيز : « لقد تمسك بايزيد بسياسة والده ولم يحد عنها . لأن الدولة العثمانية كانت قد حققت التكامل في كيانها ولا يمكن أن تتوسع في الميدان الأوروبي أو الآسيوي دون حدوث نتائج خطيرة »[2].

قلت : هذا الكلام باطل عقلا ونقلا ولا يسوي الحبر الذي كتب به . وبطلانه أظهر من أن يحتاج إلى رد . ولكننا نعيش في زمان قد مسخت فيه الفطر ، وغيبت فيه المرجعيات . وأصبحنا نحتاج في كل مسألة نبحثها إلى تأصيل القواعد المتعلقة بها . ومع ذلك سأبين بطلان كلام هذين الأستاذين من ثلاثة أوجه :

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .
(٢) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٩) .

١- ما هو الدليل على أن السلطان محمدا الفاتح قد وضع سياسة يرى فيها أن الحدود التي وصلت إليها دولته يجب ألا تتعداها ؟! أين قال السلطان الفاتح هذا الكلام ؟! أو ما هي أفعال السلطان الفاتح التي استدللتم بها على ذلك ؟! أم أنكم هكذا تلقون الكلام على عواهنه ؟! أم أنكم لم تجدوا الأدلة في كتب المستشرقين فوقعتم في حيص بيص ؟! لقد استدل د.الراقد بدليل واه جدا فقال : « الدليل على ذلك أنه في أعقاب انتصار السلطان محمد الثاني على أوزون حسن في موقعة بابرت عام ١٤٧٣م . أصبحت بلاد فارس مفتوحة أمام قواته . ومع ذلك فإنه لم يحاول التوغل فيها ، ولم يوسع نطاق الحروب مع دولة آق قويونلو التركمانية . ونفس السياسة اتبعها مع المماليك في مصر »[1].

قلت : هذا الذي استدل به د.الراقد ، لا وجه فيه للاستدلال في هذه المسألة على الإطلاق . لأن السلطان محمد الفاتح لم يكن في نيته أصلا أن يقاتل دولة الآق قيونلو السنية . وإنما كانت جهوده كلها موجه للفتوحات في أوروبا . ولكن الباعث له على قتالها هو أن ملكها أوزون حسن تحالف مع الصليبيين عن طريق البنادقة ، وشرع في الهجوم على حدود الدولة العثمانية في الأناضول . مما حتم على السلطان الفاتح أن يرده إلى داخل بلاده وقد كان . فبعد أن انتصر عليه وأمن شره ، عقد معه معاهدة للصلح . ثم كان عليه أن يعود بسرعة إلى الساحة الأوروبية ليواجه الصليبيين . فإن الحرب الكبرى التي بدأت عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م والتي استمرت عشر سنوات لم تكن قد انتهت بعد . وقد ذكرنا ذلك مفصلا في الباب الأول . وقد حافظ أوزون حسن على ذلك الغهد ولم يتعرض لحدود الدولة العثمانية على الإطلاق بعدها. وحتى بعد أن انتهت الحرب الكبرى لم يحاول السلطان محمد الفاتح مهاجمة آق قويونلو ، لأنهم مسلمون سنة ، ولم يكن هناك ما يسوغ له قتالهم . وكذالك الحال بالنسبة لدولة المماليك. بخلاف الحال أيام السلطان سليم الأول كما سيأتي . ولكننا نوجه سؤالا لـ د . **الراقد** ، هل توقف السلطان محمد الفاتح عن الفتوحات في أوروبا ؟. لا لم يتوقف ، وحملته الأخيرة التي توفي فيها (حملة أوترانتو) كانت موجهة إلى روما . وقد فصلنا ذلك في الباب الأول . فمن العرض السابق ، يتبين بطلان كلام د.الراقد من أساسه ، إذ أن السلطان محمدا

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٠٦) .

الفاتح قد واصل فتوحاته في أوروبا حتى آخر نفس في حياته .

٢- ومما استدل به د.الراقد على نظريته هو أن حدود الدولة العثمانية ظلت ثابتة تقريبا خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر . وهذا الكلام لا يصح تاريخيا على الإطلاق . وأدنى دارس للتاريخ العثماني يعرف ذلك . فإن الفترة التي يتحدث د.الراقد عنها ، هي فترة حكم السلطان محمد الفاتح ١٤٥١ – ١٤٨١م وقد ذكرنا في الباب الأول أن مساحة الدولة في عهد السلطان محمد اتسعت من ٩٦٤٠٠٠ كيلومتر مربع إلى ٢٢١٤٠٠٠ كيلومتر مربع . أي أن الزيادة في المساحة كانت أكبر من الأصل . في الواقع أن جميع استدلالات د.الراقد واهية وساذجة . ومثله كمثل من ينكر وجود الشمس وهو يصطلي بنارها في صحراء قاحلة في وقت الهاجرة . لقد كانت مدة حكم السلطان محمد الفاتح كلها فتوحات . ولكن لما تولى ابنه السلطان بايزيد تغير ذلك في الفترة الأولى من حكمه للأسباب التي ذكرناها آنفا . ثم استأنف الفتح بعدها .

٣- إن سبب هذه التخاليط التي يقولها بعض أساتذة التاريخ ، هو أنهم يفسرون أفعال السلاطين وتوجهاتهم وفقا لمرجعيات أوروبية حديثة ، تخالف المرجعيات الإسلامية التي كانت سائدة في تلك الفترة على العامة والخاصة والحكام والرعية على حد سواء . إذ أن أساتذة التاريخ اعتبروا تلك الفتوحات مجرد توسعات إمبراطورية . أما إذا نظرنا إلى الأحداث من خلال المرجعية الإسلامية سنرى الأمر واضحا جليا لا لبس فيه . ومما يجب التأكيد عليه أنه لا بديل للباحثين عن الرجوع إلى المرجعية الإسلامية طوعا أو كرها . لأنها المرجعية التي قامت عليها الدولة العثمانية . فأي دارس للتاريخ مسلما كان أو كافرا لابد له أن يرجع إلى الشريعة الإسلامية لكي يفهم أعمال السلاطين العثمانيين فهما صحيحا ، لأنها كانت القانون الذي حكموا به دولتهم وانبثقت منه سياستهم الداخلية والخارجية . فإذا ما رجعنا إلى كتاب الله ﷻ سنرى أن الله قد علمنا فيه أن الصراع والتدافع بين الناس هو سنة كونية لا فكاك منها . قال تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠].

يعلمنا الله ﷻ في الآيات السابقة أن التدافع سنة كونية . ولا يمكن أن يتوقف الصراع بين الحق والباطل ، ولا بين الخير والشر ولا بين الإيمان والكفر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتاريخ البشر منذ أن قتل ابن آدم أخاه حتى الآن يشهد على ذلك ، لاسيما تاريخ المسلمين . ففي كل مرة كانوا يتقاعسون فيها عن الغزو والجهاد ، كان يتسلط عليهم عدوهم فينكل بهم ويذلهم . قال رسول الله ﷺ : « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ »(١).

فلما توقفت الفتوحات في الأندلس طرد المسلمون منها وهدمت بيوتهم ومساجدهم ونكل بهم تنكيلا . ولما توقفت الفتوحات الإسلامية في أوروبا في العصر العثماني في أواخر القرن ١١هـ/ ١٧م تقريبا ما مضى إلا قليل حتى طردوا من المجر وهدمت بيوتهم ومساجدهم ، ثم طردوا بعد ذلك من أوكرانيا والقوقاز . بالرغم من أن المسلمين عندما فتحوا تلك البلاد لم يطردوا أهلها منها . لذلك شرع الله ﷻ الجهاد لأن التدافع سنة كونية لا فكاك منها ، بمعنى أنك إن لم تدفع ستدفع بلا ريب . فلا يوجد حد تتوقف عنده الفتوحات وتنقضي عنده التوسعات . هذا هو مفهوم الجهاد في الإسلام . ومما يتفق عليه الجميع أن الدولة العثمانية قامت على أساس الجهاد منذ أن كانت إمارة صغيرة في الأناضول تابعة لدولة سلاجقة الروم . وقد جاء ذلك صراحة في وصية عثمان مؤسس الدولة لابنه أورخان : « لا تجتهد في الدنيا وحبها بل يكون جهادك واجتهادك خالصا لوجه الله الكريم ومخلصا لإعلاء كلمة الدين والعمل بسنة سيد المرسلين »(٢).

ومن قول السلطان مراد الأول قبل معركة كوسوفو : « الهي أنا عبدك الذليل الخادم لإعلاء كلمة الدين ، لا تذلني بين الكفرة المشركين ، ولا تقهر رافع أعلام الإسلام ولا تردني

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٢٧٤) ، أحمد (٨/ ٤٤٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٥١٦) ، أبو بكر الروياني في مسنده (٢/ ٤١٤) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٤٢) .

(٢) حسين خوجة بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (١٠) .

خائبا وانصر عساكر المسلمين وأيد المؤمنين . ثم طلب من الله النصر والشهادة ».

ولما عرض الوزراء على السلطان بايزيد يلدرم رفع الحصار عن القسطنطينية والقبول بالجزية غضب عليهم وقال لهم : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، فالمقصود الأهم هو الاستيلاء على هذا السواد الأعظم ليكون مستقرا للإسلام ومحوا لرسوم الكفرة اللئام »[1].

هذا هو المنهج الذي قامت عليه الدولة العثمانية وعمل به السلاطين الأوائل ، وورثه عنهم السلطان محمد الفاتح . ولما قالت له سارة خاتون والدة حاكم آق قيونلو : « يا بني هل طرابزون الصغيرة تستحق كل هذا التعب والمشاق التي تتحملها وترهق نفسك في سبيلها ». أجابها بقوله : « أيتها الوالدة السعيدة إن سيف الإسلام في يدنا ولا غاية لنا سوى الحصول على رضا الله تعالى ، فليست غايتنا وهدفنا مجرد الدخول في شجار أو نزاع فقط »[2].

قدمت فيما سبق ما يدل على بطلان كلام د.الراقد ود.عمر عبد العزيز من جهة النقل . أما من جهة العقل فنقول ، كما أنه لا يوجد فراغ في هذا الكون فيما يتعلق بالأجسام المادية لما يعرف في علم الطبيعة بقانون « الإزاحة » ، فإذا ما تحرك جسم من مكانه فإن ذلك المكان لا يصبح فراغا بل إن الهواء يملأ المكان الذي كان متحيزا فيه . والإناء المملوء نصفه بالماء فإن نصفه الآخر ليس فراغا ، بل فيه هواء . وإذا ما صب فيه الماء فإنه يزيح قدر حجمه من الهواء. ثم إذا ألقي جسم صلب في ذلك الإناء فيرتفع منسوب الماء فيزيح من الهواء بقدر حجم ذلك الجسم . كما أن السوائل من طبيعتها الاستطراق ، فإذا ما صب الماء في إنائين متصلين فحتما يتساوى منسوب الماء فيهما . وإذا ما اختل ذلك التوازن بأن تسرب الماء من أحدهما فإن الماء في الإناء الآخر يتحرك إلى الإناء الأول حتى يعودا متساويين . فكذلك السياسة فإن الحرب لا تقوم بين قوتين متماثلتين . ولكن إذا ما اختل التوازن بأن ازدادت قوة إحداهما أو أصاب الأخرى ضعف طارئ فإن الأقوى يتحرك ليملأ الفراغ الذي أحدثه ذلك الضعف . فإن التاريخ يخبرنا أنه لما ضعفت الإمارات اليونانية وبزغ نجم مقدونيا ، قام ملكهم فيليبس (أبو الإسكندر) بالهجوم عليهم ثم دخل أثينا نفسها عام ٣٣٨ ق.م. وضم أغلب بلاد اليونان إلى ملكه . كما

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٢٦ ، ٣٣) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٣٦) .

يخبرنا التاريخ أنه لما ارتفع شأن الرومان بعد انتصاراتهم على القرطاجيين انصرف بصرهم إلى مملكة مقدونيا بعد أن اعتراها الضعف والانقسام فأعلنوا الحرب عليها في عام ٢٠٠ ق.م. واستطاعوا ضمها إلى أملاكهم . كما يخبرنا التاريخ أن الإمبراطورية الرومانية عندما اعتراها الضعف في القرن الخامس الميلادي تعرضت لهجمات القبائل الجرمانية وسقطت روما في أيديهم عام ٤١٠م . وفي التاريخ أمثلة كثيرة أكثر من أن تحصى . وفي الوقت نفسه فإن التاريخ يعجز عن تقديم مثال واحد لدولة كانت تتوفر لها مقومات التوسع من قوة عسكرية واقتصادية تفوقت بها على جيرانها ولكن حكامها آثروا الانكفاء على أنفسهم والقنوع بما حققوه من فتوحات لئلا يجلبوا على أنفسهم المتاعب !. فهذا يناقض السنن الكونية التي خلقها الله في هذا الكون وأخبرنا بها في كتابه العزيز . كما يدل عليها أيضا النظر والمشاهدة . والحروب في العصر الحديث أيضا تخضع لنفس هذه السنن ، فبعد أن ضعفت الدولة العثمانية التي كانت تمثل الخلافة الإسلامية وبزغ نجم أوروبا ، استطاعت إنجلترا وفرنسا وروسيا إزاحتها عن أراضيها في القرن التاسع عشر . أما في القرن العشرين فقد رأينا مع بداية النصف الثاني منه ما عرف آنذاك بمشروع « أيزنهاور » وهو (ملء الفراغ في الشرق) ذلك الفراغ الذي حدث بسبب ضعف الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية ، فكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تحل محلهما ولكن بأسلوب العصر الحديث . وقد رأينا في العقد الأخير من القرن العشرين قيام الولايات المتحدة الأمريكية بملء الفراغ الناتج عن انهيار الإتحاد السوفيتي . وذلك بإدخال دول حلف وارسو السابق إلى حلف شمال الأطلسي الذي تقوده بنفسها . فأصبح لها قواعد عسكرية في دول أوروبا الشرقية ودول آسيا الوسطى تلك التي كانت خاضعة قبل ذلك للحكم السوفيتي .

ما سبق يؤكد أن ذلك الكلام الذي قاله د.الراقد ود.عمر لم يسبق أن حدث في التاريخ . لأنه يناقض السنن الكونية التي سنها الله في هذا العالم . فنقول إن السلطان محمدا الفاتح لم يحد عن الجهاد أبدا . وكل من زعم أنه رأي المصلحة في الكف عن الجهاد فهو واهم . لأن ذلك يخالف النقل والعقل كما قدمنا . ثم كيف يقال ذلك عنه وهو الذي ظل يجاهد حتى آخر نفس في حياته . فقد وافته المنية وهو في حملة أوترانتو التي كان مخططا لها أن تنتهي بفتح روما .

والجهاد في الإسلام ليس له حد يتوقف عنده . بل هو أمر شرعي يتوافق أيضا مع تلك السنن الكونية التي أشرنا إليها . ولكنه يختلف عن حروب اليونان والرومان والمقدون . لأن المسلمين كانوا يقاتلون في سبيل الله قال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٧٦]

وما تبدل حال المسلمين وهزموا في حروبهم وتسلط عليهم أعداؤهم إلا بعد أن تركوا الجهاد في سبيل الله وصاروا يخوضون الحروب لأسباب أخر . فعن أبي موسى ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله ؟ . قَالَ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله »(١).

ولأن المسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين كانوا يقاتلون في سبيل الله انتصروا وفعلوا الأعاجيب . وقد قال البعض أن المسلمين فتحوا في ثمانين عاما ما فتحه الرومان في ثمانمائة عام . وقد ساد في البلاد التي فتحوها الرخاء الاقتصادي والأمن الاجتماعي . فإن التاريخ يشهد بأن المسلمين أسسوا حضارة عظيمة في البلاد التي فتحوها فقد كانت قرطبة ومراكش والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد وتبريز وأصفهان وسمرقند واصطنبول منارات علمية وواحات من الرخاء الاقتصادي والسلام الاجتماعي .

ولما كانت سنن الله لا تتبدل ولا تتحول فقد نال المجاهدون من تابعي التابعين وتابعيهم وممن اقتدى بهم في دولة الأمويين والعباسيين والعثمانيين ما ناله آباؤهم من العز والتمكين والرخاء والأمن للمسلمين ولغيرهم من أرباب الديانات الأخرى . وإذا ما أردنا ضرب أمثلة من التاريخ العثماني فمثلا إمارة الأفلاق (ولاشيا) وهي إمارة نصرانية كانت تتمتع بحكم ذاتي تحت السيادة العثمانية وكان يحكمها أمير نصراني يعينه السلطان . وبالرغم من ذلك فإن كثيرا من الأهالي سئموا من مظالم أولئك الأمراء وثاروا على أميرهم وقتلوه وفروا إلى مدينة بلغراد . وأثناء عودة السلطان سليمان القانوني من معركة موهاج بعد فتحه المجر

---

(١) رواه البخاري (٩/ ١٣٦) ، مسلم (٣/ ١٥١٣) ، أحمد (٣٢/ ٤٠٤) ، الترمذي (٤/ ١٧٩) ، ابن ماجه (٢/ ٩٣١) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٢) ، عبد الرزاق (٥/ ٢٦٨) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٩٣) وغيرهم .

عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م لجئوا إليه وطلبوا الأمان فأمنهم . قال إبراهيم أفندي بجوي : « طلبوا تعيين موضع سكن لهم. وعندئذ عرض والى سمندره الوضع على السلطان فعين لهم السلطان صحراء « سرم » ، ثم قال إبراهيم أفندي عنهم إبان حملة سكتوار ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م :

وبينما كان السلطان صاحب السعادة والمقام العالي يسير صحبة جنده الذين كانوا في كثرة النمل في صحراء سرم . وكانت المزارع تمتد على اليمن وعلى اليسار قام بإغداق الذهب على الرعايا الذين خرجوا لبيع الخبز والدجاج والرقاق للجند . وأيضا على نسائهم اللاتي كن يقمن بهذه التجارة[1].

ومثالا آخر نضربه ، يانوش الذي أقره السلطان سليمان ملكا على جزء من المجر بشرط التبعية للدولة العثمانية ، كان قد أوصى أمراءه بألا يخرجوا عن طاعة الدولة . وقد نقل ذلك إبراهيم أفندي بجوي من تواريخهم . فإن يانوش هذا قد جمع أمراءه عندما حضره الموت وقال لهم : « احذروا أن تخرجوا رأسكم من تحت حاشية ثوب سلطان الإسلام ، فلو أخرجتموها فإنكم بالتأكيد ستشعرون بالندم . فإنني جربت ذلك أكثر من مرة وأنتم أيضا جربتم ذلك فينبغي ألا تفعلوا ذلك » ، ثم كتب إلى السلطان سليمان رسالة تدل على أنه لم ينعم بالأمان إلا تحت حكم السلطان سليمان وأنه لم يكن يأمن أبناء جلدته من النمساويين والمجريين فقد قال في رسالته : « جعلني السلطان صاحب السعادة ملكا على بدون (بودابست) وجعلني أفوق الملوك أصحاب العظمة والجاه والجند الأقوياء . ولم يدع الأعداء تعتدي علي . والآن فإني أودع هذه الدنيا الفانية بأمر الله ولذلك التمس في هذه اللحظة من سلطاني صاحب السعادة أن لا يدع طفلي اليتيم الذي لم ينبت شعره بعد وزوجتي الأرملة التي لا أحد لها لعادية الأعداء وأرجو ألا يعطي ملكي الأعداء »[2].

ونضرب مثالا ثالثا بأهالي أردل (ترانسلفانيا) وقد ذكرنا في الباب الأول كيف أنهم تضرروا من تسلط وظلم النمساويين في عهد السلطان أحمد الأول . وعقدوا بمقارنة بين ما كانوا عليه من أمن ورخاء إبان الحكم العثماني ، وبين ما لحق بهم من ظلم واضطهاد بعد أن

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٥) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٨٨) .

تسلط عليهم النمساويون . فثار الأهالي بزعامة بوجقاي عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م على النمساويين وأعادوا الإقليم إلى الحكم العثماني من تلقاء أنفسهم . ونضرب مثالا رابعا بشهادة عجوز يوناني من أهل جزيرة لمنه شهد حكم البنادقة ثم شهد بعده حكم العثمانيين . فقد سجل الرحالة بيلون دومان شهادته في القرن السادس عشر فقال : « إن الجزيرة لم تكن في يوم على ما هي عليه الآن من حسن الزراعة ومن وفرة الثراء . ولم يكن فيها من الناس مثل ذلك العدد الموجود فيها منهم الآن » ، ويضيف بيلون : « يجب رد ذلك إلى السلام طويل الأجل الذي نعموا به دون أن يلحق بهم أذى »[1].

ولما كانت الشهادة من العدو لا شبهة فيها للمجاملة أو المحاباة فأرى أنه من المناسب أن نورد شهادة جوفني ميكيله فنسلبيو ، وهو كاثوليكي أي من ألد أعداء المسلمين . وقد زار مصر في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، وكتب تقريرا عنها عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م فقد قال عن سوق سباهي بازار وسوق خان الخليلي : « هاتان هما الساحتان حيث تباع كل الأشياء ذات الثمن المرتفع . ويسمح لكل أحد أيا كان أن يشتري ويبيع بحرية حتى المسيحي واليهودي يمكنهما منافسة التركي (المسلم) في تقديم العرض الأفضل » ... وقال أيضا : « في الحقيقة يمنح الأتراك حرية الضمير (الدين) لكل واحد . وهذا لا في مصر وحدها بل وفي سائر بلادهم الأخرى بشرط عدم المساس بديانتهم »[2].

وحتى في أواخر العصر العثماني وبعد استقلال جزء من اليونان وقيام اليونانيين بتأسيس مملكتهم على ذلك الجزء عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م بقي ثلاثة أرباع اليونانيين في المناطق التابعة للدولة العثمانية . ورفضوا أن يهاجروا إلى اليونان المستقلة . لذلك قيل أن الثورة اليونانية نجحت لكن الأمة اليونانية خسرت أكثر مما كسبت . وذلك لأن اليونانيين فقدوا الوضع الممتاز الذي كانوا يتمتعون به في الدولة العثمانية قبل الثورة في عام ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م[3]. مما يؤكد أنه حتى بعد أن ضعفت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر وسادت فيها الفوضى ،

---

(١) جيل فاينتشتاين : الإمبراطورية في عظمتها . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (٣١٦/١، ٣١٧).

(٢) جوفني ميكيله فنسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة عن مصر ١٦٧١م. (ص ١٠٦ ، ١٦٥) .

(٣) تشارلز وبربرا ييلافيتش : تفكيك أوروبا العثمانية ١٨٠٤ - ١٩٢٠م. (ص ٦٣) .

كان حال النصارى من رعاياها أفضل من حالهم تحت حكم إخوانهم في الدين من الروس وغيرهم . ونذكر في ذلك أنه في منتصف القرن التاسع عشر ، بعد أن بسطت روسيا نفوذها على الأفلاق ولم يعد للدولة العثمانية عليها نفوذ يذكر ، بعد عقد معاهدة أدرنة بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م أضيف إلى هذه المعاهدة ملحق يحظر على أي مسلم الإقامة في الأفلاق والبغدان وكان نص الملحق كما يلي : « فقد تقرر تقريرا لا تغيير معه في امتداد جميع هذا الشاطئ الأيسر وفي الأفلاق الكبيرة أو الصغيرة وكذا في البغدان ، لا يمكن لأي مسلم أن يتخذ مسكنا ثابتا في بقعة منها . وإنما يقبل فيها التجار الحاملون لفرمانات فقط ليشتروا على حسابهم الخاص من تينيك الولايتين المحصولات الضرورية لمقطوعية القسطنطينية أو أشياء أخرى »[1]... وقد عانى فلاحو الأفلاق المسيحيون من ظلم إخوانهم في الدين من الروس . فثاروا على الحماية الروسية وأصدروا بيانا من اثنين وعشرين مطلبا منها ما يؤكد رغبتهم في عودة حقوقهم السابقة . قال **تشارلز وبربرا ييلافيتش** : « ولقد حرص الثوار من البداية أن يؤكدوا على أن حركتهم ضد الدستور القائم المعمول به وضد روسيا وليست ضد الدولة العثمانية وأن كل ما يرغبون فيه هو إعادة حقوقهم السابقة »[2].

قال **أحمد آق كوندز** : « وقد نقل لي أحد أصدقائي من الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية نص دعاء من أرشيف بعض الكنائس كان يدعو به الرهبان والقسس في الكنائس البلقانية : « يا رب يسر لنا الدخول في ظل الحكم العثماني لكي نستطيع العيش بأمان من ناحية الدين »[3].... **وقال أرنولد توينبي** : « تمكنت جميع الدول الأوروبية هـذه (انجلترا ، فرنسا ، روسيا) من أن تحكم بالظلم هذه الأقطار التي سلختها من العثمانية . وحتى الإدارة التركية إبان أواخر الدولة العثمانية – وهو أسوأ أدوار الإمبراطورية – كانت بالنسبة للشعوب القاطنة في تلك الأقطار أحسن إدارة من إدارة الدولة التي احتلت مكانها »[4].

وكل من درس التاريخ يعلم أن الإنسان لم ينعم بحرية العقيدة إلا في بلاد المسلمين . وأن

---

(١) بنود المعاهدة كاملة والملحق عند محمد فريد بك : تاريخ الدولية العلية العثمانية (ص ٤٣٣ – ٤٤٥) .
(٢) تشارلز وبربرا ييلافيتش : تفكيك أوروبا العثمانية ١٨٠٤ – ١٩٢٠م. (ص ١١١) .
(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٣٠) .
(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٣٢) .

اليهود على سبيل المثال الذين كان ينكل بهم في كل مكان ما نعموا بالأمن إلى في بلاد المسلمين . وفي الحقيقة إن أوروبا لم تكن تعرف السماحة الدينية قبل أن يدخلها المسلمون . ولا يخفى على دارسي التاريخ ما اقترفه اللاتين من مذابح عندما دخلوا القسطنطينية عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م وكيف عانى أهلها الأرثوذكس سنوات طويلة حتى خرج اللاتين منها عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م. وكم كان الصرب الأرثوذكس يعانون من ظلم أسيادهم المجر الكاثوليك . وكذلك الأرثوذكس في اليونان وقبرس كان يعانون من ظلم البنادقة الكاثوليك زمنا طويلا قبل الفتح الإسلامي العثماني . فبفضل الفتح الإسلامي نعموا بحرية العبادة . وفي القرن السادس عشر عندما ظهرت طائفة البروتستانت لاقت من الكاثوليك مثل ما لاقاه الأرثوذكس من قبل . ولقد ذبح ملك فرنسا شارل التاسع آلاف البروتستانت في عام ١٥٧٢م فيما يعرف بمذبحة سان برتيلمي .

ولذلك نقول إن كل من كان له فكر ونظر يعلم أن خير الفتوحات الإسلامية قد عم المسلمين وغيرهم من اليهود والنصارى . ولو عقدنا مقارنة بين الفتوحات الإسلامية وبين حركة الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث ، لتبين لنا الفرق الشاسع بين من يقاتلون في سبيل الله ومن يقتلون في سبيل الطاغوت . لقد استنزف الأوروبيون ثروات إفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية وأستراليا واستعبدوا الشعوب وامتصوا دماءهم . وحرصوا على أن يزيدوهم فقرا وجهلا وهذا لا يخفي على كل من له نظر . وحتى بعد أن خرجوا من تلك البلاد فقد أشعلوا الفتن بين أبناء البلد الواحد لضمان الهيمنة والسيطرة . وما زالت تلك سياستهم حتى الآن . وما يحدث اليوم في العراق والسودان والصومال والمغرب وغيرهن من البلاد لهو خير دليل على ذلك . فعندما تخلف المسلمون عن حكم العالم وقيادته ، وتولى الغربيون زمام القيادة ساءت أحوال البشر جميعا . وقد صنف الشيخ أبو الحسن الندوي الهندي رحمه الله كتابا جليل القدر يدل على سعة العلم والفهم سماه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . فأنصح من أراد التفصيل في تلك المسألة أن يرجع إليه وأن يرجع إلى كتب المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي لاسيما كتاب « أمريكا طليعة الانحطاط ».

أرجو ألا أكون قد خرجت عن الموضوع . ولكني وجدت أن هذه المفاهيم التي كانت ثابتة راسخة في الثقافة الإسلامية ويعيها العامة والخاصة ، أصبحت في حاجة إلى إعادة تأصيل في

ذلك الزمان الذي تتحطم فيه المرجعيات وتتقاذفها أمواج الشبهات المتلاطمة في بحر الفتن المدلهمة . وخلاصة القول أن السلطان بايزيد الثاني لم يكن متقاعسا عن الجهاد بدعوى محبة السلام كما يزعم الأساتذة نقلا عن المستشرقين . ولا بدعوى أن سياسة أبيه السلطان محمد الفاتح اقتضت ذلك . بل لقد هادن الصليبيين لفترة بسبب ظروف اضطرته لذلك فلما انقضت تلك الظروف عاود الجهاد وفتح البلاد رحمة الله عليه .

الحرب العثمانية المملوكية

أحداث الحرب بين السلطنتين المملوكية والعثمانية في زمن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م والتي استمرت خمس سنوات تقريبا ، قد وردت في كتب بعض أساتذة التاريخ بصورة لا تعبر عن الحقيقة . فبعضهم يستفيض في ذكر الأسباب الثانوية ولا يذكر السبب الأهم إلا باقتضاب . كما أنهم يذكرون تفاصيلها متناثرة في مواضع مختلفة في الكتاب الواحد . مثلا يذكرون بعض التفاصيل أثناء الحديث عن فترة حكم السلطان بايزيد ، والبعض الآخر تحت عنوان « العلاقات العثمانية المملوكية » . والبعض الثالث عند ذكر أسباب الفتح العثماني لمصر والشام . وهكذا قلما تجد أستاذا قد جمعها بتفاصيلها كلها في موضع واحد . وهذا التشتيت للأحداث يحول دون اكتمال الصورة في ذهن القارئ . لذلك رأيت أن أجمع كل ما وقفت عليه من تفاصيل تلك الوقائع في موضع واحد حتى تكتمل الصورة وتجلو . وأود أن أؤكد على ما ذكرته في الباب الأول من أن تلك الحرب كانت من الوقائع المؤسفة ، بصرف النظر عمن المتسبب فيها ومن الظالم ومن المظلوم . فكلا الطرفين مدان في رأيي . فلا يمكن لأحد أن يبرر حربا دارت بين أقوى قوتين في العالم الإسلامي ، وأهدرت فيها أموال طائلة ، وقتل فيها خيرة الأمراء والقادة . والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ولكن بالرغم من ذلك فعلينا أن نبحث عن أسباب تلك الحرب .

فالسبب المباشر لقيامها هو إيواء السلطان المملوكي قايتباي للأمير جم الخارج على أخيه السلطان بايزيد الثاني . بل ودعمه وتجهيزه وإطلاقه لقتال أخيه وخلعه من الحكم . ولا شك أن ذلك سلوك عدواني من قايتباي فرأى السلطان بايزيد ضرورة الرد عليه . وإن كان أساتذة التاريخ ذكروا ذلك السبب إلا أنهم جعلوا للمسألة جذورا أخرى تعود إلى زمن السلطان

محمد الفاتح وأعطوها أهمية أكبر من أهميتها الحقيقية . ومن ذلك ما أسموه الصراع بين الدولتين على الإمارات التركمانية الحدودية . فقد قال د.سعيد عاشور : « لم يكد يتم للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على البلقان حتى عادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مازالت خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقيها - أهمها إمارتي قرمان ودلغادر - كانت مشمولة بالحماية المملوكية . فأنذر تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والمماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنازعة على الحكم في الإمارات التركمانية . فتساعد سلطنة العثمانيين أميرا منافسا للأمير الذي تؤيده سلطنة المماليك »[1].

وقال د.أحمد فؤاد متولي : « ولكن العلاقات بين الدولتين بدأت تسوء منذ أن تولى خشقدم حكم المماليك ١٤٦١- ١٤٦٧م (٨٦٥-٨٧٢هـ) نظرا لتضارب مصالح الدولتين في مناطق شرق الأناضول وجنوبه . فقد بدأ العثمانيون يولون اهتمامهم إلى الأناضول ويتدخلون في شئون بعض الإمارات التي كانت مشمولة بحماية المماليك كإمارتي ذولقادر وقرمان . ولكن الأجل لم يمهل خشقدم للرد هذا التدخل . ظلت العلاقات بين قايتباي ١٤٦٨- ١٤٩٦م (٨٧٢-٩٠١هـ) ومحمد الثاني متوترة نظرا للمنافسة التي اشتدت بينهما على التدخل في شئون الإمارتين المذكورتين وكان الموقف ينذر بالخطر بين الطرفين »[2].

قال د.عمر عبد العزيز : « طالب المماليك بالحماية على قره مان التي انضمت في ذلك الوقت ١٤٦٥م إلى الإمبراطورية العثمانية . وقد لعبت سياسة إمارة ألبستان (الأبلستين) { دلغادر } دورا كبيرا في تحريك عداء المماليك والعثمانيين المتبادل . لأن المماليك لم يوافقوا قط على وقوع أي تغيير في تلك الإمارة التركمانية في غير صالحها . ففي عام ١٤٦٥ حدث احتكاك بين المماليك والعثمانيين عندما تقاتل بوداق وشاه سوار ، وعندما علم محمد الثاني بتولية بوداق أرسل في عام ١٤٦٧ بعض قواته لمساعدة شاه سوار »...ثم ذكر د.عمر تفاصيل الحرب

---

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٦٩ ، ٢٧٠) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٦٢) .

المملوكية مع شاه سوار ثم قال : « وعندما مات محمد الثاني في السنة التالية أيد السلطان المملوكي قايتباي ، الأمير جم ضد بايزيد الثاني ، وبذلك تحولت الاحتكاكات على الحدود إلى حرب »[١].

وقال د.صلاح هريدى : « موقع الإمارة (دلغادر) الاستراتيجي بين المماليك والعثمانيين الذي تمثل صراعهم على النفوذ في المنطقة في دعم أمير ضد آخر . ولم يكن نتيجة ذلك تأزم العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة في ألبستان (أبلستين) فحسب بل اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين كثيرا ما انعكس على العلاقات بين الإخوة في الأسرة الحاكمة في هذه الإمارة . وقد بدأ أول صدام مسلح بين المماليك والعثمانيين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذو القادر ومعه بعض الفرق من الجنود العثمانيين عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م على الحدود المملوكية ». وقال أيضا : « وقد تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر على منطقة ألبستان »[٢].

قال د.محمود الحويري : « ومن الأسباب التي أدت إلى الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين الإمارتين التركمانيتين قرمان ودلغادر بآسيا الصغرى ، إذ تدخل محمد الفاتح في شئون هاتين الإمارتين المشمولتين بالحماية المملوكية . ونجح في أن يولي عرشهما أميرين مواليين للعثمانيين وإلى جانب ذلك ، رحب السلطان العثماني بالأمراء اللاجئين إليه من بلاط السلطان خشقدم »[٣].

قلت : هكذا يرى هؤلاء الأساتذة الخمسة أنه كان ثمة صراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين على إمارتي قرمان ودلغادر المشمولتين بحماية المماليك . وأن ذلك كان سببا لتوتر العلاقات بين السلطنتين والذي أدى في نهاية الأمر – بجانب أسباب أخرى – إلى حرب بين السلطنتين في عهد السلطان بايزيد . وهذا الكلام الذي يعتقده الأساتذة الخمسة ليس صحيحا. ولكي نفهم حقيقة ما حدث فعلينا أن نستعرض شيئا من تاريخ العلاقات بين الإمارتين والسلطنتين . والحوادث المتعلقة بتلك المسألة ملتبسة جدا ومتشابكة جدا ، فانتبه واقدح زناد

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٦ ، ٤٨) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣٤ ، ١٣٧) .

(٣) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى هامش (ص ١٩١) .

فكرك ، وأطلق عنان عقلك ، واجمع قريحة نفسك وسل الله فهم سليمان وحكمة لقمان .

أولا : إمارة قرمان

هي إمارة مستقلة ليست مشمولة بحكم المماليك كما زعم أساتذة التاريخ . وليس للسلطان المملوكي أو العثماني دخل في تعيين أميرها(١). ومركزها مدينة قونيه وتضم غيرها من البلاد . وتقع بين السلطنتين العثمانية والمملوكية . وقد ذكرنا في الباب الأول أن حكامها من آل قرمان كانوا دائمي العدوان على الدولة العثمانية ، فكان السلطان العثماني يقاتلهم ويستقطع من أراضيهم قلاعا ومدنا ويضمهن إلى دولته . وكان أمراء قرمان يعتدون أيضا على الحدود المملوكية فكان السلطان المملوكي يرسل حملات تأديبية لهم . وظل الحال هكذا يؤدبهم السلطان العثماني تارة ، والسلطان المملوكي تارة أخرى حتى ضمها السلطان محمد الفاتح نهائيا عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م. ولم تكن هذه الإمارة سببا للعداء أصلا بين السلطنتين . كما يتضح ذلك مما يلي :

١- بعد أن عاد السلطان محمد الفاتح من حملة تأديب قرمان عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م بعد أشهر من توليه الحكم ، أرسل له السلطان المملوكي الظاهر جقمق رسالة شكر وتقدير ، أوردها أحمد فريدون بك في كتابه الجليل منشآت السلاطين . جاء فيها : « اتصل بمسمعنا أن المقر الكريم (السلطان الفاتح) خلد الله سلطانه مد العساكر إلى البلاد الشرقية بالحشمة العالية الغالية والشوكة القاهرة السالبة ، بحيث يعجز عن وصفها اللسان ولا يحيط بها نطاق البيان . لحسم مادة المفسدين من الذين يسعون في الأرض الفساد بقطعهم طرق المسلمين ونهبهم أموالهم واستباحتهم قتل الأنفس التي حرمها الله . فاستبشر المحب المخلص بذلك غاية الاستبشار وحصل به البهجة والسرور ».

فرد عليه السلطان محمد الفاتح برسالة مؤرخة في الثاني من صفر ٨٥٦هـ وصفه فيها بالأب العطوف. وقد وجاء فيها : « ومن تتمة حديث المحبة الجاري على ألسن الأحبة ، أن نسبة الجناب السلطاني الأعظمي (السلطان جقمق) لا زالت أطناب خيام دولته مشيدة

---

(١) راجع ما كتب آنفا تحت عنوان دعوى العدوان على المماليك في زمن السلطان يلدرم بايزيد .

بأوتاد الخلود والدوام ، وأوامر مقام سلطنته القاهرة مؤكدة بغاية الإحكام والاستحكام . إلى هذا المحب نسبة الأب العطوف الملطوف المعطوف . وإن شئت قلت نسبة مولى الموالي إلى مولى هو أطوع الموالي »[1].

فهكذا نرى أن حملة السلطان محمد الفاتح على قرمان لم تؤثر على علاقات المحبة بين السلطنتين . بل إن السلطان جقمق أثنى عليها وانشرح صدره بها .

٢- وعند فتح القسطنطينية بعد ذلك بعامين في ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ، أرسل السلطان محمد الفاتح رسالة إلى السلطان المملوكي الأشرف إينال يبشره بذلك الفتح العظيم ، مصحوبة بهدية من الأسارى والغلمان والأقمشة . فرد عليه السلطان إينال برسالة تهنئة مصحوبة ببعض الهدايا . وقد أورد أحمد فريدون في كتابه المذكور نص هذه الرسالة وجاء فيها : « وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة ، كما هو دأب السالفين الأقدمين من الحكام والسلاطين »[2].

وقد أكرم السلطان محمد الفاتح رسول السلطان المملوكي . فقد قال ابن إياس : « قدم يرشباي الذي توجه قاصدا إلى محمد بن عثمان ملك الروم وقد أكرمه ابن عثمان وأخلع عليه »[3].

٣- في المحرم عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م أرسل إبراهيم بن قرمان يشكو للسلطان إينال من السلطان محمد الفاتح فلم يعره اهتماما . قال ابن إياس : « قدم قاصد من عند الأمير إبراهيم بن قرمان أمير التركمان ، وعلى يده مكاتبة مضمونها أنه أرسل يشكو فيها من ملك الروم محمد بن عثمان . فما اكترث السلطان بذلك ثم أرسل إليه بجواب هين وما أكرم قاصده »[4].

وتلك الواقعة تؤكد أن إمارة قرمان لم تكن محلا للتنافس بين السلطنتين كما زعم أساتذة التاريخ . فلو كانت كذلك لتعصب السلطان إينال لابن قرمان ولأرسل له جنودا أو مالا ، أو لدعمه بأي وسيلة كانت . ولكن ذلك لم يحدث ، ولم تتأثر العلاقات بين السلطنتين على

---

(١) نقلا عن د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته (ص ٢٩٣ ، ٢٩٥) .
(٢) نقلا عن د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته (ص ٣٠١ ، ٣٠٤) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٢٠) .
(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٢٢) .

الإطلاق . بل إنه في العام التالي تبودلت الهدايا . قال ابن إياس في حوادث عام ٨٦٠هـ : « وصل الخواجا جمال الدين عبد الله القابوني رسولا من عند ابن عثمان ملك الروم محمد ، وعلى يده مكاتبة تتضمن ما فتحه من الفتوحات السنية . فأكرمه السلطان غاية الإكرام . ولما أراد التوجه إلى ابن عثمان عين معه السلطان قاني باي اليوسفي المهمندار وعلى يده هدية للسلطان إلى ابن عثمان » ، وقبل أن يسافر الرسول قال ابن إياس : « وكان أشيع موت ابن عثمان قبل خروج القاصد ، ثم جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد شفي وهو في قيد الحياة ، فرسم السلطان بدق الكوسات بالقلعة ثلاثة أيام »[1].

وفي ذلك دليل على عمق المحبة بين السلطنتين بالرغم من تأديب السلطان محمد الفاتح لابن قرمان والتضييق عليه .

٤- وفي شعبان عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م زحف إبراهيم بن قرمان على الحدود المملوكية واستولى على طرسوس وأدنه وكولك ، فأرسل له السلطان إينال حملة تأديبية . خرجت طلائعها أولا فقد قال ابن إياس في المحرم ٨٦١هـ : « جاءت الأخبار بأن سنقر الزردكاش لما وصل إلى حلب توجه من هناك إلى طرسوس فتحارب مع نائبها الذي أقامه ابن قرمان فقتله ».. ثم أرسل السلطان إينال الحملة في جمادى الأولى عام ٨٦١هـ ، فقد قال ابن إياس : « خرجت التجريدة المعينة إلى ابن قرمان وكان باش العسكر خشقدم أمير سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين ... » ..... وفي الوقت الذي كان القتال فيه دائرا بين المماليك وبين ابن قرمان كان قاني باي اليوسفي السفير المملوكي لدى السلطان محمد الفاتح يكرم في اصطنبول . وما عاد من هناك إلا في رجب ٨٦١هـ أي بعد أحد عشر شهرا تقريبا من بداية القتال . فقد قال ابن إياس : « عاد قاني باي اليوسفي الذي توجه إلى ابن عثمان ملك الروم وأخبر أنه أكرمه غاية الإكرام »[2].

ما سبق يؤكد أن بلاد قرمان لم تكن تابعة لسلطان المماليك وإلا لكان الأمر إليهم في تعيين أميرها ، ولكان السلطان المملوكي أرسل حملة لصد هجوم السلطان محمد الفاتح عليها . كما يتبين أيضا أن تلك الإمارة لم تكن يوما محلا للتنافس بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ولا

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٣٢ ، ٣٣٤) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠) .

سببا لأي عداء أو توتر للعلاقات بينهما . فقد كانت الحملات التأديبية لهذه الإمارة تخرج من العثمانيين تارة ومن المماليك تارة دون أن تتأثر العلاقات بين السلطنتين . ولكن العلاقات بدأت تتوتر عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م لسبب آخر . حينما تقدم أحد العلماء العثمانيين إلى السلطان محمد الفاتح بشكوى من خراب آبار المياه في الطريق المؤدية إلى الحجاز . مما يتسبب في متاعب جمة للحجاج . فأرسل السلطان محمد الفاتح جماعة من العمال لإصلاح تلك الآبار ، فرفض السلطان المملوكي ذلك واعتبره تدخلا في شئون الحرمين . مما أغضب السلطان الفاتح(١).

ويبدو أن ذلك التوتر ظل مخيما على العلاقات بين السلطنتين حتى بعد وفاة السلطان إينال عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م. وفي عهد السلطان خشقدم زاد ذلك التوتر جدا . إذ يروى ابن إياس في أحداث عام ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م : « وصل قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم فلما صعد إلى القلعة ووقف بين يدي السلطان لم يقبل الأرض على جاري العادة من القصاد . فحنق منه السلطان ولم يخلع عليه . ولما قرأ مكاتبة ابن عثمان فلم يجد بها ألقابا بما جرت به العادة ، فازداد حنقه وكاد أن يفتك بالقاصد ويشوش عليه فمنعوه (فمنعه) الأمراء من ذلك . وكان هذا سببا لوقوع العداوة بين سلطان مصر وبين ابن عثمان . واستمرت الوحشة عمالة بينهما إلى دولة الأشرف قايتباي » ... ثم ذكر ابن إياس بعد ذلك أن رسول السلطان محمد الفاتح اعتذر للسلطان خشقدم فخلع عليه وأرسل معه هدية للسلطان الفاتح(٢).

فكانت هاتان الواقعتان السابقتان من أسباب العداوة بين السلطنتين . وفي عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م توفي إبراهيم بن قرمان وتنازع أبناؤه على الحكم ولم يتدخل السلطان المملوكي في ذلك قط . مما يؤكد أن الإمارة لم تكن تابعة له بأي صورة من الصور . ولكن أيد السلطان محمد الفاتح أحمد بن قرمان ضد أخيه إسحق فانتصر عليه وأعلن تبعيته للدولة العثمانية ، فزاد التوتر بين السلطنتين وتأثر السلطان خشقدم وقلق لأجل ذلك . ويظهر ذلك بوضوح في قول ابن إياس : « ابن عثمان ملك الروم قد جهز عساكره إلى اسحق بن قرمان . وقد تعصب

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٩١) ، د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني في القرن ١٦ (ص ٤٣٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٢٠ ، ٤٢١) .

لأحمد بن قرمان دون أخيه إسحق فلما بلغ السلطان ذلك تأثر له وخشي لما يأتي بعد ذلك ».
وقال أيضا : « أحمد بن قرمان الذي قتل أخاه إسحق قد ملك بلاد ابن قرمان . وأقام الخطبة بها إلى ابن عثمان وكان قد أمده بعساكر عظيمة حتى ملك تلك البلاد فعز ذلك على السلطان »[1].

ويتضح من كلام ابن إياس أن قلق السلطان خشقدم لم يكن حرصا على إمارة قرمان ذاتها . بل لأن ضم العثمانيين لها يعني أن السلطنتين المملوكية والعثمانية أصبحتا متجاورتين في ظل وجود هذا التوتر السابق في العلاقات بين الظاهر خشقدم ومحمد الفاتح . والدليل على ذلك أن جميع حملات العثمانيين السابقة على إمارة قرمان في عهد الظاهر جقمق وفي عهد الأشرف إينال ، وكذلك الحملات المملوكية على إمارة قرمان لم تفسد العلاقة بين السلطنتين كما بينا آنفا . ولكن في عهد الظاهر خشقدم ساءت العلاقات لأسباب أخرى كما ذكرنا . فلما ضم السلطان محمد الفاتح إمارة قرمان وأصبحت حدود دولته ملاصقة لحدود المماليك ، بأن أصبحت الحدود العثمانية ملاصقة لحدود إمارتي رمضان ودلغادر التابعتين للسلطنة المملوكية . فكان ذلك داعية لزيادة القلق والتوتر. ومما زاد من حدة ذلك التوتر أن أرسل السلطان خشقدم رسولا إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه التوسط بينه وبين أوزون حسن بعد أن اعتدى على الحدود المملوكية . فلم يجبه إلى ذلك . قال ابن إياس في حوادث جمادى الأولى عام ٨٦٩هـ : « أرسل السلطان إلى ابن عثمان قاصدا وهو السيد الشريف نور الدين على الكردي ، وأرسل يسأل ابن عثمان بأن يصطلح معه على حسن الطويل . وقد بلغ السلطان أن حسن الطويل استولى على قلعة كركر وأظهر المخالفة لسلطان مصر » ... وقال في حوادث ربيع الأول عام ٨٧٠هـ : « عاد السيد الشريف على الكردي الذي كان توجه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم فذكر للسلطان عدم الإنصاف من ابن عثمان »[2].

ولم يكن السلطان محمد الفاتح يستطيع أن يتوسط بينهما أبدا . لأنه هو نفسه كان في حرب غير مباشرة مع أوزون حسن كما سيأتي . وقد ظل ذلك التوتر في العلاقات قائما طول مدة حكم الظاهر خشقدم . فلما تولى الأشرف قايتباي عادت العلاقات إلى طبيعتها كما نقلنا عن

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٢٩ ، ٤٣٠) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٢٧ ، ٤٣٤) .

ابن إياس آنفا قوله (وظلت الوحشة عمالة بينهما إلى دولة الأشرف قايتباي) . أي أن التوتر بين السلطنتين كان عارضا فقد كان بضع سنوات هي مدة حكم الظاهر خشقدم . وسيأتي مزيد من الإيضاح فيما يلي .

ثانيا إمارة دلغادر

وتقع على الحدود بين السلطنتين العثمانية والمملوكية . وهي إمارة تتمتع بحكم ذاتي تحت السيادة المملوكية ويتولى حكمها أمير من أسرة دلغادر بتقليد من السلطان المملوكي . ومركزهم في « أبلستين » . وقد جعل بعض أساتذة التاريخ مما سموه بالتنافس على هذه الإمارة سببا من أسباب الحرب . وهذا غير صحيح .. بل يمكن أن يقال أن السلطان محمدا الفاتح استخدم إمارة دلغادر ضد الظاهر خشقدم في إطار التوتر في العلاقات الذي كان سائدا بينهما أصلا .

ففي عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م طلب السلطان محمد الفاتح من السلطان المملوكي الظاهر خشقدم إن يعين شاه سوار بن دلغادر أميرا على الإمارة بحكم فراغ ذلك المنصب بعد مقتل أخيه ملك أصلان . لكن السلطان خشقدم كان قد ولى أخوهما الثالث شاه بضاق (بضاغ) بن دلغادر . فغضب السلطان محمد الفاتح لأجل ذلك ، فأمد شاه سوار بجنود من عنده فاستطاع إزاحة أخيه شاه بضاق من أبلستين . وبعد بضعة أشهر فر شاه سوار هاربا من أبلستين . فقام السلطان خشقدم بتعيين عمه رستم بن دلغادر أميرا ، وأعرض عن شاه بضاق واعتبره مقصرا لأنه تخاذل عن قتال أخيه شاه سوار . وفي عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م بدأ رستم في قتال شاه سوار بدعم من المماليك . ثم قام السلطان خشقدم بعزل رستم وتولية شاه بضاق مرة أخرى . وفي عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م استفحل أمر شاه سوار واستولى على أبلستين وغيرها . فصدرت أوامر السلطان الظاهر خشقدم إلى نواب البلاد الشامية والحلبية بقتاله . ودارت الحرب لسنوات واستمرت حتى عهد السلطان قايتباي . وحقق فيها شاه سوار انتصارات كبيرة على حملتين مملوكيتين ، واستولى على بعض المدن المملوكية مثل « عينتاب » و« سيس » و « طرسوس » . ولكن نهايته كانت عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م عندما أرسل له السلطان قايتباي حملة ثالثة بقيادة الأمير يشبك الدوادار فانتصر عليه وأسره وساقه إلى القاهرة حيث أعدم على

باب زويله عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م[1].

وقد ذكر ابن إياس تفاصيل تلك المعارك في تاريخه وذكر أن شاه سوار حصل على دعم من السلطان محمد الفاتح في أول أمره . إذ قال في حوادث عام ٨٧٠هـ : « فلما بلغ ابن عثمان شق عليه ذلك وأرسل جماعة من عسكره عونا لشاه سوار حتى يحارب بضاغ ويملك منه الأبلستين » ، وقال ابن إياس أيضا : « وكان ابن عثمان قائما مع شاه سوار تعصبا على الظاهر خشقدم »[2].

ويظهر من كلام ابن إياس أن السلطان محمد الفاتح قد قدم دعما لشاه سوار بسبب توتر علاقاته مع السلطان الظاهر خشقدم . وليس كما قال القائلون أن تدخل السلطان محمد الفاتح في شئون دلغادر هو الذي أفسد العلاقات بين السلطنتين . ومما يؤكد ذلك أن ذلك الدعم الذي قدمه السلطان محمد الفاتح لشاه سوار لم يتكرر على مدار الحرب التي استمرت ست سنوات وإنما توقف بعد وفاة الظاهر خشقدم في العام التالي لبدايتها ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م لأن **محمد بن إياس الحنفي** المؤرخ المعاصر لتلك الفترة ، والذي أسهب في ذكر تفاصيل المعارك ، لم يذكر قط أي دعم آخر قدمه السلطان محمد الفاتح لشاه سوار في أيام السلطان قايتباي الذي تولى الحكم في نفس العام الذي توفي فيه الظاهر خشقدم[3]. وفي أيام قايتباي كانت العلاقات حسنة جدا بين الدولتين بالرغم من استمرار الحرب بين المماليك وشاه سوار التي استمرت ست سنوات . منهن خمس سنوات إلا قليلا في عهد قايتباي . وبيان ذلك من أربعة أوجه :

١- لا يوجد أي إشارة عند ابن إياس تفيد دعم السلطان محمد الفاتح لشاه سوار طوال تلك السنوات الخمس . بل عندما ذكر استفحال أمر شاه سوار قال في أحداث رجب عام ٨٧٢هـ : « أخذ السلطان في أسباب تعيين تجريدة إلى شاه سوار بن دلغادر . وقد تقدم ما وقع منه في أيام الظاهر خشقدم . وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٣/ ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٣٦ ، ٤٣٧) .

(٣) بعد وفاة الظاهر خشقدم تولى السلطنة المملوكية الظاهر يلباي ثم الظاهر تمربغا لبضعة أشهر ثم تولى الأشرف قايتباي .

وقد أظهر العصيان والمخامرة ، فخشي السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة . وكان يمكنه أن يرسل خلعة وهدية وتخمد هذه الفتنة فلم يوافق على ذلك وأخذ الأشياء بالعترسة »[١].

وهكذا فلم يرد ذكر أي دعم قدمه السلطان محمد الفاتح لشاه سوار في كلام ابن إياس في تلك السنة ولا في السنوات الأربع التي تلتها حتى انتهت الحرب . أما ما قاله ابن إياس في حوادث عام ٨٧٢هـ أيضا : « أشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من عسكره إلى سوار »[٢].

فلا يعد دليلا صحيحا أبدا فقد صرح ابن إياس أن تلك شائعات سرت بين الناس . وليست أخبارا حقيقية ولو كان جنود السلطان محمد الفاتح يحاربون المماليك مع شاه سوار لأمكن معرفة ذلك من ملابسهم ومن أعلامهم وطبولهم فهذا أمر لا يخفي . ومن المؤكد أن الجنود المماليك كانوا سيذيعون به لتبرير هزائمهم المتكررة أمام شاه شوار . وبما أن ابن إياس لم يذكر ذلك تأكد أنها مجرد شائعات تدور بين الناس ليست حقيقية . كما أنه لم يرد بعد ذلك أي ذكر لدعم السلطان محمد الفاتح لشاه سوار لا على سبيل الجزم ولا على سبيل الظن طوال السنوات الأربع التالية . وهناك دليل آخر يعزز ذلك القول ، وهو أن القاضي شمس الدين ابن أجا الذي كان مرافقا للحملة الأخيرة على سوار والتي قادها الأمير يشبك الدوادر والتي دامت ما يقرب من ستة عشر شهرا ، لم يذكر شيئا عن أي قوات عثمانية موالية لشاه سوار . وقد فصل القاضي المذكور عند عودته أحداث هذه الحملة كاملة في مصنفه (رحلة الأمير يشبك الدوادار) . ولو كان العثمانيون يقاتلون إلى جانب سوار لما فاته أن يذكره .

٢- ظلت السفارات متبادلة بين السلطنتين أثناء الحرب مع شاه سوار . ففي عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م ، أرسل الفاتح إلى السلطان قايتباي يخبره بفتح عدة بلاد من البنادقة[٣].

٣- ذكر القاضي ابن أجا ما يفيد حسن العلاقات بين السلطنتين . إذ ذكر أن الأمير يشبك أثناء حملته على سوار ومن مواقع القتال ، أرسل رسولين إلى العثمانيين أحدهما الشيح

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٧) .

(٢) محمد ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٢) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٥٢) .

علاء الدين الحصني رسولا إلى للسلطان محمد الفاتح ، ومعه هدية عبارة عن فرسين . والثاني السيد أمير جان رسولا إلى الأمير بايزيد بن محمد الفاتح . ثم أرسل الأمير بايزيد رسولا إلى الأمير يشبك محملا بهدية ويعرض عليه إرسال مؤن للجيش المملوكي . قال القاضي ابن أجا : « وفي يوم الجمعة رابع عشره (ذي الحجة ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م) وصل قاصد من عند السلطان أبو يزيد بن عثمان ومعه هدية ويذكر في مكاتبته ، أنه حصل له سرور بقدوم العساكر المنصورة ، وأنه يسأله في تجهيز ما يتجدد من الأخبار أولا بأول ، ومهما دعت الضرورة إليه من الغلال والمأكل يجهز لك »[١].

ففيما سبق دليل بالغ على أن العثمانيين لم يكونوا يساعدون شاه سوار ضد المماليك . كما أننا هنا بصدد واقعة أخرى يشن فيها المماليك حملة على إمارة دلغادر دون أن يتسبب ذلك في أي عداء أو توتر بين السلطنتين العثمانية والمملوكية ، مما يؤكد على أن التوتر في العلاقات لم يكن بين السلطنتين ، بل كان بين السلطانين ، كان بين السلطان محمد الفاتح والسلطان الظاهر خشقدم . فلما توفي خشقدم زال ذلك التوتر وعادت العلاقات إلى سالف عهدها .

٤- وبعد القضاء على سوار وفي عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م عندما وقعت الحرب بين المماليك وأوزون حسن ملك الآق قويونلو . أرسل السلطان محمد الفاتح إلى قائد المماليك في جبهة القتال يعرض عليهم المساعدة **قال ابن إياس** : « ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عونا للسلطان على قتال حسن الطويل . فأكرم القاصد وعين صحبته القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر بأن يتوجه إلى ابن عثمان وعلى يده هدية حافلة ومكاتبة وأن ينشىء بينه وبين السلطان مودة بسبب أمر حسن الطويل » .

كما أرسل السلطان محمد الفاتح رسولا آخر إلى السلطان قايتباي في نفس الوقت بخبر التحالف بين أوزون حسن والبنادقة . وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول . **قال ابن إياس** : « ثم إن القاصد أقام بمصر أياما وأضافه السلطان وأذن له بالسفر وأخلع عليه . ثم إن السلطان عين دولات باي حمام الأشرفي بأن يتوجه قاصدا من عند السلطان إلى ابن عثمان » . وفي عام

---

(١) شمس الدين بن أجا : رحلة الأمير يشبك الدوادار تحقيق محمد أحمد دهمان ضمن كتاب العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك (ص ١٠٦ ، ١٤٥) .

٨٧٨هـ **قال ابن إياس** : « عين السلطان برسباي الأشرفي استادار الصحبة بأن يتوجه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم وجهز صحبته هدية سنية » .... وفي عام ٨٧٩هـ **قال ابن إياس** : « الأمير يشبك الجمالي الذي كان قد توجه قاصدا إلى ابن عثمان عاد من سفره وقابل السلطان في خليج الزعفران وعليه خلعة ابن عثمان ومكاتبة تتضمن التودد بينهما فابتهج السلطان بذلك » .... وفي عام ٨٨٢هـ **قال ابن إياس** : « قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة فأكرمه السلطان وأعاد له الجواب وسافر بعد أيام » .... وفي عام ٨٨٦هـ لما توفي السلطان محمد الفاتح حزن السلطان قايتباي بشدة . **قال ابن إياس** : « ولما مات (الفاتح) ملك ابنه أبو يزيد الموجود الآن فلما بلغ السلطان ذلك أظهر الحزن والأسف عليه »[1].

مما سبق يتضح أن العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين لم تتأثر بسبب الحملات المملوكية المتوالية على إمارة دلغادر . وأن رسائل الوداد كانت تتردد بينهما أثناء الحرب وبعدها . لذلك فيمكن القول أن فترة التوتر في العلاقات كانت في زمن السلطان الظاهر خشقدم فحسب للأسباب التي ذكرناها ، والتي لا تتعلق أصلا بإمارتي قرمان ودلغادر . ولكن بسبب ذلك التوتر استخدم السلطان محمد الفاتح إمارة دلغادر ضد الظاهر خشقدم . ويتضح ذلك بجلاء من قول **ابن إياس** : « وكان ابن عثمان قائما مع شاه سوار تعصبا على الظاهر خشقدم »[2].

فلما توفي السلطان خشقدم انتهى كل ذلك التوتر وعادت العلاقات كما كانت قبل خشقدم ولم يكن بين السلطانين إلا كل ود وصداقة . ولم يرد أي ذكر لخلاف لا بشأن إمارة قرمان ولا بشأن إمارة دلغادر طوال الفترة من ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م حتى عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م. وهي الخمسة عشر عاما التي أدركها السلطان قايتباي من حكم السلطان محمد الفاتح .

أما الحرب التي اندلعت بين السلطنتين في عهد السلطان بايزيد بن محمد الفاتح في عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م لم يكن لها أي علاقة بإمارتي قرمان ودلغادر أيضا . وقد تبين مما نقلناه عن ابن إياس أن العلاقات كانت ودودة جدا بين السلطان محمد الفاتح وبين السلطان قايتباي حتى توفي الفاتح . ولم ينقل عن قايتباي أي نفور أو توتر بينه وبين السلطان محمد الفاتح .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور : (٣/ ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٣٠ ، ١٨١) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٣٧) .

ومن ذلك ، يتبين **بطلان قول د.أحمد فؤاد متولي** (ظلت العلاقات بين قايتباي ومحمد الثاني متوترة نظرا للمنافسة التي اشتدت بينهما على التدخل في شئون الإمارتين المذكورتين وكان الموقف ينذر بالخطر بين الطرفين) فهذا الكلام يتعارض مع ما نقلناه عن شيخ مؤرخي مصر في ذلك الزمان محمد بن إياس الحنفي . كما يتبين أيضا **بطلان قول د.سعيد عاشور** الذي قدمناه (اتخذ الصدام بين العثمانيين والمماليك في ذلك الدوز الأول قيام كل دولة بمساعدة الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية). ومن الواجب علينا هنا أن نوجه سؤالا للدكتور سعيد غاشور : من هم الأمراء الذين دعمهم المماليك في قرمان والأمراء الذين دعمهم العثمانيون فيها ؟. إن ذلك لم يحدث في قرمان أصلا .! أما في دلغادر ، فقد كان دعم شاه سوار ضد شاه بضاق حالة فريدة لم يكتب لها الاستمرار أكثر من عام . ولم تكن بسبب الصراع على النفوذ كما قدمنا . ولكن د.سعيد يتحدث عن شكل الصدام في الدور الأول . فقد جعل من هذه الحالة الفريدة القصيرة الأمد جعلها سياسة للصدام وعممها في الإمارات التركمانية ..! وتبين أيضا **بطلان قول د.عمر عبد العزيز** (طالب المماليك بالحماية على قرمان) ونسأل د.عمر. كيف طالبوا بالحماية عليها .؟! ومتى كان ذلك .؟! وأين ذلك في المصادر التاريخية .؟! وهل كان لهم حق فيها أصلا ليطالبوا بالحماية .؟! ويتبين أيضا **بطلان قول د.عمر عبد العزيز** (تحولت الاحتكاكات المستمرة على الحدود إلى حرب) ويتبين أيضا **بطلان قول د.صلاح هريدي** (تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر على منطقة ألبستان). فالاحتكاكات التي يتحدث عنها الأستاذان لم تدم أكثر من عام واحد وهو عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م ، والحرب العثمانية المملوكية وقعت عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤ أي بعد ثمانية عشر عاما من العلاقات الحسنة . فهذا العام الواحد اعتبره د.عمر احتكاكات مستمرة واعتبره د.صلاح هريدي نصف قرن ..!

ويتبين أيضا **بطلان قول د.الحويرى** (تدخل محمد الفاتح في شئون هاتين الإمارتين المشمولتين بالحماية المملوكية) . في الواقع إن كافة الأساتذة يستخدمون هذا الإصطلاح في غير محله فهو لا ينطبق على إمارة قرمان أصلا . بخلاف انه مصطلح حديث لا يعبر عن العلاقات السياسية في ذلك العصر . والأولى أن يستخدم المصطلح القديم وهو (نيابة) فقد

كان أمير دلغادر يذكر في المصادر التاريخية على أنه نائب الأبلستين . ثم أود أن أوجه سؤلا للدكتور محمود الحويري : من هم الأمراء الفارون من بلاط السلطان خشقدم الذين زعمت أن السلطان محمدا الفاتح رحب بهم .؟! هذا القول ليس له أساس من الصحة ولقد أسنده د.الحويرى إلى ابن إياس ٣/ ١٨٣ بالرغم من أن ابن إياس في ذلك الموضع يتحدث عن لجوء الأمير جم إلى السلطان قايتباي !!.

أوزون حسن

لقد أثار د.محمد السيد الراقد شبهة أخرى تتعلق بالحرب في ذلغادر . فقد زعم أن السلطان محمد الفاتح توقف عن إمداد شاه سوار للتفرغ لقتال أوزون حسن . فقد قال : « من المرجح أن الإمدادات العثمانية قد توقفت عن شاه سوار بهدف تحقيق التقارب بين المماليك والعثمانيين للقضاء على الخطر المشترك الذي أصبح يهدد كلا الدولتين . ولذلك أمكن للأمير قرقماس الصغير نائب ملطيه إحراز نصر جزئي في سنة ١٤٦٩م . كما أن أرسلان بن رمضان المنافس لذي الغادر انتصر على سوار واستخلص منه قلعة سيس ، والمرجح أن سياسة محمد الثاني كانت تهدف إلى تصفية الحرب في ذي الغادر حتى تتفرغ الدولة المملوكية لتوجه كل قواتها وإمكانياتها إلى العدو المشترك أوزون حسن »[1].

قلت : إن الأدلة التي قدمها د.محمد عبد المنعم الراقد لا تنهض ولو على ساق واحدة للدلالة على ما يقوله . وذلك من وجهين :

١ - أن خطر أوزون حسن لم يكن جديدا بل كان موجودا قبل فتنة شاه سوار أصلا ففي عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م دخل السلطان محمد الفاتح في حرب غير مباشرة مع أوزون حسن . فعندما توفي إبراهيم بن قرمان وقع الخلاف بين ولديه إسحاق وأحمد فاستنجد إسحاق بأوزون حسن قال ابن إياس : « حسن بك الطويل أنه سار نجدة إلى ابن قرمان لما تحارب مع إخوته فكسرهم وفروا منه إلى بلاد ابن عثمان » .. وقد استنجد أحمد بابن خاله السلطان محمد الفاتح . فقد قال ابن إياس : « أحمد بن قرمان الذي قتل أخاه إسحق قد ملك بلاد ابن قرمان

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٩٤ ، ٩٥) .

وأقام الخطبة بها إلى ابن عثمان .وكان قد أمده بعساكر عظيمة حتى ملك تلك البلاد »[1].

كما أن أوزون حسن كان قد دخل في حرب مع المماليك أيضا قبل فتنة شاه سوار أصلا . فقد قال ابن إياس في ذي القعدة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م : « حسن الطويل نزل على جهات خرت برت وحاصر أهلها وأخذها من ملك أصلان (أمير دلغادر) . ووقع ببلاد الشرق في أواخر هذه السنة غاية الاضطراب » .... وفي العام التالي قال ابن إياس : « حسن الطويل قد زحف على ملك أصلان ففر منه إلى الأبلستين فتبعه ودخل إلى الأبلستين فنهبها وأخرب غالبها . ثم رجع وملك خرت برت فلما بلغ السلطان (خشقدم) ذلك انزعج لهذا الخبر . وقد قويت شوكة حسن الطويل »[2].

وقد ذكرنا آنفا أن السلطان خشقدم طلب من السلطان محمد الفاتح أن يتوسط بينه وبين أوزون حسن فلم يجبه إلى ذلك . والحق أنه لم يكن بوسع السلطان محمد أن يتوسط بينهما لأنه كان هو نفسه يخوض حربا غير مباشره مع أوزون حسن .

٢- إن الانتصارات الجزئية التي حققها نائب ملطيه وأرسلان رمضان على شاه سوار عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م لم تكن نهائية بل إن سوار استطاع أن يستعيد ما أخذ منه في العام التالي قال ابن إياس في حوادث محرم ٨٧٥هـ : « شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركمان فانكسر ابن رمضان وملك سوار قلعة إياس » .. وقال أيضا في حوادث رجب ٨٧٥هـ : « جاءت الأخبار من حلب بأن سوار قد استولى على سيس وقلعتها »[3].

ومن ذلك يتبين أن ما ذهب إليه د.محمد السيد الراقد من أن السلطان محمد الفاتح كان يمد شاه سوار ثم توقف عام ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م بهدف تحقيق التعاون ضد أوزون حسن غير صحيح . لأن خطر أوزون حسن لم يكن جديدا وأن السلطان خشقدم طلب التوسط من السلطان محمد الفاتح فلم يجبه وأن هزيمة شاه سوار الجزئية لا تفيد توقف الإمدادات فضلا

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٢٦، ٤٣٠) وانظر أيضا : محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ١٥٥) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٤٣٠، ٤٣٣) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٥١، ٥٦) .

عن وجودها أصلا ، لأن سوارا حقق انتصارات بعد تلك الهزيمة الجزئية . والأهم من ذلك أن المصادر لا تشير إلى وجود أي إمدادات من السلطان محمد الفاتح أصلا إلا في أول الأمر عام ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م بسبب التوتر الذي كان سائدا بينه وبين السلطان خشقدم ولم يتكرر بعد ذلك أبدا .

وربما وقعت بعض الشبهات لأساتذة التاريخ في تلك المسألة بسبب عدم الدقة في قراءة المصادر التاريخية ، وأهمها على الإطلاق تاريخ ابن إياس لأنه كان معاصرا للأحداث ومقربا من أكابر الأمراء . ويعد شيخ المؤرخين في زمانه . فإن قال البعض إن الأمر ليس هاما إلى هذه الدرجة لأن إمارتي قرمان ودلغادر سواء أكانتا سببا رئيسا أو غير رئيس . فالنتيجة أن الحرب قد وقعت لخمس سنوات بين العثمانيين والمماليك في زمن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح . فالأمر ليس ذا شأن . قلت : كما ذكرت آنفا أنني لا أميل إلى العثمانيين ولا أميل إلى المماليك في تلك الوقائع . بل كلاهما عندي مدان لأجل تلك الحرب التي استمرت بينهما خمس سنوات . ولكن أساتذة التاريخ - نقلا عن الأوروبيين بلا ريب - يحاولون إظهار الأمر كما لو كانت الدولة العثمانية طمعت في إمارتي قرمان ودلغادر التابعتين للمماليك ، وسعت لبسط سلطانها عليهما فاضطر المماليك لخوض القتال معهم . وهذا غير صحيح على الإطلاق كما بينا . بل هو لي لأعناق الحوادث والنصوص التاريخية لتوافق أهواء كل صاحب هوى . وهذا يوافق تماما المناخ الثقافي العام السائد في البلاد ، إذ أنه من السهل تقبل أي شيء في العثمانيين إن كان فيه ذم لهم أو طعن فيهم أو انتقاص من قدرهم . ثم إن الأمر امتد إلى أبعد من ذلك . فلقد دأب أساتذة التاريخ على محاولة ربط الفتح العثماني لمصر والشام على يد السلطان سليم الأول ، بتلك الصراعات التي وقعت بين العثمانيين والمماليك في الفترة التي سبقتها . وفي هذا وهم بلا شك ، وحجب للسبب الرئيس لذلك الفتح ، وهو حماية البلاد العربية من الخطر الصفوي ومن الخطر الصليبي البرتغالي والأسباني . ومما يستحق العجب أن أساتذة التاريخ يبالغون في التهويل مما أسموه الصراع على الإمارات التركمانية في الوقت الذي يتغافلون فيه عن الخطر الصفوي والصليبي .! ومن باب الإنصاف نقول أن العلاقات بين الإمارتين والسلطنتين ملتبسة . فلربما تكون الشبهات وقعت للأساتذة لأجل ذلك ، أو لأنهم لا يتعبون أنفسهم

بقراءة المصادر التاريخية ، وإنما يكتفون بالنقل عن المراجع الأوروبية أو عمن نقل عنها . وإذا ما رجعوا إلى مصادرنا الإسلامية تراهم يقرؤونها بفكر مسبق علق في أذهانهم من كتب الأوروبيين . ثم يبحثون في مصادرنا عما يوافقه فيضعون النصوص التاريخية في غير مواضعها الصحيحة فيقعون في ذلك الخلط واللبس .

بداية الحرب

توفي السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ، وتولى الحكم من بعده أكبر من كان حيا من أبنائه وهو السلطان بايزيد الثاني . ولكن أخاه الأمير جم نازعه على الحكم وطالب بتقسيم السلطنة بينه وبين أخيه . فرفض السلطان بايزيد ذلك وقاتل أخاه . فهرب الأمير جم إلى مصر فاحتضنه السلطان قايتباي وأيده ضد أخيه . وكان هذا هو السبب الحقيقي لوقوع الحرب بين السلطنتين . وقد ذكر المؤرخون أن السلطان قايتباي أكرم الأمير جما إكراما كبيرا وجهزه للحج ، وأعطاه مالا وفيرا . ولما عاد من الحج إلى القاهرة ، أراد أن يرجع إلى بلاده لينازع أخاه على السلطنة ، بعد أن جاءته رسائل من أحد أمراء قرمان وأحد أمراء اسفنديار السابقين بدعوته لنصرته على أخيه . فأكرمه السلطان قايتباي وجهزه إلى دمشق ، ليتوجه منها إلى بلاده[1].

يستفاد من المصادر المذكورة أن السلطان قايتباي كان على علم بأن الأمير جما سيخرج من مصر عائدا إلى بلاده لينازع أخاه على الحكم . وبالرغم من ذلك سمح له بالعودة بل وجهزه أيضا . وقال المؤرخ المصري الحافظ السخاوي الذي كان معاصرا للأحداث أن السلطان قايتباي أراد أن يرسل مع الأمير جم جنودا من عنده : « فر (جم) إلى الديار المصرية .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٥١٨) ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ١٧٩) ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ١٩) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. ميكروفيلم (رقم ١٣٤٨٦ . ورقة ٨٨) ، مرعى بن يوسف الكرمي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم (رقم ٥٢٩٨ ورقة ٦٥) ، محمد بن أبى السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٥٦) ، شهاب الدين بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ١٢٤) ، عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجمم العوالي في أخبار الأوائل والتوالي (٤/ ٨٠).

فأكرمه السلطان وجهزه للحج في أبهة وضخامة ولما رجع كاتبه أحد أمرائهم مغريًا له على أخيه ووعده بالقيام في خدمته ، فاستمهله السلطان ليجهز معه عسكرًا فما وافق جل الأمراء على ذلك . بل أشار تغري بردي ططر إيداعه اسكندرية حتى تسكن الفتنة فما تم »[1].

فلم يفصح السخاوي أن كان السلطان قايتباي قد أرسل معه جنودا أم لا. ولكن المؤرخ الشامي ابن طولون الدمشقي الذي كان معاصرا للأحداث أيضا قال : « ثم جهزه السلطان وأيده بأمور على أخيه على أن يأخذ الملك منه فخرج من مصر ، وترك أمه وولده بها ونزل إلى أخيه »[2].

جزم ابن طولون بأن السلطان قايتباي أيد الأمير جما على أخيه بأمور. ولكنه لم يحدد أكان ذلك التأييد بالجنود أو بالمال أو بالسلاح . كما اكتفي سائر المؤرخين بقولهم (جهزه) لذلك فنحن نستطيع أن نجزم بوجود أصل تأييد دون أن نعرف قدره وكيفيته . وقد ذكر ابن إياس أن الأمير جما عندما أراد العودة إلى بلاده ليقاتل أخاه ، جمع السلطان قايتباي أمراءه ليشاورهم في شأنه . فما كان من الأمراء إلا أن زجروا الأمير جما ونهروه بكلام كثير . وقد نهاه الأمير أزبك بكلام غليظ فلم ينته . ثم قال ابن إياس : « ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر إلى بلاده على كره منه وكان ذلك عين الخطأ »[3]... كما ذهب سعد الدين أفندي إلى مثل ذلك فقال : « حذره سلطان مصر كل التحذير فلم يصغ لكلامه »[4].

والذي يظهر لي عدم صحة رواية ابن إياس وسعد الدين أفندي . ولو صحت لكان ذلك تظاهرا من السلطان قايتباي لئلا يظهر كمسعر للفتنة . ولو كان السلطان قايتباي حريصا حقا على وأد الفتنة ، لما سمح للأمير جم بالخروج ، لاسيما وأن جما لا يملك أي وسيله يضغط بها عليه . وكان بوسع السلطان قايتباي أن يقوم بالتنسيق مع السلطان بايزيد في هذا الأمر . وقد عاب جمهور المؤرخين ذلك على السلطان قايتباي . فقد قال ابن إياس عن خروج جم من مصر :

---

(١) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/ ١٤٧) .

(٢) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ١٩) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٩٢) .

(٤) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ورقة ٨٨) .

« وكان ذلك عين الخطأ »[1]... وقال السخاوي : « ولو قدر إلزام السلطان له بالإقامة (في مصر) كفعله في أخي السيد محمد بن بركات وفي حفيد حسن باك ، أو حبسه لاندفع شر كبير . فقد جرت في غضون ذلك حوادث تلف فيها رجال وأموال »[2]... وقال ابن طولون : « وهذا كان السبب في معاداة ملك الروم لسلطان مصر »[3].

والسؤال الذي يطرح نفسه ، لماذا أيد السلطان قايتباي الأمير جما على أخيه السلطان بايزيد ، ضاربا بعلاقته الحسنة مع دولة قوية كالسلطنة العثمانية عرض الحائط . وجالبا على نفسه حربا يعرف مسبقا أنها لن تكون هينة ؟! ذكر بعض أساتذة التاريخ سببا واهيا وهو أن السلطان محمد الفاتح في عامه الأخير أيد علي دولات (علاء الدولة) بن دلغادر أخا شاه بداق فاستطاع أن يزيح أخاه واستولى على الحكم في الإمارة بتأييد من السلطان الفاتح . **قال د.محمد عبد المنعم الراقد** : « إن كانت العلاقات العثمانية المملوكية قد تجمدت في العقد الأخير من حياة محمد الثاني ، إلا أنه في السنة الأخيرة من حكمه تدخل مرة أخرى في الشئون الداخلية لإمارة ذي الغادر ، ونصب الأمير علاء الدولة على إمارتها وعضده ضد أخيه ومنافسه شاه بوضاق المؤيد من قبل سلطان المماليك » ... ثم ذكر د.الراقد خروج الأمير جم من مصر لقتال أخيه ثم قال : « وهكذا تجمعت لدى كل من الفريقين الأدلة الكافية على أن العلاقات بينهما وصلت إلى مرحلة العداء الصريح فمن وجهة نظر الدولة المملوكية عاد الموقف في إمارة ذي الغادر إلى ما كان عليه أثناء ثورة شاه سوار ... »[4].

قال د.عمر عبد العزيز : « في عام ١٤٨٠ تدخل السلطان محمد الثاني مرة أخرى في شئون إمارة ألبستان الداخلية ونصب شخصا يدعى علاء الدولة أو علي دولات كما يسميه ابن إياس وهو أخو بوداق كحاكم على الإمارة بعد أن منحه تأييده المطلق ضد بوداق المؤيد من قبل المماليك ، وعندما مات محمد الثاني في السنة التالية أيد السلطان المملوكي قايتباي الأمير

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٩٢) .
(٢) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/ ١٤٨) .
(٣) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٤٢) .
(٤) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٩٩ ، ١٠٠) .

جم ضد بايزيد الثاني »[١].

قلت : يفهم من كلام د.عمر ود.الراقد أن السلطان قايتباي أيد الأمير جما على أخيه السلطان بايزيد ، انتقاما من العثمانيين بسبب قيام السلطان محمد الفاتح بتأييد علي دولات لانتزاع إمارة دلغادر من أخيه شاه بداق التابع للمماليك . وهذا الكلام ليس إلا شبهة وقعت لكثير من الباحثين بسبب صلة المصاهرة التي كانت تربط بين بني عثمان وبني دلغادر . فقد تزوج السلطان محمد الفاتح عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م بست مكرمة خاتون وهي ابنة سليمان بن محمد بن دلغادر[٢]. وهي أخت كل من سوار وبداق وعلي دولات . كما تزوج الأمير (السلطان لاحقا) بايزيد بعائشة خاتون وهي ابنة علي دولات[٣]. فإن كان علي دولات صهرا للسلطان محمد الفاتح فكذلك شاه بداق كان صهرا له . والعبرة عندنا بما حدث في الواقع . فما ذهب إليه الأستاذان فيه نظر من وجهين :

١- معلوم أن علي دولات أزاح أخيه شاه بداق من إمارة دلغادر في العام الأخير من حكم السلطان محمد الفاتح . لكن لم يرد في المصادر التاريخية أن السلطان محمدا الفاتح أيده في ذلك سواء بالمال أو بالرجال . ولو حدث ذلك لذكره ابن إياس على سبيل المثال . كما ذكر نظيره من قبل في واقعة شاه سوار المذكورة آنفا . وإنما كانت إزاحة علي دولات لأخيه في إطار الصراع على الحكم داخل الإمارة . وليس هذا بالأمر الجديد ففي عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م وقع قتال على الإمارة بين صدقة بن سولي بن دلغادر وبين ابن عمه محمد بن خليل بن دلغادر[٤]. وفي عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م وقع القتال على الإمارة بين علي بن خليل بن دلغادر وبين أخيه محمد بن خليل بن دلغادر . ثم وقع القتال بين ابنيهما في عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م على إحدى مدن الإمارة وهي مدينة مرعش . إذ قاتل فياض بن محمد بن دلغادر ابن عمه حمزة بن علي بن

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٨) .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . ورقة (٦١) ، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٢٢) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٩٥) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٤٢١) .

دلغادر وأخرجه منها ، فأعاده السلطان المملوكي إليها[1]. وقد ذكرنا آنفا واقعة شاه سوار مع أخيه شاه بداق عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م. فالصراع الداخلي على حكم الإمارة كان سمة من سماتها وليس بالضرورة أن يدعمه طرف خارجي ، سواء أكان السلطان العثماني أو غيره . وليس لأحد أن يقفز إلى استنتاجات دون دليل علمي يعول عليه . ولو كان السلطان محمد الفاتح قد أيد علي دولات . لسخط عليه السلطان قايتباي ولغضب عليه. ولكن ذلك لم يحدث بل أن السلطان قايتباي لما وصله خبر وفاة السلطان محمد الفاتح حزن وتأسف عليه كما قدمنا. بل إن ترجمة ابن إياس في خبر وفاته على قصرها تشهد بمكانة السلطان الفاتح عند سلطنة المماليك ، أمرائها وعلمائها ، فقد قال ابن إياس : « السلطان المعظم المفخم المجاهد المغازي ملك الروم ، وصاحب مدينة القسطنطينية العظمى وهو محمد بن مراد بن أبى يزيد بن عثمان[2] كان ملكا عظيما جليلا ساد على بني عثمان كلهم وانتشر ذكره بالعدل في سائر الآفاق . حاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد وسعة المال وكثرة الجيوش والاستيلاء على الأقاليم الكفرية . وفتح الكثير من حصونها وقلاعها ، وكان ملك أمر الروم في حياة أبيه ثم استقل من بعده ومكث به مدة طويلة تزيد على إحدى وثلاثين سنة . ومولده بعد الأربعين والثمانمائة ولما مات تولى ابنه أبو يزيد يلدرم[3] الموجود الآن . فلما بلغ السلطان (قايتباي) ذلك أظهر الحزن والآسف عليه »[4].

هذه ترجمة السلطان محمد الفاتح عند ابن إياس لا نرى فيها أي اتهام له بالعداء ، أو ذكر لوجود مشاحنات بينه وبين السلطان قايتباي . بل بالعكس فأنها تدل على أن السلطان محمدا الفاتح عند وفاته كانت لا تزال تربطه علاقات ودية مع السلطان قايتباي .

٢- عندما ذكر المؤرخون قصة تأييد السلطان قايتباي للأمير جم في قتال أخيه السلطان بايزيد سواء في حينها أو عند ذكرهم أسباب الحرب التي اندلعت بين السلطنتين . لم يذكر

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٤٦٥ ، ٧/ ٢٨٣) .

(٢) الصواب : محمد بن مراد بن محمد بن أبي يزيد .

(٣) يلدرم وتعني البرق أو الصاعقة لم يكن لقبا للسلطان بايزيد بن محمد الفاتح بل كان لقبا للسلطان بايزيد الأول وهو بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٨١) .

أحد منهم أن تأييد قايتباي لجم كان ردا منه على قيام السلطان محمد الفاتح بتأييد علي دولات ضد أخيه شاه بداق بل ذكروا أسبابا أخر فقد. **قال ابن إياس** : « تقلق جمجمة (جم) بن عثمان من إقامته بمصر وطلب التوجه إلى بلاده ليحارب أخيه[1] فجمع السلطان (قايتباي) الأمراء واستشارهم في ذلك . ثم أحضر جمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير فأغلط عليه الأتابكي أزبك في القول وهو لا ينتهي عن السفر إلى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء في ذلك . ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر إلى بلاده على كره منه ، وكان ذلك عين الخطأ وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها وسنذكر ذلك في مواضعه »[2]...**ثم قال ابن إياس** : « والذي استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بين السلطان وبين ابن عثمان ، أن بعض ملوك الهند أرسل إلى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند . فلما وصل إلى جدة احتاط عليها نائب جدة وأحضرها صحبته إلى السلطان (قايتباي) وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مثمنة ، فطمع السلطان في تلك الهدية وأخذ الخنجر . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . وجاء في عقيب ذلك أن علي دولات ترامى على ابن عثمان وشكا من أفعال السلطان وما يصدر منه فتعصب لعلي دولات وأمده بالعساكر »[3].

ذكر هنا **ابن إياس** أسباب الحرب ؛ وهي تأييد قايتباي للأمير جم ومصادرة هدية ملك الهند للسلطان بايزيد . ثم شكوى علي دولات للسلطان بايزيد من تضييق السلطان قايتباي عليه . وأظن أن السبب الأول هو الأصل أما السببان الآخران فكانا بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .**أما ابن طولون فقد قال** : « خرج محمد الجمجمة وجماعته من دمشق قاصدين القدس ، ثم مصر ثم الحجاز ، فحج في هذه السنة ثم جهزه السلطان وأيده بأمور على أخيه على أن يأخذ الملك منه . فخرج من مصر ، و ترك أمه وولده بها . ونزل إلى أخيه ، فلما علم به أرسل له عسكراً فكسره ، ففر إلى بلاد الفرنج . فأرسل لهم أخوه مالاً وأكرمهم ليضبطوا أخاه في بلادهم ولا يمكنوه من الخروج منها . وهذا كان السبب في معاداة ملك الروم

(١) كذا بالأصل والصواب أخاه .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٩٢) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) .

لسلطان مصر . ومع أن ملك الحبشة[١] أرسل له هدية لها قيمة كثيرة . منها سنجق بقصبة ماس يساوي مجموعها ثلاثين ألف دينار ، فغار منها سلطان مصر فأهداها له . ولم يهنئه بالملك قبل ذلك . ومات أخوه ولم يرسل يعزيه في موته فتأكدت العداوة »[٢].

أما سعد الدين أفندي فقد قال : « أرسل (السلطان الفاتح) إلى سلطان مصر يستأذنه في إصلاح البرك الممدة للمياه لحجاج المسلمين في مسالك الحجيج وقصد بذلك مرضات الله رب العالمين وأرسل ذا القدر علاء الدولة بخصوص هذه الأشياء[٣] فأظهر سلطان مصر المنع .. وعلى الخصوص لما ظهر الآن أخوه سلطان جم شلبي ودخوله مصر وإلقاء (قايتباي) الفتنة في بلاد الروم ومساعدته له بتوسن الأقدام . وكان في إلقاء الفتنة ساعي[٤] والجانب السلطان غير مراعى . ومنها أيضا لما تغلبت سلاطين مصر وأخذوا أدنه وطرسوس من أيدي مالكيها ، وتغلبت العمال بالظلم على تلك النواحي ، وأضروا بحجاج بلاد الروم . وكانوا يأخذون منهم المكوس وأظهروا أنواع البدع . وكذلك وقع أيضا ما بين بلاد الروم وبلاد الشام ما أضرت بها العمال ومدوا أيديهم بالتعدي للفقراء والمساكين وأضروا بحجاج المسلمين أيضا . وكثر التشكي من ذلك فتحرك حضرة السلطان بايزيد بسبب هذه الدواعي »[٥].

وقد نقلنا قول الحافظ السخاوي من قبل على هذه الواقعة فلا داعي للإعادة . وقد تعمدت أن أنقل كل هذه النصوص من مصادرها قطعا للشك باليقين ودرءا لأي شبهة ما ، مستدلا بأن رؤية المؤرخين المماليك والعثمانيين على حد سواء لأسباب الحرب ليس فيها أي ذكر على الإطلاق لما زعمه بعض أساتذة التاريخ ، من أن تأييد السلطان قايتباي للأمير جم كان ردا منه على تأييد محمد الفاتح لعلي دولات ضد أخيه شاه بداق .

نرجع مرة أخرى إلى نفس السؤال : لماذا أيد الأشرف قايتباي الأمير جم ضد أخيه السلطان

---

(١) ذكر سائر المؤرخين أنها كانت من ملك الهند .

(٢) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٤٢) .

(٣) كان ذلك عام (٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م) كما ذكرنا . أي قبل أن يتولى علي دولات إمارة دلغادر بأكثر من عشرين عاما وقد يكون ذهب في تلك المأمورية كمبعوث خاص للسلطان محمد الفاتح .

(٤) كذا بالأصل والصواب ساعيا .

(٥) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٩١) .

بايزيد ، مضحيا بعلاقاته الحسنة مع دولة قوية كالسلطنة العثمانية ؟!. الذي يبدو لي أن السلطان قايتباي قد شعر بالغيرة من تعاظم قوة الدولة العثمانية وعلو شأنها بين بلاد المسلمين ، وارتفاع الثناء والمديح لها إلى عنان السماء . وصار المسلمون في كل مكان تلهج ألسنتهم بمدح الدولة العثمانية والثناء على سلاطينها ، لأنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي كانت ترفع راية الجهاد . وقد فتحت الفتوحات العظيمة في القسطنطينية وفي ألبانيا وفي الصرب وفي رومانيا وفي اليونان وفي إيطاليا ، في الوقت الذي كانت السلطنة المملوكية التي تحمى الحرمين الشريفين وبيت المقدس ، قد وصلت إلى حد من الخمول لم تعد فيه قادرة على إحراز أي إنجازات عسكرية أو سياسية . لاسيما دولة المماليك الجراكسة وبدايتها عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م ونهايتها ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. فخلال هذه الفترة الطويلة لا نرى لها أي إنجاز باستثناء فتح قبرس عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م في عهد السلطان الأشرف برسباي . وهي أرض صغيرة يبلغ طولها ٢١٠ كيلومتر وأكبر عرض لها ٨٠ كيلومتر[1] ومساحتها ٨٩٩٥ كيلومتر مربع . في حين أن فتوحات العثمانيين في أوروبا في تلك الفترة فقط قد بلغت ١ ٤١٢٠٠٠ كيلومتر مربع . فقد كانت مساحة الدولة العثمانية عند وفاة السلطان مراد الأول في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م ٥٠٠ ٠٠٠ كيلومتر مربع منها ٢٩١ ٠٠٠ كيلومتر مربع في أوروبا . أما عند وفاة السلطان محمد الفاتح عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م كانت مساحتها قد بلغت ٢ ٢١٤٠٠٠ كيلومتر مربع منها ١ ٧٠٣٠٠٠ كيلومتر مربع في أوروبا . وفي ذلك إشارة واضحة للفرق الشاسع بين أداء الدولتين . وحقيق بالسلطان المملوكي أن يغار من السلطان العثماني . بل إن الأمر وصل في عهد الأشرف قايتباي إلى أن السلطنة المملوكية لم تعد قادرة على قمع تمرد من إمارة صغيرة تتبعها وهي إمارة دلغادر . عندما وقع القتال بين الأمير شاه سوار وبين السلطان قايتباي كما قدمنا . ويبدو أن الأمير يشبك المملوكي أراد أن يمحو الصورة الهزيلة التي ظهرت بها الدولة في حربها مع شاه سوار . فما أن حسن له بعض الأعاجم الهجوم على دولة آق قويونلو (الشاه البيضاء) حتى وافقه وأقنع السلطان بذلك . فقد قال ابن إياس في حوادث ٨٨٥هـ : « فحسن له بعض الأعاجم بأن مملكة أوزون حسن سايبة والعسكر مختلف على ابنه يعقوب ،

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٧٦) .

ومتى حاربتهم لا يقوى على محاربتك وسلموك مملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يشبك إلى هذا الكلام وسأل السلطان في السفر بنفسه »[1].

ولكن تلك الأماني قد ذهبت هباء ، فقد منيت السلطنة المملوكية بهزيمة فادحة من دولة الآق قويونلو . وهي دولة يفترض أنها أدنى منها في المكانة والهيبة . فقد هزمت السلطنة المملوكية هزيمة منكرة سماها **ابن إياس** : « كائنة عظيمة طامة » . وليت تلك الهزيمة كانت من الجيش الكبير الذي يقوده ملك آق قويونلو نفسه ، بل كانت من أمير الرها التابع له . وقد قتل في هذه المعركة الأمير برد بك نائب طرابلس وعدد كبير من أمراء مصر والشام وأسر الأمير يشبك الدوادر وقتل بعد ثلاثة أيام ، كما أسر نائب الشام قانصوه اليحياوى ونائب حلب أزدمر ونائب حماه جانم الجداوى وبرسباي حاجب الحجاب وغيرهم من أكابر أمراء المماليك[2]. مع العلم أن هذه الدولة « آق قويونلو » كانت قد تعرضت لهزائم كبيرة من السلطان محمد الفاتح عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م . فر فيها سلطانهم أوزون حسن أمام جيش السلطان محمد الفاتح ، وأجبر على عقد معاهدة يعترف فيها بالفتوحات العثمانية ويتعهد بعدم الهجوم على الدولة العثمانية أبدا . كما ذكرناه في الباب الأول . وكل ذلك يبين لنا بلا ريب مدى الضآلة التي شعر بها السلطان المملوكي تجاه الدولة العثمانية . وقد قال **ابن إياس** في ذلك : « وقد طمع غالب ملوك الشرق في عسكر مصر بموجب ما وقع لهم مع سوار وبايندر (أمير الرها) وغير ذلك من ملوك الشرق »[3].

وقد أظهر السلطان قايتباي مدى غيرته من السلطان العثماني بايزيد ، بوضوح ، عندما قام بمصادرة الهدية التي أرسلها ملك الهند إلى السلطان بايزيد ، لما مر حاملها بجدة ، ولم يرسلها إلى اصطنبول . فلما علم السلطان بايزيد بذلك غضب غضبا شديدا[4]. وقد ذكر **ابن طولون**

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٦٦) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٧٠ ، ١٧١) ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٢٦) ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ١٦٣)

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) ، حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٩١) .

أن الهدية لم تكن من ملك الهند بل من ملك الحبشة ، ولكنه ذكر بوضوح أن السلطان قايتباي غار منها وصادرها[١]. كل هذا يؤكد أن السلطان قايتباي إنها أيد الأمير جما وجهزه إلى الأناضول ليشعل الفتنة بينه وبين أخيه السلطان بايزيد ، غيرة منه بعد أن شعر بضآلة الحال الذي آلت إليه دولة المماليك في تلك الفترة . أما بشأن الأسباب الأخرى التي ذكرها المؤرخون ومنها مطالبة عمال الدولة المملوكية لقوافل الحجاج العثمانية بدفع المكوس عند المرور . وتعدييهم على أهالي طرسوس وأدنه[٢]. وكذلك تعدى بعض عشائر العربان على قوافل الحجاج داخل الأراضي المملوكية . فطلب العثمانيون الإذن من سلطان مصر بإرسال جنود لتأمين قوافل حجاجهم فأبى أن يأذن لهم[٣]. فأظن أنها أسباب ثانوية ، وأظن أن السبب الأول في ذلك الصراع هو إيواء السلطان قايتباي للأمير جم الخارج على أخيه . ولولا ذلك لما وقعت الحرب أصلا . مما يدعو إلى العجب أن معظم أساتذة التاريخ قد تغاضوا عن هذا السبب الرئيس في الحرب و ذكروه عرضا . فمثلا د.سعيد عاشور ، فقد أفاض في شرح ما سماه تنافس السلطنتين على إمارتي قرمان ودلغادر . وهو ما بينا بطلانه آنفا ثم قال : « وازدادت العلاقات توترا بين سلطنتي المماليك والعثمانيين عندما رحب قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم . وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه . ولم يلبث التنافس بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلا سافرا فأخذ السلطان بايزيد يمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلغادر الخارج على سلطنة المماليك ١٤٨٣ وساعده بجنود عثمانية في الإغارة على نيابة ملطيه التابعة للمماليك »[٤].

قلت : لقد شوه د.سعيد عاشور الحقائق التاريخية تشويها لا يغتفر وذلك من ثلاثة أوجه :

١- زعم د.سعيد أن الأمير جما هرب خوفا من أن يذبحه أخوه . وهذا باطل كما ذكرنا .

---

(١) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٤٢) .

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٩١) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٩) .

(٤) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٧٠) .

بل إن الأمير جم تمرد على أخيه ونازعه السلطنة وأراد أن يقسم الدولة بل وقاتل أخاه السلطان . فلما هزم فر إلى مصر. ولكن د.سعيد عاشور صور الأمر كما لو أن الأمير جما كان قابعا في بيته فأراد السلطان بايزيد أن يتخلص منه فهرب إلى السلطان قايتباي .

٢- لم يذكر د.سعيد أن السلطان قايتباي أيد الأمير جما على أخيه مخالفا بذلك مشورة أمرائه . بل اكتفي بالقول أن السلطان قايتباي رحب بالأمير جم . وهذا بتر للحقيقة . لأن إقامة الأمير جم في القاهرة في حد ذاتها لم تغضب السلطان بايزيد . والدليل على ذلك ما أورده أحمد فريدون بك في منشآته من أن الأمير جما إبان إقامته في مصر أرسل إلى أخيه يسأله تخصيص بعض المناطق له في الأراضي العثمانية . فرفض السلطان بايزيد ذلك وعرض عليه أن يبقى عند المماليك وأن يخصص له مرتبا سنويا قدره مائة ألف آقجه . لكن الأمير جم رفض ذلك[١]. فلم يكن غضب السلطان بايزيد بسبب إقامة جم في مصر ، بل لأجل سماح السلطان قايتباي له بالخروج من مصر لقتاله وإعانته على ذلك .

٣- ذكر د.سعيد أن السلطان بايزيد أعان علي دولات في الهجوم على نيابة ملطيه المملوكية . ولم يذكر أن ذلك كان بعد تأييد السلطان قايتباي الأمير جم ثم مصادرته لهدية ملك الهند المرسلة إلى السلطان بايزيد ثم شكوى علي دولات من أفعال السلطان قايتباي . فكانت تلك الشكوى بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . قال ابن إياس بعد أن ذكر مصادرة هدية ملك الهند : « علي دولات ترامى على ابن عثمان وشكا من أفعال السلطان (قايتباي) وما يصدر منه فتعصب لعلي دولات وأمده بالعساكر »[٢].

والحقيقة أن د.سعيد عاشور قدم السلطان قايتباي على أنه الحمل الوديع الذي لم يفعل شيئا سوى حماية الأمير جم من أخيه . وأن السلطان العثماني بايزيد هو الذي بدأ بالعدوان . والحق أن الأمر ليس كذلك كما بينا . وقد تحدث أيضا بنحو ذلك د.محمد عبد المنعم الراقد فبعد أن أطنب إطنابا في ذكر التنافس على إمارتي قرمان ودلغادر ثم قال : « ومما زاد من حدة النزاع وأثار غضب السلطان العثماني بايزيد الثاني ، التجاء أخيه جم ومنافسه على العرش إلى

---

(١) نقلا عن د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٦٨) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٢١٥) .

السلطان قايتباي الذي قبل وفادته بل واحتفل به عام ١٤٨٢م وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج . ولذلك عندما تدخل في الصلح بين جم وأخيه بايزيد الثاني رفض الأخير على الفور مقترحات قايتباي وخرج جم من القاهرة لغزو آسيا الصغرى »[1].

قلت : إن د.الراقد في غاية الحذق فهو يذكر الأحداث بأسلوب يحتمل التأويل على أكثر من وجه ومع ذلك فهو باطل من وجهين :

١- ذكر د.الراقد بوضوح أن السلطان قايتباي رحب بالأمير جم واحتفل به وجهزه للحج . ولكنه لم يذكر صراحة أن السلطان قايتباي أيده على أخيه بل اكتفي بقوله (خرج جم من القاهرة لغزو آسيا الصغرى). فكلامه قد يعنى أنه خرج مدعوما من حكومة القاهرة ، وقد يعنى مجرد تحديد الموقع الجغرافي للمكان الذي خرج منه جم . فلماذا لم يذكر صراحة أن السلطان قايتباي قدم له دعما في تلك الحرب ..؟! ولماذا لم يذكر صراحة أن الأمير جما خرج لقتال أخيه ونزع الملك منه ..؟! وإنما كنى عن ذلك بقوله (غزو آسيا الصغرى). لماذا هذا الغموض ..؟! إن من يقرأ كلام د.الراقد دون أن يكون على علم مسبق بحقيقة سير الأحداث ، فمن المؤكد أن الأمر سيلتبس عليه . فهل هذا هو غرض د.الراقد ..؟! لاسيما أنه تحدث عما سماه التنافس بين العثمانيين والمماليك على إمارة دلغادر في سبع صفحات كاملة . فهل هذا هو غرض د.الراقد أم أنه نقل هذه الأفكار من كتب المؤرخين الأوروبيين دون أن تكون له رؤية فيه ؟! ليس هذا تجنيا مني على د.الراقد فقد ذكر هو بنفسه في مقدمة كتابه أنه استقى معلوماته عن الدولة العثمانية من كارل بركلمان ومن فيليب برايس[2].

٢- زعم د.الراقد أن السلطان قايتباي تدخل للصلح بين السلطان بايزيد وأخيه الأمير جم . فلما لم يقبل السلطان بايزيد الصلح خرج الأمير جم من القاهرة لغزو آسيا الصغرى . ولست أدرى من أين جاء د.الراقد بهذا الكلام . فلم يرد ذلك في المصادر التاريخية إطلاقا ، لا في العربية منها ولا في التركية . ولم يسند د.الراقد تلك المعلومة إلى أي مصدر تاريخي . ولكن لعله يقصد رسالة الأمير جم إلى أخيه المذكورة آنفا والتي طلب فيها أن تخصص له بعض

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٠٠) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٥) .

المناطق في الأراضي العثمانية فرفض بايزيد ذلك : فإن كان د.الراقد يقصد ذلك حقيقة ، فقد أخطأ بقوله أن السلطان بايزيد رفض الصلح . بل الصواب أن يقول أن الأمير جما هو الذي رفض. فلم تكن مطالبه قابلة للتنفيذ أصلا وإن كانت تلك مقترحات السلطان قايتباي للصلح فهو أدعى لأن ترفض . وأي سلطان آخر مكان بايزيد كان سيرفض تلك المطالب . فسواء أكان طلبه تقسيم السلطنة أو حتى أن يكون حاكما على بعض الإمارات يعد خطرا كبيرا على مستقبل السلطنة . فان كان جم قد قام بإعلان نفسه سلطانا بالأناضول وضرب السكة باسمه ودعا لنفسه على المنابر مرة من قبل ، فمن الجائز أن يقوم به مرة أخرى . فلم يكن السلطان بايزيد ليجازف بذلك ويضع السلطنة في مهب الريح .

أما د.**عمر عبد العزيز** فقد تحدث عما سماه الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين في الإمارات التركمانية ، وتدخل السلطان محمد الفاتح في دلغادر في صفحتين إلا قليلا . واعتبر فيها أن تأييد قايتباي للأمير جم كان رد فعل على التدخل العثماني في دلغادر . وعندما تعرض لواقعة الأمير جم قال : « حصل السلطان محمد الثاني على درجة كبيرة من النفوذ في ألبستان (دلغادر) التي قاطعها المماليك . وعندما مات محمد الثاني في السنة التالية أيد السلطان المملوكي قايتباي الأمير جم ضد بايزيد وبذلك تحولت الاحتكاكات المستمرة على الحدود إلى حرب »[1].

أما د.**صلاح هريدي** فقد ذكر تأييد البسلطان قايتباي للأمير جم باستفاضة وبوضوح ولكن تحت عنوان (**لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك**). دون أن يذكر أن ذلك كان أهم أسباب الحرب . فلما جاء على ذكر الحرب ذكر ذلك السبب عرضا كما لو كان سببا ثانويا ، إذ **قال** : « كان دعم السلطان قايتباي للأمير جم سببا مهما في تأزم العلاقات المملوكية العثمانية التي انتهت بعد توتر دام ثلاث سنوات زال في نهايتها خطر الأمير باصطدامات مسلحة بين الطرفين »[2]. هكذا ذكر د.صلاح خبر الحرب مجملا على عجل. ثم ذكر كلاما غريبا ليس له أي محل في الأحداث التاريخية **فقال** : « هكذا نرى كيف أن المساعدة التي قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين . عندئذ قرر بايزيد الثاني الانتقام

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٨) .
(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣٩ ، ١٤١) .

من قايتباي بالتحرش ببقايا الدولة التيمورية في إيران التي كان قايتباي قد حالفها »[١].

قلت : هذا الكلام ليس له أي معنى .! هل يقصد ببقايا الدولة التيمورية في إيران دولة آق قويونلو . فإن كان هذا قصده فهذا لم يحدث فمنذ أن انتصر السلطان محمد الفاتح عليهم عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م لم تدر بينهما أي حروب. ثم إن قايتباي لم يتحالف معهم أصلا . وإن كان د.صلاح يقصد الدولة الصفوية فهذا لا يصح أصلا لأنها ظهرت عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م أي بعد وفاة قايتباي ببضع سنوات . ولم يتحالف المماليك معهم إلا في أواخر أيامهم في زمن السلطان قانصوه الغوري . لذلك فإن كلام د.صلاح المذكور آنفا عبارة عن تخاليط وغير قابل للفهم أصلا . ولست أدرى ما علاقته بالحرب بين بايزيد وقايتباي . ثم إن د.صلاح هريدي عندما تحدث عن اندلاع الحرب العثمانية المملوكية تحت عنوان (العلاقات المملوكية العثمانية) فإنه قد تحدث باستفاضة عما سماه بالصراع العثماني المملوكي على إمارة دلغادر . ثم ذكر بعده اندلاع الحرب بتفاصيلها . دون أن يذكر شيئا عن تأييد السلطان قايتباي للأمير جم[٢]. فأقول لماذا هذا الفصل بين الحرب وبين سببها الرئيس .؟! لماذا تذكر الحرب مجردة عن سببها . ثم يذكر السبب مجردا عن الحرب نفسها .؟!! ثم إن هناك شيئا غريبا آخر قاله **د.صلاح هريدي** : « رحب به (جم) السلطان المملوكي قايتباي . وقد حج جم في تلك السنة ليعرف المسلمين بقضيته ، وقد أخطأ قايتباي بموافقة أمراء المماليك في مصر على تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بايزيد الذي نجح في تولي السلطنة بفضل الانكشارية وكبار رجال الدولة العثمانية . على أساس تقدير قايتباي أن مد يد المعونة إلى جم في مصلحة دولة المماليك »[٣]. وقد قال **د.أحمد فؤاد متولي** كلاما شبيها : « طلب جم المساعدة من قايتباي لكي يتمكن من العودة إلى دياره . عقد السلطان المملوكي مجلسا حضره كل أمرائه وطرح عليهم الموضوع . فوافقوا بحجة أنه إذا حدثت اضطرابات في الأناضول فستكون في مصلحة المماليك . وعارض الأمير أزبك وحده رأيهم »[٤].

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٤١) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٤٠) .

(٤) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٦٩) .

قلت : كلام د.صلاح هريدي ود.أحمد فؤاد باطل من وجهين :

١- قول د.صلاح أن الأمير جما حج ليعرف المسلمين بقضيته . هذا وهم ولست أدرى من أين جاء به . فقد أسند تلك الفقرة من كلامه إلى كارل بروكلمان وعبد الكريم رافق وإبراهيم بك حليم ويلماز أوزتونا . وكل هؤلاء باستثناء عبد الكريم رافق ذكروا أن الأمير جما قد حج ولكن لم يذكر أحد منهم أن ذلك كان ليعرف المسلمين بقضيته . أما عبد الكريم رافق فلم يتسن لي الإطلاع على كتابه فلا أعرف ماذا قال بالتحديد . وأيا كان ما قاله فأي قضية هذه التي يعرف بها جم المسلمين .؟! أتراه سيقول لهم أنه خارج على أخيه السلطان ويريد أن يقاتله .؟! هل كان يطمع أن يجمع جيشا من الحجاج ليقاتل بهم أخاه .؟! ثم أين ذلك في المصادر التاريخية .؟!.

٢- لم يوافق أحد من أمراء المماليك على تأييد الأمير جم ضد أخيه السلطان بايزيد وإنما انفرد بذلك السلطان قايتباي وحده . وقد ذكرنا ذلك من قبل ، ولكن لا مانع من ذكره مرة أخرى **قال ابن إياس** : « تقلق جمجمة (جم) بن عثمان من إقامته بمصر وطلب التوجه إلى بلاده ليحارب أخيه[١] فجمع السلطان (قايتباي) الأمراء واستشارهم في ذلك . ثم أحضر جمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير فأغلط عليه الأتابكي أزبك في القول وهو لا ينتهي عن السفر إلى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء في ذلك . ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر إلى بلاده على كره منه وكان ذلك عين الخطأ . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها وسنذكر ذلك في مواضعه »[٢].

فهل يفهم من كلام ابن إياس أن جميع الأمراء رأوا تأييد الأمير جم إلا أزبك . كما زعم د.أحمد فؤاد ؟! بالله عليكم إن هذا لكلام عربي . وأي شخص عامي يستطيع أن يفهم منه أن أمراء المماليك نهروا الأمير جما لاسيما أزبك الذي أغلظ له القول .. ثم إليكم قول **السخاوي** وقد ذكرناه من قبل ولكن لا مانع من الإعادة لأن الكلام العربي المباشر أصبح يساء فهمه في هذا الزمان . فقد **قال السخاوي** : « ولما رجع (جم) كاتبه أحد أمرائهم مغريًا له على أخيه .

---

(١) كذا بالأصل والصواب أخاه .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ١٩٢).

ووعده بالقيام في خدمته . فاستمهله السلطان ليجهز معه عسكرًا . فما وافق جل الأمراء على ذلك . بل أشار تغري بردي ططر لايداعه إسكندرية حتى تسكن الفتنة فما تم »[١].

فهذا تصريح من السخاوي أن جل الأمراء لم يوافقوا على تأييد الأمير جم ضد أخيه. وأن تغري بردي رأي إيداعه الإسكندرية . فهل يصح أن يقول د.صلاح أن كل الأمراء وافقوا على تأييد جم . وأن يقول د.أحمد فؤاد متولي أن كلهم وافقوا على تأييد جم إلا الأمير أزبك .؟! أريد أن يذكر لي اسم أمير مملوكي واحد فقط ، كان رأيه تأييد الأمير جم ضد أخيه ... ولكن الحقيقة المرة أن أساتذة التاريخ ليسوا من هواة قراءة المصادر التاريخية الأصلية . بل يكتفون بقراءة المراجع المتأخرة فهي أسهل وأيسر لمن أراد أن ينقل دون أن يتعب نفسه في البحث والتمحيص .

لربما يقول لي قائل ، إن كلام د.صلاح ود.أحمد فؤاد متولي يدين المماليك ويرفع من شأن العثمانيين ، إذ يبين أن جميع الأمراء المماليك أرادوا إفساد أحوال السلطنة العثمانية. فكان حري بك ألا تنكر عليهم ذلك لأن قولهم هذا في صالح القضية التي تدافع عنها .

قلت : إن الأمانة العلمية تقتضي طرح الحقائق بكل صراحة سواء أوافقت هوانا أم لم توافقه . ويجب أن يأخذ كل ذي حق حقه . وأنا لست ممن يدافعون عن العثمانيين هكذا بحق أو بباطل . وأن لست متحيزا لطرف ضد طرف . وإنما أبحث عن الحقيقة أيا كانت . والذي دفعني للحديث في أمر الحرب العثمانية المملوكية بين بايزيد وقايتباي ، هو أنني وجدت أن أساتذة التاريخ يلوون أعناق الأحداث ويقومون بتأويل الوقائع ، ليظهر العثمانيون بمظهر المعتدي على الدولة المملوكية بغير سبب . فأردت أن أبين الحقيقة بلا مداهنة ولا رياء . أسأل الله أن أكون قد وفقت في ذلك .

---

(١) محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١١/ ١٤٧) .

الفصل الخامس

السلطان سليم الأول

إن السلطان سليم الأول هو أحد أجل سلاطين بني عثمان وقد تعرض لكثير من حملات التشويه لاسيما فيما يتعلق بفتحه مصر والشام ، بالرغم من أن هذا الفتح العظيم كان أجل أعماله على الإطلاق . ولو كان السلطان سليم حيا بين أظهرنا ، لكان حقيق علينا أن نحمله فوق الأعناق ، ولكننا ما قابلنا الإحسان إلا بالإساءة ، وراح العاوون والناعقون يطعنون على السلطان سليم بسبب وبغير سبب ، وسأحوال في السطور التالية أن أفند أهم تلك المطاعن . ومن المؤسف أن تلك المطاعن لم تخرج من أولئك العاوين والناعقين فحسب بل خرجت أيضا من أساتذة التاريخ الذين يفترض فيهم أنهم حراس على تاريخ هذه الأمة .

الزعم بقتال السلطان سليم لأبيه وخلعه

ذكرنا في الباب الأول شيئا من الأخطار التي كانت تعصف ببلاد المسلمين في تلك الفترة ، وأهمها الخطر الشيعي الرافضي الذي ظهر في فارس وامتد إلى العراق وشرق الأناضول ، ويواصل التمدد غربا ، وخطر البرتغال الذين سيطروا على البحر الأحمر والبحار الهندية والخليج العربي ، وخطر الإسبان الذين سيطروا على شطر كبير من ساحل شمال إفريقيا ويواصلون التوجه شرقا نحو مصر والشام ، وكان العالم الإسلامي كله آنذاك تحيط به هذه الأخطار شرقا وغربا وجنوبا ، وكانت الدولة الإسلامية الوحيدة التي تستطيع دفع تلك الأخطار هي الدولة العثمانية ، ولكن الأوضاع الداخلية فيها لم تكن على ما يرام فقد سيطر المرض الوراثي في آل عثمان – النقرس – على السلطان بايزيد ، فضلا عن تقدمه في السن فأقعد عن القيام بمهامه السلطانية وأصبح كل شيء في يد الوزراء ، **قال سعد الدين أفندي** : « لما تكاثرت الأمراض على والده السلطان بايزيد وضعفت من الحركات قواه وتقاعد عن السفر والغزو والجهاد ، سلم أمور المملكة إلى الوزراء »[1].

حتمت تلك الأوضاع على السلطان بايزيد أن يعهد لأحد من أبنائه بولاية العهد ليتولى مهام السلطنة ، وكان التنافس محصورا بين الأمراء الثلاثة وهم الأمير أحمد والأمير قورقود والأمير سليم وفقا لترتيب أعمارهم ، وكان الوزراء يفضلون الأمير أحمد على سائر إخوته

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، (ورقة ١٠٣) .

لأنه كان ضعيفا يسهل عليهم السيطرة عليه ، وكانوا أشد بغضا للأمير سليم لما عرف عنه من الحزم وشدة البأس وقوة الشكيمة ، وكان كل أمير من الأمراء الثلاثة حاكما على إحدى ولايات الأناضول ، وقد عمل الوزراء بطرق مختلفة على التضييق على الأمير قورقود ومنها عدم قضاء حاجات الناس من رعايا ولايته التي يحكمها ، حتى نفر الناس منه ، **قال سعد الدين أفندي** : « كان (قورقود) إذا عرضت له حاجة عند أبيه لم يكترث بها أحد من الوزراء ، ولم تقض له حاجته ، وكان أخوه السلطان أحمد حاجته مقضية وأموره مرعية ، ووزراء الدولة لهم الميل الكلي إلى جانبه ، فبقي في خواطر قورقود شيئا من ذلك ، وأهل البلد التي تحت نظره أنفوا من ذلك لأن أمورهم ومصالحهم غير مقضية ولا مرضية عند أبيه » . ولما ضاق الأمير قورقود بهم ذرعا أرسل إلى أبيه يطلب منه أن ينقل إلى ولاية « صاروخان » فلم يجب الوزراء طلبه ، فغضب وترك البلاد وركب البحر إلى مصر ، وأقام عند سلطانها قانصوه الغوري في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م وحج في تلك السنة ، ثم عاد إلى بلاده مرة أخرى[١].

أما بالنسبة للأمير سليم فلم يكن حاله مختلفا عن حال أخيه قورقود ، فقد كان أميرا على طرابزون ، وكانت أطماع الشاه إسماعيل الصفوي الرافضي بدأت تظهر ، فقد شن حملة على إمارة دلغادر التابعة للمماليك عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م وكان أميرها يومئذ علي دولات جد الأمير سليم لأمه ، فبدأ الأمير سليم يهاجم كورجستان واستطاع أن يفتح عدة بلاد فيها ، ولما أرسل له الشاه إسماعيل جيشا بقيادة أخيه ميرزا إبراهيم ، استطاع الأمير سليم أن ينتصر عليه بل وأسره أيضا ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول ، ولكن كان الوزراء العثمانيون يهادنون الشاه الصفوي ويتجنبون الدخول في صراعات عسكرية معه ، فلما أرسل الشاه رسالة إلى السلطان بايزيد يحتج فيها على أعمال الأمير السليم ، فرد الديوان على ذلك برسالة إلى الأمير سليم عن لسان والده بأن يطلق سراح الأسير وأن يخلي أرزنجان وبايبورت وكماخ وإيسبر ، وأن يسلمهن للصفويين ، أثار ذلك الأمر استياء الأمير سليم ورجال الجيش على حد سواء ، وشعر الأمير سليم بعظم الخطر الذي يتهدد الدولة من قبل الشاه الصفوي ، فأرسل رسالة إلى الديوان جاء فيها :

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٢) .

« إن الفتنة والفساد نشأ من عدم مبالاتكم ، لهذا علينا أن نتدارك أحوال البلاد ، لابد أن يصيبكم من تساهلكم في هذا الشأن أنواع من الضرر والعقوبات في الدنيا والآخرة ، ينبغي أولا التفكير فيما يلزم عمله وما ينبغي اتخاذه حاليا نحو التساهل في تدارك أحوال البلاد »[١].

لم يكثرت الوزراء برسالة الأمير سليم فأرسل إلى أبيه السلطان بايزيد رسالة جاء فيها : « لقد خرجت المملكة بالكلية من الأيادي ، وخربت وليس هناك شيء مناسب أو ملائم فيها ... والمتوقع أن تعد هذه القضية من قضايا الجزاء ، ولا يجوز أصلا الإهمال والتساهل في هذا الخصوص ، إنها من القضايا التي يجب على كافة المسلمين دفعها ، وتأخير حلها يؤخر المصلحة فلنتدارك هذه القضية لكي تكون سببا في حياة حضرة السلطان الدنيوية ومثوباته في الآخرة »[٢].

لم تكن الحالة الصحية للسلطان بايزيد تسمح له بالبت في الأمور ، مما أغضب الأمير سليم حتى أصبح لا يطيق الإقامة على الحدود مع الصفويين وهو عاجز عن قتالهم ، فأرسل رسالة إلى الديوان يطلب فيها أن ينقل من طرابزون إلى الروميلي ليقاتل المجر ، فلم يجيبوه إلى ذلك . فما كان من الأمير سليم إلا أن ترك طرابزون من تلقاء نفسه وذهب إلى القرم عند أصهاره وعند ابنه سليمان عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م ، وقيل أن الوزراء حينما أضافوا إلى أخيه الأمير أحمد إمارة قره حصار علاوة على ولاية أماسيه التي كانت بيده وأصبح الأخوان متجاورين في ولايتيهما ، طلب الأمير سليم أن ينقل من طرابزون فأجابوه وأبعدوه إلى القرم[٣].

فأرسل الأمير سليم رسالة من « كفه »[٤] إلى الصدر الأعظم يطلب أن يتولى صَنجق سلستره[٥] ، وجاء فيها : « بعد أن توجهنا إلى كفه المحروسة قررنا عدم العودة إلى ولاية الأناضول وعقدنا العزم على ذلك ... يرجو مخلصكم هذا رجاء الواثق أن تخلوا سبيله عن

---

(١) وثيقة في أرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول برقم (١٣ – ٦١٨٥ E) ، ترجمها د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ٩٧) .

(٢) وثيقة في أرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول برقم (٨ – ٦١٨٥ E) ترجمها د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ٩٩) .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. (ورقة ١٠٢ ، ١٠٣) .

(٤) ميناء في جزيرة القرم على ساحل البحر الأسود .

(٥) حاليا في شمال شرق بلغاريا على نهر الدانوب على الحدود مع رومانيا .

تولي حكم ولاية الأناضول . يتضح سعيكم الجميل وهمتكم الجزيلة في تلبية طلبي والوفاء بأمنية محبكم هذا وتعيينه في صنجق سلستره ، أو منحه أي مكان آخر في الروميلي ، وبعد هذا أنا مستعد لمقاتلة الأشرار وخوض أية حرب في أي مكان ضد الأعداء حسبما يصدر الفرمان السلطاني الواجب التنفيذ »(١).

لم يوافق الديوان على طلب الأمير سليم ، فازداد غضبا لاسيما بعد أن تم تعيين الأمير أحمد قائدا لعسكر الأناضول وقائدا لعساكر « قبو خلقي » . في تلك اللحظة وضحت الصورة للأمير سليم وأدرك نوايا الوزراء وعملهم على التضييق عليه لتخلو الساحة للأمير أحمد ، ولكن في ظل تلك الظروف والأخطار التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي بصفة عامة وبالدولة العثمانية بصفة خاصة ، لم يكن الأمير أحمد يصلح للسلطنة على الإطلاق ، ولم يكن لها إلا الأمير سليم ، فلم يكن أخواه على ذلك القدر من القدرة العسكرية والدهاء السياسي والحزم الإداري الذي اتصف به هو . فقد كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يقبض على زمام الأمور ويعبر بالدولة بحر المخاطر ذا الأمواج المتلاطمة من الأخطار الحالكة والفتن المظلمة ، وكان للأمير سليم منزلة كبيرة لدى رجال الجيش ، وكذلك لدى أهالي القرم إذ أن أهلها رفعوه مكانا عليا بسبب انتصاراته الساحقة على الصفويين ، الأمر الذي أثار استياء الوزراء فعمدوا إلى الإيقاع بينه وبين أبيه ، فهيؤا للسلطان أن الأمير سليما ينوي رفع راية العصيان والاستقلال عن السلطنة ، قال سعد الدين أفندي : « عرضوا على حضرة السلطان وزخرفوا له زخارف الكذب ، وقالوا له إن ابنك سليما ليس بلايق أن يكون أميرا في بلاد الروميلي ، والآن اجتمعت عليه أقوام الفساد وأهل الأغراض ويحدث من هذا حوادث ، فالأولى والأليق أن يرجع إلى بلاد الأناضولي ، ونقطعه بلادا أخرى ، ونأمن غائلة القتال وادعاء الاستقلال ، وكلاما يشبه هذا ظاهره صلاح وباطنه فساد فوافقهم السلطان على ذلك»(٢).

ومن جهة أخرى علم الأمير سليم أن أباه ينوى أن يعهد بالأمر لأخيه أحمد ، فعزم على أن يحول دون ذلك ، ولكن ليس بقتال أبيه كما زعم أساتذة التاريخ ، ولاستجلاء حقيقة الأمر

---

(١) وثيقة في أرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول برقم (٧ - E ٦١٨٥) ترجمها د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ١٠٠).

(٢) حسين خوجه بن على : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٣).

سأعتمد على رواية سعد الدين أفندي ، لأن أباه حسن جان كان مرافقا لركاب الأمير سليم ، كما أنه اعتمد في روايته على تاريخ نشري وتاريخ المولى إدريس البدليسي الذي كان مرافقا لركاب السلطان سليم أيضا . كما اعتمدت على بعض الوثائق الأخرى ، منها رسالة أرسلها الأمير سليم إلى الديوان يعاتبهم فيها على إهمال أمره والعناية الفائقة بالأمير أحمد ، ويلومهم على إيقاع العداوة بينه وبين أبيه السلطان بايزيد ، ومما جاء في الرسالة :

« اهتمام أكابر الدولة وأعيانها وعنايتهم بهذا الضعيف (يعني نفسه) قاصرة على الدوام لأنهم يهبونه المناطق غير المناسبة . أما أميري أحمد فإنهم يهتمون به ويعتنون ... عين أميري سلطان أحمد قائدا لعساكر قبو خلقي وعساكر الأناضول وتقرر منحه السلطنة ... إن منية هذا الضعيف (يعني نفسه) أن يسوى عظمة السلطان بين أبنائه في الحب وما يعهد إليهم به . فيعين لهم جميعا ولاية الأناضول أو ما يناسبني أنا فيكون في الروميلي ... كل هم هذا الضعيف بكل ما أوتي من قوة لدفع الظلم والفتور والمحافظة على نظام المملكة ، ولأني وجهت نشاطي لوضع دين الإسلام ومساعي الآباء والأجداد العظام في مكانها الصحيح ، فلحسن هذه النية والأماني ينسب الأعداء العصيان مرة أخرى لهذا الضعيف (يعني نفسه) أمام السلطان ويقولون له (لقد جرد العساكر وسار بها إلى مقر السلطنة) إن هذا الشخص (يعني نفسه) من آل عثمان حكم صنجقا لمدة خمسة وعشرين عاما وانشغل بالغزو والحرب ومقاتلة أعداء الدين ومجادلتهم .... »[1].

كان آخر رسول أرسله الوزراء إلى الأمير سليم في القرم لما عاد من عنده ودخل على السلطان بايزيد وأخبره أن الأمير سليما أحسن استقباله وأنه مطيع لأبيه ومنقاد إليه وقلوب الناس تميل إليه ، فما كان من السلطان بايزيد إلا أن جمع الوزراء وأطلعهم على شهادة ذلك الرسول وهم بأن يجعل ولاية العهد للأمير سليم إلا أن الوزراء لما رأوا منه ذلك ذكروه بأمر الأمير أحمد وما كان قد وعده به من أن يكون ولي عهده فسكت السلطان بايزيد[2] ، فلما أصر

---

(١) وثيقة في أرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول برقم (٥ - ٦١٨٥ E) ، ترجمة د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ١٠٢ - ١٠٤) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، (ورقة ١٠٣) .

الوزراء على عودة الأمير سليم إلى الأناضول وأرسلوا إليه بذلك رسائل عن لسان أبيه ، أيقن سليم أنه لا مفر من أن يأتي إلى اصطنبول بنفسه ليقابل أباه ويتحدث إليه مشافهة ، فرد على الوزراء يخبرهم بذلك ، وأنه سيأتي إلى اصطنبول ليرى أباه السلطان بايزيد وليقبل يده ويظهر السمع والطاعة له ، فخشي الوزراء من اللقاء المرتقب بين السلطان بايزيد وابنه الأمير سليم ، ولا شك أن الأمير سليما كان يريد أن يقابل أباه ليقنعه بأنه أصلح للسلطنة من أخيه الأمير أحمد ، ولعله يستطيع أن يؤثر عليه ويحصل منه على ولاية العهد ، لذلك حال الوزراء دون هذا اللقاء . قال سعد الدين أفندي : « صدر الفرمان والأوامر السلطانية في تجهيز مراكب مشحونة بالعساكر وآلات الحروب لتكون حاضرة موقوفة للأمر ، فأما حضرة السلطان سليم فسار من الكفه وقطع البحر وسار مسرعا قاصدا لملاقاة والده لا غير ، فلما علمت الوزراء بقدومه فمما يعلمون من حدة طبعة خافت الوزراء ووكلاء الدولة من عند ملاقاته لأبيه أن يحصل لهم ما لا خير فيه ، لأنهم لهم مدة مديدة كانوا فيها هم المتصرفون[1] في أمور السلطنة على وجه الاستقلال ، من غير معارض لهم لتراكم الضعف والأسقام وهجوم الآلام على والده السلطان بايزيد فخافوا من قدومه كثيرا »[2].

وبينما الأمير سليم في الطريق وبالقرب من نهر الطونه (الدانوب) أرسل رسالة إلى الديوان يعيد فيها مطلبه بتولي صنجق سلستره ، فجاءه الرد من الديوان بتوليته على صنجق كفه في القرم بحجة أن القانون العثماني لا يسمح لأحد من الأمراء بتولي الصنقجية في الروميلي ، فأرسل لهم الأمير سليم يقسم بالله العظيم وبقرآنه الكريم أنه لن يرجع[3] ، فلما وصل الأمير سليم إلى أدرنه توقف بها أياما وجمع عددا كبيرا من الجنود وتوجه إلى اصطنبول[4] ، ويبدو أنه قد بلغته أنباء تجهيز الوزراء للعساكر وآلات الحرب ، فخشي أن تكون تلك مكيدة من الوزراء للقضاء عليه ، فرأى أن يحتاط لذلك ، وقد صدق حدسه فعلا ، فقد

(١) كذا بالأصل والصواب المتصرفين .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٣) .

(٣) وثيقة بأرشيف طوب قبو سرايي برقم (١٧ – E ٦١٨٥) ، ترجمها د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر (ص ١٠٤ ، ١٠٥) .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٣) .

حاول الوزراء الفتك به كما سيأتي . ثم تقدم الأمير سليم حتى وصل إلى قرب اصطنبول ، فأرسل أحد خواصه إلى أبيه السلطان بايزيد ، **قال سعد الدين أفندي** : « فأرسل أحد أصدق خدامه ممن يثق به إلى حضرة والده ليتكلم على لسانه ويقول له ، ما قدمت إلا لإصلاح خواطر والدي واستجلاب رضاه والتيمن بخير دعاه ، وجئت مؤتمرا خاضعا ذليلا ساعيا في رضى والدي وأشبه ذلك ، وإنا لم نجيء لقتال وإنما جئنا مؤتمرين ، فلما سمع السلطان هذه المقالات خجل وحن حنين الوالد على الولد وخلع على الرسول وصرفه بمواعيد لطيفة ».

حال الوزراء بين لقاء الأب مع ابنه ، فأرسل الأمير سليم إلى أبيه يسأله أن يوليه ولاية في الروميلي على الثغور ليجاهد فيها ، فرد عليه أبوه بأن خيره بين صنجق البوصنه أو صنجق سمندره أو صنجق الموره ، فاختار الأمير سليم صنجق سمندره ، فلما رأى السلطان طاعة ابنه وامتثاله لأوامره أضاف له صنجق ويدين وصنجق ألاجه حصار ، **قال سعد الدين أفندي** : « وكتب له عهدا مادام والدك بقيد حياته لم يجلس أحد من إخوتك مكانك . والسلطنة وديعة الله ، يوتي الملك من يشاء وهي مفوضة إلى مشيئة الله »[1].

وقد ذكر يلماز أوزتونا أن السلطان بايزيد أعطى الأمير سليم خمسة صناجق دفعة واحده وهي سمندرة ، ويدين ، ألاجه حصار ، نيقوبلو ، إيزفورنك[2].

وفي تلك الأثناء وقع في الأناضول التمرد الذي أيده الشاه إسماعيل الصفوي وتزعمه شاه قولي ، فجمع حوله الرعاع والأسافل من القزل باش ، وقتل وأحرق وسبى ، ولم يحرك الأمير أحمد ساكنا لدفع تلك الفتنة ، فخرج الصدر الأعظم علي باشا لقتاله فانتصر عليه ولكن علي باشا قتل في المعركة ، وقد حمل الأمير أحمد مسؤلية مقتله بسبب تقاعسه عن إمداده ، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في الباب الأول ، ولما وصلت تلك الأخبار إلى الأمير سليم عاد على الفور من ويدين على رأس قواته وقيل أنه لم يكن قد غادر اصطنبول بعد ، فأرسل إلى أبيه يسأله أن يمكنه من الذهاب إلى الأناضول لقتال القزل باش . فهو أعرف الناس بهم وأقدرهم على قتالهم .

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ (ورقة ١٠٣ ، ١٠٤).

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٨).

ولكن الوزراء نقلوا للسلطان بايزيد أن الأمير سليما إنما جاء بجيشه لإزاحته عن السلطنة ، وإنه إن لم يقاتل ابنه ستنزع منه السلطنة ، فوافقهم السلطان بايزيد على ذلك وبدأ القتال . إلا أن الأمير سليم آثر الفرار على قتال أبيه ، فامتطى صهوة جواده العداء « قره بلوط »[1] ولاذ بالفرار عائدا إلى القرم[2].

وقد ذكر أحمد آق كوندز ما قاله الأمير سليم لحميه خان القرم عندما عاد إليه ، ويبدو من سياق الكلام أنه لامه على فراره من اصطنبول ، فقد قال الأمير سليم : « لم نأت إلى اصطنبول حبا في السلطنة ، بل لكون والدنا مريضا مسنا ، وكونه قد أحال جميع العمل للوزراء ، وقد انتهز أعداؤنا هذه الفرصة فأوقدوا نيران الفتن والثورات ، أما أشقائي فقد اتبعوا أهواءهم وهم غير قادرين على دفع بلاء الأعداء ، إن غايتنا هي حفظ وصيانة الدين والدولة ، غير أن بعض رجال الدولة بذروا بذور الشقاق بيني وبين والدي ما العمل ؟ لقد كان هذا هو قدرنا ، وإلا فلم يكن من المناسب لنا التوجه مع الجيش ضد والدنا »[3].

كان المرض قد بلغ مداه بالسلطان بايزيد فعزم على التنازل عن السلطنة لابنه الأمير أحمد ، فاستدعاه إلى اصطنبول فلما علم الييني جري بذلك أبدوا اعتراضا لانعدام الكفاءة العسكرية عند الأمير أحمد ، قال سعد الدين أفندي : « كيف تقدم السلطان أحمد وهو معتكف على لذاته ، ومقارن السوء بمحاذاته ، وهجم العدو القزل باش ولم تكن له جرأة ولا قدرة على مدافعتهم . وجمع معه جماعة من أوباش الأتراك وهو في غاية الانهاك والإهمال ، وأمدوه من دار السلطنة بعساكر متعددة فلم يصن عرضها ولا حمى حمايتها ، فكيف تقدموه والسلطان سليم في الوجود هذا لا يكون أبدا وتحالفوا وتعاهدوا على ذلك »[4].

ثم هجموا على بيوت الوزراء المنابذين للأمير سليم ونهبوها ، وشاع الهرج في تلك الليلة ثم إنهم في اليوم التالي حاصروا اصطنبول لمنع دخول الأمير أحمد إياها ، وطافوا بالمدينة يهتفون

---

(١) قره : أسود ، بلوط : سحابه فاسم فرس السلطان سليم السحابة السوداء .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٤ ، ١٠٥) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٩٦) .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٠٦) .

باسم الأمير سليم ، فلما عجز الأمير أحمد عن الوصول إليها عزم على التمرد وإعلان العصيان والاستقلال ، فدخل قونيه وكان حاكمها يومئذ الأمير محمد ابن أخيه المتوفى الأمير شاهنشاه ، واستولى على القلعة وأعلن نفسه سلطانا ، فأصبح في نظر والده عاصيا لا حق له السلطنة .

وفي تلك الأثناء أشعل الشاه الصفوي تمردا جديدا في الأناضول يقوده في هذه المرة شخص اسمه نور علي خليفة ، ولم يقو الأمير أحمد على دفعه أيضا فسقطت منزلته إلى الحضيض ، ولما رأى السلطان بايزيد أن الأمير سليما هو الوحيد الذي تعلق عليه الآمال لإعادة النظام إلى الدولة استدعاه ، وتنازل له عن السلطنة ، فجلس على عرش السلطنة في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م ، وقد حاول الأمير قورقود أن يصل إلى اصطنبول قبل الأمير سليم ، فدخلها متنكرا . فأمسكه الينى جري وأكرموه ولكنهم أقنعوه بأن البيعة تمت لأخيه الأمير سليم ، فلما وصل الأمير سليم وبويع بالسلطنة ، بايعه أخوه الأمير قورقود ، فولاه السلطان سليم على مغنسيه ، ثم عزم السلطان بايزيد على الرحيل إلى ديموطيقه للراحة ، ولكنه توفي في الطريق قبل أن يصل إليها رحمه الله[1].

هذه هي ملابسات تولي السلطان سليم للحكم ، وفقا لرواية **سعد الدين أفندي** الذي كان أبوه حسن جان مرافقا لركاب السلطان سليم ، ومن خلال بعض وثائق الأرشيف العثماني ، ولم يتسن لي الوقوف على مصادر تركية أخرى لتلك الوقائع ولكني وجدت أن رواية المراجع التركية التي كتبت في القرن التاسع عشر لم تخرج عن رواية سعد الدين أفندي ، مثل **إبراهيم بك حليم** ، وأيضا **علي كمال بن السيد محمد أمين أفندي مدرس زاده**[2] ، وكذلك المراجع المتأخرة التي كتبها المؤرخون الأتراك مثل **يلماز أوزتونا** و**أحمد آق كوندز** و**سعيد أوزتورك** ، كل تلك المراجع لم تخرج عن رواية سعد الدين أفندي إلا في بعض التفاصيل التي لا تقدم ولا تؤخر ، مثل :

١ - قول إبراهيم بك حليم أن الأمير سليما عندما جاء من القرم ليقابل أباه وحال الوزراء

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٠٧ ، ١٠٨) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠٩ ، ٢١٠) .

(٢) إبراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية (ص ٧٦) ، علي كمال بن السيد محمد أمين أفندي مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان (ورقة ٩٦ - ٩٩) .

دون ذلك ، وجعلوه واليا على سمندره . أما رواية سعد الدين أفندي فقد جاء فيها أن الأمير سليما لما عجز عن لقاء أبيه هو الذي طلب أن يولي على الثغور، فخيره بين ثلاثة صناجق فاختار أحدهم فأضاف إليه أبوه اثنين آخرين ، وذكر يلماز أوزتونا أن أباه أضاف إليه أربعة صناجق أخر ، كما ذكرنا آنفا .

٢- قول علي كمال مدرس زاده أن الأمير سليما عندما جاء للقاء والده كان معه عشرة آلاف جندي أتى بهم من القرم ، ولكن سعد الدين أفندي قال أنه جمعهم في أدرنه ، وهذا لا يقدم ولا يؤخر ، فإن كان قد جمعهم في أدرنه فذلك لما بلغه أن الوزراء قد حشدوا آلات الحرب والعسكر فأراد أن يأمن غائلتهم . وإن كان قد أتى بهم من القرم فيكون ذلك تحسبا منه لأي غدر يحدث من الوزراء لما يعلمه من بغضهم له لاسيما وأن مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم . ولكن الجميع متفقون على أنه لم يأت بنية القتال . والدليل على ذلك أنه لما وصل إلى مشارف اصطنبول أرسل إلى أبيه يطلب منه أن يقابله ، ولو كان ينوي الحرب لباغتهم ولبادر بالهجوم ، وغير ذلك من التفاصيل البسيطة التي أعرضت عن ذكرها لضيق المقام ، وهكذا ترى أن الأحداث التي سبقت تولي السلطان سليم لعرش السلطنة متشابكة وملتبسة ، وقد رأيت أن أذكر تفاصيلها قدر الإمكان حتى تجلو الصورة وتتضح .

ومما ينبغي التأكيد عليه أنني لا أنفي حدوث تنافس على العرش بين الإخوة الثلاثة ، وذلك عندما عزم أبوهم على التنازل عن السلطنة لأحدهم فسعى كل واحد منهم لأن يفوز بالسلطنة ، والأمير سليم نفسه لم يكن خاملا بعيدا عن الأحداث في القرم حتى استدعاه أبوه ليتنازل له ، بل إنه سعى جاهدا ليكون سلطانا ، ولكن ليس بالخروج على أبيه وبقتاله وخلعه كما زعم الزاعمون ، بل بإقناعه بأنه أحق بها وأهلها وأصلح من أخويه ، وقد رأى الأمير سليم أنه إن كان أبوه السلطان بايزيد حتما سيعهد بالملك لأحد أبنائه فلم لا يكون هو ذلك الابن ، لاسيما وأنه يتمتع بالمهارة العسكرية والحنكة السياسية والقدرة الإدارية التي يفتقر إليها أخواه ، ولا شك أن الأمير سليما كان يروم السلطنة لإنقاذ البلاد من المخاطر المحدقة بها ، وإن كنا أيضا لا نستطيع أن ننفي أيضا حظ نفسه في ذلك ، فأي إنسان بطبعه يميل إلى الملك ، فالسلطة شهوة ، وحبها من ركائز النفس البشرية ، والسلطان سليم لم يكن نبيا معصوما ولا

قديسا ، ولا عيب في أن يطلب الرجل الملك إن وجد في نفسه القدرة على القيام بأعبائه ، والعبرة بحسن عمله فيه ، ولا ريب أن السلطان سليم اجتهد وأصاب في أغلب أعماله ، ونحن لا نحكم إلا على ظواهر الأمور ونكل إلى الله باطنها ، ولكن ما لا نقبل به هو استغلال الأحداث المتشابكة والوقائع المشتبهة للتشنيع على السلطان سليم واتهامه بأنه خرج على أبيه وقاتله وانتزع الملك منه ثم قتله ، فهذا ما لبس به كثير من المستشرقين والمؤرخين الأوروبيين على الناس ، وزعموا تلك المزاعم التي لا أصل لها وادعوا على السلطان سليم بدعاوى كاذبة ، وأساتذة التاريخ كالعادة يندر أن تجد لهم رؤية خاصة بهم قد استخلصوها من مطالعة المصادر التاريخية ، ولكنهم ينقلون عن الأوروبيين شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وفيما يلي سنستعرض بعض أقوالهم في هذه الوقائع لنرى إن كانت مطابقة للواقع أم لا .

فأما د.محمد عبد المنعم الراقد فقد نقل عن المؤرخ الفرنسي « دي لامارتين » قوله عن السلطان سليم : « إن الرجال الذين يدينون بسلطانهم للتآمر لا يمكن لهم الحفاظ على ذلك السلطان إلا بإبادة كل من ينازعهم فيه . فإن كانت الجريمة وسيلة لارتقاء العرش ، فإن الدم هو سبيله الأوحد لدعم بقائه سلطانا »... ثم راح د.الراقد يحلل كلام المؤرخ الفرنسي قائلا : « يشير المؤرخ الفرنسي بذلك إلى أن سليم تآمر على أبيه وقتله ، ثم أعمل القتل في كل من كان له الحق في منازعته عرش الإمبراطورية العثمانية ، والحق مع لامارتين ومعه جمهرة المؤرخين في إدانتهم لسليم بقتلة أبيه ، لأن ذلك الحادث الجلل بالإضافة إلى أنه يتفق مع سير الحوادث ، فإنه يوضح أيضا مدى الكبت الذي كانت تعانيه شخصية سليم الجبارة من جمود أبيه وخنوعه ، حتى أنه لم يعد يتحمل انتظار وفاته فصمم على أن يمسك بيده زمام المبادرة ، وفعلا تحرك في عام ١٥١١م وقاد قواته إلى القسطنطينية ، ولكن قوات والده هزمته ، ومع ذلك عاد في العام التالي لتلتف حوله قوات اليني شرية وترى فيه قائدها ، ولا شك أنهم لمسوا جرأته وصرامته وقد رأوا فيه مواهبه الحربية الممتازة ، فأيقنوا أنه رجل الساعة ، فضغطوا على بايزيد وأجبروه على التنازل عن عرش الإمبراطورية لابنه سليم »[1].

قلت : هذا كلام لا يسوي الحبر الذي كتب به . لقد أضاع د.الراقد وقته وأوقاتنا في مطالعة

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١١٤) .

كلام مؤرخ أوروبي حاقد ، ثم أتبعه بتحليل أورد فيه قدرا هائلا من الأباطيل ، وذلك من ثلاثة أوجه :

١- زعم أن الأمير سليم زحف بقواته على اصطنبول أول مرة بنية قتال أبيه ، وهذا باطل كما بينا ، بل ذكرنا أن الأمير سليم وهو في طريقه من القرم إلى اصطنبول توقف في أدرنه وجمع عددا من الجنود عندما بلغه أن الوزراء في اصطنبول حشدوا آلات الحرب والعساكر ، فأراد الأمير سليم أن يأمن غائلتهم لما يعرفه عنهم من بغضهم له ، لاسيما وأن مقاليد الأمور قد أضحت بأيديهم ، ثم إنه لما وصل إلى مشارف اصطنبول أرسل إلى أبيه يخبره أنه ما جاء إلى الحرب ولكن غرضه أن يقابله ويقبل يديه ، فلما حال الوزراء دون لقائهما طلب أن يولى إمارة أحد الثغور ليجاهد ، فاستجيب لطلبه ، ثم إن الوزراء صوروا للسلطان بايزيد أن الأمير سليما حشد قواته بغرض خلعه عن العرش فوافقهم على قتاله ، فلما هاجموه آثر الأمير سليم الفرار على قتال أبيه ، كما ذكر هو بنفسه صراحة في حديثه مع حميه خان القرم ، الذي ذكرناه آنفا .

٢- لم يجبر اليني جري السلطان بايزيد على التنازل عن العرش لابنه الأمير سليم ، بل كان قد عزم هو على التنازل بسبب أحواله الصحية ، إلا أنه كان حائرا بين ابنيه أحمد وسليم ، فلما رأى عدم أهلية الأمير أحمد للحكم في تلك الظروف العصيبة ، ورأى عصيانه بإعلانه الاستقلال في قونيه ، ورأى ميل الجنود إلى الأمير سليم قرر التنازل له عن العرش ، فالسلطان بايزيد كان في جميع الأحوال سيترك السلطنة لأحد أبنائه ، فاستقر رأيه على الأمير سليم للأسباب المذكورة آنفا .

٣- زعم د.الراقد أن السلطان سليما قتل أباه نقلا عن دي لامارتين وغيره من المؤرخين الغربيين ، وهذا باطل بلا ريب وقد استعرض المؤرخ التركي **أحمد آق كوندز** آراء المؤرخين الأتراك في ذلك الشأن فقسمهم إلى أربعة أقسام :

- توفي بسبب المرض والشيخوخة والفتن الداخلية .
- ذكر بعض المؤرخين مثل هزار فن حسين أفندي وكاتب جلبي أن السلطان استشهد دون أن يحددوا سببا لذلك .
- قلة من المؤرخين مثل منجم باشي ذكروا أن السلطان مات مسموما دون أن يتهموا

أحدا . قلت : ومنهم القرماني أيضا .

• قلة من المؤرخين أمثل بجوي وشمعداني زاده ذكروا أن السلطان سليما خاف أن يرجع والده ليعتلي العرش مرة أخرى فدس له السم ، وقد تلقف المؤرخون الغربيون هذه الرواية فلم يدخروا وسعا في كيل التهم للسلطان سليم .

قال أحمد آق كوندز : « نحن نعتقد أن أصدق مصدر تاريخي حول هذا الأمر ، هو ما جاء في رسالة الأمير أحمد الأخ الكبير للسلطان سليم ومنافسه العنيف على السلطة ، للسلطان المملوكي والمحفوظة حاليا في متحف طوب قابي في اصطنبول . فقد ذكر في تلك الرسالة أن والده مرض في منطقة « قارلي دره » ثم توفي ، غير أن الشائعات انتشرت بين الأهالي بأن أخاه سليما هو الذي دس له السم »[1].

قلت : أما المؤرخ إبراهيم بجوي فقد ذكر ذلك نقلا من كتب الأوروبين ، ليس من قبيل الاستشهاد بها ولكن من قبيل الاطلاع ، وهذا المؤرخ ت عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م وهو من بلدة تدعى « بجوي » كانت قديما تتبع ولاية البوصنه وهي حاليا في المجر ، وقد دأب ذلك المؤرخ على ذكر الوقائع من المصادر التركية ، ثم في بعض الأحيان يعيد ذكرها من المصادر المجرية والألمانية ، وذلك من باب ذكر الرواية المضادة بعد حذف التفصيلات والزيادات ، أو لتفنيد ما جاء فيها كما ذكر هو ذلك بنفسه[2] ، أما بشأن واقعة وفاة السلطان بايزيد الثاني فقد ذكر بجوى ، أن موسى باشا قائم مقام الصدارة في عهد السلطان مراد الرابع كلفه بأن يكتب بنود الصلح مع الألمان التي عقدت في زمن كل سلطان ، فلم يجد بجوي لذلك الأمر ذكرا في كتب المؤرخين الأتراك ، ويبدو أنه لم يتمكن من الاطلاع على وثائق أصول المعاهدات فاضطر إلى اللجوء إلى كتب الألمان وترجمتها ، فبدأ بذكر الصلح الذي تم في عهد السلطان سليم الأول فقال : « لقد كتب المؤرخون الكفار عن الصلح الذي عقد مع حضرة السلطان سليم خان الأول أنه بينما كان هناك صلح مع المرحوم السلطان بايزيد خان ... ». ثم ذكر القصة كاملة وفيها أن السلطان سليما دس السم لأبيه ، ثم ذكر الصلح مع السلطان سليم ثم

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٩٦ ، ١٩٧) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٨٩) .

الصلح مع السلطان سليمان القانوني[1] كل ذلك من كتب المؤرخين الكفار ، فورود خبر دس السلطان سليم السم لأبيه في كتاب بجوي إنما كان عرضا بمناسبة ذكر أخبار الصلح نقلا عن تواريخ الكفار كما نص هو على ذلك ، وعمدتنا في نفي صحة هذا الزعم ما صرح به الأمير أحمد ، الخصم الألد للسلطان سليم من أن ذلك الخبر إنما هو شائعات انتشرت بين الناس ، ولا شك أن من سجلها من المؤرخين كان متأثرا بتلك الشائعات .

أما د.محمد أنيس فقد قال : « وفي عام ١٥١٢ ظهر سليم أمام أبواب اصطنبول فاستقبلته الإنكشارية استقبالا حماسيا ، ثم إنه أكره أباه على التنازل عن العرش ، وسرعان ما توفي بعد أن دس له السم بتحريض من ابنه »[2].

أما د.أحمد فؤاد متولي فقد ذكر قصة وصول السلطان سليم إلى العرش كلها نقلا عن كارل بروكلمان ، وهو نفسه قد صرح بذلك في الهامش ، وقد جاء فيها مغالطات فاضحة ، ثم قال د.أحمد فؤاد : « عندما اشتد المرض على بايزيد الثاني أبدى رغبته في التنازل عن العرش لابنه الأكبر أحمد ، ولما علم سليم بذلك طلب من أبيه أن يعينه حاكما على إحدى ولايات الروميلي لكي يكون قريبا من العاصمة ، لم يجب سليم إلى طلبه ، فظهر على رأس قوة كبيرة بالقرب من سمندريه وودين وهدد بالاستيلاء عليهما إن لم ينل ما أراد ، ولما لم يرد عليه أحد استولى على أدرنه ١٥١١م فأرسل إليه أبوه بعض القوات التي هزمته عند جورلي فلجأ إلى خان القرم ، وفي هذه الآونة بدأ الأب يجهز لإعلان ابنه الأكبر سلطانا ، ولكن الإنكشارية التي تحب سليما أعلنت العصيان ورفضت السلطان الجديد ، وفيما الأمور تسير على هذا النحو إذ بسليم يصل إلى اصطنبول فتستقبله حاميتها استقبالا حارا يدفع إلى إكراه أبيه على التنازل عن العرش ، وفيم الأب في طريقه إلى مسقط رأسه ديموطيقا لكي يقضى بقية أيام حياته ، مات في بعض الطريق بعد أن دس له السم بتحريض من ابنه سليم كما يعتقد جمهور المؤرخين »[3].

قلت : يحتوى كلام د.أحمد فؤاد متولي على كثير من الأباطيل ، كقوله (هدد بالاستيلاء على سمندره وودين) وقوله (استولى على أدرنه ١٥١١م) وقوله (إكراه أبيه على التنازل له)

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣١٥) .

(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٦٠) .

(٣) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٨٠) .

وقوله (كما يعتقد جمهور المؤرخين) ، وغير ذلك مما نقله نقلا عن كارل بروكلمان ، ومن يعقد مقارنة بين كلام كارل بروكلمان وكلام د.أحمد فؤاد متولي في تلك الواقعة ، يتبين له أن د.أحمد قد نقل كلام بروكلمان نقلا شبه حرفي ، فإن من أشد الأمور عجبا أن د.**أحمد فؤاد متولي** أستاذ اللغة التركية ، قد أعرض عن نقل تلك الوقائع من المصادر التركية الكثيرة التي زين بها قائمة المصادر والمراجع التي ألحقها بكاتبه. وفضل النقل عن مرجع أوروبي حديث ، ثم راح يزعم أن دس سليم السم لأبيه هو رأى جمهور المؤرخين ، وذلك نقلا عن بروكلمان أيضا..! أي بلية هذه.؟! وأي منهج فاسد هذا.؟! وأي بضاعة كاسدة تلك التي تبيعون.؟! انظروا بالله عليكم إلى هذا الأستاذ المسكين ، لقد أعرض عن النظر- مجرد النظر - في المصادر التركية ولو على سبيل الاسترشاد !. لاسيما في واقعة شائكة كتلك التي نحن بصددها ، ثم توجه إلى المرجع الأوروبي ثم بمنتهى الإهمال واللامبالاة ، وجه للسلطان سليم تهمة قتل أبيه ، هكذا دونما مسوغ .! ولم يكلف خاطره بالرجوع إلى مخطوط (**مآثر سليم خاني طاب ثراه**) لمؤلفه جلال زاده نشانجي مصطفى (ت ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) والذي صنفه خصيصا لتبرئة السلطان سليم من تلك التهمة الشنيعة ، وفند الشبهات التي قيلت بشأنها ، بالرغم من أن د.أحمد فؤاد قد أورد ذلك المصدر في قائمة المصادر التي رجع إليها، وإنا لله وإنا إليه راجعون. أما د.**أحمد عبد الرحيم مصطفى** فقد قال : « قد تعرض في أواخر حكمه (بايزيد) لعصيان أبنائه الثلاثة الذين استطاع أحدهم - سليم - (**خلع والده**) ١٥١٢ بمساعدة الانكشارية»[1].

وأما د.**صلاح هريدي** فقد قال نقلا عن **نيقولا فاتان** : « في بداية عام ١٥١١ يلحق سليم بابنه في كافا حيث يطالب بمنصب سنجق في روميليا وهو ما لم يسمع بمثله من قبل من جانب أمير عثماني ، وأمام (**رفض الأب**) واستنادا إلى دعم من جانب والد زوجته خان القرم منجلي جيراى ، يزحف سليم على أدرنه على رأس جيش في مارس ١٥١١... حصل سليم على منصب في روميليا واستفاد من غياب السلطان ، (**ودخل أدرنه واستولى على الخزانة وعين رجالا مؤازرين له**) ، وعلى الجانب الآخر فإن بايزيد ووزراءه يؤيدون أحمد ، (وقامت معركة) بين بايزيد وسليم حيث (**هزم الأخير**) وأجبر على الانسحاب إلى

---

(١) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٧٦) .

القـرم »[١]. وأما د.محمود الحويري فقد قال : « طلب أن ينقل إلى إحدى السنجقيات في أوروبا ، (ورفض بايزيد طلب ابنه) ، فجمع سليم قواته واتجه بها على أدرنة ليتباحث مع والده الذي كان يقيم وقتذاك بهذه المدينة ، وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها إلى اصطنبول ، فلحق به سليم وسط حشود عسكرية من الانكشارية (وأصروا على عزل السلطان فورا وتعيين سليم مكان والده) وفي ٢٥ إبريل سنة ١٥١٢ تنازل بايزيد عن العرش لابنه سليم ثم غـادر بايزيد اصطنبول متوجها إلى مسقط رأسه ديموتيقه ولكنه توفي في الطريق »[٢].

أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بنقل كلام هؤلاء الأساتذة بما فيه من أباطيل وأوهام ، ولك أن تقارن بين ما ذكرته آنفا عن وقائع تنازل السلطان بايزيد لابنه السلطان سليم عن السلطنة مؤيدا بالوثائق وأقوال المؤرخين المعاصرين ، فلست في حاجة لتكرار الكلام ، ولكني نقلت كلام هؤلاء الأساتذة ووضعت أباطيلهم بين قوسين لتعرف بكل وضوح أن أساتذة التاريخ إنما هم في واد آخر ، فهم لا ينقلون إلا عن الأوروبيين أو عمن نقل عن الأوروبيين مهما كان كلامهم باطلا ، ولا أملك في نهاية الأمر إلا أن أقول يا حسرة على طلاب قسم التاريخ في الجامعات ، مساكين هؤلاء الطلاب ، تشبحن عقولهم بالشبهات والأباطيل ولا يجدون من يطهر أفهامهم من ذلك العفن الفكري ، يا حسرة عليهم ، بل يا ألف حسرة .

الفتح العثماني لفارس والشام ومصر

هذا العمل هو أجل أعمال السلطان سليم الأول على الإطلاق ، وهو في ذات الوقت أعظم مطعن رماه به أساتذة التاريخ ، وذلك بسبب أنهم يقيمون هذا العمل وفقا للمفاهيم الأوروبية الحديثة التي تخالف الثقافة الإسلامية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، لذلك لم يلم سليما أحد من علماء المسلمين ، ولم يعتبروه معتديا كما زعم الزاعمون في العصر الحديث ، فلو أراد أساتذة التاريخ اتباع الثقافة الأوروبية فهذا شأنهم ، ولكن ليس لهم أن يسحبوها على التاريخ ولا أن يجعلوها مرجعية لفهم الأحداث التاريخية ولا لفهم دوافع وأهداف السلطان سليم من هذا الفتح ، فهذا منهج فاسد في البحث العلمي ، أما المنهج السليم فيكون بتقييم

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٨٣) .

(٢) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٠٢) .

أهداف ودوافع كل شخص وفقا للمرجعية التي انطلقت منها. وهذا المنهج ليس مختصا بالباحثين المسلمين فحسب ، بل ينبغي على أي باحث حتى وإن كان أوروبيا نصرانيا أن يتبعه ، لأنه منهج عام ولا يختص بالتاريخ الإسلامي وحده بل بأي تاريخ يكون محل دراسة ، فمثلا إذا أراد باحث مسلم أن يفهم أعمال لينين أو ستالين وهما من زعماء الإتحاد السوفيتي السابق ، فيجب عليه أن يفهم أولا الفكر الشيوعي بما ينطوي عليه من نظام سياسي شمولي ونظام اقتصادي اشتراكي ، لأنه يعد القاعدة التي انطلقت منها أعمالهما ، ثم يدرس الدوافع والأسباب التي كانت وراء أعمالهما وفقا للمرجعية الشيوعية ، وذلك حتى يتسنى له أن يفهم فهما صحيحا . ولو حاول أن يفهم أعمال لينين وفقا لمرجعية ليبرالية مثلا ، بما تنطوي عليه من نظام سياسي ديمقراطي ونظام اقتصادي رأسمالي ، أو حتى وفقا لمرحعية إسلامية فلن يتسنى له أن يفهم شيئا ، ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن ذلك المنهج المذكور يؤخذ به عند دراسة الأهداف والدوافع فحسب ، أما عند تقييم الفعل نفسه فليس للباحث المسلم أن يعتمد إلا الشريعة الإسلامية كمنهج للتقييم ، وهذا الفرق يجب أن يكون واضحا ، فإن كان فهم أهداف ودوافع أي شخص يجب أن يكون وفقا لمرجعيته التي انطلقت منها أفعاله ، فإن تقييم الفعل نفسه ينبغي ألا يكون إلا وفقا للمرجعية الإسلامية وحدها ، فهي المقياس الذي يعرف به الصواب من الخطأ ، وبناء على التأصيل السابق فإن أهداف ودوافع السلطان سليم الأول ينبغي أن تفهم وفقا للمرجعية الإسلامية لأنها هي التي كانت سائدة في زمانه ، وكل من يريد أن يفهم أهداف ودوافع السلطان سليم الأول أيا كان دينه أو جنسه بغير هذه المرجعية فسيضل ويضل وسيظلم نفسه ويظلم التاريخ . وسنستعرض فيما يلي أسباب فتح السلطان سليم فارس ومصر والشام وذلك بعد إسقاط الحوادث على مرجعيتنا الإسلامية .

حال العالم الإسلامي عندما تسلطن السلطان سليم الأول

في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان المسلمون يتعرضون لخطر الحملات الصليبية الإسبانية والبرتغالية من جهة الغرب ، والتي اتخذت طابعا بحريا بعد أن ضعفت شوكة المسلمين في الأندلس وتقلص ملكهم فيها وتمدد ملك الأسبان والبرتغال على حسابهم ، فبدأوا باحتلال سبتة في عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م ، ثم حاول الإسبان احتلال جزيرة

«جربه» في عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م فما أفلحوا ثم حاول البرتغال احتلال « طنجه » في عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م فحاصروها شهرا كاملا ، ولكنها صمدت حتى جاءتها النجدة من فاس ومكناس[1].

وظلت الروح الصليبية متأججه في نفوس الملوك والأمراء الأوروبيين ، لاسيما الإسبانيين والبرتغاليين ، وقد كانوا يومئذ أكثر الأمم الأوروبية تطورا بفضل ما حصلوه من تراث المسلمين في الأندلس ، ولئلا تتضارب المصالح الإسبانية والبرتغالية فيقع الشقاق بينهما ، تم توقيع اتفاقية « توردى سيللاس » عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٤م لاقتسام مناطق النفوذ بينهما في إفريقية ، فكان المغرب الأوسط والأدنى من نصيب الأسبان[2].

وفي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م أرسل البحار الشهير كريستوفر كولومبس رسالة إلى ملكي أسبانيا فردناند وإيزابيلا يسألهما فيها الدعوة لحملة صليبية للاستيلاء على بيت المقدس ، وقد استهلها بقوله : « سوف أقوم فيما يلي بتوضيح فهمي وإدراكي لمسألة استرداد الضريح المقدس بمدينة القدس عسكريا » ... وقد أخذ كولومبس يستثير حماسهما بتذكيرهما باستيلائهم على غرناطة برغم افتقارهم إلى الموارد المادية ، فقال : « لابد أن جلالتكم تتذكرون أنكم شرعتم في حربكم مع مملكة غرناطة المسلمة دون أن يكون لكم أموال وفيرة »[3].

ولكن لم يكتب لتلك الحملة أن تخرج أصلا ، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أن الملكين الإسبانيين قد تراءى لهما أن ملك البرتغال قد اضطلع بتلك المهمة ، ولكن ظل ساحل الشمال الإفريقي عرضة لهجمات الإسبان حتى استولوا على بجاية ثم وهران[4]. عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م . ثم توجهوا إلى طرابلس الغرب فاستولوا عليها عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م ،

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٣٦٥) ، محمد بن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار أفريقية وتونس (ص ١٤٥) .

(٢) د.بشرى خير بك : الدخول العثماني لشمال إفريقية ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس (ص ٦٣) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٣) رسالة كرستوفر كولومبس إلى فرديناند وإيزابيلا لشن حملة صليبية للاستيلاء على القدس عام ١٥٠١ ، ترجمة د.حاتم الطحاوي ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى (ص ٢٧٦ ، ٢٨١) .

(٤) كلاهما في الجزائر حاليا .

وكان هدف الإسبان من ذلك أن يفعلوا بالبلاد الإسلامية في شمال إفريقيا ما سبق أن فعلوه بالبلاد الإسلامية في الأندلس ، وهو القضاء على وجود المسلمين فيها عن طريق عمليات القتل أو التنصير الجماعي أو بالتضييق عليهم ليرحلوا عن البلاد أو بذبحهم إن أبوا هذا أو ذاك . والخطاب الذي أرسله فردناند ملك أسبانيا إلى قائد جيشه « الكونت دون بيترو دي نافارا » وهو في طريقه إلى احتلال طرابلس ، يبين عزمهم على تغيير التركيبة السكانية للبلاد ، إذ قال : « سبق وأن ذكرتم لي في خطاباتكم مرارا أننا إذا ما أردنا أن نحافظ على وجودنا في أفريقيا ، فإنه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس ، وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى ، و إلا فإن المغاربة بما أنهم يسودون بقية مناطق البلاد ، إذا ما سمحنا لهم بالسكن في مدن الساحل ، فإنه سيستحيل علينا أن نحتفظ بما احتللناه وقتا طويلا . وإذن فإن انتظارا لما هو أفضل ، يتحتم أن تعسكر في المدن الثلاث المذكورة حامية كبيرة من النصارى وألا يسمح لأي مغربي أن يطأها ... ».

وقد ذكر السياسي الفرنسي **شارل فيرو** والذي كان قنصلا لبلاده في طرابلس الغرب في أواخر القرن التاسع عشر، أن الجنود الإسبان لما دخلوها عام ١٥١٠م اقتحموا الجامع الكبير الذي احتمى به الأهالي فقتلوا منهم ألفين. ثم **قال فيرو** : « وتبعا للبرنامج الملكي الذي وضعه فردناند ملك إسبانيا ، والذي سبق لجانب منه أن نفذ باحتلال مدينتي وهران وبجاية ، فإن جميع الطرابلسيين قد طردوا من مدينتهم وهدمت فيها المنازل والمباني العامة كلية »[1].

لذلك فقد كان لاستيلاء الإسبان على طرابلس الغرب ، وقع مهول على العالم الإسلامي ، **فقد قال ابن إياس** : « وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة ، وقد جاؤوها الفرنج من البحر في مائة مركب ، ومن المراكب طلعوا إلى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها »[2].

سيطر الأسبان على معظم الساحل الإفريقي ولم تكن المحطة التالية لهم سوى بني غازي

---

(١) وأصل الخطاب موجود في دار محفوظات بلدة سيمانكس الأسبانية ، شارل فيرو : الحوليات الليبية. ترجمة د.محمد عبد الكريم الوافي (ص ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٩٠) ، وانظر أيضا أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٤٥٨) ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٢٧٩)

ثم الإسكندرية ، ومما سهل على الإسبان تحقيق أهدافهم في شمال إفريقيا ، هو افتقار هذه البلاد الى كيان سياسي موحد قادر على دفع الأطماع الصليبية ، فأكبر دولة في المنطقة آنذاك كانت السلطنة الحفصية في تونس ، والتي كان يمتد ملكها في الزمن الغابر من « تلمسان » حتى « طرابلس » إلا أنها تفككت وخرجت أجزاء كبيرة منها عن سيطرة الدولة لاسيما في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في عهد السلطان الحسن الحفصي الذي تولى الحكم عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م. **قال ابن أبى دينار القيرواني** : « وفي أيام السلطان محمد كانت وقائع بينه وبين العرب ، وهزموه على القيروان . فرجع إلى تونس في ثمانمائة من الخيل . وفي أيامه خرجت بلاد كثيرة عن حكمه »[1] .

وفي نفس الوقت الـذي سيطر فيه الإسبان على الساحل الإفريقـي للبحر المتوسط ، سيطر البرتغال على البحر الأحمر والبحار الهندية بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد حاول السلطان المملوكي قانصوه الغوري التصدي لهم ، ولكنه عجز عن ذلك ، فقد ذكر **ابن إياس** في أحداث ذي الحجة عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م : « أن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وسور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن فسر السلطان لهذا الخبر ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد »[2] ... وفي عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م تم القبض على ثلاثة جواسيس داخل مكة ، قال **ابن إياس** : « الشريف بركات أمير مكة قبض على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا إلى مكة وهم في زي الأروام ، فلما قبض عليهم وجدوهم بغير ختان فتحقق أنهم فرنج وأنهم جواسيس عند بعض ملوك الفرنج »[3]... وقد ذهب المؤرخ العلامة الشيخ **محمود شاكر** وكذلك د.**عبد العزيز الشناوي** إلى أن مخططا برتغاليا كان يحاك لاقتحام مكة ثم المدينـة ونبش

---

(١) محمد بن أبي دينار القيرواني : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس (ص ١٥١) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٠٩) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٩١) .

قبر رسول الله ﷺ وأخذ جسده الشريف ومقايضة المسلمين عليه ببيت المقدس[1].

ثم استولى البرتغاليون على جزيرة سقطرى عند مدخل خليج عدن ، ثم امتد نشاطهم إلى الخليج العربي فاستولوا على قلهات ومسقط وهرمز عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م[2] ، أما في الهند فقد بدأ وصول البرتغاليين إليها في عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م في صورة تجار ، وشيئا فشيئا زادت أعدادهم وسيطرت مراكبهم وقويت شوكتهم في ساحل ملبار (الساحل الغربي للهند) خاصة في ميناء كشي (كوشين) وبعد بضع سنوات بدؤوا في التعدي على مراكب المسلمين ومصادرة أي سفينة لا تحمل تصريحا منهم بالمرور[3].

ولما حاول السلطان الغوري قطع دابر البرتغال في الهند وأرسل أسطولا بقيادة حسين بك حقق انتصارا أوليا تبعته هزيمة فادحة في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م ، **قال ابن إياس** : « إن العسكر الذي توجه إلى الهند صحبة حسين المشرف ، قد كسروهم الفرنج كسرة فاحشة وقتلوا العسكر عن آخره ونهبوا ما في مركبهم »...وعلى أثر ذلك أرسل ملوك الهند إلى السلطان الغوري يستمدونه بسبب طغيان البرتغال بعد هزيمة حسين بك المذكورة ، وفي عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م استولى البرتغال على جزر كمران[4] وهي في البحر الأحمر قبالة السواحل اليمنية ، فأصبح بإمكانهم إغلاق البحر الأحمر .

وقد بلغ استعلاء البرتغال على المسلمين في البلاد التي ملكوها حد الطعن في الدين وسب رسول الله ﷺ بل والعمل على تنصيرهم أيضا قال **زين الدين المعبري** : « وفعلوا (البرتغال) فعايل قبيحة شنيعة من ضربهم(المسلمين) والاستهزاء بهم والضحك عليهم إذا مروا بهم استخفافا ... والبصق على وجوههم وأبدانهم ، وتعطيل أسفارهم خصوصا سفر الحج ونهب أموالهم وإحراق بلادهم ومساجدهم وأخذ مراكبهم ، ووطؤا المصاحف والكتب بأرجلهم

---

(١) محمود شاكر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٨/ ١٠٠) ، د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٢٣) .

(٢) عبد القادر العيدروس : النور السافر في أخبار القرن العاشر (ص ٥٨) ، ج . ج لوريمر : دليل الخليج (١/ ١٢، ١٣) .

(٣) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٢٥) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٤٢ ، ١٥٦، ١٩٠ ، ٣٣١) .

وإحراقها بالنار ... وتحريضهم على قول الردة والسجود لصليبهم وعرض الأموال لهم على ذلك ... وسب رسول الله ﷺ جهارا ... كم من نساء أصيلات أسروا وتيسر بهم حتى حصل لهم منهن أولاد نصارى ... وكم من سادات وعلماء وكبراء أسروا وعذبوا حتى قتلوا ، وكم من مسلمات نصروا وكم من أمثال ذلك من فضايح وقبايح تكل الألسنة عن ذكرها وتأنف عن إحصائها أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر » ..... وقد ظل البرتغاليون يروحون ويسرحون في الأحمر ولا يقوى المماليك على دفعهم ، وفي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م أي بعد الفتح العثماني لمصر هجم البرتغاليون على جدة يريدون أخذها فلم يفلحوا بعد أن تصدى لهم الريس سلمان العثماني[١] الذي كان قد أرسله السلطان سليم الأول على رأس ألفين من العساكر العثمانية دعما للسلطان الغوري في مواجهة البرتغال[٢].

وكان هناك خطر آخر يحدق بالعالم الإسلامي لا يقل عن خطر الصليبيين ، ألا وهو خطر الرافضة في فارس بظهور الشاه إسماعيل الصفوي الذي اعتنق عقيدة الشيعة الاثنى عشرية وفرضها على الناس قهرا وسعى لنشرها خارج فارس ، فاجتاح العراق ودخل بغداد عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م وفرض عقيدة الاثنى عشرية الرافضة على أهلها قهرا ، كما أشعل تمردا في الأناضول تزعمه « شاه قولي » عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م كما ذكرنا آنفا ، ولا يخفي على كل ذي لب ما في عقيدتهم من الفساد كسب الصحابة وأزواج النبي ﷺ وتعطيل الجمع والجماعات ، قال **مرعي بن يوسف الكرمي** : « إسماعيل شاه الذي كان في أيام السلطان الغوري ، استولى على ساير ملوك العجم وقتل عساكرهم بحيث قتل ما يزيد على ألف ألف ، وقتل العلماء وأحرق كتبهم ومصاحفهم ونبش قبور المشايخ من أهل السنة وأخرج عظامهم وأحرقها ، وأظهر مذهب الرفض والإلحاد بأرض العجم إلى يومنا هذا ، فانظر إلى ما اشتمل عليه ملوكهم الآن من سب الشيخين وتعطيل الجمع والجماعات ... »[٣]. **وقال النهروالي** : « كاد أن يدعى الربوبية ، وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره ، وقتل خلقا لا يحصون ينوف على

---

(١) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٢٨ ، ٣١) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٣٦٥ ، ٤٦٦) .

(٣) مرعى بن يوسف الكرمى الحنبلي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان . ورقة ٢٢) .

ألف ألف نفس ، بحيث لا يعهد في الإسلام ولا في الجاهلية ولا في الأمم السابقة من قتل ما قتله شاه إسماعيل ، وقتل عدة من أعاظم العلماء بحيث لم يبق أحدا من أهل العلم في بلاد العجم ، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة ، وكلما مر بقبور المشايخ نبشها وأخرج عظامهم وأحرقها »[١].

وقد بدا واضحا في تلك الفترة أن الشاه إسماعيل الصفوي يعتزم بسط سلطانه أكثر فأكثر والتوغل غربا في العراق والأناضول ، وربما بعد ذلك الشام ومصر ناشرا عقيدته الفاسدة ، كما ذكرنا في الباب الأول ، والأنكى من ذلك أنه عقد حلفا مع البرتغاليين في عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م عن طريق دي البوكيرك نائب ملك البرتغال في المستعمرات الهندية الذي كان مقيما بالهند آنذاك ، وقد شمل التحالف عدة بنود منها التحالف بين الشاه والبرتغال ضد الدولة العثمانية[٢].

خلاصة القول أن العالم الإسلامي في تلك الفترة قد أصبح محاصرا من جميع الجهات ، فالبرتغال في جنوبه والإسبان في غربه فضلا عن سيطرتهم على البحر المتوسط مع حلفائهم من الإسبتارية ، وفي الشرق كان الصفويون الرافضة فضلا عن حلفائهم البرتغال ، وأصبح الخناق يضيق شيئا فشيئا على المسلمين ، وتستقطع أراضيهم البلد تلو الأخرى . ولم يكن لهم منجى من ذلك إلا أن يهب أحدهم ليدفع هذه الأخطار عنهم ، ولم يكن في العالم الإسلامي كله من يملك القوة والعزيمة إلا الدولة العثمانية ، ومن رحمة الله ﷻ بأمة نبيه ﷺ أن ولى أمرها في ذلك الوقت العصيب لرجل لا يعرف الوهن طريقا إلى قلبه ، ولا يعرف سيفه طريقا إلى غمده ، ولا يعرف لنفسه مقعدا إلا على ظهر فرسه ، ألا وهو السلطان العظيم سليم بن بايزيد بن محمد الفاتح . وكما ذكرنا في الباب الأول أن المؤرخين قالوا عنه أن شخصيته قريبة الشبه جدا من جده الأول محمد الفاتح ومن جده الرابع يلدرم بايزيد .

---

(١) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٢٧٥) .

(٢) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج (١/ ١٤) .

كما قال عنترة بن شداد :

لا يكتسي إلا الحديد إذا اكتسى ... وكذاك كل مغاور مستبسل

قد طالما لبس الحديد فإنما ... صدأ الحديد بجلده لم يغسل

وقال أيضا :

وحشيتي سرج على عبل الشوى ... نهد مراكله نبيل المحزم

وقد وعى المسلمون في أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي أن خلاصهم من تلك الأخطار المدلهمة ، هو في التوحد في كيان سياسي واحد تحت زعامة العثمانيين ، فقد أرسل العلماء والوجهاء والأشراف من كردستان ومن الشام ومن مصر ومن الجزائر رسائل استغاثة إلى السلطان سليم الأول فلبى نداءهم ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول تفصيلا فلا داعي للإعادة ، ومما يؤسف له ، بل يعد نكرانا وجحودا ، أن أساتذة التاريخ تغافلوا عن كل تلك الأخطار التي ذكرناها والتي حملت السلطان سليم على ضم فارس والشام ومصر والجزائر، وراحوا يسودون صفحات كتبهم بكلمات جوفاء، لاسيما عندما ذكروا أسباب حملة السلطان سليم . بل إن بعضهم اعتبره معتديا محتلا !. وبعد أن بينت فيما سبق أسباب فتح السلطان سليم الأول فارس والشام ومصر ، سنستعرض آراء أساتذة التاريخ التي نقلوها عن الأوروبيين بلا ريب عن أهداف السلطان سليم الأول من ذلك الفتح . ثم نرى أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا .

قال د. سعيد عاشور : « إن الدولة العثمانية وصلت في أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة تحول يمكن تسميتها مفترق الطرق بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التي شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون ، ففي أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد فرغوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا . وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار في التوسع في أوروبا على حساب الأوروبيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية في ذلك الاتجاه طابع الجهاد الديني . وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم في وسط أوروبا أوصلهم إلى مدينة فيينا ذاتها والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة . وكان أن اختار السلطان سليم العثماني الاتجاه الأخير لاسيما وأن الخلاف المذهبي والسياسي

كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والصفويين الشيعة في فارس والعراق من ناحية أخرى »[1].

قلت : إن المنهج الذي اعتمده د.سعيد عاشور في فهم الأحداث منهج فاسد لا ينطبق على الواقع ، لذلك لم يتسن له فهم الوقائع التاريخية فهما صحيحا وذلك من ثلاثة أوجه :

١ - أنه اعتبر الفتوحات العثمانية في الأناضول وفي أوروبا حركة توسع ، وهذا خطأ فادح ، بل إنها كانت فتوحات دينية بغرض الجهاد ونشر دين الله بين العباد . وقد جاء هذا صراحة في وصية عثمان الأول لابنه أورخان : « لا تجتهد في الدنيا وحبها بل يكون جهادك واجتهادك خالصا لوجه الله الكريم ومخلصا لإعلاء كلمة الدين والعمل بسنة سيد المرسلين »[2]. وقد قدمنا ذكر نظير هذا الكلام على لسان السلطان مراد الأول والسلطان بايزيد يلدرم . وبشأن السلطان محمد الفاتح : فقد قدمنا ما قاله لسارة خاتون : « أيتها الوالدة السعيدة إن سيف الإسلام في يدنا ، ولا غاية لنا سوى الحصول على رضا الله تعالى ، فليست غايتنا وهدفنا مجرد الدخول في شجار أو نزاع فقط »[3]. وقد جاء نظير ذلك على لسان السلطان سليم نفسه إبان حملته على الشاه إسماعيل الصفوي . إذ أشار عليه أكابر القادة بأن يرجعوا بالجيش بسبب اقتراب فصل الشتاء وموسم هطول الثلج ، على أن يعاودوا القتال في الربيع ، فقال لهم السلطان سليم الأول : « الرأي أن نقاتلهم حالا فإن قتلناهم شتينا في بيوتهم وإن قتلونا شتينا في الجنة »[4]. لذلك نقول أن الدافع الرئيس للفتوحات العثمانية كان الجهاد في سبيل الله لنشر الدين . وهذا ظاهر لكل من تتبع تاريخ هذه الدولة وقرأ المصادر الإسلامية العربية والتركية. ولكن يبدو أن أساتذة التاريخ لا يقرؤون مصادرنا ، وإن قرأوها فأنهم يقرؤونها بأعين أوروبية . ولا غرابة في ذلك فهم أنفسهم قالوا عن الفتوحات الإسلامية الأولى التي قام بها

---

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ١٨٧) .

(٢) حسين خوجة بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية. (ميكروفيلم ١٣٤٨٦، ورقة ١٠)

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٣٦) .

(٤) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان . مخطوط بكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (٤٦٧٨ . ورقة ٤٦) .

أصحاب رسول الله ﷺ أنه كانت لها أهداف أخرى اقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية أيضا.! فإطلاق د.سعيد على الفتوحات العثمانية لفظ « حركة توسع » فإنه بذلك يكون قد ساوى بينها وبين توسع الإمبراطورية الرومانية مثلا في العصر القديم أو حروب جنكيز خان وتيمورلنك في العصر الوسيط ، أو حتى توسعات الإمبراطورية البريطانية في العصر الحديث.وهذا خطأ فادح بلا ريب لاختلاف المرجعية التي كانت تنتهجها كل من هذه الدول عن المرجعية التي كانت تنتهجها الدولة العثمانية .

٢- غفل د.سعيد عن الأخطار التي كانت تهدد العالم الإسلامي في تلك الفترة ، والتي حتمت على المسلمين أن يتوحدوا تحت حكم رجل واحد . وهو أحد أصول الحكم في الإسلام ، والحقيقة أن د.سعيد ظن أن الدولة العثمانية تخوض حروبا للتوسع من أجل التوسع نفسه ، وذلك عندما اعتبر أن السلطان سليما كان عليه أن يقرر إما مواصلة التقدم غربا في أوروبا أو التقدم شرقا على حساب دول إسلامية ، وكأن الدولة العثمانية لا تسعى إلا لزيادة مساحتها بأي شكل كان ، ويتعجب جدا من قوله (**مما أضفي على حركتهم التوسعية في ذلك الاتجاه طابع الجهاد الديني**) وكأن بني عثمان اتخذوا من الجهاد ذريعة للغزو ، وكأن الجهاد عندهم كان غطاء يغطون به أطماعهم التوسعية ، هذا بهتان عظيم ورب الكعبة ، ومنشأ الخطأ أن د.سعيد عاشور قيم دوافع العثمانيين وأهدافهم وفقا للمرجعية الأوروبية الحديثة ، التي تنزع إلى التذرع دائما بذرائع تبدو أخلاقية لإخفاء أطماعهم الاستعمارية ، كزعم بونابرت أنه جاء في حملته على مصر لتخليص الشعب المصري من ظلم المماليك .! وكما ادعت بريطانيا في احتلالها لمصر أنه كان من أجل حماية الأجانب .! وكما زعم البريطانيون والفرنسيون في العدوان الثلاثي على مصر أنه كان بهدف تخليص مصر من الطاغية جمال عبد الناصر .! الخ .

٣- غفل د.سعيد عاشور عن رسائل الاستغاثة ، التي أرسلت للسلطان سليم الأول من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي ، وقد ذكرنا في الباب الأول أجزاء من نصوص الرسائل التي جاءته من حلب ومن كردستان ومن الجزائر ، أرسلها إليه العلماء والوجهاء والأشراف يطلبون فيها الدخول تحت حكم الدولة العثمانية ، فكان أهل كردستان يستنصرون بالسلطان سليم على الصفويين القزل باش ، وكان أهل الجزائر يستنصرون به على الإسبان ، وكان أهل

حلب يشتكون من مظالم السلطان الغوري ، وكان أهل مصر يشتكون من تسلط البرتغال على البحر الأحمر ، حتى أن السلطان الغورى نفسه استغاث بالسلطان سليم فأرسل له الريس سلمان مع ألفي بحار لدفع خطر البرتغال كما ذكرنا آنفا ، فالأمر لم يكن توسعا إمبراطوريا من أجل التوسع بل تلبية لنداءات المسلمين وحماية للأمة من الأخطار المحدقة بها ، وقد قال السلطان سليم نفسه في رباعياته :

إن خشيتي من الاختلاف والفرقة ستظل تقلقني حتى وأنا في القبر

إن اتحدنا فصولة الدولة تستطيع دفع الأعداء فإن لم تتحد الأمة فلا راحة لي[١].

أما د.محمد عبد المنعم الراقد فقد أطنب في ذكر أسباب توجه السلطان سليم شرقا ، وذكر لذلك مقدمات كثيرة معظمها صحيح كوقائع تاريخية ، إلا أنه حللها تحليلا عقيما جدا فخرج باستنتاجات فاسدة لا تعبر عن الواقع ، والسبب في ذلك هو نفسه السبب في فساد تحليلات د.سعيد عاشور ، إذ أن د.الراقد اعتمد مرجعية أخرى ، ويظهر ذلك بوضوح في المراجع التي اعتمد عليها في التحليل ، فكلها أوروبية مثل :

- Hazard : Atlas of Islamic History
- Brinton & Cristopher & wolf : Modern Civilization
- De lamartine : Histoire De La Turkie
- Price : History of Turkey
- Lavisse & Rembaud : Histoire General

وغير ذلك من المراجع الأوروبية التي نقل عنها تحليلاته ، وكأن علماء المسلمين طوال أربعة قرون لم تكن لهم أي رؤية أو أي تحليل لتلك الوقائع ، وكأن المسلمين ظلوا في حيرة من أمرهم ، لا يفهمون تاريخهم حتى جاءنا « النور » من أوروبا فأبصرنا بعد العمى.!! وقد أكدت من قبل على أن الاطلاع على كتب الأوروبيين ليس معيبا بل مستحبا ، بشرط أن يكون الاطلاع بغرض معرفة آرائهم ثم عرضها على مرجعياتنا الفكرية الخاصة ، أما إن كان بغرض نقل آرائهم كما هي وتقديمها على أنها الحق والصواب ، فهذا ليس معيبا فحسب بل قبيحا

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢١٨) .

أيضا ، وقد ذهب د.الراقد إلى أن السلطان سليما ما كان يهدف إلا إلى تكوين إمبراطورية عظمى ذات شقين ، شرقي وغربي ، وبعد أن استفاض في شرحه ، لخصه فيما سماه الصورة الكاملة للمرحلة الجديدة . فقال كلاما كثيرا في تلك المسألة ثم خرج بنظرية في أسباب الفتح العثماني لفارس ومصر والشام ، مضمونها ، أن السلطان سليما كان يهدف إلى تكوين إمبراطورية عظمى لها شق شرقي وأخر غربي ، فأما الشق الشرقي فينبغي أن يكون العالم الإسلامي الذي تعتبر مصر قلبه ، وأما الشق الغربي فيتمثل في أملاك الإمبراطورية النمساوية (الألمانية) ، وكان على السلطان سليم أن يحدد بأي الشقين يبدأ مشروعه فاختار أن يبدأ بالشق الشرقي ثم الغربي[1].

قلت : هكذا رأى د.الراقد المسألة أنها مجرد توسع إمبراطوري لدولة رأت في نفسها القوة لذلك ، دون أي اعتبارات أخرى سوى مجرد الاستيلاء على مشارق العالم ومغاربه ، بصرف النظر عمن يسكن المشرق ومن يسكن المغرب ، فإن هدف السلطان سليم عند د.الراقد كان مجرد التوسع . وهذا الكلام يغفل أمر الجهاد في سبيل الله ، لأنه الأصل الذي قامت على أساسه الدولة العثمانية ابتداء ، وقد حرص كل سلطان على أن يأصل ذلك في قلب ابنه الذي يخلفه في الحكم كما ذكرنا آنفا ، فعقيدة الجهاد عند آل عثمان لم تكن إحدى صفات دولتهم فحسب ، بل كانت المنهج الذي قامت عليه الدولة ، وبمصطلحات العصر الحديث كانت (الأيدولوجيا) للدولة العثمانية ، ولم يختلف فكر السلطان سليم عن فكر آبائه وأجداده ، وقد فطن إلى أن الهجمة الصليبية الجديدة قد اتخذت طابعا مختلفا ، وهو تطويق العالم الإسلامي بحصار بحري حتى تخور قواه ومن ثم يسهل الانقضاض عليه ، ولما كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة القادرة على التصدي لهذه الهجمة ، فقد رأى السلطان سليم ألا سبيل إلى ذلك إلا بتوحيد المسلمين ، فضم فارس والشام ومصر ، ثم عزم على التصدي للصليبيين وجها لوجه ولكنه توفي رحمه الله ، فخلفه ابنه العظيم سليمان القانوني الذي أكمل المسيرة بعد أن كان أبوه قد هيأ الساحة له وجمع المسلمين على إمام واحد ، فقاد سليمان هذا الجمع وبدد جهود الصليبيين فجعلها هباء منثورا .

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١١٧) .

وللسلطان سليم الأول مواقف كثيرة تبين انقياده للدين وإتباعه للشريعة ، وفيها يتعلق بهذه المسألة ، أنه اتبع أحكام الشريعة في قتال الصفويين ، فبعد أن استنجد به رؤساء العشائر الكردية ليدفع عنهم تنكيل عمال الشاه إسماعيل بهم ، استفتى العلماء في أمرهم فأفتوه بقتالهم ، ثم أرسل إلى الشاه رسالة استتابة جاء فيها : « ليعلم إسماعيل بهادر ، أصلح الله أحواله ، أن جميع أهل الشرائع والأحكام وعلماء الدين والإسلام المحبين لشريعة سيد الأنام ، قد أفتوا بكفرك وفسادك وضلالك وعنادك ، لارتكابك العقائد الفاسدة والضلالات الكاسحة ، والأحوال الفظيعة والأقوال القبيحة الشنيعة ، ومن استحل ما حرم الله فلا شك في كفره ، فلذلك نشرت الأعلام الإسلامية والرايات الدينية ، وسرت إلى بلادك لامحاء رسمك ووجودك ، واضمحلال اسمك وجنودك . لكن لما كان من سنة الدين وطريق الحق المبين ، الإخبار والإعلام بالدعوة إلى إتباع شريعة الإسلام قبل الالجاء بالسيف حين لا يفيد أين ولا كيف ، أرسلت إليك مخبرًا بأنك إن أخلصت التوبة ، وصدقت في الأوبة ورجعت عن تلك العقائد القبيحة الفظيعة ، فقد فزت بالمقصد الأسنى ولك الأمان مع الزيادة في الحسنى ، وإن لم ترجع ، فلتعلم أني قد سرت إليك بآيات النصر والتمكين ورايات الظفر المبين عملاً بقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ لترمي بالعذاب مجاهرة والنكال مجاهرة والسلام على من اتبع الهدى »[1].

هذا هو السبب الذي لأجله قاتل السلطان سليم الدولة الصفوية ، وهذا دليل على سعة أفقه وعمق فهمه للأمور ، وأنه لا يمكن أن يجتمع المسلمون إلا بعد أن تصفو عقيدتهم وتتطهر من البدع والمعتقدات الفاسدة ، ولعله تأسى في ذلك بصلاح الدين الأيوبي ، الذي ما استرد بيت المقدس من أيدي الصليبيين إلا بعد أن طهر أهل مصر من التشيع ومن عقائد الرافضة الفاسدة ، ثم جمعهم مع أهل الشام والعراق ، ثم قاتل بهذا الجمع الطاهر جموع الصليبيين فهزمهم ، ولم يخرج عمل السلطان سليم عن عمل صلاح الدين ، ولكنه كان أشمل وأعم بلا ريب . فهذا هو السبب الذي ضم السلطان سليم لأجله فارس وهو يتوافق مع الأصل الذي قامت عليه الدولة العثمانية ابتداء ويتوافق مع عقيدتها في الحروب ، فمن

(١) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي (٤/ ٨٤) .

ادعى بعد ذلك أن السلطان سليما كان هدفه مجرد التوسع الإمبراطوري وأنه إنما تذرع بالدين فعليه أن يأتي بدليل على ذلك .

ومما يؤكد بطلان طرح د.الراقد للمسألة أن السلطان سليما بعد أن تم له فتح مصر والشام لم يتوجه مباشرة للجبهة الألمانية بل صرف همه إلى الجزائر ، وأرسل السفن والأسلحة والمدافع والرجال إلى عروج وأخيه خير الدين . فلو كان السلطان سليم كما زعم د.الراقد أراد أن يستولي على قلب العالم الإسلامي ثم يستولى على الإمبراطورية الألمانية ، فما الذي يجعله يفتح على نفسه جبهة جديدة للقتال بعيدة عن عاصمته ، تستنزف الموارد المادية والبشرية للدولة .! لا ريب أن ما كان يدور في ذهن السلطان سليم هو إنقاذ المسلمين في إفريقية والمغرب من تسلط الإسبان ، ثم إن وجود إمارة إسلامية قوية في وسط أملاك الأسبان في شمال إفريقيا يعد ضربة قوية للوجود الإسباني في المنطقة ويعوق تقدمهم شرقا إلى مصر .

أما الشق الثاني من نظرية د.الراقد وهو سبب اختيار السلطان سليم البدء بغزو الشرق قبل الغرب ، فذكر سببين الأول اقتصادي والثاني عسكري ، فأما السبب الاقتصادي فقد قال فيه : « حين قرر غزو مصر والقضاء على دولة المماليك كان يطمع دون شك في أن يضيف إلى إمبراطوريته ولايات ذات قيمة اقتصادية كبرى ، وتكوين دعائم اقتصادية ضخمة يرتكز عليها في مشروعاته الحربية المستقبلية ، ولكي ينجح في تحقيق ذلك الهدف كان حتما عليه أن يتصدى للبرتغاليين وأن يحاول كسر الحصار البحري الذي فرضوه على الشواطئ العربية ، وإعادة فتح طريق التجارة البرية والبحرية التي أغلقت في وجه التجارة الشرقية ... وبالتالي تحقيق زيادة في الدخل العام للإمبراطورية العثمانية ، لذلك أبدى سليم اهتماما كبيرا بطريق البحر الأحمر التجاري »[1].

قلت : د.الراقد هنا ما هو إلا بوق من أبواق الأوروبيون يذيعون به ما يريدون أن يذيعوه ، ونحن لا نلقي بالا لهذا الكلام لأنهم سبق أن قالوه من قبل عن الفتوحات الإسلامية في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وسائر أصحاب رسول الله ﷺ وقد أذاع به أبواقهم من أساتذة التاريخ الإسلامي من أقران د.الراقد الذي لم يكلف خاطره أن ينظر في المصادر الإسلامية ليستطلع

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٢٧) .

رأى علمائنا وسادتنا من المؤرخين ، فلم يقل أحد منهم هذا الكلام الفارغ الذي ردده د.الراقد. فهم قد فطنوا إلى أن دفع البدع الرافضية وتوحيد البلاد الإسلامية هو من أعظم مناقب السلطان سليم . فقد قال **مرعى بن يوسف الكرمي متحدثا عن حال المسلمين** : «كانوا بعد اضمحلال الخلافة (العباسية) إقليم مصر والشام لسلطان ، وبغداد لسلطان ، واليمن لسلطان ، وتونس لسلطان ، والمغرب وأعمالها لسلطان ، والروم لسلطان ... توزعت الملوك الأقاليم وتفرقت كلمة المسلمين بكثرة تعداد السلاطين ، لكن الله تعالى من لطفه بهذا الدين قد جمع غالب ما تفرق من كلمة المسلمين بالسلاطين العثمانيين . وقد جمع بهم للمؤمنين بين العلا والرفعة والتمكين ».. **وقال أيضا** : « ومن فضائل آل عثمان قمع النصارى الحربيين ، وطرد الإفرنج المخذولين إلى أقصى بلاد المسلمين ، وهم في غاية الذل والهوان والطرد والخذلان .... فالعاقل المنصف إذا تدبر حال الفرنج والنصارى في ذلك الزمان (الماضي) وحالهم الآن مع سلاطين بني عثمان وجدهم في غاية الخذلان »[١].

أما **علي بن محمد الأشبيلي اللخمي** فقد اعتبر السلطان سليما مجدد القرن العاشر الهجري ، بعد أن قمع أهل الرفض من الصفويين وضم مصر والشام . فقد قال عنه : « ركن الدنيا والدين عماد الإسلام وغياث المسلمين ، فهو الحقيق بموجب نص سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام حيث قال : « **أن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة من ينصر هذا الدين**»[٢] وهذا والحمد لله هو ناصره » ... ثم قال بعد أن ذكر انتصار السلطان سليم على الصفوي ثم الغوري : « فالحمد لله الذي تفضل على هذه الأمة بمن يجدد الدين ويشكر تلك النعمة »[٣].

---

(١) مرعى بن يوسف الكرمي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . (ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨. ورقة ٩ ، ١٠ ، ٣١) .

(٢) لقد ذكر الشيخ الحديث بمعناه لا بلفظه وإنما لفظه : من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » ، رواه أبو داود (٤/ ١٠٩) ، أبو عبد الله الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٧) ، الطبراني في المعجم الكبير نسخة إلكترونية ضمن المكتبة الشاملة الإصدار الثاني (١٩/ ٤٧٦) ، البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٢٠٨) وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٢٠٣) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٤٣) ، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٤٨) .

(٣) علي بن محمد اللخمي الإشبيلي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان (ص ٢ ، ١٠) .

تلك كانت رؤية علماء المسلمين للفتوحات العثمانية للبلاد الإسلامية في زمن السلطان سليم الأول ، ومن بعده فقد قال الإمام قطب الدين النهروالي المكي عن السلطان سليم الثاني بعد فتح تونس عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م : « ولولا لطف الله تعالى على الإسلام لكان البلاء عاما على ساير بلاد المسلمين ، فإن مولانا السلطان الأعظم الأفخم سليم خان لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين ، لكانوا يتسلطون على أخذ تونس وأخذ الجزاير كلها ، وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصارها غاية الإحكام ، وكانت ترتد عن الإسلام عربان المغرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من ديار الإسلام لا بلغهم الله ذلك المرام وأنزل عليهم الخزي والخذلان والنكال إلى يوم القيام »[١] .

وقد نقل حسين خوجه بن علي نص كلام النهروالي مستشهدا به على أهمية تلك الفتوحات الجليلة[٢] ، فلقد وعى علماء المسلمين حال العالم عند تولي السلطان سليم ، وفطنوا إلى الأخطار المحيطة بهم ، وفهموا أعمال السلطان سليم ومن خلفه من السلاطين وفقا للمرجعية الإسلامية فاهتدوا إلى الصواب ، ولم يقل أحد منهم مثل تلك الأقوال التافهة من أن الأهداف كانت اقتصادية حتى تمتلئ الخزانة العثمانية بإيرادات الولايتين الغنيتين مصر والشام إلى آخره مما نقله د.الراقد عن مستشرق حاقد أو عن مؤرخ ذي عقل فاسد ، والدليل على فساد ذلك القول من وجهين :

١- أن السلطان سليما لما فتح مصر لم يصادر ما بها من أوقاف السلاطين السابقين ، بل أبقاها على حالها بالرغم من أن ضم تلك الأوقاف إلى بيت المال جائز شرعا ، لأنها ليست أوقافا حقيقية بل هي أراض يملكها بيت المال[٣] ، لكن السلطان سليم أبقاها على حالها بالرغم

---

(١) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٣٨٣) .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٨٠) .

(٣) يشترط في الوقف أن يكون ملكا لواقفه ولكن سلاطين بني أيوب والمماليك من بعدهم كانوا يوقفون الأراضي المملوكة لبيت المال على جهات معينة من باب تيسير وصول الأموال إلى مستحقيها فأطلق عليها الإرصادات أو الرزق بضم الراء وفتح الزاي لذلك فهي ليست أوقافا حقيقية بل أموال مملوكة لبيت المال ، لذلك يجوز ضمها لبيت المال مرة أخرى وقد فصل ذلك الشيخ مرعي الكرمي في كتابه المذكور وفي كتابه « تهذيب الكلام في حكم أراضي مصر والشام » وفي مصنفه « إيقاظ العارفين على حكم أوقاف السلاطين » وبين أن ذلك مذهب أكابر العلماء من مختلف المذاهب .

من عظم مساحتها فقد نقل الإسحاقي[1] عن شيخه محمد حجازي الشعراوي[2] عن مشايخه أنها كانت نحو عشرة قراريط أي تقريبا ٤١٪ من أراضي مصر ، وقد وافقه على ذلك شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي[3]، وقال مرعي بن يوسف الكرمي : « ومن فضائل آل عثمان تبقية هذه الأوقاف الموقوفة من قبل السلاطين السالفين والأمراء السابقين ، وإجرائها على سنن شروط الواقفين ، وعدم التعرض لها بشيء يشين . فانظر إلى مكارم أخلاق السلطان سليم حيث استولى على مصر ، كيف لم يتعرض (للأوقاف) التي أوقفها أعداؤه بل أقرها على حالها ، وأعجب منه حيث لم يتعرض لوقف عدوه السلطان الغوري ولا لمدرسته بشيء يشين بل أقرها على أوقافها على ما كانت عليه في زمن واقفها »[4]. ... فلو كان السلطان سليم طامعا في إيرادات مصر لما تخلى بهذه السهولة عن ربع ٤١٪ من أراضيها .

٢- أن السلطان سليما بعد فتحه مصر لم يتعرض لما يسمى بالذخيرة والصر الحكمي للحرمين الشريفين . قال ابن أبي السرور البكري : « الذخيرة هي صدقة كانت تجهز من خزينة مصر من قبل ملوك الجراكسة ، وأبقاها السلطان سليم على حالها وأجراها في كل عام من خزينة مصر ، تفرق على فقراء الحرمين وعلى مشايخ العرب أرباب الدرك في طريق الحاج ، وهي باقية مستمرة إلى الآن . وفرقت الصدقات المصرية التي تجمع من أوقاف الحرمين بمصر وتجهز إلى الحرمين الشريفين ، ويقال لها الصر الحكمي وهو أيضا باق إلى الآن »[5].

وبالجملة فإن أموال مصر بقيت تقريبا على حالها في العامين ونصف الذين عاشهما السلطان سليم بعد فتح مصر إلى أن توفي رحمه الله ، ومما سبق يتبين بطلان قول د.الراقد أن السلطان سليما فتح مصر والشام بغرض زيادة إيرادات الخزينة العثمانية ليتسنى له تمويل

---

(١) محمد بن عبد المعطى الإسحاقى المنوفي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٣٦).

(٢) قال عنه المحبي : الإمام المحدث المقرئ خاتمة العلماء كان من أكابر الراسخين في العلم ... ومن مؤلفاته « البرهان في أوقاف السلطان »، توفي ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م ، انظر خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ١٧٤) .

(٣) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين (ص ١١٥) .

(٤) مرعى بن يوسف الكرمي : قلايد العقيان في فضايل آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم ٥٢٩٨ ، (ورقة ٢٧) .

(٥) محمد بن أبى السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٠٠) .

مشروعاته الحربية الإمبراطورية ، ولو كان الأمر كذلك لصادر شيئا من الأوقاف السلطانية وهو جائز شرعا كما بينا على الأقل لتعويض النفقات الباهظة التي أنفقها على حملة مصر والشام ..! أنا هنا لا أنفي أن الإيرادات العثمانية قد زادت بعد فتح مصر والشام وذلك عندما قام السلطان سليماني القانون ابن السلطان سليم رحمهما الله بتنظيم أحوال مصر فيما سمي آنذاك « **قانون نامه مصر** » ، وتم ضبط إيرادات الإقليم بالكامل واحتساب الفائض بعد استقطاع المصروفات من مرتبات الجنود والقضاة والموظفين الإداريين والنفقات العمرانية إلخ . وكان ذلك الفائض يرسل إلى اصطنبول ويسمى بخزينة مصر ، وكانت تلك الخزينة تستخدم في أول الأمر في الإنفاق على إيالة بودين (بودابست) التي أسست عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م ، ثم قام بعد ذلك أرسلان باشا (ت ٩٧٤هـ/ ١٥٦٨م) أمير أمراء بودين بعمل خزينة خاصة لإيرادات الإيالة واستغنى عن الخزينة المصرية ، فقد **قال إبراهيم أفندي بجوي** : « وحتى ذلك الوقت (زمن السلطان سليمان) كانت خزينة مصر لا تحل في اصطنبول ، وكانت تأتي إلى بدون (بودين)بالصناديق كما هي ، ويغير المشار إليه (أرسلان باشا) هذا النظام ويحرر دخل المقاطعات وأموال الجزية »[1].

وهكذا يكون الحال دائما فإن الإدارة المركزية تجمع إيرادات الولايات ، تم تقوم بالإنفاق لكل ولاية حسب الحاجة ، كما كان عمرو بن العاص ﷺ يرسل خراج مصر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة ، ومن بعده من الولاة كانوا يرسلون الخراج إلى دمشق ثم إلى بغداد ... الخ . وكما ترسل محافظات مصر الآن إيراداتها إلى وزارة المالية ، التي تعد الموازنة العامة للدولة في كل عام للإنفاق على المشروعات القومية ، وكان المشروع القومي للمسلمين في زمن السلاطين العثمانيين هو دفع الحملات الصليبية الجديدة والجهاد في سبيل الله وفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد ، وكانت كل طاقات الدولة توجه إلى ذلك بما فيها أموال السلطان الخاصة ، فقد نقل بجوى عن شيخ الإسلام صنع الله أفندي أن السلطان سليمان القانوني رحمه الله عندما هم بالخروج إلى حملة سكتوار عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٨م تلك الحملة التي توفي فيها ، أرسل كل ما يوجد من أواني ذهبية وفضية في قصره إلى دار سك النقود (الضرب

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٩٩) .

خانه) لصك العملة منها لتمويل الحملة[١].

ثم نوجه لكم سؤالا يا أساتذة التاريخ ، ألم تزدد خزينة السلطان نور الدين محمود بعد أن ضم مصر ؟! وألم تزدد خزينة السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد أن ضم دمشق والموصل وغيرهما ؟! ألم تنفق هذه الأموال في التصدي للصليبيين وتحرير بلاد المسلمين ؟! ما لكم يا أساتذة التاريخ ، ما لكم ؟! ما لكم كيف تحكمون ؟!

خلاصة القول أن ضم مصر إلى الدولة العثمانية زاد في إيرادات الخزينة المركزية ، لكن ذلك لا يمكن أن يعتبر سبب الفتح ، بل هو نتيجة من نتائجه حدثت تبعا له ولم تكن مقصودة لذاتها .

أما السبب الثاني الذي لأجله زعم د.الراقد أن السلطان سليما اختار أن يبدأ في حركته التوسعية بالشرق قبل الغرب ، فهو العامل العسكري ، من أن أوروبا كانت قد دخلت في مرحلة التطور وتم تأسيس جيوش نظامية عوضا عن نظام الإقطاع الحربي ، وتأسيس وحدات للمدفعية وإنشاء الأساطيل البحرية المسلحة ثم قال : « كان البدء بالصدام مع الدول الأوروبية غير مأمون العواقب ، فالتطورات العسكرية والعلمية التي طرأت على الدول الأوروبية أوضحت بجلاء احتمال الهزيمة أكثر من احتمال النصر ، وكانت البداية بالميدان الأوروبي تؤدى إلى كارثة تحيق بالجيش العثماني » ... **ثم قال د.الراقد** : « كان استخدام سلاح المدفعية عاملا حاسما كفل للعثمانيين النصر على الصفويين والمماليك فلم تكن أي من هاتين الدولتين تملك فرقا للمدفعية ... غير أن هذا التفوق في الفن الحربي كان بالنسبة للميدان الشرقي فقط ، فلو أن السلطان سليم اتجه بمدفعيته نحو الميدان الأوروبي لوجد المقابلة بالمثل ، بل إن الدولة العثمانية ذاتها قد نقلت عن أوروبا استخدامها لسلاح المدفعية عندما جلب محمد الثاني صناع المدافع والمعلمين المختصين بهذا الفن من ألمانيا والمجر »[٢].

قلت : ولم تنفرد كتب الجامعة بهذه الأباطيل بل امتدت إلى كتب المدارس أيضا ، فكتاب الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي الذي ألفه فريق من الأساتذة منهم فيما يتعلق

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٠٩) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٢٩ – ١٣١) .

بالتاريخ الحديث أ.د. إسماعيل زين الدين . فقد جاء في الكتاب : « وقد أدرك السلطان سليم الأول أن الصدام مع الدول الأوروبية في ذلك الوقت محفوف بالمخاطر فالتطورات العسكرية والعلمية التي طرأت على الدول الأوروبية أوضحت بجلاء مدى تفوق أوروبا حضاريا وعسكريا على العثمانيين ، ومن هنا كان التوجه نحو الشرق لتحقيق السيطرة عليه »(1).

قلت : كل ما نقلناه عن د.الراقد آنفا إنما هو أوهام سيطرت على فكره ، ولم ينج من تلك الأوهام الفريق الذي ألف كتاب التاريخ المدرسي المذكور ، وبيان ذلك من أربعة أوجه :

١- إن التطورات التي يزعم أنها قد حدثت في أوروبا ، كانت قد حدثت في الدولة العثمانية قبلها بزمن طويل ، فبالنسبة لتأسيس جيش نظامي فقد بدأ ذلك منذ عهد السلطان مراد الأول (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) فهو الذي أسس اليني جري . وهم جنود نظاميون يتقاضون رواتب من الديوان . وكذلك وحدات الفرسان فقد كان منهم « تيمارلي سباهي » أي فرسان من ذوي الإقطاعات الحربية ، ومنهم قابوقولو سباهي » أي فرسان خدم الباب وهو يتقاضون رواتب من الديوان ، هذا بخلاف وحدات المدفعية والعزب فهم جنود نظاميون ، وغير هؤلاء من وحدات الجيش جنود نظاميون أيضا ، أما بشأن البحرية فقد ذكرنا في الباب الأول أنه قبل عام من وفاة السلطان محمد الفاتح ، أي عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م كان الأسطول العثماني ضعف الأسطول البندقي أقوى الأساطيل الأوروبية آنذاك ، وفي عهد السلطان بايزيد الثاني (ت٩١٨هـ/ ١٥١٢م) كان الأسطول العثماني يحتوي على أكبر سفينتين حربيتين في العالم من طراز « طونيلاتو ١٨٠٠ » وقد ذكرنا أيضا أنه في زمن السلطان بايزيد الثاني أيضا استطاع كمال رئيس أن يثبت مدافع بعيدة المدى على السفن الحربية ، فكانت تصل قذائف مدافعه إلى سفن الأعداء من مسافة بعيدة دون أن تصل قذائف الأعداء إلى سفننا»(2) ، وبهذه السفن المتطورة والمجهزة بالمدافع حقق عروج وخير الدين انتصاراتهما على السفن الأسبانية ، واستطاع خير

---

(١) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي العام الدراسي (٢٠١٠ – ٢٠١١) الفصل الدراسي الأول (ص ٦٥) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٨٠ ، ٢/ ٤٢٢) ، خليل إينالجيك : العثمانيون النشأة والازدهار ترجمة د.سيد محمد السيد ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني (ص٧٢) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٩٩) .

الدين باشا بعشرين سفينة عثمانية أن يدمر شطرا كبيرا من الأسطول الأسباني المرابض في بلنسيه ، كما استطاع بهذه السفن العشرين أن يصد حملة إسبانية تتكون من مائة وسبعين سفينة ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول في زمن السلطان ياووظ سليم ، وقد ظل هذا التفوق العثماني زمنا طويلا ، فقد ذكر المؤرخ الفرنسي ليون جيرين أن « بولان » قائد الأسطول الفرنسي إنما تعلم فنون البحر في اصطنبول ، إذ أنه وفد عليها وتعلم على يد خير الدين باشا ورافق الأسطول العثماني ، فلما عاد إلى فرنسا أصبح قائدا للأسطول الفرنسي عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م ، وأضاف جيرين أن بولان رأى في الأساطيل العثمانية استعدادا ومهارة وإتقانا لم يرها من قبل ، وقد تم له ذلك حتى أصبح من أشهر قواد البحرية في زمانه[1]، أما بشأن المدفعية وما قاله د.الراقد عن مدفع السلطان محمد الفاتح فهذا من جملة أوهامه ، وقد تحدثنا تفصيلا عن مدفع السلطان محمد الفاتح فلا داعي للإعادة ، وكنا قد بينا أن أول مرة يستطيع فيها الأوروبيون أن يصنعوا مدفعا مماثلا لمدفع السلطان محمد الفاتح فكان ذلك عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م[2] ، أي بعد قرن وربع تقريبا من مدفع الفاتح ، ونضيف إلى ذلك أن إبراهيم أفندي بجوي سجل إعجابه بمدفع ألماني واعتبره من الاختراعات المدهشة كان ذلك عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م أي بعد تولي السلطان سليم الأول الحكم بحوالي ثمانية وثمانين عاما ، وبالرغم من ذلك ظلت المدافع العثمانية هي الأفضل حتى انتهاء القرن السابع عشر على ما ذكره اللورد Rycault[3]، فكل ما ذكره د.الراقد عن التفوق العسكري لأوروبا في زمن السلطان سليم إنما هو وهم عظيم .

٢- لو سلمنا للدكتور الراقد أن ميزان التفوق الحربي كان في صالح أوروبا في زمن السلطان سليم الأول ، وأن التطورات العلمية في أوروبا كانت تشير إلى أن احتمال هزيمة العثمانيين أمام الأوروبيين أكبر من احتمال النصر ، فما هو الذي تغيير في ذلك الميزان في الثمان سنوات التي حكمها السلطان سليم الأول . إذ من المعلوم أن أولى حملات السلطان سليمان القانوني في سنة وفاة أبيه رحمه الله كانت في أوروبا ، فما عساه يكون ذلك التغيير .؟! هل

(١) نقلا عن الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٤٥ ، ٥٥١) .
(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٨١) .
(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٨٣) .

استطاع العثمانيون إن يحققوا إنجازات علمية تقلب موازين القوى في ثمان سنوات ؟! ، إن التطورات العلمية في ذلك الزمان لم تكن بالسرعة التي نشهدها في أيامنا الحاضرة بل كانت بطيئة جدا ، فلا يمكن أن تكون الدولة العثمانية قد حققت طفرة علمية في ثمان سنوات تقلب بها موازين القوى ، فمما لا شك فيه أن موازين التفوق الحربي كانت في صالح العثمانيين أصلا بلا ريب وقد قدمنا أدلة وافرة على ذلك .

٣- إن لم يقتنع د.الراقد بأن ميزان التفوق الحربي كان في صالح العثمانيين في تلك الفترة ، وصمم على أن موازين التفوق الحربي كانت في صالح أوروبا ، فعليه أن يفسر لنا الانتصارات العسكرية الكاسحة التي حققها السلطان سليمان على الألمان في أوروبا ، وعلى الإسبان في البحر المتوسط وعلى الصفويين في آسيا . وكانت الدولة في كثير من الأحيان تخوض الحروب في جبهتين في آن واحد وأحيانا في ثلاث جبهات ، ومن يريد أن يتتبع ذلك فعليه أن يعيد قراءة الباب الأول من هذا الكتاب .

بقي أن نشير إلى شيء آخر وهو أن د.الراقد قد بنى كلامه المذكور آنفا على معلومة نقلها عن كارل بروكلمان ، وقد أسندها إليه وهي أن السلطان محمد الفاتح جلب صناع المدافع من المجر وألمانيا ، وكما قلت لك من قبل إن بروكلمان هذا مستشرق في غاية الحذق فكل ما قاله بروكلمان أن السلطان محمدا الفاتح أتى بصناع المدافع من المجر وألمانيا ، فأخذ د.الراقد عنه هذا الكلام وأضاف عليه من عنده وبنى عليه استنتاجا ، ألا وهو أن أوروبا كانت أكثر تطورا من العثمانيين ثم بنى على هذا الاستنتاج تحليلا ، ألا وهو أن ذلك التفوق العسكري الأوروبي المزعوم كان السبب في اختيار السلطان سليم أن يبدأ بغزو الشرق قبل الغرب ، وبروكلمان لم يقل كل هذا الكلام ، فهو لم يقل لا الاستنتاج ولا التحليل ، فإن مكانته العلمية تأبى عليه ذلك لئلا يتهم بالجهل ، ولكنه ألقى طعما ، وهو يعلم حتما أن باحثا مسلما غرا سيلتقمه .

٤- قال د.الراقد كلاما آخر أشد بطلانا من سابقه تعدى به مرحلة الوهم بزمان فقال : « إن الأسلحة النارية اليدوية لم يستخدمها العثمانيون إلا سنة ١٥٤٨م في حين كانت المدفعية معروفة معرفة جيدة لديهم إبان القرن الخامس عشر . لأن الحروب الأوروبية اضطرت العثمانيين

إلى استخدام السلاح الحديث كضرورة لا محيص عنها »[1].

قلت : لقد استخدم العثمانيون البنادق النارية في فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. وقد ذكر ذلك المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس وأشار إلى تفوق العثمانيين فيه ، فبعد أن ذكر استخدام حراس أسوار القسطنطينية من البيزنط لبنادق البارود . قال : « وكان الأتراك على علم بهذا السلاح واستخدموه أيضا أفضل مما استخدمه البيزنطيون »[2].. كما استخدمها السلطان سليم الأول في حربه مع الصفويين عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، ثم في حربه مع المماليك عندما فتح مصر والشام في عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م ، وقد أورد ذلك أحمد بن زنبل الرمال في في أكثر من موضع[3].

والحق أن كلام د.الراقد مليء بالمغالطات والأخطاء العلمية الفادحة ، ثم راح يبني عليها استنتاجات وتحليلات فتكون خاطئة أيضا بلا ريب ، والعجيب أن كتاب د.الراقد كان الرسالة العلمية التي حصل بها على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٨م تحت إشراف د.أحمد الحتة أحد أعمدة التاريخ الحديث ، وطبع هذه الرسالة يدل على أنها نوقشت وأجيزت ، فكيف فاتت كل تلك الأخطاء على د.الراقد وعلى أستاذه د.أحمد الحتة وعلى لجنة فحص الرسالة التي منحته درجة الدكتوراه ، إن هذا لأمر عجيب وله دلالات خطيرة ، ولازال عندنا المزيد .

أما د.أحمد فؤاد متولي فقد أثبت خطر الصفويين الشيعة من أهل الرفض ، وصرح أن قتال السلطان سليم إياهم كان بهدف التصدي للمد الشيعي ، ولكنه عندما تحدث عن فتح الشام ومصر وتعرض لأسباب الفتح العثماني أتى بكلام واه لا يعبر عن حقيقة الأمر ، فقد حصر الأسباب في ثلاثة أمور :

١- إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين . قال د.أحمد فؤاد : « وقد هرب بعض الأمراء خوفا على حياتهم إلى المماليك أو الصفويين وأحسن هؤلاء وفادتهم وأكرموهم وأنزلوهم منازل خاصة ، مما زاد من غيظ العثمانيين وحاول بعض السلاطين العثمانيين جاهدا

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٣١ ، ١٣٢) .

(٢) ميخائيل دوكاس : التاريخ البيزنطي ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ٢٥٢) .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٧٠ ، ١٢٧) .

أن يحصل على هؤلاء الأمراء الهاربين ، ولكن المماليك والصفويين لم يجيبوهم . بل إنهم أمدوا بعضهم بالجند والسلاح لمحاربة السلطان الجالس على العرش ... » ثم قال د.أحمد فؤاد : « وقد شجعت مساعدة المماليك للأمير جم رغم بساطتها على زحفة على الأناضول وزيادة العداوة بين العثمانيين والمماليك وحدثت بعض الصدامات على الحدود بين الدولتين »[1].

قلت : ما بال د.أحمد فؤاد يعمم الكلام ويتخذ من حالة فريدة نمطا عاما حاكما على العلاقات بين السلطنتين ، فمعلوم أن دعم سلطان مملوكي لأمير عثماني لقتال السلطان العثماني هو حالة فريدة حدثت في زمن السلطان قايتباي عندما أيد الأمير جما ضد أخيه السلطان بايزيد الثاني ، وقد وقع قتال بين السلطنتين لأجل ذلك ، ثم تم الصلح عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م وانتهى الأمر ، وكان ذلك قبل الفتح العثماني لمصر بسبعه وعشرين عاما ولم يتكرر خلالها أبدا ، وظلت العلاقات بين السلطنتين حسنة جدا فيما تبقى من حكم السلطان قايتباي ، ثم تحسنت أكثر وأكثر منذ زمن السلطان الغوري الذي تولى الحكم في عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠١م أي قبل الفتح العثماني بستة عشر عاما ، وكانت العلاقات حسنة جدا وكانت السلطنة المملوكية تتلقى مساعدات من السلطنة العثمانية للتصدي للبرتغال في البحر الأحمر ، فقد قال ابن إياس : « فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين ألف سهم وبارود مطيب أربعون قنطارا ومقاذيف خشب العدة ألف مقذاف وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب فشكره السلطان (الغوري) على ذلك ، وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلي إلى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشابا ونحاسا وحديدا فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان »[2]... وقد قال السلطان بايزيد : « هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة »[3].

وقال ابن إياس في أحداث عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م : « حضر إلى الأبواب الشريفة شخص

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٩٦) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٠١) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٤) .

يقال له كمال من خواص جماعة ابن عثمان ، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلا ونهارا ، حتى أعيى الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين في الإسلام »[١].

قلت : وكمال المذكور هو الريس كمال أحد أشهر رجال البحرية العثمانية . وهو أول من ثبت المدافع بعيدة المدى على السفن . وصاحب المعارك البحرية الشهيرة في الموره وصاحب الغارات على السواحل الإسبانية ، ولا ريب أن حضوره إلى مصر كان لتقديم النصح والمشورة للبحرية المملوكية في حروبها ضد البرتغال . لأن ابن إياس ذكر أنه أقام بمصر مدة يسيرة ثم عاد رحمة الله عليه . ومما يؤكد صدق علاقات المحبة بين السلطانين أنه عندما بلغ السلطان الغوري نبأ وفاة السلطان بايزيد قال ابن إياس : « فلما تحقق السلطان وفاته بكى عليه وأظهر الحزن والأسف ... وقد حزنوا عليه الناس فإنه كان قامعا للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلا ونهارا وكان به نفع المسلمين »[٢].

وبعد أن توفي السلطان بايزيد الثاني ظل الدعم العثماني للمماليك قائما ، فقد ذكر ابن إياس في أحداث رمضان من عام ٩١٨هـ أي بعد سبعة أشهر من ولاية السلطان سليم الأول : « حضر إلى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربي ، وكان السلطان أرسله إلى بلاد ابن عثمان ليشتري أخشابا وحبال ومكاحل نحاس ، فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته إلى السلطان عدة مكاحل ونحاس وحديد وأخشاب وحبال وغير ذلك أشياء كثيرة في مراكب موسوقة »[٣].... وفي صفر عام ٩٢٠هـ ذكر ابن إياس أن السلطان الغوري ذهب إلى السويس لمتابعة خروج الأسطول لقتال البرتغال وكان يقوده الريس سلمان العثماني ومعه ألفا بحار عثماني : « وكان جماعة ابن عثمان هناك نحوا من ألفي إنسان ... وكان الريس سلمان العثماني هو الشاد على عمارة تلك الأغربة وهو المشار إليه في ذلك»[٤].

ما سبق يؤكد أن العـلاقات بين السلطنتين عادت إلى طبيعتها بعد انتهاء واقعة الأمـير جم

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١١٩) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٧٠) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٨٥) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٣٦٥، ٣٦٦) .

وأن التعاون كان قائما بينهما وقد محيت آثار العداوة التي أحدثتها مساعدة السلطان قايتباي للأمير جم ، أما إن كان د.أحمد فؤاد يقصد الأمير أحمد بن بايزيد أخا السلطان سليم ، فإن السلطان الغوري لم يسمح له بالإقامة في مصر وكان هناك تنسيق بين السلطنتين في شأنه ، إذ أن الأمير أحمد لما فر إلى المماليك أرسل السلطان سليم رسالة إلى السلطان الغوري يخبره بما عليه أن يفعله تجاه أخيه . فتسلمها نائب حلب خاير بك وأرسلها إلى الغوري في القاهرة منتظرا منه الجواب ، ثم أرسل إلى السلطان سليم رسالة جاء فيها : « إن السلطان أحمد المشار إليه حضر إلى مدينة دارنده من معاملة المملكة الشريفة (سلطنة المماليك) ... وقد توجه القاصد إلى خدمة الأبواب الشريفة (مقر السلطان الغوري) واستمر سلطان أحمد مقيم بدارنده ينتظر الجواب الشريف ، وعقبيها إن شاء الله تعالى يعود الجواب الشريف بما في خاطر مقامكم العالي وزيادة[1] ، ولله الحمد الذي حضر سلطان أحمد إلى معاملة والدكم المقام الشريف (الغوري) ، فإنه محب لمقامكم العالي ، والمملكتين مملكة واحدة والمحبة مستمرة من عهد والدكم المقام المرحوم تغمده الله بالرحمة والرضوان ... »[2]... ولم يسمح السلطان الغوري للأمير أحمد بالإقامة في سلطنته فعاد إلى الأناضول وقاتل أخاه السلطان سليما حتى أسر وقتل كما فصلناه في الباب الأول .

أما إن كان د.أحمد فؤاد يقصد الأمير سليمان وأخاه الأمير علاء الدين ابني الأمير أحمد ، فإنهما قد تمردا مع أبيهما وقاتلا عمهما السلطان سليما ، فلما هزموا وقتل أبوهما فرا إلى مصر وآواهما السلطان الغوري ، ولا ريب أن ذلك كان بتنسيق مع السلطان سليم على غرار التنسيق التي كان بينهما في واقعة الأمير أحمد . ولم يكن لذلك أي علاقة بالفتح العثماني لمصر من أربعة أوجه :

الأول : أن السلطان الغوري لم يقدم لهما أي دعم أو مساعدة بل سمح لهما بمجرد الإقامة في مصر . بل إنه لم يفرح بقدومهما أصلا . فقد قال ابن إياس : « فما انشرح السلطان لذلك

(١) خاير بك هنا يطمئن السلطان سليما بأن رد السلطان الغوري سيكون موافقا لما طلبه منه وزيادة .

(٢) وثيقة بأرشيف طوب قبو سرايي باصطنبول (رقم ج. ٧١٤٣) ، حققها د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له (ص ٦٨) .

وخشي مما يأتي من هذه الحركة »[1].

الثاني : قال ابن إياس بعد ذلك : « أخلع السلطان على الأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني وعينه بأن يتوجه قاصدا إلى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ليهنئه بالملك وينسج مودة بينهما »[2]. أظن أن السلطان الغورى أراد بهذه الرسالة أن يطمئن السلطان سليما بأنه لن يفعل مع أبناء أخيه مما سبق أن فعله سلفه السلطان قايتباي مع الأمير جم من تأييده ضد السلطان بايزيد .

الثالث : أن السلطان الغوري لم يسع لاستخدام الأميرين ضد السلطان سليم . فهو من جهة لا يمتلك القوة التي تمكنه من ذلك ، ومن جهة أخرى فهو منشغل بصراعه مع البرتغال ويحتاج إلى الدعم والمساعدات التي تقدمها له الدولة العثمانية . فما كان ليقدم على فعل شيء يخسر به هذا الدعم .

الرابع : أن السلطان سليما لم يغضب من إيواء الغوري أبناء أخيه ، بدليل عدم توقف المساعدات العثمانية لصد الهجمات البرتغالية ، فإن الأميرين وصلا إلى مصر في ذي القعدة عام ٩١٨هـ / ١٥١٣م والريس سلمان العثماني كان يقود الأسطول المملوكي ومعه ألفا بحار عثماني عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م .

ما سبق يؤكد أن ما سماه د.أحمد فؤاد متولي إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين وجعله السبب الأول للفتح ليس له أي علاقة بالفتح العثماني لمصر ، ولو صح أن له علاقة لكانت علاقة بعيدة جدا من الدرجة الثالث أو الرابعة .

٢- السبب الثاني الذي ذكره د.أحمد فؤاد متولي هو الصراع على الإمارات المجاورة ، وقد أشبعت الكلام عن تلك المسألة في زمن السلطان بايزيد مما يغني عن الإعادة ، والحال لم تتغير في زمن السلطان سليم . وليس في المصادر ما يشير إلى صراع بين السلطنتين حدث على الإمارات التركمانية . إما أن كان يقصد د.أحمد فؤاد قيام السلطان سليم بضم إمارة دلغادر عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م فهذا لم يكن من أسباب الفتح . وأصل ذلك أن السلطان سليما لما كان في حملته على الشاه إسماعيل الصفوي قام علي دولات أمير دلغادر بمنع قوافل الإمدادات عن

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٨٩) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٨٩) .

الجيش العثماني ، بل ذكر ابن إياس أنه تعرض لمؤخرة الجيش العثماني ونهبها ، فأرسل السلطان سليم إلى الغوري يشكو له من أفعال تابعه ، ويطلب منه عزله وتولية ابن شاه سوار، فرفض الغوري ذلك ورد على السلطان سليم بقوله (إن علي دولات عاصي أمري فإن قدرت عليه فاقتله) فأرسل السلطان سليم سنان باشا في حملة على دلغادر فانتصر عليها وقتل علي دولات ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك من مصادره في الباب الأول ، فلم يكن ثمة نزاع على إمارة دلغادر فضلا عن أن يكون من أسباب الفتح العثماني لمص ر. وفي رأيي أن السلطان سليما قد أحسن بضمه دلغادر لأن سلوك علي دولات المذكور آنفا كان سلوكا عدوانيا جدا ، وبالنظر في خريطة الأناضول يتبين لنا أنه بعد أن ضم السلطان سليم شرق الأناضول وفارس ، أصبحت إمارة دلغادر (أبلستين) عقبة كبرى في منتصف أراضي الدولة العثمانية ، لاسيما بعد أن أظهر أميرها العداء للسلطان سليم ، فلم يكن من الحكمة أن تظل على حالها تهدد أي حملة مقبلة على الشاه الصفوي ، فلا يصح أن يقال أن الصراع على الإمارات المجاورة كان سببا في الفتح العثماني للشام ومصر ، وإن صح فهو سبب من الدرجة الثالثة أو الرابعة .

٣- السبب الثالث الذي ذكره د.أحمد فؤاد متولي لفتح مصر والشام هو التحالف المملوكي الصفوي ، وهذا سبب حقيقي بلا ريب . وأتعجب من د.أحمد فؤاد إذ جعله ثالث الأسباب ، وقدم عليه السببين المذكورين آنفا بالرغم من عدم وجود أي علاقة بينهما وبين ذلك الفتح ، وكما ذكرنا من قبل أن العالم الإسلامي كانت تحدق به أخطار ثلاثة الإسبان والبرتغال والصفويون ، فتحالف السلطان الغوري مع الشاه الصفوي فيه زيادة لحدة الخطر الثالث ، ولا ننسى أن الشاه الصفوي كان قد ملك بغداد وله وجود كبير في العراق ، فهو قريب جدا من الشام ، فقد رأى السلطان سليم أنه بضم الشام يكون قد قضى على أي فرصة للشاه الصفوي لنشر عقيدته الفاسدة فيه ويكون قد وضع حدا فاصلا لا يستطيع الشاه أن يتخطاه ، ثم إن السلطان سليمان بن السلطان سليم بعد ذلك قد حرك هذا الخط الفاصل بعد أن ضم العراق كله وتوغل في فارس حتى أصبح الحد الذي لا يستطيع الشاه الصفوي أن يتخطاه هو أصفهان ، كما رأى السلطان سليم أنه بضمه مصر يستطيع التصدي للخطر البرتغالي .

مما سبق تبين أن الأسباب التي ساقها د.أحمد فؤاد متولي لفتح مصر والشام لا يصح منها

إلا السبب الأخير ، لا لذاته بل تبعا لسبب المد الشيعي الرافضي الذي كان يهدد العالم الإسلامي ، ومما يتعجب له أيضا أن د.أحمد فؤاد لم يذكر شيئا عن الخطر الإسباني ، أما الخطر البرتغالي فقد ذكره عرضا بصيغة الظن بقوله (ويروي البعض) ، ونص كلامه كما يلي : « لقد كانت دواعي الفتح كثيرة ذكرتها تحت أسباب الفتح ... **ويروى البعض** أن الفتح العثماني أنقذ الشرق العربي من توغل النفوذ البرتغالي في المياه العربية بعد أن فشل المماليك في إبعاد خطره عن المنطقة ، فبعد فتح مصر ركز العثمانيون اهتمامهم على بناء قاعدة بحرية في السويس على أنقاض القاعدة المملوكية تكون مرتكزا لهم لضرب البرتغاليين في المياه العربية الجنوبية والمحيط الهندي »[1].

قلت : إن أحد الأسباب الرئيسة للفتح قد ذكره د.أحمد فؤاد عرضا في موضع بعيد عن الموضع الذي ذكر فيه أسباب الفتح. وقد ذكره بصيغة تمريض بقوله (يروي البعض) كما لو كان هذا السبب مما يذكره القصاص في الموالد أو العوام على المقاهي ، أو مما يثرثر به العجائز في أحاديث المساء ، بالرغم من أنه ذكر أسبابا وهمية لا علاقة لها بالفتح أصلا وأفرد لها صفحات .!

أما د.عبد المنعم ماجد فقد أتى بالعجائب كعادته ، فهو عند الحديث عن حرب السلطان سليم مع الشاه إسماعيل الصفوي ، لم يتحدث عن هدف التصدي للمد الشيعي ، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد ذكر أن السلطان سليما بدأ يضطهد الشيعة في الأناضول للتحرش بالدولة الصفوية قال د.عبد المنعم : « وكان مظهر التحرش العثماني بالدولة الصفوية هو اضطهادهم للشيعة في البلاد العثمانية نفسها ، بحيث استحكم العداء بين الدولتين . وحينما ثار الشيعة من سوء المعاملة ، أحل بهم بايزيد الثاني نقمته وأطلق يد ابنه الصارم ياووز (سليم) للتنكيل بهم ، حتى قيل أنه هلك من الشيعة في الأناضول عشرة آلاف إنسان بين صبي في السابعة وشيخ في السبعين ، فلما تسلطن سليم نفسه أصبح همه القضاء على الشيعة ، فأمر بقتلهم في جميع البلاد العثمانية ... ومن ثم أصبحت الحرب واقعة لا محالة بين العثمانيين والصفويين »[2].

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٣١) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١١٥) .

قلت : هذا قلب للحقائق رأسا على عقب .! ولم يذكر د.عبد المنعم عن أي مصدر نقل هذا الكلام .. والحق أن تلك التخاليط التي ذكرها لا توجد في أي مصدر تاريخي لا عربي ولا تركي ، فقد ذكرنا الأحداث تفصيلا في الباب الأول وفي هذا الباب أيضا . وذكرنا كيف أن الشاه إسماعيل قام بالهجوم على إمارة دلغادر ، ثم ملك العراق ودخل بغداد ونكل بأهل السنة فيها ، ثم عمد إلى إثارة ثورة شيعية في الأناضول على يد شاه قولي فتصدى لها الصدر الأعظم علي باشا وقتل في المعركة ، ثم عمد الشاه إسماعيل إلى إثارة ثورة أخرى على يد نور علي خليفة . فلما تولى السلطان سليم الأول كان يجب القضاء على ذلك الخطر الشيعي الذي بات يتهدد العالم السني كله في الأناضول وفي الشام ومصر أيضا... هكذا قلب د.عبد المنعم الوقائع رأسا على عقب وصور في كتابه صورة مشوهة للتاريخ سامحه الله ، كما أن د.عبد المنعم ماجد لم يذكر الخطر البرتغالي كأحد أسباب الفتح العثماني لمصر ولا الخطر الإسباني بالرغم من أهميتها ، وإنما ذكر ثلاثة أسباب أخر فقال : « أرسل سليم يطلب من الغوري تسليم قاسم (ابن أخيه) وكان صغير السن لا يتعدى ثلاث عشرة سنة ، فرفض الغوري طلبه بسبب أن الغوري كان يرى أن سليما الذي اجترأ على كل هذه الجرائم ، لا يتورع عن قتاله ، سيما وأن الأمور كانت قد تأزمت بين الدولتين بسبب مدن الحدود ، فلما وجد سليم أن الغوري يتدخل في شئون أسرته عزم على حرب المماليك حربا شاملة »...**ثم قال د.عبد المنعم ماجد** : « ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمرا مسلما لديهم به ، بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين الشريفين ، وأن العقلية الإسلامية وقتئذ لا تقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين إلا من كان يسيطر على الحرمين الشريفين . ولما كان العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين دون المماليك ولم يتهيأ لهم الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك في الحرمين »[1].

قلت : أما بشأن إيواء الأمراء العثمانيين الفارين والصراع على النفوذ على الإمارات التركمانية فقد أشبعت الكلام فيه ، ولا أريد أن أعيده لاسيما وأن د.عبد المنعم لم يقدم دليلا

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١١٠ ، ١١٩) .

واحدا على كلامه ، فلم يخبرنا في أي مصدر تاريخي أو في أي وثيقة جاء مطالبة السلطان سليم بتسليم ابن أخيه قاسم ، والحق أن ذلك الكلام ليس له أصل في التاريخ ، بل قد ذكرنا آنفا بما يغني عن الإعادة أن إقامة الأمراء العثمانيين في مصر كانت بالتنسيق مع السلطان سليم نفسه ، أما بشأن الرغبة في زعامة العالم الإسلامي فأقول وبالله التوفيق ، هذا تسطيح للواقع وإغفال لكثير من الحقائق ، أين الحديث عن الخطر البرتغالي وأين الحديث عن الخطر الإسباني وأين الحديث عن تحالف الغوري مع الصفوي وقيام نائبه في دلغادر بقطع طريق قوافل التموين على جيش السلطان سليم إبان القتال مع الشاه إسماعيل الصفوي ، فهل هذه غفلة من د.عبد المنعم ماجد أم تغافل . **ثم نقول :** لم تكن الدولة العثمانية تخوض الحروب من أجل التفاخر والرئاسة ، ولو كان د.عبد المنعم قد قال أن السلطان سليما أراد أن يوحد المسلمين لكان خيرا وأحسن تأويلا ، أو لو كان قد قال أن السلطان سليما أراد أن يسيطر على الحرمين ليحميهما من مخاطر البرتغاليين لكنا حمدنا له ذلك ، أما أن يقول أنهم قاتلوا المماليك ليتحقق لهم الفخر والزعامة ، فهذا ليس فيه نصيب من الصحة علاوة على ما فيه من مذمة لهم وانتقاص من قدرهم بغير حق ، ومع ذلك أنا لا أنفي حظ النفس من حب الزعامة والرياسة عن السلطان سليم أو غيره ، فهذا أمر من خصائص النفس البشرية ، ولكن من الظلم البين والإجحاف أن نجعل ذلك هو أهم أسباب الفتوحات مع إغفال الأسباب الحقيقية .

أما د.صلاح هريدي فقد ذكر أن الحرب مع الصفويين كانت لدرء الخطر الشيعي ، ولكنه عندما تعرض لفتح مصر والشام ذكر بعض الأسباب التي ذكرها د.أحمد فؤاد متولي ود.عبد المنعم ماجد ولكن بمزيد من التفصيل ، والعجيب أنه أغفل ذكر السبب الأهم الذي ذكره د.أحمد فؤاد وهو التحالف بين الصفوي مع الغوري ، أي أن د.صلاح هريدي ذكر السببين الأولين الذين لا يمكن اعتبارهما أسبابا في الحقيقة ، وهما الصراع على الإمارات التركمانية وإيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين ، وأسقط السبب الثالث الذي يمكن اعتباره سببا حقيقيا وهو تحالف الصفوي مع الغوري .! والأنكى من ذلك أن د.صلاح لما ذكر قيام علي دولات بمنع وصول الإمدادات إلى جيش السلطان سليم ، بل وهاجم مؤخرة جيشه ونهبها ، ذكره على استحياء فقال : « وأيضا بسبب ما ذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن

العثمانية »[1]. فقد ذكر ذلك د.صلاح هريدي في أقل من سطر ، كما لو كان يود ألا يقرأه أحد ، وهنا يحق لنا أن نتساءل وأن نتعجب .!! إذ أن د.صلاح ذكر في نحو عشرين صفحة ما سماه الصراع على الإمارات التركمانية ولجوء الأمراء العثمانيين إلى المماليك ، وهما سببان لا صلة لهما بالأمر كما قدمنا ، وعندما تعرض د.صلاح لأحد الأسباب الحقيقية ذكره عرضا في أقل من سطر ، وكأنه لا يريد أن يسجل شيئا يدين المماليك .! . وقد أضاف د.صلاح هريدي سببا آخر للفتح العثماني للشام ومصر وهو الرغبة في زعامة العالم الإسلامي[2] ، ثم نقل نص كلام د.عبد المنعم ماجد الذي نقلناه عنه آنفا ، وهنا نقول ، إلى متى سيظل الأساتذة ينقلون عمن سبقهم الكلام على عواهنه دون بحث أو تمحيص .

أما د.محمود الحويرى فقد ذكر بوضوح أيضا أن سبب الحرب مع الصفوي هو مقاومة المد الشيعي ، أما عن الحرب مع المماليك فقد بدأ بذكر الخطر البرتغالي ، وبالرغم من أنه ذكره غير جازم به ، بل على أنه أحد الآراء ، إلا أنني استبشرت خيرا وقلت في نفسي ، ها قد وجدت أستاذا في التاريخ استطاع أن يفهم بعمق سبب الفتح العثماني لمصر والشام ، ولكن ما لبثت تلك البشرى أن انقلبت غما عندما رأيت أن د.محمود قد ذكر رأيين آخرين دون أن يرجح بينهما . فقد قال عن فتح مصر والشام : « يوفر له طريقا بحريا يسهل عليه تموين حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أجدى مما كان عليه الحال تجاه الحرب السابقة ، على حين يرى البعض الآخر أن الصراع العثماني الصفوي لم يكن السبب المباشر للنزاع المملوكي العثماني ، وإن كان عاملا مباشرا للتعجيل به ، أما السبب الحقيقي فهو التنافس على السيادة العليا للعالم الإسلامي ، على أية حال اتخذ السلطان الغوري ... »[3].

قلت : ها قد جمع لنا د.محمود ثلاثة آراء دون أن يتفضل علينا بالترجيح بينهم ، وبهذا يكون قد أفسد ما قاله أولا عن دفع الخطر البرتغالي ، بعد أن ضم إليه أسبابا تافهة جعلها موازية للسبب الأصلي الأمر الذي أدى في النهاية إلى تمييعه والتقليل من شأنه ، ولكن يبدو

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٤٩) .
(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٥٢) .
(٣) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢١٢) .

أن د.محمود لا يكترث أصلا بمعرفة السبب الذي لأجله فتح السلطان سليم مصر والشام إذ ختم كلامه بقوله (على أية حال ...) وكأنه يقول بغض النظر عن الأسباب فهذا أمر لا نهتم به ، وشيء لا يعنينا ، وكأنه لا يتعلق بدارسة التاريخ ، ولم يذكر د.محمود شيئا عن رغبة السلطان سليم في توحيد العالم الإسلامي ولم يذكر شيئا عن الخطر الإسباني ..!

والأنكى من ذلك ما جاء في كتاب الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي الذي ألفه « كوكبة » من الأساتذة . فقد جاء فيه : « بعد انتصار العثمانيين على الصفويين اتجهوا نحو الدولة المملوكية في مصر والشام ، حيث رأى السلطان سليم الأول أهمية تأمين حدوده من ناحية المماليك ، كما رغب في أن يؤكد على الصبغة الدينية لدولته باستيلائه على أراضي الحجاز ، ورغبته أيضا في توسيع ممتلكاته في الشرق عن طريق الاستيلاء على مصر التي تمثل قلب العالم الإسلامي وبالتالي السيطرة على أجزاء مهمة في آسيا وإفريقيا ، كما يمكنهم من السيطرة التامة على جميع الطرق البحرية والبرية التي كانت تربط الشرق والغرب »[1]... فلم يذكر الأساتذة الأفاضل وعلى رأسهم أ.د.إسماعيل زين الدين شيئا عن الخطر البرتغالي ولا الخطر الإسباني ولا الخطر الرافضي ، واكتفوا بذلك الكلام الواهن ، فهكذا تعامل أساتذة التاريخ مع أحد أعظم أعمال السلطان سليم بل أحد أعظم أعمال العثمانيين بصفة عامة ، ومما يحق لنا أن نتعجب منه أن مؤرخا إنجليزيا وهو **أرنولد توينبي** ، وهو أحد المؤرخين المعروفين بالإنصاف وحسن الفهم لوقائع التاريخ ، قد أفصح عن رأيه بوضوح في تلك المسألة ، وهو أن توجه السلطان سليم لفتح فارس كان بهدف تقويض المد الشيعي وأن فتحه لمصر والشام كان من أجل حماية قلب العالم الإسلامي من التوسع الصفوي الشيعي ، ورأي توينبي هذا رأى وجيه حقا كما ذكرنا ، ولكنه لم يحظ برضا أساتذة التاريخ فقد تعرضوا له بالنقض لاسيما د.الراقد ، وقد ألحق كتابه بتلخيص لنظرية أرنولد توينبي من الجزء الأول من كتابه A Study Of History وقد حاولت أن أحصل على هذا الكتاب فلم أظفر إلا بجزئه الثاني ، وودت لو أن قرأت كلام توينبي بنفسي ، فقد أصبحت لا أطمئن لأي كلام ينقله أساتذة التاريخ ، فغالبا ما يكون ناقصا أو محرفا ، ولكن سأنقل شيئا فيما يلي من تلخيص د.الراقد

---

(١) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي العام (٢٠١٠ – ٢٠١١) ، الفصل الدراسي الأول (ص ٦٥) .

لكلام توينبي : « كان لابد من قيام جولة أخرى بين القوتين الإيرانيتين (الصفويون والعثمانيون) ارتبطت بسباق بينهما على الأقاليم العربية المجاورة ، فإما أن يمتد نفوذ الصفويين حتى يصل إلى شاطئ البحر المتوسط ويحيط بالعثمانيين فيحصرهم في شبه جزيرة الأناضول ، أو أن تمتد الدولة العثمانية حتى خط الفرات وتطوق الدولة الصفوية ، وفي حلبة السباق لم يضيع سليم وقتا وشرع في العمل فورا لأنه كان يعلم تماما أطماع إسماعيل في الشام التي تتضح من احتواء قواته على فرقة أطلق عليها اسم « شاملو » ، ولذلك لم يكد يحل عام ١٥١٥م حتى استولى سليم على إمارة ذي الغادر ووصلت حدود الدولة العثمانية إلى خط الفرات ، ثم شرع بعد ذلك في إعداد خططه لغزو الشام ومصر ليعزل الخطر الشيعي ويغلق الباب نهائيا في وجه الصفويين »[١].

قلت : كلام توينبي صواب بلا ريب ، لكن له شق آخر فات عليه ، وهو رغبة السلطان سليم في التصدي للغزو البرتغالي والإسباني لقلب العالم الإسلامي ، ولكن أساتذة التاريخ الذين اعترضوا على نظريته لم يعترضوا عليها لأجل ذلك ، بل اعترضوا عليه تعصبا لتلك الأسباب الواهية التي ذكروها عن أسباب الفتح العثماني لمصر والشام كما قدمنا ، فمما اعترض به د.الراقد على كلام توينبي :

١- أن إحكام الحصار كان يتطلب من سليم أن يتجه بقواته في أعقاب انتصاره في جاليران لغزو العراق لتكتمل دائرة الحصار المضروبة حول العناصر الشيعية تماما ولا تجد أمامها أي منفذ تتسرب منه إلى بادية الشام .

٢- اتجه بكليته (السلطان سليم) بعد انتصاره الجزئي في فارس لقتال دولة المماليك السنية المذهب ، فلو كان الأمر صراعا دينيا مذهبيا لما كان هناك تناقض بين الدولة العثمانية والمملوكية ، وكان من الممكن قيام تحالف بين الدولتين السنيتين في وجه الشيعة بدلا من القتال المضني »[٢].

قلت : هذان الاعتراضان اللذان قدمهما د.الراقد باطلان بلا ريب ، فأما الاعتراض الأول

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : نظرية أرنولد توينبي في أسباب غزو العثمانيين للمجتمع العربي ، ملحق كُتاب الغزو العثماني لمصر (ص ٤٤٧) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١١ ، ١١٢) .

فبطلانه من حيث أن السلطان سليما بعد انتصار جاليران قد أدخل شمال العراق (الموصل والجزيرة) في طاعته سلما ، أما بغداد وسائر العراق فلم يكن غافلا عنه ، بل إنه اضطر لقتال المماليك أولا ، بعد أن تحالف الغوري مع الصفوي وقطع الإمدادات عن الجيش العثماني ، فقد رأى السلطان سليم ضرورة إزالة دولة المماليك ، ليكون ظهره آمنا في أي قتال مرتقب مع الصفوي ، فلم يكن ذلك غفلة من السلطان سليم بل ترتيب للأولويات ، ولكن الموت لم يمهله وقتا كافيا بعد فتح مصر فقبضه قبل أن يضم سائر العراق ، والدليل على ذلك أن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ، خليفته ومتمم مشروعه ضم بغداد والبصرة بعد ذلك ، وقد ذكرنا كل ذلك من مصادره في الباب الأول ، وأما الاعتراض الثاني فبطلانه من حيث أن دولة المماليك وإن كانت سنية إلا أنها تحالفت مع الصفوي ، وقد فضل سلطانها قانصوه الغوري التحالف مع الشاه الصفوي ضد السلطان سليم ، فأضحى عدوا و جسرا آخر يمكن أن يعبر عليه المد الشيعي ليصل إلى الشام ومصر ، ومن جهة أخرى فقد سبق للعثمانيين أن تحالفوا مع المماليك لصد عدوان البرتغال كما قدمنا ، ولكن دولة المماليك كانت قد بلغت حدا من التردي جعلها بالرغم من الإمدادات العثمانية عاجزة عن دفع تسلط البرتغال ، فلم يجد السلطان سليم بدا من إزالة تلك الدولة للتصدي للبرتغاليين بنفسه وقد كان .

أما د.**أحمد فؤاد متولي** فقد اعترض على رأى أرنولد توينبى دون إبداء أسباب[1] !.

تلك كانت رؤية أساتذة التـاريخ وفهمهم لفتوحات السلطان سليم الأول ، هـكذا فهموا دوافعه وأهدافه بئس الفهم ، وكان أمثلهم طريقة د.محمد أنيس ود.عمر عبد العزيز على ما في كلامهما من بعض المآخذ إلا أنه في مجمله أفضل ما صدر عن أساتذة التاريخ في هذا الشأن.

فأما د. **محمد أنيس** فقد ذكر ثلاثة آراء لتوجه الفتوحات العثمانية للشرق وقال ما مضمونه :

١- أن الدولة العثمانية قد بلغت حدا من التشبع في فتوحاتها في الغرب وكان عليها أن تبحث عن ميادين جديدة للتوسع .

٢- مقاومة الخطر الصفوي الرافضي مما حتم على الدولة العثمانية أن تحارب الشاه الصفوي لحماية آسيا الصغرى خاصة والعالم السني عامة من المد الشيعي .

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٩٥) .

٣- التصدي للزحف البرتغالي الذي سيطر على المنافذ البحرية ولحماية العالم الإسلامي من الخطر البرتغالي ، ثم قال د.محمد أنيس فيما يعتبر رأيا رابعا : « والواقع أننا لا نرى ما يمنع أن تكون هذه العوامل جميعها مسئولة مسئولية مشتركة عن الاتجاه الشرقي للدولة العثمانية »(١).

قلت : لا جدال في صحة الرأي الثاني والثالث لكن يؤخذ على د.محمد أنيس أن أقر بصحة الرأي الأول الذي يتحدث عن تشبع العثمانيين في فتوحاتهم غربا ومن ثم تحتم عليهم البحث عن ميادين جديدة ، فهذا باطل بلا ريب وكأنه يعتبر أن الفتوحات العثمانية كانت مجرد توسعات إمبراطورية من أجل التوسع ذاته ، وأنه لم يكن عندهم فرق على الإطلاق بين قتال النصارى في أوروبا وقتال المسلمين في مصر والشام . وهذا باطل بلا ريب ، وقد تحدثنا عن ذلك بأدلته فيما تقدم . كما أن د.محمد أنيس أغفل الخطر الإسباني على الإطلاق ، أما د.عمر عبد العزيز فقد ذكر نفس الآراء الأربعة السابقة(٢) ، ولكن يؤخذ عليه نفس المأخذ الذي أخذناه على د.محمد أنيس ، فهو وإن كان قد رجح الرأي القائل بأن المد الصفوي الشيعي هو الذي حتم على العثمانيين التوجه شرقا ، إلا أنه كان يجب عليه أن يتحدث عن بطلان الرأي القائل بأن الدولة العثمانية تشبعت من فتوحاتها في الغرب . فطالما أنه ذكره كأحد الآراء المطروحة فكان عليه أن يرده .

خلاصة القول أن السلطان سليما الأول أراد بفتوحاته في فارس والشام ومصر أن يوحد العالم الإسلامي لدفع الخطر الشيعي والخطر البرتغالي والإسباني ، وأوثق الأدلة على ذلك ، أعمال السلطان سليم نفسه بعد الفتح ، فإن أول ما وجه بصره إليه كان الجزائر فأمد عروج وخير الدين بالسفن والرجال والمدافع للتصدي للغزو الإسباني ، وكذلك قام بطرد البرتغال من البحر الأحمر ، ففي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م نفس السنة التي دخل فيها السلطان سليم الأول مصر ، جعل الريس سلمان العثماني قبودان السويس ، فحقق انتصارا على السفن البرتغالية في البحر الأحمر وطاردهم وأسر منهم مركبا واثني عشر بحارا ، ثم رحل البرتغال

---

(١) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ١٠٢ – ١٠٣) .

(٢) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٨٨ – ٨٩) .

عن جزيرة كمران وعادوا إلى مواقعهم في الهند[1] .

لماذا وجب إزالة السلطنة المملوكية ؟

يعيب البعض على السلطان سليم فتح مصر ، بدعوى أنه كان من الممكن أن يقوم السلطان سليم بدفع تلك الأخطار عن العالم الإسلامي بالتنسيق مع السلطان المملوكي قانصوه الغوري ، وبدعمه والتحالف معه دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية لإزالة دولة المماليك ، ومن ذلك ما قاله د.عبد العزيز الشناوي رحمه الله ، فمع الإقرار بفضل د.عبد العزيز وجهوده المستفيضة في إظهار الحق وإنصاف الدولة العثمانية وإنكار أكاذيب كثير من المستشرقين . إلا أنه يبدو أن الأمر قد اختلط عليه في تلك المسألة ، فلم يتبين حقيقة الحال . وهذا أمر لم ينج منه حتى أكابر المؤرخين الأقدمين ، اللهم نجنا من الزلل ونق أعمالنا من الخلل واهدنا إلى أحسن العمل ، ويعلم الله أن د.عبد العزيز الشناوي حبيب إلى نفوسنا ، ولكن الحق أحب إلينا منه . قال د.عبد العزيز الشناوي : « وكان في مكنة العاهلين – الغوري وسليم- تنقية الجو وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في مواجهة البرتغاليين في ذلك الوقت العصبي بدلا أن يقضى سليم على دولة المماليك وهي دولة لها تاريخ حافل في خدمة الإسلام »[2].

أما د.عبد الجواد صابر إسماعيل فكتابه يستحق التقدير ولكنه حذا حذو د.عبد العزيز الشناوي في تلك المسألة فقال : « ومما لا شك فيه أنه كان الأجدى والأصلح سياسيا وعسكريا للدولة العثمانية وللعالم الإسلامي ، لو اتبع السلطان سليم السياسة الحكيمة التي انتهجها أبوه السلطان بايزيد الثاني عندما عضد الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز ، ودعمها بالسلاح وآلة الحرب والسفن والجند والقادة لكي تواصل جهادها في مواجهة البرتغال في المحيط الهندي وخليج عدن والبحر الأحمر »[3].

فأقول وبالله التوفيق إن سياسة دعم السلطان قانصوه الغوري والتحالف معه كانت قائمة

---

(١) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٣١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٣/ ٢٥٠) .

(٣) د.عبد الجواد صابر إسماعيل : دور الأزهر السياسي في مصر إبان الحكم العثماني (ص ١١) .

منذ أيام السلطان بايزيد الثاني ، وكذلك في الفترة الأولى من حكم السلطان سليم الأول ، والدليل على ذلك ما ذكرناه آنفا من أن السلطان سليما أكرم الريس حامد المغربي رسول السلطان الغوري وأمده بمهمات حربية لقتال البرتغال ، ثم أرسل بعد ذلك الريس سلمان على رأس ألفي رجل ليقود الأسطول المملوكي في قتاله مع البرتغال في البحر الأحمر ، وقد ظل الأمر على هذا الحال حتى غير السلطان سليم الأول رأيه وعزم على فتح مصر والشام وإزالة دولة المماليك الجراكسة والذي حمله على ذلك في رأيي ثلاثة أمور :

أولا : ما بلغته دولة المماليك من وهن وفساد وفوضى يستحيل في ظلها إيجاد تحالف قوي يفلح في التصدي للأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي في ذلك الوقت ، والدليل على ذلك فشل البحرية المملوكية في طرد البرتغال من البحر الأحمر بالرغم من المساعدات التي قدمها لهم السلطان سليم الأول ، وما خرج البرتغال من البحر الأحمر إلا على يد الريس سلمان العثماني بعد فتح السلطان سليم مصر كما قدمنا ، أما بشأن الفساد في الدولة المملوكية ، فقد تمثل في فداحة المظالم الذي كان يعاني منها الناس على أيدي السلاطين والولاة ، ومعلوم أن ذلك الحكم الفاسد كان سمة مميزة لدولة المماليك الجراكسة ، إلا أنه قد بلغ مبلغا عظيما في أيام السلطان قانصوه الغوري الذي امتد حكمه لأكثر من خمسة عشر عاما ، وقد أطنب ابن إياس في ذكر مساوئه والتي بلغت حد تعطيل التوريث ، فقد كان يصادر تركات الأموات ولا يسمح للورثة الشرعيين أن يرثوها كما سيأتي ، ولم يكن السلطان الغوري هو أول من ابتدع ذلك بل سبقه إليه السلطان المملوكي الظاهر برقوق ومن بعده ابنه الناصر فرج[1] ، ولم يكن شرع الله مقاما كما ينبغي في عصر المماليك بصفة عامة ، إلا أنه في زمن الغوري ، زاد ذلك عن حده جدا ، وسأنقل عن ابن إياس بعض ما قاله حتى لا يطول بنا الكلام ، فقد ذكر أنه كانت له محاسن كالتواضع ولين الجانب وعدم السب عند الغضب ولكن مساوئه كانت أكثر من محاسنه ، ثم قال : « أما ما عد من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى ، منها أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لا حدث في سائر الدول من قبله ، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ٨٧، ٦/ ٢٣٥) .

والفلوس الجدد أنحس المعاملات ، جميعها زغل[1] ونحاس وغش لا يحل صرفها ، ولا يجوز في ملة من الملل ، ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار ، فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان ولا يقدر أحد يكلمهم ، فيقولون : علينا مال للسلطان فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك ... فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث : من غشنا فليس منا ... ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلما ، ولو كان للميت أولاد ذكور أو إناث فيمنعهم من ميراثهم ويخالف أمر الشرع الشريف ، ومنها أنه كان يولي الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ويقرر عليهم الأموال الجزيلة ، فتفرده الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ كل منهم المثل أمثال ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد ، وكذلك كان يولي النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ... وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة .وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأرز والأنطاع وأخرب البندر ، وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ... ومنها قطع جوامك (مرتبات) الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل ... وكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان بالذهب والسقوف وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين »[2]... وقد **قال ابن إياس** في حوادث عام ٩١٤هـ : « ومن الحوادث الشنيعة في هذا الشهر أن السلطان شرع يخرج إقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وغير ذلك من النساء اللاتي لهن الرزق ، وربما تعرض للرزق الأحباسية والأوقاف ، فأخرج نحوا من ثلاثمائة إقطاع ورزقه من غير جنحة ولا سبب ، وصار ينعم بها على المماليك

---

(١) مغشوشة.

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٩ – ٩٢) .

بمكاتبات ، وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السالفة فحصل للناس الضرر الشامل »[١].

وقد صاحب تلك المفاسد سواء التي اقترفها السلطان قانصوه الغوري بيده أو ما ارتكبها عماله فتغاضى عنها مقابل ما يحصله منهم من أموال ، فوضى عارمة في مختلف أقاليم الدولة ، منها على سبيل المثال فتنة الجازاني بمكة والتي تسببت في منع الحج لعجز الدولة عن تأمين الحجاج. وقد بسط ابن إياس القول في تلك الفتنة وسأختصره عنه تحاشيا للتطويل ، ففي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م خرج الجازاني أخو بركات شريف مكة عن الطاعة وأظهر العصيان وأعمل السلب والنهب ، واجتمع عليه أمير ينبع يحيى بن سبع وأمير خليص مالك بن رومي وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنو إبراهيم ، فأراد أصطمر أمير الحج في ذلك العام أن يتخلص منه بالحيلة والخديعة بالتعاون مع بركات شريف مكة ، فلما فطن الجازاني لذلك هرب وجمع أنصاره وهجم على ركب الحج الشامي وقتل منهم ونهب وأسر ، فاجتمع أصطمر وشريف مكة على قتاله فهزمهم هزيمة نكراء ، وقتل عدد كبير من المماليك السلطانية. ثم عاد ركب الحاج إلى مصر وهم في أسوأ حال ، وبينما هم في طريق العودة خرج عليهم عرب بني لام في العقبة وفرضوا عليهم ثلاثة آلاف دينار مقابل المرور فدفعوها لهم ، وبعد بضعة أشهر استطاع الجازاني أن يطرد أخاه الشريف بركات من مكة ودخلها عنوة ونهب أموال التجار والمجاورين ، وقتل من أهل مكة نحوا من سبعمائة إنسان ، فما كان من السلطان الغوري إلا أن منع النساء من الحج في ذلك العام ٩٠٨هـ ، قال ابن إياس : « نادى السلطان في القاهرة بأن امرأة لا تحج في هذه السنة خوفا على الحجاج من فساد العربان وقد تقدم ما فعله الجازاني بمكة »[٢].

ثم قام السلطان بتعيين الأتابكي قيت الرجبي أميرا على ركب الحاج في ذلك العام ، فطرد

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٣٦) ، والمراد أن السلطان الغوري صادر إقطاعات الجنود من أبناء البلد (أولاد الناس) وأعطاها لمماليكه الجلبان أي المماليك الذي جلبهم حديثا واشتراهم لنفسه ، أما الرزق الأحباسية فهي الأراضي التابعة لبيت المال التي كانت تخصص للإنفاق على الفقراء واليتامى فقد صادر كثيرا منها أيضا ومنحها لمماليكه .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٨) .

الجازاني من مكة إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليه، ثم طرد في العام التالي على يد المماليك المجاورين عند دخوله مكة ، لكن الفتنة لم تهدأ فإن أنصاره من بني إبراهيم وأمير ينبع وعرب بني لام في العقبة ، كان يقطعون الطريق على الحجاج ، فمنع السلطان الغوري النساء من الحج في تلك السنة أيضا ، وفي العالم التالي (٩١٠هـ) قاسى الحجاج مشقة كبيرة بسبب العطش وتعدي العربان المذكورين ، أما في العام الذي يليه (٩١١هـ) فقد استعلى أمير ينبع وأمير خليص وبنو إبراهيم وزادوا في عصيانهم ، فما كان من السلطان الغوري إلا أن منع الحج على الرجال والنساء فلم يحج أحد من مصر ولا من الشام ولا من المغرب ، **قال ابن إياس** : « وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلم في الدين ... ولم يسمع من مبتدأ دولة الأتراك (المماليك) وإلى الآن بأن الحجاج امتنع خروجهم إلى مكة سوى في هذه السنة » ... وفي العام التالي ٩١٢هـ منع النساء من الخروج للحج أيضا ، فخرج الرجال وأميرهم خاير بك ، فاستطاع القضاء على تلك الفتنة وأمن السبل إلى مكة بعد معارك طاحنة قتل فيها من الفريقين الكثير ، وفي العام التالي حج جمع غفير من الرجال والنساء في أمان تام[1].

والشاهد من ذكر تلك الفتنة هو توضيح أن السلطنة المملوكية كانت عاجزة عن تأمين طريق الحج خمس سنوات متتالية ، فاستغراق تلك الفترة الطويلة لإخماد التمرد المشتعل في أحد أهم أقاليم الدولة المملوكية ، إنما يدل على مدى الضعف والفوضى الداخلية الذي منيت به الدولة .

ولم تكن الحال بالشام بأفضل منها في مصر ، فقد ذكر **ابن طولون الدمشقي** أنه في عام ٩١١هـ الذي منع فيه الحج . عمل الأهالي على تجهيز فرقة مشاة خاصة للذب عن الحجاج ، وقد تم الإنفاق على تلك الفرقة بفرض مال على أملاك المسلمين بواقع أجرة شهرين عن كل مالك ، وقد ظل ركب الحجاج معطلا من الشام أربعة أعوام متتالية[2]، بسبب عجز الدولة عن تأمين ركب الحج ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك تمرد عربان الشرقية والبحيرة وتعديهم على

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٥٤ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٨) .

(٢) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٢٣٣ ، ٢٧٦) .

القرى وقطعهم الطريق على التجار وعدم قدرة الدولة على حسم أمرهم لمدة طويلة ، وأيضا تمرد الولاة في الشام مما ذكره ابن إياس في تاريخية مما تجنبت ذكره خشية الإطالة فليرجع إليه من شاء التفصيل ، ولم يكن الحال على الجانب الخارجي بأفضل من ذلك كما ذكرنا آنفا من عجز الدولة عن دفع تسلط البرتغال ، وفي حقيقة الأمر لقد بلغت هذه الدولة حدا لا يجدي معه الإصلاح ، ومما يدل على ذلك ما ذكره ابن زنبل الرمال من الحوار الذي دار بين السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر وبين والأمير المملوكي كرتباي بشأن استخدام الجنود العثمانيين للبنادق ، فكان مما قاله الأمير المملوكي كرتباي : « وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربي للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري رحمه الله تعالى وقتل قاتله ، وأخبره أن هذه البندقية ظهرت في بلاد البندق وقد استعملها جميع عساكر الروم وهذه هي ، فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه ، ففعل وجيء بهم ورموا بحضرته فساءه ذلك وقال للمغربي : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ »[1].

لا يخفي ما في قول الغوري من جهالات وضحالة فكر . لأن القتال بالسيف والرمح والنشاب ليس من سنة رسول الله ﷺ الشرعية التي كان يتعبد بها لله ﷻ بل كان وسيلة الحرب المتاحة في ذلك الزمان ، ولا ريب أن آلات وخطط القتال هي من أمور الدنيا التي تدخل في قوله ﷺ : « **أنتم أعلم بأمر دنياكم** »[2].

ويجدر بنا هنا أن نذكر بما رويناه من قبل من أن السلطان محمدا الفاتح قد استخدم البنادق النارية في فتح القسطنطينية. أى قبل أن يرفضها الغورى بأكثر من ستين عاما . فدولة بلغت هذا المبلغ من سوء الفهم للدين والفوضى والفساد ، كان يتعذر على السلطان سليم أن يتحالف معها . وكان يتحتم أن تزال ، ليحل محلها الأصلح منها . لاسيما بعد أن تنكر الغوري لكل المساعدات التي تلقاها من السلطان سليم وتحالف مع الصفوي ضده . وهو ما سيأتي في ثانيا .

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٧١) .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (٤/ ١٨٣٦) عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ : « لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ » قَالَ : فَخَرَجَ شِيصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ : « مَا لِنَخْلِكُمْ ؟ » قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ ». ورواه ابن ماجه (٢/ ٨٢٥) وأحمد (٢٠/ ١٩) وغيرهم بألفاظ مختلفة .

ثانيا : ذكرنا فيما مضى من كلام ، تحالف الغوري والصفوي الذي توثق إبان قتال السلطان سليم للشاه إسماعيل الصفوي في جالديران عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م . ولكن قبل ذلك بسنوات سعى الشاه إسماعيل للتحالف مع الأوروبيين ضد العثمانيين وضد المماليك . فقد ذكر ابن إياس في أحداث ذي القعدة من عام ٩١٦هـ/ ١٥١١م أن السلطان الغوري قبض على قناصل الفرنج وهددهم بالشنق : « وسبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دواسيس من عند إسماعيل الصوفي وعلى أيديهم مكاتبات إلى القناصل ، بأن يكاتبوا ملوك الفرنج بأن يأتوا في مراكب من البحر ، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم ، فانكشف رخهم وافتضحوا في هذه الواقعة »[1].

وكان ذلك في أيام السلطان بايزيد الثاني قبل أن يتولى السلطان سليم الحكم أي في فترة مهادنة الدولة العثمانية للصفويين.! فلما تولى السلطان سليم بدا له سببان لقتال الشاه إسماعيل **الأول** : سعيه لنشر التشيع في الأناضول وفي الشام وإشعال الثورات لأجل ذلك كما ذكرنا في الباب الأول . **والثاني** : سعيه للتحالف مع ملوك أوروبا ضد العثمانيين والمماليك مما يؤكد أطماع الأوروبيين في مصر ، فكان الحل الأمثل الذي لا حل غيره هو قتال الصفويين وإزاحتهم إلى الشرق لإبعادهم عن الشام ومصر ، ثم ضم بلاد مصر والشام والحجاز لحمايتها من أطماع الأوروبيين ، لأن أحوال الدولة المملوكية آنذاك كانت قد وصلت إلى حد أنها لن تستطيع أن تواجه الأطماع الأوروبية مهما قدم لها من مساعدات ، ففطن السلطان سليم إلى أنه يتحتم عليه أن يتولى بنفسه إدارة الصراع مع البرتغال ، ولم يكن ذلك ليتأتي إلا بإزالة الدولة المملوكية عن الساحة ، ثم بدا له سبب آخر وهو استجابة السلطان الغوري للتحالف مع الشاه الصفوي الذي قام بالتودد إلى الغوري والتماس محالفته لما تأكد له عزم السلطان سليم على قتاله ، وهو ما سنبينه في « ثالثا ».

ثالثا : هو تحالف السلطان الغوري مع الشاه الصفوي ، وقد ظهر ذلك أول ما ظهر عندما تربص علي دولات أمير دلغادر التابع للسلطان الغوري بجيش السلطان سليم وهو في طريقه

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٠٥) .

لحرب الشاه إسماعيل ومنع وصول قوافل الإمدادات التموينية إليه ، مما أحدث تذمرا بين الجنود فاضطر السلطان سليم بعد أن دخل تبريز إلى الرجوع قبل أن يتم له القضاء نهائيا على الشاه إسماعيل الصفوي ، وقد ذكر ابن إياس أن علي دولات هاجم طائفة من الجيش العثماني ، فلما أرسل السلطان سليم إلى الغوري يشكو له من أعمال تابعه فرد عليه قائلا : « إن علي دولات عاصي أمري فإن قدرت عليه فاقتله » ، فما كان من السلطان سليم إلا أن أرسل سنان باشا ففتح إمارة دلغادر ضمها إلى أملاك الدولة العثمانية ، وقد ذكرنا ذلك تفصيلا في الباب الأول . ولقد أعرض كثير من أساتذة التاريخ عن ذكر واقعة قطع الإمدادات عن جيش السلطان سليم بالرغم من أهميتها وإجماع المؤرخين عليها من المعاصرين لها وممن جاء بعدهم ، وأثبتوا التحالف بين الغوري والصفوي ، ومنهم :

١- **أحمد بن زنبل الرمال** : « أمر علاء الدين (علي دولات) أهل مرعش ألا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا مطلقا من المأكل ولا من غيرها ، فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء ، وكان هذا سبب الحرب بين الغوري وبين السلطان سليم ... أمر (السلطان سليم) بكتابة مرسوم إلى ملك قانصوه الغوري يخبره بما فعل علاء الدولة ، فأجاب الغوري بأن علاء الدولة عاصي أمري فإن قدرت عليه فاقتله ... ثم كتب (الغوري) مرسوما وأرسل خفية لعلاء الدولة يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم ، ولا يمكنه من شيء أبدا »[1].

٢- **محمد بن إياس الحنفي** : لم يذكر قطع ، بل ذكر ما هو أشنع من ذلك ، فقال : « سليم شاه ابن عثمان ملك الروم مشى على شاه إسماعيل الصوفي ملك العراقين ، فلما بلغ علي دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قربت من بلاده خرج إليها وتحارب معها ، فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التي من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ، ونهب علي دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع علي دولات في عسكر ابن عثمان »[2].

٣- **علي بن محمد اللخمي الأشبيلي** : أشار إلى عدوان علـي دولات فقال : « علي دولات

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٥٨) .

يسعى في الأرض الفساد ويلقي الفتنة بين العباد ، وقد اعتدى فوجب بنص الكتاب العزيز أن يعتدي عليه بمثل ما اعتدى »[1].

٤- أحمد بن الحمصي : « السلطان ابن عثمان توجه لعدوه الصوفي (الصفوي) فتعقب علي دولة أعقاب عسكر السلطان ابن عثمان فقتل منهم جماعة وأخذ منهم جمالا وأموالا ، فلما بلغ السلطان ابن عثمان ذلك جهز له عسكرا فقتلوه »[2].

٥- سعد الدين أفندي : « فلما نزل السلطان على قلعة كماخ جاءت الذخائر والمأكولات من جميع البلاد إلا من بلاد علاء الدولة ، فإنه منع من أراد جلبها من بلاده ، وتعرض للقفول المارين على بلاده ووطنه فلم يكن للسلطان أولى من تأديبه وكسر شوكته »[3].

٦- قطب الدين النهروالي : « أن القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لأن تتبعه بالميرة والعليق والمون تخلفت عنه في محل الاحتياج إليها ... ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل عنه فأخبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغوري فإنه كان بينه وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات بحيث أنه كان السلطان قانصوه الغوري يتهم بالرفض في عقيدته بسبب ذلك »[4] .

٧- مرعي بن يوسف الكرمي : « السلطان سليم لما رجع من غزو إسماعيل شاه وقتاله من شدة القحط تفحص عن سبب انقطاع الميرة عنه ، فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه الغوري ، فإنه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا فلما تحقق السلطان سليم ذلك صمم على قتال الغوري[5].

٨- محمد بن أبي السرور البكري : « كان بينه (الصفوي) وبين الغوري سلطان مصر

---

(١) علي بن محمد اللخمى الأشبيلي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان (ص ٦) .

(٢) أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥١٣) .

(٣) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، (ورقة ١٢٨) .

(٤) قطب الدين النهروالي المكي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٢٧٧) .

(٥) مرعي بن يوسف الكرمي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين (ورقة ٦٥) .

مصافاة ومحبة فلأجل ذلك أرسل الغوري إلى جهات حلب يمنع القوافل عن الذهاب إلى عسكر مولانا السلطان سليم بالميرة محبة في شاه إسماعيل ... سأل عن سبب تأخير القوافل فأخبر أن سبب ذلك السلطان الغوري فغضب من ذلك »[1].

٩- **إبراهيم بن عامر العبيدي** : « السلطان سليم لما غزا العجم وجاز بالعساكر من على البيرة وكان نائبها علاء الدولة من جهة الغوري ، فأمر علاء الدولة أهل تلك الأقطار أن لا يبيعوا لعسكر السلطان سليم شيئا مطلقا من المأكل وغيرها ، فمات أكثر الناس والدواب لشدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بينهما »[2].

١٠-**محمد بن عبد المعطي الإسحاقي المنوفي** : « ما وجد (السلطان سليم) في تبريز شيئا من المأكولات والحبوب لأن شاه إسماعيل أمر بإحراق أجران الحبوب من شعير وغير ذلك ، فاضطرب السلطان سليم لذلك ، فتفحص عن انقطاع القوافل فأخبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغوري،فإنه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومودة ومراسلات وغير ذلك»[3].

١١-**ابن العماد الحنبلي** : « السلطان سليم لما رجع من غزو إسماعيل شاه تفحص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه الغوري فإنه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا فلما تحقق سليم ذلك صمم على قتال الغوري أولا ثم بعده يتوجه لقتال إسماعيل شاه ثانيا »[4].

١٢-**مصطفى الصفوي القلعاوي** : « فاحتاج السلطان سليم إلى العودة إلى بلاد الروم ، ولما رجع سأل عن سبب انقطاع القوافل فأخبر أن السلطان الغوري كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا فصمم السلطان سليم على التوجه إلى الغوري وتجهز وسار بعسكره إلى جهة حلب »[5].

فكل هؤلاء المؤرخين أجمعوا على ذكر تلك الواقعة ، وبالرغم من ذلك فإن **د.سعيد عاشور**

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٧٣) .

(٢) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان (ورقة ٤٥) .

(٣) محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٣٣)

(٤) شهاب الدين بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ٢٠٠) .

(٥) مصطفى الصفوي القلعاوي : صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان ، مخطوط بمكتبة الإسكندرية (ورقة ٥٨) .

ود.عبد المنعم ماجد ود.محمود الحويري لم يذكروها في كتبهم ، وهذا من جملة العجائب ، أما د.صلاح هريدي فقد ذكرها على استحياء كما قدمنا بقوله : « وأيضا بسبب ما ذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن العثمانية »[1]. أما د.أحمد فؤاد متولي فقد ذكرها مرتين في كتابين مختلفين على نحو يبعث على العجب ، أولاهما قال فيها : « وعندما سار سليم على رأس جيوشه سنة ٩٢١هـ (١٥١٥م) لمحاربة الصفوي لم يساعده عـلاء الدولة (علي دولات) عندما مر بأراضية ، فأمـر سليم عند عودته من حربه مع الفرس الصدر الأعظم سنان باشا بمحاربته والقضاء عليه »[2].

قلت : انظر بالله عليك إلى تحريف الكلم عن مواضعه . فقد عبر د.أحمد فؤاد عن قطع الطريق على قوافل الإمدادات والهجوم على طائفة من الجيش العثماني بقوله « لم يساعده » ، فهل هذا الكلمة تعبر عن حقيقة الحال .؟! أما ثانيهما فقد قال فيها : « وعندما سار سليم على رأس جيوشه سنه ١٥١٥م لمحاربة الصفوي لم يساعده علاء الدولة عندما مر بأراضيه بل هاجم طلائع قواته على حد قول المؤرخ التركي الكبير إسماعيل حقي أوزون جارشيلي ، فأمر سليم الصدر الأعظم سنان باشا بمحاربته والقضاء عليه عند عودته من حربه مع الفرس»[3].

قلت : ذكر د.أحمد فؤاد هذه المرة هجوم علي دولات على طائفة من الجيش العثماني ولكنه أسند الخبر إلى مؤرخ متأخر في القرن العشرين ، غافلا عن كل تلك المصادر التاريخية التي ذكرتها آنفا ، وعلى رأسها ابن إياس ، وهذا منهج فاسد جدا لأن الحقائق التاريخية يجب أن تؤخذ من المصادر ، أما منهج د.أحمد فؤاد هذا قد يوحى للقارىء بأن ذلك الخبر ليس مذكورا في المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث . ولكن الأنكى من ذلك هو ما قاله د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، إذ صرح بأن المصادر التاريخية لا تفيد بقطع الطريق على قوافل الإمدادات ، ولا بالتحالف بين الغوري والصفوي ، فقد قال د.عبد الرحيم : « وبدأ كل من الجانبين العثماني والمملوكي يوجه الاتهامات للآخر ، فالعثمانيون اتهموا المماليك بالتعرض

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٤٩) .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له (ص ٧٤) .

(٣) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ١٩٢) .

إلى قوافل المؤن العثمانية المتجهة نحو الجبهة الصفوية ، كما اتهموا السلطان الغوري بتحالفه مع الصفويين وهذا ما لا تؤيده المصادر »[1] .

قلت : هذا من أبين العجب ! فنحن لسنا بصدد خبر دفين في بطون المصادر التاريخية ، بل هو خبر تواتر على ذكره المؤرخون في أشهر المصادر التاريخية التي يعرفها أدنى طالب علم فضلا عن أستاذ محقق مدقق كالدكتور عبد الرحيم الذي حقق الكثير من المخطوطات من أهمها تاريخ الجبرتي ، ألم يقرأ د.عبد الرحيم هذه المصادر ؟! إن هذا لأمر عجاب ! فنحن أمام بلية كبرى ومصيبة عظمى وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وهنا حقيق علينا أن نتساءل ، لماذا يعمد أساتذة التاريخ إلى إخفاء أي عدوان قام به المماليك أو حلفاؤهم ضد العثمانيين ، في الوقت الذي يبالغون فيه في تهويل أي رد فعل من العثمانيين ، ويقدمونه على أنه عدوان غاشم ؟! مرة أخرى نجد الإجابة تظهر من تلقاء نفسها وهي أن ذلك يوافق المناخ الثقافي العام السائد في البلاد ، فلا حرج على الإطلاق في تقبل أي منقصة أو مذمة تلصق بالعثمانيين سواء أكانت بحق أو بباطل .!

عندما استشعر السلطان سليم الأول بوجود تحالف بين الغوري والصفوي خشي أن يخرج لقتال الصفوي مرة أخرى فينقض عليه الغوري من خلفه كما سبق أن فعل علي دولات من قبل ، فأرسل له رسالة في المحرم عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، تنطوي على تهديد ووعيد ، وقد أوردها فريدون بك في منشآته ، ويبدو لي أن السلطان سليما أراد قبل أن يذهب لقتال الشاه الصفوي للمرة الثانية أن يوضح للغوري أمرين :

الأول جاء في قوله : « إن قيامنا بتأديب القزل باش الملاعين فيما مضى كان لمجرد إظهار أنوار النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، وكشف حجاب ظلام أعداء الدين والدولة ، والعمل على نشر نور الشرائع النبوية على العالم »[2]... مما يعني أنه لم يهجم على الصفوي طمعا في بلاده ، بل لإزالة العقائد الفاسدة ، أي أن الغوري ليس مستهدفا من قبل السلطان سليم فله أن يطمئن .

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : الدخول العثماني إلى أقاليم الوطن العربي ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس (ص ٣٦) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٠٠) وقد ذكر سعد الدين أفندي في تاريخه مضمون الرسالة : حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، (ورقة ١٣٢)

وهو ليس في حاجة لموالاة الصفوي خوفا منه .

أما الثاني فقد جاء في قوله : « إذا لم توافقوا على قيامنا بسحق أعداء الدين حسبما أوجب الشرع الشريف وأصريتم على موقف الخلاف من هذا الأمر ، فليظهر حينئذ ما خفي من التقدير الرباني والأمر يومئذ »[١]... والعبارة السابقة فيها تهديد واضح للسلطان الغوري ، بأنه إن اعترض طريق السلطان سليم في سحق الشاه الصفوي ، فإنه لن يتهاون في أمره ولن يتردد في مهاجمته ، وأظن أن السلطان سليما أراد أن يمنح الغوري فرصة أخرى لعله يرجع عن مصادقة الصفوي ، ولم يكن في نيته القضاء على السلطنة المملوكية ، بل أنه في تلك الفترة كان يرى ضرورة التعاون معها لصد الخطر الصليبي البرتغالي الإسباني ، ومما يدل على ذلك أن حملة عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م والتي انتهت بفتح الشام ومصر والبحر الأحمر لم تكن في أصلها موجهة للمماليك كما جاء في يوميات « حيدر جلبي » كاتب الديوان أيام السلطان سليم فقد قال : « عقد الديوان الهمايوني (السلطاني) في أدرنه في ١٤ صفر سنة ٩٢٢هـ وتقرر فيه التوجه لمحاربة الديار الشرقية (بلاد فارس) ، صدرت الأوامر بالاستعداد للحرب »[٢].

وبالرغم من ذلك عزم السلطان الغوري على الخروج إلى حلب على رأس جيش بغير سبب يستدعى ذلك ، إذ أن الحرب لم تكن موجهة إليه أصلا . قال ابن إياس في أحداث ربيع الأول ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م : « وقد أعاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذي يقع منه ، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر ، ولم يكن أمر يستحق لهذا الرهج العظيم ولا جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل حلب ولا جاليشه ولا تحرك من بلاده » ... وقد أنكر نائب الشام المملوكي الأمير سيباي ذلك على السلطان الغوري وأرسل إليه رسالة جاء فيها : « لا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية فلم يلتفت السلطان إلى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر إلى حلب »[٣].. فهذا يعنى أن عزم الغوري الخروج إلى حلب لم يكن بنية الدفاع عنها كما زعم ، فلم تكن هناك

---

(١) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢٠٩) .
(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢١١) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٦ ، ٢٩) .

ضرورة حربية تستدعي ذلك كما قرره سيباي نائب الشام وأحد أكابر الأمراء وغيره من العسكريين ، لاسيما وأن السلطان سليما لم يكن قد خرج من اصطنبول بعد ، والظاهر أن الغوري قد خرج إلى حلب كحليف للشاه الصفوي ضد السلطان سليم كما سيأتي .

أرسل السلطان سليم بعد ذلك رسالة رقيقة إلى السلطان الغوري عرض فيها عليه بعض الحوافز لعله يرجع عن موالاة الصفوي ، ولم يكن السلطان سليم قد تأكد بعد أن الصداقة بين الغوري والصفوي قد ارتقت وتطورت إلى حد التحالف العسكري ضد الدولة العثمانية ، وقد تسلم الغوري هذه الرسالة في منتصف ربيع الثاني ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وهو في مخيمه بالريدانية (العباسية) يعد العدة للتوجه إلى حلب ، وقد أوردها ابن إياس في تاريخه وجاء فيها : « أنت والدي وأسألك الدعاء وإني ما زحفت على بلاد علي دولات إلا بإذنك . وأنه كان باغيا علي وهو الذي أثار الفتنة القديمة بين والدي والسلطان قايتباي حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد في مملكتكم وكان قتله عين الصواب ، وأما ابن سوار الذي ولي مكانه فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم في ذلك ، وأما التجار الذين يجلبون الجراكسة فإني ما منعتهم وإنما تضرروا من معاملتكم في الذهب والفضة فامتنعوا من جلب المماليك إليكم ، وإن البلاد إلى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه »[1].

بدأ السلطان سليم في تنفيذ ما عزم عليه من سحق الشاه الصفوي عسى ألا يتدخل الغوري بينهما ، فأرسل سنان باشا وكان آنذاك قد تولى الصدارة العظمى على رأس جيش متوجها إلى بلاد الشاه الصفوي ، على أن يلحق به السلطان فيما بعد ، وقد ذكر حيدر جلبي كاتب الديوان في يومياته أن ذلك كان ٢٥ ربيع الأول ٩٢٢هـ[2]. فلما وصل سنان باشا إلى «ملطيه » التابعة للسلطنة المملوكية وأراد أن يعبر نهر الفرات ليتوجه إلى « ديار بكر » ، أرسل إلى أمراء تلك البلاد من المماليك ليستأذنهم في العبور عبر بلادهم إلى ديار بكر ، فأهانوا رسوله وردوا عليه بردود فجة وأظهروا ما بداخلهم من البغض والعداء ، ثم علم سنان باشا أن الشاه إسماعيل

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٥) .
(٢) د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٢١٤) .

الصفوي أرسل إلى السلطان قانصوه الغوري يستنجده ويستمده ، بعد أن أوعز إليه أن السلطان سليما حتما سيهجم على السلطنة المملوكية بعد أن يقضي عليه ، فاستجاب الغوري له واتفقا على أن يكونا يدا واحدة ضد السلطان سليم لدفعه عن بلاد العجم (فارس) وبلاد العرب ، فأرسل سنان باشا إلى السلطان سليم يطلعه على تلك الأخبار ، ويخبره أن السلطان الغوري قد تحرك من القاهرة على رأس جيش وقد وصل إلى الشام ، كما أرسل له الخطاب الفظ الذي جاءه من أمراء المماليك ، فعقد السلطان مجلس المشورة فكان الرأي أن يرسل السلطان رسالة إلى الغوري قبل التوجه لقتاله لعله ينبذ محالفة الصفوي[1].

عثر رجال السلطان سليم على خطاب تحالف سرى بين الغوري والصفوي ، وقد ذكر د.محمد حرب أن ذلك الخطاب موجود الآن في متحف طوب قبو في اصطنبول[2] ، وقد ذكر المؤرخ شمس الدين بن طولون الذي كان مقيما بدمشق آنذاك أن سبب هجوم السلطان سليم على الغوري : « أنه اطلع على مطالعات من سلطاننا (الغوري) إلى الخارجي إسماعيل الصوفي (الصفوي) يستعينه على قتال ملك الروم سليم خان على يد البهلوان أحد جماعة سلطاننا »[3].

هنا عقد السلطان سليم العزم على قتال المماليك فتحرك من اصطنبول باتجاه الشرق في جمادى الأولى ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ، وفي تقديري أنه لم يكن قد عقد العزم بعد على وجهته النهائية هل هي لقتال الصفوي أولا أم لقتال الغوري أولا ، فقد كان الطريق إلى كليهما واحدا ، فلما وصل إلى قيصرية فكان عليه أن يحدد إما أن يتابع السير شرقا إلى بلاد الصفوي ، أو أن يتوجه جنوبا إلى بلاد الغوري ، فأرسل رسالة إلى الغوري كفرصة أخيرة لتحديد موقفه ، وتقديرا من السلطان سليم للغوري ، فقد ندب لهذه المهمة رجلين رفيعي المكانة ، هما المولى ركن الدين زيرك زاده قاضي عسكر الروميلي ، وأحمد بك ابن قرجه باشا ، فوافياه في حلب فبدأهم الغوري بالعتاب على أخذ بلاد علي دولات ، فقالا له أنهما مفوضان من السلطان

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ١٣١ ، ١٣٢) .

(٢) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٢٥) .

(٣) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٣٣) .

سليم لتنفيذ مطالب السلطان الغوري دون الرجوع إليه ، كما أطلعاه على فتاوى علماء بلادهم بجواز قتال الشاه الصفوي ، وسلماه رسالة السلطان سليم إليه ، وقد جاء فيها : « السلطان والدي وأسأله الدعاء لكن لا يدخل بيني وبين الصوفي (الصفوي) فإني ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض فلا تدخل بيننا بشيء من أمر الصلح » ... وقد علق ابن إياس على تلك الرسالة والتي سبقتها بقوله : « حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثني عزمه عن ذلك وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد »[1]...ووافقه على ذلك ابن أبي السرور البكري[2] . ويريد ابن إياس بقوله حيل وخداع ، أن رسائل السلطان سليم كانت وعودا مضللة وأماني كاذبة ليظن الغوري أن السلطان سليما لا يفكر في قتاله أصلا بالرغم من أن السلطان سليما متوجه إليه عاقد العزم على قتاله ، قد يكون ذلك صحيحا بل هو احتمال راجح ، أن تلك الرسائل كانت من باب السياسة والخدع الحربية ، فمما لا شك فيه أن السلطان سليما أراد أن يثبط عزم السلطان الغوري على القتال ، فقائد عسكري في حنكة السلطان سليم إذا ما وجد نفسه مضطرا لقتال عدويين في وقت واحد فحتما سيسعى إلى التفريق بينهما ليواجه كل منهما منفردا .

قلت : ولكن إن كان هذا الاحتمال ينطبق على هذه الرسالة فهو بلا ريب لا ينطبق على الرسالة الأولى وهي التي تسلمها السلطان الغوري في منتصف ربيع الثاني ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وهو في مخيمه بالريدانية كما قدمنا ، ففي ذلك الوقت لم يكن السلطان سليم قد عقد النية بعد على قتال المماليك. ودليل ذلك من وجهين :

١- أن سنان باشا قد خرج في حملة من اصطنبول في ٢٥ ربيع الأول ٩٢٢هـ متوجها لقتال الصفوي وليس لقتال المماليك كما ذكر حيدر جلبي كاتب الديوان آنذاك كما قدمنا ، على أن يلحق به السلطان سليم .

٢- فإن كانت الرسالة المذكورة تسلمها الغوري في منتصف ربيع الثاني ٩٢٢هـ فهذا يعنى أن السلطان سليما قد أرسلها من اصطنبول أو من أدرنه في أواخر ربيع الأول ٩٢٢هـ

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٦٠) .
(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ٤٤) .

على الأكثر ، ولم يكن السلطان سليم قد اتخذ القرار بقتال المماليك بعد ، فقد ذكرنا أن قرار قتال المماليك قد اتخذ في المجلس الذي عقده السلطان لبحث الأخبار التي أرسلها له سنان باشا من ملطيه كما قدمنا ، فإن كان سنان باشا قد خرج من اصطنبول في ٢٥ ربيع الأول ، وكانت مسيرة الجيش من اصطنبول إلى ملطيه تستغرق أسبوعين تقريبا ، فيكون سنان باشا قد وصل إلى ملطيه في العاشر من ربيع الثاني ٩٢٢هـ تقريبا ، أي بعد إرسال السلطان سليم رسالته الأولى إلى الغوري بعشرة أيام تقريبا ، مما يعني أن السلطان سليما قد أرسل تلك الرسالة الأولى إلى الغوري ، قبل اتخاذ القرار بقتال المماليك ، بل قبل أن يتأكد من الحلف العسكري بين الغوري والصفوي ، مما يعنى أن هذه الرسالة لم تكن من قبيل المداهنة والخداع كما ذهب إليه ابن إياس والله أعلم .

والظاهر أن السلطان سليما لم يعقد النية على استئصال دولة المماليك إلا بعد أن تأكد من تحالف الغوري مع الصفوي ، فتحقق لديه أن دولة المماليك ستكون عقبة كئود في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية للتصدي للعدوان الصليبي ، فقضى على سلطنة المماليك بالقوة برغم أنهم من المسلمين السنة ، وإن كان في ذلك مفسدة كبرى إلا أنها تهون مقارنة بمفسدة تسلط الصليبيين على بلاد المسلمين ، فكان فتح السلطان سليم للشام ومصر والقضاء على دولة المماليك من باب احتمال المفسدة الأدنى لدفع المفسدة الأكبر ، أما من يقول أن السلطان سليما قرر استئصال دولة المماليك منذ أن اعتلى عرش السلطنة فهذا قول لا دليل عليه ، وينفيه وجود بحارة عثمانيين يعملون في البحرية المملوكية ضد البحرية البرتغالية في الهند كما ذكرنا آنفا ، مما يؤكد أن خطة السلطان سليم كانت التحالف مع المماليك ضد الصليبيين أو على الأقل الإبقاء على دولتهم تحت السيادة العثمانية. فلما تعذر ذلك لم يكن هناك مفر من إزالة الدولة المملوكية .

روى ابن إياس ما مضمونه[1]، أنه بعد أن تسلم الغوري الرسالة الثانية والتي حملها له قاضي عسكر الروميلي ركن الدين زيرك زاده وابن قرجه باشا ، أكرم الرجلين وقرر أن يرسل إلى السلطان سليم الأمير مغلباي دوادار برسالة تتضمن أمر الصلح بينهما ، فرفض السلطان

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٦١ ، ٦٤ ، ٦٨).

سليم الصلح وأهان الأمير مغلباي إهانات بالغة ووضعه في الحديد وحلق لحيته وأراد قتله ، لولا أن شفع فيه بعض الوزراء ، فأطلقه وقال له : « قل لأستاذك يلاقيني عند مرج دابق » ، فلما رجع إلى السلطان الغوري بهذه الحالة السيئة ، أيقن الغوري عندئذ بأن الفتنة واقعة لا محالة .

أما ابن زنبل الرمال ، فقد ذكر أن السلطان الغوري لما تسلم الرسالة شاور أكابر رجاله فاستقر رأيهم على أن يرسل رجلين من أهل العلم والدين ليتكلما بينهما بالمعروف رجاء لحقن دماء المسلمين ، فلم يفعل بل أرسل الأمير مغلباي لاستطلاع الأخبار وأعطاه مكاتبة للسلطان سليم ، وأرسل مع مغلباي عشرة من خيار العسكر بملابسهم العسكرية الفاخرة قال ابن زنبل : « فلما دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير إطالة ، نظر إليهم مليا وامتلأ من الغيظ ثم قال للأمير مغلباي : « يا مغلباي أستاذك ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا ...؟ وإنما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم قلوب عسكري ، ويخوفهم رؤية أجناده . لكن أنا أكيده بمكيدة أعظم من مكيدته ثم أمر برمي رقبة مغلباي وجماعته ».. فشفع فيهم الوزير يونس باشا فأمر بقتل العشرة وعفى عن مغلباي . « ثم أحضره وحلق ذقنه وألبسه طرطورا وركبه حمارا أعرج معقور وقال له : قل لأستاذك يجتهد جهده وها أنا حضرت إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف »[1].

أما سعد الدين أفندي فقال ما ملخصه أن رسول السلطان سليم المولى ركن الدين زيرك زاده وابن قرجه باشا ، لما وصلا إلى الغوري وسلماه الرسالة ، قام رجال الغوري بإهانتهم وتوبيخهم وأرادوا بهم شرا ، فمنعهم الغوري وقال ما على الرسول إلا البلاغ وإنما أتونا بكتاب ولهم علينا الجواب ، ثم قال الغوري إنه ما جاء إلى حلب إلا للصلح بين السلطان سليم والشاه الصفوي ، وكتب لهم كتابا بذلك وأرسلهم ، فلما عادوا إلى السلطان سليم وسلموه الرسالة وأخبروه بما فعله أمراء الغوري من الإهانة ، تقدم السلطان بجيشه صوب حلب ، فلما بلغ « عينتاب » أعلن حاكمها المملوكي يونس بك دخوله في طاعة السلطان سليم . فلما رأي الغوري ذلك أرسل إلى السلطان سليم يطلب الصلح فلم يقبله السلطان ،

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٢٦ ، ٢٧) .

ورد الرسول ووقع القتال[1].

هذه ثلاث روايات مختلفة . وترى أن أغلب أساتذة التاريخ يأخذون برواية ابن إياس . وبعضهم يأخذ برواية ابن زنبل دون أن يذكر وجود روايات مختلفة فضلا عن أن يذكر سبب ترجيحه إحداهن . والمؤسف أن أي باحث في التاريخ لن يستطيع أن يرجح أو يجمع بين الروايات المختلفة حتى يطلع على سائر المصادر مثل :

١- تاريخ كمال باشا زاده (ت ٩٤٠هـ).

٢- نوادر التواريخ : عبد الصمد الديار بكرى وكان مرافقا للسلطان سليم في فتح مصر . وعمل قاضيا بدمياط .

٣- سليم نامه أو مآثر السلطان سليم : جلال زاده مصطفي جلبى (ت٩٧٦هـ) وكان أشهر نشانجي[2] في عهد السلطان سليمان القانوني .

٤- وعشرات المخطوطات باسم « سليم نامه » لكثير من المؤرخين وكثير منها مجهول المؤلف ، ويوجد عدد منها بدار الكتب والوثائق القومية في القاهرة تحت سمع وبصر أساتذة الجامعة ، فضلا عن سائر المصادر المتأخرة التي دونت بعد زمن السلطان سليم .

فيبقى الترجيح بين الروايات عندي معلقا عسى أن يأتي يوم أستطيع أن أقرأ فيه هذه المصادر بلغتها التركية أو يمن علينا أساتذة اللغة التركية بترجمتها إلى العربية ، ولكن يلاحظ أن ابن إياس وابن زنبل كلاهما اتفق على أن السلطان الغوري أرسل الأمير مغلباي إلى السلطان سليم ، وأما الراواية الثالثة فهي لسعد الدين أفندي فلم تصرح باسم الرسول ، فإن صح أنه مغلباي فهذا يعد خطأ فادحا من الغوري ، لأن المعتاد في أمور الصلح أن يكون الرسل من علماء الدين وليس من العسكريين . لذلك أرسل السلطان سليم للغوري المولى ركن الدين زيرك زاده قاضي عسكر الروميلي وهو أرفع منصب علمي بعد منصب شيخ الإسلام . فلم يكن من اللائق أن يرد عليه الغوري بإرسال أحد الأمراء العسكريين بالرغم من وجود أرفع علماء مصر شأنا ، وهم قضاة المذاهب الأربعة مع السلطان الغوري في حلب ، وإن صحت

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ، ورقة ١٣٢) .

(٢) المختص بالمراسلات الخارجية للسلطان.

رواية الرمال بإرسال عشرة من العسكر مع الأمير مغلباي ، فهذا أقبح وأشنع وهو بلا ريب ينطوي على تهديد للسلطان سليم أيا كان مضمون الرسالة التي أرسلها معهم .

ومما يؤسف له ويعد خرقا فاضحا للمنهج العلمي هو كيفية تناول بعض الأساتذة لمراسلات الصلح المذكورة ، فأما د. **عبد الرحيم عبد الرحمن** فقد ذكر رواية ابن إياس فحسب وأغفل ذكر رواية ابن زنبل[1] ، وقد سبقه إلى ذلك د.**سعيد عاشور** فقد ذكر رواية ابن إياس دون رواية ابن زنبل[2] بالرغم من أنه من مصادره التي اعتمد عليها في كتابه ، وقد سبقهما إلى ذلك أيضا **عمر الإسكندري وسليم حسن** صاحبا كتاب (تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى قبيل الوقت الحاضر) وكان ذلك الكتاب يدرس في المدارس الثانوية المصرية في عام ١٩١٦م تحت إشراف الكابتن البريطاني أ.ج. سفدج[3] ، وتكمن أهمية رواية ابن زنبل في بيان السبب الذي لأجله أهان السلطان سليم رسول السلطان الغوري مغلباي ورفض الصلح ، فلم يكن إغفالها من حسن الفطن بل هو إهمال جسيم لا يصح أن يصدر من أستاذ في مكانة د.**سعيد عاشور** ، أما د.**محمد الراقد** ود.**عبد المنعم ماجد** ، فقد فعلا ما هو أشنع من ذلك فقد ذكرا رواية ابن إياس كاملة ، أما رواية ابن زنبل فذكراها منقوصة . فقد قال د.**الراقد** : « كان رد سليم على ذلك هو القبض على مغلباي ومن معه وأمر بإطاحة رؤوسهم جميعا دون أن يسألهم عن سبب مجيئهم ، أو يكلف نفسه عناء الإطلاع على مقترحات الغوري وفعلا نفذ حكم الإعدام أمامه في الفرسان المماليك العشرة ولم ينقذ حياة مغلباي سوى شفاعة يونس باشا »[4]. أما د.**عبد المنعم ماجد** فقد قال : « ولقد أسرع الغوري فور وصوله حلب بإرسال أحد أمرائه إلى سليم ومعه نص للصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء المماليك كانوا ينتظرون الجواب بالصلح إلا إن سليما رفض الصلح وقبض على رسول الغوري ووضعه في الحديد وحلق لحيته ، وربما أرسل إليه الغوري

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : الدخول العثماني إلى أقاليم الوطن العربي (الشام ومصر والعراق) ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس (ص ٣٧) .

(٢) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ١٩١) .

(٣) عمر الإسكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني (ص ٥) .

(٤) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٥٨) .

آخرين فقطع سليم رؤوسهم مما جعل الغوري يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق »[١].... أما د.صلاح هريدى فقد نقل نص كلام د.عبد المنعم ماجد المذكور كعادته[٢].

قلت : لقد ذكر الأساتذة الأفاضل جزء من رواية ابن زنبل ، وهو قطع السلطان سليم رؤوس الفرسان العشرة . ولكنهم تغافلوا عن الجزء الآخر الذي يذكر فيه ابن زنبل السبب في ذلك . وهو أن السلطان سليما كان يتوقع أن يرد عليه السلطان الغوري برسالة يحملها أحد علماء الدين . كما أرسل له هو المولى زيرك زاده ، وكما هو معتاد في أمور الصلح بصفة عامة وفقا لما أشار به فرسان الغوري كما ذكرنا ، لكن الغوري أبي ذلك وأرسل عشرة من الفرسان في كامل ملابسهم العسكرية وسلاحهم ، مما يعد تهديدا في عرف الملوك والسلاطين ، الأمر الذي غضب لأجله السلطان سليم وأعلن الحرب على الغوري بقطع رؤوس سفرائه ، وقد أشار ابن إياس إلى ذلك أيضا فقال : « وكان السلطان الغوري أرسل مغلباي هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آله الحرب باللبس الكامل فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله »[٣].

أنا هنا لست بصدد الدفاع عن السلطان سليم ، لأن تلك الرواية لا تثبت يقينا أصلا ، بسبب تعارضها مع الروايات الأخرى ، ولكني أنكر بشدة على الأساتذة الأكابر أنهم نقلوا من المصدر بعض الرواية دون بعضها مما شوه حقيقتها ، وكأنهم ابتهجوا بوجود رواية تبين مدى « عدوان » السلطان سليم ، فلم يريدوا أن يعكروها بذكر ذيلها مما قد ينفي عنه تلك التهمة ..!. بل والأنكى من ذلك أن د.عبد المنعم ماجد أغفل ذكر رسالة السلطان سليم بالصلح أصلا ولم يبين أن رسالة الغوري إنما كانت ردا عليها ، بل ذكر رسالة الغوري فحسب وكأنه هو الذي بادر بالصلح ، وقد نقل د.صلاح هريدى هذا الكلام عنه ولم يفطن إلى أن د.عبد المنعم ماجد يتلاعب بالمصادر ، وهذا خطأ فادح فإن النقل عن د.عبد المنعم لا ينجيه من الزلل ولا يشفع له . فلو احتج بذلك طالب من طلاب الدراسات العليا لما قبل منه فكيف بأستاذ كبير مثله .!!

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٢٥) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٥٥) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/٨٦) .

الوقائع الحربية

لقد ذكرت الوقائع الحربية لفتح مصر والشام في كتب بعض أساتذة التاريخ على نحو بالغ السوء. وسأتعرض لتفنيد ذلك فيما يلي إن شاء الله ، ولكن أولا أود أن أشير إلى شيء انفرد به د.عبد المنعم ماجد دون غيره وهو قوله : « وحينما دخل سليم حلب أظهر منتهى القسوة فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين سيما رجال الصوفية منهم الذين كانوا مع الغوري ، وعلى رأسهم أقطابهم الذين هربوا براياتهم ، فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه واحدا بعد آخر ، ولم يرحم كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره ، إذ عرف بحبه لسفك الدماء ، فمن قبل قتل أباه وإخوته لأجل العرش . ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر العلماء ، حيث أصبح من سياسته في مصر بعد ذلك لما استولى عليها أن يقضي على كل مقوماتها الحضارية »[1].

قلت : هذا كلام ساقط ليس له أساس من الصحة وهو أوهام وظلمات بعضها فوق بعض. ونستطيع أن نقسم كلامه إلى شقين :

الشق الأول : ما يتعلق بقتل المماليك الذين لجأوا إلى حلب بعد هزيمة الغوري في مرج دابق . فأقول وبالله التوفيق ، لقد أجمعت المصادر التاريخية العربية والتركية على أن السلطان سليما دخل حلب بالأمان ، وأن أهلها أحسنوا استقباله ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول نقلا عن سبعة مصادر ، منها أربعة كان أصحابها معاصرين للأحداث ، وهم ابن إياس وابن طولون وابن زنبل الرمال وابن الحمصي ، ولم يذكر واحد منهم هذه السخافات ، فهذه أوهام من رأس د.عبد المنعم ماجد ، والرد على ذلك من ثلاثة أوجه :

١- سأنقل نص ما قاله أصحاب المصادر بشأن دخول السلطان سليم حلب .

قال **ابن طولون الدمشقي** : « وصل دوادار الغزالي إلى دمشق بعد أن كان وجهه أستاذه إلى حلب ليكشف خبر ملك الروم ، وأخبر عنه أنه ملك حلب بأمان من أهلها وكذا قلعتها ، وقد كان نائبها تسحب مع العسكر المهزوم ، وأنه بالتحقيق أخذ جميع ما فيها من المال ، ويقال

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٤٣) .

إنه مائة وثمانية عشر حملا خلا ما كان فيها قبل ذلك ، وملكها لشخص من جهته ، ثم سد أبواب حلب خلا بابين أحدهما من جهة الروم ، والآخر من جهة دمشق ، وسكن في القلعة وعلى سور البلد أناس من رماة البندق ، وأخذ جميع ما فيها من الودائع عند أهلها للمنهزمين ، وأحسن إلى فقهائها وفقرائها ودخل تحت طاعته نائب حلب خير بك فأكرمه »[١].

قال ابن الحمصي الدمشقي : « السلطان سليم شاه بن عثمان دخل إلى حلب عقيب خروج العسكر وملك البلد وتسلم القلعة ، وولى نائبا وحط فيها جماعة من مماليكه وولى بالبلد نائبا من جماعته وقاضيا من الروم »[٢].

قال ابن إياس : « فلما ملك حلب سلموه أهلها المدينة بالأمان وهرب قانصوه الأشرفي نائب القلعة ... ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع الأطروش الذي بحلب ، وخطب باسمه ودعي له على المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، ولما صلى بها صلاة الجمعة زينت له مدينة حلب ووقد له الشموع على الدكاكين وارتفعت له الأصوات بالدعاء »...ثم ذكر ابن إياس أسماء الأعيان الذين أقاموا بحلب إبان إقامة السلطان سليم فيها بعد هزيمة الغوري ، فقال : « واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنبلي في الترسيم بحلب لا يخرجون منها إلا أن يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من الأعيان بعد الكسرة ، منهم القاضي عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخيرة أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن اللاذني مستوفي الزردخانة ، والريس محمد بن القيصوني ، وإمام السلطان السميدسي الذي كان قاضي قضاة الحنفية ، وإمام السلطان ابن الرومي ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، ويحيى بن بكير وأخوه وجماعة آخرون ما يحضرني أسماؤهم الآن »[٣].

قال ابن زنبل الرمال : « وجاء السلطان سليم بموكبه ودخل حلب من غير حرب وأطاعته الرعايا والعساكر فملكها وأخذ الأموال التي وجدها »[٤].

---

(١) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٣٥) .

(٢) أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٣) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٧٥ – ٧٧) .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٤١) .

هذه أربعة مصادر كان أصحابها معاصرين للأحداث وكلهم من رعايا الدولة المملوكية ، الأول والثاني منهم من الشام ، أما الثالث والرابع فمن مصر ، ولم يذكر أي واحد منهم أن السلطان سليما قتل كل من التجأ إلى حلب من المماليك كما زعم د.عبد المنعم ماجد .

٢- كيف لعاقل أن يقول ذلك بالرغم من أن المماليك لم يدخلوا حلب أصلا ، فإنهم بعد أن فروا من الجيش العثماني بعد هزيمتهم في مرج دابق ، توجهوا إلى حلب فخرج عليهم أهلها بالسلاح ومنعوهم من الدخول ، وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول نقلا عن ابن إياس وابن زنبل وابن الحمصي ، وسأنقل نص كلامهم حتى لا أكون ممن يقولون كلاما مرسلا على عواهنه ، **قال ابن إياس** : « أما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة ، فأنهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم وودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لا جرى عليهم من عسكر ابن عثمان »[1].

قال ابن الحمصي : « ولى عسكر سلطان مصر منهزمين إلى صوب حلب في أسوأ حال ، فطلعت إليهم أهل مدينة حلب بالسلاح ، ولم يمكنوهم من الدخول إليهم ، وكان للعسكر عندهم ودائع فلم يعطوهم منه شيئا ، وقتلوا من العسكر جماعة كون أنهم طالبوا بودائعهم واستمروا منهزمين إلى دمشق منهوبين »[2].

قال أحمد بن زنبل الرمال : « ثم ذهب غالب العسكر قاصدين إلى حلب فمنعهم أهل حلب لشدة ما قاسوا منهم حين مجيئهم مع الغوري ، فتشتت شملهم وذهبت حميتهم وانكسرت شوكتهم »[3]، هذا ما اتفقت عليه المصادر التاريخية التي كان أصحابها معاصرين للأحداث ، لكنك ترى أن **د.عبد المنعم ماجد** يخالف حقيقة تاريخية ثابتة ويضرب بجميع تلك المصادر عرض الحائط لحاجة في نفسه .

٣- كان محمد ابن السلطان قانصوه الغوري قد أبقاه أبوه في حلب ولم يأخذه معه إلى

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٧٣) .

(٢) أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٢) .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٤٠) .

ساحة المعركة (مرج دابق) وبقى معه بعض العسكر ، فجاءه خاير بك نائب حلب فارا من أرض المعركة وأخبره بالهزيمة وأشار عليه بالرحيل إلى مصر . **قال ابن زنبل** : « قال سيدي محمد (ابن الغوري) : فما الرأي يا خاير بك ؟ **قال** : الرأي أن تنادى في العسكر بالرحيل إلى مصر ويجتمع إليك ما شئت من العسكر وتكون ملك مصر وموضع أبيك وأنا مساعد لك في ذلك ، فصدقه في ذلك ونادى في حلب بالرحيل إلى مصر ومن له رغبة في المسير إلى مصر فليتبعنا ، فخرجت الناس على وجوههم وتركوا أثقالهم وأموالهم واختاروا سلامة الروح ، وكانت مكيدة وخرجوا من حلب كالهاربين . وفعل ذلك خاير بك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب .. وكان الأمر كذلك »(١)...يتضح من رواية ابن زنبل أن من تبقى من عساكر المماليك ممن لم يشارك في المعركة وبقي في حلب مع ابن السلطان الغوري ، أنهم قد خرجوا منها وعادوا إلى مصر قبل أن يدخلها السلطان سليم أصلا ، أي أن السلطان سليما لما دخل حلب لم يكن بها أحد من المماليك أصلا ، ويدل على ذلك ما قاله ابن الحمصي : «السلطان سليم شاه ابن عثمان دخل إلى حلب عقيب خروج العسكر »(٢). فلا مسوغ بعد ذلك لأن يخرج علينا د.**عبد المنعم ماجد** أو غيره ويقول أن السلطان سليما لما دخل حلب أظهر القسوة وقتل كل من التجأ إليها من المماليك .

الشق الثاني : فهو ما قاله د.عبد المنعم بشأن قتل رجال الطرق الصوفية وعلماء مصر . وكنت أنتوى أن أعرض عن ذكر هذا الشق ثم رأيت أن أبينه على ما فيه من لبس ، حتى يعلم من يريد أن يعلم كيف يقوم بعض أساتذة التاريخ بتحريف الكلم عن مواضعة . فحاول أن تجمع شتات فكرك وأن تستدعي عقلك وقلبك حتى تتم الفائدة بإذن الله . فأقول وبالله التوفيق ، كان قد خرج مع السلطان الغوري من مصر خلفاء مشايخ الطرق الصوفية ، مثل خليفة أحمد البدوي وعبد القادر الجيلاني وإبراهيم الدسوقي وغيرهم . فلما هزم الغوري في مرج دابق عادوا إلى حلب وبقوا فيها . ثم كان ما ذكره **أحمد بن زنبل الرمال** فقال : « فلما سمعوا بأن السلطان سليما قادم إلى حلب خافوا من سطوته فأخذوا في الذهاب نحو الشام .

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٤٠) .

(٢) أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٣) .

فلما رآهم على بعد مع الرايات والأعلام قال : ما هؤلاء ؟ قالوا له : هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا جاءوا مع الغوري فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب إلى مصر. فأمر بإحضارهم . فلما مثلوا بين يديه أمر برمى رقابهم واحدا بعد واحد ولم يرحم منهم كبيرا لكبره ولا صغيرا لصغره . فقتلهم عن آخرهم فرحمهم الله أجمعين . وكانوا يزيدون على ألف رجل قدر الله عليهم ذلك »[1].

قلت : هذه الواقعة على هولها وقسوتها من المتوقع أن يسمع بها القاصي والداني ، ولكني تعجبت أن انفرد بها ابن زنبل وهو من أهل مصر ، وأغفلها كل من ابن طولون وابن الحمصي وهما من أهل الشام ، وخبر كهذا كان من المؤكد أن يصل إليهما قبل أن يصل إلى ابن زنبل في مصر ، فاجتماع هذين المؤرخين الشاميين على عدم ذكره ليس أمرا طبيعا ، فإما أن يكون الخبر لم يصلهما أصلا وهذا مستبعد ، وإما أن يكون قد وصلهما ولكنهما فطنا إلى أنه شائعة وليس له أصل ، فإذا ما رجعنا إلى ابن إياس وهو من أهل مصر ، سيتبين لك كيف أنه شائعة وأن ابن إياس إنما ذكره في ذلك السياق . فإذا ما تتبعنا تسلسل الأحداث فإن معركة مرج دابق التي هزم فيها الغوري ومات كانت في الخامس والعشرين من رجب ٩٢٢هـ - وقيل قبل ذلك بأيام - ثم بدأ ابن إياس في ذكر الوقائع كما يلي :

١- في ١٦ شعبان ذكر أنه ورد إلى القاهرة كتاب من الأمير علان أحد أمراء جيش الغوري بفشل مساعي الصلح بين السلطانين وأن الحرب أصبحت مؤكدة ، ثم بدأ ابن إياس بذكر الوقائع بعد أن قال : « والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان ... » فذكر وقائع معركة مرج دابق حتى دخول السلطان سليم حلب وأعماله فيها ، ثم ذكر من قتلوا في المعركة من الأمراء والمباشرين وأولاد الناس ، **ثم قال ابن إياس** : « ومن العجائب من حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر من أمر الكسرة وموت السلطان لم يرد من بعد ذلك أخبار صحيحة . وانقطعت الأخبار عن مصر نحو أربعين يوما لم يرد فيها خبر صحيح وكثر القيل والقال في ذلك على أنواع شتى »[2] ، ولم يذكر ابن إياس شيئا عن مقتل ألف من أرباب الطرق الصوفية مما ذكره ابن زنبل ، أي : أن ذلك لم يرد لا في كتاب الأمير علان ولا مما

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٥٠) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٦٧ - ٧٩ ، ٨٢) .

استفاض بين الناس من أخبار ، أو أنه ورد كشائعة من جملة الشائعات ولكن تنبه ابن إياس إليها ولم يدونها .

٢- في يوم ٢ رمضان وصل إلى القاهرة قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة الذي كان مرافقا للغوري : « فأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات إلى حلب ، وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة في الأسر عند ابن عثمان بحلب ولولا هروب محمود مع العسكر و إلا كان أسر معهم »[١]، ولم يذكر القاضي محمود بن الشحنة شيئا عن واقعة قتل أرباب الطرق الصوفية .

٣- في يوم ٧ رمضان وصل إلى القاهرة كل من القاضي كاتب السر محمود بن أجا والشهابي أحمد بن الجيعان والأمير أركماس والأمير أنصباي والأمير تمر والأمير علان وغيرهم[٢].

٤- في يوم ١٣ رمضان وصل إلى القاهرة الأمير سودون والأمير قانصوه كرت والأمير جان بردى الغزالي والمقر الناصري محمد نجل السلطان الغوري والأمير أبرك الأشرفي والأمير تاني بك الخازندار والأمير كرتباي والأمير جان بلاط ، وجاء معهم قانصوه الأشرفي الذي كان نائب قلعة حلب فسلمها للسلطان سليم بدون قتال[٣]، والشاهد من ذلك أنه لم يرد مع أي واحد من هؤلاء أي أخبار عن تلك الواقعة الشنيعة ، التي كانت حتما ستصل أصداؤها الآفاق .

٥- في يوم ١٥ رمضان وصل إلى القاهرة بعض أعيان أهل دمشق بعد أن فروا منها بسبب تفشي الفوضى بعد هروب عسكر المماليك منها خوفا من ملاقاة جيش السلطان سليم ، ولم يذكر أي واحد منهم شيئا عن واقعة قتل أرباب الطرق الصوفية ، وإنما ذكروا اضطراب أحوال الشام وقيام زعر الشام بنهب التجار وبيوت الناس[٤] .

٦- وفي آخر رمضان وصل إلى مصر محمد بن يلباي المؤيدي حاجب ميسرة دمشق محملا ببعض الأخبار ليس فيها ذلك الخبر المذكور .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٤) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٥) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٥) .
(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٠٦) ، شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٣٦ ، ٣٣٧) .

٧- وفي يوم ٨ شوال وصل إلى القاهرة دوادار نائب غزة علي باي الأحدب ، وذكر أخبارا عن السلطان سليم وجيشه ، ولم يذكر شيئا عن قتل ألف من أرباب الطرق الصوفية .

٨- وفي يوم ٢٢ شوال وصل إلى القاهرة يحيى بن الأتابكي أزبك بن ططخ الذي كان مقيما بحماه .

٩- وفي يوم ٢٦ شوال وصل إلى القاهرة القاضي عبد الكريم بن الجيعان وأخبر بأمور منها أن السلطان سليما تملك دمشق وطرابلس وصفد .

١٠-وفي يوم ٧ ذي القعدة وصل إلى القاهرة شخصان من المماليك السلطانية وذكروا أخبار السلطان سليم وجيشه .

١١-وفي يوم ٩ ذي القعدة وصل إلى القاهرة دوادار خاير بك وأخبر أن السلطان سليما أرسل عسكرا لأخذ غزة[1].

والشاهد من ذكر كل ذلك هو التأكيد على أن الأخبار ظلت تتوافد على القاهرة ثلاثة أشهر على يد الأمراء والحجاب والجنود وغيرهم ، عن أعمال الجيش العثماني في حلب والشام ، ولم يرد من بينها هذا الخبر المهول عن قيام السلطان سليم بإعدام ألف من أرباب الطرق الصوفية ، فحدوث تلك الواقعة المهولة دون أن يعلم بها كل هؤلاء ولا حتى المؤرخين في الشام ولا ابن إياس في مصر ، فهذا أمر يخرج عن نطاق التصديق . فمن أين جاء ابن زنبل بهذا الخبر ؟!.

الجواب : جاء ذلك في رسالة شفهية بعث بها السلطان سليم نفسه إلى طومان باي وأمرائه في القاهرة ، قبيل مجيئه إليهم ليبث الرعب في قلوبهم ، لعلهم يقصرون عن قتاله ، فقد ذكر ابن إياس في أحداث يوم ١٧ ذي القعدة ٩٢٢هـ أنه وصل إلى مصر سفارة عثمانية من خمسة عشر رجلا ، ومعهم عبد البر بن محاسن الذي كان كاتب الخزانة عند الأتابكي سودون العجمي ، ولكنه بعد هزيمة المماليك ومقتل الغوري في مرج دابق انضم إلى العثمانيين ، وتقرب إليهم حتى وصل إلى السلطان سليم نفسه . فرأي أن يرسله مع سفرائه الخمسة عشر إلى طومان باي ، باعتباره واحد من أهل مصر وله دراية بطريقة المماليك وطبائعهم ، ثم ذكر

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩) .

ابن إياس ما قاله ابن محاسن هذا عندما مثل بين يدي السلطان طومان باي فقال : « ثم قبضوا على عبد البر بن محاسن الذي حضر صحبتهم (السفراء) فلما مثل بين يدي السلطان ، شرع يطنب في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عظمته ، فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل إلى حلب قطع في يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر ومن جملتهم خليفة سيدي أحمد البدوي وآخرون من الأعيان ممن تخلفوا بحلب ، وأخبر أن عسكر ابن عثمان فوق الستين ألف مقاتل ، وأنه خطب باسمه من بغداد إلى الشام على المنابر ، وأن معاملته في الذهب والفضة ماشية من بغداد إلى الشام ، وأنه لما دخل إلى الشام وملكها شرع في عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق وجعل في ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة ، وهو في همة زائدة ويقول : ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة ... فلما أطنب ابن محاسن في أخبار ابن عثمان حنق منه السلطان (طومان باي) وقال له : أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك ، فرسم بسجنه في البرج ... وقد قطع قلوب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان »[1].

يتبين من تلك الواقعة ما يلي :

- أن السلطان سليما أرسل مع ابن محاسن أخبارا ملفقة ليوقع الرعب في قلوب المماليك فيقصروا عن القتال ، منها خبر قتل خليفة سيدي أحمد البدوي وثمانمائة من أعيان مصر في يوم واحد ، ومنها أيضا خبر استيلائه على بغداد ، فهذا أيضا لم يحدث ولم يدخل العثمانيون بغداد إلا في زمن السلطان سليمان القانوني عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م كما ذكرنا في الباب الأول ، ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن محاسن عن السلطان سليم أنه قال : (ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة) فمعلوم أن هذا من جملة التهديدات التي تقال عادة في الحروب .
- أن السلطان طومان باي فطن إلى ذلك وعلم أن ابن محاسن هو جاسوس من عند السلطان سليم وسجنه .
- أن رسالة السلطان سليم أحدثت أثرها المنشود كما قال ابن إياس (وقد قطع قلوب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان) .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٢٣ ، ١٢٤) .

• لو كان خبر قتل ثمانمائة من أعيان مصر في حلب صحيحا لما غاب عن القاهرة طول هذه المدة ولما غفل عن ذكره مؤرخو الشام .

هكذا يتبين أن هذا الخبر ما هو إلا شائعة أطلقها السلطان سليم نفسه لبث الرعب في قلوب المماليك ، ففطن ابن إياس لذلك ولم يذكره من ضمن الوقائع التاريخية ، بل ذكره في السياق المذكور آنفا ، أما ابن زنبل الرمال فقد تلقف هذه الإشاعة ودونها على أنها حقيقة تاريخية ولم يفطن إلى ما فطن إليه ابن إياس ، لأن ابن زنبل ليس مؤرخا في الأصل ، بل هو رمال يشتغل بضرب الرمل وله كتاب (**الذهب الإبريز المحرر في اقتفاء علم الرمل والأثر**) وله أيضا (**المقالات وحل المشكلات في علم الخط والرمل**)[1] ، ولا يعرف له كتب في التاريخ إلا هذا الكتاب (واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني) ، ثم رأيت أن الشيخ **إبراهيم بن عامر العبيدي** (ت ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م) عندما تعرض للفتح العثماني لمصر نقل كتاب ابن زنبل المذكور كاملا ، وعند ذكر ذلك الخبر أنكره وعلق عليه بقوله : « هكـذا ذكره ابن زنبل لغرضه وقد رأيت لبعض المؤرخين أنه لم يقتلهم وهو الصحيح »[2].

ولذلك لم يذكره أحد من المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زنبل كمرعي بن يوسف الكرمي ، وابن أبي السرور البكري ، وأحمد بن يوسف القرماني وسعد الدين أفندي ، ولا حتى المتأخرين كمحمد فريد بك ، والميرالاي إسماعيل سرهنك ، وإبراهيم بك حليم وعلى كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده ، فكل هؤلاء لم يذكروا هذا الخبر وفطنوا إلى أنه مما انفرد به ابن زنبل ، ومما لا يعول عليه ، كما أنه يخالف عادة السلطان سليم مع الأهالي في كل البلاد التي فتحها من البلاد الكردية والحلبية والشامية والمصرية ، فمع أنه كان ينكل بالجنود المماليك الذين أبوا أن يدخلوا في طاعته ، إلا أنه كان يعمل على اجتذاب قلوب الأهالي ، فعن دخول السلطان سليم دمشق قال **ابن الحمصي** الذي كان شاهد عيان : « نزل إلى الجامع الأموي وصلى الجمعة به ورسم للخطيب بمبلغ ألفين درهم عثمانية ، وكان الخطيب ذلك اليوم قاضي

---

(١) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٤٧) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٥٣٣) .

(٢) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان. (ورقة ٦٣) .

القضاة ولي الدين بن الفرفور الشافعي ، وللأئمة بثلاثة آلاف درهم ، وللمؤذنين بالجامع ثلاثة آلاف درهم ، وفرقوا على الناس دراهم كثيرة وذبح أغناما على باب الجامع وفرقها على الناس ». وفي جمعة أخرى قال : « صلى الجمعة بالجامع الأموي ودعت له الخلق ، وكان له نهار مشهود ونادى في دمشق بالأمان ورفع المظالم والمشاجرات ولم ير الناس من للآن إلا خيرا »[1].

وقد ذكر ابن طولون الدمشقي الذي كان شاهد عيان أيضا أن دفتردار السلطان سليم أراد جمع خراج السنة من جميع الأراضي ، سواء ما كان للأمراء المماليك ونائب الشام والأوقاف والرزق وأراضي سائر الناس ، فلما رفعت الشكوى للسلطان عزل الدفتردار لأجل ذلك ، أما إقطاع الأمراء المماليك ونائب الشام فولى أمره حسين باشا . وقال أيضا : « عزم الخنكار (السلطان) على هدم ما حوالي القلعة الدمشقية وسور البلد من البيوت والدكاكين كما فعل بحلب ، وقال للمعلم أحمد بن العطار: اذهب فانظر ما فيها من الأملاك والأوقاف فقومها حتى ندفع إلى ملاكها ثمنها ، وتستبدل عوض الأوقاف ، فذهب قومها ثم جاء فرأي ذلك يساوي مالًا كثيرًا ، ويقال إن التقويم كان بمائة وخمسين ألف دينار فرجع عن ذلك ، وقال أنا ما جيت إلا أعمر وما جيت أخرب »[2].

ولو أردنا أن نستقصي ما أشبه ذلك من الأخبار لطال بنا الوقت ، ولكن مما سبق يتضح بجلاء مدى حرص السلطان سليم على إرضاء الرعية ، ومن كان ذلك هدفه فلم يكن أبدا ليقدم على قتل ثمانمائة أو ألف من أعيان الناس ، لاسيما أرباب الطرق الصوفية الذين تكن لهم العامة مكانة خاصة ، فهل يسوغ بعد ذلك للدكتور عبد المنعم ماجد أن يقول ما قال ؟!.. ثم بفرض ثبوت هذه الواقعة يقينا فهل فيما رواه ابن إياس أو ابن زنبل ما يدل على أن هؤلاء القتلى – إن صح قتلهم – كانوا من العلماء ؟! ثم يبنى د.عبد المنعم على تلك الأكذوبة استنتاجا آخر ، فيزعم أن السلطان سليما كان يهدف من وراء ذلك إلى تفريغ مصر من مقوماتها الحضارية ! ، فلو كان السلطان سليم يستهدف العلماء لقتل قضاة المذاهب الثلاثة المالكي والحنبلي والشافعي ، وهم من أرفع العلماء شأنا وكانوا تحت يده بحلب ، ولكنه

---

(١) أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٢٤ ، ٥٢٥) .

(٢) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٤٤ ، ٣٤٥) .

أبقاهم حتى اصطحبهم معه إلى القاهرة ثم أعادهم إلى مناصبهم التي كانوا فيها ومعهم قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة[1].

ثم نقول لو صح أن السلطان سليما قد شن حملة لتصفية العلماء ، أما كانت المصادر التاريخية لتذكر أسماءهم أو حتى بعض أسمائهم ؟! أم أن ذلك حدث عادي يمر عليه المؤرخون مرور الكرام ؟! فلو كان د.عبد المنعم قد نقل خبر قتل أرباب الطرق الصوفية كما أورده ابن زنبل لالتمسنا له العذر ، بالرغم من أنه خبر مكذوب لا ينبغي أن ينطلي على أستاذ كبير مثله ، إلا أن د.عبد المنعم ماجد قد زاد في رواية ابن زنبل ما ليس فيها ، وزعم أن السلطان سليما تعمد قتل العلماء لتفريغ مصر من مقوماتها الحضارية ونسب ذلك إلى ابن إياس زورا وبهتانا . فما قاله د.عبد المنعم ماجد إنما هو افتراء على السلطان سليم ، وتقول على أصحاب المصادر التاريخية ، فلم يقل منهم أحد قط أن السلطان سليما كان يستهدف قتل علماء مصر ، ولكن د.عبد المنعم حرف الكلم عن مواضعه إمعانا في تشويه صورة السلطان سليم بصفة خاصة وبني عثمان بصفة عامة ، لا تندهش ولا تتعجب فإنك سترى فيما يلي صنوفا وألوانا من التزييف وتحريف الكلم عن مواضعه ، فتنبه ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

معركة غزة

بعد أن انتصر السلطان سليم الأول على السلطان الغوري في مرج دابق ودخل حلب بالأمان ثم دمشق وغيرها من البلاد الشامية بالأمان كما ذكرنا في الباب الأول ، أرسل صدره الأعظم سنان باشا على رأس جيش إلى غزة ففتحها ، ثم تصدى لجنود المماليك الذين كانوا قد خرجوا إليه من مصر يقودهم جان بردى الغزالي وانتصر عليهم .

قال د.محمد عبد المنعم الراقد : « وصلت الأنباء إلى القاهرة بأن العثمانيين استولوا على غزة بعد أن هزمت الحملة التي أرسلها طومان باي بقيادة جان بردي الغزالي ، وبمجرد الاستيلاء على المدينة أقام العثمانيون مذبحة لأهلها راح ضحيتها ألف من سكان غزة ، لأن المدينة

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٥) .

تجاسرت وثارت في وجه العثمانيين أثناء دوران القتال »[١].

قال د.عبد المنعم ماجد : « إن الجند العثمانيين أسقطت جان بردى الغزالي عن فرسه وكادوا يجزون رأسه لولا غلمانه الذين خلصوه ، وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المصريين فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال »[٢].

ولعلكم تدركون مدى تأثر د.صلاح هريدي بعبد المنعم ماجد إذ أنه نقل عنه نصا تقريبا فقال : « وأسر جان بردي الغزالي وكاد العثمانيون يجزون رأسه لولا غلمانه الذين خلصوه ، وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب مساعدتهم للمماليك فقتلوا منهم ألفا من الرجال والنساء والأطفال »[٣].

قلت : لقد ذكر الأساتذة الأفاضل أنهم نقلوا هذه الواقعة عن ابن إياس . لكن الحق أنهم نقلوها عنه بتراء مشوهة لا تعبر عن الحقيقة في شيء ، والسؤال الهام : هل قتل الجنود العثمانيون ألفا من أهل غزة حقا ؟. نعم ، وفقا لما رواه ابن إياس ، ولكن ما السبب في ذلك ؟ قبل أن نجيب على ذلك سأنقل نص رواية ابن إياس حتى يميز الخبيث من الطيب ، **قال ابن إياس** : « ورد على السلطان (طومان باي) أخبار ردية بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذي ملك مدينة غزة ، قد لعب في أهل غزة بالسيف وقتل منهم نحو ألف إنسان ما بين رجال وصغار حتى النساء ، وكان سبب ذلك أن الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة ، فأشيع في غزة بأن الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان . فبادر على باي دوادار نائب غزة وأجناد غزة فنهبوا وطاق (معسكر) العثمانية وأحرقوا خيامهم وقتلوا من كان بالوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة إنسان ، ما بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضا ، وأحرقوا الخيام التي كانت في وطاقهم ، فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا إلى غزة فوجد من كان بها قتل ونهب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم من فعل ذلك بنا ؟ قالوا علي باي دوادار

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٨٠) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٤٦) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٤) .

نائب غزة وأجناد غزة ولم نفعل نحن شيئا من ذلك ، فأمر سنان باشا بكبس بيوت أهل غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم وسلاحهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ قالوا : لا ، فقال لهم فكيف فعلتم أنتم بعسكرنا ذلك ؟ فلم يأتوا بعذر ولا حجة . فعند ذلك أمر عسكره بأن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح وكان ذلك في الكتاب مسطورا ، كما يقال في المعنى :

أن ترمك الأقدار في أزمة ... أوجبها أجرامك السالفة

فادع إلى ربك في كشفها ... ليس لها من دون الله كاشفة »[1].

قلت : يستفاد من رواية ابن إياس ما يلي :

١ - أن سنان باشا لما دخل غزة أول مرة دخلها بالأمان ، ولم يقع من جنوده أي نهب ولا سلب. وقد أقر أهل غزة بذلك لما سألهم سنان باشا : (نحن لما دخلنا غزة شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ قالوا : لا) ولم تكن تلك حالة انفرد بها أهل غزة بل قد ذكرنا في الباب الأول أن السلطان سليما دخل عينتاب وحلب ودمشق وغيرهن بالأمان .

٢- أن أهل غزة انتهزوا فرصة غياب سنان باشا وجنوده وهاجموا معسكر العثمانيين ونهبوه وقتلوا من كان به من الشيوخ والصبيان والمرضى . وقد بلغ عددهم أربعمائة .

٣- إن الاعتداء على معسكر العثمانيين لم ينفرد به الجنود المماليك بل عاونهم فيه الأهالي بدليل العثور على متعلقات العثمانيين في بيوتهم .

٤ - إن إباحة سنان باشا مدينة غزة لجنوده كان قصاصا على ما فعلوه ، وهذا ما ذهب إليه ابن إياس ببيتي الشعر الذين ذيل بهما روايته .

لقد أخفي عنا الأساتذة الأفاضل كل تلك الحقائق ولم يذكروا إلا قتل العثمانيين ألف إنسان من أهل غزة ، فيتوهم من يقرأ كلامهم أن هؤلاء الألف قتلوا بغير ذنب ولا جريرة ، وأن أفعال الجنود العثمانيين هي من جنس أفعل جنود هولاكو وتيمورلنك .. وأنا هنا لست

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٣٢).

بصدد الدفاع عن سنان باشا وتبرئته أو إدانته ، فهذه المسألة تبحث في مجال آخر ، لكني هنا بصدد أساتذة جامعيين ينقلون عن المصادر التاريخية على طريقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فهم ينقلون كلاما أبتر ، فتشوه الوقائع وتضيع الحقائق .

قال تعالى : ﴿ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا ﴾ [الأنعام : ٩١]

ولنا هنا أن نتساءل لماذا هذا التلاعب بالمصادر التاريخية ؟! أهو بدافع الطعن في العثمانيين بحق أو بباطل ؟! أهذا هو الحياد الذي صدعتم رؤوسنا بالحديث عنه يا أساتذة التاريخ ؟! أوما تدرون أنكم بذلك تطعنون في أنفسكم ، لأن العثمانيين أجدادكم شئتم أم أبيتم ، وهم جزء أصيل من تاريخ المسلمين سواء أراق لكم ذلك أم لم يرق ، لعمر الله إن هذا لشيء عجاب .

الوقائع داخل القاهرة

وصل السلطان سليم الأول بجيشه إلى القاهرة ، وقد استعد للقتال بعد أن رفض السلطان المملوكي طومان باي ما عرضه عليه السلطان سليم من أن يسلم له مصر ، وأن يقره حاكما عليها على أن تكون الخطبة والسكة للسلطان العثماني ، فلما رفض طومان باي ذلك أصبح القتال حتميا ، فالتقى الجمعان في الريدانية فهزم المماليك وهرب طومان باي ومن معه إلى طره .

قال د.عبد المنعم ماجد في ختام حديثه عن معركة الريدانية : « كانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها . وطلعت المآذن وصاروا يرمون بالبندق الرصاص بحيث أن معظم قتلى المماليك كانت من رش البندق — توفنك — حتى قال ابن زنبل عن ذلك : قاتل الله أول من اصطنعها وقاتل من رمى بها ، بحيث تمكن العثمانيون من قتل عشرة آلاف من المماليك . وبقي طومان باي في قليل من المماليك والرماة العبيد الذين دافعوا عنه ببنادقهم فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه انسحب إلى طرا »[1].

قال د.صلاح هريدي : « كانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها ، وطلعت المآذن وصاروا يطلقون البنادق فكان معظم القتلى من المماليك من رصاص البنادق ، وقد قدر عددهم بعشرة آلاف وبقي طومان باي في قليل من المماليك والرماة العبيد — السودان — الذين دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه انسحب إلى طرا

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان بأي آخر سلاطين المماليك (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

المجاورة من كثرة البنادق »[١].

قلت : ذكر الأستاذان هذا الكلام في ختام حديثهم عن معركة الريدانية ، وقبل الحديث عن دخول الجنود العثمانيين إلى داخل القاهرة ، ولنا في ذلك أربع مسائل :

١- أما ما ذكره كل من د.عبد المنعم ماجد ود.صلاح هريدي عن دخول العثمانيين المساجد بخيلهم ، فهذا أيضا من جملة الأوهام لأنه لم يرد في المصادر التاريخية ، وقد صرح د.عبد المنعم ماجد أنه نقل ذلك عن ابن زنبل الرمال ولكني لم أجد لذلك أثرا في كتاب ابن زنبل ، لا في الموضع الذي حدده د.عبد المنعم ولا في غيره ، أما د.صلاح فقد صرح أنه نقل ذلك عن د.عبد المنعم ماجد . ولا يشفع للدكتور صلاح هريدي تصريحه بالنقل عن د.عبد المنعم ماجد دون التحقق من صحة الواقعة ، وكان الواجب عليه إما أن يأتي بالواقعة من المصادر التاريخية ، أو أن يسكت عنها ، أما النقل من المراجع المتأخرة فهذا لا يليق بأستاذ كبير ، لاسيما في واقعة هامة كتلك التي تحط من شأن الجنود العثمانيين زورا وبهتانا فتضعهم في منزلة جنود بونابرت في الحملة الفرنسية .

٢- أما ما ذكره الأستاذان الفاضلان من إطلاق العثمانيين البنادق من المآذن ، فإن من يقرأ كلامهما يظن أن مآذن المساجد في القاهرة امتلأت بالجنود العثمانيين واتخذوها خنادق يطلقون منها الرصاص على الناس ، ولكن الأمر ليس كذلك بل هي واقعة فردية وقعت بعد أسبوع من الريدانية عندما تجدد القتال بين الجيشين العثماني والمملوكي داخل القاهرة ، وقد ذكرها ابن إياس في ذلك السياق فقال : ((ثم إن الأتراك (المماليك) سجنوا جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا إلى مأذنة الجامع المؤيدي وصاروا يرمون الناس بالبندق الرصاص ، ويمنعونهم من الدخول إلى باب زويلة واستمروا على ذلك حتى طلعوا لهم الأتراك وقتلوهم في المأذنة أشر قتلة))[٢].

يتضح مما ذكره ابن إياس أن تلك كانت واقعة فردية لجنود عثمانيين كانوا أسرى لدى المماليك ، ثم نجحوا في الهرب وفروا إلى مأذنة الجامع المؤيدي وأطلقوا بنادقهم على الناس .

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث(ص ١٦٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٤) .

وكان ذلك في الأيام الأربعة التي دار فيها قتال دام في أحياء القاهرة بين الجيشين المملوكي والعثماني ، واشترك فيه العوام فكانت أيام هرج ومرج ، ود.صلاح في حقيقة الأمر نقل تلك الواقعة عن د.عبد المنعم ماجد أيضا ولم يكلف خاطره مراجعة تلك الواقعة من مصدرها وكأن د.عبد المنعم يعلم الغيب أو يقرأ الطالع أو يفتح المندل ، والمؤسف أن د.عبد المنعم أخرج تلك الواقعة من سياقها وعممها على الجنود العثمانيين بصفة عامة ، والأنكى من ذلك ما ذكره من أن عدد القتلى من المماليك ببنادق العثمانيين كان عشرة آلاف ، وهذا وهم آخر ذكره د.عبد المنعم ، وزعم أنه نقله عن ابن زنبل ، وهو ليس فيه أيضا . فإن نص ما **قال ابن زنبل** في ذلك الشأن : « ودكست الجراكسة بالخيل العربية دكسة تهد الجبال فلاقتهم الينيجرية برش البندق ، خلت الراقد أكثر من الواقف » ...**وقال أيضا** : « وأما السلطان طومان باي فإنه لما رجع من الحرب (الريدانية) لم يجد أحدا من عسكره إلا وقد ولى منهزما من كثرة البندق والضرب بالزانات فلم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك »[1].

أما ابن إياس فقد قال في ذلك : « ثم إن العثمانية تحايلوا وجاءوا أفواجا أفواجا ثم انقسموا فرقتين ، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية ، فطرشوهم بالبندق الرصاص فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم ... فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم »[2].

هكذا ترى أنه لا ابن زنبل ولا ابن إياس ذكر عدد عشرة آلاف قتيل من المماليك ، والشاهد من ذلك هو أن كثيرا من الأساتذة يتوهمون أشياء وينسبونها إلى المصادر التاريخية زورا وبهتانا . وقد ورد عدد العشرة آلاف عند ابن إياس في سياق آخر كما سيأتي .

٣- ومما هو حقيق علينا أن نتعجب منه هو أن د.عبد المنعم ود.صلاح ذكرا دخول المساجد بالخيل وصعود المآذن ، أثناء الحديث عن معركة الريدانية ، أين المساجد بالله عليكم في الريدانية ؟! إنها صحراء خارج القاهرة – آنذاك – التقى فيها جيشان كبيران ولا فيها

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٥) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٤٦) .

مساجد ولا غيره ، فكما تقول العامه : (لو إن المتكلم مجنون فالمستمع عاقل) ، فإن قالا إننا كنا نتحدث عما حدث داخل القاهرة فنقول لهم لا ، لأنكم ذكرتم أن ذلك كان قبل انسحاب طومان باي إلى طره ، وهو لم ينسحب إلى طره إلا بعد هزيمته في الريدانية ، ولكنكما خلطتما الأحداث وقلبتما الوقائع رأسا على عقب .

٤- قال د.محمد عبد المنعم الراقد عن دخول الجنود العثمانيين إلى القاهرة : « وفي هذا اليوم باشر الجنود العثمانيون أعمال السلب والنهب وانتهكوا حرمة المنازل واقتحموا بيوت الأمراء ، ثم توجهوا إلى شون القمح في القاهرة وبولاق ونهبوا ما فيها من غلال . وظلت جرائم النهب والاغتصاب مستمرة طوال هذا اليوم »[١].

قلت : لقد كانت موقعة الريدانية وهروب طومان باي في يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٧م فدخل الجنود العثمانيون القاهرة ، فأما عن اقتحام بيوت أمراء المماليك ومساتير الناس وشون الغلال ونهبها فهذا حدث ، وقد ذكره ابن إياس وذكره ابن أبي السرور البكري من بعده ، ولكن الأساتذة الأفاضل يخفون أكثر مما يبدون وبيانه فيما يلي :

أما ما ذكره د.الراقد عن الاغتصاب فهذا أمر لم يذكر في المصادر على الإطلاق ولست أدري من أين جاء به ، وهو قد صرح أنه نقله عن ابن إياس ولكني لم أجد لذلك أثرا عنده ، فلا ريب أنه من جملة أوهام د.الراقد ، ثم أنه في اليوم التالي الجمعة ٣٠ ذي الحجة تم المناداة بالأمان والكف عن السلب ، ولكن د.الراقد أخفي علينا ذلك ولم يذكره بالرغم من أن ابن إياس ذكره تفصيلا فقال : « وفي اليوم الجمعة سلخ اثنتين وعشرين وتسعمائة فيه دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة ، فدخل صحبته وزراء ابن عثمان ومن عساكره الجم الغفير ، ودخل ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ... فلما دخل الخليفة دخل من باب النصر وشق من القاهرة قدامه المشاعلية تنادى للناس بالأمان والاطمئنان والبيع والشري والأخذ والعطا ، وأن لا أحدا يشوش على أحد من الرعية ، وقد غلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وأن كل من كان عنده مملوك جركسي من مماليك السلطان ولا يغمز عليه شنق على باب داره ، والدعاء للسلطان الملك المظفر سليم شاه بالنصر ، فضج له الناس بالدعاء من العوام ، فلم

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٨٥) .

تسمع العثمانية من هذه المناداة وصاروا ينهبون بيوت الناس حتى بيوت الأرباع في حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة فاستمر النهب ... »[1].

قلت : ذكر لنا ابن إياس أنه بالرغم من المناداة بالأمان إلا أن الجنود العثمانيين لم تكف عن السلب. وقد كان السلطان سليم مازال في معسكره بالريدانية ولم يدخل القاهرة بعد . إلا أنه لما رأي أن السلب مازال دائرا ، فما كان منه في اليوم التالي - السبت غرة المحرم - إلا أن أرسل جماعة من خاصة جنوده لمنع ذلك . **قال ابن إياس** : « فكان مستهل العام يوم السبت ، ثم إن السلطان سليم شاه أرسل جماعة من الإنكشارية وأوقفهم على أبواب المدينة يمنعون النهابة من نهب البيوت »[2]... هكذا ترى أن د.الراقد ذكر ما حدث يوم الخميس من سلب ونهب وزاد من عنده ما زعمه عن الاغتصاب ، ثم أخفى عنا المناداة بالأمان يوم الجمعة ، وأخفى عنا تكليف السلطان سليم في يوم السبت اليني جري بالتصدي لمن يقوم بالنهب ، أما د.صلاح هريدي فإنه لما ذكر المناداة بالأمان لم يحدد توقيتها ولم يبين أنها كانت في اليوم التالي لدخول الجنود إلى القاهرة ، ثم إنه عللها بقوله : « نادى بالأمان وهدفه من ذلك إسباغ الشرعية على الحكم العثماني وتهيئة الجو لدخول سليم إلى القاهرة »[3]...كما أن د.صلاح لم يذكر شيئا عن تكليف السلطان سليم اليني جري بالتصدي لعمليات السلب والنهب ، ولنا هنا أن نتساءل لماذا تبدون بعض الكلام وتخفون بعضه يا أساتذة التاريخ ؟! لماذا هذا التلاعب بالمصادر التاريخية من زيادة ونقصان ؟! أين الحياد والأمانة العلمية يا أهل العلم ؟! .

قال د.الراقد : « وهكذا ظل تعقب المماليك الجراكسة جاريا واستمر إلقاء القبض عليهم وقطع رؤوسهم وتعليقها في المعسكر العثماني بالريدانية ، فلما كثرت رؤوس القتلى هناك نصبوا صواري وعليها حبال وعلقوا عليها رؤوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم »[4].

قلت : نقل د.الراقد ذلك الكلام عن ابن إياس ، ولكن بالرجوع إلى نص ما كتبه ابن إياس سيتبين لك أن الرواية مختلفة تماما . فنقول أولا أنه من الطبيعي أن الجيش المنتصر يتتبع

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١٤٧/٥) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (١٤٨/٥) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٨) .

(٤) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٨٦) .

فلول الجيش المهزوم ليقضى عليه ، لئلا يجمع أشتاته ويعيد ترتيب صفوفه ثم يعاود الهجوم مرة أخرى ، كما فعل طومان باي في يوم الخامس من المحرم كما سنبين ، ومن الطبيعي أيضا أن الجنود المماليك الجراكسة سيدافعون عن أنفسهم لاسيما وأنهم جنود محترفون ، لذلك سقط أيضا من الجنود العثمانيين كثير من القتلى إبان عملية التتبع تلك ، فابن إياس بعد أن ذكر تتبع المماليك والقبض عليهم وضرب أعناقهم وتعليق رؤوسهم قال : « وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباي فجافت منهم ، وصار لا تعرف جثة الأمير المقدم ألف من جثة المملوك ، وهم أبدان بلا رؤوس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان في هذه الواقعة فلا يحصى عددهم »[1].

قلت : إن مقتل عدد كبير لا يحصى من الجنود العثمانيين كما قرره ابن إياس ، إنما يدل على أن تلك الواقعة كانت معركة بين إحدى وحدات الجيش العثماني وبقايا الجيش المملوكي ، أسر فيها الكثير من المماليك فضربت أعناقهم ، وسقط فيها ما لا يحصى عدده من الجنود العثمانيين ، وهنا نوجه نفس السؤال الذي مللنا من تكراره ، لماذا أغفل د.الراقد ذكر هؤلاء القتلى الكثر من العثمانيين ؟! لماذا لا تذكرون الوقائع كاملة كما جاءت في مصادرها التاريخية يا أساتذة التاريخ ؟!

قال د. عبد المنعم ماجد : « كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لا نظير لها ، سيما وأن سليما وهو بالشام كان قد هدد إذا ما دخل أن يحرق بيوتها قاطبة واللعب في أهلها بالسيف »[2].

قال د.صلاح هريدي : « عمد العثمانيون إلى قتل الأهالي بوحشية لا نظير لها ، خاصة وأن سليما وهو في الشام كان قد هدد أن يدخل القاهرة – مصر – يحرق بيوتها قاطبة ويعمل في أهلها بالسيف ، فكانوا يقتلون الأهالي ويربطونهم من رقابهم بالحبال لا فرق بين أعيانهم وخدامهم »[3] .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٤٩) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٥٩) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٨) .

قلت : لنا في تلك الفقرة ثلاث مسائل :

١- ما قاله د.صلاح هريدي عن قتل الأهالي بوحشية فقد نقله عن د.عبد المنعم ماجد ، وهو من جملة أوهامه التي ليس لها أي ذكر في المصادر وليس هذا بالأمر الجديد عليه كما بينا ، ولكني لست أدري السر في ولع د.صلاح بكلامه والإصرار على النقل عنه .

٢- ما قاله د.صلاح عن تهديد السلطان سليم بحرق القاهرة فقد نقله عن د.عبد المنعم ماجد أيضا ، وله أصل عند ابن إياس ، إلا أن د.عبد المنعم ذكر صدر الرواية وأغفل ذيلها فشوهت الحقيقة ، ويبدو أن تلك الطريقة في كتابة التاريخ هي منهج معتمد لدى معظم أساتذة التاريخ .! وسأنقل نص كلام ابن إياس حتى يتبين الحق من الباطل ، **قال ابن إياس :** « ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام : إذا دخلت مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب في أهلها بالسيف . فقيل تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه من ذلك ، والله غالب على أمره »[1].

- قول ابن إياس (أشيع) يدل على أن ذلك الكلام إنما هو من الشائعات التي لم تتأكد لديه ، وابن إياس نفسه في موضع سابق قد قال : « الإشاعات في أخبار ابن عثمان كثيرة »[2].

لكنك ترى أن د.عبد المنعم ماجد ذكرها بصيغة الجزم على أنها حقيقة تاريخية وتبعه في ذلك د.صلاح هريدي .

- ويتبين أيضا من كلام ابن إياس أن السلطان سليما قد رجع عن ذلك بعد أن تلطف به الخليفة ، هذا إن صحت نسبة الكلام إليه أصلا ، ولكن د.عبد المنعم ماجد أخفي عنا ذلك ، ولا أرى لذلك سببا إلا الإمعان في تشويه صورة السلطان سليم .

- قول ابن إياس (لو فعل ..) يدل على أن السلطان سليما لم يفعل ذلك ، فلم يحرق بيوت مصر ولا لعب في أهلها بالسيف ، فلا يصح بعد ذلك أن يستدل بتلك المقولة المزعومة على أن العثمانيين عمدوا إلى قتل الأهالي بوحشية .

٣- قول د.صلاح : « يقتلون الأهـالي ويربطونهم من رقابهم بالحبال لا فرق بين أعيانهم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٠) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٣٧) .

وخدامهم) فقد صرح أنه نقل ذلك عن ابن إياس ، ولكن لا وجود لذلك الخبر عند ابن إياس ، وأغلب الظن أنه من جملة الأوهام التي نقلها د.صلاح عن د.عبد المنعم ماجد ، ولكن بدا لي شيء ما ، وهو أن قوله لا فرق بين أعيانهم وخدامهم قريب مما قاله ابن إياس وذكرناه آنفا : « **وصار لا تعرف جثة الأمير المقدم ألف من جثة المملوك** » . فهذا قاله ابن إياس حكاية عن عملية تتبع الجنود المماليك كما ذكرناه تفصيلا فيما سبق ، ولم يكن يتحدث عما زعمه الأستاذ الكبير من قتل الأهالي بوحشية . فهل تعمد د.عبد المنعم ماجد تلبيس هذا الأمر ؟! ألم يكن حريا بد.صلاح هريدي أن يرجع إلى المصدر نفسه ويتفحصه ؟! أم أنه اكتفي بتعليق التبعة في رقبة د.عبد المنعم ماجد ؟!

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦]

دخل السلطان سليم الأول القاهرة ونقل معسكره من الريدانية إلى بولاق في يوم الإثنين ٣ محرم ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، وفي ليلة الأربعاء ٥ محرم هجم طومان باي على المعسكر العثماني بعد أن جمع حوله عددا من الجنود المماليك الناجين من المعارك ، فوقع بالقاهرة قتال دام استمر حتى شروق شمس السبت ٨ محرم ، ووقع الهرج والمرج وقتل من الفريقين والعوام أيضا عدد كبير ، لكن الأساتذة الأفاضل قدموا تلك الوقائع بصورة تجافي الحقيقة ببتر كلام ابن إياس وإخراجه عن سياقه ، ولابد لنا من ذكر رواية ابن إياس كاملة أولا حتى يتبين الرشد من الغي ، **قال ابن إياس** : « فلما كان ليلة الأربعاء خامس الشهر لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باي بالوطاق ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية وظن أنه مأخوذ لا محالة ، وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصىٰ عددهم ، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليق وفيها الحجارة ، واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الداودار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير . فكان بين ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك واقعة تشيب منها النواصي ، فملكوا منهم رأس الجزيرة

الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب ، وأشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذي كان بالريدانية ، ثم إن المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحارات على المماليك الجراكسة .

ومثلما تعمل الشاة الحمى   في قرض يعمل في جلدها

فصاروا الأتراك (المماليك) كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرون بها بيد يدي السلطان طومان باي ، وصار الطالب مطلوبا . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبين الأتراك ، ونادى السلطان (طومان باي) في الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثماني يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدي السلطان ، ثم إن العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم ، ثم طردوا الأتراك من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم ، ثم إن الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ، ثم إن العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التي في الناصرية وقبضوا منها على مماليك جراكسة ، فأحرقوا البيوت حول الزاوية ونهبوا القناديل والحصر التي في الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيهم صغار وشيوخ ، ثم إن العثمانية طردوا الأتراك عن الناصرية إلى قناطر السباع ، ثم إن السلطان طومان باي نزل في جامع شيخو الذي بالصليبة ، وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق في رأس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عند رأس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند حدرة البقرة »[١].

هذا النص الطويل المذكور عن ابن إياس سأحيلك عليه في مواضع كثيرة فيما يلي ، فاحرص على أن ترجع إليه في كلّ مرة حتى تستكمل الفائدة . وقبل أن نبدأ في تفنيد أباطيل أساتذة التاريخ يجب أن نبين بعض الكلمات الغريبة فيما نقلناه آنفا عن ابن إياس ، قال **الخليل بن أحمد** : الزعر قلة شعر الرأس و الزَّعارَّةُ ، الرّاء شديدة ، شراسة في خلق الرجل ، لا يكاد ينقاد ، ولا يلينُ[٢].

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٣) .

(٢) الخليل بن أحمد : كتاب العين (١/ ٣٥٢) .

قال الثعالبي : إذا كان الرجل سيئ الخلق ، فهو زعر وعزور[١].

قال ابن منظور : زَعِرَ الخُلُق والزُّعْرُورُ السَّيِّءُ الخُلُقِ والعامة تقول رجل زَعِرٌ[٢] .

ولا يذكر الزعر في المصادر التاريخية المصرية والشامية إلا بأنهم أهل فساد ونهب ، والذي يبدو لي أنهم عصابات من المجرمين الخارجين على الدولة وتعيش على السلب والنهب ، ويتبين ذلك أيضا من قول ابن إياس عن السلطان طومان باي : « ونادى في ذلك اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختفيا على قتل قتيل ، أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله ، والعرض لهم في الميدان ، وأن السلطان يصرف لهم الجوامك والمركوب ويكونون صحبة الزرد خانه إذا سافر السلطان »[٣]... وأما الشطار فلا يختلفون عن الزعر كثيرا ، فقد قال الخليل بن أحمد : « شطرَ فلانٌ على أهله ، أي: تركهم مُخالفًا مُراغمًا . ورجلٌ شاطرٌ وقد شطر شُطورًا وشطارًا : وهو الذي أعيى أهله ومؤدِّبهُ خبثا »[٤].... وقال الزبيدي : « قال أبو إسحاق : قول الناس : فلان شاطر : معناه أنه آخذ في نحو غير الاستواء ولذلك قيل له : شاطر لأنه تباعد عن الاستواء »[٥].

أما « العياق » فيبدو أنها كلمة عامية وأصلها في اللغة « أعواق » ومفردها « عوق » . قال الزبيدي : « العوق : الحبس والصرف ، يقال : عاقه عن كذا يعوقه : إذا حبسه وصرفه ، والعوق : الرجل الذي لا خير عنده . قال رؤبة : فداك منهم كل عوق أصلد . ويضم نقله الصاغاني ج : أعواق »[٦].

ويبدو أن العياق لا يختلفون كثيرا عن الزعر والشطار . فالسلطان طومان باي قد عفا عن هؤلاء الناس مقابل أن ينضموا إليه في قتال السلطان سليم . فهم قريبو الشبه ممن يطلق عليه في هذه الأيام « البلطجية » أو « المسجلون خطرا » أو « معتادو الإجرام » ، ومما تعجبت له أن

---

(١) عبد الملك الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية (ص ١١٠) .

(٢) محمد بن منظور الإفريقي : لسان العرب (٤/ ٣٢٣) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١١٩ – ١٢٠) .

(٤) الخليل بن أحمد : كتاب العين (٦/ ٢٣٤) .

(٥) أبو الفيض مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس (١٢/ ١٧١) .

(٦) أبو الفيض مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس (٢٦/ ٢٢٤) .

كلا من د.عبد المنعم ماجد ود.محمد الراقد ود.صلاح هريدي ، قد اعتبروا معاونة هؤلاء الزعر والشطار والعياق للماليك في القاهرة نوعا من « المقاومة الشعبية التي قام بها المصريون بحسهم الوطني !. » .

قال د.محمد الراقد : « أبناء البلد الحقيقيين أحسوا بالخطر العثماني الداهم فأسرعوا بتكوين فرق المقاومة الشعبية وخرج المصريون لقتال العثمانيين بلا خوف أو تردد ... ونتيجة لانضمام الشعب المصري إلى المعركة ارتفعت الروح المعنوية للقوات المملوكية »[١].

قال د.عبد المنعم ماجد : « إن هذه أول مرة يشترك فيها المصريون في مقاومة العثمانيين ، إذ أنهم بحسهم الوطني قدروا أبعاد الكارثة التي حلت بهم نتيجة لمجيء العثمانيين ، فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبيين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ... فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالي »[٢].

أما د.صلاح هريدي فقد نقل نص كلام د.عبد المنعم ماجد كالعادة[٣].

وأما د.السيد الدقن الذي عقد فصلا كاملا باسم المقاومة غير الرسمية (الشعبية) فقد قال : « انفجرت المقاومة الشعبية في القاهرة يقودها السلطان طومان باي »[٤].

قلت : لنا فيما قالوه أربع مسائل :

١ - آفة منهج أساتذة التاريخ ، أنهم يفسرون الأحداث التي وقعت منذ خمسة قرون وفقا للمفاهيم السائدة في العصر الحالي ، فالانتماء القومي لم يكن موجودا بين الناس في ذلك الزمان بل كان الانتماء للدين ، وكل مسلم لا يضره أن يحكمه أي مسلم بصرف النظر عن عرقه أو جنسه ، بل يكفيه أن يكون مسلما عادلا عاملا بشرع الله ﷻ ولأجل ذلك فقد كره أهل مصر الحاكم بأمر الله لفساد عقيدته وكثرة مظالمه بالرغم من أنه كان عربي الأصل ، وقد أحب أهل مصر صلاح الدين الأيوبي حتى قبل أن يتسلطن ويصبح بطل حطين ، بالرغم من أنه رجل كردي وكان يحكم مصر باسم سلطان تركماني سلجوقي ، وهو السلطان نور الدين

---

(١) أبو الفيض مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس (٢٦/ ٢٢٤) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٦٤) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٩) .

(٤) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٦٥) .

محمود ، فلم يقل أحد منهم أنه ليس مصريا أو عربيا .. كما أحب أهل مصر السلطان المملوكي المظفر قطز وكرهوا السلطان المملوكي أيضا قانصوه الغوري وكلاهما كان مملوكا ، لعدل الأول وصلاحه وطغيان الثاني ونهبه أموال الناس ، ولم يكن أي منهما مصريا ولا عربيا ، وكان الانتساب إلى بلد ما في ذلك الزمان إنما يعبر عن محل الإقامة لا عن انتماء عرقي ، بدليل أن أغلب العلماء تجد في ذيول أسمائهم مثلا ، فلان الحلبي الدمشقي ثم المكي ، أي نزيل حلب ثم دمشق ثم مكة ، وتجد الدمشقي السكندري وهكذا .

٢- استدلال الأساتذة بقتال الزعر والشطار والعياق إلى جانب المماليك على وجود ما سموه « مقاومة شعبية » لا يخفي ما في ذلك من تكلف وتعسف ولي لعنق النص التاريخي ، إن هؤلاء المذكورين ما هم إلا أسافل الناس ، وقد استمالهم طومان باي إلى جانبه بعد أن وعدهم بإسقاط العقوبات عن جرائمهم ودفع الرواتب لهم . فهم أقرب إلى المرتزقة منهم إلى المجاهدين .

٣- لو كانت هذه حقا مقاومة شعبية فأين قادتها ؟! ومن هم زعماؤها ؟! أين وجهاء القوم من أهل العلم وأهل الفكر الذين قادوا عامة الناس؟! فالمقاومة الشعبية ينبغي أن يكون لها قادة ، على غرار المقاومة الشعبية التي تصدت للحملة الفرنسية على مصر ، وكان يقودها مشايخ الأزهر ومنهم : الشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ يوسف المصيلحي والشيخ إسماعيل البراوي ، ومن غير المشايخ كان عمر مكرم نقيب الأشراف ، وإبراهيم أفندي كاتب البهار ، والسيد أحمد المحروقي كبير التجار ، كل هؤلاء كانوا قادة أهل مصر في مقاومة الفرنسيين ، منهم العلماء ومنهم الكتاب ومنهم التجار ، فيصح لنا أن نقول بحق أنها كانت مقاومة شعبية ، ولكن في حالة الفتح العثماني لمصر فإن أساتذة التاريخ يعجزون عن تقديم اسم رجل واحدا كان يقود أهل مصر ضد العثمانيين ، فقولكم يا أساتذة مقاومة شعبية فيه تكلف وتزيد ولا يمت للمنهج العلمي بصلة .

٤- لو سلمنا لكم بوجود مقاومة شعبية في القاهرة فعليكم أن تجيبونا عن سبب انعدامها في حلب ودمشق وسائر البلاد الشامية ، وكنا قد قدمنا أن أهل حلب منعوا المماليك من الدخول وفتحوا الأبواب طواعية للسلطان سليم ، وذكرنا أن أهل دمشق ما صدقوا بقدوم

العثمانيين حتى فتحوا لهم الأبواب ، وأن السلطان سليما دخل كل القلاع سلما .. فأخبروني يا أساتذة التاريخ ، هل كان الحس الوطني معدوما عند أهل الشام ؟! الجواب : لا ، بل لم تكن هناك مقاومة شعبية لا في مصر ولا في الشام ، لأن الحرب كانت بين العثمانيين والمماليك . وبعد هزيمتهم في مرج دابق هربوا من حلب ودمشق وغيرهما ، فلما دخل السلطان سليم تلك البلاد لم يقع القتال لعدم وجود المماليك ، أما الأهالي فإنهم رحبوا به على النحو الذي قدمناه . أما القاهرة فقد كانت مركز تجمع المماليك وآخر معاقلهم ، فلما هزمهم السلطان سليم في الريدانية فروا إلى داخل القاهرة ، فلما دخلها السلطان سليم وقع القتال . ولو كانت القاهرة خلوا من المماليك لما وقع قتال قط[1].

يتبين من رواية ابن إياس المذكورة آنفا عن القتال الذي دار داخل القاهرة والذي استمر أربعة أيام ، أنه في اليومين الأول والثاني كانت الغلبة للمماليك ، وقد تحصن السلطان طومان باي ومن معه من الجنود في جامع شيخو بالصليبية إلى قناطر السباع ، وأما الأمير علان فقاتل العثمانيين بالناصرية وغيرها وطردهم من مواقعهم . ثم تتبعوا الجنود العثمانيين وقبضوا عليهم وقطعوا رؤوسهم . وفي هذين اليومين قتل من العثمانيين ما لا يحصى كما ذكر ابن إياس. أما ابن زنبل فقد قدرهم بخمسة عشر ألفا[2] ، ثم تمكن العثمانيون من استجماع قوتهم وقاتلوا المماليك حتى استردوا منهم مواقعهم فهرب المماليك في نهاية الأمر ، لكن أساتذة التاريخ بالرغم من أنهم نقلوا عن ابن إياس إلا أنهم رسموا لنا صورة تجافي الحقيقة ، ويمكن إجمال ذلك في وجهين :

---

(١) ما ذهب إليه أساتذة التاريخ في ذلك الشأن يذكرني بما ذهب إليه بعض الناس في واقعة الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م عندما ظهر بعض الأسافل من العامة والدهماء واللصوص في شوارع بغداد يحطمون تماثيل الرئيس العراقي صدام حسين رحمه الله ، وهجموا على المتاحف وسرقوا ما فيها ونهبوا المباني الإدارية . وراحوا يهللون ويطبلون للأمريكيين فظن بعض البسطاء وطيبو القلب والسذج من المحللين أن الشعب العراقي رحب بالغزو الأمريكي ، وهذا بهتان عظيم وطعن في شرف العراقيين ؛ لأن الأسافل والرعاع لا يعبرون أبدا عن الشعب العراقي كله ، فهم لا يعرفون في حياتهم إلا السلب والنهب ويسعون للاستفادة من أي وضع كان ، فهم لا يعبرون أبدا عن أهل العراق ، وقد تجلى ذلك في المقاومة العنيفة التي صد بها المجاهدون العراقيون الأشداء الأمريكيين وأثخنوهم وساموهم سوء العذاب في الفلوجة والأنبار وغيرهما ، فعلم حينئذ هؤلاء البسطاء والسطحيون من المحللين أنهم كانوا خاطئين . وهذه عاقبة من يأخذ الأمور على ظواهرها .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٦٧) .

أولا : فبعد أن تحدثوا عن هجوم المماليك على المعسكر العثماني . قال د.عبد المنعم ماجد : « استمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالي إلى يوم السبت ، حيث ظهروا فيها على العثمانيين حتى صاروا يكبسون أماكن تجمعهم »[1].

أما د.صلاح هريدي فهو فإنه قد نقل كعادته عن د.عبد المنعم ماجد نـص كلامه تقريبا[2].

وأما د.محمد الراقد فقد قال : « وفي هذه اللحظة العصيبة انضم أيضا رجال الناصرية وقناطر السباع من المصريين إلى حركة المقاومة الشعبية ، وأصدر السلطان طومان باي أوامره بأن كل من يتمكن من جندي عثماني يقطع رأسه ويرسلها إليه »[3].

قال د.السيد الدقن : « اشترك فيها إلى جانب طومان باي والمماليك جماهير غفيرة من الشعب المصري الذين صاروا يرجمون المعسكر العثماني بالمقاليع والحجارة ... ونادى السلطان طومان باي في الناصرية وقناطر السباع لعامة الشعب بأن كل من قبض على عثماني يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدي السلطان »[4].

قلت : مازال الأساتذة مصرين على ما زعموه من المقـاومة الشعبية فيتحدث د.عبد المنعم ماجد ود.صلاح هريدي عن مقاومة « المصريين » ، ولكن الأنكى من ذلك ما فعله د.الراقد ود.الدقن ، إذ نقلوا عن ابن إياس ما لم يقله . فابن إياس ذكر أن السلطان طومان باي نادى في الزعر والعياق بأن يقطعوا رؤوس الجنود العثمانيين كما نقلنا عنه آنفا[5]، لكن د.الراقد حذف كلمة (الزعر والعياق) وتحدث عن رجال الناصرية وقناطر السباع الذين انضموا إلى المقاومة الشعبية . أما د.السيد الدقن فحذف أيضا كلمة (الزعر والعياق) وقال جماهير غفيرة من الشعب المصري ، وقال أيضا عامة الشعب في الناصرية وقناطر السباع ، ثم يتمادى في ذلك ويقول في خاتمة كتابه : « معركة الصليبة التي اشترك فيها الشعب المصري بجميع طوائفه »[6] ، فهل يعد

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٦٤ ، ١٦٥) .

(٢) د.صلاح هريدى : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٩) .

(٣) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٨٩) .

(٤) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٦٦ ، ٦٧) .

(٥) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٣) .

(٦) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان بأي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ١١٣) .

هذا من الأمانة العلمية ؟! هل هذا هو الحياد ودقة النقل من المصادر؟! هل أصبحت كلمة الزعر والعياق تعبر عن الشعب المصري ؟!.

ويتمادى د.الراقد في الاستخفاف بعقلية قارئ كتابه فيقول : « من الثابت أن الشعب المصري لم يقف موقف الحياد من القوتين المتحاربتين . ولكنه اشترك مع المماليك في مهاجمة المعسكر العثماني في بولاق ، وفي قتال الشوارع والحارات والمساجد والمقابر في الصليبة ومصر القديمة ، وإذا أمعنا النظر في الفئات التي شاركت في القتال نجد أنها من صميم فئات الشعب المصري الكادحة ، فالفئات التي قاتلت في بولاق كانت من الزعر وعياق بولاق والنواتية وكلها من الفئة العاملة »[1].

قلت : هل أصبح أهل الفساد من البلطجية والمجرمين هم طبقات الشعب المصري العاملة ؟! وهل أصبحت أفعالهم إنما هي تعبير عن سلوك الشعب المصري ؟! أين العلماء والمشايخ والقضاة ؟!. أين التجار وأرباب الحرف من النجارين والحدادين ؟!. أين أرباب القلم من الكتاب والمباشرين ؟!. لا يوجد أي ذكر لهذه الفئات في المصادر التاريخية ، لكن الأستاذ الفاضل يستخف بعقول الناس ، ويختزل الشعب المصري في الزعر والعياق ، ثم يزعم أن ذلك مما جاء في المصادر التاريخية ! وهو في واقع الأمر لم يستخف بقرائه المساكين فحسب بل استخف بالمشرف على رسالته د.أحمد الحتة ، واستخف باللجنة العلمية التي أجازت له هذه الرسالة ، قال الله تعالى :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف :٥٤]

فأساتذة التاريخ تخيلوا وجود مقاومة شعبية غافلين عن اختلاف ظروف ذلك الفتح ، واختلاف الفكر في القرن السادس عشر عنه في القرن العشرين ، ثم فرضوا ذلك التخيل على المصادر التاريخية وراحوا يتصرفون في كلام المؤرخين بالحذف والإضافة لإثبات تخيلاتهم هذه . والأنكى من ذلك أن د.عبد الجواد صابر إسماعيل قد تحدث عن وجود مقاومة شعبية للفتح العثماني وذكر أن علماء الأزهر شاركوا فيها ، واستدل على ذلك بدليل واه ، ومما قاله : « برز دور علماء الأزهر في حرب المقاومة التي قادها المماليك ضد العثمانيين ، وكان شعب مصر هو

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٩٩ ، ٢٠٠) .

القوة الفعالة فيها بعد أن دعمه العلماء بقوة عقدية أساسها أن الغزاة العثمانيين بغاة ، ومن أعظم علماء الأزهر الذين شاركوا في هذه المقاومة وقادوها معنويا الشيخ الإمام يحيى بن العداس خطيب جامع شيخو بالقاهرة ، ذلك العالم الذي أعلى كلمة الحق من فوق منبر هذا الجامع معلنا بغي السلطان سليم وقواته ومؤيدا حق السلطان طومان باي وقواته ، وقد كان لشجاعة هذا العالم أثر عظيم في نفوس خطباء مساجد القاهرة وجوامعها الكبرى ، فأعلنوا أن طومان باي سلطان مصر هو الحاكم الشرعي وأن حكم السلطان سليم باطل »[1].

قلت : لنا في كلام د.عبد الجواد ثلاث مسائل :

١- خلع د.عبد الجواد على يحيى بن العداس ألقاب العلماء بل عده أحد أعظم علماء الأزهر ، ولست أدرى من أين جاء بهذا الكلام فهو لم يذكر في المصادر التاريخ إلا بأنه خطيب جامع شيخو ، ولم أعثر له على ترجمة إلا عند نجم الدين الغزي قال فيها : « إمام جامع شيخون بالقاهرة وخطيبه وناظره . كان ذا نشاط وبساط وسماط وبر لأصحابه ، وقضاء لحوائجهم بحيث أدى به ذلك آخراً إلى تحمل شيء من الدين وتوفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة رحمه الله تعالى »[2]...فلماذا أسبغ د.عبد الجواد عليه ألقابا ليست من حقه.؟!

٢- ما هي قصه يحيى بن العداس التي استحق بها هذه الألقاب التي أسبغها عليه د.عبد الجواد ؟! الجواب : هو فيما قاله ابن إياس في معرض سرده لوقائع معركة الصليبية ، فقال : « ومن العجائب أن السلطان طومان باي لما ظهر خطب باسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة وكان في الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه بن عثمان »[3].

قلت : لقد كان ابن العداس خطيب مسجد شيخو الذي نزل فيه السلطان طومان باي وجعله قاعدة لقتال العثمانيين في المعارك الداخلية. فكان من الطبيعي أن يخطب إمام المسجد لطومان باي ، أما سائر أئمة المساجد الذين خطبوا في تلك الجمعة لطومان باي فلأنه كان منتصرا في تلك المعارك ، فكما ذكرنا أن المماليك كانوا منتصرين في اليومين الأول والثاني

(١) د.عبد الجواد صابر إسماعيل : دور الأزهر السياسي إبان الحكم العثماني (ص ١٣) .

(٢) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/ ٣١٥) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٥) .

(الأربعاء والخميس) وتشتت الجيش العثماني وسقط منه الآلاف فكان من الطبيعي أن يخطب الأئمة للسلطان طومان باي ، بدليل أن هؤلاء الخطباء أنفسهم بمن فيهم ابن العداس قد خطبوا باسم السلطان سليم في الجمعة التي سبقتها لأنه كان منتصرا ، وقد فر أمامه طومان باي في معركة الريدانية ، ولم أجد في أي مصدر قط أن العداس قد أعلن أن العثمانيين بغاة وأن حكم السلطان سليم باطل كما زعم د.عبد الجواد ، ولو كان العداس قد خطب باسم طومان باي في الجمعة الأولى لقبلنا برأي د.عبد الجواد ، لكن ابن العداس خطب باسم السلطان سليم لما كان منتصرا ثم خطب باسم طومان باي لما كان منتصرا ، ثم عاد مرة أخرى وخطب باسم السلطان سليم بعد أن فر طومان باي بعد هزيمته في معركة الصليبة ، فإن الخطبة تكون للمنتصر .

٣- ثم إن لابن العداس موقفا مشابها في عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م في واقعة خلع السلطان الأشرف جان بولاط ، عندما خرج عليه العادل طومان باي[1] وأعلن العصيان وساق عساكره عليه ووقع القتال في القاهرة أكثر من سبعة أيام ، فلما لاحت بوادر الهزيمة على السلطان جان بولاط ، وفي يوم الجمعة صلى العادل طومان باي في مسجد شيخو فخطب باسمه ابن العداس قبل أن يتقلد السلطنة رسميا ، وحتى قبل أن يعلن خلع الأشرف جان بولاط وفي ذلك قال ابن إياس : « فلما خطب الشرفي يحيى بن العداس خطيب جامع شيخو دعا في آخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهي أول خطبة خطب فيها باسم العادل في القاهرة قبل أن يخلع الأشرف جان بولاط من السلطنة ، وقد خاطر الشرفي يحيى بن العداس بنفسه في ذلك فعد من النوادر ، فلما تسلطن العادل وتم أمره في السلطنة كتب للشرفي يحيى بن العداس جامكية في كل شهر ألف درهم في سبيل ذلك »[2].

قلت : لقد خطب ابن العداس للعادل طومان باي قبل أن يتسلطن وذلك من باب التقرب إلى السلطان المرتقب ، وقد قبض الثمن لأجل ذلك ، ولا يقولن أحد أن السلطان الأشرف جان بولاط كان سلطانا جائرا فخلع لأجل ذلك وأن ابن العداس كان مع « **نبض**

---

(١) هو غير الأشرف طومان باي الذي كان يقاتل السلطان سليم الأول .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٤٦٠) .

الشعب » لأن جان بولاط لم يمكث إلا ستة أشهر بالسلطنة وهي فترة ضئيلة غير كافية على الإطلاق لتقييم الحكام ، والعادل طومان باي نفسه لم يمكث إلا ثلاثة أشهر ، وكل من له دراية بتاريخ المماليك يعلم أن ولاية السلطنة والخلع منها ليس له علاقة بالعدل أو الظلم ، بل بمدى ثقل مؤيديه من أمراء المماليك وأن عامة الناس ليس لهم من الأمر شيء . فنلاحظ مما سبق أن د.عبد الجواد يحمل الأحداث أكثر مما تحتمل ، ويلوي أعناق النصوص ليثبت وجود مقاومة شعبية ، وأن الأزهر كان مشاركا فيها ، وهذا غير صحيح على الإطلاق .

ثانيا : بعد أن استطاع العثمانيون استجماع قوتهم والتصدي لهجوم المماليك المذكور ، قال د.عبد المنعم ماجد : « وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم وتدنيس مساجدهم ومشاهد أوليائهم ، بما فيها مقام الإمام الشافعي ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف وتركوا جثثهم مرمية في الطرقات تنهشها الكلاب حتى كاد يفنى أهل القاهرة نتيجة لذلك »[1].

قال د.صلاح هريدي : « وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف أو ستين ألفا ، وتركوا جثثهم في الطرقات تنهشها الكلاب حتى كاد أن يفنى أهل القاهرة »[2].

قال د.محمد الراقد : « ثم واصل العثمانيون مطاردتهم للعناصر الوطنية المصرية التي اشتركت في القتال ، فهاجموا زاوية الشيخ عماد الدين بالناصرية وأحرقوا ما حولها من بيوت وقتلوا أعدادا هائلة من أبناء الشعب المصري ، ولم يرحموا صغيرا أو شيخا مسنا ، وسيطرت عليهم روح التشفي من المصريين نتيجة لاندلاع حركة المقاومة الشعبية في القاهرة »[3].

قال د.السيد الدقن : « ولم يراعوا حرمة المساجد فهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالناصرية ، ونهبوا ما فيها من قناديل وحصر ، وأحرقوا البيوت التي حولها ، كما دخلوا مسجد السيدة نفيسة وداسوا قبرها ونهبوا محتويات المسجد ، كما لم يسلم الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرها من الجوامع الكبار والمدارس والزوايا من عبث

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٦٤ ، ١٦٥) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٩) .

(٣) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٨٩) .

الجنود العثمانيين ، بحجة البحث عن المماليك ، أما جامع شيخون الذي كان مركزا لقيادة المقاومة فإن العثمانيين أشعلوا فيه النيران ، فاحترق سقف إيوانه الكبير ، والقبة التي كانت فوقه ، كما أحرقوا المنازل المجاورة له بعد أن فر أهلها منها »[1].

قلت : لا زال د.عبد المنعم ماجد يحرف الكلم عن مواضعة ، فاتهم العثمانيين بتدنيس المساجد ومقام الإمام الشافعي انتقاما من المصريين ، وهذا بهتان عظيم ورب الكعبة.! هل كان العثمانيون كفارا آنذاك ؟! هل ظن د.ماجد أنه يتحدث عن التتار أو الفرنساوية ؟! والمؤسف أنه يتمسح في ابن إياس ويزعم أنه قال ذلك . والحق أن ابن إياس لم يقله ، بل قال : « أشيع أن العثمانية هجموا على مقام الإمام الشافعي ﷺ ونهبوا ما فيه من البسط ومن القناديل في حجة المماليك الجراكسة وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه »[2].

قلت : أين في كلام ابن إياس تدنيس المساجد وقبة الإمام الشافعي ؟! انظر بالله عليك إلى كلام ابن إياس وكلام د.عبد المنعم الذي صرح أنه نقل عنه ، ثم حدثني عن الأمانة العلمية والحياد في كتابة التاريخ.! ثم إن ابن إياس ذكر الخبر على سبيل الإشاعة التي لم يتحقق منها ، ثم لو سلمنا لكم أنه حقيقة وأنهم دخلوا مقام الإمام الشافعي كما دخلوا كثير من المساجد يقينا كمسجد ابن طولون ومسجد الحاكم . فهل كان ذلك بغضا منهم للمساجد.؟! أو إمعانا في الحط من بيوت الله .؟! الجواب بالنفي يقينا ، بل دخلوها لأن المساجد تحولت إلى ثكنات عسكرية تجمع بها جنود المماليك فكان هجوم العثمانيين عليها من هذا الباب ، فإن زاوية الشيخ عماد الدين التي حرص كل من د.الراقد ود.الدقن على التأكيد على أن العثمانيين أحرقوها وأحرقوا ما حولها من بيوت ، إنما كانت مركز هجوم الأمير علان ومن معه من المماليك على الجيش العثماني وعلى حد تعبير ابن إياس (**واقعة تشيب منها النواصي**) استطاع المماليك فيها طرد العثمانيين من الناصرية ، فلما استجمع العثمانيون قواهم هجموا على الناصرية وكان من الطبيعي أن يشعلوا فيها النيران وأن تكون واقعة تشيب منها النواصي بدورها ، لا انتقاما من أهل مصر كما زعم د.عبد المنعم ود.صلاح هريدي ود.الراقد ، بل

---

(١) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٧٠) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٠) .

تدميرا لأحد مراكز القيادة المملوكية ، فالأمير علان هذا كان الأتابكي (كبير الأمراء) فالناصرية كانت ساحة قتال دام بين قوتين عظيمتين فكان من الطبيعي جدا أن تصبح خرابا ، أما مسجد ابن طولون فقد كان أحد مراكز السلطان طومان باي نفسه وقد حفر أمامه حندقا كما نقلناه عن ابن إياس فيما سبق فكان من الطبيعي أن يدهمه العثمانيون في أثناء تلك الوقائع ، أما مسجد شيخو الذي أشعل العثمانيون فيه النيران فقد كان الموقع التي تحصن به طومان باي كما نقلناه عن ابن إياس ، وقد اشعل العثمانيون فيه النار لإرغام طومان بأي على الخروج منه ، وكان من الطبيعي أن تمتد النيران إلى البيوت التي حوله ، ثم ألم تعمر كل تلك المساجد بعد ذلك في العصر العثماني؟!. أما ما ذكره ابن إياس أنهم داسو على قبر السيدة نفيسة ، فلا يمكن أبدا أن يتعمد مسلم تقيا كان أو فاسقا أن يطأ قبر حفيدة رسول الله ﷺ عامدا متعمدا ، فإن كان قد حدث هذا فلا ريب أنه قد حدث عن غير عمد بسبب القتال الذي دار بين العثمانيين والمماليك داخل مقامها . فنحن نتحدث عن أعداد ضخمة من فئتين عظيمتين تتقاتلان داخل مدينة كبيرة ، فكل ما رواه ابن إياس على ما فيه من تحيز ومبالغات أحيانا كما سنبينه يعد أمرا متوقعا ، وليت أساتذة التاريخ التزموا بكلامه هذا ، بل إنهم زادوا فيه وأنقصوا ، والله يعلم المفسد من المصلح .

أما ما ذكره **د.عبد المنعم ماجد ود.صلاح هريدي** - نقلا عن ابن إياس - من قتل العثمانيين لعشرة آلاف من المصريين ، فهذا بهتان عظيم وتلاعب بالمصادر التاريخية ، فإذا رجعنا إلى نص ما قاله ابن إياس بعد أن ذكر وقائع القتال الذي دار في الأيام الأربعة كلها، التي كانت الغلبة للمماليك في اليومين الأول والثاني ، ثم تحول الأمر لصالح العثمانيين في اليومين الثالث والرابع ، **قال ابن إياس** : « فكان مقدار من قتل في هذه الواقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان في مدة هذه الأيام الأربعة »[1].

فهل يتفق هذا مع ما قاله الأستاذان الفاضلان : (وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف) ، فليخبرني أي إنسان عالما كان أو جاهلا ، كبيرا كان أو صغيرا ، عربيا كان أو أعجميا ، هل يتفق القولان في المعنى؟! إن من يقرأ كلام

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/١٥٦) .

الأستاذين يتبادر إلى ذهنه أن العثمانيين بعد أن انتهت الوقائع الحربية واستتب لهم الحكم في مصر ، قاموا بجمع المصريين أفواجا أفواجا لضرب أعناقهم حتى قتل منهم عشرة آلاف.! في حين أن ابن إياس يتحدث عن القتلى في الأيام الأربعة . والذي يفهمه العقلاء من ذلك أن هؤلاء العشرة آلاف – إن صح ذلك العدد – إنما هم القتلى من المماليك والعثمانيين والعوام . ويدل على ذلك قول ابن إياس (إنسان) ، لاسيما وأنه قد ذكر في أكثر من موضع أن القتلى من العثمانيين كانوا أكثر من أن يحصى عددهم . ومن ذلك قوله : « فاستمر السلطان طومان بأي يتقع مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصى عددهم »[1].

وهذا ما رجحه ابن أبي السرور البكري فقال : « وكان من قتل في هذه الواقعة على ما نقله ابن إياس رحمه الله في تاريخه وهى مدة أربعة أيام فوق العشرة آلاف إنسان ، ولعل ذلك من الطائفتين ومن الرعية »[2].

ولو أردنا أن نحذو حذو أساتذة التاريخ وأن نتحيز للمماليك قليلا فنقول أن العشرة آلاف هؤلاء هم القتلى من المماليك ومن الرعية فحسب ، وفي هذه الحالة فإن القتلى من العثمانيين لا يقلون عنهم بل يزيدون فإن كان ابن إياس لم يصرح بعددهم واكتفى بقوله ما لا يحصى ، فإن ابن زنبل قال إن عدد القتلى من العثمانيين كان خمسة عشر ألفا[3].

في واقع الأمر نحن نتحدث عن قتال بين طائفتين عظيمتين وقد سقط فيه من الجانبين الآلاف ، ولكن أساتذة التاريخ لا يذكرون عدد القتلى من العثمانيين على الإطلاق – إلا د.سيد الدقن – وفي هذا تحيز شديد ، ولعلهم أرادوا بذلك أن يستدروا عطف القارئ ليميل إلى جانب المماليك أو ليظن أن العثمانيين كان يقتلون المماليك بدم بارد وأعصاب هادئة ، لا من خلال معارك دامية لقي فيها الكثير منهم مصرعهم ، وأما د.الراقد فكان أكثر حنكة من أن يقع في ذلك ، إذ أنه نقل قول ابن إياس بنصه ولكنه علق عليه قائلا : « ثم أمر سليم بإقامة مذبحة لأبناء القاهرة لأنهم تجاسروا واشتركوا في مقاومة الغزو العثماني »[4]. وكأنه يلمح دون

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٥) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ٨٥) .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٦٧) .

(٤) د. محمد السيد الراقد : الغزو العثماني لمصر (١٩١) .

أن يصرح إلى أن هؤلاء القتلى العشرة آلاف كانوا من أهالي مصر ، وهذا كما بينا بهتان عظيم وتجن على العثمانيين وتقول على المصادر التاريخية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأما ما ذكره د.عبد المنعم ماجد ود.صلاح هريدي نقلا عن ابن إياس ، من أن جثث القتلى من المصريين كانت ملقاة في الطرقات تنهشها الكلاب ، فهذا أيضا لا يعبر عن الواقع وفيه تجن على الحقائق التاريخية ، فإن ابن إياس بعد أن ذكر وقائع الأيام الأربعة قال : «وصارت الجثث مرمية في الرملة إلى سوق الخيل إلى الخيميين ، وقد تناهشت الكلاب أجسادهم وصارت الخيول مرمية في الرملة وفي الأرواق وفي الأزقة ، وقد قتلوا بالبندق الرصاص في الوقعة »[1].

قلت : لا ريب أن ابن إياس كان يتحدث عن جثث الفريقين من العثمانيين والمماليك ، لاسيما أنه كان قد قال قبيل ذلك : « ثم صارت القتلاء من الأتراك (المماليك) والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع وإلى الرملة وإلى تحت القلعة ، وفي الحارات والأزقة من الأتراك والعثمانية »[2]... وليس في كلام ابن إياس أي ذكر لجثث المصريين خاصة بل لجميع القتلى أيا كان جنسهم .! ثم إن كانت جثث الفريقين ملقاة في الشوارع فهل يظن بالكلاب أنهن كن ينتقين جثث المصريين دون جثث المماليك والعثمانيين .؟! فهل أساء الأستاذان الكبيران فهم النص التاريخي .؟! أم أن ذلك نمط آخر من استدرار عطف القارئ للمماليك وشحنه بالبغضاء للعثمانيين بغير حق .؟!

هناك واقعة أخرى ذكرها د.**محمد السيد الراقد** نقلا عن ابن إياس ، وهى من ضمن الوقائع التي تبين كيف يتم تحريف الكلم عن مواضعه . فقد قال د.الراقد : « قبضوا على الكثير من المصريين الذين اشتركوا في القتال وأعدموهم ، وكان الجلاد يعزل رؤوس المماليك الجراكسة عن رؤوس المصريين من الشباب والعربان ، ثم ينصب الحبال على الصواري ويعلق عليها رؤوس المصريين في المعسكر الذي أقامه العثمانيون في الجزيرة الوسطى ، أما رؤوس المماليك فكانت تلقى في النيل وكان العثمانيون يهدفون من تعليق رؤوس المصريين الإمعان في إذلالهم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٥) .

وإرهابهم وأن تكون رؤوس قتلاهم مثلا لمن تخوله نفسه مستقبلا مقاومة العثمانيين »[1].

قلت : نقل د.الراقد هذا الكلام عن ابن إياس ، فأما ما ذكره من تعليق رؤوس المماليك وغيرهم فهو مما ذكره ابن إياس حقا ، أما ما ذكره د.الراقد من تعليق رؤوس المصريين بصفة خاصة فهذا باطل ولم يقله ابن إياس ، ولكن قبل أن نفند ذلك القول دعنا نقول أولا أن حز الرؤوس وتعليقها لا يجوز شرعا في حق الكافر ، فكيف بالمسلم ؟. فإن النبي ﷺ : « نهى عن النهبة والمثلة »[2].

ولكن يبدو أن تعليق الرؤوس كان عادة في ذلك الزمان ، وقد كان طومان باي قبل أن يصل السلطان سليم إلى القاهرة ، يعلق رؤوس العثمانيين التي يأتيه بها العربان ، **قال ابن إياس** : « ثم إن العربان من السوالمة صاروا يقبضون على من يلوح لهم من العثمانية ، ويقطعون رؤوسهم ويحضرونها إلى بين يدي السلطان ، فيرسم السلطان بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة »[3].

أنا لست هنا بصدد الدفاع عن العثمانيين . لأن تعليق الرؤوس لا يجوز شرعا حتى وإن كان ردا على ما فعله المماليك . ولكني هنا بصدد أستاذ جامعي ينسب إلى المصادر ما ليس فيها ، وذلك عندما ذكر أنهم يعلقون رؤوس المصريين دون المماليك ، وينسب ذلك إلى ابن إياس وهو منه براء . فقد قال ابن إياس : « المماليك الجراكسة يعزل رؤوسهم وحدها ، ورؤوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الحبال على الصواري ويعلق عليها تلك الرؤوس في الوطاق الذي في الجزيرة الوسطى ، وكان المشاعلي إذا حز رأس المماليك يرمى جثثهم في البحر »[4].

قلت : أي أعجمي حديث عهد بالعربية يستطيع أن يفهم من كلام ابن إياس أن المشاعلي (الجلاد) كان يعلق رؤوس الجميع ، المماليك وغيرهم ، وأن الذي كان يلقى في النيل هو

---

(١) د.محمد السيد الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ١٩١ ، ١٩٢).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٩٤) ، أحمد (٣١/ ٣٧) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ٤٨٢) ، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٥٢٧) ، ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ١٣٧) ، أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٤/ ١٨٠٣) ، أبو داود الطيالسي في المسند (٢/ ٣٩٨) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٤٢) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٦) .

جثث المماليك وليس رؤوسهم ، فأين في كلام ابن إياس أنهم كانوا يعلقون رؤوس المصريين فحسب ؟! وأين في كلام ابن إياس أن رؤوس المماليك كانت تلقى في النيل كما زعم د.الراقد .؟! وأين في كلام ابن إياس أن ذلك كان بهدف إذلال المصريين .؟! وكأن د.الراقد يسير على نفس الدرب المرسوم منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وهو إيقاع العداوة بين العرب والأتراك . فلو كان الأعجمي الحديث عهد بالعربية يفهم كلام ابن إياس فهما صحيحا ، فلماذا لم يفهمه د.الراقد ؟! في الواقع أنا لا أستطيع أن أحسن الظن بكم أكثر من ذلك يا أساتذة التاريخ ، وأصدق أن أخطاءكم إنما هي من باب سوء الفهم . فلا أتصور أن يصل سوء الفهم إلى هذا الحد ، لاسيما من شخص يحمل أرفع الدرجات العلمية . فلو كان كل من يحمل درجة الدكتوراه في بلادنا على هذه الشاكلة فيا حسرة على البلاد .

هناك واقعة أخرى ذكرها د.سيد الدقن ونسبها إلى ابن إياس وهو منها براء . قال د.سيد : « تحيل السلطان سليم بأن أعلن الأمان للمماليك فظهر نحو أربعمائة منهم فغدر بهم وضرب أعناقهم »[1].

قلت : هؤلاء المماليك الأربعمائة كانوا قد ظهروا مع جان بردى الغزالي بعد أن أمنه السلطان سليم ، فقبض عليهم ثم تم ترحيلهم إلى اصطنبول ، هذا ما ذكره ابن إياس في ١٩ محرم ٩٢٣هـ : « أشيع أن المماليك الذين حضروا صحبة الغزالي رسموا عليهم ، وقيل أودعوهم بالقلعة وكانوا نحو أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان فلما ظهروا قبض عليهم وغدرهم في أمانه ».. ثم **قال ابن إياس في** ٢٥ محرم ٩٢٣هـ : « **أشيع أن المماليك** الذين طلعوا بالأمان قيدوهم وأودعوهم في الوكالة التي خلف مدرسة السلطان الغوري » .. **ثم قال ابن إياس في** ٤ صفر ٩٢٣هـ : « المماليك الجراكسة الذين كانوا ظهروا بالأمان وكانوا في الترسيم في الوكالة التي خلف مدرسة الغوري ، وكان منهم جماعة في سجن الديلم ، وكان فيهم أمراء عشرات فرسم بأن ينفوا إلى اصطنبول فأخرجوهم وهم في قيود ... ثم توجهوا إلى بولاق وأنزلوهم في المراكب. فلما استقروا في المراكب خشبوا منهم جماعة بقرامي خشب في أيديهم ،

---

(١) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٧٠) .

ثم سافروا بهم في البحر إلى ثغر الإسكندرية ثم يتوجهون بهم إلى اصطنبول »[١].

قلت : هذا كلام واضح من ابن إياس لا لبس فيه ، فهؤلاء المماليك الأربعمائة الذين سلموا أنفسهم بالأمان لم يقتلوا بل أرسلوا إلى اصطنبول ، ولست أدري من أين جاء د.السيد الدقن بأنهم قد قتلوا .. **ثم قال د.السيد الدقن** : « الأمير كرتباي الوالي الذي أصيب في فخذه فاختبأ عند أحد أصدقائه المباشرين ، ثم وشى به إلى السلطان سليم فأعطاه الأمان ووعده خيرا ثم غدر به وقتله »[٢].

قلت : لقد نقل د.السيد الدقن ذلك عن ابن زنبل ، ولكن رواية ابن زنبل فيها تفاصيل هامة أغفلها د.السيد ، ومن ذلك ما قاله ابن زنبل أن السلطان سليما أرسل لكرتباي منديل الأمان ، فجاءه كرتباي من تلقاء نفسه ووقف بين يدية ، فلما عاتبه السلطان سليم رد عليه كرتباي بحدة وبفظاظة شديدة ، وأغلظ له القول ، وقال له كلاما لا يحتمله أي سلطان ، **قال ابن زنبل** : « بعد أن عرف من عين السلطان الغدر وأنه يقتله ولا بقى له من خلاص ، فترك الأدب وتكلم كلام من أيس من الحياة ، وجعل عينه في عين السلطان ورفع يده في وجه السلطان وقال له : اسمع كلامي واصغ حتى تعلم أنت وغيرك ... فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط ، وها أنت معك مائتا ألف من جميع الأجناس ، وقف مكانك وصف عسكرك ويخرج لك منا ثلاثة أنفار ، أنا عبد الله والفارس الكرار السلطان طومان باي والأمير علان ، وانظر بعينك كيف تفعل هذه الثلاثة ، تبقى تعرف روحك إن كنت ملكا أو يصلح لك أن تكون ملكا ، فإن الملك لا يصلح إلا لمن يكون من الأبطال »..**ثم قال ابن زنبل** : « فازداد السلطان سليم غيظا ولكنه أظهر الحلم »..ثم تمادى كرتباي في سب السلطان سليم واتهمه بالكذب والنفاق والخيانة ، **ثم قال ابن زنبل** : « كل ذلك والسلطان سليم ساكت يسمع قول كرتباي وجراءته في الكلام ... ثم نظر السلطان إليه نظرة الغضب وقال له : إني أردت أن أعتقك وأفرج عنك وأجعلك أميرا من أمرائي ، فرأيتك قليل الأدب جرئ اللسان ، والذي يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة . **فقال له كرتباي الوالي**

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥) .

(٢) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٧٠) .

: معاذ الله أن أكون من أمرائك وأنت بهذه الصفة . فنادى السلطان بأعلى صوته وقد احمر وجهه من شدة الغيظ : أين الجلاد ؟ فتقدم نحو مائة وخمسون جلادا ، فقال : اضربوا عنق هذا الجركسي الملعون »[1].

قلت : أنا لست هنا بصدد الدفاع عن السلطان سليم فالرواية عندي لا تثبت أصلا من ثلاثة أوجه :

١- لم يذكرها ابن إياس . بل لم يذكر ابن إياس شيئا عن كرتباي أصلا بالرغم من أنه أحد أكبار الأمراء .

٢- من يقرأ رواية ابن زنبل كاملة يرى أنها أقرب إلى القصص الروائية أو إلى ما يقصه القصاص في الموالد على الربابة ، منها إلى رواية مؤرخ .

٣- ليس من المعقول أن يقدم كرتباي على التحدث بهذا الحدة مع السلطان سليم وهو الذي جاءه طائعا بالأمان ، وهو يعلم أن السلطان سليم الذي عفا عنه يستطيع أن يضرب عنقه ، و إلا ما الذي جاء به ؟! هل كان يظن أنه سيسب السلطان سليم بهذه السباب ثم ينصرف هكذا بسهولة ؟!

فبصرف النظر عما سبق ، فلو كان د.السيد الدقن يريد أن يأخذ برواية ابن زنبل على ما فيها من علل فله ذلك ، بشرط أن ينقلها كما هي وأن يقدمها في كتابه بنفس وقائعها التي جاءت في المصدر الذي نقل عنه ، فليس له أن ينقل قتل السلطان سليم لكرتباي دون أن يذكر السبب في ذلك ، فهذا أبعد ما يكون عن الحياد والمنهج العلمي ، ولكن ما يلفت الأنظار أن معظم أساتذة التاريخ يبادرون إلى ذكر كل ما يسئ إلى السلطان سليم بحق أو بباطل ، وتراهم يخفون كل ما فيه إنصاف له أو ينفي عنه الإساءة .!

محاولة الصلح مع طومان باي

بعد أن هزم المماليك في معركة الصليبة فر طومان باي ورجاله إلى الصعيد ، ثم أرسل إلى السلطان سليم بالموافقة على ما كان قد عرضه عليه من قبل وهو بالشام حقنا لدماء المسلمين ،

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٦٩ – ٧٥) .

بأن يكون نائبا عنه بمصر وأن يحمل له خراجها ، وأن تكون السكة والخطبة باسم السلطان سليم . وافق السلطان على ذلك وأرسل إلى طومان باي كتابا بالأمان على يد وفد لإتمام الصلح ، وكان على رأس ذلك الوفد المولى مصلح الدين مصطفي جلبي قاضي عسكر الروميلي والقضاة الأربعة وبرد بك دوادار الخليفة العباسي ، ولكن لما وصلوا إلى طومان باي رفض الصلح هو وسائر أمرائه ، ثم قتلوا الأعضاء العثمانيين في وفد الصلح ، كما قتل قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة . وقد تمكن القضاة الثلاثة وبرد بك دوادار الخليفة من الهرب ، فتم استئناف الحرب ووقعت موقعة « الوردان » وهزم فيها طومان باي وأمرائه أيضا»[1].

من المؤسف في الأمر أن ترى أستاذا كبيرا مثل د.سعيد عاشور يروى هذه الواقعة بتراء مشوهة فإليك نص كلامه لترى مدى دقته في النقل . قال د.سعيد عاشور : « هزم (طومان باي) وفر إلى البهنسا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ، فأرسل يعرض عليه أن يكون نائبا عنه في حكم مصر ويجعل الخطبة والسكة باسمه ، ويحمل له خراج البلاد بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر (وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني في بر الجيزة) وكان طبيعيا أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومان باي إلى الجيزة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين »[2].

قلت : هكذا قام الأستاذ الكبير بتحريف الكلم عن مواضعه فأخفي بعضه وأظهر بعضه . فقد أرجع فشل محاولة الصلح إلى رفض السلطان سليم له ، وأخفي عنا د.سعيد عاشور أن طومان باي رفض الصلح وقتل رئيس الوفد المولى مصلح الدين وأغلب أعضائه ، وأني لأرجو أن يتقدم أي واحد من تلامذة د.سعيد عاشور – وهم أساتذة أكابر الآن – أن يخبرني بالسبب الذي لأجله تلاعب هذا الأستاذ الكبير بالمصادر فأخفى بعض الحقائق التاريخية ، أهو البغض للعثمانيين عامة وللسلطان سليم خاصة .؟! أم هو المحاباة للمماليك .؟! أم هو

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٦ ، ١٧٣) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٣٧) ذكر ابن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٨٨) ، أن السلطان سليم هو الذي أرسل لطومان باي يعرض الصلح فرد عليه بالموافقة فأرسل السلطان سليم الوفد المذكور فقتل طومان باي أغلبهم .

(٢) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ١٩٧) .

اتباع أعمى لأستاذه محمد مصطفى زيادة التلميذ النجيب للمستشرق الألماني « باول كاله »[1].؟! أم هو من باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أم ماذا بالله عليكم ؟! لقد فاض الكيل وطفح .

فائدة

ومما ينبغي أن يكون معلوما أن الضرر يحدث من الجنود وإن كان قائدهم صالحا ، لأنه ليس كل جندي هو تقي ورع ، بل منهم العاصي ومنهم المنافق ومنهم طالب الدنيا الذي يتلمس جيشا قويا مصحوبا بالنصر أينما حل فينضم إليه ليقاتل معه طمعا في الغنائم والأسلاب . وقد حدث في زمن رسول الله ﷺ ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ قال : « لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : فُلانٌ شَهِيدٌ ، فُلانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ ، فَقَالُوا : فُلانٌ شَهِيدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : كَلا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا الْمُؤْمِنُونَ قَالَ : فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ أَلا إِنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا الْمُؤْمِنُونَ »[2].

فهذا الرجل كان يقاتل في أطهر جيش ، ومع أطهر الناس مع رسول الله ﷺ ولكنه عصى أوامره وغل من الغنيمة ، فإن كان هذا قد حدث في زمن رسول الله ﷺ ، فكيف بمن جاء بعده بتسعة قرون ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ »[3]. فالجيش الذي يتكون من عشرات الآلاف يصعب السيطرة على جميع أفراده ، لذلك كان من هدى رسول الله ﷺ إذا أرسل سرية أن يوصي قائدها بأمور منها : « وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ

---

(١) أهدي محمد مصطفى زياده تحقيقه لتاريخ ابن إياس إلى أستاذه باول كاله وقد ورد ذلك في مقدمة كل جزء منه.

(٢) رواه مسلم (١/ ١٠٧) ، أحمد (١/ ٢٣٠) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٩٤) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٧١) ، الدارمي (٣/ ١٦١٦) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١١/ ١٩٦) .

(٣) رواه البخاري (٩/ ٤٩) ، الترمذي (٤/ ٤٩٢) ، أحمد (١٩/ ٣٥١) ، البيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٢٠٣) ، أبو يعلى الموصلي (٧/ ٩٧) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٨٢) .

مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ »[1].

قال النووي في شرحه : « وهذا نهي تنزيه أي : لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها ، وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش »[2].

فحدوث مخالفات شرعية في المعارك أمر وارد ، لاسيما بين جيشين كبيرين وقعت بينهم معركة دامية داخل مدينة كبيرة مكتظة بالسكان ، ولكن أساتذة التاريخ يذيعون بتلك المخالفات ويعممونها متأثرين بكل ما رواه ابن إياس في تاريخية بالرغم من أنه لا يصح الاعتماد على تاريخه كمصدر وحيد لسببين :

أولا : أن ابن إياس توفي في عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م تقريبا فقد انتهى تاريخه بأحداث تلك السنة ، فهو لم يشهد إلا خمس سنوات بعد الفتح العثماني لمصر ، أي المرحلة الانتقالية من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني ، وغالبا ما تكون تلك المرحلة الانتقالية تعج بالفوضى ، لأن الحكام الجدد كانوا يتعرفون على أحوال البلاد ويتلمسون طريق الحكم فيها ، ومعلوم أن الحكم العثماني الحقيقي لم يهيمن على مصر إلا بعد بضع سنوات من الفتح وتحديدا في عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م عندما أصدر السلطان سليمان القانوني « قانون نامه مصر » وأرسل صدره الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر لوضعه موضع التنفيذ ، فضبط أحوالها ورتب شئونها ، ولم يشهد ابن إياس ذلك فهو لم ير من العثمانيين إلا فترة الفوضى التي صاحبت انتقال الحكم .

ثانيا : تحيز ابن إياس للمماليك وتحامله على العثمانيين

من يقرأ تاريخ ابن إياس بعناية يتبين له أنه كان شديد التحامل على العثمانيين ، إلى حد أنه لم يتوان عن تدوين أي إشاعة تدين العثمانيين أو تحط من قدرهم ، دون أن يتأكد من صحتها ، فعامة الأخبار التي سجلها عليهم كان يصدرها بقوله « أشيع » ، « قيل » أو كان يذيلها بقوله « هذا ما أشيع واستفاض بين الناس والله أعلم بصحة ذلك » ،أو « ولم تتأكد صحته » ،

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم (٣/ ١٣٥٧) ، الترمذي (٤/ ١٦٢) ، أحمد (٣٨/ ١٣٦) ، النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٩٧) ، الطبراني في الأوسط (١/ ٤٨) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٢٠٣) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١١/ ٤٢) .

(٢) محيي الدين النووي : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١٢/ ٣٩) .

فأغلبها شائعات ، ولم يكن هذا منهج ابن إياس في كل تاريخه بل في ذلك الجزء الأخير فقط ، وهو المتعلق بالفتح العثماني ، فيحتمل أن يكون بغضه للعثمانيين قد جعله يقبل على تدوين أي إشاعة ، ولكن أمانته العلمية أبت عليه إلا أن يذكر صراحة أنها إشاعة ، ولكنه بذلك أوقعنا في إشكال كبير ، لأن كثيرا من الناس ينقلون عنه تلك الشائعات على أنها حقائق تاريخية . وهذا ظلم بين بلا شك ، لذلك فإن المؤرخين الذين جاءوا من بعده كابن أبي السرور البكري قد تجنبوا ذكر كثير من الأخبار التي أوردها ابن إياس في تاريخه ، أما إبراهيم بن عامر العبيدي فعندما تعرض لوقائع الفتح العثماني فقد ضرب بتاريخ ابن إياس عرض الحائط ، وفضل عليه رواية ابن زنبل على ما فيها من عوار ، إلا أنه كان ينبه على ذلك ويفند الروايات الباطلة أحيانا ، والسبب في تحامل ابن إياس على السلطان سليم والعثمانيين بصفة عامة أمرين :

الأول : أنه كان من نفس جنسهم ، فإن أباه كان أحد الأمراء المماليك ، وهو نفسه كان صاحب إقطاع كما أخبر عن نفسه[1] ، لعله قد ورثه عن أبيه ، فآلمه أن يشهد تصدع وزوال الدولة التي كان يعد من وجهائها ، كما أنه شهد مصرع أصحابه وأصحاب أبيه ، ورأي الأرامل والثكالى واليتامى من أبنائهم مما حجب عنه رؤية الصورة متكاملة ، فالأمر أكبر من أي اعتبارات شخصية ، فالأمة الإسلامية كلها كانت على وشك أن تنهار لولا أن أنقذها السلطان سليم رحمه الله ، ومن المقولات الشهيرة على ألسنة العلماء « إن كان لابد من قتل الثلث لصلاح الثلثين فهذا جائز ».

الثاني : لم يذكر ابن إياس شيئا عن ضلوع السلطان الغوري في قطع الطريق على قوافل إمدادات الجيش العثماني أثناء الحرب مع الشاه إسماعيل الصفوي ، تلك العملية التي قام بها علي دولات أمير دلغادر التابع للسلطنة المملوكية ، واكتفي بذكر عدوان علي دولات على مؤخرة الجيش العثماني دون أن يذكر أن ذلك كان بعلم الغوري ، فإن كان ابن إياس يعلم ذلك الخبر ولكنه كتمه ولم يدونه ، فهذا دليل كبير على عدم حياده مما يجعلنا نشكك في كثير من الوقائع التي انفرد بذكرها ، أما إن كان لم يعلم به أصلا ، فقد نلتمس له العذر ، أو على الأقل نستطيع أن نتفهم بغضه للعثمانيين ، إذ لابد أنه ظن أن فتح السلطان سليم للشام ومصر

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٣٦) .

إنما كان غدرا منه بالسلطان الغوري ، مع أن العكس هو الصحيح كما بيناه مرارا ، فيبدو أن بغض السلطان سليم قد وقع في قلب ابن إياس لذلك السبب والله أعلم . ومن الوقائع الدالة على تحامل ابن إياس على السلطان سليم والعثمانيين بصفة عامه :

١ - أنه كان يذكر كثيرا من الأقوال المتناقضة دون أن يبالي ، ومن ذلك قوله الذي ذم به السلطان سليم : « ولما طلع ابن عثمان إلى القلعة احتجب عن الناس ، ولم يظهر لأحد وينصف الظالم من المظلوم ، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأخذ أموال الناس بغير حق ، وكان هذا على غير القياس ، فإنه كان يشاع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم في بلادهم قبل أن يدخل سليم شاه إلى مصر فلم يظهر لذلك نتيجه »[1].

قلت : هذا الكلام ذكره ابن إياس واتهم فيه السلطان سليم بمجافاة العدل وعدم الفصل في الخصومات ، بالرغم من أنه هو نفسه ذكر عدة وقائع تنفي ذلك عن السلطان سليم وعن وزرائه ، منها :

• « قبض الوالي على شخص من العثمانية قيل أنه اختطف امرأة من السوق وزنى بها ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالي أن يقطع رأسه ، فقطع رأسه في الحال وطاف بها في القاهرة وهي على رمح ، فظهر من ابن عثمان في ذلك اليوم بعض عدل ، فلعل أن يعتبروا بقية عسكره ويكفوا عن الأذى »[2].

• ازداد عدوان العربان على قرى الشرقية ، فأرسل السلطان سليم عددا من الجنود على رأسهم جان بردى الغزالي أحد أمراء المماليك الذين دخلوا في طاعة السلطان ، وفي ذلك دلالة على أن السلطان سليم كان يهتم بأمر العامة ويحرص على مصالح الرعية ، و إلا فإنه كان بوسعه أن يترك العربان يعتدون على القرى ، فأي ضرر يعود على جنوده من ذلك ؟! ، ثم إن في بقية الواقعة ما يؤكد أيضا حرص السلطان سليم على الرعية ، إذ أن جان بردى الغزالي لما دخل الشرقية أفسد فيها وأسر بنات وصبيان وأبقار وأغنام ، وباعهم في القاهرة بأبخس الأثمان ، فكان الذي حال دون ذلك يونس باشا ، قال ابن إياس : « ثم إن يونس باشا نادى في

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٧٩) .

القاهرة بأن كل من اشترى من نهب بلاد الشرقية شيئا من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه وكذلك أولاد الفلاحين ، ولام جان بردى الغزالي على فعله في الشرقية »[1].

• بعد شهر من خروج السلطان سليم من مصر متوجها إلى اصطنبول تم ضبط خمسة من الجنود العثمانيين يتعرضون للناس في الطرقات ويخطفون النساء والصبيان فتم توقيع العقوبة الشديدة عليهم ، قال ابن إياس : « فلما قبض عليهم رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان بأن يشنقوا ، فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية ، وأما الاثنان الآخران فقد شفع فيهما من الشنق ذلك اليوم فسجنا »[2].

• الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كان مقيما بالقاهرة وأخذه السلطان سليم إلى اصطنبول ، قام بحرمان أولاد عمه خليل من نصيبهم في إقطاع الخلافة في مصر ، فرفعوا أمره للسلطان سليم ، فأرسل قاصدا (مندوبا) من عنده إلى القاهرة ليقسم إقطاع الخلافة بينهم ، قال ابن إياس : « فحنق (السلطان سليم) من الخليفة ورسم بأن يكون إقطاع الخلافة وجهاتها تقسم بينهم ثلاثة أثلاث من الجميع بالسوية . فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم عن ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشري الخليفة وعلى دواداره بردبك وقال لهم : قيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل من حين مات أبوهم وإلى الآن ، واستمر هذا القاصد يضيق على المباشرين وجماعة الخليفة بسبب ذلك ، وانتصفت أولاد خليل على الخليفة غاية الإنصاف »[3].

وهناك وقائع أخرى يضيق المقام عن ذكرها ، ولكنها تفيد اهتمام السلطان سليم ووزرائه بالرعية وبالفصل في الخصومات وإشاعة العدل ، وقد أوردها ابن إياس نفسه في تاريخه ومع ذلك يعمد في كثير من الأحيان إلى وصفهم بالظلم والتعدي ، فنتعجب من ذلك التناقض .

٢- ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين أنه أغفل أن ينسب إليهم تأمين طريق الحج. وقد ذكرنا أنه في أيام السلطان المملوكي الغوري قد توقف الحج من الشام أربعة أعوام متتالية ، ومن مصر منع خروج النساء لبضعة أعوام . وفي أحد الأعوام لم يخرج الحج أصلا ،

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٨) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢١٩).

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣١٧، ٣١٨) .

وكان ذلك بسبب الفتنة في مكة وتعديات العربان على الحجاج . أما في العصر العثماني فكان الأمر بخلاف ذلك ، فعن موسم الحج في عام ٩٢٥هـ **قال ابن إياس** : « دخل الحاج إلى القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج الأمير برسباي ، وقد أثنوا عليه الحجاج خيرا فيما فعله في طريق الحجاز ، وأخبر الحجاج أن كان معهم الأمن والرخاء بطول الطريق» .. وفي موسم حج عام ٩٢٦هـ قال : « دخل الحاج إلى القاهرة مع الأمن والسلامة صحبة الأمير جانم أمير ركب المحمل ... وتعرضت لهم جماعة من العربان في الطريق ، فاتقعوا مع الأمير جانم أمير الحاج فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم وأثنوا عليه كل جميل وشالوا له الرايات البيض في بركة الحاج»...وفي موسم عام ٩٢٧هـ **قال ابن إياس** : « ولما رجع الحاج أثنى على الأمير جانم أمير الحاج بكل جميل في حفظه للحاج ومنع الضرر عنهم وغير ذلك من أنواع البر والمعروف»[1].

أما عن الحج الشامي ففي عام ٩٢٤هـ تمكن أمير الحج من الانتصار على العربان الذين تعدوا على الحجاج بسبب حسن تجهيز الجنود ، **قال ابن طولون الدمشقي** : « العرب من آل دغيم وقفوا للحاج بعد أن حملوا من تبوك عند مقابر القلندرية ، وقصدوا أن يحيلوا بين الحاج وبين الأخيضر ، فتحاربوا هم وإياهم نهارا ، ثم انتصر الحاج عليهم وأخذوا منهم ثلاثة من أعيانهم وعدة من الخيل بسبب رماة البندق التي معهم ، ويقال عدتهم مائة ثم توجهوا إلى الأخيضر سالمين فدقت البشائر لذلك بدمشق »[2]...فلم يحمد **ابن إياس** للسلطان سليم تأمين الحج ولا عده من مناقب العثمانيين ، ولا ذكرنا ابن إياس وهو يدون هذه الأحداث ، بما كان يلاقيه الحاج في أيام السلطان الغوري من قتل وهتك للأعراض ونهب للأموال على يد العربان ، فكان يجدر به أن يشير إلى ذلك ، لكن يبدو أن بغضه للسلطان سليم صده عنه ، ومما تجدر ملاحظته أن أمراء الحاج المذكورين كانوا من المماليك . وهذا يدل على أن الأزمة في أيام الغوري كانت أزمة إدارة وحسن تجهيز ؛ فقد كانت بلغت الدولة المملوكية في تلك الفترة مبلغا من العجز الإداري إلى حد عدم القدرة على تأمين طريق الحج .! فلما جاء بنو عثمان

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٢٤ ، ٣٧٩ ، ٤٣١) .

(٢) شمس الدين بن طولون الدمشقي : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٨٧) .

أعادوا الأمور إلى سابق الزمان .

٣- ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين أنه وصفهم بأبشع الصفات التي لا يمكن أن يصدقها العقل ، فقال : « كانوا جيعانين العين نفسهم قذرة ، يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم في الأسواق ، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين يتجاهرون بشرب الخمور في الأسواق بين الناس ، ولما جاء عليهم شهر رمضان فكان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجوامع ، ولا صلاة الجمعة إلا قليل منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة وليس لهم نظام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم »[1].

قلت : هذا كلام لا يمكن لعاقل أن يصدقه ، ومع الأسف نقله كثير من أساتذة التاريخ في كتبهم ، وهو باطل بلا ريب عقلا ونقلا ، أما من جهة العقل فلا يمكن لجيش هذه صفته أن تقوم إمبراطورية عظمى على أكتافه أبدا .! من الممكن أن يحقق جيش كهذا انتصارات كاسحة مؤقتة ، كجيش جنكيز خان على سبيل المثال لأن نواحي القصور في النظام كان يجبرها وجود قائد عسكري فذ مثله ، ولكن لما مات جنكيز خان سقطت دولته ، وكذلك جيش تيمورلنك فقد حقق انتصارات كاسحة شرقا وغربا وأسس إمبراطورية عظمى ، فلما مات تلاشي أمرها كأن لم تغن بالأمس ، ومن قبل هؤلاء الإسكندر المقدوني حقق انتصارات عظمى فلما مات انقسمت إمبراطوريته إلى دويلات صغيرة . أما السلطنة العثمانية العظمى فلم تكن دولة فرد ، ولكنها قامت على منهج حفظ لها الاستمرار قرونا طويلة . تنتقل من نصر إلى نصر ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بجيش نظامي خال من تلك النقائص ، ومعلوم لكل من درس التاريخ العثماني أن دولة بني عثمان قامت على أساس الجهاد في سبيل الله ، وكان ذلك هو باب النصر لها ولا يمكن لرجل لا يصلي ولا يصوم ويشرب الخمر أن يكون مجاهدا في سبيل الله أبدا .

أما من جهة النقل فقد شهد العدو قبل الصديق بحسن نظام الجيش العثماني وحسن إسلام أفراده وتدينهم ، وأنا لن آتيك بنقول من المصادر التركية لئلا يقول قائل إنهم يزكون أنفسهم ، بل ارجع إلى ما ذكرناه في الباب الأول نقلا عن المؤرخين البيزنطيين واللاتين عن وصف

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٠٨).

جيش السلطان محمد الفاتح الذي فتح به القسطنطينية ، ولا يبعد ذلك كثيرا عن الفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم فبينهما نحو سبعين عاما ، وارجع إلى ما ذكرناه في الفصل الثالث من الباب الثاني من شهادة الأسير الدانماركي أولوف إيلجسون وغيره من أن العثمانيين لا يشربون الخمر ، ثم إليك ما وصف به المؤرخون الأوروبيون جيش السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم رحمهما الله ، فقد قال المستشرق الألماني الحاقد كارل بروكلمان : « والحق أن جميع المصادر الأوروبية حافلة بإطراء روح النظام التي تكشف عنها الجيش العثماني ، فلم يكن فيه مكان للخمر أو القمار أو البغاء ، وهي آفات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوربه لذلك العهد ، وكانت الحرب ضد الكافرين لا تزال تعتبر واجبا دينيا ، ولقد كان لذلك أثر كبير في ضمان الغلبة على النصارى يوم كان الجيش العثماني في أوج قوته »[1].

فما وصف به ابن إياس الجنود العثمانيين لا يمكن أن يكون له أساس من الصحة ، ولكن قد يصدر من بعضهم وهذا وارد في أي زمان ، لكن ابن إياس الكاره لهم لم يستطع أن يمنع نفسه من تعميم ذلك على الجيش العثماني كله .

٤- أغفل ابن إياس أن يذكر للسلطان سليم أحد أهم مناقبه وهى طرده البرتغال من البحر الأحمر ، الذي قام به الريس سلمان العثماني كما قدمنا ، ومن العجيب أن المؤرخ الهندي زين الدين المعبري البعيد عن البحر الأحمر يذكر ذلك في كتابه بل ويصف المعركة قائلا : « فأرسل الأمير سلمان وراءهم ... فيهما ثلاثون رجلا فأخذوا منهم غرابا صغيرا (مركبا) في كمران[2] وفيه اثنا عشر نصرانيا ووصلوا بهم إلى جدة ، ثم إن الملاعين توقفوا في كمران لانقطاع الموسم الهندي ، ثم رجعوا إلى كووه خائبين بإذن الله تعالى ، وذلك من فضل الله»[3]...أما ابن إياس المقيم بالقاهرة ، فلا يذكر ذلك ! ولا حتى أشار إلى ذلك إشارة عندما أورد خبر عودة الريس سلمان إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم ، فقد اكتفي ابن إياس بقوله : « ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٦٨) .

(٢) جزيرة في جنوب البحر الأحمر .

(٣) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٣١) .

كان يتعبث به ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون هناك »[1]...ولم يذكر ابن إياس أن الريس سلمان طرد البرتغال من البحر الأحمر بالكامل حتى أنه انسحبوا من كمران وعادوا إلى الهند. كما لو كان يكره أن ينسب للعثمانيين أي مكرمة .!

٥- وصف ابن إياس الفتح العثماني لمصر بأوصاف فيها مبالغة شديدة ، فشبهه باستيلاء بختنصر البابلي على مصر قبل الميلاد ، وبعدوان هولاكو على بغداد ، ولا يخفي ما في ذلك من المبالغة الشديدة ، فقد قال : « ولم تقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط إلا أن كان في زمن البخت نصر البابلي ، لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعساكره وأخربها وهدم بيت المقدس ، ثم دخل إلى مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها مائة ألف ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار ، فكان النيل يطلع وينفرش على الأرض ويهبط فلا يجد من يزرع الأراضي عليه ولا ينتفع به. ولكن هذه الواقعة لها فوق الألفي سنة . قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام ، ثم وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاكو ملك التتار ، لما زحف على بغداد وأخربها ، وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل أهلها ، فاستمرت من بعد ذلك خرابا إلى الآن فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك »[2].

قلت : لا يخفي ما في قول ابن إياس من مبالغة شديدة ، فلا يُمكن أن يكون قد قتل من أهل مصر في غزو بختنصر هذا العد الضخم مائة مليار إنسان .! إن سكان العالم كله في زماننا هذا سبعة مليارات ، فكيف بالحال قبل الميلاد.! ثم هل وقع من السلطان سليم مثل ما وقع من بختنصر؟! هل قتل كل هؤلاء.؟! هل عدمت مصر الناس أربعين عاما .؟!.ثم إن تشبيهه السلطان سليم بهولاكو أيضا فيه تجاوز شديد ، فقد قال شمس الدين الذهبي عن دخول هولاكو بغداد : « فبذلوا السيف في بغداد واستمر القتل والسبي في بغداد بضعا وثلاثين يوما ولم ينج إلا من اختفى ، فبلغنا أن هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسر، والأصح أنهم بلغوا ثمانمائة ألف ، ثم نودي بعد ذلك بالأمان وظهر من كان قد

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٠٣) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٥٧) .

تخبأ وهم قليل من كثير »[1].. وقال ابن كثير عن دخول هولاكو بغداد : « ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون »[2].

قلت : من المتفق عليه بين الجميع بمن فيهم ابن إياس نفسه أن السلطان سليما لما دخل مصر لم يحدث من جنوده ربع معشار ما حدث من جنود هولاكو ، فتشبيه ابن إياس السلطان سليم ببختنصر أو بهولاكو ، خطأ فادح وقع فيه ابن إياس . وإنما يدل على تحامله الشديد على العثمانيين وبغضه لهم إلى حد أفقده صوابه فراح يقول مثل هذا الكلام الذي يناقض ما كتبه بخط يده من وقائع الفتح العثماني لمصر ، لكن إن كنا نستطيع أن نلتمس العذر لابن إياس للأسباب التي ذكرناها آنفا ، فأي عذر لأساتذة التاريخ الذين نقلوا عنه هذا الكلام وأذاعوا به كما لو كان حقائق علمية .؟! وعلى رأسهم د.عبد المنعم ماجد الذي قال : « وقد أثار دخول العثمانيين فزعا كبيرا بين أهل مصر وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاكو بغداد . وأن ما جرى في مصر بسبب ذلك لم يحدث مثله منذ أن دخلها البابليون في الزمن القديم»[3]...وقد علق د.عبد المنعم هذا الكلام في رقبة ابن إياس ، ولكنه غفل عن أن نقل الكلام دون إنكاره يعد إقرارا له ، وقد نقل عنه ذلك د.صلاح هريدي كالعادة[4].

٦- ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين ذمه لما أمر به السلطان سليمان من توحيد القضاء في مصر على المذهب الحنفي ، بعد أن كان هناك قاض لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، وبالرغم من أن ذلك كان عملا جليلا انتظم به القضاء في مصر ، إلا أن ابن إياس

---

(١) شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٤٨/ ٣٦) .

(٢) عماد الدين بن كثير الدمشقي : البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥) .

(٣) د.عبد المنعم ماجد : طومانباي آخر سلاطين المماليك (ص ١٦٢) .

(٤) د. صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٦٨) .

بالغ في ذمه .!. الأصل في مصر منذ أن دخلها الإسلام أنه كان بها قاض واحد يستنيب عنه نوابا في الأقاليم ، وظل الأمر كذلك حتى زمن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إذ جعل قاضيا لكل مذهب من المذاهب الأربعة في عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م[1] ، ولا يخفي ما في ذلك من المفاسد كالاختلاف وتفرق الكلمة ، ولا شك أن اختلاف الآراء قد يكون مفيدا ولكن بشرط وجود قيادة تحسمه ، وكانت تتمثل تلك القيادة في منصب قاضي القضاة ، ولكن منذ عهد الظاهر بيبرس أصبح هناك أربعة كل منهم قاضي القضاة لمذهبة، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في أحداث عام ٧٨٦هـ أن القضاة الأربعة في حلب اختلفوا فيها بينهم واتسع الخلاف فأرسل كل منهم محضرا إلى السلطان بفسق الآخرين فعزلهم السلطان جميعا[2]. فلا ريب أن تلك البدعة التي ابتدعها الظاهر بيبرس حملت معها كثيرا من المفاسد ، وقد قال المقريزي : « رئي السلطان بيبرس بعد موته في النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما رأيت شيئا أشد علي من ولاة قضاة أربعة ، وقيل لي فرقت الكلمة »[3].

وبعد أن أحدث الظاهر بيبرس القضاة الأربعة في مصر ، فعل مثل ذلك في دمشق في العام التالي ، فرفض المالكي والحنبلي قبول المنصب حتى ألزمهما السلطان به ، فقبلا بشرط عدم الحصول على رواتب . قال المقريزي : « لم يقبل المالكي ولا الحنبلي وقبل الحنفي ، فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بذلك وأخذ ما بأياديهما من الوظائف إن لم يفعلا ، فأجابا . ثم أصبح المالكي وعزل نفسه عن القضاء والوظائف . فورد المرسوم بإلزامه فأجاب ، وامتنع هو والحنبلي من تناول جامكية (مرتب) على القضاء ، وقال بعض أدباء دمشق لما رأي اجتماع قضاة ، كل واحد منهم لقبه شمس الدين :

أهل دمشق استرابوا ... من كثرة الحكام

إذا هم جميعا شموس ... وحالهم في ظلام »[4].

---

(١) انظر شمس الدين الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٤٩/ ٢١) ، شهاب الدين القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (٤/ ٣٦) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٢/ ٢٨) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ١٦٢) .

(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٢/ ١٠٧) .

(٤) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٢/ ٣١) .

وقد علق ابن كثير على تلك البدعة بقوله : « وقد كان هذا الصنيع الذي لم يسبق إلى مثله قد فعل في العام الأول بمصر كما تقدم . واستقرت الأحوال على هذا المنوال »[١].

ومن جهة أخرى كان نظام القضاء في أواخر عهد السلطنة المملوكية قد اعتراه فساد كبير، وكان القضاة يدفعون مبالغ كبيرة للسلطان ليوليهم منصب قاضي القضاة ، ومن ذلك ما ذكره ابن إياس في أحداث عام ٩١١هـ/ ١٥٠٥م من أن القاضي جمال الدين القلقشندى تقلد قضاء الشافعية ثلاث مرات بتلك الطريقة ، كانت آخرها بثلاثة آلاف دينار ، فلما دفع القاضي ابن النقيب للسلطان الغوري خمسة آلاف عزل القلقشندي وولاه مكانه ، **قال ابن إياس** : « أخلع السلطان (الغوري) على قاضي القضاة الشافعي محي الدين عبد القادر بن النقيب وأعاده إلى قضاء الشافعية عوضا عن جمال الدين القلقشندي ، فكانت مدة جمال الدين القلقشندي في القضاء نحوا من ستة أشهر ، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار ثم سعى عليه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار ، وغرم نحوا من ألفي دينار للذي سعى له من الأمراء وغيرهم ، وكان الساعي له الأمير أزدمر الدوادار وغيره من خواص السلطان ، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب بمصر وقد نفذ منه مال له صورة على ولاية القضاء ، ولم يقم بها في الثلاث مرات إلا مددا يسيرة ويعزل عنها » ..... وقد ذكر ابن إياس في أحداث عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م أن القاضي محي الدين يحيى الدميري تولى قضاء المالكية بألفي دينار[٢].

ولا ريب أن تلك المبالغ التي كانوا يدفعونها كانوا يجبونها من الناس بالرشوة ، وقد ذكر ابن إياس أن مما قاله الأمير خشقدم للسلطان سليم عن فساد أحول مصر ، أن قضاة مصر قاطبة يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية »[٣].

وقد ظل القضاة يتولون القضاء بالرشوة حتى أبطل ذلك السلطان طومان باي عندما كان السلطان سليم في طريقه إلى مصر ، **قال ابن إياس** : « ولم يأخذ السلطان من القضاة الذين ولاهم الدرهم الفرد ، ومنع القضاة أن لا يسعوا في منصب القضاء بمبلغ وقال لهم : أنا ما

---

(١) عماد الدين بن كثير الدمشقي : البداية والنهاية (١٣/ ٢٨٦) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٩١ ، ٤٧٧) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٧١) .

أقبل رشوة في ولاية أحد من القضاة ، فلا تأخذوا أنتم رشوة من الناس أبدا »[١].

لا ريب أن مؤسسة قضائية تدار على هذه الشاكلة إنما هي مؤسسة فاسدة ، وقد روى ابن إياس واقعة مؤسفة تدل أبلغ دلالة على ذلك في عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م مضمونها أنه تم ضبط قاضي من نواب قاضي القضاة الشافعي متلبسا بالزنى بمحصنة ، فرفع الأمر إلى السلطان الغوري فتم الحكم عليهما بالرجم بعد أن أقر ذلك الحكم القضاة الأربعة في نفس المجلس ، ولكن رجع القضاة الأربعة عن حكمهم تعصبا للزاني لأنه من نواب القضاء ، فغضب عليهم السلطان غضبا شديدا واستدعاهم ولكنهم أصروا على ما قالوه فقال لهم : « إنتوا الأربعة قوموا ولا تروني وجوهكم قط » ، ثم عزل بعضهم[٢].

فكان ينبغي على ابن إياس الذي علم ما آلت إليه المؤسسة القضائية من فساد أن يفطن إلى أن توحيد القضاء بمصر في زمن السلطان سليمان القانوني على يد القاضي سيدي جلبي يعد من أجل الأعمال التي صلح بها حال الناس من وجهين :

الأول : أن وجود أربعة أنواع من المحاكم في بلد واحد يفسد مصالح الناس .

والثاني : أن المؤسسة القضائية في مصر كان الفساد ضاربا أطنابه فيها فكان يجب أن تزال ، لاسيما وأن قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة المالكي محي الدين الدميري ، الذين كانا في منصبيهما عندما صدر الفرمان السلطاني بتوحيد القضاء كانا يتوليان هذين المنصبين في واقعة القاضي الزاني المذكورة آنفا . ثم إن السلطان سليمان لم يبطل عمل القضاة المصريين بالكلية ، وإنما جعلهم نوابا للقاضي العثماني ، من كل مذهب نائب ، وأن تكون عقود الوصايا والأوقاف والأنكحة وغيرها منوطة بالقاضي العثماني دون غيره ، وأظن أن السبب في ذلك هو فساد نواب القضاة في مصر ، فقد حدث في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م إبان وجود السلطان سليم فيها ، وبالرغم من أنه أمر ألا يعقد أحد من النواب عقدا إلا عند القاضي العثماني في المدرسة الصالحية ، إلا أن نواب القضاة لم يلتزموا بذلك وباشروا كتابة العقود ، حتى أن أحدهم باشر عقد زواج أرملة قبل أن تكمل عدتها فعاقبوه وأشهروه في

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١١٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٣٤١-٣٤٥) .

القاهرة[1] ، ولو أردنا أن نفصل في مظاهر فساد القضاء في مصر في أواخر العصر المملوكي لطال بنا الكلام ولخرجنا عن مقصدنا ، ولكن نكتفي بذكر أسباب توحيد القضاء كما جاءت في القانون الصادر بها : « أنه في الزمن القديم عندما يقترف أحد القرويين ذنبا ما ويفصل في أمره تبرأ ذمته تماما ، ولكن الكشاف كانوا يعودون ويقبضون على هؤلاء مرة أخرى ويعتدون عليهم بأنواع الإيذاء المختلفة ... وعندما كانت تحدث بعض المخاصمات بين بعض الرعايا من العوام ، كانوا يتوجهون لحل منازعاتهم عند والى المدينة بدون أن يرجعوا إلى مجلس حاكم الشرع (القاضي) في شيء من ذلك ، حيث كان الوالي يقوم بالفصل في مثل هذه الخصومات بنفسه بدون وجه حق ، كما كان بعض القضاة في مصر يقومون ببيع محاكمهم ووظيفة العمل بها لبعض النواب كمقاطعة »[2].

خلاصة الأسباب التي لأجلها تم توحيد القضاء إما ضعف القضاة أمام الكشاف والولاة أو فسادهم ، وبالتالي فإن النظام القضائي الذي وضعه السلطان سليمان بمصر حتى وإن ترتب عليه تقليل عدد نواب القضاء وفقدان بعضهم لوظائفهم ، إلا أننا إذا نظرنا إلى الصالح العام سنرى أنها إصلاحات عظيمة ، فكان يجب أن تكون تلك الإصلاحات محل تقدير من ابن إياس ، لكنك تجد العكس من ذلك . فإنه قد اعترض على توحيد القضاء وسب القاضي العثماني وذمه لا لسبب ظاهر ولكن بسبب بغضه للعثمانيين بصفة عامة كما يبدو ، فهو لا يرى لهم حسنات أبدا وإن كانت واضحة مثل فلق الصبح ، وقد قال تعليقا على ذهاب القاضي العثماني إلى مكة : « خرج قاضي العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير ، فعزلت القضاة الأربعة بسببه وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس في المجالس قاطبة وأسمر دكاكينهم ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ولم يبق منهم غير من تقدم القول عليه ، وضيق على الناس بسبب عقود الأنكحة وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ وصار لا يعقد عقدا إلا في المدرسة الصالحية »[3].

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٦٥ ، ١٨٤ ، ٤٥٣) .

(٢) د.سيد من السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٨٧) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦٩) .

نلاحظ هنا أن كل ما نقمه ابن إياس على القاضي العثماني أنه قام بعملية تنظيم صارمة ، وضيق على طرق الفساد ، وهذا أمر عجيب جدا من ابن إياس ، ولكن الأعجب منه ما قاله هو نفسه بعد ذلك ببضعة أسطر عن ذلك القاضي العثماني نفسه : « فلما سافر قاضي العسكر جعل القاضي صالح العثماني نائبا عنه يحكم في المدرسة الصالحية إلى أن يحضر من الحجاز ، وكان قاضي العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الأربعة ، وجعل منهم من هو في بولاق وفي مصر العتيقة وفي جامع ابن طولون وفي الحسينية وغير ذلك من الأماكن ، وجعل في كل مجلس من مجالس القضاة أربعة نواب من المذاهب الأربعة يقضون بين الناس بالحق »[(١)].

قلت : إن كان ابن إياس نفسه يقر بأن القاضي العثماني لم يبطل عمل القضاة الأربعة ونوابهم بالكلية ، بل عين منهم ستة وعشرين نائبا ، وأنهم في كل مجلس يحكمون بين الناس بالحق ، وأن الأمر لم يتعد سوى وضع تلك المؤسسة القضائية الفاسدة تحت الرقابة المباشرة للدولة ، ففيم الغضب والضيق والحنق على القاضي العثماني..؟! أيمكن أن تكون الفوضى التي عمت البلاد إبان الحكم المملوكي قد تأصلت في نفوس الناس لاسيما المؤرخين منهم ، حتى أصبحوا يكرهون النظام.؟! أم أنه مجرد بغض ابن إياس للعثمانيين مما حمله على أن يقول كلاما متناقضا يكذب بعضه بعضا.؟! أم أنها العصبية الجاهلية المنتنة ؟! فعن جابر بن عبد الله الأنصارى ﷺ قال : « كُنَّا فِي غَزَاةٍ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ! قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ »[(٢)]...فيبدو أن العصبية الجاهلية المنتنة هي التي أبت على ابن إياس أن يرى العثمانيين يحكمون على أبناء جنسه من الجراكسة .

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦٩) .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري (٦/ ١٥٤) ، مسلم (٤/ ١٩٩٨) ، الترمذي (٥/ ٤١٧) ، أحمد (٢٣/ ٣٨٨) ، عبد الرزاق في مصنفه (٩/ ٤٦٨) ، النسائي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦) ، أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣/ ٤٥٨) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٤٤) ، عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده (٢/ ٣٢٧) ، أبو داود الطيالسي في المسند (٣/ ٢٧٩) .

٧- ومن مظاهر تحامل ابن إياس على العثمانيين ، هو ما نقمه على قاضي العسكر العثماني بدون حق ، إذ أمر القاضي بمنع النساء من الخروج إلا للضرورات ، ولعل كثيرا من الناس ليعلمون أن عددا ليس بالقليل من نساء مصر في الزمن المملوكي كن قد افتقدن الحشمة والوقار ، فانتشر الفساد في البلاد ، ويحدثنا المقريزي عما كان يحدث في يوم وفاء النيل عند فتح الخليج فيقول عن « بركة الرطلي » : « وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري فتدور بها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس ، فتمّر هنالك للناس أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف ، وتظاهر الناس في المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير إنكار »[1]...وفي الخليج الناصري كان يحدث مثل ذلك ، إلى أن تم منع دخول مراكب النزهة فيه في زمن السلطان الأشرف شعبان ، ثم عاد الفساد إلى ما كان عليه . قال المقريزي : « ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا »[2]...كما يحدثنا المقريزي في أحداث سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م أن شاطئ النيل كان يجتمع عنده الرجال والنساء ويحدثون المنكرات . قال المقريزي : « ركب الأمير سودن قرا صقل حاجب الحجاب إلى شاطئ النيل وأحرق ما كان هناك من الأخصاص ، وطرد الناس ومنعهم من الاجتماع ، فإنهم كانوا قد أظهروا المنكرات من الخمور ونحوها من المسكرات واختلاط النساء بالرجال من غير استتار ، فعندما طرقهم الحاجب اضطربوا ونهب بعضهم بعضا فذهبت أموال عديدة »[3].......كما يحدثنا المقريزي أنه في عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م لما تفشى الطاعون في مصر ، أن السلطان سأل الفقهاء في ذلك . قال المقريزي : «فسأل من حضر من القضاة والفقهاء عن الذنوب التي إذا ارتكبها الناس عاقبهم اللهّ بالطاعون ، فقال له بعض الجماعة إن الزنا إذا فشا في الناس ظهر فيهم الطاعون ، وأن النساء يتزين ويمشين في الطرقات ليلا ونهارًا في الأسواق ، فأشار آخر أن المصلحة منع

(١) تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ٢٨٧) .
(٢) تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ٢٦٧ ، ٢٦٨) .
(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٤١٣) .

النساء من المشي في الأسواق ، ونازعه آخر فقال لا يمنع إلا المتبرجات وأما العجائز ومن ليس لها من يقوم بأمرها لا تمنع من تعاطي حاجتها ، وجروا في ذلك على عادتهم في معارضة بعضهم بعضًا فهال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات مطلقًا »[١].

وقد ذكر ابن تغري بردي أنه وقع بسبب ذلك ضرر كبير لكثير من النساء اللاتي ليس لهن من يقوم على شئونهن ، فكلم بعض الناس السلطان في ذلك الأمر ، فسمح بخروج الإماء لقضاء حاجات مواليهن »[٢]...وفي عام ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م في أيام السلطان الظاهر جقمق وقع مثل ذلك أيضا ، قال المقريزي : « نودي بمنع النساء من الخروج إلى الشوارع والأسواق إلا العجائز والجواري فامتنعن . ثم نودي لهن بالخروج إلى الأسواق والشوارع من غير تبرج بزينة »[٣].

الشاهد من ذلك أن الأحوال في مصر كانت فاسدة من حيث تبرج النساء وخروجهن ليلا ونهارا واختلاطهن بالرجال في الأسواق وفي المنتزهات دون إنكار إلا عند المصائب ، فلما جاء القاضي العثماني سيدي جلبي هاله ما رآه ، ومن ذلك أنه رأى جماعة من النساء يتحدثن مع جماعة من الفرسان الأتراك في وسط السوق فغضب لأجل ذلك غضبا شديدا ، قال ابن إياس : « اتفق أن قاضي العسكر طلع إلى القلعة فرأى نسوة يتحدثن مع جماعة من الأصبهانية[٤] في وسط السوق فعز ذلك عليه ، فلما طلع إلى القلعة قال لملك الأمراء (خاير بك) : أن نساء أهل مصر أفسدت عسكر الخونذكار[٥] ولا بقى ينفع للقتال قط ، وقص عليه قصة النسوة مع الأصبهانية ، فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ورسم للوالي بأن ينادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقا ، ولا تركب على حمار مكاري مطلقا ، وكل مكاري ركب امرأة شنق من يومه من غير معاودة في ذلك »...ثم خفف القاضي بعد أيام من غلواء

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٣٥٠) .

(٢) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٥/ ٩٤) .

(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٤٦٣) .

(٤) أصلها السباهي وهم الخيالة .

(٥) أصلها الخنكار وهو من ألقاب السلطان العثماني .

ذلك الحكم. قال ابن إياس : « ثم تكلم الناس مع قاضي العسكر في أمر النساء ، وأن لا يمنعوا من طلوع الترب ودخول الحمام وزيارة الأقارب ، فأذن لهن في ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الطريق إلا مع زوجها وأن لا يدخل الأسواق إلا العجائز فقط ، فسمح لهن قاضي العسكر بذلك وأنهن لا يركبن إلا الخيل أو البغال دائما »(١).... ثم قال ابن إياس : «باعت المكارية حميرها قاطبة واشتروا عوضها أكاديش وشدوها بنصف رحل وصارت النساء يركبن عليها بسجادة والمكاري قائد لجام الأكديش واستمروا على ذلك وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة وركبت الخوندات والستات على الأكاديش على طريقة أهل اصطنبول »(٢).

قلت : الأكديش هو البرذون(٣) ، وقال الشيخ الفيومي المقري : « قال المطرزي : البرذون هو التركي من الخيل ، وهو خلاف العراب »(٤) ، فقد استاء القاضي من مظاهر الخلاعة مثل ركوب النساء على الحمير بصحبة المكارية ، وخروج النساء إلى الأسواق واختلاطهن بالرجال لغير حاجة . فأمر بمنع ذلك وألزم النساء بركوب الخيل بعد شده بنصف رحل ، لكي يكون اختلاطها بالمكاري في أضيق الحدود ، فلا شك أن هذا عمل جليل من أعمال القاضي ، فهو بذلك حسم مادة الفساد وضيق على اختلاط الرجال بالنساء ، وأحيى سنة رسول الله ﷺ فقد قال أبو أسيد الأنصاري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد ، فاختلط الرجال مع النساء في الطريق . فقال رسول الله ﷺ للنساء : « اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ »(٥).

هذا ما أمر به رسول الله ﷺ أصحابه ، وهم أطهر الناس قلوبا وأعفهم عن المنكرات ، وقد

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦٢) .
(٣) خليل بن شاهين الظاهري : الإشارات في علم العبارات (١/ ٨٠٤) .
(٤) أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٤١)
(٥) رواه أبو داود (٤/ ٣٦٩) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٢٦١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٢١) .

قالت أمنا عائشة : « لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ الْمَسْجِدَ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ : فَقُلْتُ لِعَمْرَةَ : أَنِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُنِعْنَ الْمَسْجِدَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ »[١].

قلت : وما عسى أن يكون قد أحدثه النساء في زمن عائشة رضي الله عنها .؟! التطيب .؟! إظهار الحلي .؟! كيف الحال بمجتمع ظهر فيه الفساد على النحو الذي نقلناه عن المؤرخين آنفا .؟! لاشك أن ما أمر به القاضي العثماني كان حزما وعدلا . وبالرغم من ذلك فقد ذمه ابن إياس على ذلك وعده من مساوئه . فقد قال عنه : « وضيق على النساء في ما تقدم ذكره من الخروج إلى الأسواق ومن ركوب الحمير . فلما خرج من مصر (إلى مكة) صنفت النساء رقصة فقالوا : قوموا بنا نقحب ونسكر فقد خرج عنا قاضى العسكر »[٢].

قلت : لا ريب أن تلك الرقصة كانت من تصنيف البغايا و أسافل النساء ، ويتعجب من ابن إياس أن يحتج بقول هؤلاء وينحاز لهن وينتقص من قدر قاضي العسكر إلى هذا الحد ، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مبلغ تحامله على القاضي وعلى العثمانيين بصفة عامة .

لعل فيما قدمناه دليلا على تحامل ابن إياس الشديد على العثمانيين مما يحتم على ذوي الألباب من الباحثين ألا يعتمدوا عليه فيما انفرد به ، ولعل أحد أسباب تحامل ابن إياس هذا هو أن الحكم العثماني في الخمس سنوات الأولى - المرحلة الانتقالية – لم يختلف كثيرا عن الحكم المملوكي باستثناء تنظيم القضاء وتأمين الحج ، فلقد بقيت الإدارة في يد المماليك ، إذ أن السلطان سليما قد عهد إلى خاير بك بأن يكون نائبه في مصر ، فاستعان بطائفة من الأمراء المماليك الذين دخلوا في طاعة السلطان سليم ، مثل الأمير جانم الحمزاوي الذي أصبح فيما بعد من أرباب الحل والعقد ، والأمير جانم السيفي كاشف الفيوم وأمير الحج ، والأمير قايتباي الدوادار ، والأمير برسباى الخازندار ، وقانصوه العادلي كاشف الشرقية ، حتى وظيفة المحتسب تولاها الزيني بركات بن موسى[٣] وهو الذي كان يتولاهـا في زمن السلطان

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٢٨) ، أبو داود (١/ ١٥٥) ، أحمد (٤٣/ ١٢٥) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ١٥٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٩٠) ، عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ١٤٩) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٤٨) ، أبو عوانة في المستخرج (١/ ٣٩٧) ، أبو بكر بن خزيمة في الصحيح (٣/ ٩٨) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦٩) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٣٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥) .

الغوري ، ثم عزله خاير بك عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م وولاها للقاضي عبد العظيم[1]. حتى القضاة الأربعة قد أبقاهم السلطان سليم في مناصبهم كما قدمنا ، لذلك فإنك ترى أن تلك السنوات الخمس كان يحدث فيها من المظالم مثل ما كان يحدث في زمن المماليك ، من مصادرات الناس والتعدي على الرزق الأحباسية والأوقاف وغير ذلك ، وقد يتساءل البعض لماذا لم يول السلطان سليم ولاة من عنده إن كان حقا يريد إشاعة العدل .؟! يهب بعض أساتذة التاريخ ليقول أن السلطان سليما ولى خاير بك على مصر مكافأة له على خيانته للمماليك وتعاونه مع السلطان سليم ، وهذا الكلام فيه نظر لأن السلطان سليما عهد أول الأمر بولاية مصر إلى صدره الأعظم يونس باشا ثم عزله بعد مدة وولى عليها خاير بك[2]. الذي كان نائب حلب في عهد السلطان الغوري ، وذلك بعد أن فشل يونس باشا في إدارة البلاد فمصر بلد كبير ، ولها نظام إداري ونظام مالي خاص ، لا يعرفه إلا أمراء المماليك وأعوانهم من الكتبة ، قال د.سيد محمد السيد : « عندما أراد الحكام الجدد من العثمانيين أن يتعرفوا على كيفية إدارة المماليك للبلاد ، فكان هؤلاء الكتبة يخفون دفاترهم ويطلعون العثمانيين على دفاتر ذات شفرة مالية خاصة ، فيعطونهم بذلك معلومات غير صحيحة عن الإدارة في البلاد . مما أوقع الإدارة العثمانية في مصر في حالة من الاضطراب الشديد »[3].

فالحقيقة أن السلطان سليما لم يجد بدا من أن يعهد بإدارة البلاد إلى حكامها القدامى مؤقتا إلى أن يتعرف العثمانيون على أسرار حكمها المالية والإدارية ، فوقع اختياره على خاير بك ، لأجل درايته بتلك الأمور ، ولأجل أن يكون واسطة بين السلطان سليم وبين الأمراء المماليك الفارين لاستمالتهم للدخول في الطاعة . لأن بقاءهم مشردين قد ينتج عنه ما لا يحمد عقباه ، قال ابن زنبل الرمال : « السلطان أمر خاير بك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقيه على منصبه ، وأوصاه وأكد عليه في ضبط البلاد والإنصاف بين العباد »[4]..

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٠٣) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٠٣) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٣٩) .

(٣) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٦) .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغورى مع ساليم العثماني (ص ١٨٤) .

وقد ذكر ابن إياس أن السلطان سليما أرسل إلى خاير بك من اصطنبول يوصيه بالمماليك الجراكسة خيرا[1]. فبقاء الإدارة المملوكية في مصر كان أمرا حتمته الظروف في الخمس سنوات الأولى من الحكم العثماني ، وربما كان قد وقع فيها من المظالم مثل ما كان يقع في العهد المملوكي ، ومن جهة أخرى كان الجنود العثمانيون لا يوقرون خاير بك ولم تكن له مهابة في نفوسهم ، فكان بعضهم يتعدى على الناس بغير وجه حق ، **قال ابن إياس** : «وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى في حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلاما ولا له عليهم حرمة »...وكان قاضي العسكر العثماني يحاول منع ذلك قد الإمكان ففي المحرم عام ٩٢٤هـ ذهب إلى خاير بك في القلعة وقال له : « انظر في أحوال المسلمين وإلا تخرب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ، ومتى بلغ الخنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا ويقول لنا كيف كتمتوا عني أخبار مصر وغفلتوا عن أحوال المسلمين حتى جرى فيها ما جرى »[2].

وكانت الأخبار تصل إلى السلطان سليم في اصطنبول بصفة دائمة ، فقد أرسل إلى خاير بك يأمره بأن يعاقب الجنود . بشدة **قال ابن إياس** : « ثم أشهروا المناداة في القاهرة على لسان الخنكار حسبما رسم ، بأن لا أحد من الانكشارية ولا من الإصبهانية يشوش على الرعية ، وكل من شوش منهم على أحد من الناس يمسكه من طوقه ويتوجه به إلى عند خير الدين نائب القلعة أو قرا موسى » ... ثم إن السلطان سليما أرسل في طلب كمشبغا والى القاهرة بعدما وصلته شكاوى من ظلمه وتعديه على أموال الناس ، فسافر إلى اصطنبول ، ولم يذكر ابن إياس ما حل به هناك[3].

هكذا اضطر السلطان سليم لأن يحتمل سوء الإدارة المملوكية في مصر مؤقتا ، حتى يتعرف رجاله على أسرارها ومن ثم يتولونها بأنفسهم ، فابن إياس لم ير من الحكم العثماني إلا هذه السنوات الخمس ، فهو لم يعش ليرى تنظيم أحوال مصر على يد إبراهيم باشا في عصر

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٤٤ ، ٢٩٧) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٣٣) .
(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٢٩ ، ٣٣٨) .

السلطان سليمان القانوني ، وهو لم يعش ليرى صلاح أحوال القضاء بعد توحيده ، وهو لم يعش ليرى أمن الفلاح بعد رفع المظالم عنه ، وهو لم يعش ليرى أمن البلاد من الفتن الداخلية والصراعات بين أمراء المماليك على السلطنة . لذلك ليس لنا أن نعتمد على تاريخ ابن إياس كمصدر وحيد بحجة أنه مصدر معاصر ، مع التغافل عن سائر المصادر المتأخرة نسبيا والتي شهدت الحكم العثماني على حقيقته ، كتواريخ ابن أبي السرور البكري ، ومرعي بن يوسف الكرمي ، وإبراهيم بن عامر العبيدي ، وكذلك المصادر التركية التي عاش مؤلفوها في مصر مثل « نوادر التواريخ » لعبد الصمد بن سيدي على بن داود الديار بكري الذي تولى قضاء دمياط عام ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م ، ثم مشيرا لداود باشا أمير أمراء مصر . و« تاريخ مصر » لرضوان باشا زاده ، و « تاريخ مصر القاهرة » لمحمد بن يوسف الحلاق ، عسى الله أن يمن علينا بأستاذ في اللغة التركية ليترجم لنا هذه المصادر لينير لنا بها البصائر .

تحريف د.عبد المنعم ماجد لوقائع عصيان جان بردى الغزالي

وعلى الرغم مما في رواية ابن إياس من تحامل شديد ومجافاة للحيدة ، فإن أساتذة التاريخ لم يأخذوا بها فحسب بل تجاوزوها وتزيدوا عليها وتقولوا على ابن إياس ، وأكثرهم د.عبد المنعم ماجد كما بيناه في أكثر من موضع آنفا ، ولكن ما سآتي عليه الآن من رواية د.عبد المنعم ماجد لعصيان الأمير جان بردى الغزالي أمير أمراء الشام بعد وفاة السلطان سليم ، قد بلغ به المدى وتجاوز به الحد في تحريف الكلم عن مواضعه ، فأولا نؤكد على أن جان بردي الغزالي كان من أمراء المماليك ، وكان يتولى منصب نائب حماه في زمن السلطان قانصوه الغوري ، ثم دخل في طاعة السلطان سليم بعد معركة الصليبية فولاه السلطان على الشام ، ولكنه بعد وفاة السلطان سليم أعلن العصيان ، وأعلن نفسه سلطانا وسك عملة باسمه ولقب نفسه بالأشرف ، فأرسل السلطان سليمان جيشا بقيادة فرهاد باشا فانتصر على الغزالي وقتله وقضى على تلك الفتنة عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م[1].

---

(١) شمس الدين بن طولون : إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى (ص ٢٤٧ – ٢٥٣) ، أحمد بن الحمصي : حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران (ص ٥٤٢ – ٥٤٤) ، حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٤٩) .

وقد ذكر ابن إياس أطرافا من تلك الأخبار وقد نقلها د.عبد المنعم ماجد عنه إلا أنه لم يكن أمينا في النقل ، ومن ذلك :

١- قال د.عبد المنعم ماجد : « استمال (جان بردي) عربان الشام فأيدته حمص وحماه وغيرها من بلاد الشام »[١].

ولقد أشار د.عبد المنعم إلى أنه نقل هذا الكلام عن ابن إياس فإذا ما رجعت إلى ابن إياس تجد أنه قال ما نصه : « وقع بالبلاد الشامية من الفتن العظيمة من القتل والنهب وحرق الضياع وذهاب الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردي الغزالي وإظهاره للسلطنة ، ووقع مثل ذلك بحماه وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية »[٢].

قلت : فليخبرني العقلاء منكم.! هل يتطابق القولان في المعنى .؟! هل يصح أن ينسب د.عبد المنعم كلامه المذكور إلى ابن إياس.؟! أم أن ذلك تقول عليه وتحريف لكلامه.؟! ثم إن المؤرخ الشامي المعاصر للأحداث **ابن طولون** حينما سرد وقائع عصيان الغزالي ، لم يتحدث عن تأييد الأهالي للغزالي قط ، بل إنه ذكر أن الغزالي توجه لحصار حلب فلما امتنعت عليه وانسحب إلى دمشق فرح أهل حلب فرحا عظيما لما كانوا فيه من الشدة لارتفاع الأسعار[٣].

٢- قال د.عبد المنعم ماجد : « إن الناس في مصر كانت تتمنى أن يحدث ذلك في مصر أيضا ، حتى أشاعوا أن الغزالي يحضر إلى مصر ويسلطن ويطرد العثمانيين »[٤].

ولقد صرح د.عبد المنعم بالنقل عن ابن إياس ، فإذا رُجعنا إلى ابن إياس نجد أن السياق مختلف تماما ، فما ذكره ابن إياس هو عبارة عن مشادة وقعت بين ابن الفرنوي ناظر وقف السلطان حسن وبين أحد الجنود العثمانيين ، وخلاصتها أن ابن الفرنوي حبس أحد الفلاحين ، فذهب إليه جندي عثماني ليشفع في ذلك الفلاح ، فلم يقبل ابن الفرنوي شفاعته فسبه العثماني ،

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ٢١٢) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٨٦) ، والطبعة التي رجع لها د.عبد المنعم ماجد هي طبعة بولاق (٣/ ٢٥١) .

(٣) شمس الدين بن طولون : إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى (ص ٢٥٠) .

(٤) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ٢١٣) .

فقال له ابن الفرنوي : « عن قريب يحضر نائب الشام الغزالي وتخرجوا من مصر على أيشمه »[1].

قلت : هذا ما استدل به د.عبد المنعم على تمنى أهل مصر أن يأتي الغزالي ويطرد العثمانيين بل وأشاعوا بذلك . فنقول أين في كلام ابن إياس تمني أهل مصر .؟! وأين في كلام ابن إياس أنهم أشاعوا ذلك .؟! هذه الواقعة إنما هي قول شخص واحد وهو ابن الفرنوي لأحد الجنود العثمانيين في مشادة وقعت بينهم ، والكلام الذي يقال في لحظة الغضب لا يمكن الاستدلال به على رأى ابن الفرنوي نفسه ، فضلا عن الاستدلال به على رأى عامة الناس في مصر ، ثم لو سلمنا بأن ذلك كان رأى ابن الفرنوي حقا فلماذا سحبه د.عبد المنعم على أهل مصر كلهم .؟! والحقيقة أن د.عبد المنعم يلوى عنق الكلام ويصرفه عن معناه لحاجة في نفسه ، ولو أردنا أن نضرب مثلا لما فعله د.عبد المنعم ماجد من واقعنا المعاصر ، لقلنا إن بعض الناس من ذوى المصالح يؤيدون تطبيع العلاقات مع إسرائيل . فلو أتى أحد الباحثين وساق كلام أحد هؤلاء تحت عنوان « المصريون يؤيدون التطبيع مع إسرائيل » فهل يكون هذا الباحث أمينا ؟! بل هو لا يخرج عن أن يكون إما مزورا أو سفيها .

٣- زعم د.عبد المنعم ماجد أن جماعة من أبناء المصريين توجهوا إلى جان بردي الغزالي لتأييده . قال د.عبد المنعم : « إن الناس في مصر كانت تتمنى أن يحدث ذلك في مصر أيضا حتى أشاعوا أن الغزالي يحضر إلى مصر ويسلطن ويطرد العثمانيين ، وبالفعل توجه إليه جماعة من أولاد العسكر الملفق سابقا ، كما كانوا يسمون في أيام سلاطين المماليك. وهم من أولاد المصريين والسودان في مصر ويعرفون استخدام البندق »[2].

قلت : أشار د.عبد المنعم أنه نقل ذلك عن ابن إياس ، فإذا رجعت إلى ابن إياس سيتبين لك العجب .! وهو أن ابن إياس كان يتحدث عن جيش يعده خاير بك ليقاتل به جان بردي الغزالي العاصي ، ولكن د.عبد المنعم حرف الكلم عن مواضعه ليوهم بما هو خلاف الحقيقة ، وأنا سأضطر أن أنقل نص كلام ابن إياس حتى يتبين الرشد من الغي ، قال ابن إياس عن خاير بك ملك الأمراء : « وفرق في ذلك اليوم على مماليكه عدة رماح وسلاح وغير ذلك

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٧٨) ، نقله د.عبد المنعم من طبعة بولاق (٣/ ٢٤٦) .
(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ٢١٣) .

ورسم لهم بأن يعملوا يرقهم بسبب السفر لملاقاة نائب الشام جان بردي الغزالي ، ورسم للعسكر العثماني بأن يعملوا يرقهم أيضا ... رسم ملك الأمراء للمماليك الجراكسة بأن يعملوا يرقهم أيضا ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ... وأخذ في تحصين القلعة (قلعة صلاح الدين) بكل ما يمكن ... ثم طلب شيخ المغاربه وقال له : احضر لي بألفين مغربي[1] من شجعان المغاربة ... ونودي في القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون إلى القلعة للعرض بين يدي ملك الأمراء . فصار جماعة من خان الخليلي من الطباخين وممن يعمل السراميح وممن يعمل السنبَوسك يطلعون إلى القلعة ويكتبون أسماءهم في الديوان ... وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس في سبيل الله خيار السبيل ، ثم إن طائفة الأصبهانية والكمولية[2] تغلبوا على ملك الأمراء وقالوا نحن ما نخرج إلى قتال نائب الشام (الغزالي) إلا بمرسوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ونحن ما علينا إلا حفظ القلعة والمدينة فإن دخل علينا نائب الشام حاربناه »[3].

قلت : يتبين من كلام ابن إياس أن خاير بك كان يعد العدة للخروج لقتال نائب الشام العاصي جان بردي الغزالي ، فاجتمع عنده جيش ملفق من الجراكسة والمغاربة وأبناء مصر من الطباخين وغيرهم ، لكن د.عبد المنعم حرف الكلم عن مواضعة وزعم أن هذا الجيش الملفق ذهب إلى جان بردى الغزالي تأييدا له.! فمن أين جاء د.عبد المنعم بهذا الفهم .؟! ثم نقول إن كلام ابن إياس إنما يثبت أن طائفة من أهل مصر من الطباخين إلخ إنما تطوعوا لقتال جان بردى الغزالي ، أي أنهم لم يبتهجوا بعصيانه في الشام ، ولم يتمنوا أن يدخل عليهم مصر ليتسلطن بها كما زعم د.عبد المنعم ماجد !. هل يمكن أن يعتبر ذلك في إطار سوء الفهم أيضا ، وعدم القدرة على فهم كلام المصادر التاريخية على نحو صحيح .؟! يمكن أن نقول ذلك إن أحسنا الظن به ، ولكني أقول هل يمكن أن تكون كل هذه الأباطيل الواردة في كتابه هي من باب الخطأ .؟! فإن كان الأمر كذلك ، ففيم كانت الدكتوراه التي حصل عليها والألقاب التي

---

(١) كذا كتبت ، والصواب أحضر لي ألفي مغربي أو أحضر لي ألفين من المغاربة .

(٢) كلاهما من طوائف الجيش العثماني .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٧٣ – ٣٧٥) ، وقد نقله د.عبد المنعم من طبعة بولاق (٣/ ٢٤٣ ، ٢٤٤) .

خلعت عليه من أستاذ مساعد وأستاذ الخ ، فمن كان لا يقدر على فهم المصادر التاريخية فهما صحيحا ، فليتنح عن ذلك ، وليشغل نفسه بأي عمل آخر ، ولا يتدخل فيما ليس له به علم لئلا يضل ويضل . وهناك أستاذ كبير آخر ذكر قولا شبيها بقول د.عبد المنعم ماجد وهو د.عبد الرحيم عبد الرحمن فقد قال : « ورغم موقف خاير بك العدائي من ثورة جان بردى الغزالي ، فإن ذلك لم يمنع من وجود عناصر مملوكية في مصر أثلجها نبأ هذه الثورة وتمردت على السلطة العثمانية في مصر ولاذت بالفرار إلى بلاد الشام وانضمت إلى جان بردى الغزالي ، أي أن رد الفعل إزاء ثورة الغزالي في مصر كان قويا ، حتى المماليك كانوا ينتظرون هجوم الغزالي على مصر ليعلنوا ثورتهم ... بل إن جانم السيفي وجان بردي الغزالي حينما قاما بثورتيهما ضد الحكم العثماني تم التنسيق بينهما على الالتقاء بقواتهما في الشرقية ، حيث يمكنهما السيطرة على الطريق التجارية مع الشام »[1].

قلت : لقد نقل د.عبد الرحيم ذلك الكلام عن د.عبد الكريم رافق – وهو أستاذ كبير هو الآخر – دون أن يكلف خاطره الرجوع إلى المصادر الأصلية ، ولو فعل لتبين له أن كل هذا الكلام أوهام وتخاليط ليس لها أساس من الصحة ، وذلك من وجهين :

أولا : معلوم أن بعض المماليك فروا من مصر ولحقوا بالغزالي في الشام ، فهذا ثابت . ولكن أين في المصادر التاريخية أن المماليك في مصر كانوا ينتظرون هجوم الغزالي ليعلنوا ثورتهم.؟! فليس لذلك أي ذكر في المصادر ، فإن أنصار الغزالي من المماليك فروا إليه ولحقوا به في الشام ولم يكن له أنصار في مصر ينتظرون قدومه ، ومن ادعى ذلك فعليه البينة .

ثانيا : أين في المصادر أن جانم السيفي قام بثورة في مصر أيام ثورة الغزالي في الشام .؟! لم يرد ذلك في المصادر على الإطلاق . بل لقد ورد ما ينفي ذلك ، وهو أن جانم السيفي كاشف البهنساوية كان أميرا للحج آنذاك . **قال ابن إياس** : « في يوم الاثنين تاسع عشره (شوال ٩٢٦هـ) خرج المحمل من القاهرة في تجمل زائد وكان أمير ركب المحمل الأمير جانم كاشف منفلوط والبهنساوية » .. ولقد عاد الأمير جانم إلى القاهرة في ٢٦ محرم ٩٢٧هـ[2] . أما

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٢٥٩) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٥٥، ٣٧٩)

عصيان الغزالي فقد بدأ في يوم ١٧ ذي القعدة ٩٢٦هـ بعد وصول الخبر بوفاة السلطان سليم الأول . ثم إن السلطان سليمان القانوني أرسل جيشا إلى الشام للقضاء على فتنة الغزالي ، قد خرجت طلائعه بقيادة علي بن شاه سوار في ١٥ محرم ٩٢٧هـ[1] ، فالفترة التي تمتد من تفكير الغزالي في إعلان العصيان بعد موت السلطان سليم الأول وحتى أرسل له السلطان سليمان جيشا لقمعه ، لم يكن الأمير جانم السيفي موجودا بمصر أصلا ، ثم إنه ليس من المعقول أن يفكر الغزالي في الهجوم على مصر قبل أن يستتب له أمر الشام ، فكما ذكرنا آنفا أنه لم يستطع إخضاع بعض البلاد الشامية كحلب وغيرها ، فإن قيل إن وجود جانم السيفي خارج القاهرة لا يمنع التنسيق بينه وبين الغزالي ، نقول عليك أن تأتي ببينة على ذلك ، فالكلام المجرد عن الدليل حقيق بألا يلتفت إليه ، وهنا نجد أنفسنا أمام نفس الداء ونفس العلة التي أصيب بها أغلب أساتذة التاريخ ، وهو أنهم ينقلون عمن سبقهم دون الرجوع إلى المصادر .

توطين أسر مصرية في اصطنبول

مما شنع به أساتذة التاريخ على السلطان سليم الأول ، أنه أخذ عددا من الأسر المصرية من مختلف الطبقات ، من أمراء المماليك والقضاة والكتاب والمباشرين وأهل الصنائع من حدادين ومبلطين ومرخمين ونجارين وأرسلهم إلى اصطنبول . أذاع بعض أساتذة التاريخ بذلك وقالوا إنها عملية نهب حضاري لإفقار مصر من مقوماتها الحضارية إلخ من جنس هذا الكلام الذي هو عار عن الصحة ، ونقلوا عن ابن إياس كلاما أخرجوه عن سياقه أو جزموا به بينما هو مجرد شائعات ، والحق أن السلطان سليما إنما فعل ذلك لتحقيق التكامل بين العرب والأتراك ، ثم لو كان أهل مصر من مختلف الطبقات لهم مزية حضارية وخبرة في مجالات مختلفة يفتقر إليها غيرهم من سائر رعايا الدولة الإسلامية أليس من الواجب أن تنقل هذه الخبرات إلى عاصمة الدولة لتنتشر في سائر الأقاليم .؟! و إن كان علماء مصر أكثر علما بالشريعة الإسلامية من غيرهم ، أليس من الواجب أن ينتقلوا إلى العاصمة لينتشر علمهم في سائر بلاد المسلمين .؟! ثم إن كل هؤلاء الذين ذهبوا إلى اصطنبول عادوا إلى مصر بعد ثلاث سنوات كما سيأتي في لرد على ذلك الافتراء .

---

(١) شمس الدين بن طولون : إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى (ص ٢٤٧ ، ٢٥١) .

١- قال د.عبد المنعم ماجد : « وفي سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية سعى سليم إلى أن يفرغها من كل نابه فيها ، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلى اصطنبول بقصد تسخيرهم في تعمير بلاده ، وليجعلهم يغيرون من نمط الحياة فيها إلى النمط الإسلامي ، إذ إن آسيا الصغرى التي اتخذها العثمانيون مقرا لسكناهم كانت منذ أيام هومر مركزا لليونان »[1].

قلت : لو كان الهدف إفقار مصر من مقومات الحضارة كما زعم د.عبد المنعم لما سمح لهم بالعودة بعد ثلاثة أعوام وهو ما قرره ابن إياس نفسه فقد ذكر في أحداث جمادى الأولى عام ٩٢٧هـ : « حضر جماعة من اصطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخرجهم من مصر ، فلما مات سليم شاه بن عثمان واستقر ولده سليمان بعده رسم بعود الأسراء قاطبة إلى بلادهم ورأف عليهم وأظهر العدل فيهم ، فحضر منهم جماعة هذا الشهر »..ثم قال في أحداث رجب من نفس العام : « قدم جماعة من اصطنبول ممن كان هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى في اصطنبول ، بأن جميع الأسراء من أهل مصر يرجعون إلى بلادهم وكل من تأخر منهم شنق »...ثم ذكر أسماء بعض من بقى في اصطنبول ولم يعد[2].

لنا فيما سبق ثلاث مسائل :

• يتبين من كلام ابن إياس أن السلطان سليمان أمرهم بالعودة فعاد بعضهم وبقي آخرون ، فشدد على من بقي وتهددهم فعاد بعضهم وبقي آخرون أيضا ، وهذا إنما يدل على أن هؤلاء الناس الذين أخذوا إلى اصطنبول طابت لهم الحياة هناك ولم يرغبوا في العودة ، وهذا ينفي عنهم وصف « الأسرى » الذي دأب ابن إياس على وصفهم به ، فالأسير ، ما أن يفتح له الطريق لا يتوانى في الفرار من الأسر ، أما د.عبد المنعم فقد أخفى علينا خبر عودتهم أصلا فقال : « ولا نعرف ما حدث لهؤلاء المنفيين أو حتى عددهم »[3] ، فيصر د.عبد المنعم على أنهم كانوا منفيين ، ويصر على أن مصيرهم كان مجهولا ، بالرغم من أن ابن إياس ذكر خبر

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٩١ ، ١٩٢) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٩٤ ، ٣٩٧) .
(٣) د.عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك (ص ١٩٤) .

عودتهم في أكثر من موضع .!

• ومما يدحض قول د.عبد المنعم أنهم « منفيون » أن أهل العلم منهم والفضل قد أكرموا جدا ، وأضرب مثلا بالشيخ القوصوني الطبيب الشهير الذي ذكره عاشق جلبي من ضمن علماء الدولة العثمانية ، وكان ممن رحلوا إلى اصطنبول مع السلطان سليم وعين من الأطباء السلطانية ، وبقي بها حتى وفاة السلطان سليم وقام مع غيره من الأطباء بتغسيله وتكفينه رحمه الله ، ثم توفي في أول سلطنة السلطان سليمان ، وأقام ابنه محمود في اصطنبول ، وقد ورث علم الطب عن أبيه فجعل طبيبا خاصا للسلطان سليمان القانوني ، وريس الطب في الدولة ، وظل معه حتى توفي وقام على تغسيله وتكفينه رحمة الله[1].

• قول د.عبد المنعم أن هدف السلطان سليم كان تغيير نمط الحياة في آسيا الصغرى إلى النمط الإسلامي فيه جهالة كبيرة . لأن الأناضول (آسيا الصغرى) قد فتحت أمام المسلمين بعد انتصار السلطان السلجوقي آلب آرسلان على الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في معركة ملاذكرت عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م ، وقد تواترت هجرات القبائل التركية منذئذ ، فوطد سليمان بن قطلمش ابن عم السلطان آلب أرسلان دعائم الحكم الإسلامي فيها ، وأسس دولة عرفت بعد ذلك بدولة سلاجقة الروم ، وكان ذلك قبل السلطان سليم بأكثر من أربعة قرون ، والمدن الأناضولية القديمة مثل سيواس وقونيه تزخر بالآثار الإسلامية التي ترجع إلى عصر السلاجقة ، فهذه معلومات أولية يفترض أن يعرفها المبتدئ في دراسة التاريخ فضلا عن أستاذ كبير مثل د.عبد المنعم ماجد . فكلامه عن تغيير نمط الحياة في الأناضول من اليوناني إلى الإسلامي ليس كلاما علميا على الإطلاق بل هو وهم كبير ليس له أي اعتبار عند أهل العلم ، بل هو كلام يسوقه الأستاذ الكبير عبثا بعقول طلابه أو بعقول قرائه ، كما يفعل التاجر المحتال لترويج بضاعته الكاسدة .

٢- وإمعانا من د.عبد المنعم ماجد في إثارة المشاعر قال : « أنه في عام ٩٢٣/ ١٥١٧ وصلت أنبـاء من اصطنبول تفيد وفاة جمـاعة كبيرة من أهـل مصر ممن توجـه إليها وأن كثيرا

---

(١) عاشق جلبي : ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٩٢ – ٩٤) .

منهم لم يعلم لهم خبر »[1].

قلت : نقل د.عبد المنعم ماجد هذا الخبر عن ابن إياس ولكنه أخفي علينا سبب وفاة هؤلاء كما ذكره ابن إياس نفسه ، فقد قال : « لما دخل (السلطان سليم) اصطنبول وجد بها فناء عظيما ، وقد فتك بها الطاعون فتكا ذريعا ومات بالطاعون من عسكره ما لا يحصى عدده ، وقيل مات من أهل مصر ممن توجه إلى اصطنبول نحوا من ثمانين إنسانا منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم أقف على حقيقة أسماء من توفي هناك من الأعيان »[2]...فهكذا حذف د.عبد المنعم شطرا من كلام ابن إياس الذي يفيد أنهم ماتوا بالطاعون الذي حصد أرواح كثيرين منهم مع أرواح إخوانهم الأتراك سواء بسواء ، حذف ذلك د.عبد المنعم حتى يظن القاري أنهم قتلوا أو ماتوا من الجوع أو من سوء المعاملة فيزداد بغضا وحنقا على العثمانيين بغير حق.

٣- يتمادى د.عبد المنعم ماجد في تحريف الكلم عن مواضعه فيقول : « فهم قد فصلوا عن أهاليهم حتى جرت الدموع في مصر بسبب ذلك أنهارا ، وأحزن نساءهم غاية الحزن حتى قاموا لنعيهم كـأنهم مفقودون ودقوا عليهم الطارات »[3].

قلت : يتوهم من يقرأ كلام د.عبد المنعم أنه يتعلق بهؤلاء الذين أخذوا إلى اصطنبول ليقيموا فيها ، ولكن الحقيقة غير ذلك . فقد نقل د.عبد المنعم ذلك الخبر عن ابن إياس ولكنه أخرجه عن سياقه ووضعه في سياق آخر ، والحقيقة أن ابن إياس قد قال ذلك الكلام في شأن خمسة من المباشرين وكاشف الغربية ونقيب الجيش ، عندما استدعاهم السلطان سليم ليمثلوا أمامه في اصطنبول ، بعد أن بلغته أنباء عن فسادهم واستغلالهم لمناصبهم . فقد قال ابن إياس في أحداث شوال ٩٢٤هـ : « طلع أعيان جماعة من المباشرين إلى القلعة على جاري العادة ، فلما تكاملوا أخرج إليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار ابن عثمان ... فكان مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون إلى اصطنبول وهم : العلائي علي ناظر الخاص ، والشرفي يونس النابلسي الاستادار ، والقاضي بركات أخو شرف الدين الصغير

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٩٤) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٧٢) .

(٣) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ١٩٣

كاتب الرجع ، وفخر الدين بن عوض ، والقاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وأرسل يطلب الأمير يوسف البدري الوزير الذي كان كاشف الغربية وأرسل يطلب الشرفي يونس نقيب الجيش » .. ثم قال ابن إياس : « فحصل لنساء القاضي أبي البقاء والقاضي بركات كاتب الرجع على أزواجهن غاية الحزن فقاموا نعيهم ودقوا عليهم الطارات ... وكان هؤلاء المباشرون لما صفا لهم الوقت طاشوا وصاروا هم الملوك بمصر ، ويتصرفون في أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد . واستغرقوا في اللذات وانعكفوا على شرب الخمور وسماع المزمور ولم يتفكروا في عواقب الأمور »[1].

وقد ذكر الدياربكري وهو المؤرخ التركي الذي كان مقيما بمصر آنذاك سبب استدعاء السلطان سليم إياهم ، بأنهم قاموا بتغيير السياسة الإدارية التي قررتها الدولة بمصر، وأفسدوا نظامها وسيطروا على الإدارة المحلية بنفوذهم المتنامي ، حيث صاروا يستطيعون منع ما يريدون ومنح ما يرغبون ، فأثروا ثراء فاحشا ونشروا أنواع البدع والمفاسد في البلاد وبين العباد »[2]...فهكذا يتعامل د.عبد المنعم ماجد مع النصوص التاريخية ، إما أن يحرف نصوصها أو أن يأول معاني كلماتها ، أو أن يحرف سياقها.! وبخصوص هذه الواقعة نستطيع أن نتبين من نص كلام ابن إياس أن هذه الواقعة كانت في شوال عام ٩٢٤هـ أي بعد خروج السلطان سليم من مصر بأكثر من عام ، أي أنها ليست متعلقة بمن أخذوا ليقيموا في اصطنبول ، بل هي خاصة بهؤلاء السبعة التي فسدوا واستغلوا مناصبهم ، وكان من عادة السلطان سليم أن يتابع أحوال الولايات ويستدعي المسيء ليعاقبه ، وقد استدعى كمشبغا الوالي . قال ابن إياس : « مراسيم من عند السلطان سليم خان بن عثمان فكان من مضمونها أنه أرسل يطلب الأمير كمشبغا والي القاهرة ، وقد بلغه ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس عند الخنكار »[3].

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الذين أخذهم السلطان سليم من مصر ليقيموا في اصطنبول لم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٧٦ ، ٢٧٩) .

(٢) انظر د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ١٠٧) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٣٨) .

يفصلوا عن أهاليهم كما زعم د.عبد المنعم ، بل ذهبوا بزوجاتهم وعيالهم ويتبين ذلك من قول ابن إياس : « يقال أن مجموع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى اصطنبول دون الألف إنسان والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع »[1].

٤- قال د.عبد المنعم ماجد : « ولعل الذي يؤيد قصد العثمانيين إفقار مصر من أهلها سيما من الحذاق ، هو أخذهم المعلم عبد الرحمن بن طبيلة الذي كان علامة عصره في إنتاج الفروج أو معامل الدجاج والأوز حيث اشتهرت مصر بتفريخهم »[2].

قلت : زعم د.عبد المنعم أنه نقل هذا الخبر عن ابن إياس ، فإذا رجعت إلى ابن إياس في نفس الموضع الذي أشار إليه د.عبد المنعم تجد خبر وفاة المعلم عبد الرحمن بن طبيلة ، ولا تجد أي ذكر لأخذه إلى اصطنبول كما زعم د.عبد المنعم . **قال ابن إياس** : « توفي المعلم عبد الرحمن بن طبيلة المعامل في الدجاج والأوز ، وكان علامة عصره في هذا الفن وكان في سعة من المال لا بأس به وكان له بر ومعروف »[3]. فهكذا يكتب الأستاذ الكبير أي كلام ! ثم ينسبه إلى المصادر التاريخية زورا وبهتانا ، ثم بفرض أن هذا الرجل كان علامة عصره في ذلك الفن وقد أخذ إلى اصطنبول ، أليس من الأفضل أن يؤخذ إلى عاصمة الدولة لبضع سنوات لينقل هذا الفن إلى العاصمة لينتشر في سائر بلاد المسلمين.؟!

٥- ومما شنع به عبد الرحمن الرافعي ود.عبد المنعم ماجد وغيرهما ، من أساتذة التاريخ والمفكرين والأدباء والكتاب ، بل وكل من هب ودب من صبية المستشرقين وأبواق الأوروبيين ، أنه بسبب أخذ السلطان سليم عددا من الصناع إلى اصطنبول تعطلت الصنائع بمصر. ثم ينسبون ذلك إلى ابن إياس ، قال **عبد الرحمن الرافعي** : « جمع رؤساء الصناعات المتخصصين في الفن والصناعة ونقلهم إلى الأستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سببا في نضوب معين الصناعة والفن في البلاد وتلاشت صناعات كثيرة عامرة »[4].

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٣٢) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٩٣) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٣٩١) .

(٤) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٥٥) .

قال د.عبد المنعم ماجد : « بسبب ترحيل أصحاب الحرف والصناعات من مصر إلى بلاد العثمانيين فإنه قد بطل من مصر نحو خمسين صنعة »[١].

قال د.السيد الدقن : « كما أرسل إلى اصطنبول الخليفة المتوكل على الله وبصحبته أهله وعشيرته ، وبعض الأعيان وأرباب الحرف المختلفة حتى تعطلت الصنائع بمصر »[٢].

قال د.محمد الراقد : « وهكذا عمل السلطان سليم الأول على أن تزدهر عاصمة ملكه على حساب القاهرة ، متبعا نفس السلوك الذي لجأ إليه تيمورلنك بعد غزوه لدمشق وحلب وأنقره. وتبدو أهمية هذا العامل في اضمحلال الصناعة المصرية من أن أسرار كثير من الصناعات كانت خاضعة لاحتكار أسر معينة »[٣]...وقد جاء في كتاب الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ما نصه : « وساعد على زيادة التخلف انتقال الصناع المهرة إلى عاصمة الدولة العثمانية مع بداية الغزو العثماني لمصر »[٤].

قلت : ولقد أخفي علينا هؤلاء الأساتذة الأفاضل أن هؤلاء الصناع عادوا بعد ثلاث سنوات . وليست هذه هي أول مرة يخفي الأساتذة عنا المعلومات التاريخية.!

قال عمر الإسكندري وسليم حسن : « وانقرض معظم الصناعات وكانت قد دخلت مصر في طور تقهقر بعد أن نقل السلطان سليم أمهر الصناع إلى القسطنطينية »[٥].

قلت : كل ما نقله هؤلاء الأساتذة إنما هو قراءة خاطئة لما ذكره ابن إياس في تاريخه ، فإن نص ما قاله ابن إياس في معرض حديثه عن خروج السلطان سليم من مصر وعودته إلى اصطنبول : « وفي مدة إقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل وبطل منها نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ولم تعمل في أيامه بمصر ، فكانت مدة إقامة ابن عثمان في مصر ثمانية أشهر إلا أياما »[٦]...فيتبين من كلام ابن إياس ، أن الصنائع تعطلت في مصر في مدة الثمانية أشهر التي مكثها السلطان سليم فيها ، وذلك بسبب الحرب والمعارك داخل

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي : آخر سلاطين المماليك (ص ١٩٥ ، ١٩٦) .
(٢) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٩٤) .
(٣) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٤٣) .
(٤) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ، العام الدراسي (٢٠١٠ - ٢٠١١) الفصل الدراسي الأول (ص ٦٩) .
(٥) عمر الإسكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني (ص ٦٧) .
(٦) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٠٧) .

القاهرة ، وهذا العدد الكبير من الجنود العثمانيين المقيمين فيها ، لكن الأساتذة الأفاضل زعموا أنها تعطلت إلى أجل غير معلوم ، وزعم د.محمد الراقد أن ذلك تسبب في اضمحلال الصناعة ، وزعم عمر الإسكندري وسليم حسن أن مصر منذ ذلك الحين دخلت في طور التقهقر وهذا جهل عظيم ورب الكعبة ، ومما يثير العجب أن كتاب عمر الإسكندري وسليم حسن كان يدرس في المدارس الثانوية في مصر في عام ١٩١٦م كما جاء في مقدمته ، ولكن يزول عنك العجب إذا ما علمت أن المشرف على هذا الكتاب والمراجع له هو الكابتن : ا.ج. سفدج. وهو إنجليزي ، وكانت إنجلترا في تلك الفترة تخوض حربا ضد الدولة العثمانية في إطار الحرب العالمية الأولى . فما ورد في هذا الكتاب من معلومات كان مما تعمل إنجلترا على بثه في عقول المصريين في إطار عملية الغزو الفكري ومحو الهوية وإيقاع العداوة بين العرب والأتراك ، ولعل ما يؤيد ذلك أن أول عنوان جانبي في أول صفحة في هذا الكتاب هو (العداوة القديمة بين مصر وتركيا) ، ومنذ ذلك الحين بل ومن قبله بسنوات كان المناخ الثقافي في مصر مشبع بهذه الأفكار الكاذبة ، فقد وضع الإنجليز عملية التعليم في مصر على قضيب قطار ما زالت تسير عليه حتى الآن ، وخير دليل على ذلك كتب أساتذة التاريخ التي مازالت تطفح بالأباطيل ، والله بما يعملون بصير .

٦- عاب د.عبد المنعم ماجد على السلطان سليم أنه صادر ما في قلعة الجبل (مقر السلطان المملوكي) وقصور أمراء المماليك من تحف وأثاث فاخر ، فقد قال د.عبد المنعم ماجد : « سعى العثمانيون إلى إفقار مصر ماليا بكل الوسائل ، بما فيها النهب ، فبالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما حمله الغوري من مال وتحف فإنهم عملوا على مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية ، وحتى مال الستات أيضا بما فيهن زوجة طومان باي ووالدتها ، فأخذوا ما لديها من جواهر وذهب وأواني فضية ونحاس مكفت (مطعم) ، وحتى يسود الفقر المصريين جميعا فإنهم منعوا تداول العملة المملوكية السائدة في التداول ، وأصدروا بدلها عملة خفيفة لا يدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلا منها عملة ذهبية وعملة فضية اسمها الأشرفي كما أباحوا الزغل وهو الزيف »[1].

---

(١) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٨٧ – ١٨٨) .

قلت : لنا فيما قاله د.عبد المنعم أربع مسائل :

الأولى : أما مصادرة السلطان سليم لما كان في قلعة الجبل ومقتنيات أمراء المماليك ، فقد كان ذلك بالنسبة للأمراء العصاة التي أبوا الدخول في الطاعة وقاتلوا السلطان سليم فقتلوا أو فروا ، ولم تكن مصادرة ما في بيوتهم من التحف والأموال بهدف إفقار مصر كما زعم د.عبد المنعم ، أما الأمراء الذين دخلوا في الطاعة مثل خاير بك وجان بردي الغزالي وجانم الحمزاوي وإينال السيفي وغيرهم فلم يرد لا عند ابن إياس ولا عند غيره أن السلطان سليما تعرض لأموالهم ولا لبيوتهم ، بل إن السلطان سليما أمر خاير بك أن يقبل كل من جاءه من أمراء المماليك ويبقيه على منصبه كما قدمنا(١) ، كما ذكرنا أن السلطان سليما أبقى أوقاف السلاطين والأمراء على حالها ولم يصادرها بالرغم من جواز ذلك شرعا ، فلو كان الهدف هو إفقار مصر كما زعم د.عبد المنعم لصادر كل شيء ، ثم إنه ليس مما يقبله العقل أن يهدف أي حاكم كان إلى إفقار إحدى ولايات سلطنته ، فهذا يزعزع حكمه ويضر بالسلطنة كلها .

الثانية : أما منع تداول العملة المملوكية فهذا من البديهيات ، فإن الحاكم الجديد يضرب عملة جديدة خاصة به ، ويكون ذلك بإعادة سك العملة القديمة في دار الضرب ، أما القول أن ذلك كان بهدف أن يسود الفقر في المصريين جميعا ، فهذا قول من لا يعلم كيف تدار الدول .

الثالثة : قول د.عبد المنعم أباحوا الزغل (الزيف) وأسنده إلى ابن إياس ، فنقول إن ابن إياس برئ من ذلك ، وبالرجوع إلى الموضع الذي أشار إليه د.عبد المنعم ماجد فإنك ترى أن ابن إياس كان يتحدث عن ضبط بعض من يزيفون العملة ومعاقبتهم . **فقد قال ابن إياس** : « رسم ملك الأمراء بشنق أربعة أنفار منهم يهودي ونصراني ، وقد ظهر عليهما شيء من أمر الزغل في الذهب والفضة ، وقد نم النصراني على اليهودي ، فكبسوا بيت اليهودي فوجدوا عنده آلة الزغل في بيته ... فخوزقوا الأربعة في يوم واحد »(٢).

قلت : إن ما رواه ابن إياس يدل على مكافحة التزييف وليس إباحته والإقرار به كما زعم د.عبد المنعم . لست أدرى كيف يقرأ هذا الأستاذ الكبير المصادر وكيف يفهم نصوصها.؟!

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ١٨٤) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٤٥) .

ومما ينبغي أن نقر به هو أن أمر العملة كان مختلا في الخمس سنوات الأولى التي تعد المرحلة الانتقالية بسبب بقاء الإدارة المملوكية على حالها كما أسلفنا ، وكانت العملة أيام السلطان الغوري على أسوأ حال . **قال ابن إياس** : « إن معاملته (الغوري) في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل ... وقرر على دار الضرب مالا له صورة في كل شهر فكانوا يصنعون في الذهب والفضة النحاس والرصاص جهارا ، فكان الأشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوى اثنا عشر نصفا ، وقد سلم السلطان (الغوري) دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين فلعب في أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة ، حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات »[1]...فهكذا كان حال العملة التي كانت سارية في عصر السلطان قانصوه الغوري ، فلما فتح السلطان سليم مصر لم يكن من المعقول أن تنصلح الأحوال بين عشية وضحاها ، لاسيما والإدارة المملوكية باقية على حالها ، فاستغرق الأمر بعض الوقت حتى اكتمل الإصلاح على يد السلطان سليمان بن سليم. ولكن ما يقوله د.عبد المنعم أن العثمانيين أباحوا العملة المزيفة لإفقار مصر ، فهذا من جنس الكلام الذي لا يرد عليه لأنه أشبه بكلام العوام والذين لا يعقلون.!

الرابعة : أما أموال السلطان الغوري التي كانت بقلعة حلب ، فإنه كان قد جمعها من أموال الناس بغير حق ، ثم أودعها قلعة حلب قبل خروجه لقتال السلطان سليم ، فلما هزم الغوري ودخل السلطان سليم حلب حصر تلك الأموال وأقام عليها نائبا من عنده[2] ، ثم بقيت تلك الأموال في قلعة حلب إلى أن تولى السلطان سليمان القانوني ، فأرسلها إلى دار الضرب في مصر لتسك منها عملة جديدة ، **قال ابن إياس** : « أشيع أن السلطان سليمان رسم للأمير جانم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٩) .

(٢) شمس الدين بن طولون : إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى (ص ٢٧٤ ، ٢٩٨) .

الحمزاوي أنه إذا دخل إلى حلب يطلع القلعة ويأخذ المال الذي كان الأشرف الغوري أودعه بها لما خرج إلى قتال السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكان نحو ستمائة ألف دينار ، وكسور فرسم السلطان سليمان بحمل ذلك إلى عند ملك الأمراء خاير بك ، وأن تسبك وتضرب باسم السلطان سليمان بمصر وتمشي في المعاملة للناس ، والله أعلم بحقيقة ذلك إن كان له صحة »[1].

قلت : هذا الخبر وإن كان ابن إياس ذكره على سبيل الظن دون الجزم فإنه ليس ببعيد على السلطان سليمان ، وقد ذكرنا عنه من قبل أنه عندما خرج إلى حملة سكتوار أخرج الأواني الفضية والذهبية التي في قصره وأرسلها إلى دار الضرب لتسك منها عملة لتدبير نفقات الحملة[2].

٧- **قال د.عبد المنعم ماجد :** « رسمت سياسة عامة لنهب كل ما هو قيم في مصر وحمله إلى اصطنبول ... فكان أكثر ما نهب من القلعة أو قلعة الجبل التي كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون ... فلم يترك سليم في القلعة شيئا لم يأخذه منها حتى رخامها وأعمدتها لا سيما تلك التي في الإيوان وهى قاعة الاستقبال الرسمية »[3].

قال د.السيد الدقن : « على أن السلطان سليم في أثناء إقامته بمصر التي امتدت ما يقرب من ثمانية أشهر قام بعملية نهب حضاري لمصر ، فقد أمر بفك رخام القلعة والأعمدة الرخامية الموجودة بالقاعات الكبرى بها ، كما استولى على الرخام الموجود بالمدارس وبيوت الأمراء والأعيان وكبار التجار وذلك بقصد نقله إلى اصطنبول لبناء مدرسة له »[4].

قلت : أما ما قالاه عن أخذ أعمدة الرخام والتحف من القلعة ومن بيوت الأمراء والتجار فهذا مما ذكره ابن إياس حقا في تاريخه ، فالأستاذان الفاضلان لم تغب عنها هذه المرة الدقة في النقل .! ولكن يبقى التحقق من مدى صحة هذا الخبر ، فقد انفرد به ابن إياس وهو معروف بتحامله الشديد على السلطان سليم ، فإن كان يمكن أن نقبل قوله عن أخذ أعمدة الرخام والتحف من القلعة ومن بيوت أمراء المماليك بعد فرارهم ورفضهم الدخول في الطاعة ، فإننا لا يمكن أن نقبل قوله في أخذ الرخام من المدارس والأوقاف وبيوت التجار ،

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/٤٣٦) .
(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٠٩) .
(٣) د.عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك (ص ١٩٠ – ١٩١) .
(٤) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٩٤) .

لأن السلطان سليما الذي ترك أراضي الأوقاف على حالها ولم يضمها إلى بيت المال بالرغم من جواز ذلك كما ذكرناه مرارا ، لا يمكن أن يتعرض للرخام الموجود في المدارس وهى من الأوقاف أيضا . كما أن السلطان سليما الذي أبى أن يهدم دكاكين التجار حول قلعة دمشق بغرض توسيع القلعة لعدم توفر المال اللازم لتعويض هؤلاء التجار عن أثمانها وقال « أنا ما جيت إلا أعمر وما جيت أخرب»[1] ، لا يمكن أن يتعرض لما بداخل بيوت التجار . ولكن لو سلمنا لكم يا أيها الأساتذة أن الخبر صحيح فهل يعد هذا عملية نهب حضاري .؟! وهل يمكن أن يكون هذا بهدف بناء مدرسة في اصطنبول .؟! هل كل المدارس والمساجد والخانات والبازارات في اصطنبول وغيرها قد بنيت من الرخام الذي أخذ من مباني مصر ؟!. لا يخفي ما في هذا القول من المبالغة الشديدة ، ثم ما بال المدارس التي بنيت قبل الفتح العثماني لمصر ، المدارس الثمان التي بناها السلطان محمد الفاتح في اصطنبول من أين جاء برخامها .؟ ومدرسة السلطان محمد جلبي في بورصه ، من أين جاء برخامها .؟! ومدرسة السلطان مراد الثاني في بورصه أيضا ، من أين جاء برخامها[2] .؟! لقد بالغ ابن إياس شيئا قليلا فيما قاله ، ثم بالغ الأساتذة بدورهم على مبالغاته فقالوا « نهب كل ما هو قيم بمصر » و« عملية نهب حضاري » . ثم تمادى **د.عبد المنعم ماجد** في مبالغاته فيقول : « إن العثمانيين الذين كانوا صفر اليدين من كل حضارة ، اندهشوا مما وجدوه في مصر من مظاهرها ، وصمموا على أن تكون لهم وجدهم ، على أن يحرموا منها مصر في نفس الوقت »...**ثم يقول د.عبد المنعم ماجد** في عصبية جاهلية منتنة عن طوائف الصناع الذين أخذوا إلى اصطنبول : « ولا نشك في أن هؤلاء المنفيين في اصطنبول وغيرها هم الذين بنوا للعثمانيين أجمل عمائرهم الإسلامية وأروعها التي يفتخرون بها للآن سيما جوامعهم ومنائرهم وبازارهم وغير ذلك ، وهي التي تعتبر من أروع مباني الإسلام »[3].

قلت : من المؤكد أن د.عبد المنعم ماجد لم ير بعينه آثار العثمانيين في اصطنبول وبورصه من

---

(١) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٤٥) .

(٢) أحمد بن مصطفي طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٦٠ ، ٧٤ ، ٧٥) .

(٣) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك (ص ١٨٧ ، ١٩٥) .

مساجد ومدارس ، فهي أعظم بكثير من المساجد والمدارس في مصر ، ولا يمكن أن يكون من بنى هذه هو نفسه الذي بنى تلك ، ثم نقول له إن كان الأمر كما تقول ، فمن عساه أن يكون قد بنى العمائر العثمانية قبل الفتح العثماني لمصر .؟! مثل مسجد ومدرسة السلطان بايزيد في بورصه ومسجد السلطان محمد الفاتح في اصطنبول و « طوب قابو سراي » القصر الذي بناه السلطان الفاتح في اصطنبول وأصبح مقرا للحكم منذئذ ، ثم نقول لو كان عند صناع مصر فن خاص ليس عند غيرهم ، فالأولى بنا أن نشكر السلطان سليم الأول أن نشر هذا الفن في سائر بلاد المسلمين ، لعمر الله إن هذا لهو من أجل مقاصد توحيد المسلمين ، وفيه إثراء للحضارة الإسلامية .

فإن صح أن أهل مصر قد نقلوا إلى العثمانيين فنون العمارة – وهذا من باب الفروض الجدلية ولكن الأمر لا يحتاج إلى متخصص في علوم الآثار ليرى أن العمائر العثمانية لها سمة خاصة تختلف عن العمائر في مصر في العصر المملوكي – فإن العثمانيين قد نقلوا إلى مصر الفنون العسكرية والأسلحة الحديثة من مدافع وبنادق . كما أنهم نقلوا إلى مصر التنظيم الإداري وهو « قانون نامه مصر » الذي وضعة السلطان سليمان القانوني رحمه الله ، وقد حاز على رضي الكبير والصغير لما يزيد عن ثلاثة قرون من الزمان ، وكلما جار وال أو أمير احتج الناس عليه بقانون سليمان !. فما بال هذه العصبية الجاهلية المنتنة التي حملت د.عبد المنعم ماجد على أن يقول كلاما غير علمي على الإطلاق إشباعا لها .

زوال الخلافة والسلطنة من مصر

شنع كثير من أساتذة التاريخ على الفتح العثماني لمصر بأنه أزال الخلافة العباسية التي كانت قد انتقلت من بغداد إلى القاهرة بعد خراب بغداد على يد هولاكو عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

قال د.محمد الراقد : « كانت النتيجة المباشرة للغزو العثماني لمصر أن تحولت من دولة كبرى امتدت من جبال طوروس شمالا إلى أسوان جنوبا ، ومن حدود إقليم برقة غربا إلى الفرات شرقا ، إلى مجرد ولاية لا تختلف عن غيرها من ولايات الدولة العثمانية ... أي أن الدولة المصرية المستقلة أنزلت إلى مجرد قطر عثماني لا ميزة له » .. **وقال أيضا** : « كان للسلاطين المماليك الزعامة بين ملوك المسلمين لتوليهم خدمة الحرمين الشريفين ، ولكون القاهرة مقرا لخليفة

المسلمين وقد أسبغت الخلافة على مصر مركزا ممتازا في دول العالم الإسلامي ... »[1].

قال د.السيد الدقن : « وبالاحتلال العثماني صارت مصر تابعة بعد أن كانت متبوعة ومحتلة بعد أن كانت مستقلة ونيابة بعد أن كانت سلطنة وتابعة لدولة الخلافة بعد أن كانت دارا لها ، وبه حرمت أسباب النهوض ودخلت في دور من التأخر والانحلال والضعف والفاقة والجهل »[2].

قال د.محمد أنيس : « دولة المماليك تلك الدولة التي طالما دافعت بسيوفها ودمائها عن عزة الإسلام والتي طالما دفعت عن الشرق الإسلامي أخطارا محققة كادت تودي به ، وهكذا كانت نهاية سلطنة المماليك نهاية مجيدة كما كانت حياتها حياة مجيدة »[3].

قال د.محمود الحويرى : « دخلت مصر عهدا جديدا من تاريخها ، فهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة ، إلى ولاية عثمانية . ويعلق ابن إياس على ذلك قائلا : ومن العجائب أن مصر صارت نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون »[4].

قلت : ها هي رائحة العصبية الجاهلية المنتنة تفوح منكم يا أساتذة التاريخ فتزكم الأنوف ، فجل همكم أن تبقى الخلافة بمصر للتباهي والتفاخر ، وللاستعلاء بها على سائر المسلمين ، دون أن تلقوا بالا إلى المصلحة العامة للأمة الإسلامية ، ولا تعبئون بها إذا كانت تلك الخلافة التي بمصر تستطيع القيام بأمر المسلمين من عدمه ، وكأن نظام الخلافة قد وضع ابتداء من أجل مصر ، أو كأنه وضع ليتفاخر به كل متفاخر وليستعلي به كل متكبر .! قال أبو مالك إن رسول الله ﷺ قال : « **أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ وَقَالَ النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ** »[5].

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢٠٧ ، ٢١٠) .

(٢) د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ٩٣) .

(٣) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ١١٣) .

(٤) د. محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٢٢) .

(٥) رواه مسلم (٢/ ٦٤٤) ، أحمد (٣٧/ ٥٣٧) ، أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٦٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٠٤) ، عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٥٩) ، أبو عبد الله الحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٩) ، أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣/ ١٤٨) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (٧/ ٤١٢) .

فهذا الفخر الذي عناه رسول الله ﷺ هو الذي أرداكم ، وجعل على بصركم غشاوة فأنتم لا تبصرون ، ولبيان ذلك سنبحث أمر الخلافة ثم أمر السلطنة كل على حده .

أولا : الخلافة

من المعلوم أن هولاكو عندما اجتاح بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م قتل الخليفة العباسي المستعصم فزالت الخلافة من بغداد ، وفر بنو العباس منها خوفا من القتل أو الأسر ، ومنهم الأمير أبو القاسم أحمد ، فلما دخل القاهرة تلقاه السلطان الظاهر بيبرس وبايعه بالخلافة عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م ولقب بالمستنصر ، ثم أرسله السلطان بيبرس على رأس جيش لقتال المغول فقتل ، فبايع السلطان أميرا آخر من بني العباس وهو أبو العباس أحمد ولقب بالحاكم بأمر الله. وفي عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م حبسه السلطان في أحد أبراج القلعة ومنعه من التحدث مع الناس وصار كالمسجون نحو سبعة وعشرين عاما ، وهي عبارة عن ما تبقى من سلطنة الظاهر بيبرس حتى نهاية سلطنة المنصور قلاوون ، فلما ولي ابنه الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة أفرج عنه عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ، وبعد ذلك بأربعة أعوام حبسه بالبرج مرة أخرى ومنع الناس عنه حتى تسلطن المنصور لاجين[١] فأفرج عنه عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م ثم توفي بعد بضع سنوات . وقد علق المقريزي على ذلك بقوله : « فكانت خلافته مدّة أربعين سنة ليس له فيها أمر ولا نهي إنما حظه أن يقال أمير المؤمنين »...ثم بويع بالخلافة ابنه أبو الربيع سليمان ولقب بالمستكفي عام ٧٠١هـ/ ١٣٠٦م ثم سجنه السلطان الناصر محمد بن قلاوون خمسة أشهر ثم أفرج عنه ونفاه إلى قوص عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م وقطع راتبه وقرر له ما يتقوت به حتى توفي بعد ثلاثة أعوام[٢]...فهذه هي الخلافة التي أحياها المماليك ، لا تزيد عن كونها مظهرا ، بل أصبح منصب الخليفة ممتهنا ، فتارة يسجن وتارة ينفي ، ولم يكن سائر الخلفاء العباسيين في القاهرة بأفضل حالا من المذكورين على سبيل المثال :

١- في عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م بعد سلطنة المنصور علي عوضا عن أبيه المقتول السلطان الأشرف شعبان ، وكان عمره ثمان سنوات . غضب أتابك العسكر الأمير أينبك على الخليفة

---

(١) تنطق لاتشين .

(٢) تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ٤٢٣) .

المتوكل على الله محمد فعزله ثم نفاه إلى قوص ثم أعاده إلى منصبه بعد أيام[١].

٢- في عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م قام السلطان برقوق بعزل الخليفة المتوكل على الله محمد وسجنه ، وبايع الأمير عمر بن إبراهيم بالخلافة ولقب بالواثق ، ثم في عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أعاد السلطان برقوق المتوكل إلى الخلافة مرة أخرى[٢].

٣- في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م قام السلطان المؤيد شيخ بنقل الخليفة المستعين وأهله إلى القلعة ، ومنع الناس من التحدث إليه . وفي العام التالي خلعه وبايع أخاه داود بالخلافة ولقب بالمعتضد ، وظل المستعين محترزا عليه بالقلعة حتى عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م أرسل إلى الإسكندرية وسجن بها[٣].

٤- وفي عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م قام السلطان الأشرف إينال بخلع الخليفة القائم بأمر الله حمزة ثم نفاه إلى الإسكندرية . وبايع أخاه يوسف بالخلافة ولقب بالمستنجد[٤].

مما سبق يتضح أن الخلفاء العباسيين في القاهرة كانوا ألعوبة في يد سلاطين المماليك ، ولعلك تدرك مدى المهانة التي كانوا عليها من الواقعة التالية ، عندما أمر السلطان قانصوه الغوري الخليفة المتوكل على الله بأن يجهز نفسه للسفر معه إلى حلب عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ولم يرسل له نفقة السفر ، فلم يدر الخليفة ما يفعل حتى اضطر أن يقترض من بعض الأمراء بفائدة وتراكمت الديون عليه[٥] ، فقد كان الخليفة لا حول له ولا قوة . والآن يا أساتذة التاريخ هل هذه هي الخلافة التي تبكون عليها .؟! هل هذا هو الأصل في الخليفة ، ألا يكون له أمر نافذ ولا وعد ناجز .؟! أليس الأصل في الخليفة أن يكون نائبا عن رسول الله ﷺ في القيام بأمر الدين ورعاية شئون المسلمين .؟! أولما جاءنا رجل همام وفارس صمصام يوحد

---

(١) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة (٣/ ٥٤٣) ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٢٣١) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٣١) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ١٢٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٠) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ١٥٣ ، ٢١٨) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ٧٣ ، ١١٥ ، ٢٠٥) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٣٣٩ ، ٣٥٧ ، ٤٢٣) .

(٤) جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦/ ١٩٤) .

(٥) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٣ ، ٣٠) .

المسلمين ويعيد للخلافة مجدها القديم ، وهو السلطان ياووظ سليم ، صار عندكم مذموما .؟! ألأنه تركي وليس بعربي .؟! يا لها من عصبية جاهلية منتنة ، بفرض أنه لم يكن ليمكن أن ينصلح حال الخلافة وتعود إلى سابق عهدها إلا بأن تخرج من مصر ويتولاها سلطان عظيم من العثمانيين ، فتعود الخلافة لتكون السلطة العليا التي تحكم جميع بلاد المسلمين كما كانت في أيام الراشدين والأمويين والأوائل من العباسيين ، أتراكم يا أساتذة التاريخ كنتم تفضلون هذه الخلافة الضعيفة المهينة على تلك الخلافة العثمانية المهيبة .؟! لا لشيء سوى لأن تتفاخروا بأن مصر هي دار لها ، ما لكم كيف تحكمون .؟! أولو كان رجل من أهل مصر أو حتى سلطان من المماليك هو الذي وحد المسلمين وضم بلادهم وتقلد الخلافة ، لكنتم هللتم له وأثنيتم عليه وخلعتم عليه الألقاب ورفعتم ذكره فوق السحاب .؟!

يا لها من عصبية جاهلية منتنة ، عسى الله أن يطهر قلوب المسلمين منها .. أين أنتم من سلمان الفارسي ﷺ إذ قال :

أبي الإسلام لا أب لي سواه	إذا افتخروا ببكر أو تميم
بدعوى الجاهلية لم أجبهم	ولا يدعو بها غير الأثيم

إن منهجكم هذا يا أساتذة التاريخ لهو منهج فاسد وهو حجة عليكم ، لأن الذي فعله السلطان سليم الأول قريب جدا مما فعله صلاح الدين الأيوبي عندما كان وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد في مصر ، فقام بالقضاء على خلافتهم الفاطمية ودعى للخليفة العباسي في بغداد المستضيء بالله في أول جمعة من عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ، وأصبح ملكا على مصر ونائبا عن السلطان نور الدين محمود . وبفضل هذه الوحدة التي تمت بين مصر والشام والعراق تحت قيادة رجل واحد هو السلطان نور الدين محمود ، ثم من بعده السلطان صلاح الدين بن أيوب ، وتحت راية الخلافة العباسية ببغداد ، تم استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، فهذه حقيقة تاريخية لا يمارى أحد فيها ، وجميعكم يا أساتذة التاريخ مجمعون عليها ، وتعدون ذلك من مناقب صلاح الدين ، فإن كان الأمر كذلك أليس لقائل أن يتمثل منهجكم الفاسد ويلقي باللائمة على صلاح الدين الأيوبي فيقول ، أنه قضى على الخلافة الفاطمية في مصر التي دامت أكثر من قرنين من الزمان ، فأصبحت مصر تابعة لدولة الخلافة بعد أن كانت مقرا لها ، إلى آخر

هذا الكلام الذي لا يسوى الحبر الذي كتب به .؟! في الحقيقة إنكم لن تستطيعوا أن تردوا عليه . وستقفون أمامه مبلسين ، أتدرون لماذا .؟ لأن الحق ليس له إلا ميزان واحد ، فعليكم أن تزنوا عمل السلطان سليم بنفس الميزان الذي وزنتم به عمل السلطان صلاح الدين .. لقد أحصرتم يا أساتذة التاريخ فأنتم بين حالين لا ثالث لهما ، إما أن تنكروا على صلاح الدين عمله ، وهذا باطل بلا ريب ويناقض الإجماع ولم يقل به أحد من علماء المسلمين إلا الرافضة والمبتدعين . أو أن تقدروا السلطان سليما حق قدره وتحمدوه على فعله وهو الحق والصواب . أما أن تكيلوا بمكيالين لموافقة العصبية الجاهلية المنتنة ، فليس هذا من فعل المحققين المدققين ، بل هو من فعل المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون .

ثانيا : السلطنة

أما بشأن زوال السلطنة من مصر ومن ثم تبعيتها للدولة العثمانية بعد أن كانت سلطنة مستقلة . فلنا في ذلك أربع مسائل :

الأولى : إن الأصل في الإسلام أن يجتمع المسلمون على خليفة واحد لما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا** »[1].

ولما رواه عرفجة بن شريح ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ** »[2].

فالأصل أن المسلمين يجتمعون في كيان سياسي واحد ومن أراد أن يفرقهم يقتل ، لذلك فإن انفراد مصر بسلطنة وتونس بسلطنة واليمن بسلطنة الخ إنما كان استثناء وخرقا للقاعدة ، فلما جاء السلطان سليم الأول رحمه الله رتق هذا الخرق وأصلح هذا الخطأ وجمع المسلمين على

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٨٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٨) ، الطبراني في المعجم الكبير نسخة إلكترونية ضمن المكتبة الشاملة الإصدار الثاني (١٩/ ٢٢٦) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١١) ، مسند شهاب الدين القضاعي (١/ ٤٤٧) .

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٧٩) ، أبو داود (٤/ ٢٤٢) ، النسائي في السنن الكبرى (٢٣/ ٤٢٨) ، أحمد (٣١/ ٣٣٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٩١) ، أبو بكر بن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣١٥) ، أبو عبدالله الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٩) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٤٣) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١١) ، أبو حاتم ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٥٥) ، أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٥٥١) .

إمام واحد ، ولقد ذكرنا قول **مرعي بن يوسف الكرمي** في ذلك الشأن فيسحن بنا أن نعيده في هذا المقام فقد قال عن حال المسلمين : « كانوا بعد اضمحلال الخلافة (العباسية) إقليم مصر والشام لسلطان وبغداد لسلطان واليمن لسلطان وتونس لسلطان والمغرب وأعمالها لسلطان والروم لسلطان ... توزعت الملوك الأقاليم وتفرقت كلمة المسلمين بكثرة تعداد السلاطين ، لكن الله تعالى من لطفه بهذا الدين قد جمع غالب ما تفرق من كلمة المسلمين بالسلاطين العثمانيين وقد جمع بهم للمؤمنين بين العلا والرفعة والتمكين »[1].

الثانية : هذه السلطنة المملوكية كانت قد بلغت من التدهور حدا كان مؤذنا بزوالها ، والسبب في ذلك هو تفشي الظلم ، وهذا هو السبب الرئيس الذي تفرعت عنه جميع الأسباب التي ذكرها أساتذة التاريخ في كتبهم ، ومن القواعد الذهبية التي أصلها علماء المسلمين وتواترت على ألسنة الحكماء : (**أن الملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم**) ، فالكافر إن كان عادلا قد يدوم ملكه . أما المسلم إن كان ظالما فحتما سيزول ملكه ، وفي عهد السلطان قانصوه الغوري تجاوز الظلم والخروج على شرع الله تعالى حده ، وقد ذكرنا شيئا من مظالم الغوري ، ونضيف إليها ما ذكره ابن إياس في أحداث جمادى الأولى عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م عن علي بن أبي الجود الذي ولاه السلطان أغلب المصالح الداخلية المالية والإدارية **قال ابن إياس** : « فاجتمع فيه وكالة بيت المال ونظر الأوقاف وبردددارية السلطان ، وتكلم في ديوان الوزارة والإستادارية وديوان الخاص وغير ذلك من الوظائف ، فاجتمعت فيه الكلمة وتصرف في أمر المملكة بما يختار ... فأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية حتى فاق هناد الذي أحدث المظالم ... وفي هذه الأيام تزايد ظلم علي بن أبي الجود حتى شاع ذكره في بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وفي بلاد الشرق من ديار بكر وغير ذلك من البلاد بسبب مصادرات تجار الأروام وجوره عليهم »...ويرجع **ابن إياس** السبب في ذلك إلى : « كان السلطان قرر على علي بن أبي الجود في كل شهر اثني عشر ألف دينار يردها على الجوامك ليس تحتها جهة من الجهات ، وإنما هي من أبواب المظالم ، فطاش ابن أبي الجود في تلك الأيام إلى الغاية وعادى أرباب الدولة قاطبة من أمير ومباشر وغير ذلك ، حتى ملوك الشرق لأجل تجار الأروام

---

(١) مرعي بن يوسف الكرمي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان (ورقة ٩ ، ١٠) .

مما يشكون منه من كثرة المصادرات لهم »[1].

وقد تواتر أساتذة التاريخ على اعتبار أن خراب التجارة في مصر وفقدان مصر لأهم مصادر دخلها كان بسبب اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح واستئثارهم به وإغلاقهم لطريق التجارة القديم عبر البحر الأحمر ، فأغلب أساتذة التاريخ يذكرون ذلك[2] ، وهذا الكلام فيه نظر. فالصواب أن سلاطين المماليك الجراكسة هم الذين أفسدوا التجارة بأن ضيقوا على التجار واحتكروا بعض الأصناف وألزموا التجار الأوروبيين بشرائها بأثمان باهظة ، فبارت التجارة في الموانئ والثغور . ثم جاء إغلاق البرتغال للبحر الأحمر وتحويل التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح فقضى على البقية الباقية من التجارة الخارجية . ولكن كثيرا من أساتذة التاريخ يغفلون دور طمع وفساد سلاطين المماليك الجراكسة في إفساد التجارة ويلقون باللائمة على البرتغال وحدهم. والحق أن مظالم المماليك الجراكسة قد فاقت الحد الذي يحتمله التجار . فمن ذلك :

١- ما ذكره ابن حجر العسقلاني في أحداث عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م ، من أن قنصل جنوه قد هرب من الإسكندرية وسائر التجار من جنسه ، وفي ذمتهم لتجار المسلمين أكثر من عشرين ألف دينار . وذلك بسبب ما تعرضوا له من مظالم بالرغم من أن إقامتهم كانت قد طالت بالإسكندرية حتى أن أكثرهم إنما ولد بها[3].

٢- وفي عهد السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م كان سعر الحمل من الفلفل الوارد من الهند والمعد للبيع لتجار الإفرنج - أظنهم من البنادقة - ثمانين دينارا . فمنع السلطان التجار من البيع وألزم التجار الإفرنج بأن يشتروا بضاعته أولا بسعر مائة وعشرين دينارا للحمل . فأخذ التجار الإفرنج قدر طاقتهم من فلفل السلطان ولم يشتروا شيئا من سائر التجار . كما أنهم امتنعوا عن بيع بضائعهم للتجار المصريين[4].

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٤ ، ٤٥) .

(٢) د.عبد المنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٩ ، د.السيد الدقن : السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني (ص ١٠٢ ، ١٠٣) ، د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢٠٣) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٨/ ١٧١) .

(٤) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء النمر بأبناء العمر (٨/ ١٧٤) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ١٨٥) .

٣- في عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م احتكر السلطان الأشرف برسباي تجارة الفلفل والبهار ، وألزم جميع التجار أن يبيعوه ما عندهم منه بخمسين دينارا للحمل وأمر ألا يبيعه أحد للتجار الإفرنج إلا هو[١].

٤- وقد استمر هذا الحال لعدة سنوات حتى أن ملك الكتلان أرسل إلى السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م يشكو من إلزام تجار بلادة شراء الفلفل من ديوان السلطان . وقد ذكر ابن تغرى بردى أن ملك الكتلان قال في رسالته أن التجار من رعيته لن يشتروا من السلطان ولا من رجال دولته شيئا . وإنما سيشترون من التجار فحسب[٢].

٥- ولكن يبدو أن ذلك التهديد من ملك الكتلان لم يجد نفعا ، ففي عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م منع التجار أيضا من البيع للفرنج وألزمهم السلطان بشراء الفلفل من عنده[٣].

ويبدو أن المظالم على التجار قد خفت وطأتها بعد وفاة الأشرف برسباى حتى جاء قانصوه الغوري واستعمل على الناس على بن أبى الجود ، فأخرب التجارة بالثغور . قال ابن إياس في أحداث جمادى الأولى عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م : « جار على الناس بالظلم حتى أخرب ثغر الإسكندرية ودمياط وبندر جدة وغير ذلك من الثغور بسبب مصادرات التجار فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ »[٤]...ومن ذلك يتبين أن التجارة الخارجية في مصر كانت كاسدة من عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م أي قبل سيطرة البرتغال على التجارة في الهند . فوفقا لما ذكره زين الدين المعبري الهندي أن البرتغال وصلوا إلى الهند كتجار في عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م ثم بدأ يزداد نفوذهم شيئا فشيئا وفي عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م عظم شأنهم جدا وتعرضوا لمراكب المسلمين[٥].

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٨/ ٢٥٤) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٢٣٤) .

(٢) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٢٦٧) ، جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٤/ ٣٦٦) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٨/ ٣٤٨) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ٢٨٢) .

(٤) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٤ ، ٤٥) .

(٥) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٢٣ ، ٢٤) .

وقد ذكر ابن إياس أنهم دخلوا بحر الحجاز (البحر الأحمر) أواخر عام ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م ومنعوا مراكب التجار المسلمين . وقد ذكر في أحداث عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أن البضائع لها ست سنوات لم ترد من الهند إلى جدة[1]. أي منذ عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م . بينما ذكر ابن إياس بوضوح أن التجارة كانت كاسدة في مصر وأن الثغور كانت خربة بسبب المظالم منذ عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م . ومن ذلك يتبين أن السبب الأول في كساد التجارة الخارجية في مصر هو مظالم سلاطين المماليك الجراكسة قبل تحويل التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح . بل إن الأرجح هو أن مظالم السلاطين في حق التجار هي التي زادت من إصرار الأوروبيين على تكرار محاولات الالتفاف حول إفريقيا ، والتي كانت قد بدأت من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وذلك بدوافع صليبية وتجارية ، وقد صرح بذلك فاسكو دي جاما مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح في رسالته لملك البرتغال : « جئت إلى الهند من أجل البهارات ومن أجل المسيحية »[2].

الثالثة : فساد الأحوال السياسية في دولة المماليك الجراكسة ، فإن الفتن الداخلية بسبب الصراع على السلطنة كان السمة الأساسية لها . وسأذكر بعضها سريعا دون الخوض في التفاصيل لضيق المقام :

١- خروج يلبغا الناصري نائب حلب ومعه منطاش نائب ملطيه على السلطان الظاهر برقوق ، فاستولى على الشام كله عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م ثم استولى على مصر وطرد برقوق منها منفيا إلى الكرك . ثم تغلب منطاش على يلبغا وحبسه واستتب له الأمر في مصر . ثم هرب برقوق من الكرك وجمع عساكره وبدأ في قتال منطاش فلم يتمكن من القضاء عليه . ثم تولى السلطنة للمرة الثانية وعاد إلى مصر وظل القتال دائرا بينه وبين منطاش حتى قبض عليه وقتله عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م .

٢- في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م توفي الظاهر برقوق وتسلطن ابنه الناصر فرج ، فخرج عليه في العام التالي الأمير أيتمش أتابك العسكر ومعه بعض الأمراء . ووقع قتال كبير فهزم

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ١٠٩ ، ٣٥٩) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٧٠٤) .

إيتمش وفر إلى الشام فدخل في طاعته أمراء الشام ، فخرج إليهم الناصر فرج بجيشه لقتالهم فهزم أيتمش ومن معه وقتل عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م .

٣- وفي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م ثار الأمير يشبك الدوادار في القاهرة ووقع القتال بينه وبين الناصر فرج فهزم يشبك وسجن .

٤- وفي عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م كان عصيان جكم ، فاستولى على حلب وتبعه شيخ نائب دمشق ، ونوروز . فخرج الناصر فرج لقتالهم فهزموه وعاد إلى القاهرة في حالة شنيعة . وصار العصاة يحكمون على الشام كله . والسلطان يحكم على مصر فقط . وظل جكم في حلب حتى أعلن نفسه سلطانا عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م ثم قتل في نفس العام في إحدى المعارك مع التركمان .

٥- ظلت الفتن بين شيخ ونوروز والسلطان الناصر فرج لبضع سنوات ، وقد خرج الناصر لقتالهم أكثر من مرة ، حتى ظفروا به في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م. وحاصروه داخل قلعة دمشق ثم قتلوه . وتولى شيخ السلطنة ، ثم وقع الخلاف بينه وبين نوروز وتقاتلا بالشام فانتصر شيخ عام ٨١٧هـ/ ١٤١٤م.

٦- في عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢٢م توفي السلطان المؤيد شيخ وبويع ابنه المظفر أحمد بالسلطنة ، فعصى جقمق نائب الشام فخرج الجيش لقتاله فهزم .

٧- وفي عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م أعلن تغرى برمش نائب حلب العصيان وكذلك إينال الجكمي نائب دمشق ، فأرسل السلطان الظاهر جقمق جيشا لقتالهما فهزموا إينال ثم تغرى برمش .

٨- في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ثار بعض الأمراء المماليك على السلطان المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، ووقع القتال بالقاهرة لبضعة أيام وقتل فيه عدد كبير ، وانتهى بخلع المنصور عثمان وتولية الأشرف إينال .

٩- في عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م ثار بعض الأمراء على السلطان المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ووقع القتال بالقاهرة ، فانتهى بخلعه وسلطنة الظاهر خشقدم .

١٠-في عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م ثار بعض الأمراء على السلطان الظاهر يلباي ، ووقع قتال عنيف داخل القاهرة انتهى بخلعه . ولم تدم سلطنته سوى ستة وخمسين يوما . ثم تولى من بعده الظاهر تمربغا فخلع هو الآخر بعد ثمانية وخمسين يوما وتولى السلطنة الأشرف قايتباي .

١١- في عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م ثار الأمير قانصوه خمسمائة على السلطان الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وحاصره بالقلعة ووقع القتال ثم هزم وانسحب .

١٢-ثم ثار في نفس السنة الأمير آقبردى وحاصر القلعة قرابة الشهر ، ووقع قتال عنيف بالمدافع والمكاحل قتل فيه خمسون أميرا على رأسهم تمراز الشمسي وكرتباي . ثم هزم آقبردي وتوجه بجنوده إلى الشام فحاصر دمشق شهرا ثم حلب شهرين ، فأرسل له السلطان جيشا لقتاله . وقد استمر القتال طوال عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م . ثم قام بعض الأمراء باغتيال السلطان الناصر في العام التالي . وتسلطن خاله الظاهر قانصوه .

١٣-وفي عام ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م أعلن قصروه نائب الشام العصيان . ثم اتفق الأمراء على عزل الظاهر قانصوه ، فحاصروه بالقلعة واستمر القتال ثلاثة أيام حتى استولوا على القلعة فهرب قبل أن يقبضوا عليه ، ثم تسلطن الأشرف جان بلاط .

١٤-وفي عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م تحالف الأمير طومان باي مع قصروه نائب الشام العاصي ، وجاءوا إلى القاهرة بجنودهم وحاصروا السلطان الأشرف جان بلاط بالقلعة . ووقع القتال لبضعة أيام حتى استولوا عليها وقبضوا على السلطان وسجنوه بالإسكندرية بعد سلطنة دامت ستة أشهر . ثم تسلطن العادل طومان باي .

١٥-وفي نفس العام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ثار الأمراء على السلطان العادل طومان باي وحاصروه بالقلعة ، ووقع قتال هين فلما لاحت له الهزيمة هرب بعد سلطنة دامت مائة يوم ثم تسلطن بعده الأشرف قانصوه الغوري .

كان هذا عرضا سريعا للحياة السياسية ولكيفية تداول الحكم في دولة المماليك الجراكسة . فلا يموت سلطان أو يخلع إلا ويثور الصراع بين الأمراء على منصبه ، ثم يتحول إلى قتال ثم يستقل العصاة بالشام ويستمر القتال بين جناحي السلطنة (الشام ومصر) . ويتكرر ذلك في كل مرة تقريبا . فقد كان عدم الاستقرار هو السمة الأساسية في دولتهم . ثم ترى أن كل سلطان يتبنى سياسة التخلص من مماليك من سبقه قتلا أو سجنا أو نفيا ليأمن غائلتهم . ومن مفاسد الفتن بصفة عامة :

١ - فقدان أكابر أمراء المماليك قتلا أو سجنا ، مما أضعف الجيش والهيكل الإداري للدولة .

لأن هؤلاء الأمراء أنفسهم كانوا يتولون المناصب الإدارية من نواب وكشاف للأقاليم . فمنهم من قتل في المعارك مثل منطاش ونوروز واينال الجكمي وتغرى وبرمش وتمراز الشمسي وكرتباي[١] وغيرهم . وقد كان كل سلطان يتتبع الأمراء الذين شاركوا في العصيان ليتخلص منهم . ومثال ذلك قتل الظاهر برقوق كلا من صري تمر نائب الغيبة لمنطاش ، وتكا الأشرفي ، ودمرداش اليوسفي ، ودمرداش القشتمري ، وعلى الجركتمري ، وجنتمر أخو طاز الذي كان نائب الشام في أيام منطاش ، وتقطاي الطواشي الرومي أحد الشجعان ، ضربت رقابهم بالصحراء ظاهر القاهرة[٢].وغير هؤلاء في سنوات مختلفة مما يضيق المقام عن ذكرهم فمن شاء التفصيل فيرجع إلى المصادر[٣].

٢- إهدار الأموال في الإنفاق على الحروب الداخلية مما يحمل السلاطين على جباية الأموال من الرعية بشتى أنواع المظالم . ومن ذلك ما فرضه الظاهر برقوق على الأوقاف لتمويل الحرب مع منطاش . **قال ابن قاضي شهبة** : « طلب من مال الأوقاف مال لمساعدة العسكر ، وطلب من القضاة جمع مبلغ خمسين ألف درهم ، ففرضوها على أوقاف المدارس . فقرر على أوقاف الشافعية النصف وعلى الحنفية سبعة عشر ألفا وعلى المالكية ثلاثة وخمسة على الحنابلة »[٤].

٣- تدمير المنشآت الداخلية من مساجد ومدارس بسبب الحروب داخل المدن . ففي فتنة منطاش احترق بدمشق حكر السماق وجامع تنكز والمدرسة الشامية البرانية[٥]. وقام الناصر فرج بهدم مدرسة الأشرف شعبان بالقاهرة عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م **قال ابن حجر** : « أمر السلطان بهدم مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التي على باب القلعة . وجد الهدم فيها وكانت من أعظم الأبنية ... لأن المتغلبين صاروا يستعينون بها على حصار القلعة بالنزول فيها فهدمها »[٦].. وفي

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ١٥٥ ، ٧/ ١٤٥ ، ٩/ ٦٧، ٧٥) ، محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٣٧١ ، ٣٧٣) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٣/ ٧٢) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٢/ ٢١٣ ، ٣٣٥ ، ٧/ ٤٣٠) ، محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٢/ ٣٠٣ ، ٤/ ٣٣٥ ، ٣٣٨) وغير ذلك في سائر المصادر .

(٤) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : مخطوط بمعهد المخطوطات العربية. ميكروفيلم رقم (٩٩/ ٢. ج٢ ورقة ٦٦)

(٥) تاريخ تقي الدين بن قاضي شهبة : (ج٢ ورقة ٦٦) .

(٦) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغدر بأبناء العمر (٧/ ٢٥) .

عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م في فتنة آق بردى احترق سبيل المؤمنين وربع خشكلدى البيسقي ، وربع الأمير يشبك ، ونهبت قبة مدرسة السلطان حسن ، ونهب شبابيكها ورخامها وقناديلها[1].

٤- سوء الأحوال الداخلية بسبب غياب السلاطين في الحروب في البلاد الشامية والحلبية . ومن ذلك ما حدث في أيام السلطان المؤيد شيخ عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م حينما كان بالشام لقتال نوروز ، إذ قام أحد أصحاب الأمر باحتكار الغلة فارتفع ثمنها حتى وصل سعر الأردب ثلاثمائة درهم . ونقص الخبز من الأسواق وتزاحم الناس عليه . وقد قال **ابن حجر** : « وصار الذي من شأنه أن يكتفي بعشرة أرغفة لو وجد مائة لاشتراها لما قذف في قلوبهم من خشية فقده . وصار من عنده شيء من القمح يحرص على أن لا يخرج منه شيئاً خشية أن لا يجد بدله ...وتعطل غالب الأسواق من البيع والشراء بسبب اشتغالهم في تحصيل القوت . لأن بعضهم كان يتوجه إلى الأفران من نصف الليل ليحصل له من الخبز » . وظل الأمر كذلك حتى وصل سعر الأردب في نهاية العام إلى ثمانمائة درهم للأردب[2].

٥- انصراف السلاطين عن السياسة الخارجية لانشغالهم بتدعيم ملكهم داخليا ، وتتبع الخارجين عليهم والمناهضين لهم في داخل البلاد . فانكفأت السلطنة على نفسها حتى دهمها البرتغال في عقر دارها .

٦- أخطر مفاسد الفتن ، إذ اضطر السلاطين لتعويض الخسائر في الجنود والأمراء إلى جلب مماليك سنهم كبير . وقد لاحظ **ابن طولون** في عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م أن المماليك الذين جلبهم الغورى من بلاد الجركس كان غالبهم كبار بذقون[3]. وفي هذا خروج على القاعدة إذ أن العادة كما هو معلوم ، أن المماليك كانوا يجلبون من بلادهم صغار السن في حدود عشر سنوات ، فيتلقون العلوم الشرعية وتتأصل فيهم الثقافة الإسلامية ثم يدربون على الفروسية وفنون القتال . ولكن فقدان الكثير من الجنود والأمراء في الفتن الداخلية والحاجة إلى سرعة تعويض هذا النقص حمل السلاطين على أن يجلبوهم كبارا ليدخلوا الخدمة مباشرة . فهؤلاء

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٣/ ٣٧١) .
(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤) .
(٣) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٢٥٦) .

أشبه بالمرتزقة ممن يقاتلون من أجل المال ، لا عن عقيدة راسخة . وقد ظهر ذلك بعد مقتل قانصوه الغوري في مرج دابق . إذ أراد السلطان طومان باي أن يرسل حملة لقتال السلطان سليم في غزة فرفض الجنود الخروج إلا أن يدفع لهم مالا كثيرا . فلما شد عليهم طومان باي قالوا له : « ما نخرج ولا نسافر حتى تنفق علينا ثمن جمل ستة أشرفية وتصرف لنا العليق واللحم المنكسر »...حتى اضطر السلطان أن يستثير حماسة الأمراء فقال لهم : « اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار »...وقد قال **ابن إياس** : « نفق[١] (طومان باي) عليهم لكل مملوك ثلاثين دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا . فأرموا تلك النفقة في وجهه وقالوا : ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك »...وكان آخر الأمر أن تكاسل الجنود في الخروج إلى غزة فاضطر جان بردى الغزالي أن يسد النقص في عدد الجنود بجمع من العربان[٢].

يتبين من هذا العرض السريع للأحوال في دولة المماليك الجراكسة سوء أحوال الهيئة السياسية والعسكرية والإدارية وسوء الأحوال الاقتصادية . وكنا تحدثنا من قبل عن فساد الهيئة القضائية . ويضاف إلى ذلك ضيق حال الرعية بسبب المظالم المتعددة التي أثارت تعجب سفير دولة الآق قويونلو ، الذي دخل الشام في زمن السلطان قايتباي كما ذكره **ابن طولون الدمشقي** : « وقد كان حادثه الريس شمس التيزيني فوجده يشكر قايتباي على إحسانه لكنه يستعجزه ، لكونه يدع مماليكه بمصر وغيرها يظلمون الناس ، ولكثرة خراب البلاد بسبب الظلم فالله يحسن العاقبة »[٣]...وقد شهد به أمراء المماليك أنفسهم لما أنكروا على السلطان الغوري ظلم الرعية . وقد ذكره **ابن إياس فقال** : « حصل في ذلك اليوم بين السلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه في الكلام ، وقالوا له : يا مولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه وضربت له السكة باسمه ، وشرع في بناء برج عند عقبة بغراص وآخر على باب الملك . والسلطان يده في الماء البارد

---

(١) كذا بالأصل والصواب أنفق .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور : (٥/ ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٩) .

(٣) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٦٩ ، ٧٠) .

وفسدت أحوال المملكة وغالب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم بيميلوا إلى ابن عثمان لأجل عدله في الرعية وهذه الأحوال غير صالحة »[1].

قلت : ها قد شهد أمراء المماليك أنفسهم بالظلم الواقع على الرعية وبعدالة السلطان سليم فيهم . وقد ظهر ذلك على أرض الواقع لما رفض أهل حلب إدخال الجنود المماليك المهزومين في مرج دابق إلى البلد وطردوهم ثم فتحوا أبوابها للسلطان سليم كما ذكرنا ... ثم شهد أمراء المماليك على أنفسهم مرة أخرى عند مبايعة طومان باي بالسلطنة بعد مقتل الغوري في مرج دابق . إذ قال لهم الشيخ أبو السعود الجارحي : « إن الله تعالى ما كسركم وذلكم وسلط عليكم ابن عثمان إلا بدعاء الخلق عليكم في البر والبحر . فقال له الأمراء : تبنا إلى الله تعالى عن الظلم من اليوم »[2]...وفي الوقت الذي كان فيه سلاطين المماليك يظلمون الرعية ويصادرون تركات المتوفين ويعتدون على أموال الأوقاف كان الحال في الدولة العثمانية على النقيض من ذلك . إذ يحدثنا المؤرخ التركي يلماز أوزتونا من واقع وثيقة رسمية أنه تمت مصادرة مجوهرات الأميرة عائشة الابنة الكبرى للسلطان بايزيد الثاني وأخت السلطان سليم الأول لصرفها فقط مبلغ خمسة وعشرين ألف آقجه . وقد كانت هذه المجوهرات أهداها لها جدها السلطان محمد الفاتح بمناسبة زواجها[3]...وفي الوقت الذي كانت فيه الهيئة القضائية في السلطنة المملوكية فاسدة ، إذ يدفع القضاة الرشا لتولي القضاء ، ثم يأخذون الرشا على الأحكام . كان القضاء في الدولة العثمانية على النقيض من ذلك . وقد ذكرنا أن القاضي شمس الدين الفناري رد شهادة السلطان يلدرم بايزيد لما مثل بين يديه للشهادة لأنه لم يكن يحافظ على صلاة الجماعة . فما كان من السلطان إلا أن بنى مسجداً ولم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك[4]...وفي الوقت الذي كان فيه القضاة في السلطنة المملوكية يصدرون الفتاوى وفقا لأهواء السلاطين ، كما حدث في زمن الأشرف برسباي عندما أنكر شاه رخ بن تيمورلنك على السلطان برسباى أخذه المكوس من تجار الصين الذي يصلون إلى جدة . فكتب القضاة

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٤٦٣) .
(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٨٦) .
(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٥٥) .
(٤) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٩) .

الأربعة فتوى تجيز ذلك إن كان يصرف في المصالح بعد أن ادعوا أن التجار هم الذين عرضوا دفع هذا المال مقابل حماية السلطان لهم . وقد علق المقريزي على ذلك بقوله : « انطلقت الألسنة بالوقيعة في القضاة وأنهم اعتادوا إتباع أهواء الملوك خوفًا على مناصبهم أن يعزلوا منها وأن هذه الفتوى بهذه الحادثة من جنس ما تقدم من الفتاوى في قرقماس يخشي بك وإيمان المماليك ... فإن كل أحد يعلم أن ذلك كله مكس لا يحل تناوله ولا الأكل منه ، وأن الآكل منه فاسق لا تقبل شهادته لسقوط عدالته . ولكن الهوى يعمي ويصم . وما كفتهم وما أغنتهم هذه الحالة حتى بعثوا بالفتاوى فقرئت بالمسجد الحرام على رؤوس الأشهاد ليقضي الله أمرا كان مفعولا »[1].

قلت : أين هؤلاء القضاة الأربعة من شيخ الإسلام المولى الجمالى الشهير بـ « زنبيللي » وأين هذا السلطان المملوكي من السلطان سليم الأول رحمه ال له. إذ أن السلطان سليما أراد أن يكره النصارى في الدولة على الدخول في الإسلام فرفض شيخ الإسلام ذلك وقال في فتواه : « علينا حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم كما نحفظ أنفسنا وأموالنا وأعراضنا ما داموا قد قبلوا بذمتنا . وإكراههم على ديننا خلاف شريعتنا »[2]. فما كان من السلطان سليم إلا أن التزم حكم الشريعة الإسلامية مخالفا رأيه وهواه . إن عقد مقارنات بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية في زمن الفتح العثماني لمصر يحتاج إلى مصنف مستقل . ولكن بالجملة نقول إن دولة كدولة المماليك الجراكسة كان ينبغي لها أن تزول ، ودولة كالدولة العثمانية كان ينبغي لها أن تبقى وتسود . فإن كان الأمر كذلك فعلام تبكون يا أساتذة التاريخ .؟! هل بقيت للمماليك دولة بعد أن فسدت جميع نواحي الحياة في عهدهم .؟! في الواقع إن الأمور ملتبسة عند أغلب أساتذة التاريخ في هذه المسألة . فهم يصورون لنا أن سلطنة المماليك التي أزالها العثمانيون كانت تمثل عهد الرخاء والعزة والسيادة والعلم . وهذا باطل كما ذكرنا آنفا . أما قولهم أن مصر كانت آنذاك قلب الإسلام وقبلة المسلمين . فكل ذلك كان من المظاهر العارية عن الحقيقة التي انخدع بها أغلب أساتذة التاريخ أو تخادعوا لها على الأرجح . إذ أنهم استدلوا

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٣/ ٤٥٥) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٥٩٧) .

على ذلك بأن بعض سلاطين المسلمين في الهند وغيرها كان يسعى للحصول على تقليد من الخليفة المقيم بالقاهرة . ولا ريب أن ذلك كان من باب التفاخر لا غير أو لإضفاء نوع من الشرعية على حكمه في وجه خصومه . لأن الخليفة كما ذكرنا لم يكن يملك من أمر نفسه شيئا فضلا عن أن يولي سلطانا هنا أو هناك . ثم يفترض فيمن يملك القدرة على التولية أن يملك القدرة على العزل . والخليفة لم يكن يملك أن يعزل السلطان المملوكي الذي يقيم بجواره في القاهرة فضلا عن أن يعزل سلطانا في الهند . أما قولهم قلب الإسلام ، فقد كان هذا ركونا إلى الأمجاد القديمة ، كطرد الصليبيين من عكا آخر معاقلهم بالشام في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ، على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، وهو من دولة المماليك التركمان (البحرية). ثم لم نر لهم منذئذ عملا يسوغ لهم الحصول على هذا اللقب . أما دولة المماليك الجراكسة فلم نر لهم عملا يدل على ذلك طول المائة وثلاثة وثلاثين عاما التي حكموا فيها إلا فتح قبرس عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م . أما عن قول د.محمد أنيس (دفعت عن الشرق الإسلامي أخطارا كادت تودي به). فنقول له : بل لقد آل أمرهم إلى البوار حتى عجزوا عن تأمين قوافل الحجاج . وحماية الحجاز من البرتغال . أكان يفترض في السلطان سليم أن يبقي المماليك على الرغم من حالهم الذي وصلوا إليه بأن أصبحوا عبئا على المسلمين ، لمجرد انتصارات قديمة حققوها قبل عشرات السنين .؟! ثم نقول أين فتوحاتهم من فتوحات العثمانيين بالله عليكم . لقد قال ابن حجر عن السلطان يلدرم بايزيد : « وكان من أكبر ملوك الإسلام وأيمنهم نقيبة وأكثرهم غزواً في الكفار وكان ينكر على ملوك عصره تقاعدهم عن الجهاد وأخذهم المكوس»[1].

قلت : لقد وصف ابن حجر السلطان يلدرم بأنه أكبر ملوك الإسلام . ماذا لو عاش ابن حجر ليرى فتح القسطنطينية وفتح الصرب والبوصنه والمجر وأوكرانيا وكرواتيا واليونان وغير ذلك .؟! ما كان عساه أن يقول لو شهد ذلك .؟!

الرابعة : هي قريبة مما قلناه في مسألة الخلافة وهو أن الأصل هو توحيد المسلمين تحت حاكم واحد . وهذا الهدف قد أفنى فيه كثير من الملوك والسلاطين أعمارهم كعماد الدين زنكي ونور

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ٥٦) .

الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي . ولا أرى السلطان سليما إلا كان مقتديا بهؤلاء ، وإن كان قد تفوق عليهم جميعا بلا شك وكان عمله أشمل وأعم من أعمالهم ، رحمة الله على الجميع .
وقد تحدثنا من قبل عن جهود عماد الدين ونور الدين ، وكيف أنهما استخدما القوة العسكرية في بعض الأحيان لضم ما يتعذر ضمه سلما . وقد اقتفي أثرهما صلاح الدين الأيوبي فبينما كان حاكما على مصر باسم السلطان نور الدين ، أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه على رأس جيش لضم اليمن فنجح بعد أن وقع قتال في عدن وزبيد عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م ، وخطب فيها للخليفة العباسي وللسلطان نور الدين محمود . فتحقق كيان سياسي متحد يضم كل من العراق والشام ومصر واليمن والحجاز . وفي نفس السنة توفي السلطان نور الدين محمود وكادت البلاد أن تتفكك من جديد ، لكن صلاح الدين الأيوبي حال دون ذلك وخاض كثيرا من الحروب وضم بلادا كثيرة بالحرب كحمص وحماة وآمد ، ثم أخذ حلب بعد أن حاصرها ثلاث مرات وقاتل من بها . وقد حاصر الموصل مرتين وضرب عليها بالمنجنيق حتى رضي صاحبها بالتبعية له[١]. فهكذا استطاع المسلمون أن يستعيدوا بيت المقدس وأن يطردوا الصليبيين من الشام . ولم تكن حروب السلطان سليم الأول إلا من ذلك الباب . وقد أنقذ كثيرا من بلاد المسلمين من تسلط الصليبيين من الإسبان والبرتغاليين. فمن العجيب جدا منكم يا أساتذة التاريخ أنكم ترفعون ذكر عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين إلى عنان السماء – وهم قطعا أهل للثناء – ، ثم تبالغون في الحط من شأن السلطان سليم ، بالرغم من أنه تفوق عليهم في تحقيق الهدف الذي طالما سعوا إليه .! فعليكم يا أساتذة التاريخ أن تزنوا عمل هذا بنفس الميزان الذي وزنتم به عمل أولئك . أما أن تذموا عمل السلطان سليم لمجرد أن مركز الدولة قد انتقل من مصر إلى اصطنبول فهذه عصبية جاهلية منتنة . ثم قد يخرج عليكم يا أساتذة التاريخ أحد أرباب العصبية الجاهلية من الشام ويقول لكم ، لقد كانت دمشق وأعمالها مملكة مستقلة منذ أيام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل محمد حتى جاء المماليك فدخلوها عنوة وأصبحت تابعة لهم وأصبحت نيابة تابعة للسلطنة في مصر بعد أن كانت مستقلة .. إلخ من هذا الكلام الفاسد . فما عساكم

(١) من شاء التفصيل فليرجع إلى بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، عماد الدين الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، عز الدين بن الأثير : الكامل في التاريخ .

أن تجيبوه يا أساتذة التاريخ .؟!

ختاما أقول أن المعارك التي وقعت بين العثمانيين والمماليك لا شك أنها كانت مؤلمة أيما إيلام ، وسقط فيها فرسان شجعان وأبطال صناديد ، خسر المسلمون بفقدهم أيما خسارة . منهم سنان باشا الصدر الأعظم للسلطان سليم . ومن المماليك الأمير كرتباي والأمير علان والأمير شاد بك الأعور والسلطان طومان باي نفسه كان من أشجع القواد وأعلمهم بفنون القتال . ولقد أصاب الهم السلطان سليم لما علم أن أمراء الجراكسة في مصر سلطنوا عليهم طومان باي . قال ابن زنبل : « فقال له السلطان سليم : وأنى لي بأخذ مصر وجميع العسكر اجتمعوا بها وقد أخذوا أهبتهم وسلطنوا عليهم طومان باي وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولابد لهم من أمر يريدونه »[١]...أما الأمير شناد بك الأعور فقد كان من أقوى الفرسان وقد ذكر إبراهيم العبيدي أن الأمير خشقدم قال عنه : « قوائمه قوائم البعير وأعرض ما فيه صدره وأكتافه وأدراعه »..وقال آخرون : « رأيناه بأعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من قرونه ويجذبه ويقلبه من مكانه ويلوي قرونه بيديه فيقلبه على جنبه »[٢]...وعامة أمراء الجراكسة عرفوا بالقوة والشجاعة والفروسية . وما عانى الجيش العثماني في حرب قط مثل ما عاناه في حربه معهم . ففقدان هؤلاء الأمراء الشجعان خسارة كبرى للمسلمين بلا شك . ولكن لماذا لا تلقون باللائمة على طومان باي الذي رفض مساعي السلطان سليم لحقن الدماء . وقد أرسل إليه يقره على حكم مصر كتابع له أكثر من مرة ، ولكن طومان باي ومن معه رفضوا ذلك وأصروا على القتال فكان ما كان .

وبالجملة نقول أن ما عاناه أهل مصر أثناء العمليات العسكرية يمكن أن يكون من باب قول العامة (**وجع ساعة ولا كل ساعة**) كمثل المصل الذي يصيب الجسد بالوهن لأول وهلة ، ثم يكون بعد ذلك حصنا حصينا واقيا له من الأمراض . وقد ظل أهل مصر والشام يعانون من كثرة الفتن وعدم استقرار الحكم في دولة المماليك الجراكسة مرات عديدة وأعواما مديدة كما ذكرنا . فكان الفتح العثماني لمصر هو الدواء الناجع الذي حسم كل تلك المعاناة ،

---

(١) أحمد بن زنبل الرمال : واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني (ص ٥١) .

(٢) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان (ص ٩٣) .

وهو أشبه بالدواء المر الذي يتجرعه المريض على مراراته ليصح ويطيب بدنه . ويشهد التاريخ أن الأمور في مصر بعد الفتح العثماني ظلت مستقرة والأحوال حسنة ما يقرب من قرنين من الزمان قبل أن تبدأ الفتن الجسيمة التي وصلت إلى حد نشوب القتال داخل القاهرة والتي يصحبها غالبا سلب ونب . فحقيق علينا أن نحفظ للسلطان سليم فضله ونقول لولا الله ثم السلطان سليم لوقعت مصر فريسة في يد الصليبيين ولاستولى الإسبان على شمالها ، والبرتغال على جنوبها وشرقها ولاستولى الرافضة على الشام . ولعاني أهل هذه البلاد منذ القرن السادس عشر ما عانوه بعد ذلك في القرن العشرين على يد الأوروبيين . أما يحسب للسلطان سليم أنه أخر عنا هذا العناء ما يقرب من أربعة قرون .؟!

ومما أضطر أن أقوله وفي الصدر حزاز من الوجد حامز ، أن الأستاذ الفرنسي فهم ما لم يفهمه الأساتذة المسلمون . فالمؤرخ الفرنسي أندريه ريمون وهو أحد المنصفين وأحد عشاق الحضارة الإسلامية ، وبصفة خاصة الحقبة العثمانية منها . وقد أمضى ثلاثة عقود من عمره يتنقل بين المدن العربية محققا مدققا باحثا عن الحقيقة ، ثم صنف كتابه الماتع (المدن العربية الكبرى في العصر العثماني) ، وقد ذكر فيه حال معظم البلاد العربية قبل الفتح العثماني لها ثم قال : « ولا شك أن احلال إمبراطورية قوية موحدة مكان مجموعة دول تلهث من الإرهاق كان مفيدا للمدن العربية ، التي ظلت تعاني منذ قرن ونصف من الزمن من آثار هذا التدهور السياسي . وفي الواقع أنه من المنطقي أن يكون هذا هو ما حدث . إن الأثر المباشر لإقامة الإمبراطورية العثمانية هو حماية غالبية البلاد العربية من الأخطار الخارجية التي كانت تهدد بعضها بشدة . إن الحملة الصليبية الأوروبية ضد المغرب والتي بدأت في القرن الخامس عشر أعقبها فترة من التوسع الإسلامي دفع بالأتراك إلى أسوار فيينا عام ١٦٨٣م . وكان اتساع رقعة الإمبراطورية العثمانية في حد ذاته يحقق حماية كافية في غالبية الأحوال »[١].

فهكذا فهم الأستاذ الفرنسي ما لم يفهمه الأساتذة المسلمون .!! يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا وما يذكر إلا أولو الألباب .

---

(١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني (٣٥) .

الفصل السادس

شبهات عامة

الزعم بالتباطؤ في التصدي للبرتغال

قبل أن نبدأ في بحث هذه المسألة فمن الواجب أن نذكر أن التجارة العالمية البحرية كانت تمر عبر طريقين :

١- تبحر السفن من الهند إلى البحر الأحمر ، وتفرغ بضائعها في موانيه في عدن وجدة والسويس ، ثم تنقل برا إلى القاهرة ، ثم تنقل عبر النيل إلى الثغور على البحر المتوسط كرشيد ودمياط والبرلس والإسكندرية[1] ، ومنها إلى أوروبا عبر البحر المتوسط .

٢- تبحر السفن من الهند إلى الخليج العربي ، وتفرغ بضائعها في البصرة ، فتحمل عبر نهر دجلة إلى بغداد ، ثم تحمل برا إلى الثغور الشامية على البحر المتوسط ومنها إلى أوروبا .

وفي أواخر القرن الخامس عشر اكتشف الرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح ، وهو يبدأ من المحيط الهندي ثم يدور حول إفريقيا إلى المحيط الأطلسي ومنه إلى أوروبا . أراد البرتغاليون أن يفرضوا ذلك الطريق على العالم ، فأقاموا قواعد بحرية في الهند ، ثم عمدوا إلى إغلاق الطريقين القديمين . فأقاموا قاعدة بحرية لهم في هرمز لإغلاق الخليج العربي . وأخرى في جزيرة كمران لإغلاق البحر الأحمر . فأصبح طريق رأس الرجاء الصالح الذي يسيطر عليه البرتغاليون ، هو الطريق البحري الوحيد بين الشرق والغرب . فخسرت مصر والشام والعراق عائدات الرسوم الجمركية التي كن يحصلنها من مرور التجارة العالمية عبر أراضيهن . واستأثرت البرتغال بالتجارة الأوروبية ، حتى أن الدول البحرية الأوروبية العريقة في التجارة ، كالبندقية وجنوه اللتين كانتا تستأثران بالتجارة الأوروبية ، أجبرتا على أن تشتريا البضائع من التجار البرتغاليين . ولكن لم يدم ذلك الحال طويلا ، فسرعان ما فتح العثمانيون مصر والشام ، وطردوا البرتغال من البحر الأحمر وأعادوا شطرا من التجارة إليه ، كما أرسلوا حملات إلى الهند لكسر الحصار الذي فرضه البرتغاليون . وسيأتي مزيد تفصيل لذلك . تلك كانت توطئة لا بد منها ، والآن نبحث مسألة اتهام كثير من أساتذة التاريخ الدولة العثمانية بالتباطؤ في مواجهة البرتغال في البحار الهندية ، مما مكنهم من تثبيت أقدامهم فيها . فلما شرعت الدولة في قتالهم كان قد فات الأوان .

---

(١) كانت البضائع تنقل إلى الإسكندرية عبر خليج يربط فرع رشيد بالإسكندرية . أو كانت تنقل برا .

قال عمر الاسكندري وسليم حسن : « بعث السلطان سليمان القانوني أحد ولاة مصر بأسطول لردعهم (البرتغال) فلم يفلح . والحق أن العثمانيين لم ينتهزوا الفرص المناسبة لمنازلة البرتقال والاستيلاء على الثروة الهائلة التي كان يجنيها المماليك من مرور تجارة الهند من مصر والشام »[١].

قال د.عمر عبد العزيز : « وهكذا يتبين أن تأخير العثمانيين في القيام بعمل إيجابي فعال في هذه المناطق ، كان عاملا هاما من عوامل نجاح البرتغاليين هناك . كما كان عاملا هاما في تعقيد الموقف أمام العثمانيين عندما أتموا حملتهم البحرية القوية في عام ١٥٣٨ » .... **وقال أيضا :** « وفي المياه الشرقية واجه العثمانيون قوة البرتغال التي استطاعت بما لديها من إمكانيات حربية وبحرية ، أن تحبط المحاولات المتتالية التي قام بها العثمانيون لتطويق هذه المناطق ، وطردوا المسلمين من مياه المحيط الهندي »[٢].

قلت : إن كلام عمر الاسكندري وسليم حسن ود.عمر عبد العزيز كله باطل كما سيأتي بيانه وسنرى أن حملة سليمان باشا عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م قد أدخلت قدم العثمانيين في المحيط الهندي . وسنرى بطلان ما قاله د.عمر عبد العزيز عن طرد المسلمين من المحيط الهندي ، إذ أن ملك البرتغال نفسه طلب الصلح من السلطان سليمان فرفض . ولكن قبل ذلك أود أن أنقل كلام د.**عبد العزيز الشناوي في** هذا الشأن ، لتحامله على السلطانين سليم وسليمان بغير حق . مع الإقرار بفضل د.عبد العزيز وجهوده المستفيضة في إظهار الحق ، وإنصاف الدولة العثمانية وإنكار أكاذيب كثير من المستشرقين . فإن كان د.عبد العزيز حبيب إلى نفوسنا فإن الحق أحب إلينا منه . إذ يبدو أنه في هذه المسألة قد اختلط عليه الأمر ولم يتبين حقيقة الحال ، وهذا أمر لم ينج منه حتى أكابر المؤرخين . نسأل الله أن ينجينا من الزلل وأن ينقي أعمالنا من الخلل وأن يهدينا إلى أحسن العمل . فسأنقل فيما يلي نص كلامه بالرغم من طوله ولكن حتى تتضح وجهة نظره كاملة .

قال د.**عبد العزيز الشناوي** : « استجاب (السلطان سليم) لاستغاثة سكان مدينة الجزائر

---

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني (ص ٧٤) .
(٢) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٩٩ ، ١١٥) .

لإنقاذهم من الخطر الصليبي الأسباني ، ولكنه لم يقم بعمل جدي لضرب البرتغاليين في البحار الشرقية ، أو على أقل تقدير لعرقلة نشاطهم التخريبي في المناطق التي وصلوا إليها. ويلاحظ أيضا أن سليما لم يترك للسلطان قانصوه الغوري مواصلة الصراع البحري ضد البرتغاليين ، بل اشتبك معه في صراع حربي . ولقي السلطان الغوري التعس حتفه في معركة مرج دابق شمالي حلب ... ولا يمكن الدفاع عن السلطان سليم في هذا الصدد بالقول أنه كان يعتزم محاربة البرتغاليين لولا أن فاجأه الموت ، لأن جميع الدلائل تشير إلى أن مثل هذه المحاربة لم تكن واردة في برنامجه الحربي . ولعل السلطان سليم قد أسدى خدمة جليلة للبرتغاليين في هذه المرحلة بمحاربة دولة المماليك الشراكسة ثم إسقاطها . لأنه إذا كانت محاربة الدولة الصفوية في فارس ضرورة حربية وسياسية ومذهبية لوقف تسلل المذهب الشيعي إلى الأناضول والشرق الإسلامي ، والمحافظة على سلامة الدولة العثمانية . فإن حربه ضد دولة المماليك لم تكن لها مثل هذه الضرورة الملحة ، وكان في الاستطاعة تسوية المشكلات مثار النزاع بين الدولتين ، وهي في جملتها تدور حول حدود الدولتين وإيواء أمراء عثمانيين خارجين على السلطان العثماني . وكان في مكنة العاهلين – الغوري وسليم– تنقية الجو وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في مواجهة البرتغاليين في ذلك الوقت العصبي ، بدلا أن يقضى سليم على دولة المماليك ، وهي دولة لها تاريخ حافل في خدمة الإسلام . وكان السلطان الغوري قد أبدى استعداده للسلطان سليم لتسوية أسباب النزاع بينهما ليلة المعركة . ولكن سليما أصر على رأيه . وكان من نتائج سياسته أنه ترك الصفويين يأكل الحقد قلوبهم بعد أن أذلهم ، وسعى الصفويون للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين للانتقام منهم . أما السلطان سليمان المشرع (القانوني) فقد انصرف عقب توليه العرش إلى حروب شبه متصلة في جوف القارة الأوروبية وفي جزيرة رودس في البحر المتوسط ، لأن هذه الجزيرة كانت قاعدة صليبية خطيرة لفرسان القديس يوحنا ، يتصيدون منها السفن في الحوض الشرقي لهذا البحر. وأخيرا في عام ١٥٤٦ أي بعد انقضاء أكثر من ربع قرن على ارتقاء السلطان سليمان العرش ، خرج الأسطول العثماني من السويس متوجها إلى الهند لمنازلة البرتغاليين ، فيما عرف في التاريخ باسم الحملة العثمانية الكبرى . وقد أخفقت هذه الحملة في تحقيق أهدافها لأنها كما

ذكرنا جاءت متأخرة جدا ... وكانت المحصلة النهائية لجهود الدولة العثمانية هي فشلها في إيقاف تحول طريق التجارة العالمية حول رأس الرجاء الصالح ، وإعادة مرور هذه التجارة إلى طريقيها القديمين عبر البلاد العربية »[1].

قلت : لنا في كلام د.عبد العزيز الشناوي سبع مسائل :

الأولى : أما قوله أن أسباب الخلاف بين العثمانيين والمماليك هي الحدود وإيواء أمراء عثمانيين خارجين فهذا باطل ، بل السبب الأهم هو التحالف بين الغوري والصفوي ، وعجز المماليك عن التصدي للبرتغال وحماية الحجاز منهم ، بالرغم من المساعدات العثمانية التي قدمت لهم . وقد أشبعت الكلام في ذلك فلا داعي للإعادة .

الثانية : أما قوله أن الغوري أبدى استعداده لتسوية النزاع ولكن سليما رفض ذلك في ليلة المعركة . فهذا باطل أيضا ، إذ يشير د.عبد العزيز بلا ريب إلى واقعة إرسال الغوري الأمير مغلباي وعشرة من الأمراء في كامل سلاحهم إلى السلطان سليم ، كرد على عرض الصلح الذي أرسله السلطان سليم مع قاضي عسكر الروميلي المولى زيرك زاده . وقد قدمنا أن ذلك كان إساءة أدب من الغوري ويعد بمثابة تهديد وإعلان للحرب. وقد فصلنا الكلام في ذلك أيضا مما يغني عن الإعادة .

الثالثة : قوله أن السلطان سليما لم يترك للغوري فرصة مواصلة الصراع البحري ضد البرتغال ، وأنه قدم خدمة لهم بإسقاطه دولة المماليك . فهذا أيضا باطل بلا ريب . وقد ذكرنا المساعدات التي قدمها السلطان سليم للغورى ، ومنها أنه أكرم رسول الغوري الريس حامد المغربي وأرسل معه مهمات قتاليه . ثم أرسل بعد ذلك الريس سلمان على رأس ألفي بحار عثماني لقيادة الأسطول المملوكي في القتال مع البرتغال . وبالرغم من ذلك لم يتمكن الأسطول المملوكي من إخراج البرتغال من البحر الأحمر . فأيقن السلطان سليم حينئذ أن القضاء على البرتغال لا يمكن أن يتم بمجرد دعم الدولة المملوكية ، لأنها قد أصبحت دولة مهلهلة وأجهزتها الإدارية والعسكرية متهالكة ، ولن تستطيع ردع البرتغال مهما بلغت المساعدات العثمانية لها . لذا عزم السلطان سليم على أن يتولى بنفسه إدارة الصراع مع البرتغال ،

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٣/ ٢٥٠ ، ٢٥١).

وذلك بإزالة الدولة المملوكية عن الساحة . وكان هذا أمرا لابد منه وهو أشبه بعملية كحت للأنسجة الفاسدة من الجسم لينبت عوضها أنسجة جديدة سليمة نظيفة . وقد ذكرنا فيما سبق أنه في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م نفس السنة التي دخل فيها السلطان سليم الأول مصر ، جعل الريس سلمان العثماني في منصب قبودان السويس ، فحقق انتصارا على السفن البرتغالية في البحر الأحمر ، وطاردهم وأسر منهم مركبا واثنى عشر بحارا . حتى اضطروا إلى الانسحاب من جزيرة كمران وعادوا إلى مواقعهم في الهند[1].

الرابعة : قوله أن السلطان سليما أذل الصفويين فسعوا للتحالف مع البرتغال ضد العثمانيين . فهذا باطل أيضا ، فإن كان تحالف إسماعيل الصفوي مع البرتغال يعود إلى عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م[2] ، أي بعد انتصار العثمانيين على الصفويين في جالديران بعام تقريبا ، فإن تحالف إسماعيل الصفوي مع دول أوروبية أخرى ضد العثمانيين والمماليك يعود إلى أبعد من ذلك . فقد ذكرنا في الباب الثاني ما رواه ابن إياس في أحداث ذي القعدة من عام ٩١٦هـ/ ١٥١١م من سعى الشاه الصفوي للتحالف مع الأوروبيين ضد العثمانيين والمماليك ، ودعوته ملوك أوروبا للهجوم على مصر من البحر على أن يأتي هو بجنوده من البر[3]. وقد كان ذلك في أيام السلطان بايزيد الثاني قبل أن يتولى السلطان سليم الحكم أصلا ، أي في فترة مهادنة الدولة العثمانية له . فلما تولى السلطان سليم رأي أنه يتحتم عليه أن يقاتل إسماعيل الصفوي لإبعاده عن مصر والشام . ثم بعد أن تبين له تحالف الغوري مع الصفوي قام بقتال المماليك لإزالتهم ، وحتى يتسنى له ضم بلاد مصر والشام والحجاز لحمايتها من الأطماع الأوروبية .

الخامسة : قوله أن السلطان سليما لم يقم بعمل جدى لضرب البرتغاليين وأن ذلك لم يكن واردا في برنامجه الحربي . فهذا باطل أيضا ، لما قدمناه من أن الريس سلمان العثماني الذي عينه السلطان سليم قبودان السويس ، قد تصدى للسفن البرتغالية في البحر الأحمر وأجبرهم على الفرار بعد أن قصفهم بالمدافع . ثم طاردهم إلى جزيرة كمران . قال زين الدين المعبري : « ثم

---

(١) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٣١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

(٢) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج (١/ ١٤) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٢٠٥) .

هربوا فأرسل الأمير سلمان وراءهم ... فيهما ثلاثون رجلا فأخذوا منهم غرابا (مركب) صغيرا في كمران وفيه إثنا عشر نصرانيا ووصلوا بهم إلى جدة ، ثم إن الملاعين توقفوا في كمران لانقطاع الموسم الهندي . ثم رجعوا إلى كووه خائبين بإذن الله تعالى . وذلك من فضل الله » ... وقد أسس الريس سلمان قاعدة بحرية في جزيرة كمران[1]. وقد ذكر ابن إياس أن الريس سلمان قدم إلى القاهرة إبان وجود السلطان سليم فيها ، فقال في أحداث شعبان عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م : « ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ، ممن كان يتعبث به ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون هناك »[2].

ثم دخل البرتغال بعد ذلك البحر الأحمر في عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م. فقد قال ابن إياس : « عدة مراكب بها إفرنج يتعبثون في البحر الملح ويقطعون الطريق على المسافرين من التجار ، وأرسل السيد شريف بركات (شريف مكة) مطالعة إلى ملك الأمراء بأن يرسل إليه تجريدة بسرعة . وقد خشى على بندر جدة أن يطرقة الفرنج على حين غفلة ويملكونه من المسلمين ». وفي العام التالي قال ابن إياس : « خرج العسكر المعين إلى بندر جدة فخرجت تلك التجريدة في ذلك اليوم ، وهم ما بين مماليك جراكسة وتركمان ، فكان عدتهم نحو ثلاثمائة إنسان من الفريقين ... وقد كثرت الإشاعات بفساد الفرنج وتعبثهم في البحر على التجار وقد حاموا حول بندر جدة »[3]...

هؤلاء الجنود الذين أرسلهم خاير بك كانوا لحماية مدينة جدة ، أما القتال مع البرتغال في البحر فكان من اختصاص الريس سلمان . ويبدو أنه قضى على وجودهم في البحر الأحمر تماما لأن ابن إياس لم يذكر أي خبر عنهم بعد ذلك . وكان آخر مره ذكر فيها تعرضهم للسفن في البحر الأحمر كانت عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م. ولم يذكر ابن إياس شيئا عنهم بعد ذلك . بل إنه أشار إلى أمن الملاحة في البحر الأحمر عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م ، عندما ذكر إرسال كسوة الكعبة وأموال الحرمين عبر البحر الأحمر ، خشية أن يتعرض لها العربان في الطريق إن أرسلها

---

(١) زين الدين بن عبد العزيز المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٣١) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٤ ، ٣٢٥) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٠٣) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٦٢ ، ٣١٦) .

برا . فقال : « أشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر الملح إلى مكة وكذلك المال الذي بعث به السلطان سليمان بن عثمان إلى مكة والمدينة المنورة لأجل الصدقة على مجاوري الحرمين ، صحبة قاضي العسكر لما توجه إلى مكة من البحر الملح »[1].... فذهاب القاضي إلى جدة بكسوة الكعبة وأموال الحرمين عبر البحر الأحمر ، لهو دليل على أن الملاحة فيه أصبحت آمنة تماما. ولا ريب أن ذلك من إنجازات السلطان سليم رحمه الل ه. وهناك إنجاز آخر للسلطان سليم إبان وجوده في القاهرة ، وهو أنه أبرم معاهدة تجارية مع البندقية للتجارة في ميناء الإسكندرية ، وسائر موانئ مصر المطلة على البحر المتوسط ، تمنحهم نفس الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها أيام دولة المماليك من باب تنشيط التجارة . وقد ذكر د.عبد العزيز الشناوي بنود تلك المعاهدة كاملة في كتابه . وقد جاء في البند الثاني والثلاثين منها ، أن السلطان سليم وافق على إلغاء ضريبة البهار التي كان قد فرضها عليهم السلطان قانصوه الغوري ، وكانت تقدر بخمسة آلاف دينار سنويا[2].

ومن العجيب أن د.عبد العزيز الشناوي قد ذكر تلك المعاهدة في الجزء الثاني من كتابة ، كرد عملي على من ادعى أن الدولة العثمانية قد فرضت على البلاد العربية عزلة عن أوروبا . ثم إنه يقول في الجزء الثالث أن السلطان سليما (لم يقم بعمل جدي لضرب البرتغاليين في البحار الشرقية أو على أقل تقدير لعرقلة نشاطهم التخريبي) . مما يوحي بوجود تناقض في كلامه . فنقول لقد عمل السلطان سليم عملا عسكريا على يد الريس سلمان كما قدمنا . وآخر تجاريا للحد من النفوذ البرتغالي . فإن في الاتفاقية مع البندقية ورفع ضريبة البهار عن تجارها تشجيعا لهم على استخدام الطريق البحري القديم عبر البحر الأحمر . وفي حقيقة الأمر لقد أعاد السلطان سليم الملاحة في البحر الأحمر بعد أن كانت متوقفة في أيام المماليك ، بسبب إغلاق البرتغال لمدخل البحر الأحمر منذ عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م ، وفقا لما نقلناه آنفا عن ابن إياس في أحداث عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م ، من أن البضائع لها ست سنوات لم تصل من الهند إلى جدة[3]. إلا أنها

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٧٧) .

(٢) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٢٤ – ٢٩) .

(٣) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٤/ ٣٥٩) .

عادت من جديد بعد الفتح العثماني لمصر . ويستدل على ذلك من عشرة أوجه :

١- طرد الريس سلمان للسفن البرتغالية من البحر الأحمر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وإجلائهم عن جزيرة كمران .

٢- ما نقلناه عن ابن إياس آنفا من عودة السفن البرتغالية ، في عام ٩٢٤هـ ، وفي عام ٩٢٥هـ لتقطع الطريق على سفن المسلمين ، مما يدل على أن سفن المسلمين عادت للسير في البحر الأحمر من جديد . ولكن بحلول عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م كان قد تم تطهير البحر الأحمر بالكامل من السفن البرتغالية ، أصبحت الملاحة في البحر الأحمر آمنة تماما ، بدليل إرسال كسوة الكعبة وأموال الحرمين عن طريقه .

٣- إعفاء السلطان سليم التجار البنادقة من ضريبة البهار التي كان قد فرضها عليهم الغوري عند شرائهم إياه من موانئ البحر المتوسط . ومعلوم أن البهار يجلب من الهند ثم إلى جدة ثم إلى السويس ثم إلى الإسكندرية ، مما يؤكد وجود ملاحة في البحر الأحمر ، وإلا لما أبرمت البندقية هذه الاتفاقية التي دفعت فيها ثمانية آلاف دوقة ذهبية[1].

٤- **قال ابن إياس** : « المال الذي كان يرد من ثغر الإسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فإنه كان يحمل إلى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله تعالى »[2]. ومعلوم أن ثغر جدة ليس له تجارة إلا عبر البحر الأحمر ، فوجود إيرادت له يدل على وجود ملاحة في ذلك البحر .

٥- المادة السادسة والعشرون من « **قانون نامه مصر** » الذي أصدره السلطان سليمان القانوني عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م ، تنظم تجارة البهار ، بأن يتم تجميعه في ميناء الطور في البحر الأحمر قبل أن يرسل إلى القاهرة ، ويتم تحصيل الرسوم المقررة عليه[3]. مما يؤكد أن شطرا من تجارة البهار الهندي قد عاد إلى الطريق القديم عبر البحر الأحمر .

٦- تبين إحدى وثائق المحكمة الشرعية بالإسكندرية المؤرخة في عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م

---

(١) د. سيد محمد السيد : تاريخ مصر في العصر العثماني (ص ٤٥٠) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤١٠) .

(٣) قانون نامه مصر . ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٥٢) .

تعاقدا بين تاجر مصري يبيع لآخر قبرسي ، بعض البضائع الهندية مثل بهار وقرنفل وزنجبيل وجوزة الطيب وقرفة[١]. وهذا دليل على أن تجارة الهند كانت لا تزال تصل إلى أوروبا عن طريق مصر ، بعد أن تمكن العثمانيون من كسر الحصار البرتغالي البحري على البحر الأحمر .

٧- ذكر النهروالي عوائد الرسوم الجمركية التي كانت تحصل في اليمن على البهار الذي يحمل إلى مصر ، في زمن مصطفى باشا قره شاهين عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م ، وكانت خمسين ألف دينار . ولما تحسنت الأحوال وأمنت السبل في زمن سنان باشا الذي أخمد عصيان اليمن عام ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م ، ارتفعت إلى مائتي ألف دينار[٢]. وفي ذلك أبلغ دلالة على أن تجارة الهند كانت تمر عبر طريق البحر الأحمر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي .

٨- وكالة البهار في القاهرة والتي زارها المؤرخ التركي أولياء جلبي عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م وقال عنها : « في هذه الوكالة تؤخذ الرسوم الجمركية على الأمتعة والبهارات الواردة من الهند واليمن والحبشه وعذن ، فلهذا سميت بها الاسم وقد التزم الباشا الوالي هذا الجمرك بألفي كيس »[٣].

٩- أكد الرحالة الألماني الأصل جوفني ميكيله فانسلبيو الذي سبق له أن زار مصر ، وكتب عنها تقريرا عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، أن تجارة الهند كانت تصل عبر البحر الأحمر إذ قال : « إلى السويس وهي مدينة وميناء على البحر الأحمر في مصر ، ترد بضائع ثمينة جدا من الهند ، يشتريها الحجاج العائدون من مكة وترسل إلى القاهرة ، عن طريق البحر إلى ميناء السويس . وهي بذور القهوة ، برواجيه الهند (أي الهند أي الأردية المخططة بألوان مختلفة) وأنواع أخرى من القطن والبخور والأواني الصينية والبهارات »[٤].

١٠-الاتفاقية التي أبرمتها إنجلترا مع محمد بيك أبي الذهب ، في عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م بتعديل خط السير والسماح لسفنهم بالرسو في السويس مباشرة ، بسبب مظالم عمال بندر جدة

---

(١) وثيقة حققها د.فاروق أباظة ونشرها في كتابه : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر (ص ١٥٧) .

(٢) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٢٧٨) .

(٣) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٣٤٥) .

(٤) جوفني ميكيله فانسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة عن مصر (١٦٧١، ص ١٠٤) .

التابع لشريف مكة[١]. إذ لم يكن يسمح لسفن الأوروبيين قبل ذلك بتجاوز جدة ، بل كان عليها أن تفرغ حمولتها في اليمن أو في جدة . وقد ذكر د.عمر عبد العزيز تعليلا باطلا لتلك السياسة العثمانية في البحر الأحمر فقال : « الدافع الحقيقي لاتباع هذه السياسة فكان ضمان نقل التجارة الشرقية عن طريق وادي الفرات وطرق القوافل في دمشق . كما أراد العثمانيون في هذه المرحلة المبكرة ، القضاء على حركة النشاط التجاري العالمي من مصر ، ومنع المماليك من الحصول على العوائد الجمركية ، حتى لا يتمكنوا من القيام بأي عمل استقلالي »[٢].

قلت : هذا الكلام باطل لأن السفن الأوروبية كانت تفرغ حمولتها في اليمن أو في جدة ، ثم تحمل هذه البضائع على سفن المسلمين إلى السويس ، ثم تنقل إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية أو دمياط أو رشيد أو البرلس ، ثم تحملها السفن الأوروبية مرة أخرى إلى أوروبا. والدليل على ذلك الاتفاقية التي عقدها السلطان سليم الأول مع البنادقة وبها بند خاص يتعلق بالبهار كما ذكرنا آنفا . ويدل على ذلك أيضا المادة السادسة والعشرون من قانون نامة التي ذكرناها آنفا. وغير ذلك مما ذكرناه يؤكد أن الرسوم الجمركية لتجارة البهار كانت تحصل في مصر ، وأنها كانت مزدهرة . ثم إن تلك السياسة العثمانية التي لا تعجب د.عمر قد أدت إلى تنشيط سوق النقل في مصر ، إذ ضمنت لأصحاب السفن بضائع تنقلها سفنهم من اليمن وجدة إلى السويس طول العام . فلم يكن لمنع السفن الأوروبية من تجاوز جدة أي علاقة باستهداف القضاء على نشاط التجارة العالمي في مصر ، أو بحرمان المماليك في مصر من العوائد الجمركية كما زعم د.عمر . ثم إن إيرادات الموانئ المصرية كانت تجمع وترسل إلى السلطان مباشرة كما نقلناه عن ابن إياس ... ثم هل يمكن أن يقدم سلطان عاقل على القضاء على أهم مراكز التجارة في سلطنته .؟! لست أدرى لماذا يستعذب أساتذة التاريخ ربط اسم العثماني بأي عمل فيه إفساد أو تدمير أو جهل الخ .!

إن كل ما سبق يؤكد أن تجارة الهند ظلت تمر عبر البحر الأحمر ، حتى بعد اكتشاف الطريق الجديد . وأن ذلك حقيقة تاريخية لا يمارى فيها إلا مكابر . حقيقة ، لقد احتكر البرتغال تجارة

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٤٩) .

(٢) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٢٢٣) .

الهند بعد إغلاقهم البحر الأحمر ، فلما فتحه السلطان سليم وأعاد الملاحة فيه قضى على ذلك الاحتكار . ولو أن البرتغال أرادوا أن يحافظوا على احتكارهم هذا ، لكان عليهم أن يغلقوا بحر العرب كله ، وهذا أمر متعذر بالنسبة لإمكانيات ذلك الزمان . فأصبحت التجارة تمر في الطريقين كليهما (الطريق القديم عبر البحر الأحمر ، وطريق رأس الرجاء الصالح الجديد حول إفريقيا) ، ولم يكن من الممكن أن يستأثر الطريق القديم بالتجارة كما كان من قبل ، فهذا أمر مستحيل ولا يقدر عليه أحد ، لا السلطان سليم ولا غيره . لأن طريق رأس الرجاء الصالح أصبح معلوما للجميع ، كما أنه طريق واسع ويستحيل إغلاقه بالقوة .

السادسة : ما ذكره د.**عبد العزيز الشناوي** ، من دأب البرتغال على التعرض لسفن المسلمين في بحر العرب ، وفرض الإتاوات عليهم ، مما أضر بالتجارة التي تمر عبر البحر الأحمر ، ولم تتدخل الدولة العثمانية في ذلك إلا في عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م أي بعد أكثر من عشرين عاما على فتح مصر . وقد اعتبر د.عبد العزيز الشناوي وغيره ، ذلك تقاعسا من العثمانيين . ولكن الحق بخلاف ذلك لأن ذلك التأخير كان له أربعة أسباب :

١- إن المكان الوحيد الذي يمكن أن تخرج منه السفن العثمانية لقتال السفن البرتغالية هو الموانئ المصرية على البحر الأحمر ، كالسويس والقصير . ومعلوم أن قناة السويس لم تكن قد وجدت بعد ، فلم يكن ثمة طريق بحري يسير فيه الأسطول العثماني من اصطنبول إلى السويس . فكان من اللازم أن يتم بناء أسطول جديد في السويس . وقد استغرق ذلك وقتا لأن السفن إلى استخدمها الريس سلمان في القتال في البحر الأحمر ، لم تكن لتكفي لحملة كبيرة في الهند . وقد ذكرنا مرارا أن مصر إبان الحكم المملوكي كانت قد آلت مؤسساتها العسكرية والإدارية والاقتصادية إلى البوار ، فقد استغرق إصلاحها وقتا ليس بالقليل .

٢- انشغال السلطان سليمان القانوني في السنة الأولى من حكمه بالحرب مع المجر . وقد اضطر إلى ذلك ، بعد أن نقض المجريون العهد ، ففتح بلغراد وغيرها . وكانت تلك الحرب ذات أولوية كبرى لقرب المجر من اصطنبول عاصمة الدولة .

٣- انشغل السلطان سليمان القانوني في العام التالي بفتح جزيرة رودس ، وقد ساق عليها أسطولا ضخما لمناعة قلعتها حتى فتحها. ومعلوم أن فتح رودس كان ذا أولوية كبرى ، لأنها

كانت تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) ، فكانت قاعدة للصليبيين في البحر المتوسط . وكانت تقطع الطريق على سفن المسلمين ، مما أضر ضررا جسيما بخطوط المواصلات البحرية بين أقاليم الدولة . فكانت سفن هؤلاء الصليبيين تعترض السفن القادمة من الجزائر ومصر والشام إلى اصطنبول وبالعكس . فلما فتحت رودس أمنت المواصلات بقدر كبير .

٤- ذكر د.عبد العزيز أن الحملة العثمانية الكبرى كانت عام ١٥٤٦م ، وهذا غير صحيح ، بل كانت عام ١٥٣٨م بقيادة سليمان باشا . وقد استطاع أن ينتزع قلعتين هنديتين من البرتغال هما « كوله له » و « كات » ، إلا أنه أخفق في فتح « ديو » بعد حصار دام شهرا كاملا ، للأسباب التي فصلناها في الباب الأول . وقد سبق حملة سليمان باشا جهود أخرى ففي عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م ، حاول البرتغال السيطرة على البحر الأحمر مرة أخرى ، واستولوا على جزيرة كمران وتعرضوا لمراكب المسلمين . فتوجه إليهم الريس سلمان وطرهم مرة أخرى وقد قال النهروالي في ذلك : « فلما وصل سلمان الريس دفع ضررهم (الفرنج) وقتل منهم جماعة وأسر جماعة ونظف ساحل اليمن منهم »[١]... ثم بنى الريس سلمان قاعدة بحرية في جزيرة كمران لضمان أمن البحر الأحمر ، وأسند قيادتها إلى خوجه صفر رئيس[٢]. وفي عام ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م وفد مصطفي بك ابن أخت الريس سلمان على السلطان بهادر شاه سلطان كجرات في الهند ، بالمراكب والمدافع لدفع خطر البرتغال عن بندر « ديو » ، ثم انضم إليه خوجه صفر رئيس[٣]. وقد تمكنا من هزيمة الأسطول البرتغالي عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م أمام ديو ، وتم أسر عشرين سفينة وإغراق أربعين ، وقتل ألف وخمسمائة من البحارة البرتغاليين . ولكن بعد أربع سنوات ، تمكن البرتغاليون من احتلال ديو مرة أخرى[٤]. فأرسل فأرسل السلطان سليمان القانوني الحملة الكبرى ، بقيادة سليمان باشا عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م. وبالرغم من أنه لم يتمكن من استعادة ديو ، إلا أن حملته قضت على احتكار البرتغال للملاحة في الهند ، وأصبح للسفن العثمانية حضور كبير في السواحل الهندية .

---

(١) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٣٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٥) .

(٣) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٥٥) .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٦) .

السابعة : أما قول د.عبد العزيز الشناوي أن الدولة العثمانية فشلت في إيقاف تحول التجارة حول رأس الرجاء الصلح وإعادة مرور هذه التجارة إلى طريقيها القديمين عبر البلاد العربية . فهذا عجيب جدا من د. عبد العزيز ، لأنه لا السلطان سليم ولا غيره يستطيع أن يغلق طريق رأس الرجاء الصالح ، ولا أحد يستطيع إرغام السفن العالمية على ألا تسير فيه . ولكنه فعل ما يمكن فعله وهو فتح البحر الأحمر بعد أن كان قد أغلقه البرتغال ، وعقد اتفاقيات تجارية مع بعض الدولة الأوروبية كالبندقية ، ثم عقد من بعدها اتفاقيات مماثلة مع فرنسا وراجوزة وإنجلترا(١) ، لتشجيع هذه البلاد على استخدام الطريق القديم . ثم أرسل حملات إلى السواحل الهندية والخليج للحد من احتكار البرتغال للملاحة هناك . فبعد حملة سليمان باشا المذكورة في الهند ، كانت فتوحات أزدمر باشا في بلاد الحبشة وتقويض النفوذ البرتغالي في الساحل الشرقي لإفريقيا . ثم في عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م كانت حملة بيري رئيس التي خرجت من السويس إلى الخليج ، فوقع قتال شديد مع السفن البرتغالية ، وتم أسر الحامية البرتغالية في مسقط . كما حاصر بيري رئيس هرمز إلا أنها امتنعت عليه . وفي نفس العام خرج مراد رئيس على رأس الأسطول من البصرة ، فلقي الأسطول البرتغالي ودارت أعنف المعارك البحرية بين البرتغاليين والعثمانيين ، وأغرقت عدة سفن برتغالية وسفينتين عثمانيتي ن. وفي العام التالي خرج سيدي علي رئيس على رأس الأسطول من البصرة ، فوقعت معركة دموية مع الأسطول البرتغالي ، انتهت بإغراق سبع سفن عثمانية وست سفن برتغالية ، ولم تحسم الحرب لصالح أي من الطرفين(٢).

وقد آتت هذه الجهود ثمارها وأصبح للسفن العثمانية نفوذ كبير في البحار الهندية ، بدليل أن ملك البرتغال أرسل سفيرا إلى اصطنبول عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م ، ليعرض الصلح على أن تدفع السفن العثمانية رسوما مقابل تجول سفنها ، فرفض السلطان سليمان ذلك رفضا قاطعا. وفي عام ٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م طلب ملك البرتغال أن يعين له سفيرا في اصطنبول لبحث أمر

---

(١) د.سيد محمد السيد : تاريخ مصر في العصر العثماني (ص ٤٥٠) ويمكن مراجعة نصوص بعض تلك المعاهدات عند محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٢٣ ، ٢٤١) وعند د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٢٤ – ٣٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٢٧ – ٣٣٧) .

الصلح"[1]. ولكن الصلح لم ينعقد بسبب أن سلطان آجه[2] أرسل إلى الدولة يطلب النجدة لصد عدوان البرتغال. فأرسلت حملة بقيادة قورد أغلو خضر رئيس من السويس، مكونة من اثنتين وعشرين سفينة محملة بالمدافع[3]. وظلت الحرب سجالا بين العثمانيين والبرتغاليين في البحار الهندية، حتى كانت الهزيمة الكبرى للبرتغال، في معركة وادي السيل في عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م. فمن لطائف الأخبار أن الصراع الدامي الذي دار بين الدولة العثمانية والبرتغال في البحار الهندية، شاء الله ﷻ أن يحسم في البحر المتوسط، في معركة وادي السيل التي شارك فيها الأسطول البرتغالي والأسباني وقوات أخرى صليبية، تحت قيادة ملك البرتغال «سباستيانو». فالتقى مع الأسطول الإسلامي بقيادة رمضان باشا، فهزم الصليبيون هزيمة نكراء، وقتل ملك البرتغال وأكابر أمرائه، وتحطم الأسطول البرتغالي، وكان من نتيجة ذلك أن سقطت البرتغال إلى دولة من الدرجة الثانية أو ربما الثالثة، فاستولت عليها إسبانيا لمدة ستين عاما. وقد ذكرنا ذلك بتفاصيله في الباب الأول في عهد السلطان مراد الثالث. ومن ثم، فقد حل الضعف الشديد بالقواعد البحرية البرتغالية في الهند، إذ أصبح لا حول لها ولا قوة بعد هزيمة وادي السيل. فقد أوقع بهم سلطان كجرات جلال الدين أكبر في نفس السنة هزيمة منكرة. ثم في العام التالي أوقع بهم السامري، حاكم كاليكوت وشاليات هزيمة ساحقة. فلم يجدوا بدا من الجنوح إلى الصلح، فهرعوا لعقد معاهدات صلح مع بعض القوى الإسلامية في الهند. ثم عقدوا صلحا مع السامري عام ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م[4]. ولم تعد سفنهم قادرة على قطع الطريق على سفن المسلمين بعد ذلك. ولكن مع ذلك ظل شطرا من التجارة العالمية يمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح.

وفي أوائل القرن السابع عشر وصلت السفن الهولندية والإنجليزية إلى الهند، ولكنها كانت سفنا تجارية ولم تكن تقطع الطريق على سفن المسلمين، كما كان تفعل السفن البرتغالية، إلا أنها استأثرت بشطر من التجارة عبر الطريق الجديد، وهذا أمر لا يمكن لأحد أن يغيره

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٧٠٢).

(٢) تنطق آتشه وتشمل إندونيسيا وماليزيا.

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٦٦).

(٤) زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين (ص ٤٩ – ٥٢).

كما قدمنا . مع العلم أن كثيرا من السفن الإنجليزية كانت تسير في الطريق القديم ، طريق البحر الأحمر إلى ميناء جدة ، ثم يتم نقل البضائع بسفن المسلمين من جدة إلى السويس ، ثم برا إلى القاهرة ، ثم عبر النيل إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط ثم بحرا إلى أوروبا . وقد سبق أن قدمنا الأدلة على ذلك . ومعلوم أن الأوروبيين لم يكونوا يفضلون الطريق الجديد (طريق رأس الرجاء الصالح) لأنه ضعف المسافة تقريبا ، فالمسافة بين لشبونه عاصمة البرتغال ، وكالكتا تسعة آلاف ميل عبر رأس الرجاء الصالح ، أما المسافة بين البندقية وكالكتا عبر البحر الأحمر فهي خمسة ألاف ميل فقط(١).

في الحقيقة إن ما كتبه كثير من أساتذة التاريخ حول تلك المسألة لم يكن يتسم بالدقة ولا بالموضوعية . ومن أبلغ الأمثلة على ذلك ما قاله د.جمال زكريا قاسم في ذلك الشأن ، إذ زعم أن العثمانيين فشلوا في كسر احتكار البرتغال التجاري ، وأرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها في نظره التفوق البحري البرتغالي . قال د.**جمال زكريا قاسم** : « غير أن العامل الهام يرجع إلى التفاوت الكبير بين القوة البحرية العثمانية والقوة البحرية البرتغالية » .. **ثم قال** : « لم تؤثر الهزائم المتوالية التي عانى منها العثمانيون على استمرار المناوشات بينهم وبين البرتغاليين لعدة سنوات ، ووصلت تلك المناوشات إلى مواجهة حاسمة في عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م من بعد ضم البرتغال إلى التاج الأسباني في عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م »(٢).

قلت : تحدث د.جمال عن الهزائم المتوالية التي مني بها العثمانيون ، بسبب التفاوت الكبير في القوة بين أسطولهم والأسطول البرتغالي . فإن كان الأمر كما يدعي ، فبماذا يفسر طلب ملك البرتغال الصلح مرتين ، ورفض السلطان سليمان القانوني إياه كما ذكرنا آنفا .! وقد تحدث د.جمال عن ضم البرتغال للتاج الأسباني ، ولكنه لم يذكر لنا السبب في ذلك . وهو بمنتهي البساطة الهزيمة الكاسحة التي مني بها البرتغاليون علي يد العثمانيين في معركة وادي السيل في عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م ، التي تمكن فيها الأسطول العثماني من تحطيم الأسطول البرتغالي وإفناء الجنود البرتغاليين ، وعلى رأسهم ملكهم سباستيانو الذي قتل في المعركة ، فهبطت البرتغال

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٧٠١) .
(٢) د.جمال زكريا قاسم : سلطنة مسقط وعمان ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس (ص ٤١٥ ، ٤١٦) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

إلى دولة من الدرجة الثالثة وربما الرابعة ، فاستولت عليها أسبانيا . لقد ظلت الحرب البحرية سجالا بين العثمانيين والبرتغاليين لما يزيد عن ستين عاما حتى شاء الله أن تحسم لصالح العثمانيين في معركة وادي السيل . فتضعضعت القواعد البرتغالية في الهند كما تقدم . أما قواعدهم في الخليج ، فقد تعرضت لنكسة كبيرة في نخيلوه على يد الأهالي في عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م ، ثم طردهم الصفويون من البحرين في عام ١٠١١هـ/١٦٠٢م ، وطردوهم من بندر عباس عام ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م ، كما طردهم الصفويون بالتعاون مع الإنجليز من هرمز عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م[1]. والفضل في ذلك إنما يرجع إلى الهزيمة الكبرى التي أوقعها بهم العثمانيون في معركة وادي السيل . لكنك ترى أن د.جمال زكريا قاسم لم يتحدث عن تلك المعركة الحاسمة أصلا ، وراح يحدثنا عن الهزائم المتوالية للعثمانيين ، وعن التفاوت الكبير بينهم وبين البرتغاليين في القوة البحرية !. أي عبث هذا ؟! ثم راح د.جمال يتحدث عن فشل العثمانيين في كسر الاحتكار التجاري البرتغالي ! وهذا باطل بلا ريب ، فمن الذي طرد البرتغال من البحر الأحمر ؟! العثمانيون ... من الذي أعاد الملاحة إليه وجعله بحيرة إسلامية ؟! العثمانيون ... من الذي أرسل الحملات والمساعدات العسكرية إلى الممالك الإسلامية في الهند ؟! العثمانيون . وعلى سبيل المثال إضافة لما تقدم ذكره ، سيدي علي رئيس الذي ترك في الهند ثماني سفن بمدافعهن ، وعددا من البحارة إلى والي دمن ، ووالي سورات التابعين لسلطان كجرات أحمد شاه الثاني ، في عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م . ثم أرسل السلطان سليمان القانوني سفيره لطفي بك إلى سلطنة آجه (إندونيسيا وماليزيا) بعدة مدافع . كما أرسل السلطان سليم الثاني عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ، قورد أوغلو خضر رئيس ، على رأس اثنتين وعشرين قطعة بحرية إلى آجه ، تحمل قدرا كبيرا من المعدات ومئات البحارة[2].

وقد نجحت تلك الجهود في تقويض النفوذ البرتغالي في الهند ، وكسر الاحتكار التجاري الذي فرضوه ، بدليل عودة شطر كبير من التجارة إلى الطرق القديمة . ولكن أغلب أساتذة التاريخ يدقون على وتر واحدة ، وهي أن مصر تدهورت وانحطت اقتصاديا بعد اكتشاف

---

(١) ج.ج. لوريمر : دليل الخليج (١/ ١٩ ، ٢٩ ، ٤٥ – ٤٧) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٣٣٥ ، ٣٦٦) .

طريق رأس الرجاء الصالح . وقد ورد ذلك في الكتب المدرسية أيضا ، فقد جاء في كتاب الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي : « أدى تحول الطريق التجاري بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي تم اكتشافه عام ١٤٩٨م ، وإرسال الضريبة المفروضة على مصر إلى السلطان العثماني ، وإهمال الحكام أمر تنمية موارد مصر وصيانتها ، أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر »[1].

والحقيقة أنه لو لا أن قيض الله لنا بني عثمان لآل أمر مصر إلى الانهيار الاقتصادي بحق ، ولكن العثمانيين استطاعوا أن يعيدوا الملاحة إلى البحر الأحمر ، بعد أن أغلقها البرتغاليون بضع سنوات في أيام المماليك . كما استطاعوا أن يعيدوا جزء كبيرا من التجارة العالمية إليه ، فعاد الازدهار إلى مصر ، والفضل في ذلك إنما يرجع لله ثم لبني عثمان . وكنت أتعجب كيف غابت هذه المعلومات الأولية عن أكابر أساتذة التاريخ ، وكيف غابت عنهم كل هذه الأدلة السابقة المذكورة آنفا . تلك الأدلة التي يمكن استخراجها من المصادر التاريخية عبر قراءة متفحصة لها . ولا أخفيك سرا ، بعد أن فرغت من تحقيق تلك المسألة على النحو المذكور آنفا ، كنت قد بدأت أفقد الثقة نهائيا في أساتذة الجامعة ، حتى وقفت على بحث ماتع للدكتور فاروق أباظة : « **أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر** » . فهذا البحث فصل فيه د.فاروق المسألة تفصيلا جميلا ووضع الأحداث في مواضعها ، وكانت استدلالته في غاية الدقة والموضوعية . وقد أرفق د.فاروق عددا من وثائق المحكمة الشرعية بالإسكندرية ، تعود إلى منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . **وقال عنها** : « تشير هذه الوثائق إلى وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجاليات الأوروبية وبعض مواطني جزر البحر المتوسط في الموانى والمدن الداخلية في مصر والشام . وخاصة في مدينة الإسكندرية آنذاك ... مما يؤكد أن الحركة التجارية لم تتوقف تماما بل إنها نشطت نسبيا » ....وعن العثمانيين **قال د.فاروق** : « شكل العثمانيون تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الإسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وفي منطقة البحر الأحمر التي تضم الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز من جهة

(١) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي العام الدراسي (٢٠١٠-٢٠١١) الفصل الدراسي الأول (ص ٦٨) .

أخرى ، طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور . وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة ، في وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسي واستراتيجي ، نتيجة لانقسام المماليك وفشلهم في صد الغزو البرتغالي الذي كان يهدد المنطقة من جهة ، هذا فضلا عن انهيار الأوضاع الاقتصادية لديهم من جهة أخرى . ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للعثمانيين في جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين في عالمي البحرين المتوسط والأحمر في القرن السادس عشر . كما يؤكد وحدة المنطقة في مجال التخطيط الاستراتيجي لقضية أمنها وسلامتها »(١).

كما لا يفوتني أن أذكر أن د.**عبد الرحيم عبد الرحمن** ، بالرغم من اختلافنا معه في كثير من الأمور كما سيأتي ، إلا أنه من باب الإنصاف ، يجب أن نقر بأنه قد أحسن بحث مسألة التجارة الخارجية في مصر. وقد ذكر أن التجارة عبر طريقها القديم في البحر الأحمر ، كانت مستمرة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، بالرغم من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . **فقال** : « أن النشاط التجاري في موانئ البحر الأحمر خلال العصر العثماني ، طبقا لما تذكره المصادر المحلية المعاصرة ووثائق المحكمة الشرعية وسجلات الجمارك ، لم يصب بالركود التام ، كما كان يعتقد البعض . وذلك عن طريق ما تثبته هذه المصادر من مواد تتعلق بهذا النشاط ، مما يثبت أن الحركة التجارية ظلت مستمرة في هذا البحر وموانيه ، سواء منها الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية ، أو الواقعة على الساحل الإفريقي ومصر . وكانت السفن التجارية الأجنبية تؤم الموانئ المسموح لها بأن تصل إليها »(٢).

لكن السؤال الهام الذي يجب أن يجاب عليه ، هو ما مدى تأثير تحول جزء من التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، على الأحوال الاقتصادية في مصر والشام والعراق ؟.

الجواب : لا شك أن عائدات مرور البضائع من الهند إلى أوروبا التي كانت تجنيها الموانئ المصرية ، قد تقلصت بسبب تحول بعضها إلى الطريق الجديد . ولكن بالرغم من ذلك ، فإن

---

(١) د.فاروق أباظة : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر (ص ١٠١ ، ١٣٥) .

(٢) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ١٤١) .

الأحوال الاقتصادية في مجملها كانت أفضل مما كانت عليه . فإن كان اكتشاف الطريق الجديد أغلق في وجهنا بابا ، فقد فتح لنا في العهد العثماني أبواب وأبواب . وذلك من ثلاثة أوجه :

١- يحدثنا المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) أن عدد الأسواق والخانات والقيساريات والفنادق في القاهرة تقريبا ، كانت سبعة وخمسين[١]. في حين أن المؤرخ الفرنسي أندريه ريمون استطاع أن يستدل على وجود ، مائة وخمسة وأربعين سوقا وثلاثمائة وستين قيسارية في القاهرة ، ترجع إلى العصر العثماني . مما يدل على انتعاش التجارة بشكل كبير في مصر في ذلك العصر . ويرجع السبب في ذلك بلا شك إلى التجارة الداخلية . إذ أن وضع مصر كأحد أقاليم الدولة العثمانية ، أتاح لها فرصة التجارة الداخلية مع سائر أقاليم الدولة المترامية الأطراف برسوم جمركية ضئيلة ، إذ أن الرسوم التي كانت تفرض على رعايا الدولة المسلمين كانت ما بين ٢- ٣٪ ، أما الرسوم التي كانت تفرض على الأجانب فكانت ما بين ٥- ٧٪.[٢] وقد كانت تلك النسب تختلف من فترة لأخرى ، لكنها كانت دائما أقل بالنسبة للتجارة الداخلية . و قد أكد الرحالة الألماني الأصل جوفني فنسلبيو ، الذي زار مصر في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، تلك الحقائق فقال : « البضائع التي ترد عن طريق البحر المتوسط من بلاد المسيحيين فيدفع لها عشرون في المائة ، لكن التي ترد من بلاد التركي فعشرة بالمائة . السفن التركية (أي سفن المسلمين عموما) التي تبحر من الإسكندرية تدفع خمسة في المائة لكن سفن المسيحيين عشرة »[٣].

وقد عبر أندريه ريمون عن ذلك بقوله : « كانت الإمبراطورية العثمانية بفضل اتساعها ووجودها على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط ، وهي أكبر بنيان سياسي عرفه الغرب منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية . وكان يمكن لكل مواطن تابع للسلطان ، أن يتجول من الدانوب حتى المحيط الهندي ، ومن بلاد فارس حتى المغرب ، وهو خاضع لنفس القوانين ولنفس التنظيم الإداري ، وأن يتحدث نفس اللغة ويستخدم نفس النقود ، وهي ظروف

---

(١) تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ١٥٧ – ١٩٠) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة . (ص ٦٩٨) .

(٣) جوفني ميكيله فنسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة لمصر (١٦٧١ ص ١٠٥) .

مواتية لحركة تبادل داخلية واسعة النطاق ... مصر في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر كانت التجارة الشرقية (الهند) فيها تمثل ٣٦٪ ، والتجارة مع ولايات الإمبراطورية ٥٠٪ ، والتجارة الخارجية مع أوروبا لا تمثل أكثر من ١٤٪ فقط . لقد كانت التجارة الخارجية الحقة هامشية » .. كما ذكر ريمون أنه من بين ٨٥٤ عقدا لاستئجار السفن ، وقعه القباطنة الفرنسيون في الإسكندرية بين عامي ١٧٥٤ – ١٧٦٧م ، كان ٥ ,٩٧٪ منها للتجارة الداخلية إلى الأناضول واصطنبول والمغرب واليونان . ولم يكن لأوروبا منها سوى ٥ ,٢٪ »[1]. وإذا ما ربطنا ذلك بانتعاش التجارة في مصر في العصر العثماني ، بدلالة زيادة عدد الأسواق والقيساريات ، لتبين لنا أن تجارة مصر الداخلية مع سائر أقاليم الدولة كانت تفوق بمراحل تجارتها مع أوروبا قبل الفتح العثماني .

٢- تراجعت أهمية تجارة التوابل الهندية في القرن السابع عشر ، وحل محلها تجارة البن ، الذي كانت اليمن هي المنتج الوحيد له . وكانت تصدر للعالم كله مائتي ألف قنطار سنويا ، نصفها يمر عبر مصر إلى سائر أقاليم الدولة ، أو يعاد تصديره إلى أوروبا[2].

٣- أما بالنسبة لطريق الخليج فقد نقل البرتغاليون نشاطهم التجاري من بندر عباس التابع للدولة الصفوية إلى البصرة العثمانية . وظلوا هناك حتى عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م . وقام الإنجليز في عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ، باستخدام الطريق القديم عبر الخليج إلى البصرة ثم بغداد وحلب . وفي عام ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م قاموا بنقل نشاطهم إلى البصرة أيضا . وكان يتردد على الميناء كثير من التجار الأجانب منهم الهولنديون بشحنات التوابل ، والإنجليز بشحنات الفلفل وقليل من القرنفل ، والتجار الهنود بالنيلة . وكانت تلك السفن تفرغ حمولتها في البصرة ثم تحمل البضائع برا إلى حلب . أو كانت تبحر في نهر دجلة إلى بغداد ويتم توزيعها هناك[3]. ومنها ما يتم إرسالها برا إلى الموانئ الشامية .

مما سبق يتبين أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، لم يكن ضربة قاصمة للتجارة في

---

(١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني (ص ٣٦ – ٣٨) .

(٢) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني (ص ٣٧) .

(٣) ج ج . لوريمر : دليل الخليج (١/ ٦٦، ٤/ ١٧٦٥ – ١٧٦٩) .

مصر كما ظن البعض . لأن التجارة العالمية لم تتحول إليه بالكامل ، بل ظل شطرها في الطرق القديمة عبر مصر والشام والعراق . كما أن دخول مصر في التبعية العثمانية ، كان أجدى لها من الناحية الاقتصادية ، مما كانت تحصل عليه من عوائد مرور التجارة عبر موانيها قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . والحقيقة المؤسفة أن أغلب أساتذة التاريخ والمفكرين والأدباء والكتاب إنما يدقون على نفس الطنبور ، ويزعمون اضمحلال التجارة في مصر في العصر العثماني ، بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وفشل العثمانيين في تدارك ذلك . وكثير منهم يقول في ذلك كلاما متناقضا. فقد قال **جورجي زيدان** : « رافق الفتح العثماني أو حواليه من الأسباب التي بعثت على تقهقر هذا القطر على الخصوص . وذلك أن أهل أوروبا اكتشفوا في أثناء ذلك طرقا تجارية بحرية مثل رأس الرجاء وغيره ، أغنت التجار عن إرسال تجارتهم مع الشرق الأقصى ذهابا وإيابا عن طريق مصر . وانصرفت همم العالم المتمدن في الجهة الأخرى إلى العالم الجديد وغيره ، بعد اكتشافها. والمصريون يومئذ لا يعلمون شيئا عن تلك الاكتشافات ، فكان هذا باعثا على إهمال مصر وانحطاطها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، ويتبع ذلك طبعا انحطاطها العلمي والأدبي »[1].

قال **عبد الرحمن الرافعي** : « من يوم تم للرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما الطواف حول القارة الإفريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ، فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر إلى طريق المحيط الأطلنطي . فبدأت منزلة مصر التجارية تضمحل من أوائل القرن السادس عشر ، وزاد في اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها في حوزة الحكم العثماني ، وضياع أسطولها الذي كان لها في عصر السلطنة المصرية »[2].... ثم ناقض نفسه بعد سطرين **وقال** : « كانت (مصر) ترفأ إليها السفن القادمة من أوروبا وسوريا والأناضول وثغور البحر الأحمر ، وتصل إليها قوافل التجارة من السودان والحبشة وبطن إفريقية ومراكش

---

(١) جورجي زيدان : مصر العثمانية (ص ١٧٩) .

(٢) يعنى هنا السلطنة المملوكية وهو الاسم العلمي لتلك الفترة . أما قوله السلطنة المصرية فدليل على مدى بغضه للعثمانيين . إذ أراد أن يقع في صدر القارئ بغض العثمانيين لأنهم قضوا على السلطنة المصرية المستقلة . بالرغم من أنه لا يوجد شيء اسمه السلطنة المصرية بل كانت سلطنة المماليك ومركزها مصر وتضم الشام والحجاز وأطراف العراق . فهذا التلاعب بالألفاظ إنما هو من قبيل الغزو الفكري الذي ينطلي على البسطاء من الناس .

والجزائر وتونس وطرابلس ، وكذلك كانت تصل إليها القوافل والسفن من فلسطين وسوريا وبلاد العرب. فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة في سائر الأقطار »[1].

قلت : هذا الكلام ينقض بعضه وبعضا ، وسأعلق عليه بعد ذكر كلام **د.صلاح هريدي** الذي حذا حذوه فناقض نفسه أيضا ، إذ قال : « وبالنسبة لتجارة مصر الخارجية في تلك الفترة ، فإنها قد تأخرت وضعفت بشكل واضح ، نتيجة لقلة البضائع التي تمر في البلاد ، مما أدى إلى قلة حصيلة الضرائب الجمركية ، وقلة ما تستفيده مصر من أجور النقل . هذا في الوقت الذي زادت فيه الصعوبات أمام تصريف المنتجات المصرية في الأسواق الخارجية . وظلت العلاقات التجارية موجودة بين مصر وبقية الولايات العربية والإفريقية ، ولكن قيمتها قلت نتيجة لضعف الإنتاج الزراعي والصناعي في البلاد ... مصر كانت تصدر .. كميات هائلة من الحبوب مثل الأرز والعدس والفريك البربري ».... ثم ناقض نفسه في موضع آخر من كتابه **فقال** : « احتلت رشيد مكانة اقتصادية مهمة في العصر العثماني نظرا لموقعها ، وكانت تعد مستودعات للبضائع القادمة من القاهرة ومدن صعيد مصر ، ويتم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا . بالإضافة إلى أنها تستقبل البضائع الواردة من أوروبا » ... **وقال أيضا** : « واعتبر ميناء دمياط مخرجا لتجارة مصر في العصر العثماني ، كما كانت يرد إليها الواردات القادمة من سوريا وفرنسا وغيرها ... وكانت دمياط مزدهرة اقتصاديا في العصر العثماني ، وظلت محتفظة بذلك حتى مجيء الحملة الفرنسية »[2].

قال د.عبد العزيز نوار : « منذ أن تحول الطريق العالمي بين الشرق والغرب في أواخر القرن الخامس عشر إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومنذ أن وقعت البلاد العربية تحت الحكم العثماني الذي أخذ في التدهور بعد القرن السادس عشر ، أصيبت البلاد العربية بتقهقر عام في كافة المجالات الحضارية »[3].

قلت : **أما عبد الرحمن الرافعي** فقد وقع في تناقض كبير كما ترى . فقد ذكر أن التجارة في

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٦١) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث (ص ٨٦ ، ١٣٦ ، ١٣٩) .

(٣) د.عبد العزيز نوار : النهضة العربية الحديثة (ص ٥٠) .

مصر اضمحلت بعد اكتشاف الطريق الجديد وبعد الفتح العثماني ، ثم ناقض نفسه قائلا أن مصر كانت ملتقى التجارة من سائر الأقطار . أما د.**صلاح هريدي** فذكر أن التجارة ضعفت في العصر العثماني بسبب قلة مرور البضائع . ثم ناقض نفسه فذكر أن دمياط ورشيد ازدهرتا في العصر العثماني بسبب نشاط حركة التجارة . كما ذكر أن الإنتاج الزراعي كان ضعيفا ، ثم ناقض نفسه فذكر أن مصر كانت تصدر كميات هائلة من الحبوب . وأنا أتساءل ، بأي لغة تتحدثون يا أساتذة التاريخ .؟! أم أنكم تقولون ما لا تعلمون .؟! والحقيقة أن أغلب الأساتذة يكادون يتفقون على تدهور التجارة في العصر العثماني . ولم يكن قولهم هذا خلاصة بحث مضن أذهب النوم عن أجفانهم ، بل هو المناخ الثقافي العام السائد في البلاد ، الذي يحتم على كل أستاذ أن يقوله ، سواء أكان حقا أم باطلا . وإلا شذ عن المألوف وجانب المعروف. وأما الحق الذي لا مراء فيه ، وخلاصة كل ما سبق من كلام يمكن إيجازه فيما يلي :

١- قبل الفتح العثماني لمصر ، أغلق البرتغال البحر الأحمر إغلاقا تاما ، وحولوا التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

٢- فتح العثمانيون مصر ، وطردوا البرتغال من البحر الأحمر ، وأعادوا شطرا كبيرا من التجارة إليه .

٣- التجارة الداخلية بين مصر وسائر ولايات السلطنة العثمانية ، كانت أرجى لها من شطر التجارة الذي ذهب إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

٤- لو لم يفتح العثمانيون مصر ، لظل البحر الأحمر مغلقا بالكامل ، ولما وصلت إلى مصر سفينة واحدة . ولما تمتعت مصر بالتجارة الداخلية مع هذا العدد الهائل من ولايات السلطنة العثمانية . فمن لام العثمانيين على فتح مصر وزعم أن ذلك أضر بتجارتها ، فهو مسكين أسير الغزو الفكري الأوروبي ، وهو من عبيد الثقافة الغربية . ونتمنى له أن يتحرر من ربقة تلك العبودية ، وأن يتمكن من فك الآصار والأغلال التي طوق بها عنقه . وليتهم نقلوا عن د.**عبد العزيز الشناوي** وهو يفند مزاعم عزلة مصر عن العالم إبان الحكم العثماني ، ويؤكد على أن جزء من التجارة ظل يسير عبر الطريقين القديمين (الخليج العربي والبحر الأحمر)[1]. أو

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٢٢ – ٧٢) .

ليتهم نقلوا عن الأوروبين المنصفين كأندريه ريمون الذي نقلنا كلامه آنفا . وجيل فانتشتاين الذي قال : « إن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والتواجد البرتغالي في المحيط الهندي ، لن يؤديا على مدار القرن إلى تحويل منتجات الهند وأندونيسيا عن موانئ الشرق الأوسط العثماني . فالتوابل والعطور والأصباغ والمنسوجات الهندية ، تواصل الدخول إلى البحر الأحمر ، حيث تصل إلى لقاء تجار جدة أو الحجاج إلى مكة ، أو تواصل الدخول إلى الخليج الفارسي ، لكي تصل إلى البصرة »[1].

ثم وقفت على كتاب للمؤرخ الفرنسي هنري لورنس وهو أستاذ بجامعة السوربون ، بعنوان : « **الحملة الفرنسية في مصر ، بونابرت والإسلام** » وقد كتب هنري لورنس ثمانية فصول منه ، وهي المتعلقة بوقائع الحملة والأحوال السياسية في تلك الفترة . ثم ضم إليه ثلاثة أبحاث تتعلق بأعمال المجمع العلمي ، لكل من شارل جيليسبى : أستاذ بجامعة برنستون – الولايات المتحدة . وجان كلود جولفان : مدير بحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا . وكلود ترونيكر : مسئول عن البحوث بالمركز الوطني للبحث العلمي . ستراسبورج – فرنسا . **وقد قال هنري لورنس** : « وتستمر الحرب البحرية أكثر من عشرين سنة ، وتكفل للعثمانيين السيطرة على البحر الأحمر . ويعاد مؤقتا فتح الطريق التقليدي لتجارة الهند . ولم يك بوسع البرتغاليين تدبير القوة والإمكانيات الضرورية لوقف تجارة البحر الأحمر بصفة مستديمة » ...**وقال أيضا** : « والواقع أنه يتشكل اقتصاد عالم يتميز بأبعاد هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وهي أكبر إمبراطورية مطلة على البحر المتوسط منذ زمن الرومان . وقد أتقنت الإمبراطورية مشروعها التأسيسي الخاص بإعادة بناء المجال الإسلامي .... وإذا كانت التجارة مع أوروبا مهمة (سبع إجمالي تجارة مصر) فإنها لا تمثل غير جزء صغير من التبادلات مع بقية العالم العثماني (نصف إجمالي تجارة مصر)»[2].

هكذا يوجد باحثون منصفون في أوروبا ، لكن أساتذة التاريخ تعلقت قلوبهم بالمغرضين

---

(١) جيل فانتشتاين : الإمبراطورية العثمانية في عظمتها . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ٣٣٧) .

(٢) هنري لورنس : الحملة الفرنسية في مصر ، بونابرت والإسلام (ص ٧٤) .

منهم فحسب . لأن كلام هؤلاء المغرضين يوافق المناخ الثقافي العام السائد في البلاد ، والذي لا يمكن للأساتذة أن يخرجوا عنه ، وإلا شذوا عن المألوف وجانبوا المعروف . ومما يتعجب له أن كثيرا من الأساتذة ، لاموا الدولة العثمانية على تأخرها في محاربة البرتغال في البحار الهندية ، كما لاموها على فتح مصر وإزالة دولة الجراكسة . وهذا تناقض فاضح ، لأنه ما كان يمكن للعثمانيين أن يحاربوا البرتغال إلا عن طريق مصر ، وأن الاقتصار على تقديم المساعدات للسلطنة المملوكية ، لم يجد نفعا . فتعين على العثمانيين أن يتولوا الصراع بأنفسهم مما حتم عليهم فتح مصر . فمن لام العثمانيين على كلا الأمرين معا فقد ناقض نفسه . كما يتعجب من قول د.عمر عبد العزيز كما نقلناه عنه آنفا (البرتغال طردوا المسلمين من المحيط الهندي). فهذا كلام غير علمي على الإطلاق ، وكل الأدلة التي سيقت آنفا ، تنفي كلام د.عمر من أصله .

مزاعم التأثير الأوروبي

ردد كثير من أساتذة التاريخ مزاعم التأثير الأوروبي في الحضارة العثمانية . سواء ما زعموه من اقتباس العثمانيين المخترعات الحديثة من أوروبا ، أو بدخول كثير من الأوروبيين في الإسلام وتبوئهم مراكز رفيعة في الدولة .

قال د.عمر عبد العزيز : « بالرغم من أن حركة الإصلاح والتجديد قد بدأت فعلا في أوائل القرن التاسع عشر ، إلا أن ذلك، لا يعني أن التأثير الغربي في الدولة العثمانية لم يكن موجودا قبل ذلك القرن . فالمدافع التي استعملها محمد الفاتح لدك أسوار القسطنطينية والخرائط البحرية والسفن الشراعية في الأسطول العثماني ، والتحسينات التي طرأت على أحواض السفن ، وفن العمارة في مسجد نور العثمانية في اصطنبول ، كلها تشهد على التأثير الغربي في الدولة العثمانية »[1].

قلت : قول د.عمر عار عن الصحة . ويخالف ما هو معلوم من التاريخ بالضرورة ، عن خط سير الحضارة . ومعلوم أنه في تلك الفترة كان ميزان الحضارة مائلا للمسلمين ، ولم يكن

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٢٤٦) .

للأوروبيين فيه نصيب . وإنما تأثر العثمانيون بمن سبقهم من دول المسلمين . ومعلوم أن مسلمي الأندلس الذين استقبلتهم الدولة العثمانية بعد طردهم من بلادهم ، قد حملوا معهم علومهم إلى اصطنبول . كما نهل العثمانيون أيضا ، من مراكز الحضارة ومنابع العلم في سائر بلاد المسلمين ، في سمرقند وخراسان وكرمان والقاهرة ودمشق ، سواء بعلماء وفدوا على الدولة العثمانية من هذه البلاد ، أو بطلاب علم خرجوا من الأناضول لتحصيل العلم من منابعه في هذه البلاد ، ثم عادوا لينشروه في بلادهم . ومن يراجع كتب التراجم يتبين له ذلك. وقد ذكر صاحب الشقائق نخبة من العلماء من هؤلاء وهؤلاء . ونذكر منهم :

١- موسى باشا ابن المولى محمود قاضي بورصة ، الشهير بقاضي زادة ، من علماء الهندسة والرياضيات في زمن السلطان مراد الأول . وقد تلقى العلم في خراسان ، ثم في سمرقند حتى ولاه ملكها على المرصد الفلكي الذي أنشأه هناك . قال عنه صاحب الشقائق : « وكان الأمير المذكور (ألغ بك ملك سمرقند) محبا للعلوم الرياضية ، فقرأ عليه من العلوم الرياضية كتبا كثيرة ، واعتنى هو بالرياضة أشد اعتناء حتى برع فيها وفاق على أقرانه ، بل على من تقدمه . وشرح أشكال التأسيس في الهندسة ، في سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وشرح كتاب الجغميني في الهيئة في سنة أربع عشرة وثمانمائة ».

٢- حاجى باشا من علماء عصر السلطان يلدرم بايزيد : « كان رحمه الله من ولاية آيدن أيلي في غرب الأناضول ، وارتحل إلى القاهرة ، وقرأ هناك على الشيخ أكمل الدين . ومن شركاء درسه الشيخ بدر الدين المذكور . وكان له قبول تام عند الشيخ أكمل الدين ، وقرأ العلوم العقلية على المولى مبارك شاه المنطقي ، وكان مقبولا عنده أيضا ، وعرض له مرض شديد اضطره إلى الاشتغال بالطب حتى مهر فيه ، وفوض له بيمارستان مصر ودبره أحسن تدبير . وصنف كتاب الشفا في الطب ، باسم الأمير محمد بن آيدين ، وصنف مختصرا فيه أيضا بالتركية وسماه التسهيل ».

٣- المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني ، رحل إلى القاهرة وتفقه على علمائها ، وأجازه ابن حجر العسقلاني في الحديث ثم عاد إلى بلاده ، وجعله السلطان مراد الثاني مؤدبا لابنه الأمير محمد (السلطان محمد الفاتح فيما بعد).

٤- المولى علاء الدين علي القوشجي ، قرأ على علماء سمرقند ، ثم رحل إلى كرمان ، وقرأ على علمائها ثم عاد إلى سمرقند . وتولى على المرصد الفلكي بعد وفاة قاضي زاده الرومي ، وذلك بعد أن صنف رسالة في حل إشكال القمر الذي تحير فيه الأقدمون . ثم وفد على السلطان محمد الفاتح ، فأكرمه وقدم له رسالته في علم الحساب وسماها المحمدية ، قال صاحب الشقائق : « وهي رسالة لطيفة لا يوجد أنفع منها في ذلك العلم ، ثم إن السلطان محمدا خان ، لما ذهب إلى محاربة السلطان حسن الطويل ، أخذ المولى المذكور معه وصنف في أثناء السفر رسالة لطيفة في علم الهيئة ، باسم السلطان محمد خان ، وسماها الرسالة الفتحية لمصادفتها فتح عراق العجم . ولما عاد السلطان محمد خان إلى مدينة قسطنطينية ، أعطاه تدريس مدرسة أيا صوفيه » .

٥- المولى عطاء الله العجمي ، تلقى العلم في بلاد العجم (فارس وكرمان وخراسان) ثم وفد على السلطان محمد الفاتح . فال عنه صاحب الشقائق : « وكانت له يد طولى في العلوم الرياضية ومعرفة الزيجات واستخراج التقاويم . ورأيت له رسالة كبيرة في علوم الرياضيات لحل الاسطرلاب والربع المجيب والمقنطرات . ورأيت له رسالة لطيفة في معرفة الأوزان . وسمعت بعض أساتذتي أنه كان يقول في حقه ، ما رأيت من العلوم كلياتها وجزئياتها إلا وفيها معرفة تامة . روح الله روحه ونور ضريحه ».

٦- المولى مظفر الدين على الشيرازي ، تولى التدريس في إحدى المدارس الثمان باصطنبول ، في زمن السلطان بايزيد الثاني ، وابنه السلطان سليم الأول . قال عنه صاحب الشقائق : « كان عالما بالعلوم كلها ، متمهرا في العلوم العقلية ، وكانت له يد طولى في علم الحساب والهيئة والهندسة . وكان له زيادة معرفة بعلم الكلام والمنطق ، وخاصة في حواشي التجريد وحواشي شرح المطالع . ورأيت في كتاب إقليدس في علم الهندسة ، أنه قرأه من أوله إلى آخره على الفاضل مير صدر ، وكتب عليه حواشي لحل مشكلات إقليدس . وفهمت من ذلك أن له مهارة تامة في ذلك العلم »[1].

---

(١) أحمد بن مصطفي طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣٥ ، ١٩٩).

٧- الشيخ محمد القوصوني رئيس الطب في مصر ، إبان السلطنة المملوكية ، ثم رافق السلطان سليم الأول إلى اصطنبول ، وجعله من هيئة أطبائه . ولما توفي في زمن السلطان سليمان ، أصبح ابنه محمود رئيسا للطب في الدولة العثمانية[١].

وهناك الكثير من العلماء ممن يضيق المقام عن ذكرهم . وفي الوقت نفسه ، **يعجز د.عمر عبد العزيز وغيره** من الأساتذة ، أن يقدموا لنا اسم عالم أوروبي واحد وفد على الدولة العثمانية ، فأكرمه السلطان وجعله ناظرا لمدرسة ، أو حتى مدرسا فيها . كما يعجزون عن تقديم اسم عالم مسلم واحد تتلمذ على أحد علماء أوروبا في ذلك الزمان . لأن أوروبا لم يكن عندها ما تقدمه للمسلمين في ذلك الوقت . ومعلوم أن الماء يستطرق من أعلى إلى أسفل وليس العكس . فما قاله د.عمر عبد العزيز وغيره ، إنما هو من جنس ما قاله **الأستاذ المجهول** ص ١٠٧ « أن السلطان محمدا الفاتح كان دائم التشاور مع الخبراء الأجانب » . دون أن يقدم لنا اسم خبير واحد منهم .! **ومثل قول د.أحمد عبد الرحيم مصطفي** : « وسقوط القسطنطينية ذاته فيما بعد ، كان مرجعه الأساسي المدفعية وغيرها من الأفانين الأوروبية » . **وقوله أيضا** : « وقد سبق للعثمانيين اقتباس نواحي التقدم العسكري والبحري ، واقتبسوا عن أوروبا بعض إنجازاتها في مجال العلوم الجغرافية والطبية ، ولكن ضاق نطاق الاحتكاكات بين الطرفين بعد القرن الخامس عشر ، مما أوجد بينهما هوة في المجالات التقنية والذهنية والنفسية ، مرجعها الفرق بين التقدم الغربي في مجالات العلوم والاقتصاد والفكر ، وبين جمود الشرق »[٢].

قلت : وكأن د.أحمد عبد الرحيم ، يرجع التطور عند العثمانيين ، إلى أنهم كانوا يقتبسون العلوم من الغرب الأوروبي حتى القرن الخامس عشر ، فلما احجموا عن ذلك أصيبوا بالجمود ثم التأخر .!! فهذا كلام ساقط بلا ريب ، ولا يسوي الحبر الذي كتب به ، ولا يختلف عن قول د.عمر عبد العزيز وغيره . وهو ليس مجرد خطأ تاريخي فحسب ، بل هو يدل على عدم فهم لخط سير حركة الحضارة .! وينطوي على هزيمة نفسية ، وهوان نفسي إلى حد أعماهم عن الحقائق التاريخية المسلم بها . فهم لم يروا لقومهم أي فضل سوى النقل عن أوروبا .!

---

(١) عاشق جلبي : ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٩٢ – ٩٤) .

(٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني (ص ٤٤ ، ١٧٠) .

أعوذ بالله من الخذلان وأسأله ثبات الجنان .

ولقد بسطنا القول فيما سبق في مسألة المدافع ، وبينا بطلان مزاعم جلبها من أوروبا . وذكرنا تفوق المركب الكيميائي للقذائف العثمانية عن نظيرتها الأوروبية . وضخامة السفن العثمانية من طراز « طونيلاتو ١٨٠٠ » عن سائر السفن الأوروبية . وبعد مدى مدافع السفن العثمانية عن نظيرتها الأوروبية . فكيف بالله عليكم يقول أستاذ كبير أن ذلك كان مجلوبا من أوروبا . ولو كانوا الأوروبيون على هذا القدر من العلم آنذاك ، فلماذا لم يصنعوا تلك المدافع والقذائف والسفن الكبرى لأنفسهم .؟! وبماذا تفسرون الانتصارات الساحقة للعثمانيين عليهم ، لو كانوا هم حقا أصحاب هذه المخترعات الحديثة .؟!. سأنقل لكم يا أساتذة التاريخ ، شهادات بعض المؤرخين الأوروبيين في ذلك الصدد ، لتطمئن بها قلوبكم .!

قال المؤرخ الفرنسي Pirenne : « كان السبب الرئيسى في نجاح العثمانية كمال تشكيلات الدولة والتفوق في التكنولوجيا العسكرية » . **وقال الفرنسيان أيضا** Benoist – Mechin : « كان السلطان سليمان على رأس جيش يسبق كل جيوش العالم الأخرى بأربعة عصور ، من حيث تأسيسه وأسلحته . وكان الوضع نفسه بالنسبة لجميع الأقطار الغربية كالإمبراطورية الألمانية ، إيطاليا ، فرنسا وأسبانيا »... وقد نشرت مجلة Chemical News الإنجليزية عام ١٨٦٨م عن الكيميائي F.A. Abel ، قوله عن مدفع السلطان محمد الفاتح : « البرونز كان من نوعية ممتازة ، ونسب الخليطة كانت جيدة . وأنه لا يمكن حاليا (بعد أربعة قرون) صنع تركيب يفوقه » ... أما ما ذكره د.عمر عبد العزيز عن الخرائط ، فنرد عليه بالتعليق الوارد في Jane Laroche Connaissance Des Arts ، عن خريطة العالم الملونة التي رسمها محي الدين بيري باشا ، للسلطان سليم الأول ، في عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م : « تدهش العقل وفوق مستوى عصره في علم الجغرافيا ، وتفوق بكثير مستوى علم الجغرافيا لدى الغربيين »[1].

أما بالنسبة للمعمار ، فإن منشآت العثمانيين المعمارية وقف أمامها الأوروبيون مشدوهين . ولم تكن لها صله بالعمارة الأوروبية ، بل كانت امتدادا للعمارة السلجوقية . وأشهر المعماريين العثمانيين وهو سنان باشا (ت٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م) ، وقد بنى أعلى منارة في أوروبا آنذاك في

---

(١) نقلت كل هذه الإفادات عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٣٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٤ ، ٥٢٩) .

مسجد السليمية ذي المنائر الأربع في أدرنه ، والذي يبلغ ارتفاع منارته ٥ , ٧٠ مترا ، ولا يفوقه في العالم إلا « قطب منار » في دلهي ، والذي بناه المسلمون في الهند . والمعمار سنان هو نفسه الذي بني جسر أوسيك عند التقاء نهري الطونه – درافا . وهو أطول جسر في أوروبا آنذاك . والمعمار سنان ، هو نفسه الذي بنى جسر موستار في الهرسك ، وهو أحد أعاجيب البناء الهندسي ، لأن ارتفاعه تسعة عشر مترا بالرغم من أنه بني على قنطرة واحدة . وقال عنه السائح الفرنسي A. Poullet الذي شاهده عام ١٦٥٨م : « دهشت للجرأة في إنشاء هذا الجسر الذي لا يقبل المقارنة . وكانت قنطرته الوحيدة ، أعرض من جسر Realte الذي يعتبر من خوارق الفن البندقي »... وقال عنه النمساوي R.Michel في عام ١٩١٢م : « هلال صار حجرا ...أثر لا مثيل له في كل العالم .. »... لذلك فإن المؤرخ المعماري الألماني Heinrich Gluck قال عن المعمار سنان : « معماري أعظم من مايكل أنجيلو » .

وقد شيد مصطفى باشا جسرا على نهر مريج (في بلغاريا) ويبلغ طوله ٢٩٥ مترا . قال عنه الألماني Cornelius Von Den Driesch : « جسر خارق للعادة في جماله يندر أن يشاهد مثله في أوروبا كلها »[1].

والحقيقة أن العمارة العثمانية ، كان لها شخصيتها المستقلة المستمدة بصفة خاصة من العمارة السلجوقية ، وبصفة عامة من العمارة الإسلامية . وفي ذلك يقول **جان بول رو** ، وهو أحد أبناء أوروبا المتخصصين في الآثار . فهو لن يحابي العثمانيين على حساب أبناء جلدته : « الواقع إن المهندسين المعماريين في القرن السادس عشر إذ يجربون جاذبية آيا صوفيا ، ويتعرضون لتأثيرها ، لن يصبحوا مع ذلك ناسخين مقلدين . فهم سوف يؤولون التقاليد التي ترجع إلى زمن السلاجقة ويظلون مخلصين لها » .

ثم يتساءل جان بول رو فيقول : « كيف يمكن لعمال أتراك مرتبطين بتكوين حرفي يرثه الأبناء عن الآباء ، ومنظمين في طوائف حرفية جد قوية ، أن يصبحوا بيزنطي النزعة ؟! إن الاعتراض الذي يتحدث عن تدخل يد عاملة غير تركية على الرغم من كونه مغريا ، لا يصمد للبراهين التي تثبت أن المساعدين وحدهم هم الذين كانوا من أصل مسيحي . وبطاقات دفع

---

(١) كل هذه الإفادات نقلتها عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٤١ – ٥٤٣) .

أجور العمال في ساحة بناء مسجد السليمانية تعتبر حاسمة في هذا الصدد »[1].

ومما يؤكد على وجود تلك الشخصية المستقلة للعمارة العثمانية ، قبة مسجد السليمية في اصطنبول ، الذي بناه المعمار الشهير سنان للسلطان سليم الثاني . إذ أن تلك القبة يبلغ قطرها ٢٨, ٣١ مترا[2] وتعد أكبر قبة على وجه الأرض آنذاك ، إذ كانت قبة آيا صوفيا يبلغ قطرها ٣١ مترا فحسب . والواقع أن بناء قبة بهذا الحجم ليس بالأمر الهين ، لصعوبة تثبيتها . ولكن المعمار سنان ابتكر طريقة جديدة . فبينما كانت قبة آيا صوفيا الضخمة مسندة على نصفي قبة من الشمال ومن الجنوب ، وعلى قوسين ممدودين على منصتين ضخمتين . فإن المعمار سنان أسند قبته الضخمة على ثمانية أعمدة مستطيلة ، ويتم استيعاب ارتفاعها في آن واحد بسلسلة من الأقواس وعقود الزوايا المتناوبة وبدعامات رشيقة تضبط إيقاع التكوين[3].

ففي هذا المثال ترى أن الخلاف بين أعظم عمارة بيزنطية وهي كنيسية آيا صوفيا وبين أحد أعظم أعمال سنان باشا المعمارية ليس بمجر خلاف ظاهري في النقوش أو الزخارف ولا حتى مجرد تطوير للعمارة البيزنطية بل هو خلاف جوهري في مسألة فنية شديدة الدقة يتوقف عليها سلامة البناء بالكامل .

في كل ما سبق ، بطلان مزاعم من زعم أن العثمانيين نقلوا الحضارة عن أوروبا . وفساد هذا القول ظاهر لكل من له مسكة عقل ولا يحتاج إلى سوق الأدلة . لأن ميزان الحضارة في ذلك الوقت وحتى نهاية القرن السابع عشر كان مائلا لصالح المسلمين على اختلاف أدوارهم . ومعلوم أن كل أمة تتأثر بمن سبقها ، ولا ريب أن العثمانيين تأثروا بالسلاجقة ونقلوا عنهم نظامهم الإداري والعسكري ، فكما هو معلوم أن العثمانيين في زمن أرطغرل والفترة الأولى من زمن عثمان ، كانوا إمارة تابعة لسلطنة سلاجقة الروم . وسلاجقة الروم بدورهم كانوا امتدادا للسلطنة السلجوقية الكبرى ، في أصفهان والري أيام السلطان آلب أرسلان وابنه

---

(١) جان بول رو : الفن العثماني في الأراضي التركية . ضمن كتاب : تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (٢/ ٣٧٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٤١) .

(٣) جان بول رو : الفن العثماني في الأراضي التركية . ضمن كتاب : تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (٢/ ٣٧٨، ٣٨٦) .

السلطان ملكشاه . وهؤلاء بدورهم تأثروا بالنظم والفنون التي كان قد أرسى دعائمها الفاتحون من المسلمين الأوائل في العصر الأموي والعباسي . وبلا شك أن كل دور من هذه الأدوار كان يضيف إلى من سبقه ويعدل في نظامه . ولا ريب أن العثمانيين تأثروا بهذا التراث الإسلامي التليد وأضافوا إليه الكثير . كما أن العثمانيين نقلوا الكثير عن المماليك في مصر ، فإن قانون نامه مصر ، الذي سنه السلطان سليمان القانوني ، فيه الكثير من القانون الذي سنه السلطان المملوكي الأشرف قايتباي . أما من زعم أن العثمانيين نقلوا الحضارة عن أوروبا فهذا باطل ، لأن أوروبا في حقيقة الأمر لم يكن عندها ما تضيفه إلى المسلمين آنذاك . ومعلوم أن الماء يستطرق من أعلى إلى أسفل وليس العكس .

الينى جري (الإنكشارية)

هذه المسألة لاكتها الألسن وأذاع بها كثير من المستشرقين وأذنابهم من أساتذة التاريخ المسلمين . وشنعوا على التاريخ العثماني زاعمين أن تلك الحضارة العثمانية ، وتلك الانتصارات التي حققها بنو عثمان ، كانت بأيدي أبناء أوروبا المسيحيين . فأسأل الله أن يعينني على استجلاء هذه المسألة . فأقول وبالله التوفيق إن كلمة « يني جري » (يكى جرى)[1] هي كلمة تركية من مقطعين ، وتنطق في العربية : يني تشري .. فكلمة « يني » تعني جديد ، وكلمة «جري» تعني العسكر . أي العسكر الجديد .

وقد أنشئ هذا الجيش في عهد السلطان أورخان وقيل في عهد السلطان مراد الأول . وكان مصدره الأسرى من الأطفال النصارى من الحروب في البلقان مع الصرب والبلغار وغيرهم . حيث أنه طبقا للشريعة الإسلامية ، فإن بيت مال المسلمين له خمس الغنائم فكان يؤخذ خمس الأسرى لبيت المال . فكان ينتقى الأطفال ويرسلون إلى الأسر التركية في الأناضول ، لينشؤا على الإسلام وعلى التقاليد والقيم الأصيلة وليتعلموا القرآن . ثم إذا ما شبوا يعادون إلى العاصمة ، ويتلقون التدريبات العسكرية ، ثم ينضمون إلى الجيش العثماني في أوجاق

(١) هكذا كانت تكتب في العصر العثماني ، فإن حرف الكاف الذي تعلوه ثلاث نقاط ينطق نونا . ومثل ذلك الرتبة العسكرية التي كانت تستخدم في مصر إلى عهد قريب « بك باشي » فالصواب أن تنطق بن باشي . وهي كلمة من مقطعين وتعنى ريس ألف . بن : ألف ، باش : رئيس أو قائد ، والياء هي حرف يدل على الإضافة .

(فيلق) خاص يسمى أوجاق اليني جري . ثم بعد هزيمة أنقره على يد تيمورلنك ، واشتعال الحرب الأهلية ، مما أدى إلى توقف الفتوحات ، فعدم الأسرى ونضب ذلك المصدر . ففرضت الدولة على رعاياها من النصارى الأرثوذكس ما يسمى « دوشيرمه » ، وتنطق بالعربية ديفشيرمه . حيث كان يتم تجميع بعض الأطفال من الرعايا النصارى للدولة ، من البلقان بنسبة طفل من كل أربعين أسرة ، أي بنسبة ٢,٥ ٪ ، ولم يكن يؤخذ الطفل الوحيد للأسرة ولم يكن يؤخذ اليهود ولا الكاثوليك . ويكون عمر الأطفال ، من سبع إلى عشر سنوات وقيل أكثر من ذلك قليلا . وتتم تلك العملية مرة كل ٣- ٥ أعوام . ولم يكن يؤخذ أطفال المسلمين باستثناء أطفال البوصنه ، بعد أن ألحوا في ذلك . وكان هؤلاء الأطفال يرسلون إلى الأسر التركية في الأناضول كما ذكرنا ، ثم يلتحقون بمدرسة « الأندرون » ، وهي مدرسة داخل قصر السلطان ، ليتلقوا فيها العلوم العسكرية وغير العسكرية . ثم يختار منهم من يلحق بالخدمة في القصر السلطاني ، ومنهم من ينضم إلى أوجاق اليني جري . ومنذ عصر السلطان محمد الفاتح ، أصبح الصدر العظم والوزراء وأغلب الولاة في الأقاليم يختارون من ضباط اليني جري .

هؤلاء هم اليني جري ، وهذا مما لا يختلف عليه أحد من المؤرخين والأساتذة . ولكن قد شنع كثير من المستشرقين على الدولة العثمانية باتهامها بالوحشية ، ونزع الأطفال من أحضان أمهاتهم وتشتيت شمل الأسرة ، والتنكيل بالنصارى الخ من جنس هذا الكلام . والأمر ليس كذلك على الإطلاق . إذ أن الناس كانوا يتهافتون لإدراج أبنائهم ضمن الدوشيرمه . لأن الجيش العثماني ، كان أقوى جيش في العالم ، كما أن الدولة العثمانية كانت أرقى دولة في العالم ، وقيادات تلك الدولة كانت تخرج من اليني جري . فمن الطبيعي أن يحلم كل رجل بأن يرى ابنه صدرا أعظم ، أو وزيرا في الديوان ، أو أميرا للأمراء أو قائدا للجيش . حتى أنهم لجئوا إلى دفع الرشا لأجل ذلك . ولما كان نظام الدوشيرمه لا يدخل فيه أبناء المسلمين ، لجأ بعضهم إلى دفع الرشا لإدخال أبنائهم فيه . وقد عبر المؤرخ التركي **مصطفى سلانيكي** عن ذلك في أحداث سنة ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م ، عندما صرح بأن القائمين على نظام الدوشيرمه قبلوا الرشاوى من الناس لقبول أولادهم ثم قال : « وبسبب هذا الأسلوب دخل الأجانب لمعظم

أوجاقات الينى جري وقيدت أسماء اليهود والروس والجركس والأتراك والأراذل وأولاد الحرام ، وقبضوا الأموال الكثيرة ، وبسبب هذا امتلأت الدنيا بالفساد والظلم ، وكثرت البدع السيئة تدريجيا . وعندما رفعت العرضحالات إلى الباب العالي ، صدر فرمان بعزل أغا الينى جري محمود أغا وكتخدا بيك »[١].

يخبرنا مصطفى أفندي هنا ، أنه لما كان نظام الدوشيرمه مقصورا على رعايا الدولة من نصارى البلقان ، وحرمت الطوائف الأخرى منه ، سعى اليهود والروس إلى دفع الرشا لقبول أبنائهم فيه ، وحتى الجراكسة[٢] لأنهم كانوا مسلمين فلم يكن يقبل أبناؤهم ضمن الدوشيرمه ، فلجئوا إلى دفع الرشوة . وهذا يدل على مدى تهافت الناس على إلحاق أبنائهم بأوجاق الينى جري بصفة خاصة . وقد ذكر ذلك المستشرقون أنفسهم وبعض المؤرخين الغربيين. منهم بيتر شوجر : « كان ضابط الإنكشارية المسئول عن التجنيد للدفشرمه يأخذ رشوة ليس لإغضاء الطرف عن أخذ الصبية للتجنيد ، بل لأخذ من لا تنطبق عليهم شروط التجنيد !! وأخيرا هناك مثال لافت للنظر يتمثل في حالة مسلمي البوصنه الذين أصروا على أن يؤخذ أطفالهم إلى اصطنبول في مطلع عام ١٥١٥. وبناء على طلب مسلمي البوصنه تم إلحاق ألف صبي من البوصنه في مدارس الأندرون ، بدون تطبيق عملية الاختيار المعتادة التي تقوم على فرز صفوف أبناء الأجانب ، وهي عملية تكررت مرارا في القرن السادس عشر . ومن الملاحظ إقدام الأسر المسيحية وكذلك المسلمة في البوصنه وفي أماكن أخرى على دفع رشوة من أجل إلحاق أبنائهم بالدفشرمه . لابد وأن يكون بناء على اعتقادهم في مميزات هذا النظام ليس فقط لأولادهم ولكن لهم أيضا »[٣].

وكما ذكرنا فإن الجيش العثماني كان أقوى جيش في العالم ، فيتهافت الناس على الانضمام إليه. وقد رأينا في زماننا هذا كثيرا من الشباب من جنسيات مختلفة ، يسعون للالتحاق بجيش

---

(١) تاريخ مصطفي أفندي سلانيكي (ص ١٧٦) .

(٢) أظن أنه عنى بالجراكسة أبناء أمراء المماليك الذين أخذهم السلطان سليم من مصر وعينهم في الروميلي لأن السلطان سليمان لم يسمح لهم بالعودة إلى مصر مع من عاد . محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٠٣) .

(٣) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٧٧) .

الولايات المتحدة الأمريكية . وقد جمع الجيش الأمريكي عددا كبيرا من هؤلاء ، واستخدمهم في حرب العراق عام ٢٠٠٣م . وقد تسابقوا على ذلك آملين الحصول الجنسية الأمريكية[1]. ولكني لست بصدد الخوض في تلك المسألة . وإنما أدمى قلبي ما تواتر على ذكره أساتذة التاريخ في ضباط وجنود الينى جري ، إذ طفقوا يطلقون عليهم لفظ « **أبناء المسيحيين** » .!

قال د.محمد أنيس : « النظام العثماني قد وضع عمدا بشكل يسمح للعبيد الذين جلبتهم الدولة مختارة ، وتوصيلهم إلى منصب الوزارة ، وتزويجهم من أميرات . أي أنها أحضرت هؤلاء العبيد المسيحيين ليحكموا دولة إسلامية »... **وقال أيضا** : « وأهم خلاف بين الهيئة الإسلامية والهيئة الحاكمة ، أن الهيئة الإسلامية كانت تستمد أعضاءها من الأسر الإسلامية ، بينما تستمد الهيئة الحاكمة أعضاءها من المسيحيين »... **وقال أيضا** : « إن أصحاب المناصب الكبرى في الدولة كانوا من أصول أوروبية أيضا . وذلك أن الممتازين من أبناء المسيحيين الذين جمعوا في ضريبة الدم ، كانوا يوجهون نحو تربية ثقافية وعلمية وفنية ، لإعدادهم لتولي مناصب الدولة »[2].

قال د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : « وفر السكان مسيحيو الأصل للدولة ، أعظم ساستها وقادتها العسكريين . وبذلك تم إيجاد عنصر يوازن العلماء والتقاليد الإسلامية القديمة » ... **وقال أيضا** : « أن رعاياها مسلمين ومسيحيين ، كانوا يتمتعون بقسط من الحرية الشخصية من نتاج كدهم ، يفوق ذلك الذي كان ينعم به رعايا الدول الغربية . والفضل في ذلك يرجع إلى حد ما إلى كون الأغلبية العظمى من موظفي الدولة من أصل مسيحي »[3].

قال د.أحمد فؤاد متولي : « فبينما كانت الإمبراطورية النامية يقوم على إدارتها في أيامها الأولى

---

(١) ومما لا شك فيه أنه في بلداننا الفقيرة في إفريقيا وآسيا يوجد من يعيشون في أكواخ وأعشاش من الصفيح . ولدى الواحد منهم أبناء ينوء كاهله بأعبائهم ، فلا شك أنه سيبتهج إذا ما عرض عليه أن يؤخذ أحد أبنائه ويرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليتلقى التعليم هناك ثم بعد أن يتخرج يحصل على وظيفة في أرفع الأجهزة الحكومية الأمريكية وقد يصل إلى منصب وزير أو القائد العام للجيش الأمريكي . أتراه يرفض أم يقبل ؟! ولو أعلنت الحكومة الأمريكية عن طلب أطفال أو صبيان لهذا الغرض ، لحصلت على أكثر مما تطلب ولن تكون في حاجة إلى أخذ أحدهم قهرا أو نزعه من أحضان أمه كما زعم الزاعمون عن الدولة العثمانية .

(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٧٥ ، ٩٨ ، ١٠٢) .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني (ص ٦٤ ، ٦٩) .

مسلمون أحرار ، فقد حل محلهم دون استثناء عبيد السلطان على نطاق أوسع ، حتى وصل الأمر إلى أن كل منصب تقريبا في الهيئة الحاكمة للإمبراطورية أصبح يشغله أما مسيحي مجند ، أو عبد يقتنى بطريقة أو بأخرى على حذ قول هاميلتون جب وهارولد بوون »[١].

قال د.محمود الحويري : « ويقول المؤرخ لودج ، ولمدة قرنين لم تستطع قوة حربية التغلب على الإنكشارية ، وبفضلهم ضمن العثمانيون انتصار الهلال بأطفال الصليب »[٢].

قلت : كانت النقول السابقة هي من أبشع ما قرأت من كلام في كتب أساتذة التاريخ . ولست أدرى إلى متى سيظلون ينقلون عن المستشرقين دون عقل يفكر أو قلب يذكر. فبداية نرد على قول المؤرخ لودج الذي نقل كلامه د.محمود الحويري دون أن ينكره أو حتى يعلق عليه ، بالرغم من أنه أستاذ كبير ، فحسبنا الله ونعم الوكيل. فنقول إن الينى جري بلا شك كانوا أفضل فرق الجيش تدريبا وأحسنهم أداء . لكنهم لم يكونوا أبدا سبب الانتصارات الكبرى التي حققها العثمانيون . لأن عددهم في زمن الفتوحات الكبرى كان في حدود نصف عشر الجيش ، أي لا تزيد نسبتهم عن ٥٪. فإن عدد الينى جري في عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ، أي في العام الذي تسلطن فيه السلطان محمد الفاتح ، كان ثلاثة آلاف . وفي الوقت نفسه كان عدد الجيش الذي ساقه على القسطنطينية بعد ذلك بعامين ، عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ، كان مائة ألف مقاتل[٣]. ولضرب مثال آخر ، نقول قد ذكر **ابن طولون** ، أن الجيش الذي فتح به السلطان سليم مصر والشام عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، قيل أنه كان مائة وثلاثين ألفا[٤]. هذا بخلاف الجنود الذين يحمون الثغور في الأناضول والروميلي . وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، أي عند وفاة السلطان سليم عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م ، كان عد الينى جرى ثمانية آلاف[٥]. ولا ريب أن جيش السلطان سليمان القانوني كان أكبر من جيش السلطان سليم ، وقد ذكر مصطفي أفندي سلانيكي أن عدد الينى جري عند وفاته عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م ، كان اثني عشر ألفا وثلاثة

---

(١) د. أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٩٣) .

(٢) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٥١) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ١٣٣ ، ٢/ ٣٩٥) .

(٤) شمس الدين بن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (ص ٣٣٩) .

(٥) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٣٩٥) .

(١٢٠٠٣)»[1]. فعلى ذلك نستطيع أن نقول ونحن مطمئنين أن الينى جري في زمن الفتوحات الكبرى ، كان عددهم لا يتجاوز ٥٪ ، وإن أردتم أن نكون في سعة من أمرنا فلنقل ما بين ٥ – ٧٪ ، فمن زعم أن الجيش العثماني كان ينتصر بفضل الينى جرى وحدهم فهو واهم .

أما وصف أساتذة التاريخ إياهم بأنهم المسيحيون ، أو أبناء المسيحيين فهذا باطل ، وإساءة لهؤلاء الجنود الشجعان . لأنهم مسلمون وقد دخلوا في الإسلام منذ نعومة أظفارهم ، وشبوا على عقيدة الإسلام وعلى آدابه ، وعلى نور القرآن وأخلاقه ، فلا يضرهم إن كان آباؤهم نصارى أو يهودا أو وثنيين . فإن كانوا أحرزوا مجدا ، فالإسلام هو الذي صنعهم . وإلا فلماذا لم تتفتق هذه الكفاءة العسكرية لأبناء النصارى هؤلاء وهم في أوطانهم .؟! ولماذا كانوا ينتقلون من هزيمة إلى هزيمة .؟! ولكنهم لما أسلموا ، وتربوا وشبوا على تقاليد الإسلام وقاتلوا في سبيل الله ، وفقا لنظم الإدارة الإسلامية في الدولة العثمانية ، أحرزوا من النصر ما أحرزوه . وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ »[2].

يخبرنا رسول الله ﷺ أن الإسلام هو الأصل في جميع البشر ، وأن الشرك طارئ عليه بفعل تلقين الآباء لأبنائهم إياه . وليس من آداب الإسلام أن يعير المسلم ، بأنه جاء من صلب رجل كافر. وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا أبناء الوثنيين . فهل يصح أن يقال أن أبناء الوثنيين هم الذين فتحوا فارس والروم .؟! لقد ظل العرب لا يساوون شيئا بين الأمم ، بل لم يستطيعوا أن يوحدوا أنفسهم في كيان سياسي واحد ، فلما دخلوا في الإسلام وأعادهم الله ﷻ إلى الفطرة ، وطهرهم من الشرك الطارئ عليهم ، فتحوا البلاد وتضاءلت أمامهم الأمم

---

(١) تاريخ مصطفي أفندي سلانيكي (ص ٥٠) .

(٢) رواه البخاري (٢/ ٩٥) ، مسلم (٤/ ٢٠٤٧) ، أبو داود (٤/ ٢٢٩) ، أحمد (١٣/ ١٣٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٣٣) ، عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١١٩) ، عبيد الله بن بطة في الإبانة (٤/ ٧٠) ، أبو يعلى الموصلي في مسنده (١١/ ٢٨٢) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه (١/ ٣٣٨) .

الكبرى . فالإسلام هو مصنع الرجال . فطارق بن زياد الذي فتح الأندلس كان من أصول وثنية ، وعامة جيشه كان من البربر من الداخلين في الإسلام حديثا من أبناء الوثنيين . فهل يصح أن يقال أن أبناء الوثنيين هم الذين فتحوا الأندلس .؟!

فالإسلام هو من صنع هؤلاء . وإن أردتم أن تعرفوا كيف يصنع الإسلام هؤلاء الرجال ، فحسبكم رواية الطبيب البندقي نيقولو باربارو عن فتح القسطنطينية ، كما رأها بعيني رأسه . ففيها إيضاح للفرق بين الأسرى النصارى الذين أسروا كبارا وبقوا على دينهم ، واستخدمهم السلطان محمد الفاتح في وضع السلالم على الأسوار ، ولتلقي الضربة الأولى من البيزنطيين . وبين اليني جري الذين تربوا على الإسلام وشبوا عليه . فقد ذكر أن الهجوم النهائي على القسطنطينية تم على ثلاثة مراحل ، الأولى كانت من هؤلاء الأسرى والثانية من المسلمين من غير الجيش النظامي (المتطوعين) والثالثة كانت من اليني جري . فقال عن الفرقة الأولى : « كانت مهمة المجموعة الأولى التي تألفت من المسيحيين هي حمل السلالم ونصبها على الأسوار . كما حاولوا صعود السلالم حتى أعلى الأسوار ، وفي الحال قمنا بطرحهم أرضا بواسطة رجالنا ، الذين وضعوا نهاية لهم فقتلوا جميعا في الحال ».

وقال عن الفرقة الثانية (المسلمون المتطوعون) .

« تقدم رجال الفرقة الثانية كالأسود التي تحررت من سلاسلها لمهاجمة الأسوار في منطقة القديس رومانوس . وعندما شاهدنا ذلك الحدث المرعب دق ناقوس الخطر في الحال ... تألفت الفرقة الثانية من رجال يتصفون بالشجاعة ، فقد هاجموا الأسوار وقاموا بإرهاق وانتهاك أولئك المدافعين عن المدينة » .

وقال عن الفرقة الثالثة (الييني جري) : « قامت الفرقة الثالثة بالهجوم على أسوار المدينة البائسة ، ولم يكن جنودها يحاربون كالأتراك بل مثل الأسود الضارية . وكانت صيحاتهم وصوت الصنج النحاسية تبدو كشيء ليس له مثيل في هذا العالم . وتم سماع صراخهم وصيحاتهم على البعد بالقرب من الأناضول »[1].

قلت : انظر بالله عليك إلى الفرق بين من تربوا في حجر العثمانيين على الإسلام والجهاد ،

(١) نيقولو باربارو : يوميات الحصار العثماني (ص ١٦٩ ، ١٧٠) .

وبين من تربوا في حجر الأوروبيين وبقوا على دينهم . ستعلم حينئذ أن الإسلام هو مصنع الرجال وأن الإسلام هو من صنع هؤلاء لا أصلهم الأوروبي . فإن قيل أن هؤلاء الأسرى من الفرقة الأولى ، لم يكونوا يقاتلون بحماس لأنهم نصارى والقسطنطينية هي عاصمة النصرانية في الشرق . قيل هذا باطل ، لأن النصارى من الصرب والبلغار كانوا يقاتلون البيزنطيين في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، بالرغم من أنهم جميعا من الأرثوذكس . ثم إن هؤلاء الأسرى الذين استخدمهم السلطان محمد الفاتح ، كانوا غالبا من اللاتين (الكاثوليك) ، لأن حروب الدولة العثمانية الأخيرة قبل فتح القسطنطينية ، كانت ضد حلف صليبي معظمه لاتيني بزعامة المجر . ولا يخفي على أحد عظم البغض بين اللاتين والأرثوذكس . وقد بدا ذلك واضحا في النصف الأول من القرن الثالث عشر عندما استولى اللاتين على القسطنطينية ، لما يقرب من ستين عاما . فإن قيل أن جيوفاني جستنياني وهو لاتيني كان قائدا لعملية الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، عندما حاصرها السلطان محمد الفاتح . قلت : إن أكابر القادة من أمثال جستنياني ، والمؤرخين من أمثال باربارو ودوكاس هم من النخبة التي تعي المخاطر التي تحدق بأوروبا إذا فتح المسلمون القسطنطينية . أما العامة من الفلاحين والحدادين ، وهم غالب الأسرى فلا يعون ذلك بالتأكيد ، ولا تحركهم إلا العصبية القبلية . ثم إن أقررتم أن الأسرى النصارى لم يحاربوا بحماس في حين أن الينى جرى قد حاربوا بحماس ، فقد أبطلتم مذهبكم ، وأقررتم بأن الينى جري الذين تربوا على الإسلام ، قد انتفت عاطفتهم الدينية النصرانية من قلوبهم تماما ، فلم يروا في البيزنطيين وسائر الأوروبيين إلا أعداء لهم يجاهدونهم في سبيل الله .

ومما يدل على أن الينى جري نالوا تلك المهارات والقدرات لأنهم تربوا في حجور العثمانيين ، هو الوصف الذي وصف به الرحالة الأوروبي ، الذي رأي الجيش العثماني في الأناضول في زمن السلطان أورخان ، أي قبل أن تؤسس فرقة الينى جري . فقد قال : « إنهم على أتم الاستعداد للتحرك بسرعة في أي وقت . ولمائة جندي مسيحي ساعة انتقالهم وتحركهم من الضوضاء ، ما لا يحدثه عشرة آلاف جندي عثماني . عندما تدق طبول الحرب تجدهم يزحفون على الفور لا يتخاذلون ولا يتوقفون حتى تصدر إليهم الأوامر . يجهزون أسلحتهم باهتمام وحماس ،

ويقطعون في ليلة واحدة من المسافة ما يقطعه أعداؤهم المسيحيون في ثلاثة أيام »[1].

هكذا كان الفرق بين العثمانيين والأوروبيين في ميدان القتال ، قبل أن توجد فرقة اليني جري . فلا ريب أن اليني جري ، إنما تعلموا النظام وفنون القتال لما تربوا بين الأتراك ، ولما التحقوا بالجيش العثماني ، في ظل مؤسسات الدولة العثمانية ذات المرجعية الإسلامية . فالإسلام هو الذي صنعهم وليس العكس . ولو أردنا أن نضرب مثلا من الواقع المعاصر على أن العبرة بالتنشئة والتربية . فلو افترضنا أن طفلا عربيا أرسل إلى أوروبا الغربية أو إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتلقى العلم هناك حتى أصبح عالما كبيرا . أينسب هذا الفضل إلى أصله العربي ، أم إلى نظام الحياة الغربي الذي عاش فيه فجعل منه عالما كبيرا .

ثم لنا سؤال نتمنى أن يجيب عليه أحد الأساتذة وهو : لماذا لم تقولوا ذلك عن الجراكسة .؟! وشأنهم شأن اليني جري ، فهم جلبوا من بلادهم إلى مصر والشام في سن صغيرة ، ولقنوا الإسلام ثم صاروا سلاطين وقادة عظام . وكل من ولى السلطنة منهم ، كان من أبناء الوثنين أو النصارى إلا برقوقا . وقد قال عنه مرعى الحنبلي : « وليس في الجراكسة من تسلطن وأبوه مسلم غيره ولقب بالظاهر »[2].

لن يستطيع أحد منهم أن يجيب على ذلك السؤال . لأن الجواب مخجل حقا وهو أن المستشرقين والمؤرخين الأوروبيين لم يقولوا ذلك عن الجراكسة ، وإنما قالوه عن اليني جري فحسب . وأغلب أساتذة التاريخ تبع لهم . وقد ذكرنا آنفا ما نقله د.الحويرى عن « لودج » ، وما نقله د.أحمد فؤاد عن « جب » و « بوون » ، دون أن ينكرا عليهم ذلك . ولا حتى كلفا نفسيهما عناء التعليق على كلامهم . فهكذا أغلب أساتذة التاريخ ، ينقلون عن المستشرقين كما لو كانوا ينقلون عن كتاب منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

ولكن الأمر الذي نحن بصدده يرجع إلى أبعد من هؤلاء المستشرقين المحدثين . فقد قال ذلك من قبلهم البيزنط واللاتين الذين عاصروا فتح القسطنطينية . فقد قال جياكومو

---

(١) نقلا عن د.أحمد فؤاد متولي : تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي (ص ٤٨) .

(٢) مرعى بن يوسف الكرمي الحنبلي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولى مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . ورقة (٥٩) .

تيدالدى : « زاجان باشا ذلك الألباني المسيحي المرتد ، فكان موقعه فوق صفحة الماء أمام بيرا على رأس قوة من المسيحيين المرتدين . جاء معظمهم من ألبانيا بعد أن ارتدوا عن دينهم »... وقال ليوناردو الخيوسي : « كانوا في الأساس من المسيحيين أو أولاد المسيحيين الذين تخلوا عن دينهم ، وكانوا يدعون بالإنكشارية »[١].

هذا الوصف أو هذا الاصطلاح (أبناء المسيحيين) أول من استخدمه كان اللاتين ، ثم نقله عنهم المستشرقون والمؤرخون الأوروبيون المتأخرون ، ثم نقله عنهم أساتذة التاريخ المسلمون دون عقل يفكر أو قلب يذكر . والحق أن كلا من الجراكسة واليني جري الذين دخلوا في الإسلام في طفولتهم وأحسنت تربيتهم ، قد انفصلوا تماما عن بيئتهم الأولى وأصبحوا لا يعرفون إلا الإسلام والسلطان والجهاد في سبيل الله . وإذا أردتم ضرب الأمثال فنقول وبالله التوفيق . من الجراكسة :

١- في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م أمر الأمير الكبير برقوق بهدم كنيسة أبي النمرس في الجيزة ، بسبب أنهم خالفوا شروط الذمة ، وضربوا نواقيسهم بصوت عال حتى في يوم الجمعة ، وتكاد لا تسمع صوت الخطيب . فهدمها وبنى مكانها مسجدا[٢]. فهنا الحمية الإسلامية قد ألهبت صدر برقوق لما رأي صوت ناقوس كنيسة النصارى يعلو على صوت خطيب الجمعة .

٢- في عام ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م استدعى السلطان المؤيد شيخ بطرك النصارى (بطريرك الإسكندرية) ، ووبخه وأهانه بسبب تعدى ملك الحبشة النصراني على المسلمين هناك . ولأن كنيسة الحبشة تابعة لكنيسة الإسكندرية . ثم شدد عليه بأن يلزم جميع النصارى واليهود أيضا بشروط الذمة ، من عدم التشبه بالمسلمين في الملبس وعدم ركوب الحمير وعدم العمل في الدواوين[٣]. ولا شك أن ذلك كان بدافع من حميته الإسلامية ، بالرغم من أنه مملوك مجلوب

---

(١) جياكومو تيدالدي : الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الإمبراطور التركي ، ليوناردو الخيوسي : تقريره إلى نيقولا الخامس عن سقوط القسطنطينية . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١١٥ ، ١٣١) .

(٢) تاريخ تقي الدين بن قاضى شهبة (٣/ ٥٧٧) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٥/ ٥٣) ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٢٧١) .

(٣) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٦/ ٥٠٠) ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ٣٥١) .

من بلاد الجركس من أبوين غير مسلمين . ومما يلفت النظر هو تعقيب ابن تغري بردي على ذلك ، إذ أنه يدل على كمال الحمية الإسلامية في قلبه هو الآخر ، بالرغم من أباه تغري بردي لم يولد مسلما كما هو معلوم . فقد قال : « ولعل الله أن يسامح الملك المؤيد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه ، فإنها من أعظم الأمور في نصرة الإسلام . ومباشرة هؤلاء النصارى في دواوين الديار المصرية ، من أعظم المساوئ التي يؤول منها تعظيم دين النصرانية . لأن غالب الناس من المسلمين تحتاج إلى التردد إلى أبواب أرباب الدولة لقضاء حوائجهم ، فمهما كان لهم من الحوائج المتعلقة بديوان ذلك الرئيس ، فقد احتاجوا إلى التواضع والترفق إلى من بيده أمر الديوان المذكور ، نصرانياً كان أو يهودياً أو سامريا . وقد قيل في الأمثال صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها . فمنهم من يقوم بين يدي ذلك النصراني على قدميه والنصراني جالس ساعات كثيرة حتى يقضي حاجته ، بعد أن يدعو له ويتأدب معه تأدبا لا يفعله مع مشايخ العلم . ومنهم من يقبل كتفه ويمشي في ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته . وأما فلاحو القرى فإنه ربما النصراني المباشر يضرب الرجل منهم ويهينه ويجعله في الزنجير . ويزعم بذلك خلاص مال أستاذه وليس الأمر كذلك ، وإنما يقصد التحكم في المسلمين لا غير . فهذا هو الذي يقع للأسير من المسلمين في بلاد الفرنج بعينه لا زيادة على ذلك . غير أنه يملك رقه ... فلما منع الملك المؤيد هؤلاء النصارى عن المباشرة ، بطل ذلك كله فيكون الملك المؤيد على هـذا الحكم ، فتح مصر فتحا ثانيا ، وأعلى كلمة الإسلام وأخذل كلمة الكفر ولا شيء عند الله أفضل من ذلك »[١].

٣- السلطان الأشرف برسباي فاتح قبرس . قام عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م ، بالتشديد على القضاء على الخمور والحشيش . فأمر بإراقة الخمور عند المسلمين وأهل الذمة ، وألزم التجار الفرنج بإعادة ما جلبوه من الخمور إلى بلادهم وأمر بإحراق الحشيش ومنع زراعته[٢]. وكان يستطيع السلطان برسباي وهو معروف بحبه لجمع المال ، أن يفرض ضريبة على الخمور

---

(١) جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٤/ ٨٢ ، ٨٣) .

(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٨/ ١٤٩) ، تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٧/ ١٧٠) .

وعلى الحشيش ، ولكن حميته الإسلامية أبت عليه ذلك . لأن هناك فرق بين مجرد شرب الخمر وبين المجاهرة بها والإقرار بوجودها .

وأما الأمثلة من الإنكشارية :

١- زجان (زاجنوس) باشا وهو مسلم من أصل ألباني ، وكان من أكابر قادة جيش السلطان محمد الفاتح في فتح القسطنطينية . وكان من أشدهم حماسة لفتحها . ولما طال الحصار عليها واقترح خليل باشا - وهو تركي مسلم أبا عن جد - على السلطان الفاتح رفع الحصار والقبول بالجزية خوفا من تداعى نصارى أوروبا لإنقاذها . كان زاجان باشا من أشد المعارضين لذلك ، وكان يحرض السلطان على مواصلة الهجوم . وقد اعتبره جياكوكو تيدالدى الأكثر خطورة بين حاشية السلطان . وقد أورد نص كلامه إلى السلطان محمد الفاتح فقال :

« لقد أثبت بنفسك أنك الأقوى فقد أسقطت أرضا الجزء الأكبر من أسوار القسطنطينية ، وسوف تقوم بتقويض الجزء الباقي . امنحنا فقط فرصة القيام بهجوم كبير ومباغت ، وإذا ما فشلنا ، فإننا سوف نقوم بعد ذلك بتنفيذ ما تراه مناسبا »[1].

٢- محمود باشا وهو الصدر الأعظم للسلطان محمد الفاتح ، وأصله من الصرب . وبالرغم من ذلك ، فقد أرسله السلطان الفاتح لفتح سمندره عاصمة الصرب ففتحها . وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول . ولم يمنعه أصله الصربي من ذلك[2]. وقد روى ابن أبي السرور البكري عن محمود باشا ، ما يدل على حسن إسلامه ، وسلامة عقيدته . عندما تسلل إلى الدولة أحد المبتدعة من أئمة الطريقة الحروفية القائلين بالاتحاد والحلول . فتقرب من العلماء ومن السلطان نفسه ، فتصدى محمود باشا لكشف أمره وهتك ستره ، فوفقه الله في ذلك . والقصة طويلة فليراجعها من شاء[3].

٣- صوقوللو محمد باشا أصله من البوصنه ، وهـو من الجيل الذي تربى في زمن السلطان

---

(١) جياكومو تيدالدى : الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الإمبراطور التركي ، ليوناردو الخيوسي : تقريره إلى نيقولا الخامس عن سقوط القسطنطينية . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ترجمة د.حاتم الطحاوي (ص ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٢) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥١٣) .

(٣) محمد بن أبى السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٣٢) .

سليمان القانوني ، وكان في منصب أمير أمراء الروميلي عند فتح طمشوار . ثم تولى الصدارة العظمى للقانوني في آخر سنتين من حكمه ، وبقي في منصبه في زمن السلطان سليم الثاني . وكان شديد التقوى ويداوم على قيام الليل . وهذا دليل على قوة إيمانه ، فعن سهل بن سعد ﷺ قال : « جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال : « يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به » ثم قال : « يا محمد شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس »»[1].

وكان يقرأ تواريخ آل عثمان فإذا جاء عند خبر مقتل السلطان مراد الأول ، كان يبكي ويسأل الله الشهادة . نسأل الله أن يكون قد نالها ، فقد قتل رحمه في الديوان على يد رجل سفيه عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م[2].

٤- مراد باشا وهو كرواتي الأصل ، وكان من السباهي . وتولى المناصب وأظهر شجاعة فائقة في الحرب مع الألمان ، تحت قيادة الصدر الأعظم محمد باشا في عهد السلطان أحمد الأول . ثم تولى الصدارة العظمى ، وقضى على جميع حركات العصيان في الأناضول التي ذكرناها في الباب الأول . وبينما كان في ديار بكر يستعد للحملة على الشاه عباس الصفوي ، مات مسموما في عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م . وكان شديد التدين . فقد قال عنه كاتب جلبي : « وكان عهد الوزير الكامل عهد تطبيق للنظام . ومن الأمور الهامة روى أنه كان يختم القرآن في الأسبوع ، ويتمه في صلاة التهجد والتلاوة حتى الصباح كما اعتاد صوم الأيام البيض »[3].

وكان السلطان محمد الفاتح هو أول من عين الوزراء وأمراء الولايات من الإنكشارية ، عندما عزل خليل باشا الصدر الأعظم ، وهو من آل جاندار الذين استأثروا بذلك المنصب منذ أيام السلطان أورخان بن عثمان . وولى محمود باشا المذكور آنفا . فبذلك قضى السلطان الفاتح على احتمال وجود سلالات من النبلاء ، يدعون لأنفسهم حقوقا معينة في المناصب

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠) ، البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٢٥) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣٠٦) ، شهاب الدين القضاعي في مسنده (١/ ٤٣٥) وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤٨٣).

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٢٣) .

(٣) كاتب جلبي : فذلكه (ص ٣٥٣) .

والولايات مما يهدد سلامة الدولة . ولعل ذلك القانون الذي سنه السلطان الفاتح كان سببا في امتداد عمر الدولة عن غيرها من الدول . وقد جاء السياسي الشهير **نيقولو مكيافللي** صاحب كتاب الأمير ، بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان ليقر خاسئا ، بأن ذلك النظام الذي وضعه السلطان محمد الفاتح يجعل الاستيلاء على السلطنة أمرا عسيرا جدا . فقد قال : « السلطنة التركية يحكمها حاكم واحد ، أما الآخرون فخدمه وموظفوه . وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث إليها الحاكم بموظفين إداريين مختلفين ، يعزلهم متى شاء ويبدلهم متى أراد . أما ملك فرنسا فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الأقدمين الذين يعترف بهم أبناء رعيتهم ويحبونهم ، ولهم امتيازاتهم الخاصة التي ليس في وسع الملك حرمانهم منها ، إلا إذا عرض نفسه للأخطار . وإذا درسنا أوضاع هاتين الدولتين تبين لنا أن من الصعوبة بمكان عظيم احتلال مملكة الأتراك »[1].

وفي ختام الكلام عن تلك المسألة أقول ، إن التاريخ الإسلامي حافل بأمثلة كثيرة على حسن إسلام حديثي الإسلام ، وإن كان آباؤهم كفارا . وأن العبرة ليست بالانتساب إلى الإسلام عن الآباء والأجداد . مع ذلك نقر بوجود بعض المنافقين والمتنفعين في كل وقت وحين ، فهذا أمر لا يخلو منه أي زمان . وقد كان في زمن رسول الله ﷺ عدد منهم ، لكن الغالبية العظمى ممن يدخلون الإسلام يكونون من الأتقياء المجاهدين . فليس حسنا يا أساتذة التاريخ بل معيبا ، أن تتعرضوا بالغمز واللمز على هؤلاء الناس ، وألا تجدوا ما تصفونهم به إلا بقولكم أبناء المسيحيين . وليس حسنا يا أستذة التاريخ بل قبيحا ، أن تنقلوا هكذا عن البيزنط واللاتين والمستشرقين دون عقل يفكر أو قلب يذكر .

الخلافة

من الثوابت التي لا يماري فيها إلا مكابر ، أن سلاطين بني عثمان تولوا خلافة المسلمين منذ أيام السلطان سليم الأول ، بعد انتصاره على السلطان المملوكي قانصوه الغوري في مرج دابق ، وحتى قبل أن يدخل مصر. لكن أساتذة التاريخ يجادلون في ذلك ، ويزعمون أن سلاطين بني عثمان لم يهتموا بهذا اللقب إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، لأسباب سياسية .

(١) نيقولو ميكيافللى : الأمير (ص ٧٢) .

وكالعادة فإن أساتذة التاريخ لم يخرجوا بهذا الكلام بعد إجراء دراسة متأنية متفحصة للمصادر ، وإنما نقلوه عن المستشرقين ، متبعين إياهم كما تتبع النوق فصالها . وقد حرص المستشرقون منذ القرن التاسع عشر على نشر هذا المفهوم ، (أن الدولة العثمانية ليست خلافة إسلامية) ، بين المسلمين ليرفعوا عنهم الحرج إذا ما طالبوا بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، باعتبارها سلطة احتلال وليست خلافة إسلامية يجب على المسلم أن يتبعها وأن يطيع الخليفة فيها ، وأن يواليه وأن ينصره وألا يخرج عليه أيا كان السبب . وهذا حكم شرعي ثابت لا خلاف فيه بين علماء أهل السنة والجماعة . فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال : « دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا ، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ ، إِلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِن الله فِيهِ بُرْهَانٌ »[1].

وعن عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « خِيَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ . وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ . قِيلَ يَا رَسُولَ الله أَفَلا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ ، فَقَالَ لا مَا أَقَامُوا فِيكُم الصَّلاةَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ »[2].

وغير ذلك من الأدلة الشرعية . مما يضيق المقام عن استقصائه . ولكن حرص الأوروبيون على نفي صفة الخلافة عن الدولة العثمانية ، ليظن المسلم البسيط ، أن هذا الحكم الشرعي لا ينطبق عليها . ولا شك ، أن نفي صفة الخلافة عن السلطنة العثمانية ، كان يغذي الدعوات الهدامة التي — قد بثها الأوروبيون أيضا – ظهرت في بلاد المسلمين في تلك الفترة . إذ ظهرت في الشام أصوات تنادى بالاستقلال ، كحركة القومية العربية التي احتضنتها فرنسا ، إذ تم إنشاء « الجمعية الوطنية العربية » في باريس عام ١٨٩٥م ، وكان من أشهر زعمائهم نجيب عازوري ، وهو نصراني من خريجي مدارس الإرساليات الفرنسية في الشام ، ثم فر إلى باريس ،

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٤٧) ، مسلم (٣/ ١٤٧٠) ، أحمد (٣٧/ ٣٥٣) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٥٠) ، أبوعوانة في المستخرج (٤/ ٤٠٨) .

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٨١) ، أحمد (٣٩/ ٤٠٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٧٣) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٦٣) ، الدارمي (٣/ ١٨٤٣) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤٢٦) ، ابن المبارك في مسنده (١/ ١٤٩) .

وألف كتاب « **يقظة الأمة العربية** » ، وطبعه في باريس عام ١٩٠٥م[1]. كما رأينا عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتاب « **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد** » ، وكتاب « **أم القرى** » ، الذي فر من الشام إلى مصر ، التي كانت تحت الاحتلال البريطاني . وكان البريطانيون آنذاك ، يرحبون بكل خارج على الدولة العثمانية . وكان الكواكبي يطالب بنزع الخلافة من سلاطين بني عثمان ، وإقامة خلافة عربية في الحجاز . وظهر أيضا ما يعرف بالقومية المصرية التي كان أبرز دعاتها أحمد لطفي السيد .

وهكذا استنادا إلى دعوات متباينة ، طابت نفس بعض المسلمين إلى الخروج على الخلافة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية . ومن المعلوم أنه منذ الفتح العثماني للبلاد العربية ، وتولى السلطان سليم للخلافة ، لم يطالب أحد من الناس بالخروج على الدولة العثمانية ، لأن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين . وإذا ما جار عليهم أحد الولاة أو الأمراء فكانوا يثورون عليه ، ويلجئون إلى السلطان لعزله ، دون أن يخطر ببال أحدهم أن يخرج عن الخلافة العثمانية . ويستثنى من ذلك علي بيك الكبير وغيره ، لأن خروجه على الدولة كان بدافع الطمع ، ولم يكن بدافع فكر سائد أو حركة شعبية يتزعمها . أما عامة الناس على اختلاف طبقاتهم من العلماء والكتاب والتجار والصناع والعامة ، فلم يدر بخلد أحدهم أبدا الخروج على السلطان العثماني وذلك لأنه خليفة المسلمين . إلى أن جاءتنا الأفكار الفاسدة من أوروبا فتقبلناها بقبول حسن للأسف الشديد . مما يدل على هوان النفوس ، وفساد الفطر وهشاشة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين آنذاك ، إلا من رحم ربي .

وقد أنكر أساتذة التاريخ خلافة السلطان العثماني ، وقالوا في ذلك كلاما مخالفا لما هو معلوم من التاريخ بالضرورة . وسأنقل كلامهم ثم أقوم ببيان بطلانه إن شاء الله .

قال د.محمد أنيس : « السلطان العثماني لم يشر إليه أو يخاطب بلقب إمام أو خليفة في الرسائل الرسمية في ذلك الوقت ... إن الفكرة التي كانت تعتبر السلاطين العثمانيين خلفاء العالم الإسلامي ، على غرار خلفاء المدينة أو دمشق أو بغداد ، لم تجد لها تأييدا من كبار العلماء المسلمين حتى القرن الثامن عشر » ... **وقال أيضا** : « لقد جاء اهتمام السلاطين العثمانيين

---

(١) د.محمد الحسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٩٥) .

بالخلافة وبتأكيدها والتشبث بها ضمن ألقابهم ومحاولة استغلالها ، نتيجة لتطور ظروف الدولة السياسية . فمنذ أواخر القرن الثامن عشر والدولة العثمانية تواجه دولا أوروبية تقتطع منها باستمرار بقعا إسلامية . ولذلك فقد كان تمسك السلاطين بالخلافة ، أمرا يجعل لهم الحق في فرض سلطة روحية على المسلمين جميعا ، الداخلين منهم تحت سلطان دولة مسيحية . ظهر هذا الاتجاه أول ما ظهر في معاهدة كوتشك قينارجه سنة ١٧٧٤ ، وهي المعاهدة التي استولت روسيا بمقتضاها على بلاد القرم . وهي بلاد إسلامية ، فنصت المعاهدة على جعل هؤلاء المسلمين تحت السيادة الروحية للسلطان . بمعنى أن السلطان العثماني من حقه أن يعين القضاة والمفتي في البلاد »(١).

أما د.**محمد عبد المنعم الراقد** فقد استعرض آراء المؤرخين في تلك المسألة ، منهم ستانلي لينبول ، برس مارك سايكس ، ويليم موير ، وتوماس أرنولد و موراجى دوسون . وكأن أمة الإسلام عدمت مؤرخيها .! وكأننا أمة لم تكن لها حضارة ولا ثقافة خاصة بها .! والله إني لأشفق على كثير من أساتذة التاريخ ، من لباس الذل الذي ألبسوه أنفسهم ، ومن وقيد العبودية الذي طوقوا به أعناقهم .! وقد انتهي د.الراقد في النهاية إلى أن السلطان العثماني ليس خليفة للمسلمين فقد قال : « وأول وثيقة سياسية معروفة أطلقت على السلطان العثماني لقب خليفة واعترفت بسلطته الدينية على المسلمين خارج حدود تركيا ، هي المعاهدة الروسية التركية المعروفة باسم كوشوك كينارجى ، التي وقعت في سنة ١٧٧٤ بين السلطان العثماني عبد الحميد الأول ، وإمبراطورة روسيا كاترين الثانية ... هكذا بدأ السلاطين العثمانيون يدركون الأهمية الكامنة وراء لقب الخلافة ، وهي أهمية سياسية بالدرجة الأولى »(٢).

أما د.عمر عبد العزيز فلم يخرج عما قاله الأستاذان السابقان . ثم ختم كلامه بقوله : « والحقيقة أن السلطان سليم لم يهتم بلقب الخليفة ، لأنه أصبح شائع الاستعمال مبتذلا ... ويبدو أن السلطان سليم ، قد تصور أنه مما يسيء إلى سمعته ، أن يرث لقب خليفة عن مثل خليفة القاهرة أيام المماليك ، والذي فقدت الخلافة القديمة مع أسرته كل ما كان لها من نفوذ

(١) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ٧٤ ، ١١٧) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢١٢ – ٢٢٧) .

وهيبة » . وقال أيضا : « وأول وثيقة رسمية تطلق على السلطان العثماني لقب خليفة هي معاهدة كوتشك قينارجى عام ١٧٧٤ بين روسيا والدولة العثمانية »(١).

أما د.أحمد عبد الرحيم مصطفي فكلامه أيضا لم يخرج عن كلام الأساتذة السابقين . ثم قال : « وملخص القول أن السلطان سليم لم يكترث بلقب الخلافة الذي فقد أهميته ، ولم يحاول أحد في ديوان دولته أن يقيم له وزنا ... على أن سلاطين آل عثمان لم يهتموا بلقب الخلافة اهتماما جديا إلا بعد أن أصاب دولتهم الضعف الواضح منذ القرن الثامن عشر ، وبخاصة ، بعد عقد معاهدة كوجوك قينارجه ، التي سمحت فيها روسيا للسلطان بالإبقاء على بعض الصلاحيات الدينية في شبه جزيرة القرم – التي احتلتها روسيا – باعتباره خليفة للمسلمين ، وهو ادعاء أقره الروس وأن لم يقره الفقهاء المسلمون »(٢).

أما د. محمود الحويري فقد نقل كلاما كثيرا عن د.أحمد عبد الرحيم مصطفي .!(٣).

أما د.صلاح هريدي فقد نقل عن د.عمر عبد العزيز ، ثم ختم كلامه بقوله : « لكن التطورات التي ألمت بالدولة العثمانية في القرن الثامن عشر جعلتهم يتمسكون بلقب الخلافة . وقد لوحظ أن معاهدة كوتشك قينارجه التي عقدت بين الروسيا والدولة العثمانية سنة ١٧٧٤م أشارت لأول لقب خليفة وذلك لاعتبارات دينية »(٤).

قلت : لعلك تلاحظ أن كل أساتذة التاريخ الست السابقين ، قد شربوا من كأس واحدة ، هي كأس المؤرخ الإنجليزي توماس أرنولد . وغالب حججهم نقلوها عنه . وسأذكرها ملخصة من كتب أساتذة التاريخ ، ثم أقوم بتفنيدها الواحدة تلو الأخرى . وهي مذكورة في المواضع التي نقلت عنها كلامهم آنفا :

١ – نفي واقعة تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله عن الخلافة إلى السلطان سليم بعد فتح مصر ، باعتبار أن المصادر المعاصرة لم تذكرها .

٢ – أن بعض سلاطين بني عثمان من أسلاف السلطان سليم ، لقبوا أنفسهم بلقب خليفة الله

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني (ص ٨٧) .

(٣) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٢٢٣) .

(٤) د.صلاح هريدى : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ١٨٠) .

كالسلطان مراد الأول ، وذلك نقلا عن توماس أرنولد ، وأن آخرين من حكام المسلمين كانوا يضفون على أنفسهم ذلك اللقب .

٣- عدم وجود ذكر للقب خليفة من بين ألقاب السلطان العثماني إلا في معاهدة كوجك قينارجه عام ١٧٧٤م ، وذلك لأسباب سياسية .

قلت : كل تلك الأدلة السابقة التي استدل بها هؤلاء الأساتذة نقلا عن توماس أرنولد أنها هي أدلة ساقطة ، ولا ينهض أي منها ولو على ساق واحدة ، وذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : فأما بشأن واقعة تنازل الخليفة العباسي المتوكل على الله للسلطان سليم الأول ، فسواء أصحت أم لم تصح ، فهي لا تغير من الأمر شيئا ، فالمتوكل على الله كما تعلمون لم يكن يملك من أمر نفسه شيئا ، فضلا عن أن يقلد الخلافة لهذا أو لذاك ، ولم يكن السلطان سليم الأول بحاجة لأن يتنازل له المتوكل على الله ، فقد دخل الجميع في طاعته وخطب له في الشام وفي مصر على المنابر ، ودخل في طاعته قضاة القضاة الأربعة ، وعدد من أمراء المماليك ، وهؤلاء هم أهل الحل والعقد ، وليس تنازل المتوكل على الله لازما لإثبات صحة خلافة السلطان سليم الأول ، بل إن جمهور العلماء على وجوب طاعة الإمام المتغلب .

قال ابن قدامة المقدسي : « ولو خرج رجل على إمام فقهره وغلب الناس بسيفه ، حتى أقروا له وأذعنوا بطاعته وبايعوه ، صار إماما يحرم قتاله والخروج عليه ، فإن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير فقتله واستولى على البلاد وأهلها ، حتى بايعوه طوعا وكرها ، وصار إماما يحرم الخروج عليه ، وذلك لما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين ، وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم ، ويدخل الخارج عليه في عموم قوله عليه الصلاة والسلام (من خرج على أمتي وهم جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان) فمن خرج على من ثبتت إمامته بأحد هذه الوجوه كان باغيا وجب قتاله »[1].

لذلك فلم يطعن أحد من العلماء في صحة خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد ، أول الخلفاء العباسيين ، بدعوى أن مروان بن محمد ، أخر الخلفاء الأمويين لم يتنازل له عن الخلافة ، بل لقد أعلن أبو العباس نفسه خليفة ، فبايعه أهل الحل والعقد ، فثبتت إمامته وخلافته دون

---

(١) شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة : الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٥٣) .

أن يتنازل له مروان ، ولو أخذنا بقولكم يا أساتذة التاريخ في وجوب التنازل ، لكانت خلافة بني العباس في بغداد باطلة ، وهذا لا يقول به عاقل أبدا .

الثاني : أما قولكم أن السلطان مرادا الأول لقب نفسه خليفة ، فهذا مما نقلتموه عن توماس أرنولد ، ولكني لم أر ذلك في المصادر التركية والعربية التي اطلعت عليها ، وبفرض صحة ذلك عن السلطان مراد ، وعن بعض حكام المسلمين قبل السلطان سليم كما زعم الزاعمون ، فليس ذلك دليلا يحتج به ، لأن كل إنسان يستطيع أن يطلق على نفسه ما شاء من ألقاب ، ولكن العبرة بحقيقة اللقب ، فهل كان أحد هؤلاء يخاطب ملوك العالم ، المسلمين منهم والكافرين ، متلقبا بهذا اللقب ؟! أو هل كان أحد هؤلاء يخلع على نفسه هذا اللقب ، في مراسلاته مع الدولة العثمانية مثلا أو مع الدولة المملوكية قبلها.؟! الجواب بالقطع : لا ، لم يحدث . ولم يتفضل أساتذة التاريخ الست المذكورون ، بتقديم دليل واحد لحاكم واحد من حكام المسلمين استعمل لقب الخلافة في مراسلاته الرسمية[1] ، بل إن السلطان الوحيد الذي كان يخاطبه حكام العالم كله بهذا اللقب هو السلطان العثماني ، ابتداء من السلطان سليم الأول ، كما سيأتي ، فمن ذلك يستفاد ، أن خلافة السلطان العثماني هي وحدها الخلافة العظمى ، خلافة رسول الله ﷺ .

الثالث : أما قولكم أن لقب خليفة لم يظهر إلا في معاهدة كوجك قينارجه عام ١٧٧٤م فهذا باطل قطعا ، ولا يعرف له وجه من الصحة ، فقد ورد لقب الخليفة في مصادرنا الإسلامية العربية والتركية مرات عديدة تجل عن الحصر ، سأنقل منها قدر ما أستطيع .

١ - أثبت السلطان سليم الأول لنفسه الخلافة العظمى ، في رسالته التي بعث بها إبان إقامته بدمشق إلى طومان باي ، فقد جاء فيها : « إني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري ، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد ... وأنا خليفة الله في أرضه ، وأنا أولى منك بخدمة الحرمين »[2].

---

(١) وفي زماننا هذا زعم الرئيس الليبي معمر القذافي أنه قائد الأمة العربية ، وكان حاشيته وخاصته ينادونه بذلك . ولكن هل هذا حق ؟! هل استطاع أن يستخدم هذا اللقب في مراسلاته الرسمية سواء مع الدول العربية أو الأجنبية ؟! .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٢٥) .

يلاحظ في كلام السلطان سليم ، أنه أثبت لنفسه الخلافة ، بل صرح بأنه امتداد لخلفاء بغداد من بني العباس ، وهذا من أصرح الأدلة على أن السلطان سليم الأول ، قد أصبح خليفة للمسلمين بعد انتصاره على الغوري في مرج دابق . ولمن عساه أن يعترض على لقب « خليفة الله » زاعما أن الخليفة إنما هو خليفة النبي ﷺ ، فنرد عليه قائلين ، إن لقب « خليفة الله » ، كان يستخدم أحيانا من قبل الخلفاء العباسيين في بغداد ، ومن ذلك ما قاله أحد العمال مخاطبا الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور : « يا أمير المؤمنين نحن عيال الله ، وأنت خليفة الله، والمال مال الله ».. وأيضا ما جاء في قصيدة أبي تمام التي امتدح بها الخليفة العباسي المعتصم فاتح عمورية (ت٢٢٧هـ/ ٨٤٢م) والتي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

ومنها :

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

وقال صالح بن علي الهاشمي مخاطبا الخليفة العباسي المهتدي بالله محمد بن الواثق : « من أولي بالحق منك ، وأنت خليفة الله وابن عم رسول الله »[1].

٢- قال علي بن محمد اللخمي الأشبيلي عن السلطان سليم الأول ، في كتابه « الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان » والذي فرغ من كتابته عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م . بعد فتح مصر بأسابيع : « هو ملك الزمان على الاطلاق ، المرتقى كرسي الخلافة بالاستحقاق »... وقال أيضا : « فلله خلافتك السعيدة ، لقد رفع على السماكين قدرها »... **وقال أيضا** : « فلما قضى أمير المؤمنين منها وطره ، عرج نحو القسطنطينية »[2].

٣- جاء في مقدمة القوانين التي سنها السلطان سليم لصنجق سمندره عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م عبارة « خليفة الله » ، وفي مقدمة القوانين التي سنها لطرابلس الشام عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م وردت عبارة الخليفة والخلافة عشرات المرات[3].

---

(١) محمد بن الحسين بن حمدون البغدادي : التذكرة الحمدونية (٣/ ٤٣ ، ١٤٣ ، ٩/ ٢٥٢) .

(٢) على بن محمد اللخمى الأشبيلي : الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان (ص ٢ ، ٣ ، ٦) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٢٨) والأستاذ أحمد آق كوندز جمع القوانين العثمانية في تسعة مجلدات من عام ١٩٩٠ - ١٩٩٦.

٤- أرسل السلطان سليمان القانوني عند توليه الحكم رسالة إلى شريف مكة جاء فيها أن الله من عليه بعرش السلطنة مقام الخلافة[١].

٥- جاء في قانون نامه مصر الذي وضعه السلطان سليمان القانوني عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م ما يلي : « وقضى حضرة السلطان حامل الخلافة خلدت خلافته ، لفرط حبه للرعايا عامة ورأفته بهم على البدع الشائعة »[٢].

٦- أورد العصامي في تاريخه نص الرسالة التي أرسلها الإمام المطهر اليمني إلى السلطان سليمان القانوني ، ومنها وصفه إياه : « شمس الخلافة المضيئة في الليل البهيم ، ظل الله في أرضه القائم بسنته وفرضه القويم »... وقد عرف العصامي عاصمة الدولة بقوله : دار الخلافة العظمى قسطنطينية الكبرى[٣].

٧- المعاهدة التي عقدها السلطان سليمان القانوني مع ملك فرنسا عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م جاء في البند الأول منها : « قد تعاهد المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم ، وملك فرنسا على السلم الأكيد »[٤].

٨- إبراهيم أفندي بجوي ، الذي ولد في العام الذي توفي فيه السلطان سليمان القانوني ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م ، قد أثبت له الخلافة في أكثر من موضع من تاريخه منها على سبيل المثال : « كان حضرة السلطان حامي الخلافة يعمل حتى ذلك الوقت »... « عاد حضرة حامي الخلافة في اليوم الرابع من الشهر المذكور » .... « دمعت عينا حضرة حامي الخلافة المباركتان » .... « إعلان السلطان مقر الخلافة خلد الله ملكه الحرب » ... كما أورد إبراهيم أفندي نص رسالة الشاه الصفوي طهماسب إلى السلطان سليمان وجا فيها : « خاقان البحرين الخادم بوفور الإخلاص في الحرمين الشريفين ، مؤيد أركان السلطنة الكبرى ممهد بنيان الخلافة العظمى »[٥].

---

(١) خليل إينالجك : العثمانيون النشأة والازدهار ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني . ترجمة د.سيد محمد السيد (ص ٧٨) .

(٢) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٦١) .

(٣) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي ٤/ ٨٩ ، ١٠٤ ، ٣٢٩

(٤) نقلا عن محمد فريك بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٢٢٤) وقد ذكر بنود المعاهدة كاملة نقلا عن مجموعة البارون دي تستا في الكتبخانه الخديوية.

(٥) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢٠١ ، ٢٤١ ، ٢٥٤) .

٩- جاء في مقدمة قانون بودين (بودابست) ، الذي وضعه السلطان سليمان القانوني : « السلطان ابن السلطان ، السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان **خليفة رسول رب العالمين** ، ممهد قوانين الشرع المبين ، وظل الله الظليل على كافة الأمم ، حائز الإمامة العظمى وسلطان البحر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، ناشر القوانين السلطانية ، والخاقان العاشر ، سلطان العرب والعجم والروم ، حامى حمى الحرمين المحترمين والمقامين المعظمين المفخمين »[1].

١٠- قام السلطان سليمان بتجديد مطاف الكعبة المشرفة عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م ، وقد كتب على عدة مواضع منه ما نصه : « ... تقرب إلى الله تعالى بتجديد فرش أحجار المطاف وتسويتها تحت أقدام الطايفين في الطواف ، وتحلية الباب الشريف والميزاب العظيم المنيف ، خليفة الله الأعظم ، سلطان الروم والعرب والعجم ، من اصطفاه الله واجتباه لترميم بيته الحرام ، واختاره وارتضاه لخدمة الركن والمقام ، السلطان ابن السلطان ابن السلطان ، سليمان خان ... »[2].

١١-قال المولي أبو السعود ، **شيخ الإسلام** في عهد السلطان سليمان القانوني : « السلطان الأسعد الأعظم ، والخاقان الأمجد الأفخم ، مالك الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى »[3].

١٢- أرسل ملوك تركستان وبلخ وسمرقند وبخارى وخوارزم وغيرهم إلى السلطان سليمان القانوني ، يستنجدونه على الصفويين باعتبارة الخليفة ، وقد جاء في رسالتهم : « أنت هو الآن صاحب التخت الخسرواني ، وصاحب سرير الخلافة بالعون الرباني »[4] .

١٣- القصيدة التي نظمها شيخ الإسلام أبو السعود ، في رثاء السلطان سليمان القانوني قد جاء فيها :

مدار سلطنة الدنيا ومركزها   خليفة الله في الآفاق مذكور

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٢٨) .

(٢) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٦٠) .

(٣) أحمد بن مصطفي طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٣٧٧) .

(٤) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ١٦٨) .

ومنها أيضا :

سميدع ماجد زادت مهابته تحت الخلافة في عز وتنوير[1]

١٤ - القصيدة التي نظمها شيخ الإسلام محمد بن مصطفي الشهير ببستان زاده ، في رثـاء السلطان سليمان القانوني جاء فيها :

همـام علـى هـام الممالك تاجـه أمين رشيد في الخلافة ذو قدر[2].

١٥ - عند تولي السلطان سـليم الثـاني قـال النهـروالي : « السـلطنة الشريفـة العظمـى ، والخلافة العالية الكبرى ، قد انتقلت من المرحوم السلطان سليمان إلى نجلـه الأسـعد الأمجـد ، سليم خان »[3].

١٦ - وجاء في مخطوط حوى ألقاب السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان : « صاحب الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى ... السلطان سليم خان بن سليمان خان ، خلد الله أيام خلافته ما تعاقبت الشهور والسنون ، وأجرى أحكام سـلطنته في أكنـاف أطراف الربع المسكون »[4].

١٧ - الرسالة التي أرسلها شريف مكة ، حسن بن أبي نمى إلى يحيى بن شرف الدين الذي أعلن العصيان في اليمن ، في زمن السلطان سليم الثاني ، لينصحه فيها بالتوبة والعودة إلى الطاعة . جاء فيها : « إن الاتسام بسمة العصيان ، والخروج عن طاعة سلطان الزمان ، وخليفة الوقت ، والأوان من خدع الشيطان »[5].

١٨ - قال مصطفي سلانيكي عن السلطان سليم الثاني : « قام حضرة خليفة المكان والزمان السلطان سليم خان »[6].

١٩ - وأنشد قطب الدين النهروالي المكي قصيدة ، بمناسبة الفتح العثماني الثاني لليمن ، في

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٣٤ ، ١٣٧) .

(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٢١٩) .

(٣) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٣٤٧) .

(٤) مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية - جامعة طوكيو (رقم ١٤٥٨) .

(٥) أورد قطب الدين النهروالى نص الرسالة في البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٢٠٠) .

(٦) تاريخ مصطفى أفندي سلانيكي (ص ٧٢) .

زمن السلطان سليم الثاني جاء فيها :

عساكر سلطان الزمان مليكنا خليفة هذا العصر في البر والبحر[١].

٢٠- قال المحبي عن السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم الثاني : « قدم السلطان صاحب الترجمة من مغنسيا وبويع بالخلافة »[٢].

٢١- وكان النهروالي قد صنف كتابه في زمن السلطان مراد الثالث ، وقد وصفه بقوله : « صاحب الإمامة العظمى ، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر »[٣].

٢٢- وبمناسبة قيام السلطان مراد الثالث بتعمير المسجد الحرام ، أرسل الباب العالي في اصطنبول تاريخا ليكتب على الجانب الشرقي من المسجد الحرام ، وقد جاء وصف السلطان مراد فيه بالخلافة أكثر من مرة ، وهو يعتبر دليلا هاما لأنه وثيقة رسمية صدرت من الدولة ، بل وكتب على جدار المسجد الحرام . ونظرا لطوله سأنقل منه ما يخص ما نحن بصدده : « ... السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد ، جعل الله الخلافة فيه وفي أعقابه إلى يوم التناد ... اللهم أدمه في سرير الخلافة محروسا بحفظ من كل آفة »[٤].

٢٣- قال القاضي حسين الحسيني قاضي المدينة المنورة ، بمناسبة قيام السلطان مراد الثالث بتعمير المسجد الحرام : « أتم بناءه وأكمله وأتقنه وجمله وحسنه ، وارث الملك الأعظم والإمام الأفخم والخليفة الأكبر ... خليفة الله على كافة العباد ، ورحمته الشاملة لجميع البلاد ، سلطان سلاطين الزمان ، خلاصة خواقين آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان السلطان الأعظم ، مراد خان »[٥].

٢٤- قال العصامي عن السلطان مراد الثالث : « وكان جلوسه على تخت الخلافة الإسلامية في ثامن شهر رمضان ، في اليوم الذي توفي أبوه فيه ، من عام اثنين وثمانين وتسعمائة »[٦].

---

(١) قطب الدين النهروالي المكي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ١٣) .
(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٣٣) .
(٣) قطب الدين النهروالي المكي : البرق اليماني في الفتح العثماني (ص ٦) .
(٤) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٤١٠) .
(٥) قطب الدين النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام (ص ٤٠٨) .
(٦) عبد الملك بن حسين العصامي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤/ ١١٠) .

٢٥- قال المحبي عن السلطان محمد الثالث بن السلطان مراد الثالث: « ولي الخلافة السلطان محمد، بعد موت أبيه السلطان مراد »[١].

٢٦-قال كاتب جلبي عن السلطان محمد الثالث عند وفاة والدة: « أرسل رسالة الدعوة إلى أمير لواء مغنسيا، أكبر أبناء السلطان، للجلوس على عرش الخلافة »[٢].

٢٧-قال البكري عن السلطان أحمد الأول بن السلطان محمد الثالث: « صاحب الإمامة العظمى، والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر »[٣].

٢٨-قال محمد البرلسي السعدي عن السلطان أحمد الأول: « صاحب الإمامة العظمى والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر »[٤].

٢٩-وقال المحبي عن السلطان مصطفي بن السلطان محمد الثالث: « كانت مدة خلافته سنة واحدة وأربعة أشهر، وما عاش بعد ذلك كثيرا »[٥].

٣٠-وقال البكري عن السلطان عثمان الثاني ابن السلطان أحمد الأول: « سلطان سلاطين الإسلام، فريد العصر والأوان، خليفة الله الأعظم »[٦].

٣١- وقال المحبي عن السلطان عثمان الثاني: « ولي الخلافة عن عمه السلطان مصطفى، لما خلع في سادس ساعة من ليلة الأربعاء ثامن شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف »[٧].

٣٢- قال بجوي عن السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول: « صار عرش الخلافة الكبرى ميسرا ومقدرا لجنابه العالي باتفاق الآراء »[٨].

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٤٦٢).

(٢) كاتب جلبي: فذلكه (ص ٥٢).

(٣) محمد بن أبي السرور البكري: كشف الكربة في رفع الطلبة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث والعشرون (١٩٧٦م ص ٣٢٩).

(٤) محمد البرلسي السعدي: بلوغ الأرب برفع الطلب، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع والعشرون (١٩٧٧م، ص ٢٩٩).

(٥) محمد أمين بن فضل الله المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٥٥).

(٦) محمد بن أبي السرور البكري: اللطائف الربانية على المنح الرحمانية (ص ٣٤٣).

(٧) محمد أمين بن فضل الله المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٠٢).

(٨) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٦٧).

٣٣- وفي تاريخ القاضي تاج الدين المالكي ، نظم بمناسبة استعادة السلطان مراد الرابع بغداد من القزل باش :

خليفة الله مراد غزا   قلعة بغداد فأرداها[1]

٣٤- قال العبيدي عن السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم : « أمير المؤمنين وإمام الموحدين ... خليفة خلفاء النبي ﷺ ، المؤيد من الله تعالى بالعزة والتعظيم ، مولانا السلطان محمد بن إبراهيم »[2].

٣٥-وقال المحبي عن السلطان محمد الرابع : « الخليفة السلطان محمد بن إبراهيم »[3].

٣٦- في عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م وقع السلطان أحمد الثالث مع الشاه أشرف خان الأفغاني ، الذي طرد الصفويين من أصفهان ، معاهدة كان من بين بنودها ، اعتراف الشاه أشرف بأن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين قاطبة »[4].

قدمت فيما سبق ستة وثلاثين مثلا ، على أن السلطان العثماني كان خليفة للمسلمين ، في مراسلات رسمية ومعاهدات دولية ووثائق ديوانية ، فلا مجال لأحد بعد ذلك أن ينكر أو يتشكك ، وقد أورد د.الراقد في كتابه شبهة يحسن بنا أن نفندها ، إذ قال : « من الوثائق الهامة التي تدعم الرأي القائل بعدم تنازل المتوكل ، وقفية رستم باشا المؤرخة في سنة ١٥٥٧ وقد وردت فيها ألقاب السلطان سليمان على النحو التالي : « الخاقان الأعظم ، والسلطان الأكرم ، ملك العرب والعجم ، ومالك رقاب الأمم ، حامي حوزة الدين وضابط أزمة العالمين ، ناشر أعلام العدل في الخافقين ، خادم الحرمين الشريفين ، ظل الله في الأرض القائم بالسنة والفرض ، السلطان ابن السلطان ، الملك المظفر سليمان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان خلد الله ملكه وسلطانه ، ونصر جنده وأعوانه ».

ثم استدل د.الراقد من تلك الوثيقة ، على عدم حمل السلطان سليمان لقب الخلافة من

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٣١) .

(٢) إبراهيم بن عامر العبيدي : قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان ، (ورقة ٢٨٥) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٦٦) .

(٤) خليل إينالجك : العثمانيون النشأة والازدهار ، ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني ترجمة د.سيد محمد السيد (ص ٧٨) .

أربعة أوجه :

١- أن رستم باشا شغل منصب الوزارة في الدولة فمن المحتم عليه استخدام ألقاب السلطان الرسمية . ولم يرد في الوثيقة لقب خليفة .

٢- أن تاريخ الوثقية لاحق لوفاة المتوكل مما يؤكد عدم حدوث التنازل .

٣- أنها تدعم الرأي الذي يفند آراء القائلين بحدوث التنازل اعتمادا على الوثائق التي ورد فيها استخدام السلطان سليمان القانوني للقب الخلافة ، فإنما هو أمر شائع لدى معظم الحكام ، وملوك وأمراء المسلمين ، وأن استخدامه أمر شائع منذ أمد طويل ، وانتحله أمراء المسلمين كبيرهم وصغيرهم .

٤- ليس هناك ما يبرر سكوت رستم باشا وزير السلطان سليمان ، وإغفاله لذكر لقب خليفة المسلمين إن كان قد حمل هذا اللقب فعلا »[1].

قلت : كل تلك الاستدلالات السابقة التي ساقها د.الراقد واهية ، ولا ينهض أحدها ولو على ساق واحدة . وذلك من ثلاثة أوجه :

الأول : أما الوجه الأول والرابع ، فبطلانهما من حيث أن الوثيقة المذكورة ، لم تغفل لقب الخليفة فحسب ، بل أغفلت ألقابا أخرى ثابتة للسلطان العثماني بالاتفاق ، منها ملك الروم الذي ثبت للسلطان بايزيد يلدرم ، وتأكد ذلك بعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ، ثم بعد أن فتح السلطان سليم الأول تبريز ومصر والشام والحجاز ، أصبح يلقب بملك العرب والعجم والروم ، ولكن يلاحظ أن الوثيقة جاء فيها ملك « العرب والعجم » دون الروم ، وهناك لقب آخر وهو ملك البرين والبحرين ، الذي أصبح من ألقاب السلطان محمد الفاتح ، والمراد بالبرين (الأناضول – الروميلي) ويراد بالبحرين (إيجه والأسود) ، ولم يرد ذلك اللقب أيضا في الوثيقة ، فإن أراد د.الراقد أن ينفي عن السلطان سليمان لقب الخلافة لأنه لم يرد في تلك الوثقية ، فلينف عنه لقب ملك الروم ، ولقب ملك البرين والبحرين وهذا لا يقول به عاقل أبدا . والسبب في أن الوثيقة أغفلت ذكر تلك الألقاب ، أنها ليست وثيقة رسمية من جنس الوثائق التي ترفع للسلطان ، أو التي يتناقلها أفراد الديوان ، أو التي

---

(١) د. محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢٢٢ ، ٢٢٣) بتصرف.

يخاطب بها ملوك البلدان ، بل هي وثيقة وقف ، شأنها شأن عقود البيع والإيجار والوكالة والشراكة . فليس من الضروري أن يرد فيها جميع ألقاب السلطان ، لا سيما وأن السياق الذي ورد فيه ألقاب السلطان سليمان في الوثيقة المذكورة يدل على ذلك ، إذ أن الوثيقة جاء فيها أن جزء من عائدات ذلك الوقف يصرف على قراء القرآن ، مع إهداء الثواب إلى رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين ، والسلطان سليمان ، فذكر عندئذ تلك الألقاب[1] ، فليس المحل مما يوجب ذكر جميع ألقاب السلطان .

الثاني : أما كون تاريخ الوثيقة لاحق لوفاة المتوكل فليس بشيء ، لأننا قلنا آنفا أن حدوث التنازل من عدمه لا يغير من الأمر شيئا ، لأن المتوكل لم يكن يملك لقب الخلافة في الحقيقة فضلا عن أن يتنازل عنه ، وقد فصلنا ذلك آنفا فلا داعي للإعادة .

الثالث : إن صح ما قيل أن بعض حكام المسلمين كانوا يستخدمون لقب الخليفة صغيرهم وكبيرهم ، فنقول أن واحدا منهم لم يجعل نفسه مقام خلفاء بغداد كما ذكر السلطان سليم عن نفسه ، ولم يحمل أحدهم لقب خليفة رسول رب العالمين الذي لقب به السلطان سليمان . ولم يحمل أحد منهم لقب الخلافة الكبرى أو الإمامة العظمى . كما نقلنا عن السلاطين العثمانيين آنفا ، فإن كان آحاد حكام المسلمين يلقبون أنفسهم بالخليفة ، فكان ذلك من باب المجاز ، لأن الحاكم يسمى خليفة كقوله تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ص : ٢٦] .

لكن السلطان العثماني كان خليفة رسول رب العالمين ، وهي الخلافة الكبرى والإمامة العظمى ، وهذا ثابت في الوثائق الرسمية كما قدمنا ، سواء أكان في قوانين صادرة من الديوان أو في اتفاقيات رسمية مع دول أخرى ؛ وهي بلا ريب أصح وأولي بالاعتبار من وثيقة الوقف تلك التي ابتهج بها د.محمد الراقد . ثم إنني قد قدمت ستة وثلاثين دليلا من وثائق ومصادر تاريخية عربية وتركية ، لقب فيها السلطان العثماني بلقب الخليفة ، وفي الوقت نفسه يعجز أساتذة التاريخ عن تقديم دليل واحد ، على أن واحدا من حاكم المسلمين الأكابر أو الأصاغر استخدم هذا اللقب في مراسلات رسمية أو معاهدات دولية . أود أن أشير إلى أن

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، نص الوثيقة في ملحق (٣) (ص ٤٥٩) .

د.عمر عبد العزيز ، تعرض لمسألة الخلافة في موضع آخر من كتابه المذكور ، ولكنه قال كلاما مناقضا لما قاله أولا ، إذ أنه نفى الخلافة عن السلطان العثماني، مستدلا بدليلين الأول : عدم ثبوت واقعة التنازل . والثاني : أن حكام المسلمين من العثمانيين وغيرهم كانوا ينعتون أنفسهم بلقب الخلافة من باب الأبهة ، فقد قال : « هذا كان على نطاق محلي لم يتعد حدود أرض الحاكم أو السلطان ، فلا يعني أن يلقب أحدهم نفسه أو غيره بهذا اللقب أن يصبح فعلا خليفة للمسلمين قاطبة ، لكنه كان من قبيل الفخر وإظهار العظمة والأبهة لا غير ، ومن ناحية أخرى ، لم يناقش العرب في العصر العثماني الأول ، أحقية سلاطين آل عثمان في الخلافة ، بل اعترفوا بها وظلوا ينظرون إلى السلطان على أنه خليفة رسول الله في حكم المسلمين »[1].

قلت : يخبرنا هنا د.عمر بأن ورود لقب خليفة للسلطان العثماني في بعض الوثائق والمصادر لا يدل على أنه كان خليفة للمسلمين حقا ، لأن ذلك كان في نطاق محلي ، وهذا باطل بلا ريب ، وقد بينت آنفا أن ذلك اللقب ثبت للسلطان سليمان في المعاهدة مع فرنسا ، وفي المراسلات مع الشاه الصفوي طهماسب ، وثبت للسلطان أحمد الثالث في المعاهدة مع الشاه أشرف الأفغاني ، وهؤلاء كانوا حكاما غير تابعين للدولة تبعية إدارية أو سياسية . ومما يلفت النظر أن د.عمر زعم أن استخدام ذلك اللقب كان من قبيل العظمة والأبهة ، وهذا يناقض ما قاله في الموضع الأول ، ونقلناه عنه فيما سلف ، من قوله أن السلطان سليما لم يهتم باللقب لأنه أصبح مبتذلا ، وأنه مما يسيء إلى سمعته أن يرث لقب خليفة عن مثل خليفة القاهرة . فليخبرنا د.عمر عبد العزيز ، أكان لقب الخليفة مبتذلا سيء السمعة ، إلى حد أن زهد فيه السلطان سليم ؟! أم أنه كان لقبا يضفي على حامله العظمة والأبهة ؟!.

أما التناقض الثاني في كلام د.عمر ، هو إقراره بأن العرب اعترفوا بخلافة السلطان العثماني دون نقاش ، فكيف يقال إذن أن السلطان العثماني كان يستخدم اللقب على سبيل العظمة لا على سبيل الحقيقة ؟!. فإن كان السلطان قد أثبت لنفسه الخلافة ، والرعية اعترفت به ، وبايعت السلاطين على ذلك واحدا تلو الأخر ، وكان السلطان العثماني حاكما على أغلب بلاد المسلمين شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ، وله من الحكم الاسم والفعل معا ، فما الذي

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) .

ينقصه ليكون خليفة.؟! إن إصرار أساتذة التاريخ على إنكار خلافة آل عثمان ، لهو أمر عجيب حقا ، ومن أظهر حالات الجدال بالباطل وأشدها وضوحا .

شرط القرشية

لقد جادل البعض في صحة خلافة العثمانيين ، بدعوى أنهم ليسوا من قريش ، فأقول وبالله التوفيق : إن القرشية شرط من شروط الخلافة ، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ ولكنه شرط مقيد وليس مطلقا ، فعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إلا كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ على وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ »[1].

وعن أبي برزة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ ثَلاثًا ، مَا فَعَلُوا ثَلاثًا ، مَا حَكَمُوا فَعَدَلُوا ، وَاسْتُرْحِمُوا فَرَحِمُوا ، وَعَاهَدُوا فَوَفَوْا ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعليهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[2].

وهناك أحاديث أخر يضيق المقام عن ذكرها ، قد ذكرها ابن حجر في الفتح ثم علق عليها بقوله : « إن مفهوم حديث معاوية ما أقاموا الدين ، أنهم إذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عنهم ، ويؤخذ من بقيـة الأحاديث ، أن خروجه عنهم إنما يقع بعد إيقاع ما هددوا به من اللعن أولا ، وهو الموجب للخذلان وفساد التدبير ، وقد وقع ذلك في صدر الدولة العباسية ، ثم التهديد بتسليط من يؤذيهم عليهم ، ووجد ذلك في غلبة مواليهم ، بحيث صاروا معهم كالصبي المحجور عليه ، يقتنع بلذاته ويباشر الأمور غيره ، ثم اشتد الخطب ، فغلب عليهم الديلم فضايقوهم في كل شيء ، حتى لم يبق للخليفة إلا الخطبة ، واقتسم المتغلبون الممالك في جميع الأقاليم ، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة ، حتى انتزع الأمر منهم في جميع الأقطار ولم يبق للخليفة إلا مجرد الاسم في بعض الأمصار »[3].

أما ابن خلدون فقد ذهب إلى ذلك أيضا ، وذكر أن القاضي أبا بكر الباقلاني من قبله قد نفى

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٦٢) ، أحمد (٢٨/ ٦٤) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٣) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٣٧) .

(٢) رواه أحمد (٣٣/ ٢٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٨) ، أبو يعلى الموصلي في مسنده (٦/ ٣٢٣) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٥٦) .

(٣) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ١١٧) .

اشتراط القرشية ، وإن كان ابن خلدون قد أثبت أحاديث رسول الله ﷺ في شرط القرشية ، لكنه رأى أنه شرط له حكمة خاصة يجب أخذها في الاعتبار ، إذ قال : « لا بد إذن من المصلحة في اشتراط النسب ، وهي المقصودة من مشروعيتها ، وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية ، التي تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ، فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها ، وذلك أن قريشًا كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ، ويستكينون لغلبهم ، فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ، ولا يحملهم على الكره ، فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة . والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات بينهم ، لتحصل اللحمة والعصبية ، وتحسن الحماية بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش ، لأنهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب إلى ما يراد منهم ، فلا يخشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة ، لأنهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها ، فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب ... فإذا ثبت أن اشتراط القرشية ، إنما هو لدفع التنازع ، بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة ، علمنا أن ذلك ، إنما هو من الكفاية فرددناه إليها ، وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية ، وهي وجود العصبية ، فاشترطنا في القائم بأمور المسلمين ، أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية »[1].

قلت : توفي ابن خلدون في عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م و توفي ابن حجر العسقلاني في عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م ، أي قبل أن يتولى العثمانيون الخلافة الإسلامية بزمن طويل ، فتنتفي عنهما أي شبهة في المحاباة ، وإن كنا نقر لهم بأنهما ليسا من هذا الصنف ، بل هما من أهل العلم والفضل ، ولكني أردت أن أقطع الطريق على كل من عساه أن يقول أن الفقهاء يصدرون الفتاوى وفقا لأهواء الحكام .

---

(١) ولي الدين بن خلدون : المقدمة (ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وقبل أن أختم الكلام في هذه المسألة أقول ، لقد قدمت ستة وثلاثين موضعا في الوثائق والمصادر الإسلامية العربية والتركية ، تبين أن جميع سلاطين بني عثمان ، منذ السلطان سليم الأول كانوا خلفاء المسلمين ، وهناك مواضع أخرى أكثر من أن تحصى أشار فيها المؤرخون إلى اصطنبول باسم دار الخلافة ، فلا مجال بعد ذلك للإنكار أو الإصرار على اتباع قول توماس أرنولد أو كارل بروكلمان ، وحقيق على كل أستاذ اتبعهما أن يشعر بالخزي ، فلو قبلنا عذركم بالجهل باللغة التركية – وهو ليس بعذر فمن جهل شيئا فعليه أن يتوقف فيه ، وأن يقول لا أعلم – فما بال المصادر العربية ! لماذا لم ترجعوا إليها ؟! لماذا لم ترجعوا إلى النهروالي والبكري والسعدي و العبيدي والمحبي والعصامي ؟! لماذا تهرعون إلى المراجع الأوروبية.؟! ولسان حالكم يقول ، إن آباءنا وأجدادنا من المؤرخين الأقدمين ، لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، ولو كانوا قد علموا واهتدوا فلا حاجة لنا فيهم.! أم أنكم يا أساتذة التاريخ لم تقرأوا هذه المصادر أصلا .؟! فأغلبكم لم يثبتها في قوائم المصادر والمراجع التي ذيلتم بها كتبكم ، أم أنكم لا تعلمون بوجود هذه المصادر ابتداء.؟! أم ماذا كنتم تعملون.؟!

مسألة قتل السلاطين لإخوتهم

وهي من المسائل التي أسيء استغلالها ضد السلاطين العثمانيين ، وقد أخرجت عن سياقها كالعادة ، وأصلها وجود قانون في الدولة العثمانية ، منسوب للسلطان محمد الفاتح – على خلاف بين المؤرخين – يجيز لمن يتولى السلطنة أن يقتل إخوته الذكور ، ونص المادة : « إذا تيسرت السلطنة لأي ولد من أولادي ، فيكون مناسبا قتل إخوته ، في سبيل تأسيس نظام العالم ، وقد أجاز هذا معظم الفقهاء فيجب العمل به »[1].

وسواء أكان قانونا أم لا، أو صحت نسبته للسلطان محمد الفاتح أم لا ، فهو قد حدث من بعض السلاطين يقينا ، فقد ذكره جمهور المؤرخين الأتراك والعرب ، مثل قيام السلطان مراد الثالث بقتل إخوته الخمسة ، وقيام السلطان محمد الثالث بقتل إخوته التسعة عشر ، فور

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ١٢٩) ، وقد بين المؤلف في هذا الكتاب اختلاف المؤرخين الأتراك حول صحة نسبة هذا القانون إلى السلطان محمد الفاتح ، وقسمهم إلى ثلاث فرق ، وشرح حجج كل فريق . وانظر أيضا تعليق د.سيد محمد السيد ، على خليل إينالجيك : العثمانيون النشأة والازدهار ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني . ترجمة د.سيد محمد السيد (ص ٥٩) .

توليه العرش[1] ، فلذلك نقطع بصحة الخبر ، ولكن في نسبة القانون إلى السلطان محمد الفاتح نظر ، ولكني لست هنا بصدد التحقيق في صحة نسبته إلى السلطان الفاتح من عدمها ، بل لأنكر على أساتذة التاريخ تناولهم لتلك المسألة ، وقبل أن أخوض في ذلك ، أحب أن أؤكد إدانتي الكاملة لهذا الفعل سواء ، أكان قانونا أم لا ، وهو أحد أعظم الأخطاء التي وقعت في الدولة العثمانية ، وفي رأيي ، أنه أحد أهم أسباب انهيار الدولة ، كما سأبينه في محله ، وعلى الباحث في هذه المسألة أن يفرق بين حالتين : **الأولى** : قتل بعض السلطان لإخوتهم ، بسبب إعلانهم العصيان والاستقلال ، وشروعهم في محاربة السلطان ، **الثانية** : قتل السلاطين لإخوتهم بدون أي ذنب ، أو حتى أي بادرة تشير إلى نيتهم في إعلان العصيان .

فأما الحالة الأولى : فهم بغاة وقتالهم واجب شرعي ، وعلى المسلمين أن يعينوا الإمام على ذلك ، وهذا أمر لا خلاف فيه بين العلماء . لقوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩].

وقتال أهل البغي من المسلمين ليس كقتال المشركين . فهم لا يسترقون ، ولا يقتل أسيرهم ولا يجهز على جريحهم ، ولا تسبى نساؤهم وذراريهم ، ولا تغنم أموالهم . ولكن قد وضع العلماء شروطا في الخارجين على الإمام ، حتى تتحقق لهم صفة البغي ، و إلا كانوا قطاع طريق ، تسري عليهم أحكامه . قال **البغوي الشافعي** : « والباغي في الشرع هو الخارج على الإمام العدل ، فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل ، بتأويل محتمل ونصبوا إمامًا ، فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته ، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم ، وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على بغيهم ، قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته . ثم الحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ، ولا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم ... أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث ، بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم ، أو لم يكن لهم تأويل ،

---

(١) منهم على سبيل المثال : تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣٢٤ ، ٣٧٠) ، كاتب جلبي : فذلكه (ص ٥٣) ، مرعي بن يوسف الكرمي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان (ورقة ١٥) ، محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٤٨) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٣٣) .

أو لم ينصبوا إماما فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالا ، ولم يتعرضوا للمسلمين ، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق »[١].

قال النووي الشافعي : « ولا تثبت هذه الأحكام (أحكام البغاة) في حقهم إلا بشروط توجد فيهم ، أحدها : أن يكونوا طائفة فيهم منعة يحتاج الإمام في كفهم إلى عسكر ، فإن لم تكن فيهم منعة وإنما كانوا عددا قليلا لم تتعلق بهم أحكام البغاة وإنما هم قطاع الطريق ... الشرط الثاني : أن يخرجوا من قبضة الإمام ، فإن لم يخرجوا من قبضته لم يكونوا بغاة ... الشرط الثالث : أن يكون لهم تأويل شائع ، مثل أن تقع لهم شبهة يعتقدون عنها الخروج عن الإمام ، أو منع حق عليهم وإن أخطأوا في ذلك ... فإذا لم يكن لهم تأويل شائع فحكمهم حكم قطاع الطريق »[٢].

وقال ابن قدامة الحنبلي : « (البغاة) وهم القوم الذين يخرجون على الإمام بتأويل سائغ ولهم منعة وشوكة ، والخارجون عن قبضة الإمام أصناف أربعة ، أحدها : قوم امتنعوا من طاعته وخرجوا عن قبضته بغير تأويل ، فهؤلاء قطاع الطريق ساعون في الأرض بالفساد ، وقد ذكرنا حكمهم (الثاني) قوم لهم تأويل ، إلا أنهم نفر يسير لامنعة لهم كالعشيرة ونحوهم ، فهؤلاء حكمهم حكم الصنف الذي قبلهم في قول أكثر الأصحاب ومذهب الشافعي... »[٣].

قلت : وكل الأمراء من بني عثمان الذين خرجوا على إخوانهم السلاطين ، لم يكن لهم تأويل يسوغ لهم الخروج ، فهم عند أكثر أهل العلم ليسوا من البغاة ، بل هم من قطاع الطرق الساعين في الأرض بالفساد ، ويدخلون في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣].

وحتى وإن كانوا بغاة ، فقد أجاز بعض العلماء قتل الأسير الباغي ، إن رأي الإمام المصلحة

---

(١) الحسين بن مسعود البغوي : معالم التنزيل (٤/ ٢٥٩ ، ٢٦٠) .

(٢) محي الدين النووي : المجموع شرح المهذب (١٩/ ١٩٧ ، ١٩٨) .

(٣) شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة : الشرح الكبير (١٠/ ٤٩) .

في ذلك ، ورأى أن شره لن يندفع إلا بقتله ، فقد قال السرخسي الحنفي : « إذا قاتل أهل العدل أهل البغي فهزموهم ، فلا ينبغي لأهل العدل أن يتبعوا مدبرا ، لأنا قاتلناهم لقطع بغيهم ، وقد اندفع حين ولوا مدبرين ، ولكن هذا إذا لم يبق لهم فئة يرجعون إليها ، فإن بقي لهم فئة ، فإنه يتبع مدبرهم ، لأنهم ما تركوا قصدهم لهذا حين ولوا منهم منهزمين ، بل تحيزوا إلى فئتهم ليعودوا ، فيتبعون لذلك . ولهذا يتبع المدبر من المشركين لبقاء الفئة لأهل الحرب ، وكذلك لا يقتلون الأسير إذا لم يبق لهم فئة ، وقد كان علي ﷺ يحلف من يؤسر منهم أن لا يخرج عليه قط ، ثم يخلي سبيله ، وإن كانت له فئة فلا بأس بأن يقتل أسيرهم ، لأنه ما اندفع شره ولكنه مقهور ، ولو تخلص انحاز إلى فئته ، فإذا رأي الإمام المصلحة في قتله فلا بأس بأن يقتله »[1].

وهذا باب كبير من أبواب الفقه ، قد أكثر العلماء من التفصيل فيه ، وقد وردت فيه آثار نبوية كثيرة ، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا** »[2].

وعن عرفجة بن شريح ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ** »[3].

وعن عبد الله بن عمر بن العاص ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « **وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ** »[4].

---

(١) أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي : المبسوط في الفروع (١٠/ ١٢٦) .

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٨٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨ / ٢٤٨) ، الطبراني في المعجم الكبير نسخة إلكترونية ضمن المكتبة الشاملة الإصدار الثاني (١٩/ ٢٢٦) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١١) ، شهاب الدين القضاعي في مسنده (١/ ٤٤٧) .

(٣) رواه مسلم (٣/ ١٤٧٩) ، أبو داود (٤/ ٢٤٢) ، النسائي في السنن الكبرى (٢٣/ ٤٢٨) ، أحمد (٣١/ ٣٣٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٩١) ، أبو بكر بن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣١٥) ، أبو عبد الله الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٩) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٤٣) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١١) ، أبو حاتم ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٥٥) ، أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ٥٥١) .

(٤) جزء من حديث طويل رواه مسلم (٣/ ١٤٧٢)، أبو داود (٤/ ٩٦)، ابن ماجه (٢/ ١٣٠٦) ، أحمد (١١/ ٤٥) ، أبو بكر بن أبي شيبة (٧/ ٤٤٦) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٩٢) ، النسائي في السنن الكبرى (٧/ ١٨٦) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٤١٣) ، الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٥٣) .

وعلى هذا ، فإن من يتعرض لمسألة قتل الإخوة في الدولة العثمانية فعليه أن يفرق بين العصاة الخارجين على الإمام المنابذين له بالسيف سواء أكانوا من إخوة السلطان أو أبنائه أو من غيرهم ، فقتلهم السلطان بسيف الشريعة ، وهم :

١- السلطان مراد الأول ، فقد قتل ابنه صاوجي ، بعد أن أعلن العصيان وجمع جيشا وقاتل أباه ، فهزمه السلطان وقتله[١] ، وصاوجي إنما خرج على أبيه بدون أي تأويل ، فتسري عليه أحكام الحرابة .

٢- السلطان محمد الأول ، فمعلوم أنه بعد هزيمة أنقره على يد تيمورلنك ، دب الصراع بين الإخوة الأربعة ، عيسى وسليمان وموسى ومحمد ، وقد دارت رحى معارك استمرت عشر سنوات ، وقد كان محمد حريصا على إعادة توحيد الدولة ، فأما عيسى فقد هزم وفر إلى الجبال واختفي إلى الأبد ، وأما سليمان فقد قتل في ساحة القتال ، وأما موسى فقد كان حاكما في أدرنه تحت طاعة أخيه السلطان محمد الأول ، إلا أنه أعلن العصيان وخرج عن الطاعة ، فقاتله السلطان وانتصر عليه وقتله ، وقد تقدم تفصيل ذلك في الباب الأول .

٣- السلطان مراد الثاني ، إذ إن الإمبراطور البيزنطي أطلق سراح عمه الأمير مصطفى الذي كان أسيرا عنده ، وأمده لقتال ابن أخيه ، فقاتله السلطان مراد الثاني وقبض عليه وقتله ، ثم توجه لحصار القسطنطينية انتقاما من إمبراطورها ، فما لبث أن فوجئ بعصيان آخر من أخيه الأمير مصطفى ، الذي ادعى السلطنة في الأناضول ، فاضطر لرفع الحصار عن القسطنطينية ، ثم سار إليه فقاتله وهزمه وقبض عليه وقتله .

٤- قتل السلطان سليم الأول لأخويه أحمد وقورقود ، بعد أن خرجا عليه وقاتلاه بعد أن تولى السلطنة ، بالرغم من أنه كان قد ولى أخاه قورقود على إمارة في الأناضول ، وكل تلك الوقائع السابقة ذكرنا تفاصيلها في الباب الأول .

٥- السلطان سليمان القانوني قتل ابنه الأمير مصطفي ، بعد أن ظن أنه تمالأ مع الشاه الصفوي على خلعه من السلطنة ، والحق أنه كان مظلوما ، وإنما دبرت مؤامرة للإيقاع به كما

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية ، (ميكروفيلم رقم ١٣٤٨٦ ، ورقة ٢٣) .

تقدم ذكره .

٦- قتل السلطان سليمان القانوني لابنه الأمير بايزيد وأولاده ، وذلك بعد أن أعلن العصيان وخرج من أماسيه على رأس جيش لقتال أخيه في صحراء قونيه ، فهزم وفر إلى الشاه الصفوي طهماسب ، فأكرمه أول الأمر ثم قبض عليه وسلمه وأولاده إلى السلطان سليمان فأمر بقتلهم ، ولوقائع السلطان سليمان مع أبنائه تفاصيل كثيرة ذكرها بجوي في تاريخه ، وعلي بن بالى[1].

فكل هؤلاء أعلنوا العصيان ، ومنهم من ادعى السلطنة وقاتل السلطان الشرعي للبلاد . فهؤلاء حق القول عليهم ، وتسرى عليهم أحكام البغي أو الحرابة . وقد رأينا كيف أن أعداء الدولة العثمانية كانوا يستغلون هؤلاء الأمراء العصاة للضغط عليها ، كاستغلال الإمبراطور البيزنطي للأمير مصطفى عم السلطان مراد الثاني ، واستغلال الإمبراطور البيزنطي للأمير أورخان للضغط على السلطان محمد الفاتح ، واستغلال المجر والبنادقة للأمير جم فاضطر السلطان بايزيد الثاني لمهادنتهم لسنوات ، وهذه لاشك مفاسد كبيرة لم تكن الدولة لتتجنبها إلا بقتلهم ، أما من قتلوا بغير ذنب جنوه بل حسما لمادة الخلاف وقطعا لاحتمال قيام أحدهم بالعصيان . هي الحالة الثانية التي أدانها كثير من المؤرخين والعلماء ، والتي أظن أنها كانت من أهم أسباب تراجع هذه الدولة في أواخر القرن السابع عشر ، ويدخل فيها أربع حوادث ذكرنا تفاصيلها في الباب الأول :

١- قتل السلطان مراد الثالث لإخوته الخمس فور توليه السلطنة عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م.

٢- قتل السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث لإخوته التسعة عشر ، فور توليه السلطنة عام ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م .

٣- قتل السلطان عثمان الثاني لأخيه محمد ، بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم ، قبل خروجه إلى حملة خوتين عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م .

٤- قتل السلطان مراد الرابع لأخوية سليمان وبايزيد ، قبل خروجه إلى حملة روان

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٢٢٩ - ٢٣٢ ، ٢٨٧ - ٣٠٢) ، علي بن بالى : العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم . طبعة بيروت (١٩٧٥) ملحقا بكتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٣٤٦ - ٣٤٨) .

عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٥م .

هذه هي الحالات التي وقع فيها القتل ظلما ، ويلاحظ أنها تمت في فترة معينة من عمر الدولة لا تتجاوز اثنين وستين عاما ، وكانت فترة اضطرابات وفتن كثيرة مهلكة ، ولم تحدث تلك الحالات من القتل ظلما قبلها ولا بعدها ، كما يلاحظ أنه بالنسبة للسلطان عثمان الثاني والسلطان مراد الرابع ، أنهما قتلا إخوتهما قبل أن يخرجا من العاصمة في حملة عسكرية . ولا شك أن ذلك كان خوفا من أن يغتنم أحد أهل الفساد الفرصة فيسلطنوا أحد هؤلاء الإخوة في غيبة السلطان ، فلقد كان زمنهما تضطرب فيه أمواج الفتن اضطرابا وتشتعل فيه نيران الفتن اشتعالا ، لاسيما زمن السلطان مراد الرابع[1] ، فإن كنا نستطيع أن نتفهم سبب قتلهما لإخوانهما - مع عدم الإقرار به - إلا أنه يتعذر علينا فهم ذلك بالنسبة للسلطانين مراد الثالث ومحمد الثالث . فلم يكن يوجد أي سبب لقتلهما إخوانهما ، ولا شك أن ذلك كان ظلما محضا.

وهناك واقعة أخرى يحسن بنا الإشارة إليها ، وهي واقعة قتل السلطان بايزيد يلدرم لأخيه يعقوب عند توليه العرش عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م . وكما هو معلوم فقد تولى يلدرم الحكم بعد مقتل أبيه السلطان مراد الأول في معركة قوص اوه الأولى ، وقد بويع بالسلطنة في ساحة المعركة ، ثم قتل أخاه بعدها مباشرة ، وذكر بعض المؤرخين أن ذلك كان تحسبا لقيامه بالعصيان ، كالذي قام به أخوهما صاوجي إبان حكم أبيهم السلطان مراد الأول[2] ، بينما ذكر على كمال مدرس زاده ، أنه قتل أخاه بسبب ميل بعض العسكر إليه[3] ، فالأمر ملتبس في هذه الحالة ، وليس معلوما على وجه اليقين إن كان قتل لسبب شرعي يجيز ذلك أم لا ، ولكن على أية حال هذه الواقعة ، بعيدة كل البعد عن قانون قتل الإخوة المزعوم ، فقد وقعت قبل صدوره بزمان طويل . ولكن المؤسف هو تناول أساتذة التاريخ لمسألة القتل تلك ، فقد زعموا أنها كانت سمة الحكم في الدولة العثمانية ، على امتداد عمرها . وخلطوا بين من قتل

---

(١) راجع وقائع زمن السلطان عثمان الثاني وزمن السلطان مراد الرابع التي تقدمت في الباب الأول حتى تكتمل الصورة .

(٢) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . (ورقة ٢٧) .

(٣) علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده : كمال الإنسان في معرفة آل عثمان ، مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . (ميكروفيلم رقم ١٨٨٩٨ ، ورقة ٢٧) .

بحد شرعي بسبب بغيه وعصيانه ، سواء أكان أخا للسلطان أو ابنا له أو عما ، وبين من قتل ظلما بغير ذنب جناه . فقد قال د.عبد العزيز الشناوي : « يقول أحد الباحثين وهو ألدرسون Alderson أن المعنى الحرفي لكلمة Fratricide هو قتل الإخوة ، ولكن استخدام هذه اللفظة في تاريخ الأسرة الحاكمة العثمانية ، يخرج عن هذا النطاق إلى آفاق واسعة رهيبة ، لأن عمليات القتل لم تكن مقصورة على إخوة السلطان الجديد فحسب ، بل كانت تمتد فتشمل قتل كل فرد ذكر في الأسرة الحاكمة ، يحتمل أن يكون مصدر خطر على السلطان المتربع على العرش . ولذلك كانت عمليات القتل ، تشمل أيضا الأعمام والأبناء والأحفاد ، وفي الحالتين الأخيرتين، كانت عمليات القتل تتم نتيجة ثورة يقوم بها الأبناء على الآباء »... وقال أيضا : « وقد وضع أحد الباحثين ثبتا بأسماء أربعة عشر سلطانا أقدموا على قتل أبنائهم وإخوتهم أو أعمامهم أو أبناء إخوتهم ، ليتخلصوا من منافسيهم على ارتقاء العرش »[1].

قلت : إن د.عبد العزيز حبيب إلى قلوبنا ولكن الحق أحب إلينا منه ، فهو قد خلط بين من قتلوا لبغيهم على السلطان ومن قتلوا ظلما . وقد وقع ذلك الخلط عنده بسبب النقل عن الغربيين ، دون أن يحقق ذلك بنفسه ، ثم إن قوله قتل كل فرد ذكر في الأسرة الحاكمة فيه تجاوز كبير جدا ومنافاة للحقيقة .!! وقد بينت فيما سبق حالات القتل كلها ولا ينطبق عليها بأي حال ذلك الوصف ، من أنها كانت عمليات قتل لكل فرد ذكر في الأسرة الحاكمة .

أما د.محمد عبد المنعم الراقد فقد نقل[2] أيضا عن نفس المرجع الأوروبي المذكور ، الذي نقل عنه د.عبد العزيز الشناوي ، أما د.عمر عبد العزيز فقد قال : « وأما التقليد الثاني الذي نشر رسميا في مرسوم أصدره السلطان محمد الثاني ، فقد منح السلطان الجديد الحق في قتل إخوته الباقين حتى لا ينازعه أحد منهم على العرش في المستقبل . فجعل بذلك قتل الإخوة سنة مشروعة ... وهكذا انعدم وجود طبقة أرستقراطية تتصارع على العرش من أمراء البيت العثماني ، كما لم تتعرض الإمبراطورية لأخطار التقسيم الناجمة عن قوانين الوراثة »[3].

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ٢٧٢ ، ٢٧٣) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٢٢) .

(٣) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ٥٠) .

قلت : من يقرأ كلام د.عمر يظن أن جميع السلاطين منذ السلطان محمد الفاتح قتلوا إخوانهم . وهذا باطل كما قدمنا . والذي كان ينبغي على الأستاذ المحقق المدقق ، أن يحصر حالات القتل ويدرس أسبابها ، أما هذا التعميم فليس من أعمال العلماء المحققين المدققين ، ثم أن في نسبة هذا القانون للسلطان محمد الفاتح نظر وخلاف بين المؤرخين ، كان يجب أن يشير إليه .

أما **د.صلاح هريدي** فقد نقل نصا عن د.عمر عبد العزيز[1]. وأما **د.أحمد عبد الرحيم مصطفي** فقد قال كلاما عجبا عن السلطان بايزيد يلدرم : « قتل (أخاه) يعقوب وبذلك بدأ التقليد العثماني القاضي بقتل الإخوة ، وهو التقليد الذي برره الفقهاء ، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون في عهد محمد الفاتح ، ورغم أنه قانون ينم عن القسوة الشديدة فإنه حقق الهدف المرجو منه . إذ لم تتأثر الدولة العثمانية بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون » ... **وقال أيضا** : « تقررت عادة قتل الإخوة فكان على السلطان الحاكم أن يقتل إخوته بمجرد توليه العرش »[2].

أما **د.محمود الحويري** فقد نقل كلام د.أحمد عبد الرحيم وزاد عليه : « فقد أصبح قتل الإخوة قاعدة منتظمة عند السلاطين العثمانيين بعد الجلوس على العرش »...... **وقال أيضا** : « دلت التجربة في تاريخ الأسرة الحاكمة على أن الابن الذي يتقلد العرش ، يستهل حكمه بقتل جميع منافسيه . واتسع نطاق الصراع العائلي الدموي الرهيب ، إذ شمل الأفراد الذكور من الأسرة الحاكمة ، حتى الذين لم يتطلعوا إلى ارتقاء العرش »[3].

قلت : من يقرأ كلام الأستاذين الفاضلين د.أحمد عبد الرحيم ود.محمود الحويري ، يظن أن قتل الإخوة ظل مستمرا في الدولة خمسة قرون ، وهذا باطل قطعا ، بل لقد صرح د.محمود بأن كل سلطان كان يقتل إخوته وجميع المنافسين على العرش ، وزعم أن التجربة دلت على ذلك .! وكأن د.محمود درس بنفسه وحقق المسألة وخرج بتلك النتيجة ، وإن كان قد درس بنفسه حقا ، فقد أضاع وقته سدى مهدورا ، وأذهب جهده هباء منثورا .

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ العرب الحديث (ص ٩١) .

(٢) د.أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني (ص ٥٠ ، ١١٠) .

(٣) د.محمود الحويري : تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى (ص ٦٦ ، ١٨٧) .

أما د.سعيد عاشور فقد أشار إلى ذلك دون أن يصرح به ، فقد قال عند حديثه عن الأمير جم الذي نازع أخاه السلطان بايزيد الثاني وقاتله ثم هزم وفر إلى مصر : « كان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه »[1].

قلت : نقل د.سعيد هذا الكلام عن أستاذه محمد مصطفي زيادة ، ولا ريب أن أستاذه هذا نقل هذا الكلام عن أحد المستشرقين الذين أشربهم في قلبه ، لاسيما أستاذه الألماني « باول كاله » الذي أهداه تحقيق تاريخ ابن إياس ، وهذا الكلام باطل من وجهين :

١- أن الأمير جم بن محمد الفاتح هرب إلى مصر بعد أن أعلن العصيان في الأناضول وادعى السلطنة وسك النقود باسمه ، وذلك بعد أن بويع أخوه الأكبر بايزيد بالسلطنة ، بعد وفاة أبيهما السلطان محمد الفاتح . وقد اضطر السلطان بايزيد إلى قتاله ، فلما هزمه لم يجد الأمير جم مفرا من الهروب إلى مصر . وهذا مذكور في الباب الأول والثاني بتفاصيله .

٢- لم توجد أي مذابح قام بها السلاطين قبل زمن الأمير جم . وكل حالات القتل كانت بسبب العصيان ، وقتال السلطان كما ذكرنا آنفا ، وهو حد شرعي سواء أرضي السلطان بذلك أم لم يرض ، ويستوي في ذلك الإخوة والأبناء والأعمام وحتى آحاد الناس ، وهي عقوبة شرعية لا يماري فيها إلا جاهل أو مكابر ، وقد قدمنا الأدلة من القرآن والسنة على ذلك . ثم إنه حتى العلمانيين في العصر الحديث ، لم يجدوا بديلا عن هذه العقوبة ، وفي أغلب دول العالم ، تجد أن الإعدام هو عقوبة جريمة الخيانة العظمى ، فلا يليق بأستاذ كبير في مكانة د.سعيد عاشور أن ينقل هكذا دون أن يعي ما ينقله ، ولو كان ينقله عن أستاذه .

مفاسد قتل الإخوة

ومما ينبغي أن أؤكد عليه ، أن الحالات الأربع التي قتل فيها السلاطين إخوانهم ظلما ، هي بقع سوداء في الثوب العثماني الناصع ، لاسيما وقائع قتل السلطان مراد الثالث لإخوته الخمس ، وقتل السلطان محمد الثالث لإخوته التسعة عشر ، فهي جرائم شنيعة وليس لها ما يبررها ، وفي اعتقادي أن ذلك كان من أهم عوامل تراجع الدولة ، لأنه أدى إلى إضعاف سلالة عثمان التي هي أساس هذه الدولة ومصدر وحدتها . وإذا تعرضنا لتحليل الأحداث الذي ذكرناها

(١) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (ص ٢٧٠) .

تفصيلا في الباب الأول ، سيتبين لنا أنه بسبب قانون قتل الإخوة ، جلس على العرش العثماني سلاطين ضعاف أو صغار السن ، مما أحدث اضطرابا شديدا في الدولة . ومثال ذلك أن السلطان محمدا الثالث الذي قتل إخوته التسعة عشر ، توفي عن ابنين أحمد ومصطفي . ويبدو أنه ندم على فعلته ، فقد أوصى ابنه الأكبر أحمد وولي عهده ألا يقتل أخاه[1] ، فاستحدث السلطان أحمد ما يسمى بالقفص ، وهو جناح معزول بالقصر السلطاني ، يعزل فيه إخوة السلطان ، ولا يسمح لأحد بالدخول عليهم سوى مؤدبيهم ومعلميهم ، وظل الأمير مصطفى في ذلك القفص لما يقرب من أربعة عشر عاما ، مما أصابه باضطرابات نفسية وعقلية . فلما توفي أخوه السلطان أحمد ، أخرجوه من القفص وبايعوه بالسلطنة قائلين : « ربما أن طول مدة حبسه كانت هي الباعث على خفة عقله ، وأنه بسبب عدم اختلاطه بالخلق سقط في واد آخر ، وأنه يؤمل أن يفيق ويعود إلى الرشد والسداد بالاختلاط والمعاملة مع الخلق لبعض الوقت »[2].

ولكن بعد بضعة أشهر لم تتحسن حالته فخلعوه وسلطنوا ابن أخيه السلطان عثمان الثاني ، وبرغم أنه كان ذا عزم متين وهمة لا تلين ، وقد أظهر مواهب فائقة ومهارات لائقة ، وعلقت عليه آمال إصلاح الأحوال الداخلية ، إلا أنه كان صغير السن ، لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمرة ، يفتقر إلى الخبرة والقدرة على إدارة دولة مترامية الأطراف مثقلة بالاضطرابات والتمردات الداخلية . فأراد إجراء الإصلاحات بسرعة ، فانقلب عليه بعض أصحاب النفوذ وقتلوه قبل أن يكمل عامه الخامس في السلطنة ، وطرأ نفس الإشكال من جديد وهو عدم وجود أمير يصلح للسلطنة ، فلم يجدوا بدا من إعادة السلطان مصطفى المخلوع مرة أخرى . وذلك لأن السلطان عثمان الثاني كان قد قتل أخاه محمدا إبان حكمه ، وكان مقاربا له في العمر ، ولو كان قد أبقى عليه فلربما كانت قد تغيرت الأحوال ، فقانون قتل الإخوة هنا أفقدنا أميرا كان يمكن أن يكون سلطان قديرا . كما أن قانون قتل الإخوة قد تسبب في أن أصيب السلطان مصطفى في عقله ، فهو قد سمع أن أعمامه وأعمام أبيه قد قتلوا جميعا ، فأيقن

---

(١) حسين خوجه بن علي : بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان (ورقة ١٨٤) ، محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ٢٥٢) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٣٥) .

أنه ربما يأتي عليه الدور فيلحق بهم ، ثم إنه ظل حبيسا لسنوات طوال ربما كان ينتظر فيها الموت في كل لحظة ، ففقد عقله . ثم إن السلطنة الثانية للسلطان مصطفي قد طالت لأكثر من عام وهو على حاله ، حتى اضطروا إلى خلعه مرة ثانية ، ولم يجدوا بدا من تولية السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد ، وأخو السلطان عثمان المقتول ، بالرغم من صغر سنه ، فقد كان لم يكمل عامه الثاني عشر بعد ، فكانت أمه وصية عليه ، فدخلت الدولة في فتن مهلكة وبلايا منهكة وحروب داخلية ، لما يقرب من عشر سنوات - وقد فصلنا ذلك في الباب الأول - حتى بلغ السلطان مراد الرابع أشده واستوى ، فقبض على الملك ، وكان سلطانا قديرا أعاد شيئا كثيرا من النظام ، إلا أنه بدوره قتل أخويه بايزيد وسليمان ، وأبقى على أخيه الأصغر إبراهيم ، ولم يدر بخلد السلطان مراد الرابع أنه سيموت قبل أن يكمل عامه الثامن والعشرين ، فلم يجدوا بدا من سلطنة أخيه الأصغر إبراهيم ، وكان هو الأمير الوحيد الباقي من نسل عثمان ، فكان أرباب الدولة والناس جميعا في خوف وجزع من أن يموت قبل أن ينجب ابنا ليكون ولي عهده ، ولو كان حدث ذلك لتفككت الدولة فورا ، كما أن السلطان إبراهيم لم يكن ذلك العسكري الصنديد والإدارى القدير والحاكم الداهية ، كأخيه السلطان مراد الرابع ، لذلك تمكن أرباب الفساد من خلعة بعد ما يقرب من تسع سنوات من الحكم ، وسلطنوا ابنه السلطان محمدا الرابع الذي لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره ، تحت وصاية أمه ، فعادت الفوضى من جديد إلى الدولة ، فلو كان السلطان مراد الرابع قد أبقى على أخيه بايزيد الذي كان يصغره بثلاثة أشهر[1] ليتولي السلطنة من بعده بدلا من أخيهما الأصغر السلطان إبراهيم ، لربما كان قد تبدل الحال .

التزم السلاطين بعد ذلك بعادة القفص ، وهو عزل إخوتهم في جناح خاص كما ذكرنا ، فإذا حان على أحدهم الدور في السلطنة ، يفرج عنه ويجلس على العرش ، فيجد نفسه فجأة مسئولا عن إدارة دولة عظمى مترامية الأطراف ، وهو لا يعرف شيئا عن السياسة والقيادة بل لم يختلط بالناس ابتداء ، الأمر الذي أحدث فراغا في السلطة نوعا ما ، فاستبد كثير من الوزراء والقادة بالأمر مدفوعين بمصالحهم الشخصية . فهكذا يلاحظ أن قتل هؤلاء

---

(١) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٦٢٥) .

السلاطين الأربعة لإخوتهم ، قد أحدث خللا كبيرا في الدولة لم يمكن إصلاحه ، وظلت الدولة تتأخر شيئا فشيئا ، كما يلاحظ أن أساتذة التاريخ المذكورين عمموا الكلام على جميع السلاطين ، ولم يفرقوا بين من قتل إخوته حدا لبغيهم وعصيانهم ، وبين من قتل إخوته ظلما ، وبين من لم يقتل أحدا على الإطلاق . وكما ذكرنا ، فإن من قتلوا إخوتهم ظلما كانوا أربعة سلاطين من أصل خمسة وثلاثين سلطانا حكموا الدولة العثمانية ، أي أن نسبة السلاطين الذي قتلوا إخوانهم ظلما ٥ , ١١٪ ، والفترة الزمنية التي تمت فيها تلك العمليات ، كانت اثنين وستين عاما متصلة ، من أصل ستمائة وعشرين عاما هي عمر الدولة العثمانية ، أي أن النسبة لا تزيد عن ١٠٪. فهل يجوز هذا التعميم بالله عليكم ؟! .

مزاعم التدهور الحضاري لمصر

زعم كثير من أساتذة التاريخ أن مصر تحت الحكم العثماني ، أصابها حالة من التدهور الشديد في كل نواحي الحضارة ، كالزراعة والصناعة والتجارة والعلم وأحوال المعيشة ، وهذا كلام باطل قطعا ، وفيه ظلم بين وتجن على الحقيقة ، وهي صورة منقولة عن كتب الرحالة الأوروبيين الذين جابوا مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، فتعمدوا نقل صورة مشوهة عن أحوالها ، لتحفيز ساسة أوروبا على الإقدام على غزو مصر ، ولتزويدهم بالمبررات التي تمكنهم من تغطية أطماعهم الاستعمارية خلف غطاء من الأهداف النبيلة . ومن أشهرهم **فولني وسافاري** ، فقد قدم هذان الفرنسيان صورة مفادها ، أن الدولة العثمانية غير قادرة على حماية مصر ، وأن العثمانيين أهملوا إدارة شئونها فآلت إلى الخراب ، وأن المماليك استبدوا بحكمها وأن الأهالي يبغضونهم ، وسيرحبون بالفرنسيين إذا ما جاءوا ليخلصوهم منهم ، وأن تسلط الأتراك على العرب هو سبب خراب مصر ، وأن الازدهار يمكن أن يعود إليها بإدارة رشيدة . ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح أيضا في كتابات الرحالة الإنجليزي **جون أنتيس** ، الذي دخل مصر عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م ، وأقام فيها اثني عشر عاما تقريبا ، فقد عرض في كتابه مشاريع تتضمن استغلالا أفضل لماء النيل ، ولزيادة مساحة الأرض المزروعة في مصر . ثم قال : « وباختصار فإن مجموعة كبيرة من المشروعات قد تحول هذا البلد بأكمله إلى حديقة غاية في البهجة والسرور ، حيث لا يحتاج الأمر كثيرا لتحقيق حياة رغدة ومواتية ،

تحدث طفرة كبيرة في تجارته . إذ لا يوجد بلد آخر في العالم يفوقه في موقعه الممتاز ، ولكن وا أسفاه ، إن طموحات السكان الحاليين ضئيلة للغاية لتنفيذ ذلك ، كما أن جشع وطغيان رجال السلطة كبير للغاية ، فهم لا يفكرون أبعد من حاضرهم »... ثم أخذ ذلك الرحالة المستشرق يعدد مزايا الموقع الجغرافي لمصر ومشاريع تنمية التجارة. **ثم قال** : « يا ليت هذا البلد يسقط في يد أمة متحضرة قادرة على توطيد نفسها هناك ، فتعمل على تطوير مزايا موقعه لصالح التجارة »[1].

هكذا كانت كتابات الرحالة في تلك الفترة مجرد دعوة لساسة أوروبا للاستيلاء على مصر ، فهي بلا ريب تفتقر إلى المصداقية . وقد عالج المؤرخ **الفرنسي هنري لورنس** تلك المسألة باستفاضة ، وكان مما قاله عن هؤلاء الرحالة : « هنا نجد الأطروحة المستعربة التي تلقي المسؤلية الأساسية عن انحدار الشرق على الأتراك المخربين المتعصبين ، وتلك الأطروحة هي الأوسع انتشارا بين المؤرخين المحترفين »…. والصورة التي نقلها الرحالة سافاري الذي زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر أيضا ، وأكد في كتاباته على أن الازدهار قد يعود إلى مصر إذا ما تغير نظامها السياسي ، **قال هنري لورنس** : « والواقع أن إشارات سافاري إنما تشكل دعوة مباشرة إلى تدخل من جانب أوروبا في هذه البلاد ، ومحل الإهمال العثماني يجب أن تجيء الإدارة الأوروبية الجيدة ، التي سوف تعيد إلى هذه البلاد الازدهار القديم لفائدة كل من الطرفين »... **ثم قال هنري لورنس** : « وتواصل الآراء بين الرحالة والديبلوماسيين الداعين إلى التدخل هو تواصل واضح ، والحال أن كتابات الرحالة شاءت ذلك أم أبت ، إنما تمهد للحملة الفرنسية على مصر ، ويجرى الانتقال من وصف سلطة استبدادية موجودة في الواقع إلى الأسس الأيدولوجية للتوسع الأوروبي ».

قلت : ويبدو أن الرحالة قد نجحوا في تحقيق ذلك الهدف ، إذ أن السياسيين الفرنسيين عندما ناقشوا احتمال مقاومة الأهالي للحملة ، ظن **تاليران** - وهو سياسي ضليع- أن الناس سيرحبون بالغزو الفرنسي ولن يقاوموه إذ **قال** : « إن الشعب يمقت المستبدين ولكنه لا يملك من القوة ما يكفي للإطاحة بنيرهم ، وسوف يحمد الفرنسيين الذين سوف يخلصونه منه ، إن

---

(١) جون أنتيس : مذكرات عن المصريين. ترجمة د.سيد أحمد علي الناصري (ص ١١٥ ، ١٧٩) .

سكان مصر هم أعداء كلهم للبكوات المماليك الذين يضطهدونهم ، وهم لا يحملون أسلحة ، وإذا ما جرى توزيع الأسلحة عليهم بدعوى الدفاع عن البلد ضد غزو أجنبي ، فسوف يستخدمونها ضد هؤلاء المضطهدين ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى الخوف من أية مقاومة ».... هذا ما قاله تاليران ، ولكن خاب ظنه ، وتعس وانتكس ، إذ أن الأهالي نسوا كل مظالم مراد بك وإبراهيم بك ، واتبعوهما في قتال الفرنسيين ، الأمر الذي أصاب **بونابرت** بالدهشة ، فلما عاد إلى باريس قال لتاليران : « بلى ، لكنهم أكثر عداوة للمسيحيين ، وماذا عن العرب (الأعراب) الأربعين ألفا الذين يوجد بينهم عشرة آلاف فارس كلهم مسلحون »[1].

ويقول أندريه ريمون في هذا الصدد أن عدم الرضى عن الفترة العثمانية أصبح عرفا ، ثم قال : « لقد كانت أعمال مؤرخي الاستعمار الفرنسي تتجه بطبيعة الحال إلى تشويه صورة الحالة السابقة في البلدان التي زعم المحتل الجديد صراحة أنه يعيد توطيد السلام والرفاهية الرومانية فيها »[2].

هذه هي الصورة التي خطتها أقلام الرحالة الفرنسيين لأهداف سياسية استعمارية ، وقد اعتمدها بكل أسف أساتذة التاريخ ، سواء نقلا عن هؤلاء الرحالة أنفسهم ، أو نقلا عمن نقل عنهم ، وسأحاول إن شاء الله تفنيد تلك المزاعم قدر الاستطاعة ، وقد تعرضت آنفا لجانب التجارة الخارجية فلا داعي للإعادة ، وسأتعرض فيما يلي إلى سائر الجوانب ، والله المستعان وعليه التكلان .

أولا : الزراعة

معلوم أن الزراعة في مصر تعتمد على فيضان النيل ، ففي شهر مسرى من كل عام تغمر مياه الفيضان المحملة بالطمي أراضي مصر لمدة ثلاثة أشهر تقريبا ، ثم يبدأ منسوب الماء في الانخفاض ، فيبدأ موسم الزراعة في أمشير ، إذ يبذر الفلاح بذور القمح الذي يحصده بعد خمسة أشهر تقريبا ، ومن الواجب أن يتم الاستعداد لفيضان النيل بتعمير الجسور وتنظيف الترع ومجارى المياه ، وإزالة ما تراكم فيها خلال العام ، حتى لا تعوق وصول المياه إلى جميع

---

(١) هنري لورنس : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر ، الاستشراق المتأسلم (ص ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦) .
(٢) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى (ص ٣٤) .

الأراضي . وقد وضع السلطان سليمان في قانون نامه ، عددا من المواد التي تنظم الزراعة في مصر ، وهي مستمدة من قانون السلطان المملوكي قايتباي ، وذلك بناء على رغبة الأهالي ، إذ أن السلطان سليما الأول قد خيرهم بين القانون العثماني وقانون قايتباي في الزراعة ، ويؤكد ذلك فرمان السلطان سليمان لأمير أمراء مصر ، إذ جاء فيه : « عندما فتح أبي المرحوم سليم خان بالقوة القاهرة مصر ، جمع الأكابر والأعيان ومشايخ البلدان والفقراء والضعفاء في الولاية المذكورة ، وسألهم هل تريدون أن يطبق بينكم القانون والمقياس المستقيم لأجدادي العظام ، أم أنكم ترغبون في العادات القديمة للذين حكموا مصر القاهرة من قديم الزمان ؟ فاختاروا قواعد قوانين قايتباي »[1].

وكانت مصر وفقا لذلك القانون تنقسم إلى أربع عشرة ولاية هي : الشرقية ، قليوب ، بلبيس ، الدقهلية ، قاطية ، أطفيح ، الغربية ، المنوفية ، البحيرة ، الجيزة ، الفيوم والبهنساوية ، أشمونين ، منفلوط ، ألواح . في كل ولاية كاشف مسئول عن : « الترميم المناسب في موعده وموسمه للجسور وعمل الجرافة (تطهير القنوات) في الولاية التي في كشوفية كل واحد منهم » .... « وإذا عجز كاشف عن تأدية بعض تلك الخدمات المذكورة ، واستعان بأمير الأمراء وطلب منه المساعدة ، فعلى أمير الأمراء وناظر الأموال أن يقدما له العون الصادق والتأييد بطريقة لائقة » ... « إذا حدث إهمال أدى إلى عدم تجهيز بعض الأراضي التي غمرتها المياه ، أو إصلاح بعض الجسور أو عمل الجرافة والعياذ بالله ، ونتج عن ذلك تشرق في الأراضي[2] أو حدث خراب في بعض القرى من أثر الظلم ، لا يترك أمير الأمراء وناظر الأموال فرصة الإفلات للكاشف الذي تحطمت لديه الجسور ، أو الذي تنضوي تحت كشوفيته قرية أصابها خراب ، ويوقعان عليه أشد العقوبات ، وهي الإعدام بعد أخذ تعويض كامل منه عن هذا الضرر » .... « وإذا ظهر منه (الكاشف) الجد والاجتهاد البالغ في تعمير المسالك المحمية ، فعلى أمير الأمراء أن يوليه برعايته ، ويعرض الأمر على العتبة العلية ، لكي

---

(١) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٢٥٢) .

(٢) الأراضي الشراقي هي الأراضي التي لم تصلها مياه الفيضان سواء أكان بسبب الإهمال أو ضعف الفيضان .

يكون مرعيا بأنواع العناية السلطانية ، وأصناف الرعاية الشهنشاهية »[١].

قال أولياء جلبي الذي زار مصر عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، وأقام بها عشر سنوات : « ويكلف كتخدا والى مصر[٢] بإدارة تطهير الخلجان في كل عام ، فيأمر كل صاحب منزل بتطهير ما يوازى حدود منزله ، وأما الأجزاء الباقية فيطهرها حاكم القليوبية والشرقية باستخدام رجال هاتين المديريتين ، ويكلف هذا العمل سبعة أكياس من المال في كل عام ، ويعين أحد الحجاب بمراقبة العمال الذين يستخرجون من الترع في ثلاثة أشهر قاذورات لا حد لها »... **وقال عن تطهير المقياس** : « إذا اقترب يوم نزول النقطة ، استأذن الباشجاويش الوزير[٣] وذهب لتطهير المقياس ، لأن هذا العمل من اختصاصهم ، منذ صدور القانون السليمي ، وإذا أهمل تطهير المقياس فلا يعلم كم ذراعا زاد النيل المبارك . ويجمع في ذلك اليوم آلاف السقائين الذين يسقون أهل مصر عند المقياس ، فيطهرونه وينظفونه ولا يتركون فيه نقطة من الماء »... « وأما معنى نزول النقطة ، فتغيير فجائي في ماء المقياس ، من ماء رقيق صاف إلى ماء أحمر مشبع بالطمي »[٤].

وبالرغم من أن تقارير الرحالة الأوروبيين في ذلك الوقت لم تكن منصفة ولها أهدافها الخاصة كما أشرنا من قبل ، إلا أنه أحيانا كانت تنفلت كلمات الصدق من أقلامهم ، ومثال ذلك ما قاله جوفني ميكليه فنسلبيو ، الذي كتب تقريرا عن مصر عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، أي في نفس الفترة الذي كان فيها أولياء جلبي متواجدا فيها ، وقد تطابق كلامهما إلى حد كبير ، فقد وصف فنسلبيو نظام الري بالسواقي في مصر ، بأنه أدق مما هو عليه في أوروبا ، فقال : « وقد رأيت الطريقة نفسها في دولة دوقية توسكانيا العظمى ، غير أن الطريقة ليست دقيقة كما في مصر »[٥].

---

(١) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٢٩ – ٣١) لم ألتزم بترتيب الفقرات كما وردت في القانون حرصا على وضوح الصورة .

(٢) هو وكيل الوالي أو مساعده .

(٣) نظرا لأن مصر كانت ولاية كبيرة فقد كان أمير أمرائها برتبة وزير.

(٤) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٣٧٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥) .

(٥) جوفنى ميكيله فنسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة لمصر (١٦٧١ ص ١٧٠) .

وكان أمير أمراء مصر يرسل تقارير دورية للسلطنة عن أحوال الزراعة ، وينقل لنا د.سيد في كتابه ، وثيقة هي عبارة عن التقرير الذي أرسله أمير الأمراء علي باشا (٩٥٦-٩٦١هـ/ ١٥٥٠ - ١٥٥٥م) جاء فيه : « إن النيل لم يفض كفيضانه في السنوات الأولى ، فبسبب انخفاض جريانه هذا العام ، أصبحت بعض الأراضي شراقي غير صالحة للزراعة ، ليحفظ الله تعالى حضرة السلطان ، فإن كل سنة لا تماثل السنة السابقة عليها في الفيضان »... وقد أفادت وثيقة أخرى ، أن القاضي قد أرسل إلى اصطنبول مخبرا أن الجسور التي في عهدة كاشف الجيزة حماد بن خيبر تحتاج إلى تعمير ، فقد صدر الأمر لأمير الأمراء ، أن يصرف ما قدره خمسة أكياس ذهبية لعملية التعمير من أموال الكاشف وبمعرفة القاضي ، وذلك في حالة عدم قيام الكاشف بنفسه بتعمير الجسور بدون تدخل »[1].

ومن مهام الكشاف ومشايخ البلدان التي وردت في القانون ، التأكد من قيام جميع الفلاحين بزراعة أراضيهم ، وتوزيع التقاوي عليهم وحماية القرى من تعديات العربان والمنسر ، وإذا وجدت أرض خالية من الزراعة ، بحث عن السبب ، فإن كان السبب تكاسل صاحبها أخذ منه خراجها بالكامل وقدم للتأديب ، وإن كان السبب عدم تسلمه التقاوي عوقب الكاشف وشيخ البلد ، وإن كان السبب هروب الفلاحين من أراضيهم بسبب ظلم الكشاف والعمال ، فعلى أمير الأمراء أن يعاقبهم . وإن كان السبب هو تعديات الأعراب والمناسر ، عوقب الكاشف وشيوخ الأعراب إن كانوا تراخوا في دفع ذلك العدوان ، ثم يتم البحث عن الفلاحين في القرى المجاورة لإعادتهم إلى قراهم الأصلية ، مع الرفق بهم وعدم إلزامهم بالخراج ، أو بأي مصاريف عن تلك السنة التي لم يزرعوا فيها أراضيهم[2].

يتضح مما سبق العناية التي كان يحظى بها القطاع الزراعي في مصر أيام الحكم العثماني . وكيف كانت الرقابة على الكشاف مزدوجة ، من أمير الأمراء ومن القاضي ، وكيف كان يتبع مبدأ الثواب والعقاب ، وكيف أن الديوان الهمايوني في اصطنبول ، لم يكن غائبا عما يحدث في إيالة مصر كما أشيع عنه . وقد اهتم السلطان سليمان القانوني بأمر الفلاح نفسه ، فحرص على

---

(١) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ١٨٤ ، ٢٥٣) .

(٢) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٦٩ - ٧١) .

أن يحيى حياة كريمة وألا يتعرض للظلم . فالمادة **العاشرة** أبطلت ما اعتاده الكشاف من أخذ حمل أو خروف من كل فلاح : « فمن لم يزدجر بعد هذا التنبيه ، وأخذ حملا أو خروفا فعلى أمير الأمراء أن يوقع عليه أشد العقاب بمعرفة ناظر الأموال ، وإذا لزم الأمر يعزل من منصبه ويعرض الأمر على باب السعادة » ، أما **المادة الثالثة عشرة** من القانون ، فتحظر على الكاشف أن يعاقب الفلاح إذا ما ارتكب جرما إلا بعد الرجوع إلى القاضي ، وإذا ما وقع القاضي عليه عقوبة لا يجوز للكاشف بعد ذلك أن يعاقبه مرة أخرى : « كان الكشاف يعودون فيقبضون عليه (الفلاح) ويوقعون عليه جميع أنواع العقوبات والاضطهاد ، آخذا بجريمته السابقة ليس إلا ، وهذا محظور وممنوع بناء على أمري السلطاني ... فإن لم يتوقف ما كان يحدث بعد هذا التنبيه ، وأحيى كاشف القضايا التي سبق أن فصل فيها مرة ، وحركها طمعا في المال ... فعلى القاضي الشرعي أن يعرض الأمر على أمير الأمراء ، لكي يوقع العقاب الرادع على الكاشف ، بعد رد الحقوق التي أخذت ظلما إلى صاحبها » ... كما حظر القانون على مشايخ العربان أن يحصلوا مالا من الفلاحين : « فإن علمنا بأنهم أخذوا شيئا من طائفة الفلاحين وجب إنزال العقوبة عليهم »... **والمادة الثالثة والعشرون** تحظر على الكشاف وسائر العمال تحصيل أي مال زائد من الفلاحين : « وإذا اعتدى عليهم أحد وأخذ شيئا ظلما ، فعلى الفلاحين أن يقدموا شكايتهم إلى أمير الأمراء ، وبعد أن يرد كل ما أخذه إلى أصحابه ، يعاقبه لأنه لم يطع الأوامر واعتدى على الفلاحين » ... **أما المادة التاسعة والعشرون** فتخص مساحي الأراضي ، فتحظر عليهم أخذ أي أغنام أو شعير من الفلاحين على غرار ما كان يحدث أيام المماليك : « وقد صدر الأمر الخاقاني بإبطال ذلك ، فلا تؤخذ أغنام أو شعير لهذا السبب من الرعايا ، ومن به حاجة إلى ذلك اشتراه بماله ، ومن يتجاوز ذلك ، يعرض ناظر الأموال حالته بمعرفة أمير الأمراء على الأبواب العالية ، لكي يوقع عليه الجزاء الذي يستحقه »[1].

وقد أورد د.سيد أكثر من واقعة من خلال الوثائق العثمانية مثل :

١ - أبلغ شيخ العرب علام عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م ، أن الكشاف في منفلوط يفرضون على الأهالي رسوم مبتدعة باسم مقطوعات ، فصدر الأمر من الأستانه إلى أمير الأمراء وإلى

(١) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٥ ، ٦٤).

قاضي منفلوط بالتصدي لهؤلاء .

٢- أبلغ شيخ العرب سليمان عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م بأن كشاف المنوفية يفرضون على كل قرية خمسين ذهبية باسم الضيافة .

٣- في عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م رفع أهالي قضاء النحرارية شكوى ضد الشخص الملتزم لنيابة المحكمة ، بأنه يفرض على الأهالي رسوما مخالفة للشرع ، وأحيانا يعذبهم ويحبسهم ، فصدر الأمر لأمير الأمراء والقاضي ، بإعادة تلك الأموال المأخودة بغير وجه حق ، وفصل ذلك الشخص من الخدمة[1].

مما سبق يتبين مدى اهتمام العثمانيين بالقطاع الزراعي ، والحرص على أن تزرع الأراضي بكاملها ، والاهتمام بحقوق الفلاح والحرص على ألا يتعرض للظلم ، وكانت تلك القوانين تراعى وتنفذ بصرامة خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة / السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، باستثناء بضع سنوات اختلت فيها الأمور ، تبعا للاختلال الذي وقع في مركز الدولة في اصطنبول ، في أواخر زمن السلطان محمد الثالث. إذ تسلط بعض جنود مصر من السباهي على الفلاحين ، وفرضوا عليهم أموالا يأخذونها منهم بغير وجه حق ، فيما عرف آنذاك بالطلبة ، وقد أرسل السلطان أحمد الأول عام ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م إبراهيم باشا للقضاء عليها ، ولكنه فشل وقتله الجنود العصاه ، وظل الأمر على ذلك إلى أن تمكن محمد باشا السلحدار الذي تولي على مصر عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م من القضاء عليها ، وأعاد الأمور إلى نصابها ، ولذلك لقبه البكري « معمر مصر » ، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في الباب الأول .

واستمر الحال في القرن ١١هـ/ ١٧م منضبطا في الغالب الأعم ، ولا شك أن أي إختلال أو فوضى تحدث في العاصمة اصطنبول كانت تنعكس على سائر الولايات ، أما في أواخر القرن المذكور ، فقد منيت الدولة بهزيمة فيينا عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م ، ثم انشغلت في حروبها مع أوروبا ومع الدولة الصفوية ، فضعفت قبضتها على مصر وغيرها من الولايات ، فتسلط أمراء المماليك على الناس ، وتفشى الظلم لاسيما في القرن ١٢هـ/ ١٨م ، وعلى وجه الخصوص في السنوات الأخيرة منه ، على يد مراد بيك وإبراهيم بيك .

---

(١) د. سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٩٧) .

تلك كانت الحالة العامة في مصر باختصار شديد في العصر العثماني ، لكن أغلب أساتذة التاريخ يتغافلون عن الانضباط التام الذي كان في القرن ١٠هـ/ ١٦م ، والانضباط النسبي الذي كان في القرن ١١هـ/ ١٧م ، ولا يذكرون إلا الخلل والفوضى والمظالم التي وقعت في القرن ١٢هـ/ ١٨م ، فمثلا جورجي زيدان لم يتحدث عن حسن الأحوال في القرنين الأولين ، وإنما اكتفي بذكر سوء الأحوال والمظالم في القرن ١٢هـ/ ١٨م فقد قال : « وطبيعى أن يرافق ذلك الانحطاط السياسي والعلمي ، انحطاط اجتماعي واقتصادي ، فتناقص عد السكان في أواخر ذلك العصر حتى أصبح أقل من مليوني نفس في القطر المصري أعلاه وأسفله ».... ثم تحدث عن تناقص مساحة الأرض المزروعة ، وفساد أمراء المماليك وعسفهم بالفلاحين ، وفرض الضرائب الزائدة عليهم وإجبارهم على العمل في أراضيهم بلا مقابل ، **ثم قال** : « فكان الانتفاع بغلة الأرض مقسوما بين الحكومة والملتزمين ، والفلاح عبد رق يعمل بقوته ويشقى بعمله ، فهل يلام إذا قعد به القنوط من العمل ، أو حمله اليأس على الفرار »[1].

وقال **عمر الإسكندري وسليم حسن** : « إن كاهل الفلاح كان مثقلا بالضرائب وأعمال السخرة ، وليت مصابه وقف عند ذلك الحد ، فإن ما كان يبتزه منه بكوات المماليك أنفسهم كان أدهى وأمر...تسرب الفقر إلى أهل البلاد ، حتى وصلوا في أواخر القرن الثاني عشر الهجري إلى درجة من الفاقة لم يسبق لها مثيل »[2].

وقال **عبد الرحمن الرافعي** عن الفلاحين ، دون أن يقدم أي أرقام أو إحصائيات يثبت بها مزاعمه : « كانوا في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة ، وكانت الزراعة في تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت للري والصرف تضمن استخدام مياه النيل ، ولحرمان البلاد من حكومة عادلة توطد الأمن وتصون حقوق الأفراد »[3].

وقال **د.محمد عبد المنعم الراقد** : « جاء الحكم العثماني ليكون امتدادا لأنظمة الحكم الفوضوية التي عانت منها مصر ، وانعكس أثرها على زراعتها وصناعتها وتجارتها »... **وقال**

---

(١) جورجي زيدان : مصر العثمانية (ص ٢٩٥ ، ٢٩٦) .

(٢) عمر الإسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر منذ الفتح العثماني (ص ٦١ ، ٦٢) .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٦٢) .

أيضا : « لم يعد (الفلاح) يعبأ بزراعته ولم يعد يهمه زيادة الإنتاج الزراعي ، ما دامت تلك الزيادة لا تعود عليه بأية فائدة ، فأنتج نتاجا هزيلا ليستولي عليه الملتزم[1] ، ويترك له القليل ليقيم به أوده »[2]..... وقد علل د.الراقد عدم حرص الفلاح على زيادة الإنتاج بسبب آخر ، وهو أنه في العصر العثماني لم يعد مالكا للأرض التي يزرعها بل منتفعا بها فقط ، ثم قال : « اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لجميع أراضي مصر ، أي أن صاحب الأرض سواء أكان ملتزما أو فلاحا ، لم يكن مالكا إلا لحق الانتفاع فقط دون حق الرقبة »[3].

وقد أشار إلى ذلك أيضا كل من عبد الرحمن الرافعي وجورجي زيدان[4] ، بل لقد ورد ذلك في الكتب المدرسية أيضا للصف الثالث الإعدادي ، وقد جاء فيه : « كانت الأرض ملكا للدولة ممثلة في السلطان ، وكانت الأرض تزرع عن طريق تكليف الفلاحين بزراعتها فيما عرف بحق الانتفاع . أثقل الفلاح بالضرائب المفروضة على الأراضي ، كما عانى التلاعب بالموازين والمكاييل ، وشدة تعسف وظلم الملتزمين في جمعهم للضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ... عدم اهتمام الطبقة الحاكمة بتنظيم الري أو إقامة السدود وحفر الترع ، مما أدى إلى تدهور الزراعة وانخفاض ناتج المحاصيل الزراعية ، وتدهور أحوال المجتمع الريفي بوجه عام »[5].

قلت : لنا في كلام هؤلاء الأساتذة السابقين أربع مسائل :

الأولي : كل هذا الكلام الذي قاله الأساتذة عن تدهور الزراعة وحال الفلاح باطل ، ولو قبلناه على ما فيه من مبالغة بخصوص القرن ١٢هـ/ ١٨م ، فلا نقبله بحال عن القرنين السابقين عليه ، وقد قدمت من نصوص قانون نامه ، والوثائق التي تفيد صرامة تطبيقه ، ما فيه الكفاية ولكن قال تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس :١٠١]

---

(١) الملتزم : هو من يقوم بتحصيل الخراج من الفلاحين لحساب الدولة مقابل نسبة منه تسمى الفائض .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣١٣ ، ٣١٤) .

(٣) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣١٨) .

(٤) جورجي زيدان : مصر العثمانية (ص ١١٨) ، عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٤٣) .

(٥) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ، العام الدراسي (٢٠١٠ – ٢٠١١) ، الفصل الدراسي الأول (ص ٦٨) .

ولقد شكك د.الراقد في الهدف من قانون نامه مصر فقال : « ومن الواضح تماما من نصوص القانون العثماني ، أنها استهدفت بها فرضته من واجبات على الكشاف والملتزمين ، مصلحة الخزينة العثمانية ، ولم يخطر ببالها تحسين الإنتاج الزراعي »[1].

قلت : انظر بالله عليك إلى ذلك الحقد والبغضاء التي بدت من في د.الراقد .! ولست أدرى من أين استدل على هذا الوضوح .! ثم إن الكلام عن النوايا لابد أن يكون مستندا إلى أدلة ، و إلا كان من جنس كلام العامة والدهماء ، ثم هل يعاب على الحاكم أنه يعمل على تعظيم إيرادت الدولة .؟! ألم تستخدم هذه الأموال في إنشاء السفن التي طردت البرتغال من البحر الأحمر وأعادت الملاحة المصرية فيه .؟! ألم تستخدم هذه الأموال في إنشاء الأساطيل التي تمخر عباب البحر المتوسط ، لتحمي السواحل المصرية وغيرها من سواحل بلاد المسلمين .؟! ألم يكن السلطان سليمان القانوني صاحب تلك القوانين ، ينفق الغالي والنفيس من أموال مصر وغيرها ، في الجهاد في سبيل الله وفتح البلاد ونشر دين الله بين العباد .؟! ألم يخرج السلطان سليمان صاحب القوانين ، ما في قصره من المشغولات الذهبية والفضية ، ودفع بها إلى دار الضرب لتجهيز حملة سكتوار .؟! وحسب مصر فخرا أنها شاركت بأموالها في تلك الفتوحات العظيمة ، ثم إن كلام د.الراقد متناقض تناقضا فاضحا ، لأن زيادة الخزينة يتناسب طرديا مع زيادة الإنتاج . فقوله أن السلطان كان يهتم بزيادة الخزينة دون زيادة الإنتاج ، إنما هو كلام ليس له معنى عند العقلاء ، وصدق من قال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ثم يتطاول د.الراقد ويزعم أن الفوضوية هي من سمات الحكم العثماني ، بالرغم من أن العالم كله شهد بعظمة القوانين العثمانية لاسيما قوانين سليمان ، الذي نصب له الأمريكيون تمثالا في الكونجرس الأمريكي . لا أقول ذلك من باب الفخر والتباهي والاعتزاز بشهادة الأمريكيين لنا ، ولا من باب الركون إلى ثنائهم علينا ، بل أقوله من باب العجب ، بل أقوله والمرارة تعتصر قلبي ، إذ أن هؤلاء القوم عرفوا للسلطان سليمان فضله وأشادوا بعلمه وعمله ، في الوقت الذي أطلق فيه أبناء المسلمين ألسنتهم طعنا فيه وبغضا له ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣١٥) .

. أما د.عبد الرحيم عبد الرحمن فقد احتج بقصيدة أبي شادوف ، وشرحها للشيخ يوسف الشربيني ، وهي قصيدة نظمها أحد الفلاحين المجهولين باللغة العامية ، شكى فيها فقره وحزنه ، وما يتعرض له من مظالم على أيدي الملتزمين ، ومعلوم أن نظام الالتزام قد فرض في مصر على الأراضي الزراعية بشكل كامل في عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م ، إذ أن الدفتر الأول من دفاتر الالتزام يحمل ذلك التاريخ . ولكن هناك وثائق سابقة على ذلك التاريخ ، تثبت وجود نظام الالتزام[١]. ما يجعلنا نقول أن نظام الالتزام كان مطبقا منذ بدايات الحكم العثماني لمصر ، ولكن على نطاق ضيق ، إلى أن تم تعميمه في عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م ، مما استلزم وجود دفاتر تنظمه . ولكن الفترة التي تسبق ذلك ، أي ما يقرب من قرن ونصف ، كان الفلاح فيها في أحسن حال . كما ذكره الشيخ يوسف الشربيني نفسه ، شارح القصيدة إذ قال : « أما في الزمن المتقدم فلم يكن عليه (الفلاح) عوائد ولا كلف ولا مغارم ولا شيء مما هو موجود الآن ، بل كان الشخص يزرع الأرض وكان خراجها شيئا يسيرا ... وكانت البركة حاصلة بزيادة والأرض كلها عامرة بالزرع ، والناس في غاية الخير وسعة الرزق والكسب ».. وحتى بعد تطبيق نظام الالتزام ، لم يكن الظلم عاما بطبيعة الحال . وقد أقر بذلك الشيخ يوسف الشربيني ، إذ صرح بوجود ملتزمين شرفاء أمناء لا يتعدون الحدود المقررة ويتعففون عن أخذ ما ليس لهم بحق[٢] ، والذي يؤكد ذلك أن الملتزمين كان منهم علماء ، وقضاة وأشراف وتجار ونساء ، والغالب على هؤلاء العدالة والرحمة . فلا يظن أحد أن كل الملتزمين كانوا من الفئات العسكرية . وهذا ما توصل إليه الأستاذ جمال كمال في رسالته القيمة ، إذا قال بعد عرض عدد كبير من الوثائق : « نستنتج من العرض السابق أن الصورة لم تكن قاتمة ، وأن من الملتزمين من كان يعامل فلاحيه بالعدل ، ومنهم من كان غير ذلك ، ومنهم أيضا من كان عادلا ، ولكن تضيع عدالته من خلال الموظفين الذين كانوا واسطة بينه وبين فلاحيه ، ولكي ينجز الملتزم الأعمال المنوطة به كان له الكثير من المساعدين »[٣].

---

(١) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م (ص ٦ - ١٠) .

(٢) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٥١، ٦٨) .

(٣) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص٥٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢١) .

فحقيقة الأمر أن قصيدة أبي شادوف هذه لا تعبر عن العصر العثماني كله ، كما أنها لا تعبر عن جميع الفلاحين ، لأن ليس كل الملتزمين فاسدين كما سبق أن قررنا ، فهذه القصيدة لا تعدو عن كونها تعبيرا عن حالة أبي شادوف نفسه ، وأمثاله من فلاحي القرى التي تسلط عليها ملتزمون ظالمون ، ود.**عبد الرحيم** قد ذكر ذلك في كتابه بوضوح ، ولكننا نأخذ عليه أنه لم يقدم لنا الصورة الأخرى ، فهو لم يقدم لنا شيئا عن حال الفلاح المزدهرة في مدة القرن ونصف التي سبقت تطبيق نظام الالتزام ، ومن جهة أخرى فإن أغلب الوثائق التي عرضها د.عبد الرحيم في كتابه ، والتي استدل بها على الظلم الذي وقع على الفلاح في العصر العثماني ، تعود إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، وهي الدفاتر التي وضعها علماء الحملة الفرنسية[1] ، وبالتالي فهي تعبر عن أضعف فترات الحكم العثماني في مصر ، ولا يمكن أن تتخذ كأصل للدلالة على حالة الفلاح في العصر العثماني بصفة عامة ، فهذا ما نأخذه على د.عبد الرحيم ، فهو لم يقدم لنا أي وثائق أو إحصاءات ، ولا حتى نقولا عن المؤرخين تخص تلك الفترة الطويلة ، التي كانت فيها حالة الفلاح على خير ما يرام . فهو لم يتحدث إلا عن أبي شادوف ، ووثائق متأخرة لا تعبر إلا عن وقتها الذي كتبت فيه .

وجدير بالذكر في هذا المقام أن نظام الالتزام من حيث كونه نظاما لجمع الخراج ، فهو نظام في غاية الكفاءة ، ويحقق الأهداف المرجوة منه ما دام الهيكل الإداري في الدولة قويا متماسكا ، وقد تعجبت مما ذكره المؤرخ التركي **أحمد آق كوندز** إذ قال : « السيد عدنان قهوه جي رحمه الله ، عندما كان وزيرا للمالية استدعاني إلى أنقره ، وتقدم لي بالرجاء الآتي قائلا : « أستاذي المحترم ! لم أستطع في سنين دراستي معرفة المعلومات الصحيحة حول الدولة العثمانية ، ومدى ضرر رد تاريخنا بكامله ، وعندما رأيت أن أصول وطريقة الالتزام – التي كنا نعيبها على الدولة العثمانية ، ونراها من أسباب انهيارها – تقدم في دروس الماجستير كنظرية اقتصادية حديثة ، تريد الولايات المتحدة الأمريكية الأخذ بها في جمع الضرائب ، ذهلت ، وبدأت بالتدقيق في تاريخ الدولة العثمانية من جديد »»[2].

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٢٥ – ٣٢) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٨) .

الشاهد من ذلك أن نظام الالتزام يدل على أن رجال الإدارة والاقتصاد العثمانيين كانوا سابقين لعصرهم ، وأن نظام الالتزام يعد نظاما فعالا ما دامت أجهزة الدولة الإدارية قوية ومتماسكة ، أما إذ حل بها الضعف ، كما حدث للدولة العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، فيسهل على الملتزمين التلاعب وظلم الرعية .

تنبيه

رسالة الأستاذ جمال كمال المذكورة آنفا بعنوان « **نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني** » ، هي من أروع الرسائل العلمية التي قرأتها ، ويبدو أنه بذل جهدا كبيرا في جمع مادتها العلمية ، إذ أن أغلب اعتماده كان على الوثائق والدفاتر ، ومعلوم أن ذلك النوع من البحوث هو أصعبها وأشقها . وهذا الباحث ونظرائه من جيله ، يجعلني أتأكد أن الجيل القادم من الأساتذة ، سيكون أفضل بكثير من جيل أساتذة القرن العشرين ، الذين خلوا وبقاياهم الذين مازالوا يعتلون المناصب حتى الآن ، ولكن هناك أمر خطير آخذه على الأستاذ جمال كمال أرجو أن يستدركه وأن يضعه نصب عينيه في أبحاثه القادمة . وهو نفس الخطأ الذي أخذناه على د.عبد الرحيم آنفا ، وهو سحب المظالم التي وقعت على الفلاح وتدهور حالته في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي على العصر العثماني كله ، دون أن يستثنى القرنين الأولين منه ، فالأستاذ جمال كمال ، وإن كان قد أشار إشارات بسيطة لذلك ، إلا أنها لم تكن واضحة بالقدر الكافي أمام الكم الهائل من الوثائق التي تبين تدهور حالة الفلاح في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، ولضرب أمثلة على ذلك من التي ذكرها صاحب الرسالة :

١- من المبالغ التي كان يأخذها الملتزم بغير وجه ما يسمى بعادة المخدوم (الملتزم) وتقدمة (هدية) المخدوم ، فقد بلغت في قرية دلاص بالبهنساوية ٩٠٠ بارة ، ٢٠٠٠٠ بارة على التوالي ، وذلك في عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م[1].

٢- الفائض وهو الربح الذي يحصل عليه الملتزم بعد سداد الخراج المستحق على الأرض الذي يدفع لبيت المال (الميري) ، فقد عرض الأستاذ جمال بيانا لذلك ، تبين من خلاله أن

---

(١) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص ٥٥) .

الفائض أصبح أكثر من قيمة الخراج نفسه ، وفي بعض الأحيان زاد الفائض عن الميري أكثر من أحد عشر ضعفا ، ولكن كان ذلك في عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م ثم قال : « لذلك نستنتج مدى الظلم الذي وقع على الفلاح في ذلك العصر في ظل نظام الالتزام »(١).

٣- البراني وهو هدايا وتقادم إجبارية ألغاها قانون نامه مصر ، ولكن أعادها بعض الملتزمين في فترات ضعف الإدارة. وقد عرض الأستاذ جمال بيانا لقيمة البراني في بعض القرى في عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م وفي عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م ثم قال: « نلاحظ أن البراني زاد عن الميري في ولايات الفيوم والأشمونين بنسبة كبيرة ، ونستنتج من العرض السابق أن البرانى كان عبئا ثقيلا تحمله الفلاح في ذلك العصر »(٢).

٤- ذكر الأستاذ جمال ضرائب جديدة فرضت على الفلاح ، مثل ضريبة رفع المظالم وفردة التحرير وغيرهما ، فأما الأولى ، فقد فرضها محمد بيك أبو الذهب الذي تولي مشيخة البلد في مصر عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م ، وأما الثانية فقد فرضها إبراهيم بيك ومراد بيك بعد عودة حملة حسن باشا عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م . وهناك ضريبة أخرى تسمى الكوركجيان ، بغرض إزالة الأتربة من القاهرة . فرضت عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م(٣).

٥- تحدث الأستاذ جمال عن الآثار الاجتماعية والاقتصادية لنظام الالتزام ، من أنه حمل بعض الفلاحين على رهن ولده لدى الملتزم لسداد ما عليه من أموال . واستدل على ذلك بما نقله عن الجبرتي ، من قوله أن الفلاح أصبح في وضع أقل من العبد ، فربما يهرب العبد من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب(٤).

قلت : أما ما نقله الأستاذ جمال عن الجبرتي من أن الفلاح قد يضطر إلى رهن ولده لدى الملتزم ، فبالرجوع إلى الجبرتي تبين أنه قال ذلك في سياق آخر . فقد ذكر الجبرتي ذلك في ترجمة الحاج صالح فقال ما نصه : « وأصله غلام يتيم فلاح من قرية من قرى المنوفية ، يقال لها الراهب ، وكان خادماً لبعض أولاد شيخ البلد ، فانكسر عليه المال ، فرهن ولده عند الملتزم

---

(١) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص ١٣٥ ، ١٣٦) .
(٢) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص ١٣٨ ، ١٣٩) .
(٣) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص ١٤٦ – ١٤٨ ، ١٥٣) .
(٤) جمال كمال محمود محمد : نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني (ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

وهو علي كتخدا الجلفي ، ومعه صالح هذا وهما غلامان صغيران . فأقاما ببيت علي كتخدا حتى غلق أبوه ما عليه من المال واستلم ابنه ليرجع به إلى بلده ، فامتنع صالح وألف المقام ببيت الملتزم »[1].

فالجبرتي هنا يتحدث عن أحد مشايخ البلدان ، أصابته ضائقة مالية فرهن ولده لدى الملتزم . ولم يبين الجبرتي سبب تلك الضائقة ، وليس بالضرورة أبدا أن تكون بسبب مال عليه للملتزم ، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار ، أن مشايخ البلدان يكونون من أغنى فلاحي القرى ، كما أنهم يعفون من « البراني » ، ويتقاضون أجرا من الملتزم نظير خدماتهم . كما أنهم يعفون من أداء الخراج (الميري) عن بعض أراضيهم مما يسمى بمسموح المشايخ ، والعجيب أن الأستاذ جمال ذكر كل ذلك عن مشايخ البلدان في الفصل الثاني من رسالته . خلاصة القول أنه ذلك النقل عن الجبرتي أخرج عن سياقه ، وهو حالة خاصة لشخص بعينه ، ولا يعلم سببها ، كما أنها وقعت في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، أي بعد ضعف الإدارة وانتشار المظالم ، فلا يصح أن تعتبر تلك الواقعة أصلا يبنى عليه أن رهن الفلاح لولده عند الملتزم كان أمرا عاديا ، مما لا يستغرب حدوثه في العصر العثماني .

أما ما نقله الأستاذ جمال عن الجبرتي من أن الفلاح كان أقل من العبد ، فبالرجوع إلى النص تبين أن الجبرتي قد ذكر ذلك في أحداث عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م . في معرض حديثه عن قيام محمد علي باشا بمصادرة حصص الالتزام لحساب نفسه ، ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف فيها ، فلم يعد للملتزم أمر ولا نهي على الفلاح ، بل أصبح الفلاح يتطاول عليه ، بالرغم من أن الفلاحين كانوا قبل ذلك التاريخ كالعبيد للملتزمين. ونص كلامه كما يلي : « وأما الملتزمون فبقوا حيارى باهتين وارتفع أيدي تصرفهم في حصصهم ، ولا يدرون عاقبة أمرهم ، منتظرين رحمة ربهم . وآن وقت الحصاد وهم ممنوعون عن ضم زرع وساياهم ، إلى أن أذن لهم الكتخدا بذلك وكتب لهم أوراقا . وتوجهوا بأنفسهم أو بمن ينوب عن مخدومه وأراد ضم زرعه ، ولم يجد من يطيعه بهم وتطاولوا عليهم بالألسنة ، فيقول الحرفوش منهم إذا دعي للشغل بأجرته ، روح انظر غيري أنا مشغول في شغلي ، أنتم إيش بقالكم في

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ١٩٠) .

البلاد قد انقضت أيامكم . إحنا صرنا فلاحين الباشا . وقد كانوا (الفلاحين) من الملتزمين أذل من العبد المشترى ، فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب ، وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب . وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهراً وازداد ذلاً ومقتاً وإهانة »[1].

قلت : فالجبرتي هنا يقرر أن الفلاح كان كالعبد للملتزم قبل عام ١٢٢٩هـ/ ١٨١٤م ، ثم بعد ذلك احتكر محمد علي باشا أغلب حصص الالتزام لنفسه ، فأصبح الفلاح يتطاول على الملتزم . فالجبرتي عندما وصف الفلاح هنا بأنه أقل من عبد للملتزم . فقد كان يتحدث عن القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي ، وإن شئت فقل كان يتحدث عن أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . فلا يمكن سحب كلامه على العصر العثماني كله .

خلاصة القول ، أن الأستاذ جمال قد بذل جهدا كبيرا في رسالته ، واستعرض عشرات الوثائق ، وليس هذا بالأمر الهين . ورسالته تلك تعد بحق إضافة هامة إلى البحوث التاريخية في العصر العثماني . ولكني ما كنت أحب أن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأساتذة السابقين . فمن خلال الأمثلة التي قدمها هو بنفسه مما نقلته عنه آنفا ، يتبين أن المظالم وتدهور حالة الفلاح ، إنما تبدأ من أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . أما القرنان الأولان من العصر العثماني ، فقد كان الأمر على العكس من ذلك . ولقد أشار الأستاذ جمال إلى ذلك ، لكنها كانت إشارات عابرة لا تتناسب أبدا مع الكم الهائل من الطعون والافتراءات التي رمى بها العصر العثماني على مر أجيال . فحقيق على كل باحث منصف جاد كالأستاذ جمال ، أن يبين بوضوح وبالأدلة الدامغة من خلال المصادر والوثائق ، أن القرنين الأولين من العصر العثماني ، لم يكن الفلاح يتعرض فيهما لمثل تلك المظالم . بل كان آمنا مطمئنا متيسر الحال في أغلب أحواله ، فالحكم العثماني في مصر ينقسم في نظري إلى ثلاث مراحل :

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤/ ٢٠٧) .

- منذ الفتح عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وحتى فتنة إفرنج أحمد عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م .
- من فتنة إفرنج أحمد ١١٢٣هـ/ ١٧١١م وحتى الحملة الفرنسية ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م .

وسيأتي الحديث عن تلك الفتنة. وتتميز تلك المرحلة بأن يد الباشا أصبحت مغلولة ، وأصبح أمراء المماليك هم الحكام الحقيقيين للبلاد . والباشا ليس له إلا أن يسمع ويطيع وإلا خلعوه وأرسلوا إلى الباب العالي في اصطنبول ، يسألون السلطان أن يولي عليهم غيره .

- تبدأ منذ جلاء الحملة الفرنسية عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م وحتى إعلان الحماية البريطانية على مصر ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م .

الثانية : ما زعمه الأساتذة الأفاضل من أن السلطان سليما عندما فتح مصر ، اعتبر نفسه مالكا لكل أراضيها وفرض عليه الخراج ، وأن ذلك نزع الاطمئنان من قلب الفلاح ، فلم يعد يهتم بالإنتاج . فهذا الكلام باطل بلا ريب ، ويدل على جهل عظيم بأحكام الشريعة الإسلامية . إذ أن أرض مصر كلها هي أرض خراجية ، منذ أن فتحها عمرو بن العاص ﷺ في زمن عمر بن الخطاب ﷺ . إذ أن الأرض التي تفتح عنوة تنتقل ملكيتها إلى بيت مال المسلمين وتصبح وقفا عليهم . ويسمح لأهلها الأصليين بأن يزرعوها ، ويضرب عليهم الخراج والجزية . فإن أسلموا تسقط عنهم الجزية دون الخراج ، لأنه يعتبر بمثابة قيمة إيجار الأرض التي هي وقف على المسلمين . وهذا مفصل في كتب الفقه . **قال ابن قدامه المقدسي** : « الأرضون المغنومة تنقسم قسمين : عنوة وصلح . (فالعنوة) ما أجلي عنها أهلها بالسيف وهي نوعان : (أحدهما) ما فتح ولم يقسم بين الغانمين فتصير وقفا للمسلمين ، يضرب عليها خراج معلوم يؤخذ منها في كل عام ، يكون أجرة لها وتقر بأيدي أربابها ما داموا يؤدون خراجها ، مسلمين كانوا أو من أهل الذمة ، لا يسقط خراجها بإسلام أربابها ولا بانتقالها إلى مسلم ، لأنه بمنزله أجرتها . ولم نعلم أن شيئا مما فتح عنوة قسم بين الغانمين إلا خيبر . فإن النبي ﷺ قسم نصفها فصار لأهله لا خراج عليه. وسائر ما فتح عنوة مما فتحه عمر ﷺ ومن بعده ، كأرض الشام والعراق ومصر وغيرها لم يقسم منه شيء »[1].

وعلى هـذا كان يحصل خراج مصر من أراضيها عبر العصور بعد الفتح الإسلامي . وهذا

---

(١) شمس الدين عبد الرحمن بن قدامه : الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ٥٣٨) .

يتبين أيضا مما جاء في المادة الثامنة والعشرين من قانون نامه مصر المتعلقة بخراج الأراضي : « كان خراج الأراضي يجبى منذ سالف الأيام وسابق السنين والأعوام وبدء حكم حكام الإسلام ، وحسبهم الله الملك العلام »[1].

يعد ما سبق مثالا واضحا على خطورة الفصل بين علم التاريخ والعلوم الشرعية . فلطالما كان مؤرخونا الأقدمون من الفقهاء والمحدثين ، جمعوا في رؤوسهم علوم التاريخ والفقه والحديث والتفسير واللغة . فاتسعت مداركهم وارتقت أفكارهم ، مما مكنهم من رؤية الأمور على حقيقتها ، ووزنها بميزانها الصحيح . بخلاف أساتذة التاريخ الذين أنتجتهم المنظومة التعليمية الحديثة التي وضعت على الأسس الأوروبية ، فضاقت مداركهم وقصرت أفكارهم فعجزوا عن تبين الحق – إلا من رحم ربي – فصاروا يقعون في أخطاء لا يفترض أن يقع فيها المبتدئون ، فضلا عن الأساتذة الأكابر الذين يحملون أرفع الدرجات العلمية .

الثالثة : زعم د.الراقد أن السلطان سليم أبقى الرزق الأحباسية على حالها ، ولكنه ألغى الرزق الجيشية . إذ قال : « وفي أعقاب الغزو العثماني لمصر ، صدرت قرارات بتحصيل ضريبة الخراج على الرزق المدونة بالمربعات الجيشية ، ورزق أولاد الناس المدونة بمناشير الإقطاع . أي أنها تحولت إلى أراض خراجية وخرجت بذلك عن نطاق الرزق . أما الرزق الأحباسية السلطانية فقد أبقى عليها العثمانيون وألحقوها بالأوقاف »[2].

قلت : هذا الكلام باطل وقد أسنده د.الراقد إلى ابن إياس. ولكن د.الراقد لم ينقل عن ابن إياس روايته كاملة بل ذكر شطرها دون الآخر . ولكن بداية علينا أن نذكر الفرق بين الرزق الأحباسية والرزق الجيشية . بداية نقول أن الرزق كلها سواء أكانت أحباسية أو جيشية ، هي أراض مملوكة لبيت مال المسلمين . **فأما الرزق الأحباسية : فهي** أراض تنازل السلاطين السابقين من الجراكسة وغيرهم عن خراجها ، وأوقفوه على مختلف وجوه البر كالمساجد والمدارس والأسبلة وطلبة العلم . وكانت تسمى الأوقاف السلطانية من باب المجاز ، لأنها ليست أوقافا حقيقية . وقد فصلنا ذلك في سابقا . **أما الرزق الجيشية : فهي** أراض تابعة

(١) قانون نامه مصر . ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٥٩) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٢٣) .

لإقطاعات[١] أمراء المماليك وأوقفوها على المنتفعين بها . أي أن الأمير المملوكي تنازل عن خراج بعض الأراضي الداخلة ضمن إقطاعة للفلاحين القائمين على زراعتها . أي أنها أراض في الأصل مملوكة لبيت مال المسلمين أيضا ، لأن الأمير المملوكي لا يملك الأرض المقطعة إليه ، بل يملك خراجها فحسب . ولما فتح السلطان سليم مصر ، ألغى النظام الإقطاعي فيها وضم جميع الإقطاعات ، سواء التي كانت للمماليك أو لغيرهم من أولاد الناس إلى بيت المال . ولكنه أبقى على ما فيها من رزق أحباسية أو جيشية . **قال ابن إياس** في أحداث رجب ٩٢٣هـ : « أن الدفتردار أوقف أمر المناشير التي بيدي أولاد الناس بسبب إقطاعاتهم ، ولم يمش غير الأوقاف (الأحباسية) والرزق التي بالمكاتيب والمربعات الجيشية فقط »[٢].

فهذا تصريح من ابن إياس بأن الدفتردار إبان وجود السلطان سليم في مصر ، أجاز الرزق الأحباسية والجيشة .. ولكن لما عاد السلطان سليم إلى اصطنبول ، وولي خاير بك على مصر مضطرا ، لعدم قدرة إمرائة على الإلمام بوسائل إدارة بلد كبير كمصر في تلك المدة الوجيزة . فرأي أن يولي أحد الجراكسة العارفين بخبايا الإدارة في مصر كمرحلة انتقالية ، واستمرت بضع سنوات . وقد اضطربت فيها الأحوال بسبب استبداد خاير بك وظلمه . فقد قام في ذي القعدة من عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، بناء على مشورة بعض المباشرين ، وبدون علم السلطان بضم الرزق الجيشية ، فضرب عليها الخراج شأنها شأن سائر الأراضي . والسبب في ذلك هو تعويض العجز الناتج عن الأراضي الشراقي[٣] وذلك لهذه السنة فحسب . **قال ابن إياس** : « وضربوا مشورة في بعضهم وقالوا : نحن في العام الماضي أوقفنا إقطاعات أولاد الناس التي

---

(١) كان جيش مصر في زمن المماليك يعمل بنظام الإقطاع الحربي . أي أن السلطان يحدد للأمير من المماليك أرضا ، يخول له جمع خراجها لحساب نفسه ، مقابل أن يقدم خدمات عسكرية للدولة ، بأن يجهز عددا من الفرسان المدربين بخيولهم وأسلحتهم وقتما يطلب منه ذلك . وكان العثمانيون يعملون بنظام الإقطاع الحربي كذلك ، لكن في بعض الولايات دون غيرها . ولم تكن مصر ولاية إقطاعية بل كانت من ضمن ولايات « سالیانه » أي يجمع خراجها سنويا لبيت المال . أما أمراء المماليك الذين دخلوا في طاعة الدولة العثمانية ، فقد سحبت منهم إقطاعاتهم وخصص لهم مرتب (علوفة) نظير أعمالهم . وكان السلطان سليم يرسل إلى خاير بك بأن يصرف للمماليك جوامكهم (مرتباتهم) دون تأخير . انظر محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٢٥ ، ٢٤٤ ، ٢٩٧) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ١٩٤) .

(٣) هي الأراضي التي لم يصلها الماء بسبب انخفاض النيل ، فلا تزرع وتعفي من الخراج .

بالمناشير وأخذنا خراجهم ، وفي هذه أوقفوا الرزق التي بالمربعات الجيشية ، ونضع أيدينا على خراجهم هذه السنة ، في نظير شراقي البلاد . فطلعوا إلى ملك الأمراء خاير بك وعرضوا عليه ذلك ، وحسنوا له عبارة في استخراج خراج الرزق في هذه السنة ، في نظير شراقي البلاد فقال لهم افعلوا ذلك » ... ولكن د.الراقد قال أن ضرب الخراج على الرزق الجيشية تم « في أعقاب الغزو العثماني » ، مما يوحى بأنه بناء على أوامر السلطان سليم ، وهو ليس كذلك . ثم أخفي علينا د.الراقد ، أن ذلك كان لعام واحد فحسب بسبب الشراقي . لأنه في العام الذي يليه أفرج خاير بك عن الرزق الجيشية وأعادها لأصحابها . فقد **قال ابن إياس** في أحداث جمادى الأولي عام ٩٢٤هـ : « رسم ملك الأمراء بالإفراج عما بأيدي أولاد الناس والنساء من المربعات ، التي كانوا أوقفوهم من أول السنة ، وأن تمشيها المباشرون »[١].

ولكن بعد أربع سنوات طمع فيها خاير بك ، وقام بمصادرة الرزق في الصعيد ، بل وسحب المناشير من الناس . **قال ابن إياس** في أحداث شعبان ٩٢٨هـ : « فاضطربت أحوال أصحاب الرزق ، وتنكدوا غاية النكد ، وصار كل من وقف إلى ملك الأمراء بسبب رزقته وأحضر مكتوبه أو مربعته ، يأخذ منه المكتوب أو المربعة ويقول له : امض إلى حال سبيلك . الرزق قاطبة دخلوا الذخيرة »[٢].

وبعد أن انقضت تلك المرحلة الانتقالية وصدر قانون نامه مصر عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م. نصت المادة الخامسة والأربعون منه على إبقاء الرزق الأحباسية والجيشية على حالها وإعفائها من الخراج . وقد جاء فيها : « إن جاء أحد يتصرف بمربعات السلاطين السابقين التي تتعلق بالرزق الجيشية ، طالبا حكم ديوان مصر فيما يتعلق بها بيده من رزق ، فلا يعطى له حكم إلى أن يجري التحقق التام مما بيده من مربعات وتمسكات . فإن وجدت صحيحة لا تشوبها الشبهات ، منح الحكم المطلوب . وإن شابها شيء يشتم منه رائحة التزوير والتلبيس ، أخذت منه التمسكات وأضيفت إلى الخواص السلطانية[٣] ، والرزق الأحباسية تبقى على حالها إذا

---

(١) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٢٢٣ ، ٢٥٤) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٦٥) .

(٣) ربما كان التشديد في التثبت من صحة الرزق لأنه كان في عام (٩٢٦هـ) رجل يقوم بتزوير المناشير المتعلقة بالرزق . أنظر ابن إياس (٥/ ٣٣٧) .

كانت تصرف على سبيل البر والصدقة ، فتوجه إلى مستحقيها من الصلحاء ، وما كان منها مشروطا لبعض البقاع أو السبل أو المساجد أو الزوايا يبقى على حاله »[١].

مما سبق يتبين أن الرزق بكاملها الأحباسية والجيشية ، ظلت على حالها ولم يتعرض لها سلاطين بني عثمان بالرغم من جواز ذلك شرعا ، كما ذكرنا سابقا . ولكن د.**الراقد** عرض الوقائع منقوصة كعادة معظم الأساتذة . ربما لأنه لم يستطع فهمها فهما وافيا بسبب تعلقها بأحكام فقهية غريبة عنه . ولكن هل استعصى فهمها على الأستاذ الكبير المشرف عليه د.أحمد فؤاد الحتة ؟! وهل استعصى فهمها أيضا على اللجنة التي أجازت رسالته ومنحته درجة الدكتوراه ؟! إن هذا لشيء عجاب .! أو ربما أراد د.الراقد تشويه صورة سلاطين بني عثمان ، ووافقه على ذلك أستاذه ، وتكاسلت اللجنة عن التدقيق في المسألة ، لأن الطعن في العثمانيين يوافق المناخ الثقافي العام السائد في البلاد . فليقل من شاء ما شاء ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .! ولكن أيا كان السبب ، فإن عرض د.الراقد للمسألة كان عرضا مشوها ناقصا. والحاصل في النهاية أن هذا العرض المشوه ينتقل منه إلى طلابه ، ومن طلابه إلى طلابهم وهكذا دواليك ، وقس على ذلك سائر المسائل . فالحاصل أن معظم وقائع التاريخ أصبحت مشوهة في نظر الناس ، بسبب أن أساتذة التاريخ استعذبوا العبودية للثقافة الغربية . أو أنهم على أحسن تقدير أهملوا إهمالا جسيما في أداء عملهم . وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين .

الرابعة : أما مزاعم تناقص عدد السكان ، فنرد عليها بالإحصاءات الرسمية ، فقد أحصى أمير أمراء مصر بيرام باشا وكانت ولايته من عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م وحتى عام ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م عدد السكان فكان مليون وستمائة وسبعة وأربعون ألفا وسبعمائة ١٦٤٧٧٠٠[٢]. وفي زمن الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م كان عدد السكان ثلاثة ملايين[٣]. من ذلك يتبين أن عدد السكان تضاعف تقريبا في أقل من مائتي عام ، وهو يعد معدلا كبيرا بالنسبة لمعايير ذلك الزمان. هذا إذا أخذنا في الاعتبار الطواعين التي كانت تحدث بكثرة في ذلك الزمان . فإن

---

(١) قانون نامه مصر. ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٨٨ ، ٨٩) .

(٢) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٥٧٤) .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٥٩) .

هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان ، تدل على تحسن الأحوال الصحية – فيما عدا الأوبئة العامة التي لم يكن يعرف لها دواء – وتوفر الأمن الغذائي والأمن من الاعتداءات الخارجية .

ومن أبلغ الردود على هؤلاء الأساتذة الذين يزعمون تدهور الزراعة وانخفاض عدد السكان . هو قول المؤرخ التركي أولياء جلبي الذين طاف في أنحاء السلطة العثمانية كلها أربعين عاما ، وأقام بمصر عشر سنوات عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، أي في أواخر القرن ١١هـ/ ١٧م ، ثم صنف كتابه الماتع « **سياحة نامه** » في عشرة أجزاء ، خصص الجزء العاشر كله لمصر . وقد ترجمه إلى العربية محمد على عوني ، ولكن للأسف الشديد أن الترجمة اقتصرت على الجزء العاشر فقط وهو الخاص بمصر ، ولو تفضل علينا أحد من علماء اللغة التركية بترجمة سائر أجزاء الكتاب ، لكشف لنا عن أحوال سائر السلطنة العثمانية ، كما دونها المؤلف . ولكان عملا علميا عظيما بحق .

فكان مما قاله : « والحاصل أنه لا يوجد بلد فيه أناس كثيرون كأمواج البحر المتلاطم ، وأراضيه في الخصوبة والبركة والخيرات ، مثل هذه البلاد القديمة ، فليس لها نظير لا في البلاد الخاضعة لآل عثمان ، ولا في غيرها من البلاد الخاضعة لسائر الملوك »[1].

ثانيا : الصناعة

ليس من السهل الإحاطة علما بأحوال الصناعة في مصر ، وربما يحتاج هذا الأمر إلى مصنف خاص . ولم أجد من المصادر التاريخية ما يعول عليه في هذا الأمر . وكنت أنتوي أن أعتمد في ذلك على ما ذكره **أولياء جلبي** ، إلى أن وفقني الله تعالى في الحصول على كتاب « **مراكز الصناعة في مصر الإسلامية** » تصنيف د.عاصم محمد رزق عبد الرحمن . وهو عبارة عن دراسة قيمة جدا وجهد مشكور . وقد تعرض فيه لذكر الصناعات في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م . وما كتبه بخصوص العصر العثماني معظمه مستمد من كتاب « **وصف مصر** » لعلماء الحملة الفرنسية . فيعد إضافة قيمة لما ذكره أولياء جلبي .

١ – **صناعة الجلود والدباغة** : قال أولياء جلبي : « وللدباغين مائتا دكان (مدبغة) يعمل

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٠٧) .

فيها ألف معلم . ويأتي بعدهم صناع اللبود ، وعددهم مائة وخمسون صانعا ، يزاولون مهنتهم في خمسين دكانا ... ويبلغ مجموع المزاولين لمهنة الدباغة (في القاهرة) ألفين وتسعة وخمسين رجلا »... **وقال عن صناعة الأحذية** : « دكاكينهم مائتان ، وأما العمال فيبلغ عددهم خمسة آلاف وخمسمائة »... كما ذكر أصناف الأحذية التي تصنع بمصر مثل البلغ الفلاحي والأحذية الجركسية والخفاف والجزم (الأحذية الطويلة) . أما السراجون فقد ذكر أن عددهم ألف وستون رجلا ، يعملون في ستمائة دكان . وقد ظلت صناعة الجلود مزدهرة في القاهرة . كما جاء في كتاب وصف مصر من « أن فن السروجية كان قد وصل بالمدينة إلى مدى بعيد من التطور ، حتى أن الناس كانوا يصنعون كل ما له صلة بالخيول ، وكذلك النقش على الجلود بدرجة ملفتة للنظر » ... وفي الإسكندرية كان يصنع الجلد المراكشي الأحمر ، وهو جلد ثمين بالغ الجودة ، ويقبل عليه أهل مصر ويصدر إلى الأسواق الإفريقية . وفي مدينة دلاص بالصعيد ، كان يصنع اللجم بجودة عالية ، إلى أن نسبت اللجم إليها فيقال « اللجم الدلاصية ».

٢- **صناعة النسيج** : أهم ما كان ينسج في القاهرة هو كسوة الكعبة الشريفة . وقد قال أولياء جلبي : « إن الذين ينسجون الكسوة السوداء التي تكسى بها الكعبة الشريفة ، ثلاثمائة رجل يعملون في قصر يوسف . إنهم عمال ذووا عيون جاحظة ، إلا أن عملهم ليس من أعمال الإنسان ، وإنما هو سحر يكاد البشر يعجز عن الإتيان بمثله . وهناك صباغون يصبغون الحرير المستعمل في صناعة تلك الكسوة وعددهم ثلاثمائة »... وقد ذكر أولياء جلبي أن صناع الجلباب هم ثلاثة آلاف رجل ، يزاولون أعمالهم في ألف وثمانمائة حانوت . أما صناع اللحف فلهم خمسون دكانا ، وصناع الأقمصة (القمصان) لهم مائة وخمسون دكانا . وصناع الملابس القطنية لهم أربعون دكانا ، والغزالون لهم خمسون دكانا ، والبزازون لهم ثلاثمائة دكان ، والحريريون لهم مائة دكان . وفي أواخر القرن ١٢هـ/ ١٨م كان بالإسكندرية مائتا نول لصناعة المنسوجات الحريرية الخفيفة للميسورين ، وأربعمائة نول لصناعة الأقمشة التيلية لأبناء الطبقة الشعبية ، وخمسون نولا لصناعة المنسوجات الصوفية الخشنة لملابس العربان بالصحراء . أما في مدينة طنطا وضواحيها ، فقد كان يصنع بها الأقمشة الفاخرة ، مثل قماش « كركه » أزرق اللون ، وأصناف أخرى كانت تباع في مصر وتصدر إلى الشام . أما في المحلة

الكبرى ، فقد كان يوجد بها صناعة الحرير من الستائر والأغطية والمفارش المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، ومناديل الرأس والشيلان وبراقع النساء ، مما يباع في مصر ويصدر إلى الشام واصطنبول . كما كان يصنع في المحلة الكبرى منسوجات قطنية وكتانية وأصواف وغير ذلك . أما سمنود فقد كان يوجد بها ثلاثمائة نول لصناعة الأقمشة الكتانية بألوان مختلفة . أما في دمياط فقد ازدهرت صناعة المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ، وكان بها ثلاثمائة نول لصناعة الشيلان الكتانية ، وخمسون نولا لصناعة الأقمشة الكتانية ذات الحواف الحريرية . وقد اشتهرت دمياط أيضا بالصباغة ، وفيها الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر والبرتقالي والقرمزي والبنفسجي . أما قلوع المراكب فكانت تصنع في مدن الوجه البحري مثل رشيد ودمياط والبرلس والإسكندرية ، وأجودها القلوع الرشيدي . ويوجد في رشيد أيضا مناسج عديدة لصنع الأقمشة الكتانية والقطنية الخشنة ، وأقمشة كتانية مخلوطة بالحرير . أما مدينة الفيوم فقد اشتهرت بصناعة الشيلان البيضاء ، وكان يحمل منه إلى القاهرة أسبوعيا ألفا شال . وفي قنا كانت تصنع المنسوجات الصوفية بكثافة .

٣- **صناعة الخيام** : يعمل فيها ثلاثة آلاف ومائتان وستة وخمسون رجلا من النساجين والحبالين والكوائين وغيرهم[١].

٤- **صناعة الأسلحة** : ذكر أولياء جلبي أن ثلاثمائة وثلاثين رجلا يعملون في صناعة السيوف وأغمادها ، في مائة وأربعين حانوتا . وثلاثون دكانا لصناعة نصال الرماح ، وستة وسبعون حانوتا لصناعة البنادق والبارود وخزائن البارود ، وطلقات وفتيل البنادق . وثمانية وأربعون حانوتا لصناعة القسي والأسهم[٢].

٥- **صناعة السفن** : تم في السويس صناعة ثمانين قطعة بحرية على يد سليمان باشا أمير أمراء مصر الذي قادها بنفسه في حملة ديو عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٨م[٣]. أما دار الصناعة في بولاق

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢) ، د.عاصم محمد رزق عبد الرحمن : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية (ص ٦٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٧٠) .

(٢) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ١٧٥) .

(الترسانة) فقد وصفها أولياء جلبي بأنها مكتظة بأنواع الآلات والأدوات والنحاس والرصاص والقصدير . وبها من صنف البحرية ثمانمائة وستون رجلا ، يسكنون في تكية مخصصة لهم بجوار دار الصناعة . وخمسمائة رجل من القلافيط (الذين يقلفطون السفن بالزفت والقار) وغيرهم من صانعي الأشرعة والقلوس ، وكلهم يسكنون في بولاق . وقد جاء في كتاب وصف مصر عن دار الصناعة بالإسكندرية (الترسانة) : « بنى في الإسكندرية خلال العصر العثماني بعض سفن الكرافيل أو الفرقاطات الحربية ، التي كانت تشتمل على ثلاثة أو أربعة صوار . وكانت تزود بأربعين أو خمسين مدفعا ، وبعض السفن التجارية الكبرى ».

٦- **صناعة الصابون** : كان في الإسكندرية عند مجيء الحملة الفرنسية ثلاثون مصنعا للصابون ، جلب الزيوت اللازمة له من كريد والشام .

٧- **صناعة الحصر** : كانت مدينة منوف مركزا لصناعة الحصر ، وكان يرسل إنتاجها إلى القاهرة ، ليوزع على سائر البلاد ، كما أن كثيرا منه كان يصدر إلى دمشق واصطنبول وأزمير وجزر اليونان[1]. وذلك بسبب جمال الحصر الذي ينتج فيها عن سائر مدن مصر .

٨- **صناعة الزيوت** : وقد ذكر أولياء جلبي أن بالقاهرة مائة وسبعين معصرة ، يعمل فيها ألف وثمانمائة رجل . أما عند مجيء الحملة الفرنسية ، فقد كان يوجد أربع عشرة أو خمس عشرة معصرة لاستخراج زيوت الكتان في مدينة منوف . أما في أسيوط فقد كان بها معاصر كثيرة لشتى أنواع الزيوت[2].

٩- **صناعة الأدوية** : تحدث أولياء جلبي عنها على أنها لا يوجد مثلها في أي بلد آخر ، وتصدر إلى جميع أنحاء العالم . فقال : « ترياق الفاروق الذي يصنع في مستشفي السلطان قلاوون والذي سبق ذكره بالتفصيل ، فإنه غير موجود في الربع المسكون . ومن القاهرة يصدر قرص الأفعى والترياق الفاروقي إلى الأقاليم السبعة . والسم الزعاف المصنوع في دار شفاء قلاوون ، يؤثر في الخيل والبغال وحوافرها . والبزهير الكنعاني ، دواء من قبيل الإكسير

---

(١) كل هذه البلاد كانت من ولايات الدولة العثمانية .

(٢) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٤٥٧ ، ٣٨٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠) ، د.عاصم محمد رزق عبد الرحمن : مراكز الصناعة في مصر الإسلامية (ص ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٦ ، ٢٥١) .

الأعظم يقطع ذلك السم القاتل ... معجون العقرب وهذا أيضا عمل عجيب ... يشفي المريض باحتباس البول ».

١٠- **صناعات أخرى** : ذكر أولياء جلبي صناعات أخرى فقال : « ومصنع السكر أيضا من الأماكن العجيبة التي يجب مشاهدتها ، ومصنع النشادر موضع خليق بالمشاهدة ، وسوف نكتب عنه في موضعه ، ومصنع ملح البارود ببولاق ، وهو مصنع عظيم خليق بالمشاهدة ويوجد منه كثير في قرى أخرى كذلك ، وكلها أميرية . ومن هذا الملح يصنع البارود الأسود ومعدن النطرون .... ومن مصر يصدر النطرون إلى اصطنبول ».

وقد ذكر أولياء جلبي أن البارود المصري أجود من البارود البغدادي والإنجليزي ، وترسل منه كميات كبيرة إلى اصطنبول[١].

أظن أن ما سبق يبطل مزاعم الزاعمين بأن الصناعة كانت متدهورة في مصر في العصر العثماني . وإن كان ما ذكرته لا يعد حصرا واستقصاء لكل الصناعات في مصر ، فإن هذا يقتضي بحثا مستقلا . إلا أن فيه الكفاية بالنسبة للغرض المراد منه . وبالرغم من الحقائق التاريخية المتقدم ذكرها ، فإن كثيرا من أساتذة التاريخ يزعمون أن الصناعة انتكست في مصر في العهد العثماني . **وكان د.محمد الراقد أكبر هؤلاء الزاعمين إذ قال** : « من الثابت أن الصناعة المصرية تدهورت منذ مطلع العهد العثماني وانتكست انتكاسات قاسية . إن مقارنة الصناعة المصرية بما كان عليه حالها في العصور السابقة علي الحكم العثماني ، تبين لنا مدى الانتكاسة التي واجهتها » ... **وقال أيضا** : « نظرا لعدم وجود أهداف خاصة بالتصدير في العهد العثماني ، انتكست أيضا المراكز والتجمعات الصناعية الكبرى التي كانت مزدهرة في دمياط والإسكندرية والمحلة الكبرى قبل الغزو العثماني . وأصبحت أغلب الصناعات في الأقاليم ، أي لا تنتج إلا ما يكفي حاجة الاستهلاك الإقليمي أو المحلي »[٢].

وقد علل د. الراقد أسباب ما زعمه من انتكاس إلى :

١- العزلة التي فرضتها الدولة العثمانية علي مصر والعالم العربي بصفة عامة . وقد نتج

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٤٨١ ، ٥٦٩ ، ٢٤٩) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٣٨ ، ٣٣٩) .

عن تلك العزلة القاتلة أن تخلفت الصناعة .

٢- الانحطاط العام الذي أصاب مصر بسبب انحطاط الزراعة .

٣- نقل السلطان سليم للصناع المهرة من مصر إلي اصطنبول .

ثم قال : « والملاحظ بصفة عامة أن الصناعة المصرية منذ مطلع العهد العثماني قد أصيبت بانتكاسة شديدة ، تمثلت في تدهورها كما وكيفا ، بل وفي اختفاء صناعة بناء السفن الحربية والأسلحة والأنسجة الفاخرة ، التي كانت تصنع بهدف التصدير ، وهي أنواع من المنسوجات الممتازة الموشاه بالفضة والذهب »[1].

قلت : هذا ما قاله د.**الراقد** ، وهو كلام ساقط لا يسوى الحبر الذي كتب به . ولم يقدم لنا الأستاذ الفاضل أي أدلة علمية علي ما يقول . فلم يقدم أرقاما للمقارنة ، ولم يأت بنقول عن المؤرخين المعاصرين . ولكنه اكتفى بالنقل عن **جورج كيرك** ، **جيب وبون** ، وعن مراجع عربية كعبد الرحمن الرافعي وغيره . وكل هذا الكلام لا يصمد أمام الأدلة العشرة التي قدمتها ، والتي تبطل ما زعمه من اختفاء صناعة السفن واختفاء صناعة الأنسجة الفاخرة الموشاه بالذهب ، وتؤكد أن كثيرا من الصناعات المصرية كانت تصدر إلي الخارج ، مما يدل علي جودتها حتى في أواخر القرن الثامن عشر عند مجيء الحملة الفرنسية ، والتي كانت تعد فترة تدهور . ثم انظر بالله عليك إلي ما قاله عن صناعة السكر : « والملاحظ أن استهلاك السكر نقص إلي حد كبير ، وتتضح هذه الحقيقة من قلة عدد معاصر ومسابك السكر التي كانت منتشرة في الوجهين القبلي والبحري قبل العهد العثماني . وتدل هذه الظاهرة علي التدهور المستمر في مستوى معيشة السكان »[2].

قلت : لقد كان إنتاج السكر في مصر يفيض علي الاستهلاك المحلي ، إذ كانت مصر ترسل إلي اصطنبول كل عام ألفي قفص من السكر . كما أن تجار مصر كانوا يرسلون في كل عام آلاف العلب ، من السكر النبات مع كميات كبيرة من الغلال واللبن والعسل وما أشبه ، إلي حصن أزلم ، وهو في منتصف المسافة بين مكة والقاهرة . كهدايا للحجاج إذا ما قصدوا ذلك

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٥٢) .

الحصن طلبا للراحة[١]. وفي ذلك دلالة على وفرة إنتاج السكر . وفي دراسة قام بها أندريه ريمون لتركات أربعة عشر سكريا ، في الفترة بين عامي ١٦٧٩ - ١٧٠٠م كان متوسط قيمتها ١٤٧ ٦٤٩ باره ، في حين أن متوسط تركات سائر الحرفيين كان ٤٨ ٨٤٥ باره[٢]. وفي ذلك دلالة علي ازدهار صناعة السكر ، وبطلان لمزاعم د.الراقد الذي لم يقدم أي أرقام من خلال أي وثائق أو مصادر تاريخية يعول عليها .

ثم ما بال هذا الحديث المتكرر عن العزلة الذي لا يسأم أساتذة التاريخ من الحديث عنه . فهلا ذكرتم لنا مظاهر تلك العزلة .؟! هلا ذكرتم لنا مظاهر الاتصال بالعالم الخارجي الذي كانت تنعم بها مصر قبل الفتح العثماني ، ثم حرمت منه بعده .؟ أم أنكم تنقلون عن الأوروبيين أو عمن سبقكم ، ولا تعلمون إلا قيافة الأثر .؟! أم ماذا .؟! .. وما بال الحديث عن نقل الصناع المهرة من القاهرة إلي اصطنبول . وقد أجبت على هذه الشبهة سابقا ، وبينت أن جميع هؤلاء الصناع عادوا إلي القاهرة بعد ثلاث سنوات . ولكن د.الراقد لا يكف عن إعادة الحديث فيها . ومن ذلك قوله : « اندثرت صناعة المنسوجات التي ازدهرت في العصرين الفاطمي والمملوكي ، وكذلك صناعة السجاد . وانتقلت هاتان الصناعتان إلي تركيا ، بعد أن قبض سليم علي مهرة الصناع المصريين ورحلهم إلي بلاده »[٣].

قلت : لم يقدم د.الراقد أي دليل علمي ، أو حتى غير علمي على ما يقول . وخير ما أرد به عليه ، هو ما رآه أولياء جلبي بعيني رأسه وخطه بيمينه . فقد اعتبر مصر متخصصة في صناعة السجاد ، وبها عشرون مصنعا لتلك الصناعة ، ولا يباريها في ذلك إلا أصفهان . إذ قال : « وهذه الصناعة كذلك خاصة بالقاهرة . وإن وجدت في غيرها في أصفهان ، فإنهم ينسجون أبسطة مزركشة تكل عين الناظر إليها ، وتبلغ قيمة البساط منها ألفين وثلاثة آلاف قرش »... وقد تحدث أيضا عن مهارة سائر الصناع ، **فقال عن الرخامين** : « لا نظير لهم في سائر البلاد في هذه الصنعة ، فقد اشتهرت العمارات المصرية في العالم بما فيها من الرخام » .... **وقال عن**

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ١٩٥ ، ٥٤٨) .

(٢) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى (ص ١٩٧) .

(٣) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٤٢٨) .

النجارة الدقيقة (طوغراجي) : « يصنعون أمتعة دقيقة للغـاية تشبه الفسيفساء الهندي » ... وقال عن النقاشين : « تعجز أساتذة النقش في سائر البلاد عن الإتيان بمثل نقشهم » ... وقال عن النحاسين : « أما عن الذين يصبون النحاس ، فمن عجائب الدهر ، وهم أساتذة مهرة حقا . فهم الذين يصبون جميع أنواع أقفاص المساجد والعمارات وشبابيكها وسائر زخارفها ، ولا نظير لهم في سائر البلاد » ... **وقال عن الصواغ** : « أغلبهم أقباط ، وفيهم عظماء هذا الفن » .. **وقال عن ناقشي الأقواس** : « كل واحد منهم كأنه بهزاد وماني في فنه »[1].

ولكن مما ينبغي أن يكون معلوما أن ازدهار الصناعة في مصر وغيرها من البلاد العربية في العصر العثماني ، قد دام حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، ثم بدأ في التراجع شيئا فشيئا مقارنة بالإنتاج الأوروبي ، بسبب تطور وسائل الإنتاج الأوروبية عنها في البلاد العربية . ولكن الصناع كان يعالجون ذلك النقص بما لهم من مهارات ، على ما ذكره علماء الحملة الفرنسية[2]. وبالرغم من ذلك ظلت بعض الصناعات مزدهرة وتجد لها أسواقا في أوروبا . فبالنسبة للمنسوجات القطنية ، ذكر ماسون أنه في عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م كانت صادرات الدولة العثمانية لفرنسا ٣ ,٢ مليون ليفرة فرنسية . أما المنسوجات الحريرية فكانت صادرتها في العام الذي يليه ١٨٧٠٠٠ ليفره فرنسية ، وذلك بالرغم من فرض رسوم جمركية عالية . في حين أنه لم تتجاوز صادرات فرنسا في تلك السنوات إلي الدولة العثمانية ٤٢٠٠٠ ليفره من المنسوجات القطنية[3]. وقد أورد أندريه ريمون بعض الأرقام التي ذكرها جيرار ، وهو من علماء الحملة الفرنسية ، وأحد مؤلفي كتاب وصف مصر . أن مصر باعت إلي الشام ما قيمته ١٣١ مليون و٣٤٩ ألف باره ، نصفها قيمة من ألفين إلي ثلاثة آلاف بالة من المنسوجات الكتانية . وأن مصر كانت تصدر إلي المغرب كمية كبيرة من المنسوجات القطنية والكتانية . (ألفي بالة لتونس وثلاثمائة وخمسين إلي الجزائر) . ومن المنسوجات الحريرية ، من أربعة إلي خمسة آلاف قطعة إلي الجزائر . أما إحصائية الغرفة التجارية بمدينة

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه (ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٥) .

(٢) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى (١٩٤) .

(٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٦٩٧) .

مارسيليا الفرنسية ، فقد جاء فيها أن الوكالات الأجنبية كانت تشتري أقمشة من مصر يبلغ متوسط قيمتها السنوي ٤٨٠ ألف جنيه في الفترة من ١٧٨٥ – ١٧٨٩م . وفي نفس تلك السنوات ، كان تجار مارسيليا يشترون من حلب منسوجات ، بقيمة سنوية تقدر بمليون و٦٩٦ ألف جنيه . بالرغم من أن مشتريات حلب من فرنسا لم تتجاوز ٦,٩٨ ألف جنيه . وقد علق أندريه ريمون علي ذلك بقوله : « مدن الشرق استمرت في كونها مراكز لإنتاج سلع تتفق مع ذوق المستهلكين المحليين ، بل وجد جزء منها أسواقا في البلدان الأوروبية . ولم تتدهور صناعة النسيج المحلية في مواجهة المنافسة الأوروبية ، إلا في نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وتدهورت معها اقتصاديات المدن التقليدية »[1].

ولا يفوتني أن أذكر الأباطيل الواردة في الكتب المدرسية للصف الثالث الإعدادي فقد جاء فيه : « أدى التدهور الزراعي إلي اضمحلال وانقراض العديد من أنواع الصناعات ، مثل صناعات بناء السفن والمنسوجات الفاخرة ، كما اقتصرت الصناعة علي بعض الحرف اليدوية البسيطة الضرورية للاستهلاك المحلي ، مثل صناعة الغزل والنسيج والفخار والحصير ومواد البناء والسكر ، وكانت جميعها رديئة »[2].

قلت : إن الأدلة التي سقتها آنفا تشهد علي ذلك الكلام بالبطلان . وكان أعجب ما جاء فيه ، (انقراض صناعة السفن) ، بالرغم من أنه في العصر العثماني ، كان يوجد دار صناعة في بولاق وفي السويس ، كما استحدثت دار صناعة في الإسكندرية ،كما تقدم ذكره .!

ثالثا : العمران

هناك كلمة اشتهرت بين أساتذة التاريخ ، تلقونها بألسنتهم ويقولونها بأفواههم ، أن الدولة العثمانية أهملت القطاع العمراني والتعليمي في ولاياتها ، وتركت ذلك لجهود الأهالي الذاتية . وأن الدولة لم تهتم إلا بالنواحي العسكرية ، وجمع الخراج والضرائب والسيطرة علي القضاء . كما انتشر قول آخر في الأوساط العلمية ، وهو (**أن العثمانيين يأخذون ولا يعطون**)

---

(١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى (ص ٢٠٠) .

(٢) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ، ٢٠١٠ – ٢٠١١ ، الفصل الدراسي الأول (ص ٦٩).

وقد قال به د.محمد شفيق غربال[١] وصار قولا متداولا حتى بين عامة الناس . وهذا الكلام فيه تجن كبير علي العثمانيين ، وجحود ونكران . وقبل أن نخوض في هذا الأمر ، أود أن أثبت واقعة تنفي ذلك الاتهام من أصله . ففي عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م ، إبان ولاية خسرو باشا على مصر ، الذي كانت أيامه في غاية الرخاء ، وأسعار السلع في غاية الانخفاض[٢]. أرسل خسرو باشا خراج مصر إلي اصطنبول فكان مليون قطعة ذهبية . فرفض السلطان سليمان القانوني قبول المبلغ ، خشية أن يكون قد جمع من الفقراء بطريقة تعسفية ، وطلب أن لا تتعدى إرسالية مصر مبلغ خمسمائة ألف قطعة ذهبية[٣]. ولعل السلطان سليمان أرجع ذلك المبلغ ليستفيد أهل مصر بالرخاء الذي حل في ذلك العام . وهذه الواقعة بلا شك تنفي مزاعم أن العثمانيين يأخذون ولا يعطون . وكان مما احتج به هؤلاء الزاعمون ، أنه لم يبن أي سلطان مسجدا واحدا في مصر كلها .

قلت : صحيح بلا ريب ، أنه لم يبن أي سلطان عثماني مسجدا في مصر ، ولكن رجال الدولة بنوا العشرات من المساجد والمدارس والأسبلة والتكايا في مصر ، كما سيأتي بيانه . والسبب في عدم بناء السلاطين لمساجد ، هو أن مصر – بلد الألف مأذنة – لم تكن في حاجة إلي مسجد سلطاني ، فقد كانت علي مر قرون طويلة مقرا لدول وسلطنات ، وقد حرص كل سلطان على أن يخلد ذكراه بمسجد كبير ، فازدحمت القاهرة بالمساجد السلطانية . وقد ذكر لنا الرحالة التركي أولياء جلبي ، الذي أقام في مصر عشر سنوات ، حتى رحل عنها عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م ، أن مصر بها مائة وستة وخمسين مسجدا سلطانيا ، فقد قال : « بمصر ستة وخمسون ومائة جامع ، بناها السلف من السلاطين . ولم يخلف ملوك وسلاطين بلاد الروم والعرب والعجم بل بلاد المسلمين قاطبة جوامع عظيمة بهذا القدر ، فكل جامع يشبه جنة ، وسأزورها تباعا وأكتب

---

(١) مقدمة د.محمد شفيق غربال لكتاب الشرق الإسلامي في العصر الحديث للدكتور حسين مؤنس .. نقلا عن د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٢٣٧) .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٠٨).

(٣) د.قاسم خلف الجميلي : التنظيم المالي والضريبي في العصر العثماني. ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ص ١٣٣ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

عنها إن شاء الله »[1].

ولأن المساجد السلطانية تكون كبيرة الحجم جدا ، ويلحق بها مدرسة وسبيل وتوقف عليها الأوقاف الكبيرة ، فلو بنى سلطان عثماني مسجدا لاعتبر ذلك هدرا للمال فيما لا يفيد . فترك السلاطين لرجال الدولة من باشوات وبكوات وأغاوات ، بناء مساجد تكون أصغر نسبيا من المساجد السلطانية ، لاسيما في الأماكن التي يزحف عليها البناء والعمران . وليس ذلك في مصر وحدها ، بل في سائر البلاد العربية ، لأن الإسلام متأصل فيها منذ الفتوحات الأولى ، وقد بنيت فيها المساجد عبر القرون . فانصرفت همة السلاطين العثمانيين إلي الشطر الأوروبي من الدولة ، الذي لم يدخله الإسلام إلا علي يد بني عثمان ، ولم يكن به مسجد واحد لا صغير ولا كبير ، وكان في حاجة ماسة للمساجد الكبيرة التي تستوعب الآلاف من أهالي تلك البلاد الذين دخلوا في دين الله أفواجا .

وفيما يلي أمثلة علي ما بناه رجال الدولة العثمانية من عمائر في مصر :

١- سليمان باشا الخادم الذي تولى علي مصر عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م . بنى مسجدا في بولاق وبجواره وكائل وأسواق ، وجعل عليه وقفا كبيرا . وقد قام فيها بعد ناظر ذلك الوقف محرم بك بتوسعته ورفع سقفه . كما قام سليمان باشا بتعمير مسجد سارية بقلعة الجبل ، كما عمر وكائل برشيد[2].

٢- خسرو باشا ، تولى على مصر في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م ، له عمارة بسوق الصاغة وصهريج ومكتب يقرأ فيه الأيتام ، مع ترتيب الخير لهم[3].

٣- داود باشا الخادم ، تولى على مصر في عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م. بنى مدرسة كبيرة بسويقة اللاله ، وأوقف عليها أوقافا ، كما بنى قلعتي الأزلم والمويلح ، علي طريق الحج ليستريح الحجاج

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٦٨) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٦) ، محمد بن عبد المعطى الإسحاقي المنوفي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٥٧) .

(٣) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٦) .

فيهما ، إذ لم تكن للحجاج من استراحة سوى قلعة العقبة[1].

٤- علي باشا ، تولى علي مصر في عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م . عمر مقام السيدة زينب بقناطر السباع عمارة جيدة ، وله بنيان بفوه ووكالة عظيمة برشيد[2].

٥- اسكندر باشا ، تولى علي مصر في عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م . بنى جامعا بباب الخرق وتكية وسبيلا ، وأوقف علي ذلك أوقافا[3].

٦- شاهين مصطفى باشا ، تولى علي مصر عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م. بنى حماما بسوق السلاح[4].

٧- سنان باشا الشهير بقوجا أي العظيم ، تولى علي مصر عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م . ثم توجه بعد تسعة أشهر لإخماد عصيان اليمن ، ثم عاد إلي مصر منصورا ، وتولى للمرة الثانية عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م . ومن محاسنه إعادة حفر الخليج بين القاهرة والإسكندرية ، وبنى بالإسكندرية مسجدا وحماما ، كما بنى في بولاق مسجدا عظيما وسوقا ورباعا ووكائل ، كما بنى تكية في طريق الروم ، يطعم فيها المسافرين[5].

٨- مسيح باشا الخادم ، تولى علي مصر في عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٥م . بنى جامعا عظيما بباب القرافة وأقف عليه أوقافا ، وجعل نظارتها للشيخ نور الدين القرافي وذريته من بعده[6].

٩- حسن باشا الخادم ، تولى علي مصر عام ٩٨٨هـ/ ١٥٩٠م . بنى وكالة ببولاق ، تجاه الترسخانة ، وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للأيتام[7].

١٠-إبراهيم باشا ، تولى على مصر في عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م . بنى مدرسة بالمحلة الكبرى وسماها الوزيرية[8].

---

(١) محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٥٨) ، أحمد جلبي ابن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١١٠).

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٧) .

(٣) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٨) ، محمد بن عبد المعطى الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٦٠) .

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١١٤).

(٥) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص١١١ ، ١١٢) .

(٦) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١١٤).

(٧) محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٦٦).

(٨) محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٦٦).

١١-أحمد باشا الحافظ ، تولى علي مصر في عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م. جعل سحابة للفقراء بطريق مكة المكرمة ، وعمر عمارة ببولاق ، هي وكالتان بأرباع وبيوت . وجعل مصروف السحابة من ريع ذلك . وعمل مصلى بالوكالة الكبرى ، وقرر بها وظائف ، كما عمر برشيد وكالة وقهوة وربوعا(١).

١٢-محمد باشا الشريف ، معمر الأزهر ، تولى على مصر في عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م . قال البكري : « عمر الجامع الأزهر وجدده ، وما هدم منه شيده . ورتب له من الشون العدس يطبخ في كل يوم للفقراء ، ولأجل ذلك ، تسامعت الناس فأتوا إليه لطلب العلم من أقاصي القرى. وعمر المشهد الحسيني ، وزينه وتقيد بأمره وأتقنه ، ودرس فيه والدي بحضرته ، فخرج متعجبا من هذا الدرس وبهجته »(٢).... وقال **الإسحاقي** : « غير أستار الأروقة بالجامع الأزهر التي كانت من حصر قديمة ، وجعلها من خشب مدهون بالدهان الأخضر. ورتب عدسا بمطبخ الجامع الأزهر للفقراء والمجاورين وهو مستمر إلي الآن »(٣).

١٣-علي باشا السلحدار ، تولى على مصر عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م. بنى سبيلا بقرب الإمام الشافعي ، ويعرف بسبيل علي باشا ، كما جدد قلعة خان يونس(٤).

١٤-حسن باشا ، تولى على مصر عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م . وهو الذي عمر صحن الجامع الأزهر ، وفرشه بالبلاط ، وأحدث رواق اليمانيين ، وعمر فيه خزائن الخشب لحفظ كتبهم وأسبابهم(٥).

١٥-محمد باشا السلحدار ، الشهير بقول قران (محطم العبيد) ، الذي أطلق عليه المؤرخون معمر مصر ومبطل الطلبة . وهو الذي قام بتوسعة مسجد سيدي جابر بالإسكندرية ، وأوقف عليه ملاحة مستجدة خارج الإسكندرية ، غلتها في كل سنة ألفا نصف فضة . كما قام بتجديد

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١١٧) ، محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٧٤).

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١١٨) .

(٣) محمد بن عبد المعطي الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٧٨) .

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٢٨) .

(٥) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٢٣) .

الجامع المؤيدي بالقاهرة ومسجد سيدي سارية . **قال البكري** : « ومن جملة عمايره الشريفة أيضا حوش الأوليا بالقرافة الكبرى ، وما تهدم من المساجد والزوايا والربط والمساجد والجوامع والمعابد . وجدد عمارة المقام النوري ، الكاين تحت الربع بالقاهرة المعزية أسفل مدرسة المرحوم السعيد الشهيد السلطان الملك المؤيد شيخ طاب ثراه ، عمارة حسنة شريفة متسعة متقنة منيفة . ومن أعظم مآثره الحميدة ، تجديد عمارة القلعة السعيدة الصلاحية الأيوبية ، وإصلاح ما تهدم من بنيانها وما تساقط من أركانها عمارة متقنة »[1].... « عمر وكالة برشيد ، وبجوارها جملة حوانيت وقهوة وسوق الصاغة ، وغير ذلك . وأخذ غالب الجزر المقابلة لرشيد وأطيانا بالمنوفية والجيزة ، وعمل سحابة بطريق الحج الشريف »[2].

١٦- محمد باشا الصوفي ، تولى على مصر عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م . عمر تكية تسمى تكية الشيخ نظام الدين ، وجعل لها وقفا يكفي أرباب شعائرها ومجاوريها[3].

١٧- بيرم باشا ، تولى على مصر عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م . عمر غيط قره ميدان ، وعمل له السواقي . وله من المآثر المحل المعروف في الديوان العالي بكشك بيرم باشا ، وحوض وسبيل وزاوية[4]. كما قام بيرم باشا بترميم جامع عمرو بن العاص ﷺ[5].

١٨- أحمد باشا قام بترميم جامع السلطان الصالح نجم الدين أيوب وتم الانتهاء منه عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م[6].

١٩- محمد باشا أبو النور ، تولى علي مصر في عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م . بنى مسجدا عظيما عند قبر عقبة بن عامر الجهني ﷺ ، ومدرسة للحديث وصهريجا ومكتبا للأطفال يقرؤون فيه

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : كشف الكربة في رفع الطلبة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٦ (ص ٣٣٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥) .

(٢) محمد بن عبد المعطى الإسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٣٩٦).

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٣٤).

(٤) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٣٠) ، أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٤٢) .

(٥) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٧٠) ، وذكر أولياء أن ذلك تم عام (١٠٣٢هـ) إبان ولاية بيرم باشا على مصر بالرغم من اتفاق المصادر علي أن ولاية بيرم باشا كانت عام (١٠٣٥هـ) .

(٦) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٨٨) .

القرآن . وجعل على ذلك أوقافا ، يتولى نظرها أغاة مستحفظان[1]. كما أمر نظار الجوامع بالقاهرة والفسطاط بتبييض الجوامع والمساجد والأربطة والمشاهد ، فبيضوها جميعا ولذلك لقب بأبي النور[2].

٢٠-أحمد باشا ، تولى على مصر في عام ١١٠١هـ/ ١٦٨٩م . قام بترميم الجامع المؤيدي بعد أن تداعى وآل إلي السقوط[3].

٢١-إسماعيل باشا ، تولى على مصر عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م . ومن مآثره الحميدة الكشك المطل علي عرب اليسار ، والقاعة التي تجاهه ، والمصطبة والبستان الذي داخل السراية . وأنشأ بجوار ديوان قايتباي مدرسة ، جعل فيها اثني عشر قارئا . وكان كثير الخيرات ، حتى أنه لما ختن ابنه ، نادى في شوارع القاهرة علي كل من يريد ختان ولده ، فختن ألفين وثلاثمائة وخمسة وستين غلاما . وكان يعطى كل واحد منهم كسوة ودينارا[4]. ومن مآثره أيضا أنه بنى تكية في قراميدان ، وعمل سحابة بطريق الحجاز. وأوقف على ذلك أوقافا ، وجعل نظارتها لخازندار محمد أغا[5].

٢٢-قره محمد باشا ، تولى على مصر عام ١١١١هـ/ ١٦٩٩م . كان صاحب خيرات كثيرة ، فقد عمر مقام الأربعين الذي بجوار قره ميدان ، وأنشأ فيه جامعا بخطبة ، وتكية لفقراء الخلوتية[6] من الأروام . وأنشأ مقابلها مطبخا ودار ضيافة للفقراء ، وفي أعلاها مكتبا للأطفال يقرؤون فيه القرآن . وجعل لهم من الجرايات ما يكفيهم . وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف بالغوري حمامات فسيحة مفروشة بالرخام الملون . وجدد بستان الغوري ورمم قاعة الغوري التي بالبستان ، كما عمر مصطبة عظيمة برسم إلباس القفاطين[7] ،

---

(١) أغاة مستحفظان أي قائد المستحفظان وهم أحد الوحدات العسكرية السبع في مصر وهم من الييني جري .

(٢) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٣٩) ، أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٥٤) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٨٦).

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٨) .

(٥) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٣٤) .

(٦) طريقة صوفية تنسب إلي الشيخ محمد الخلوتي .

(٧) كان من مراسم قيام الوزير باشا مصر بتقليد المناصب للصناجق والكشاف وغيرهم بأن يلبسهم قفطانا.

وتسليم المحمل الشريف لأمير الحاج وأرباب المناصب . كما عمر مصطبة يرمى عليها النشاب ، ثم عمر بالقرافة مقام العارف بالله الشيخ عيسى بن القطب الرباني سيدي عبد القادر الكيلاني ، كما عمر صهريجا في داخل القلعة(١). وفي عهد قره محمد باشا ، توفي إبراهيم أغا أغاة العزب(٢) عام ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م . وهو الذي قام ببناء جامع وساقية وميضة في كوم الشيخ سلامة ، وحوض دواب وفوقه كتاب في العتبة الزرقاء(٣).

٢٣-ولي باشا ، تولى على مصر عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م . عمر قنطرة الجسر وجدد قبة قاعة المقياس بأمر من السلطان أحمد الثالث(٤).

٢٤-بشير أغا القزلر(٥) مر بمصر في طريق عودته من الحج ومكث بها شهرين ، وبنى سبيلا ومكتبا تجاه قنطرة سنقر(٦).

٢٥-علي باشا الأزميرلي ، تولى على مصر عام ١١٢٩هـ/ ١٧١٧م . له من المآثر الحميدة الصهريج الذي بالديوان الذي لم يوجد له نظير ، ولم يسبقه عليه أحد ، وله القصر الذي ببستان إسماعيل بيك الذي بمصر القديمة(٧).

٢٦-أرسل السلطان أحمد الثالث في عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م خمسين كيسا ذهبا ، وخطا شريفا بعمارة الجامع الأزهر . ولكن تكلفت العمارة ثلاثة وستين كيسا ، فدفع إسماعيل بيك الثلاثة عشر كيسا المتبقية من ماله الخاص . وتم فرش الجامع الأزهر بالحصر الجديدة ، وبناء فسقية ، وزيادة العمدان الحجر التي في رواق الأتراك ، وزيادة علوه(٨).

٢٧-محمد باشا النشانجي ، تولى على مصر عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م «له من المآثر الكشك

---

(١) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٧٠) ، أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٠٦) .

(٢) أغاة العزب أي قائد العزب أو العزبان وهم أحد الوحدات العسكرية السبع في مصر .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ١٤٨) .

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٥٦) .

(٥) قز : بنت ، قزلر : بنات ، أغا : رئيس . (رئيس حريم السلطان) .

(٦) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٩٠) .

(٧) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٣٠٣) .

(٨) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٣١٠ ، ٣٢٤).

الذي بناه فوق العرقانة[1] ، والمسجد الذي داخل السرايه ، أنشأه قايتباي ، فجدده وبناه وأحدث فيه أوضا ، وأحدث داخل السراية حمامين ، واحد للرجال وواحد للنساء »[2].

٢٨- عثمان كتخدا القازدغلي ، كتخدا مستحفظان[3] ، قام في عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م ، ببناء الصهريج والمسجد الذين ببركة الأزبكية ، بجوار الشيخ أبو طاقية . وجعل على الصهريج مكتبا لقراءة أطفال المسلمين[4].

٢٩-حسن كتخدا الرزاز ، كتخدا عزبان ، قام في عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٣م ، بعمارة الصهريج والمكتب الذي تجاه منزله[5].

٣٠-علي كتخدا باش اختيار عزبان ، أتم عام ١١٤٧هـ/ ١٧٣٥م . بناء مسجد وصهريج ومكتب تجاه القنطرة الجديدة التي أحدثها تجاه منزله ، بحارة الإفرنج[6].

٣١-أحمد كتخدا مستحفظان الخاربطلي ، قام عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م . بعمارة مسجد الفاكهاني، الذي كان قد بناه السلطان نور الدين محمود رحمه الله عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. ومع تعاقب السنين عليه ، غار في الأرض فأصبح ينزل له درجتين ، فقام أحمد كتخدا برفعه ، واشترى محلات بجواره وأدخلها فيه ، وأنشأ صهريجا ومكتبا ورخم قاعدته بالرخام[7].

٣٢-باكير باشا ، تولى على مصر عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م ، لمدة عام واحد ، إلا أنه أقام في مصر بعد انتهاء ولايته . وفي عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م ، اشترى القصر والحوض والسبيل والمكتب الذي أحدثه يوسف كتخدا عزبان ، خارج قبة العزب بمائة وخمسين ألف نصف فضة ديواني من ورثة يوسف كتخدا ، وأحدث فيهم زيادة ، وأوقفهم ورتب لهم عشرين ألف نصف فضة[8].

---

(١) سجن .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٥٣٥) .

(٣) كتخدا أي وكيل ، مستحفظان .

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٥٧٧) .

(٥) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٥٨٦) .

(٦) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٥٩٢) .

(٧) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٦١٠ ، ٦١١) .

(٨) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٦٣٣) .

٣٣-سليمان جاويش الجوخدار ، تابع عثمان كتخدا القازدغلي . قام ببناء تكية جعلها للعميان ، وجعل بها محلا للحنابلة برواق . ثم بنى بيتا وأوقفه على الرواق . كما بنى داخل التكية مكتبا[1].

٣٤-عبد الرحمن كتخدا القازدغلي ، كتخدا مستحفظان ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م . عمل سبيلا وفوقه مكتبا عجيبا . كما بنى جامعا في سوق باب الزهومة ، وبنى أمامه سبيلا ، ومن فوقه كتابا وميضأة ، كما بنى سبيلا ومكتبا بباب الفتوح ، كما عمر ساقية بباب الينى جري ، وبنى ساقية وحوض دواب ، وسبيلا ، ومكتبا بالحطابة . وبنى عند باب تربة المجاورين ساقية وحوضا للدواب ، وزاوية للصلاة . كما بنى ساقية وحوضا للدواب في طريق مقابر اليزبكية ، كما بنى تحت كوم الشيخ سلامة ساقية وحوضا للدواب ، ومسجدا وميضأة ومأذنة ، وغير ذلك[2].

٣٥-إبراهيم كتخدا القازغلي ، كتخدا مستحفظان ، توفي عام ١١٦٨هـ/ ١٧٥٤م . بنى سبيلا في باب الإنكشارية ، وبنى مدرسة بساقية وجنينة وسبيلا في عمارة لاجين[3].

ما سبق كان أمثلة لخيرات رجال الحكم العثماني ، وما عمروه من مساجد ومدارس ومكاتب وسواقي وحدائق وأسبلة . وإن كان ما سبق ليس حصرا شاملا ، إلا أنه يكفي للرد على من زعم أن العثمانيين يأخذون ولا يعطون . وإنني لعلى يقين ، أنه بالرجوع إلي دور الوثائق المختلفة فسنخرج بأضعاف ذلك من وثائق الوقفيات والخيرات التي أنشأها رجال الحكم العثماني في مصر . ولكن ما قدمته يكفي لبيان أن من ظلم العثمانيين ، واتهمهم بإهمال العمارة في مصر ، لم يجر دراسة حقيقية مستفيضة . وإنما نقل عن هذا أو عن ذاك من باب قيافة الأثر ليس إلا . ولا شك أن كل هذه الأوقاف والمساجد والمدارس والأسبلة ، دليل علي مدى التوسع العمراني الذي جدث في القاهرة في العصر العثماني . ولعلنا نجد في عدد الحمامات بالقاهرة ما يشير إلي ذلك . فقد ذكر المقريزي الذي توفي عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م أن عدد الحمامات العامرة بالقاهرة إحدى وعشرون حماما هي :

---

(١) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٦٣٣) .

(٢) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٢٥٠) .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٢٥٤) .

حمام الساباط ، حمام السلطان من سويقة المسعودي ، حمام خوند ، حمام الصاحب بسويقة الصاحب ، حمام طغريك ، حمام الرومي ، حمام سويد ، حمام الصاحب بخط طواحين الملحيين ، حمام القاضي ، حمام السلطان بخط بين العواميد من البندقانيين ، حمام الخراطين ، حمام الخشيبة ، حمام الكويك ، حمام الجويني ، حمام القفاصين ، حمام الأعسر ، حمام الحسام ، حمام الصوفية ، حمام الدود ، حمام قتال السبع ، حمام لؤلؤ(١).

أما أحمد جلبي بن عبد الغني المتوفي ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م فقد ذكر أن عدد الحمامات بالقاهرة إحدى وثمانون حماما(٢). ففي ثلاثمائة وخمس سنوات تقريبا ، زادت عدد الحمامات في القاهرة ستين حماما ، بنسبة ٣٨٦٪ تقريبا . وأغلب هذه الزيادة كانت في العصر العثماني بلا ريب لأن هذه السنوات الثلاثمائة وخمس منها مائتان وسبع وعشرون بعد الفتح العثماني لمصر .

العمائر في الشام

ولم تكن الشام بأقل حظا من مصر من خيرات العثمانيين ، وعلى سبيل المثال :

١- أهم الأوقاف في دمشق على الإطلاق ، هو وقف السليمانية الذي أنشأه السلطان سليمان القانوني رحمه الله : « أمر بتعمير التكية السليمانية بدمشق ، فعمرت في موضع القصر الأبلق بالوادي الأخضر ، وعمر إليها مسجدا جامعا ، ومدرسة عظيمة ، شرطها للمفتي بدمشق . وكان ابتداء عمارة التكية والمسجد في سنة اثنتين وستين وتسعمائة ، وكملت هذه العمارة في أوائل صفر سنة سبع وستين وتسعمائة »(٣).

٢- خسرو باشا أمير أمراء حلب ، بنى في عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م ، مسجدا ومدرسة يطلق عليه مسجد الخسروية(٤).

٣- شمسي أحمد باشا ، أمير أمراء دمشق في زمن السلطان سليمان القانوني ، بنى بالقرب من سوق الأروام تكية . كما بنى مدرسة ، تولى مشيختها الشيخ بستان البورسوي .

---

(١) تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣/ ١٤٥ – ١٥٧) .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٣٧٩).

(٣) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ١٤٠) .

(٤) د.عفيف البهنسي : العمارة في مصر والشام في العصر العثماني. ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس ص ٥٦٨ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٤- قره مصطفى باشا ، أمير أمراء دمشق لمدة ثمان سنوات ، قبل أن يتوجه لفتح قبرس عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م . بنى خانا كبيرا وحماما في سوق السروجية بدمشق(١).

٥- مراد باشا ، أمير أمراء الشام في عام ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م ، بنى مجمع المرادية ، وهو مازال قائما حتى الآن ، وهو عبارة عن مسجد وتكية(٢).

٦- درويش باشا ، أمير أمراء دمشق في زمن السلطان سليم الثاني ، عمر الجامع خارج باب الجابية ، وعمر الحمام بالقرب من الجامع الأموي ، وعمر القيسارية والسوق بالقرب من سوق الجوخ والقهوة ، ووقف ذلك كله على جامعة ، وهو الجامع المعروف بالدرويشية(٣).

٧- سياوش باشا ، الصدر الأعظم عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م ، في زمن السلطان مراد الثالث ، بنى في دمشق المسجد المعروف بالسياغوشية ، بحارة القصاعين داخل باب الجابية ، ورتب فيه من يقوم بشعائره .

٨- مراد باشا ، الصدر الأعظم في عام ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م ، في زمن السلطان أحمد الأول ، عمر في دمشق سوق المرادية ، بباب البريد والخان وسوق الذراع ، وجعله وقفا على الحرمين(٤).

٩- سنان باشا ، أمير أمراء الشام ، أنشأ مسجدا عرف بمسجد السنانية ، وكان ذلك في عام ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م(٥).

١٠-إبراهيم باشا ، الدفتردار بدمشق سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م ، بنى حماما بالقرب من تربة صلاح الدين ، ووقفه وجملة من أملاكه(٦).

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٣٠، ٤٩٨) .

(٢) د.عفيف البهنسي : العمارة في مصر والشام في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس ص ٥٦٧ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٣) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ١٣٤) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢١٩) .

(٤) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٢٥) .

(٥) د.عفيف البهنسي : العمارة في مصر والشام في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس ص ٥٦٨ ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٦) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٤٣) .

١١-صالح باشا الموستاري ، كان أمير أمراء دمشق عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م . قام بعمارة وتوسعة خان حسية ، كما قام بعمارة خان السبك . فعمروه عمارة لطيفة وقلدوا في بنيانه بنيان عمارة القطيفة من السوق والجامع والحمام . ووقع هذا الخان في موقعه . كما عمر الحمام خارج باب الجابية بمحلة القماحين ، وجعل مفتي دمشق ناظرا على ذلك الوقف(١).

١٢- سليمان باشا العظم ، بنى خانا باسمه في سوق مدحت باشا عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م ، ويتكون من طابقين ، بها ست وأربعون غرفة . وملحق بالخان دورتين للمياة(٢).

١٣-عثمان باشا ، الذي تولى على مصر عام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م ، كان قبل ذلك متوليا باشوية حلب ، وعمر فيها الجامع الذي بناه والده ، وأنفق عليه أربعمائة كيس . وبنى حمامات وحوانيت ووكايل وبيوتا ، ورتب وقفا يتحصل منه في كل يوم خمسة آلاف فضة(٣).

١٤-أسعد باشا العظم أمير أمراء الشام ، بنى عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م خانا ، يعد آية معمارية بحق ، يقع في سوق البزورية ، ومساحته ألفان وخمسمائة متر مربع(٤).

١٥-عثمان باشا الوزير ، أمير أمراء دمشق ، قام عام ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م ، ببناء قناة داخل صحن الجامع الشريف الأموي ، وأجرى لها الماء من نهر القنوات ، وصرف على ذلك أموالاً كثيرة ، وصار بها فرج للناس عند انقطاع نهر بانياس(٥).

لا أريد أن استطرد أكثر من ذلك في ذكر العمائر والأوقاف والخيرات ، لأنني لست بصدد إجراء حصر لها ، ولكني أردت أن أبين أن رجال الحكم العثماني ، كان لهم خيرات كثيرة ومآثر حميدة ، وعمائر جليلة في مصر والشام وسائر البلدان . أما عن الأوقاف في الحرمين فحدث ولا حرج ، فما من سلطان إلا وله أوقاف على أهل الحرمين ، ينفق ريعها على عمارة

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٢٣٤) .

(٢) د.عفيف البهنسي : العمارة في مصر والشام في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس (ص ٥٧٠) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٥٨٧) .

(٤) د.عفيف البهنسي : العمارة في مصر والشام في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس (ص ٥٦٩) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

(٥) محمد خليل المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (٣/ ١٦١) .

الحرمين وبناء المدارس والمساجد والعطايا للعلماء وطلاب العلم . ولعل أشهرها المدارس الأربع التي بناها السلطان سليمان القانوني في مكة(١). ولقد استفاض الشيخ قطب الدين النهروالي في ذكر تلك الخيرات والعمائر في كتابه « **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام** » ، فمن شاء التفصيل فليرجع إليه . فالمقام لا يتسع للبسط أكثر من ذلك . وأود أن أختم الكلام في هذه المسألة بقول المؤرخ المصري الشهير مرعى بن يوسف الكرمي الحنبلى : « ومن فضايل آل عثمان ، أن الشون السلطانية وهو موضع خزن الغلال بمصر المحروسة ، ربما يدخله في كل سنة من الغلال ، أزيد من ثمانمائة ألف أردب . بحيث أن الناظر إلى تلك الغلال يراها كأمثال الجبال من قمح وشعير وفول وعدس وحمص ، كلها تدخل في الشون على سبيل أن تصرف على العساكر والفقهاء والعلماء والقضاة والفقراء والمجاورين بالجوامع والزوايا ... وبالجملة فما يصرفه آل عثمان من خزاينهم العامرة في وجوه الخيرات والصدقات والمرتبات ، لا يحصى مقدارها ولا يستقصى انحصارها »(٢).

رابعا : العلوم

الشائع عن العثمانيين ، أنه لم يكن لهم حظ من العلم ، وأن دولتهم قامت بفضل القوة العسكرية في المقام الأول . وقد غفل هؤلاء عن أن ذلك الجيش العثماني القوى ، إنما استمد قوته من الأسلحة الحديثة التي طورها العثمانيون أنفسهم . وقد تحدثنا من قبل عن مدافع الحصار الضخمة ، وعن المدافع بعيدة المدى المثبتة على السفن ، وعن نوعية البارود وغير ذلك مما لا داعي لإعادته . وقد أشيع أيضا أن البلاد العربية أصابها التخلف والتأخر في العلوم ، عندما دخلت تحت الحكم العثماني بزعمين اثنين :

الأول : أن السلطان سليما أخذ الصناع المهرة والحذاق من أهل الحرف المختلفة إلى اصطنبول . وقد قدمنا بطلان ذلك الإدعاء ، وأن كل هؤلاء العمال والصناع قد عادوا إلى مصر بعد ثلاثة أعوام .

أما الثاني : أن العثمانيين عزلوا العالم العربي عن أوروبا ، فلم تصل إليه التطورات الحضارية

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٢٦) .

(٢) مرعى بن يوسف الكرمي الحنبلي : قلايد العقيان في فضائل آل عثمان (ص ٢٧) .

التي جرت في أوروبا في تلك الفترة .

قلت : وهذا الكلام ليس بأقل بطلانا من سابقه ، لأن التفوق الحضاري والعلمي للدولة العثمانية بأقاليمها الإسلامية التي كانت تحت حكمها ، دام حتى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم رجحت كفة أوروبا بعد ذلك شيئا قليلا ، إلى أن دخل القرن التاسع عشر فبدأت الهوة تتسع أكثر فأكثر . وليس صحيحا ما يشاع من أن مصر وسائر البلاد العربية ، عدمت العلماء منذ أن دخلت تحت الحكم العثماني كما يزعم الزاعمون . وسأبين ذلك فيما يلي ، ولكن بعد أن أنقل طرفا مما كتبه بعض أكابر الأساتذة من أباطيل في تلك المسألة . فقد **قال جورجي زيدان** : « إن أكثر المؤلفات في علوم الدين الإسلامي ، لأن العلم انحصر يومئذ في الأزهر الشريف تقريبا ، فإن أكثر طلابه من الفقهاء ، إلا من كان فيه ميل خصوصي لعلوم أخرى . مع أن أوروبا كانت قد أفاقت من غفلتها وأخذت في تأسيس العلوم الحديثة ، ولم يبلغ خبر ذلك إلى مصر إلا عن طريق الحملة الفرنسية »[1]. **وقال أيضا** : « بلغت هذه العلوم في هذا العصر غاية الاضطراب ، وتحولت الطبيعيات والرياضيات منها إلى خرافات وأوهام . وقل المشتغلون بها والانقطاع لها » . وعند حديثه عن علوم الفلك قال : « فظهرت طائفة من علماء الفلك وأكثر اشتغالهم منه لتعيين أوقات الصلاة أو الآذان أو معرفة الطوالع والسعود والنحوس »[2].

قال عبد الرحمن الرافعي : « فشا الجهل في البلاد ، ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة . وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائما قبل عصر البكوات المماليك ، وبعض المدارس الملحقة بالمساجد »... **وقال أيضا** : « من أجل ذلك قلما نبغ من عهد الفتح التركي شاعر أو عالم أو أديب ، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم ، والتي كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية . واعتزل الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة ، فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمي القديم والحديث »[3].

---

(١) جورجي زيدان : مصر العثمانية (ص ٢٩٢) .

(٢) نقلا عن ناصر عبد الله عثمان : الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر (ص ٢٩٦) .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٥٦، ٥٨) .

قال د.محمد أنيس : « ولم تكن عزلة الشرق الأوسط خلال هذا العصر العثماني الأول سياسية واقتصادية فحسب ، بل كانت حضارية أيضا . فلم يصل الشرق الأوسط عنصر واحد من العناصر المكونة للحضارة الغربية ، والتي تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر »[1].

قال د.محمد عبد المنعم الراقد : « اعتزلت مصر العالم الأوروبي بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وجاء الحكم العثماني ليدعم هذه العزلة . لأن الدولة العثمانية ذاتها عاشت في نفس الفترة في عزلة فكرية عن أوروبا . ولذلك تضاءل الاتصال الحضاري بين مصر وأوربا إبان مطلع العهد العثماني ، مما نتج عنه عدم تأثر مصر بالتقدم العلمي الذي صاحب عصر النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر » .... **وقال أيضا** : « أما دراسة العلوم الطبيعية والرياضية فكانت في المكان الأخير ، ولم تلق أي عناية أو رعاية ، فانحط شأنها وانعدم التأليف فيها تقريبا »[2].

وبطبيعة الحال لم تسلم الكتب المدرسية من تلك الأكذوبة :

« اتسمت الحياة الفكرية والثقافية خلال فترة الحكم العثماني بالجمود والتخلف ، حتى مجيء الحملة الفرنسية ١٧٩٨م . وقد بلغ هذا الجمود والتخلف مداه ، في أواخر القرن الثامن عشر واهتزت مكانة الأزهر العلمية آنذاك حيث اقتصر التعليم فيه على دروس الفقه والتشريع ، ولم يعد هناك اهتمام بالعلوم العقلية أو الرياضية أو الطبيعية ، وتدهورت الحياة الأدبية ، وانتشرت ظاهرة الدجل والشعوذة والخرافات ، وشاع الجهل نتيجة العزلة التي فرضها العثمانيون على البلاد »[3].

قلت : كل هذا الكلام باطل ، ولا يسوى الحبر الذي كتب به . وظاهره جميل مزين مزخرف ، وباطنه فاسد كاسد مزيف . وذلك من وجهين :

الأول : بشأن هذه العزلة المزعومة ، لم يذكر لنا أي أستاذ من هؤلاء الأفاضل مظاهر تلك

---

(١) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (ص ١٤١) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٤١٨) .

(٣) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ، العام الدراسي (٢٠١٠ - ٢٠١١) ، الفصل الدراسي الأول (ص ٧٠) .

العزلة ، وإنما أشار بعضهم إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وقد بينا آنفا أن التجارة العالمية لم تتحول بالكلية إلى ذلك الطريق الجديد ، بل بقي شطر كبير منها ، إن لم يكن أغلبها يمر عبر الطرق القديمة ، وظلت مصر والشام والعراق معبرا للتجارة العالمية في العصر العثماني . والفضل في ذلك إنما يرجع إلى العثمانيين الذين استطاعوا بقوتهم العسكرية والبحرية أن يعيدوا فتح هذه الطرق ، بعد أن أغلقها البرتغال لمدة ستة أعوام في أخر دولة المماليك الجراكسة ، كما نقلنا عن ابن إياس فيما مضى من كلام . فلا وجه بعد ذلك للتحدث عن عزلة البلاد العربية عن العالم بسبب الحكم العثماني ، فضلا عن المبالغة الشنيعة التي ذكرها د.الراقد حينما قال أن الدولة العثمانية نفسها كانت تعيش في عزلة عن أوروبا .! وهذا القول يدل على أن هذا الأستاذ الكبير لا يعرف شيئا عن التاريخ العثماني ولا اشتم رائحته .

وإن أردنا أن نبسط له القول ، فنقول إن الدولة العثمانية عند وفاة السلطان سليمان القانوني (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) كانت مساحتها ١٤ ٨٩٢٩٠٠ كيلومتر مربع . منها ٢ ميلون كيلومتر مربع تقريبا في أوروبا[١]. فإن كانت مساحة أوروبا كلها ١٠ ٥٠٧٦٣٠ كيلومتر مربع[٢] ، فتكون الدولة العثمانية تحكم خمس أوروبا تقريبا . أما في أواخر عهد السلطان مراد الثالث (ت ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م) كانت مساحة الدولة ما يقرب من عشرين مليون كيلومتر مربع ، منها ٢ ٨٤٨٩٤٠ كيلومتر مربع في أوروبا . أي أن الدولة العثمانية كانت تحكم أكثر من ربع مساحة أوروبا . وكانت مساحة فرنسا آنذاك ١ ١٤٢٠٠٠ كيلومتر مربع ومساحة إنجلترا ٣٤٧٠٠٠ كيلومتر مربع[٣] ، أي أن المساحة الكلية لهاتين الدولتين الأوروبيتين مجتمعتين ١ ٤٨٩٠٠٠ كيلومتر مربع ، أي أن الجزء الأوروبي من الدولة العثمانية آنذاك ، كان ضعف مساحة فرنسا وإنجلترا مجتمعتين . فكيف يقول قائل أن الدولة العثمانية نفسها كانت معزولة عن أوروبا ؟! وقد ظل هذا الوضع قائما حتى أواخر القرن السابع عشر حيث بدأت تتناقص مساحة الدولة فوصلت في عام ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م إلى ١٥ ٩٢٤٦٠٦ كيلومتر مربع منها

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣١) .

(٢) هذا الرقم يمكن الحصول عليه من أي أطلس جغرافي .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٤٣١ ، ٤٣٢) .

١١٦٧٣٩٤ كيلومتر مربع في أوروبا[1]. أما سائر الدول الأوروبية التي لم تكن تحت حكم العثمانيين ، فقد سعت إلى عقد المعاهدات التجارية والسياسية معها ، كفرنسا والبندقية وإنجلترا ، وقد قدمنا ذلك مفصلا في الجزء الأول فلا داعي للإعادة . فمن زعم أن الدولة العثمانية كانت معزولة عن أوروبا فهو واهم لا محالة . فإن أراد الأستاذ الفاضل د.الراقد أن يبث شبهة أخرى ، فزعم أنه إنما عني بالعزلة ، العزلة العلمية لا العزلة السياسية والاقتصادية ، فنقول له لعلك تعني ما قاله جورجي زيدان وعبد الرحمن الرافعي وغيرهما ، من أذناب الأوروبيين وصبية المستشرقين ، من أن الدولة العثمانية لم تكن دولة علمية ، ولم تكن تهتم بالعلوم إلا العلوم الدينية . أما العلوم الطبيعية كالطب والفلك والرياضيات ، فلا هي برعت فيها ولا نقلتها عن أوروبا .. فهذا أيضا كلام فاسد ، وجوابه في الوجهين الثاني والثالث .

الثاني : منذ تأسيس الدولة العثمانية عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م على يد عثمان بن أرطغرل . أولى عناية كبيرة واهتماما بالعلم والعلماء ، وسار أبناؤه من بعده على نفس النهج . فظهر عدد من العلماء في العلوم الطبيعية ، فازدهرت تلك العلوم وسارت جنبا إلى جنب مع العلوم الشرعية ، ومن هؤلاء على سبيل المثال :

١- الشيخ جمال الدين محمد بن محمد الآقسرائي ، كان مدرسا بمدرسة قرمان ، وكان ماهرا في الطب ، وشرح كتاب موجز القانون في الطب للعلامة على بن حزم القرشي المعروف بابن النفيس وسماه « **حل الموجز** » . وتوفي عام ٧٧١هـ وقيل عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م[2].

٢- حاجى باشا الآيدني : خضر بن على القونوي ، توفي عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م . كان يصنف في علم المنطق ، ثم عرض له مرض شديد فاشتغل بعلم الطب حتى نبغ فيه ، وصنف فيه الكثير من الكتب ، منها التسهيل ، التعليم ، الفريدة في ذكر الأغذية المفيدة . ولعل أجل كتبه في الطب « **هو شفاء السقام ودواء الآلام** » . وقسمه إلى أربعة أجزاء ، الأول : كليات جزئي الطب. والثاني : الأغذية والأشربة . والثالث : في الأمراض المختصة بعضو دون عضو ،

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٥٩٢) .

(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٨٩٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ١٦٥) .

من الرأس إلى القدم . والرابع : في الأمراض العامة التي لا تختص بعضو دون عضو[١].

٣- قاضي زاده : موسى بن محمد بن محمود الرومي ، أصله من بلدة في الأناضول اسمها « سلطان أوني » ويعتبر مؤسس علم الهندسة والفلك في الدولة العثمانية . ارتحل إلى بلاد العجم فتتلمذ على أيدي علماء خراسان ، ثم ارتحل إلى بلاد ما وراء النهر للاستزادة ، ثم اتصل بخدمة ملك سمرقند ألغ بك ابن شاه بن الأمير تيمور ، الذي كان بارعا في علوم الرياضيات والفلك ، وله الزيج الشهير المسمى باسمه . وتولى قاضي زاده إدارة مرصد الكواكب الذي بناه ألغ بيك ، وقام في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م بشرح أشكال التأسيس في الهندسة لشمس الدين السمرقندي ، وهي خمسة وثلاثون شكلا من كتاب إقليدس . كما شرح كتاب الجغميني في الهيئة (الفلك) . ولقاضي زاده تلاميذ كثيرون سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى[٢].

٤- مؤمن بن عقيل بن مقبل السيواسي السينوبي ، توفي عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م . ومن مصنفاته في الطب ، ذخيره مرادية ، وهو الذي فصل فيه الأمراض النفسية عن سائر الأمراض وفصلها على خمسة وعشرين بابا . وله أيضا مفتاح النور في علم الكحالة (طب العيون)[٣].

٥- النفيس بن عوض الكرماني ، قام في عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م بشرح موجز القانون في الطب لابن النفيس . ويعد أفضل شروحه على الإطلاق[٤].

٦- عبد الرحمن بن على بن محمد البسطامي ، توفي في بورصه عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م . وصنف في علوم كثيرة ، منها في الطب : « **أدب المريض والعائد** » ، « **الأدعية المنتخبة والأدوية المجربة** » ، ورتبه على خمسة أبواب كلها في الطاعون . ومن مصنفاته أيضا « **الدرة اللامعة في الأدوية الشافية** » ، « **وصف الدواء في كشف آفات الوباء** »[٥].

---

(١) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٣٤) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٠٤٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين (١/ ٣٤٥) .

(٢) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣ ، ١٤) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨١) .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٢٦) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٤٨٣) ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٣٣) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٨٩٩) .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٧٤٣ ، ٢/ ٢٠١٣) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٥٣١) .

٧- محمد بن حمزة البيرامي ، الشهير بآق شمس الدين ، كان معلما للسلطان محمد الفاتح ، وكان ماهرا جدا في الطب . وله رسالة جمع فيها العلاجات النافعة التي جربها لكل مرض بنفسه . وله مصنفات أخرى كثيرة في الطب منها « مادة الحياة »[١]. والذي اعتنى فيه بمسألة انتقال الأمراض بين الناس عن طريق العدوى إذ قال : « من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيا ، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى . هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة . لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية »[٢].

كان ما سبق نواة العلوم الطبيعية في الدولة العثمانية ، فلما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ، وبنى فيها المدارس الثماني الشهيرة ، حرص على أن تكون ملاذا للعلماء ، فاعتنى بالعلم أيما عناية ، فوفد عليه العلماء من شتى بلاد المسلمين ، من ديار العرب والعجم . وأصبح للعلوم في الدولة العثمانية شأن آخر ، وقد نبغ في عصره والعصور التالية له عدد كبير من العلماء في مجالات شتى منهم :

٨- عبد القاهر بن عبد القاهر بن يوسف الطبيب ، وله كتاب « **التيسير في الطب** » وقد ألفه للسلطان محمد الفاتح[٣].

٩- الشيخ كمال الدين الطبيب (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) وله « **الرسالة الكمالية في الطب** » وهي مطولة على مقدمة وأحد عشر بابا وخاتمة :

الباب الأول : في مداواة أمراض الرأس . **الباب الثاني** : في مداواة العين . **الباب الثالث** : في مداواة الأفواه . **الباب الرابع** : في مداواة الأسنان . **الباب الخامس** : في مداواة الجنب . **الباب السادس** : في سلس البول . **الباب السابع** : في الأدوية المقوية . **الباب الثامن** : في المقعد والبواسير . **الباب التاسع** : في الأشربة . **الباب العاشر** : في تركيب المعاجين . **الباب الحادي عشر** : في الوصايا وغيرها[٤].

---

(١) طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣٨ - ١٤١) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٠٢) .

(٢) د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٢٦٩) .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٥٢١) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٨٦) .

١٠-علاء الدين على بن محمد القوشجي ، كان من تلامذة قاضى زاده المذكور آنفا . وصنف رسالة في إشكال القمر ، حل فيها الإشكال الذي تحير فيه الأقدمون ، وذهب بها إلى الأمير الغ بيك ، فولاه مرصد سمرقند بعد قاضي زاده . ثم ارتحل إلى السلطان محمد الفاتح بعد وفاة ألغ بيك ، فأهداه رسالته في الحساب وهي رسالة لا يوجد أنفع منها ، وسماها « **المحمدية** » على اسم السلطان محمد . فأكرمه السلطان الفاتح وأمده بمال وفير ، ثم اصطحبه في حربه مع أوزون حسن ، وصنف رسالة في علم الهيئة (الفلك) فسماها الرسالة « **الفتحية** » . وله أيضا في علم الهيئة « **مسرة القلوب في دفع الكروب** » . وله أيضا شرح على زيج ألغ بيك وهو أحسن الزيجات وأقربها إلى الصحة . وهو أربع مقالات ، **الأولى** : في معرفة التواريخ وهي على مقدمة وخمسة أبواب . **والثانية** : في معرفة الأوقات والطالع في كل وقت ، وهي على اثنين وعشرين بابا . **والثالثة** : في معرفة سير الكواكب ومواضعها ، وهي على ثلاثة عشر بابا . والرابعة : في موافي الأعمال النجومية ، وهي على بابين . ثم شرع في شرح « **التحفة الشاهية** » في الهيئة لقطب الدين الشيرازي ، وهي رسالة على أربعة أبواب . **الأول** : فيما يحتاج إلى تقديمه قبل الشروع . **الثاني** : في هيئة الأجرام البسيطة . **الثالث** : في هيئة الأرض . **الرابع** : في مقادير الأبعاد والأجرام . ثم توفي هذا العالم الجليل في عام ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م[١].

١١-محمد بن أمين الأردبيلي ، الشهير بمير أبي الفتح (ت٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) . وهو من تلاميذ قاضي زاده ، وله حاشية على شرح أشكال التأسيس في الهندسة[٢].

١٢-محي الدين محمد بن حاجي آتمجه (ت٨٩٩هـ/ ١٤٩٣هـ) . له « **مجمع القواعد في علم الحساب** » ، صنفه باسم السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح[٣].

١٣-علاء الدين على بن يوسف بن الفناري ، ارتحل في شبابه إلى بلاد العجم لطلب العلم ،

---

(١) طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٩٧ ، ٩٨) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٦٧ ، ٨٨٩ ، ٢/ ٩٦٦ ، ١٦٧٦) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٧٣٦) .

(٢) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٠٧) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٤٣٥) .

ثم عاد في أيام السلطان محمد الفاتح . وكان ماهرا جدا في علوم الرياضيات والحساب . ويحكى عنه أنه كان لا ينام على فراش ، وإذا غلب عليه النوم يسند ظهره على الجدار ، وبيديه الكتب ، فإذا استيقظ نظر فيها . ومن مصنفاته « **شرح قسم التجنيس من علم الحساب** »(١).

١٤-عطاء الله العجمي ، ارتحل من بلاده إلى السلطان محمد الفاتح ، وكان بارعا في أكثر من علم ، لاسيما الرياضيات والفلك . وله رسالة كبيرة في الرياضيات لحل الإسطرلاب والربع المجيب والمقنطرات . وله رسالة لطيفة في معرفة الأوزان(٢).

١٥-محمد بن محمود القسطنطيني ، الشهير بشكر الله الشرواني الطبيب ، رحل من بلاد العجم إلى السلطان محمد الفاتح ، فأكرمه لبراعته في الطب. ومن مصنفاته «**الياسة في الطب**» وله مصنف جامع اسمه « **رياض العلوم** » كتبه للسلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح(٣).

١٦-مظفر الدين علي الشيرازي ، وهو من علماء دولة السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح . وقد أكرمه السلطان ، وأعطاه مدرسة مصطفى باشا بقسطنطينية ، ثم رفعه إلى إحدى المدارس الثمان . وكان ماهرا في العلوم العقلية ، لاسيما علم الحساب والهيئة والهندسة . وله حاشية على كتاب إقليدس في الهندسة حل فيها مشكلات إقليدس . كما له شرح تهذيب المنطق والكلام للتفتازاني(٤).

١٧-خاطبي الحسيني المنجم ، ألف في عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م ، للسلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح « **تحفة الحساب في الحساب** »، وهو كتاب مبسوط على مقدمة وست مقالات وخاتمة(٥).

---

(١) طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١١١ ، ١١٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٧٣٩) .

(٢) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣٥) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٦٧) .

(٣) طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٣٥) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٩٣٧) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٢٥) .

(٤) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٩٩ ، ٢٠٠) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٧٤١) .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٦٥) .

١٨-نصوح بن قره كوز بن عبد الله ، كان من علماء الحساب . ومن مصنفاته « **جمال الكتاب وكمال الحساب** » ، وله أيضا « **الكنعانية في الحساب** » ، ألفها للسلطان سليم الأول عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[1].

١٩-عبد العلي بن محمد بن حسين البرجندي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) ، وقيل في عام ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م. وبرع في علم الحساب والهيئة (الفلك) والمنطق . ومن مصنفاته « **حاشية على شرح الجغميني** » لقاضي زاده . و « **شرح التذكرة النصيرية** » في علم الهيئة التي صنفها العلامة المحقق نصير الدين الطوسى المتوفي ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م. و « **شرح الفوائد البهائية** » في الحساب شرحا مطولا عظيم النفع[2].

٢٠- ميرم جلبي : محمود بن محمد بن قاضي زاده ، تولى التدريس بعدة مدارس في الأناضول والروميلي . ومن فرط نبوغه في العلوم جعله السلطان بايزيد معلما له ، وكان بارعا في علوم الرياضيات والهيئة ، فصنف في الهيئة « **دستور العمل في تصحيح الجدول** » . وله « **شرح الرسالة الفتحية** » للقوشجى . وله رسالة في **الربع المقنطرات** . ورسالة في **الربع المجيب** صنفها باسم السلطان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح[3].

هؤلاء العلماء الأجلاء المذكورون آنفا ، هم أمثلة للعلماء الذين نبغوا في عهد السلطان محمد الفاتح وابنه السلطان بايزيد ، والذي يعد عهد الطفرة العلمية في الدولة العثمانية ، بفضل العناية البالغة التي أولاها هذا السلطان العالم القائد الفاتح إلى العلماء والبحث العلمي بصفة عامة . ثم جاء حفيده السلطان سليم الأول ، وفتح بلاد العرب ، وأعاد توحيد المسلمين ، وأعاد للخلافة الإسلامية عزتها ومهابتها ، فالتقى علماء العرب مع إخوانهم من علماء الترك

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٥٩٤ ، ٢/ ١٥٢٠) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٤٩٤) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٩١ ، ٢/ ١٢٩٦) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٥٨٦) .

(٣) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٩٨) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٦٧) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون (١/ ٤٧٢) .

والعجم ، فأثروا العلم بإنجازاتهم وأبحاثهم العلمية ، التي لا ينكرها إلا جاهل أو جاحد . لاسيما بعد أن قام السلطان سليمان ابن السلطان سليم بتأسيس المدرسة السليمانية في اصطنبول ، وهي تعد جامعة كبرى ، ضمت معاهد لتدريس مختلف العلوم . **قال إبراهيم أفندي** : توجد بها أربع مدارس عالية ، وأيضا دار الحديث ومدرسة الطب ، وخلاف ذلك توجد بعض عمارات عالية وحمامات متعددة ، ودار الشفاء ودار الضيافة ، وحجرات لا مثيل لها . ولا يمكن تعداد سائر الأبنية الجميلة الموجودة بها ، وكان قد شرع في بنائها سنة ست وخمسين وتسعمائة . وأتم بناءها في سنة أربع وستين وتسعمائة[1] ، بمساع حثيثة ومشقة وعناء . وطبقا لحساب أمين البناء فقد تم صرف ثمانمائة وستة وتسعين ألفا وثلاثمائة وثلاثة وثمانين فلوري (٨٩٦ ٣٨٣ عملة ذهبية)[2]. وتبلغ مساحة السليمانية سبعمائة ألف متر مربع ، وهي تعد مجمعا ضخما للمباني ، إذا ما علمنا أن مساحة دولة الفاتيكان خمسمائة ألف متر مربع ، ومساحة الكرملين (مقر الرئاسة في روسيا) مائة وعشرون ألف متر مربع[3]. كما اهتم السلطان سليمان بسائر الولايات لاسيما مصر ، وقد ضمن **قانون نامه مصر** بندا خاصا للأوقاف (من مساجد ومدارس وكتاتيب وغيره) ، يتم بمقتضاه تعيين ناظر وكاتب لكل وقف ، ليتابعا الإيرادات والمصروفات وللتأكد من أنها موافقة لشروط الواقف ، وكذلك لتعميرها . وقد جاء في **البند الرابع والأربعين** من القانون : « وينبغي أن يكونا (الناظر والكاتب) على علم بجهة الوقف ، هل هي عامرة أم خربة ، فإن كانت خرابا فما هو سبب خرابها . وهل إلى عمارتها من سبيل ممكن وميسر . ويتفقدا الأوقاف التي تحتاج إلى تعمير وترميم ، فإن وجدا في حاصلها وفرا يكفي عملا على ترميمها ، وإن لم يجدا وفرا ضغطا إنفاقها ، فإن أوفت بالحاجة قاما بترميمها ، فما لم يجدا بها وفرا ، ضغطا إنفاقها وقللا جهات الصرف إن لزم الأمر ، وأنقصا مصاريفها إلى الربع أو الثلث أو النصف ، وقاما بأعمال التعمير بالقدر المذكور الذي تيسر . وإذا لم يف ذلك القدر أيضا ، وكان من الضروري إنفاق كل المتحصل ، جعلاه رقبة للتعمير باستثناء

---

(١) ١٥٤٩-١٥٥٦م .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى (ص ٣١٢) .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٤١) .

مصاريف الإمام والمؤذن والخطيب وناظر الوقف وباقي المصاريف الملحة ... وبعد ذلك تقدم حسابات أوقاف السلاطين ، وأوقاف عامة المسلمين في كل عام إلى أمير الأمراء وناظر الأموال ، فإن كانت مقبولة وضعا عليها النشان (الختم) ، واحتفظا بصورة منها وأرسلا الأخرى إلى الأبواب العالية (اصطنبول) »[١].

هكذا أولى السلطان سليمان عناية بالمدارس من خلال الاهتمام بالأوقاف ، لأن المدارس كلها كانت عبارة عن أوقاف من السلاطين السابقين ، أو من الأمراء وأعيان الدولة وأهل الخيرات . لذلك عندما زار **أولياء جلبي** مصر فيى عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م وجد بها مائة وستة وخمسين مدرسة عامرة **فقال** : « وموجز القول أنه لا يزال في مصر ستة وخمسون ومائة جامعا للسلاطين وأبنائهم ، ولكل جامع مدرسة . ولأن هذه مزينة بمنارات يخالها الناس جوامع وهي ليست بجوامع ، وإنما هي مدارس تلقى فيها الدروس »[٢].

وسأقدم فيما يلي بعضا من أسماء العلماء ، من العرب والترك الذين برزوا ونبغوا بعد الفتح العثماني للبلاد العربية ، مع ذكر مصنفاتهم . ولكني سأكثر من ذكر العلماء العرب ، ليرى أساتذة التاريخ أن مصر والشام ، وسائر البلاد العربية تحت الحكم **العثماني** ، قد أخرجن علماء أجلاء ، ولم يكن عصرهم عصر جهل وإهمال للعلوم ، كما زعم المرجفون .

١- شرف الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المغربي المصري (ت٩٤٠هـ/ ١٥٤١م). من علماء الرياضيات وصنف فيها « **جواهر السلك** »[٣].

٢- مصطفي بن علي الموقت ، كان من علماء الهيئة في زمن السلطان سليمان القانوني . ومن مصنفاته « **تحفة الزمان وخريدة الأوان** » ، جمع فيه مسائل الهيئة وعجائب الأقاليم[٤].

٣- خير الدين عمر بن خصر العطوفي (ت٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) ، وكان معلما بالقصر السلطاني ، وبرع في العلوم الشرعية والطبية ، ومن مؤلفاته في الطب « **روض الإنسان في تربية**

---

(١) قانون نامه مصر ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٣١١) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٤٢) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٦٦) .

صحة الأبدان » ، « ذخر العطشان »، « حفظ الأبدان » ، وله أيضا « شرح إساغوجي في المنطق »[1].

٤- يوسف بن محمد بن يوسف المحلي الشافعي ، الطبيب المصري الشهير باليوسفي (ت٩٦٦هـ/ ١٥٥٨) ، يبدو من اسمه أنه منسوب إلى المحلة الكبرى . ومن مؤلفاته في الطب « جامع الفوائد في علاج الأمراض »[2].

٥- محمد بن إبراهيم الحلبي ، الشهير بابن الحنبلي (ت٩٧١هـ/ ١٥٦٣م). جمع بين علوم الشريعة والتاريخ والعلوم الطبيعية ، وله مصنفات كثيرة جدا ، منها في علم الحساب « رفع الحجاب عن قواعد الحساب » ، « وعدة الحاسب وعمدة المحاسب »[3].

٦- غرس الدين أحمد بن إبراهيم الحلبي ، (ت٩٧١هـ/ ١٥٦٣م) ، جمع بين العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية . وقد ذكر طاش كوبري زاده أنه التقى به فقال : « كان المرحوم رأسا في جميع العلوم ، مستجمعا لشروط الفضائل ، وجامعا لعلوم الأوائل والأواخر ، يرغم في الرياضيات أنوف الرؤوس ، ويحاكي في الطب أبقراط وجالينوس . وكان صاحب فنون غريبة وقادرا على أفاعيل عجيبة ، ماهرا في وضع الآلات النجومية والهندسية ، كالربع والإسطرلاب ، وسائر الأسباب » .. ومن مصنفاته « التذكرة في علم الحساب » . و « حاشية على شرح الموجز» لابن النفيس في الطب[4].

٧- محمود بن محمد القوصوني المصري ، كان أبوه رئيس الطب في مصر ، فرحل مع السلطان سليم إلى اصطنبول ، واصطحب معه ابنه محمود ، وعمل طبيبا في القصر السلطاني . فلما توفي أبوه ورث محمود مكانة أبيه . ثم جعله السلطان سليمان رئيس الطب في السلطنة .

---

(١) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٢٤٩) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٦٧١ ، ٨٢٢ ، ٩١٧) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٣٤٦) .

(٢) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٥٤٦) .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٩١٠ ، ٢/ ١١٢٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٣٤٨) .

(٤) أحمد بن مصطفي طاش كوبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٣٥٧ – ٣٦٠) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٩٠) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٤٥) .

وهو الذي تولى غسل السلطان وتكفينه في سكتوار عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م . ثم توفي بعده بعامين ومن مصنفاته « **منظومة في الطب** »[١].

٨- يوسف بن كمال البرسوي ، كان من علماء عهد السلطان سليمان القانوني (ت ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) ، وصنف كتابا جامعا لعلوم الحساب على عشرة فصول وسماه « **جوامع الحساب** »[٢].

٩- علي بن ولي ، كان علماء دولة السلطان مراد بن سليم ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، وله مصنف مطول في الحساب اسمه « **تحفة الأعداد** » ، على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة[٣].

١٠-سيى الدين أحمد بن محمد العلفي الطبيب ، (ت٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م) ، ومن مصنفاته في الطب « **كفاية الأريب عن مشاورة الطبيب** » . وهي رسالة ضامنة لحفظ الصحة قسمها على مقدمة وثلاثة أبواب[٤].

١١-سيدي علي المعروف بكاتب غلطه (ت٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م) وقيل ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م له رسالة مطولة على خمس مقالات في الربع المجيب والإسطرلاب[٥].

١٢-تقي الدين محمد بن محمد الأسدي الدمشقي الراصد (ت٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م). برع في العلوم العقلية ، لاسيما الحساب والهيئة (الفلك). ومن مصنفاته في الحساب : « **بغية الطلاب في علم الحساب** » . ورتبه على ثلاث مقالات الأولى : في الحساب الهندي . والثانية في النجومي والثالثة في استخراج المجهولات والمتفرقات . و له « **شرح التجنيس في علم الحساب** » للساجوندي . ومن مصنفاته في الفلك : « **بهجة الفكر في حل الشمس والقمر** » . « **خريدة الدرر وفريدة الفكر** ».. « **الدر النظيم في حل التقويم** » .. « **سدرة منتهي الأفكار في**

---

(١) عاشق جلبي : ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٩٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٤١٣) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٦١١) .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٦٢) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٤٩٦) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٤٨) .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٦٤٩) .

ملكوت الفلك الدوار » . أما مصنفاته في الهندسة : « **دستور الترجيح لقواعد التسطيح** » . وفي علم البنكامات وهو علم يعرف به كيفية اتخاذ الآلات لمعرفة الوقت بالليل والنهار . وله فيه مصنفان : « **الطرق السنية في الآلات الروحانية** » .. و « **الكواكب الدرية في البنكامات الدورية** » . وبالجملة فهو عالم قلما يوجد له نظير[١].

١٣ - جمال الدين عبد الله بن بهاء الدين الشنشوري المصري (ت٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م) ، كان بالإضافة إلى العلوم الشرعية ، من علماء الحساب وصنف فيه : « **بغية الراغب شرح مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب** » ، التي صنفها علامة الحساب الشهير ابن الهائم المقدسي المتوفي ٨١٥هـ/ ١٤١٢م[٢].

١٤ - ابن أبي الخير المصري : محمد بن عموش الرشيدي (ت١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م). كان من علماء الهيئة والميقات ، وله « **المنهل الساكب في تحرير الكواكب** » ، « **النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في علم الميقات** » ، « **راحة الفؤاد في تيسير الزاد** » وهو شرح كتاب زاد المسافر في معرفة فضل الدوائر لابن المجدي الميقاتي المتوفي ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م[٣].

١٥ - جمال الدين محمد بن محمد الهاشمي المكي . قام عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م ، بتأليف « **الأمل القويم في حل التقويم** ». وهو في علم تقويم الكواكب ، وقسمه على مقدمة ومقالتين وخاتمة[٤].

١٦ - مصطفي بن أحمد الكاليبولوي الملقب بعالي (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) ، له مصنف في الطب ، ألفه للسلطان محمد الثالث عندما كان أميرا على مغنسيا عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م وسماه « **راحة النفوس** » وقسمه على قسمين في كل منهما أربعة فصول[٥].

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٤٩، ٢٥٥،٣٥٣، ٧٥٣ ، ٢/ ٩٨٢) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٧٥) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٦٥٥) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ١٨٧) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين (٢/ ٨٤) ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٩٤٧) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ١٦٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٦١) .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٣٠) .

١٧- داود بن عمر البصير الأنطاكي ، نزيل القاهرة ، الحكيم الطبيب المشهور ، مستودع العلوم الحكمية والعقلية (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) ، رحل من بلاده إلى مصر ، وأقام فيها مدة طويلة ، ثم رحل إلى الحجاز باستدعاء شريف مكة له ، لما سمعه من براعته ونجابته . ومن مؤلفاته « **استقصاء الملل ومشافي الأمراض والعلل** » ، « **ألفية في الطب** » ، « **بغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج** » ، « **بهجة الناظر** » ، « **تذكرة أولى الألباب في الجامع للعجيب العجاب** » ، (تذكرة داود) ، « **الدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة** » ، « **شرح القانون لابن سينا** » ، « **نظم القانونجك في الطب وشرحه** » ، « **طبقات الحكماء** » ، « **غاية المرام في تفاصيل السعادة بعد انحلال النظام** » ، « **الكحل النفيس لجلاء عين الرئيس** » وهو شرح لقصيدة ابن سينا العينية في الطب ، « **كفاية المحتاج في علم العلاج** » ، « **لطائف المنهاج في الطب** » ، « **مجمع المنافع البدنية** » ، « **مختصر القانون لابن سينا** » ، وله مصنفات في المنطق منها «**غاية المرام في تحرير المنطق والكلام** » . وغير ذلك[١].

١٨- محمد بن على بن محمد الشبراملسي المصري (ت١٠٢١هـ/ ١٦١٢م). برع في العلوم العقلية لاسيما الحساب والهندسة والمنطق . ومن مصنفاته «**الإرشاد للعلم بخواص الأعداد**» «**إيضاح المكتتم في حساب الرقم**» ، «**الدرة البهية في وضع بسائط فضل الدائرة بالطرق الهندسية**»[٢].

١٩- عبد القادر بن محمد بن أحمد بن زين الدين الفيومي المصري الشافعي (ت١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م). برع في العلوم الشرعية والعقلية ، وله مصنفات في الفقه والحديث والحساب والهيئة والميقات . ومن مصنفاته « **شرح نزهة الحساب** » ، « **شرح المقنع في الجبر والمقابلة** » ، وكلاهما لابن الهائم المقدسي[٣].

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٥٠ ، ٣٨٦ ، ٢/ ١٥٥٥ ، ١٩٣٩ ، ٩٤٦) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ١٣٧ - ١٤٥) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٣٦٢) .

(٢) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين (٢/ ٨٨) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٤٥٦) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٤٤١ ، ٤٤٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٦٠٠) .

٢٠-عبد الله بن عبد الرحمن الدنوشري المصري (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م) برز في علم الهيئة (الفلك) وصنف فيه « **جوهرة النفس في معرفة التاريخ المستعمل وحل درجة الشمس** »[1].

٢١-محمد بن إبراهيم الطبيب الشهير ببكزاده . كان من أطباء السلطان أحمد الأول (ت١٠٢٩هـ/ ١٦١٩م). ومن مصنفاته في الطب « **حافظ الاعتدال** » ، « **روضة الأصحاء ودوحة الألباء** » ، وقسمة إلى عشرة فصول[2].

٢٢-عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن زين العابدين المناوي المصري (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م) العالم الجامع بين العلوم الشرعية والعقلية . وبالإضافة إلى مصنفاته في الفقه والحديث له مصنفات في الطب منها ، « **بغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج** » ، « **منحة الطالبين في معرفة أسرار الطواعين** » . وله كتاب في التشريح . ومن مصنفاته « **غاية الإرشاد في معرفة الحيوان والنبات والجماد** » . وكتاب في أسماء الحيوان سماه « **قرة عين الإنسان بذكر أسماء الحيوان** » . وله في المنطق « **إعلام الأعلام بأصول فني المنطق والكلام** » . وله كتاب جامع جمع فيه عشرة علوم[3].

٢٣-محمد بن أبي الغيث الكمراني التونسي (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م). كان ممن برعوا في الطب ، وصنف كتابا سماه « **شفاء الأجسام** » ، بسط فيه القول وأكثر من الفوائد وذكر فيه من الأدوية ما لا يوجد عند من سبقه[4].

٢٤- محمد بن محمد بن الحجيج الحموي الطبيب (ت١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) له أكثر من مصنف في الطب منها « **البيان لكشف أسرار الطب للعيان** » ، « **مغنى الطبيب المنتخب من**

---

(١) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٤٧٤) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٨٦) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٩٢٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٧١) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٤٠٠ - ٤٠٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٥١٠) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٠٤٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٧٢) .

التجاريب »[1].

٢٥-محمد بن عمر بن أبي بكر الفارسكوري المصري (ت١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م). قال عنه عبد البر الفيومي : « له اليد الطولي في العلوم العقلية والنقلية ، والراحة البيضاء في تعاطي أنواع الفنون الرياضية ، وبالجملة فهو عالم متضلع وأستاذ قام بالإفادة وهو متربع ، وقد انتفع به كثير من العلماء » .. وهو من تلامذة تقي الدين الراصد المذكور آنفا . ومن مصنفاته : « **نفح الفيوح بشرح ريحانة الروح** » . وهي عبارة عن شرح كتاب أستاذه الراصد : «**ريحانة الروح في رسم الساعات على مستوى السطوح** »[2].

٢٦-عبد الرحمن بن عبد الله الأسكري المصري ، إمام جامع طولون كان قام في عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م بتصنيف كتابه « **تحصيل الانتفاع وغاية الارتفاع في وضع المقاييس ووضع الارباع** »[3].

٢٧-مصطفي بن شمس الدين بن أحمد الدمياطي المصري . كان حيا عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م وقد تضلع في علم الفلك ، ومن مصنفاته فيه « **الدر في الجيب** » . وله في أيضا « **كفاية المبتدئ في الرياضيات** »[4].

٢٨-مدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري ، رئيس الأطباء ، قام في عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م بتصنيف كتابه الجامع « **قاموس الأطباء وناموس الألباء** » في المفردات الطبية[5].

٢٩-محمد الحسيني الطبيب ، الشهير بأمير جلبي ، كان رئيس الأطباء باصطنبول (ت١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م) ، ومن مصنفاته « **نتيجة الطب** » ، وله أيضا « **أنموذج الطب** »

---

(١) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٧٤) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٥١٩) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٩٤٠) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٢١٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٧٩٦) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٣٥) .

(٤) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٤٤٠) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٤٤٧ ، ٢/ ٣٧٣) .

(٥) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٣٠٦) ، محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٣٢٥ ، ٣٢٦) .

وهو كتاب جامع مشتملا على قسمي العلمي والعملي والأمراض والعلاج . ورتبه على مقدمة وستة فصول وخاتمة[1].

٣٠-عيسى بن علي الساقزي (ت١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م) ، كان رئيس الأطباء باصطنبول ومن مصنفاته « **دواء الأمراض** » ، « **نظام الأدوية** »[2].

٣١-علي بن عبد القادر النبتيتي الأزهري المصري (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م) ، أحد المتبحرين في علم الميقات والحساب ، ومن مصنفاته : « **مطالع السعادة الأبدية في وضع الأوفاق والخواص الحرفية والعددية** » ، « **الفتوحات الوهبية في شرح الرسالة الفتحية في الأعمال الجيبية** » لسبط المارديني[3].

٣٢-عبد الرحيم بن أبي بكر بن سليمان المرعشي (ت١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م) ، برع في علم الحساب ، وله من المصنفات « **شرح البهائية في الحساب** » ، « **شرح خلاصة الحساب** »[4].

٣٣-أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي المصري الشافعي (ت١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م) ، أحد رؤساء العلماء قال عنه المحبي : « كان في الطب ماهرا خبيرا ، وكان حسن التقرير ويبالغ في تفهيم الطلبة ، ويكرر لهم تصوير المسائل . والناس في درسه كأن على رؤوسهم الطير » . ومن مصنفاته : « **تذكرة القليوبي في الطب** » ، « **الجامع في الطب** » ، « **الفوائد الطبية الموافقة لطب البرية** » . كما ألف كتابا في علوم شتى سماه « **فوائد لطيفة وفرائد نفيسة مقبولة في العلوم المرغوبة والفنون الجميلة الجليلة** »[5].

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ١٨٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٢٧٨) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٩٥٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٨١١) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٥٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٧٦) .

(٤) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٥٦٣) .

(٥) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٠٤ ، ٢٠٥) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٢٠٩) ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٦١) .

٣٤- علي بن أبي بكر بن علي نور الدين بن أبي بكر ، المعروف بابن الجمال المصري ، (ت١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م) . كان ممن جمعوا العلوم الشرعية والعقلية ، وله مصنفات في الحساب والهندسة . منها «**قرة عين الرائض في فني الحساب والفرائض** » ، « **فتح الوهاب بشرح نزهة الأحباب** » ، « **التحفة الحجازية في الأعمال الحسابية** » ، « **المواهب السنية في علم الجبر والمقابلة** » ، « **شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة** » ، « **تحرير المقال في قول ابن المجدي في الشريك أشكال** »[1].

٣٥-يوسف بن الحسين الطبيب المعروف بالطلعتي (ت بعد عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م) وصنف « **المغنى في الطب** »[2].

٣٦-عبد الله بن أحمد بن يحيى المقدسي الحنبلي (ت بعد عام ١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م) ومن مصنفاته « **تحفة الأحباب في بيان حكم ذوى الأذناب** » ، « **تحفة اللبيب وبغية الأريب في ربع الدائرة والجيب** »[3].

٣٧-صالح بن نصر الله الحلبي الشهير بابن سلوم (ت١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م) ، ولد بحلب وتعلم بها علم الطب حتى برع فيه ، وتولى رئاسة الطب ، فيها ثم رحل إلى اصطنبول . فلما ذاع صيته جعله السلطان رئيس أطباء الدولة . وله مصنفات كثيرة منها «**برء الساعة** » ، « **غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان** »[4].

قدمت فيما سبق سبعة وثلاثين عالما مع ذكر مصنفاتهم ، منذ الفتح العثماني للبلاد العربية عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، وحتى عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م ، أي في مدة مائة وثلاثة وخمسين عاما . منهم سبعة وعشرون عالما من العرب ، ومنهم ثمانية عشر عالما من أبناء مصر ، التي

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ١٢٥) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢/ ١٧٦ ، ٢٢٣ ، ٦٠١).

(٢) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٥٦٧) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٣٧) ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٤٧٩) .

(٤) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٢٣٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٤٢٣) .

زعم بعض أكابر أساتذة التاريخ ، أن الفتح العثماني لها أطفأ نور العلم فيها ، وزعموا أنه كان عصر جهل وتأخر وتخلف . وأود أن أؤكد على أن ذلك ليس حصرا للعلماء وللكتب العلمية التي صنفت في تلك الفترة ، فإن ذلك يحتاج إلى مجلد مستقل . وإنما اقتصرت على بعضهم دون بعض لضيق المقام . وأود أن أؤكد أيضا ، أن البحث العلمي لم يتوقف عند تلك الفترة ، بل ظل نهر العلم جاريا في البلاد . وسأنقل فيما يلي بعض أسماء العلماء الذين ظهروا في الفترة التالية ومصنفاتهم مقتصرا على أبناء مصر ، دون إخوانهم من العرب والترك والعجم ، وذلك لضيق المقام . ولقطع الألسن التي تستعذب الحديث عن انقطاع العلم في مصر ، وانقراض العلماء فيها منذ أن فتحها العثمانيون . وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور .

١- رضوان أفندي ابن عبد الله الفلكي المصري (ت١١٢٢هـ/ ١٧١٠م) وهو أحد أشهر علماء مصر في الفلك والرياضيات والحساب . **قال عنه الجبرتي** : « كتب بخطه ما ينوف عن حمل بعير ، مسودات وجداول حسابيات وغير ذلك . وكان يسكن بولاق منجمعا عن خلطة الناس مقبلا على شأنه . وكان في أيامه حسن أفندي الروزنامجي ، وله رغبة ومحبة في الفن ، فالتمس منه بعض آلات وكرات ، فأحضر الصناع ، وسبك عدة كرات من النحاس الأصفر ، ونقش عليها الكواكب المرصودة ، وصورها ودوائر العروض والميول ، وكتب عليها أسماءها بالعربي ، ثم طلاها بالذهب . وصرف عليها أموالاً كثيرة ، وذلك في سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ومائة وألف » . ومن مصنفات ذلك العالم الجليل « **الزيج الرضواني على أصول الرصد الجديد للسمرقندي** » ، « **أسنى المواهب في تقويم الكواكب** » ، « **الجوهرة اللامعة والنتيجة الجامعة** » ، « **الدر الفريد على الرصد الجديد للسمرقندي** » ، «**دستور أصول علم الميقات ونتيجة النظر في تحرير الأوقات** » ، « **طراز الدرر في رؤية الأهلة والعمل بالقمر** » ، « **كتاب المنحرفات** » ، وهو كتاب نادر في بابه جدا . و « **النتيجة الكبرى والصغرى** »[1].

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٧٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٣٦٩) ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨٢ ، ٣٨٦ ، ٤٤٦ ، ٦٢١ ، ٢/ ٨١) .

٢- جمال الدين يوسف بن عبد الله الكلارجي المصري (ت١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) ، كان من تلامذة رضوان أفندي الفلكي . قال عنه الجبرتي : « توجهت همته للعلوم الرياضية كالهيئة والهندسة والحساب والرسم ، فتقيد بالعلامة الماهر رضوان أفندي ، وأخذ عنه واجتهد وتمهر ، وصار له باع طويل في الحسابيات والرسميات ، وساعده على إدراك مأموله ثروة مخدومه ، فاستنبط واخترع ما لم يسبق به . وألف كتابا حافلا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة ، جمع فيه ما تفرق في غيره ، من أوضاع المتقدمين بالأشكال الرسمية والبراهين الهندسية ، والتزم المثال بعد المقال . وألف كتابا أيضًا في منازل القمر ومحلها وخواصها ، وسماه « **كنز الدرر في أحوال منازل القمر** » وغير ذلك . واجتمع عنده كتب وآلات نفيسة لم تجتمع عند غيره ، ومنها نسخة « **الزيج السمرقندي** » ، بخط العجم وغير ذلك »[1].

٣- رمضان بن صالح بن عمر بن حجازي السفطي الفلكي (ت١١٥٨هـ/ ١٧٤٥م) وهو من تلامذة رضوان أفندي الفلكي. قال عنه الجبرتي : « كان شديد الحرص على تصحيح الأرقام وحل المحلولات الخمسة ودقائقها إلى الخوامس والسوادس ، وكتب منها عدة نسخ بخطه ، وهو شيء يعسر نقله فضلا عن حسابه وتحريره . ومن تصانيفه « **نزهة النفس بتقويم الشمس** » ، وحرر طريقة أخرى على طريق الدر اليتيم يدخل إليها بفاضل الأيام تحت دقائق الخاصة ، ويخرج منها المقوم بغاية التدقيق لمرتبة الثوالث ، في صفحات كبيرة متسعة في قالب الكامل . واختصرها الشيخ الوالد في قالب النصف . ويحتاج إليها في عمل الكسوفات والخسوفات والأعمال الدقيقة يوما يوما . ومن تآليفه : « **كفاية الطالب لعلم الوقت** » ، « **وبغية الراغب في معرفة الدائر وفضله** » ، « **السمت والكلام المعروف في أعمال الكسوف والخسوف** » ، « **الدرجات الوريفة في تحرير قسي العصر الأول وعصر أبي حنيفة** » ، « **بغية الوطر في المباشرة بالقمر** » ، رسالة عظيمة في حركات الأفلاك السيارة وهيآتها وحركاتها وتركيب جداولها ، على التاريخ العربي على أصول الرصد الجديد ، و « **كشف الغياهب عن**

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ١٦٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٣٨٥) .

مشكلات أعمال الكواكب » ، « ومطلع البدور في الضرب والقسمة والجذور » . وحرك ثلثمائة وستة وثلاثين كوكبا من الكواكب الثابتة المرصودة بالرصد الجديد ، بالأطوال والأبعاد ومطالع الممر ودرجاته ، لأول سنة ١١٣٩ ، و« القول المحكم في معرفة كسوف النير الأعظم » ، و « رشف الزلال في معرفة استخراج قوس مكث الهلال بطريقي الحساب والجدول » . وأما كتاباته وحسابياته في أصول الظلال واستخراج السمٰوات والدساتير ، فشيء لا ينحصر ولا يمكن ضبطه لكثرته »[1].

٤- الشيخ محمد الغمري الفلكي ، لم أقف على تاريخ وفاته ، ولكنه كان من شيوخ الشيخ محمد بن شاهين الراشدي (ت ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م)[2] ، ومن شيوخ الشيخ مصطفى الخياط الآتي ذكره . كان الشيخ الغمري ممن برعوا في الفلك والحساب ، ومن مصنفاته « رقائق الأسرار في حساب الدرج والدقائق أعظم أدوار » ، « والقواعد المقنعة في تحويلات المقادير الأربعة » في الحساب فرغ منها سنة ١١٢٤ أربع وعشرين ومائة وألف . وله أيضا « المقتطفات الفكرية على الدائرة التاريخية »[3].

٥- عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن علي الدمشقي المصري ، وهو المعروف بالكتبي (ت١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م) ، كان من علماء الحساب والهيئة (الفلك) ، ومن مصنفاته « المنهج الأقرب لتصحيح موضح العقرب » في الحساب والهيئة ، « حل الأعداد » ، « شرح منظومة الأعداد »[4].

٦- محمد بن أحمد الحسيني المنفلوطي الأزهري الشافعي (ت١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م) ، من مؤلفاته « الدرر البهية في حل الألفاظ السخاوية » في الحساب[5].

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والآثار (١/ ١٦٢) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٥٧٤ ، ٢/ ٢٥٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٤٠٨) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٥٨١ ، ٢/ ٥٤٠) ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٣١١) .

(٤) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٥٩١) ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٦١٨) .

(٥) إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٤٦٤) ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٣٢٧) .

٧- الشيخ حسين المحلى الشافعي (ت ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م) كان ممن جمع بين العلوم الشرعية والعقلية . قال عنه الجبرتي : « كان وحيد دهره وفريد عصره فقهًا وأصولًا ومعقولًا ، جيد الاستحضار والحفظ للفروع الفقهية . وأما في علم الحساب الهوائي والغباري ، والفرائض وشباك ابن الهائم والجبر والمقابلة والمساحة وحل الأعداد ، فكان بحرًا لا تشبهه البحار ولا يدرك له قرار. وله في ذلك عدة تآليف بخطه »[1].

٨- الشيخ إبراهيم بن محمد بن سعيد بن جعفر الإدريسي المنوفي (ت ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م) كان من فحول البيان والفصاحة ، وله شعر نفيس بالإضافة إلى مهارته وبراعته في الطب ومن مصنفاته « رسالة في الطب »[2].

٩- الجبرتي الكبير : هو الشيخ حسن بن برهان الدين إبراهيم بن نور الدين حسن الجبرتي . فريد عصره ووحيد دهره العالم العلامة ، أحد أركان اليقظة العلمية في القرن الثاني عشرالهجري/ الثامن عشر الميلادي ، بل هو ركنها الركين وعمادها المتين (ت ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م) وهو والد المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن حسن الجبرتي . ولد عام ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م ، وانهمك في العلوم الشرعية ، حتى صار له فيها باع ، وظهرت فطنته ونجابته . ولما بلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما ، بدأ في طلب العلوم العقلية ، حتى صار المرجع إليه فيها والمآل . وقد قال عنه ابنه عبد الرحمن الجبرتي : « وفي سنة أربع وأربعين اشتغل بالرياضيات ، فقرأ على الشيخ محمد النجاحي ، رقائق الحقائق للسبط المراديني ، والمجيب والمقنطر ونتيجة اللاذقي والرضوانية والدر لابن المجدي ومنحرفات السبط . وإلى هنا انتهت معرفة الشيخ النجاحي . وعند ذلك انفتح له الباب وانكشف عنه الحجاب . وعرف السمت والارتفاع والتقاسم والأرباع والميل الثاني والأول والأصل الحقيقي والمعدل ، وخالط أرباب المعارف وكل من كان من بحر الفن غارف . وحل الرموز وفتح الكنوز واستخرج نتائج الدر اليتيم والتعديل والتقويم ، وحقق أشكال الوسايط في المنحرفات والبسائط والزيج والمحلولات ، وحركات التداوير والنطاقات والتسهيل والتقريب والحل والتركيب والسهام والظلال ودقائق

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٢١٩) .
(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٧٧) .

الأعمال . وانتهت إليه الرياسة في الصناعة وأذعنت له أهل المعرفة بالطاعة » .... ولما وصل إلى مصر الشيخ حسام الدين الهندي ، أحد أشهر علماء الفلك والرياضيات والهندسة في زمانه ، استضافة الشيخ حسن في داره ، وأقام عنده مدة ليأخذ عنه ما عنده من العلوم . « طالع عليه الجغميني وقاضي زاده والتبصرة والتذكرة وهداية الحكمة لأثير الدين الأبهري ، وما عليها من المواد والشروح مثل السيد والمبدى قراءة بحث وتحقيق . وأشكال التأسيس في الهندسة وتحرير إقليدس والمتوسطات والمبادئ والغايات والأكر وعلم الارثماطيقي وجغرافيا وعلم المساحة وغير ذلك ... وقدم إلى مصر الإمام العلامة الشيخ محمد الغلاني الكشناوي وسكن بدرب الأتراك ، فاجتمع عليه المترجم ، وتلقى عنه علم الأوفاق . وقرأ عليه شرح منظومة الجزنائية للقوصوني ، والدر والترياق والمرجانية ، في خصوص المخمس الخالي الوسط والأصول والضوابط والوفق المثيني وعلم التكسير للحروف وغير ذلك ».

ثم إن الشيخ حسن الجبرتي جعل من داره جامعة ، إذ كان يفد عليه طلاب العلم فيكرمهم ويضيفهم عنده لسنوات . قال ابنه عبد الرحمن : « وشاع ذكره في الآفاق ، ووفدت عليه الطلاب البلدانية ، والواردون من النواحي الآفاقية ... وإذا أتاه طالب فرح به ، وأقبل عليه ورغبه وأكرمه ، وخصوصاً إذا كان غريبا ، وربما دعاه للمجاورة عنده ، وصار من جملة عياله . ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونياما ، لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه ، حتى غسل ثيابه من غير ملل ولا ضجر . وأنجب عليه كثير من علماء وقته المحققين ، طبقة بعد طبقة . مثل الشيخ أحمد الراشدي ، والشيخ إبراهيم الحلبي ، والشيخ مصطفي أبي الإتقان الخياط ، والسيد قاسم التونسي ، والشيخ العلامة أحمد العروسي ، والشيخ إبراهيم الصيحاني المغربي ، والطبقة الأخيرة التي أدركناها مثل الشيخ أبي الحسن القلعي ، والشيخ عبد الرحمن البناني » .

وقال عنه ابنه عبد الرحمن أيضا : « وأما الملازمون له ، فهم الشيخ محمد بن إسماعيل النفراوي ، والشيخ محمد الصبان ، والشيخ محمد عرفة الدسوقي ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الشافعي الجناجي المالكي ، والشيخ مصطفي الريس البولاقي ، والشيخ محمد الشوبري ، والشيخ عبد الرحمن العريشي ، والشيخ محمد الفرماوي . وهؤلاء كانوا المختصين به الملازمين عنده ليلا ونهارا ... وممن تلقى عنه من أشياخ العصر ، العلامة الشيخ محمد

المصيلحي ، والعلامة الشيخ حسن الجداوي ، والشيخ محمد المسودي ، والشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ محمد الهلباوي ، والشيخ أحمد السجاعي لازمه كثيرا وأخذ عنه في الهيئة والفلكيات والهداية ، وألف في ذلك متونا وشروحا وحواشي . وأما من تلقى عنه من الآفاقيين ، وأهالي بلاد الروم والشام وداغستان والمغاربة والحجازيين فلا يحصون . وأجل الحجازيين الشيخ إبراهيم الزمزمي ... ويجتمع به كل متقن وعارف في صناعته ، مثل حسن أفندي الساعاتي وكان ساكنا عنده ، وعابدين أفندي الساعاتي ، وعلى أفندي رضوان ، وكان من أرباب المعارف في كل شيء ، ومحمد أفندي الإسكندراني ، والشيخ محمد الأقفالي ، وإبراهيم السكاكيني والشيخ محمد الزبداني ، وكان فريدًا في صناعة التراكيب والتقاطير ، واستخراج المياه والأدهان ، وغير هؤلاء ممن رأيت ومن لم أر » .

لم يكن الشيخ حسن الجبرتي ركن اليقظة العلمية في بلاد المسلمين فحسب ، بل في أوروبا أيضا. قال عبد الرحمن الجبرتي : « وحضر إليه طلاب من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك سنة تسع وخمسين ، وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة ، مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك »[1].

---

(١) طلاب الإفرنج هؤلاء ، لاريب أنهم كانوا من الفرنسيين أو الإنجليز ، لأن سائر الأوروبيين من ألمان وروس كانوا في حروب مع الدولة في تلك الفترة . فلقد جاء هؤلاء الطلاب قبل الحملة الفرنسية على مصر ، بنحو خمسين عاما ، في عصر كانت قد بدأت فيه اليقظة العلمية الأوروبية تسير بخطى سريعة . وذلك ليتعلموا من الجبرتي الكبير في وقت كانت اليقظة العلمية الإسلامية ، قد بدأت تزدهر إزدهارا كبيرا ، إذ لم يقنع علماء المسلمين آنذاك بمجرد البحث العلمي اليسير ، بل أرادوا إحداث طفرة علمية بحق ، كتلك التي أحدثها آباؤهم المسلمون في الفترة من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري .. جاء طلاب الإفرنج في تلك الفترة الحرجة ، ليتعلموا من الجبرتي وربما من غيره ، لأن يقظتهم العلمية كانت تقوم أساسا على تطوير العلم الذي كان قد أبدعه المسلمون من قبل ، فكانوا بحاجة إلى قراءة كتبهم وفهمها ، كما كانوا بحاجة إلى من يحل لهم ألغازها ويفك رموزها ، لينقلوا ما تعلموه منها إلى بلادهم ، وليطالعوا تطورات اليقظة العلمية في بلاد المسلمين . وقبيل انتهاء القرن الثامن عشر الميلادي ، فطن الفرنسيون إلى أن اليقظة العلمية في بلاد المسلمين ، إن لم يكبح جماحها وتعرقل مسيرتها ، حتما ستلحق بالأوروبيين ، بل ستسبقهم وتتفوق عليهم ، لأن الفرق بيننا وبينهم آنذاك ، لم يكن كبيرا بل كان بسيطا جدا ويستدرك بالهمة والمثابرة . وأيضا لأن علماء المسلمين بلا ريب ، سيكونون أكثر فهما لكتب آبائهم التي كتبت بلغتهم ، وبوحي من ثقافتهم . فهم أقدر من علماء أوروبا على تطوير ما حوته من علوم . إذ أن علماء أوروبا =

ومؤلفات الشيخ حسن الجبرتي كثيرة جدا ، منها : « **رفع الإشكال بظهور العشر في العشر في غالب الأشكال** » ، و« **النسمات الفيحية على الرسالة الفتحية** » ، و« **العجالة على أعدل آلة** » ، و« **حقائق الدقائق على دقائق الحقائق** » ، و« **أخصر المختصرات على ربع المقنطرات** » ، و « **الثمرات المجنية من أبواب الفتحية** » ، و« **المفصحة فيما يتعلق بالأسطحة** » ، و« **الدر الثمين في علم الموازين** » ، و« **حاشية على شرح قاضي زادة على الجغميني** » لم تكمل ، وأمثله وبراهين هندسية شتى . وما له من الرسومات المخترعة والآلات النافعة المبتدعة ، ومنها الآلة المربعة لمعرفة الجهات والسمت والانحرافات بأسهل مأخذ وأقرب طريق . والدائرة التاريخية وبركار الدرجة[1].

١٠-الشيخ أحمد بن محمد بن عبد السلام الشرفي المغربي المصري (ت ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م)

كان أبوه شيخ رواق المغاربة بالأزهر . وكان الشيخ أحمد له معرفة بعلم الميقات والفلك ، وكان من شيوخ الشيخ العلامة أحمد الدمنهوري الآتي ذكره . ومن مصنفاته « **الدرر الفاخرات في العمل بربع المقنطرات في جميع الأقطار والجهات** »[2].

١١-الشيخ أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري (ت ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م)

= وجدوا أنفسهم بحاجة إلى مطالعة كتب بلغة أجنبية عنهم ، وحتى وإن كانوا قد تعلموها فمن الصعب عليهم أن يحيطوا علما بكل ما فيها من ألفاظ وتراكيب لغوية ليست مألوفة لديهم ، فهداهم تفكيرهم إلى ضرورة غزو مصر والشام وذلك للسببين المذكورين : كبح جماح اليقظة العلمية الإسلامية ، والاستعانة بعلماء المسلمين لحل رموز الكتب العربية . وهذا يفسر اصطحاب بونابرت معه مجمعا علميا إلى مصر . وإن كان بونابرت قد نكل بعلماء مصر قتلا وحبسا ونفيا ، إلا أن قصر مدة الحملة في مصر لم يمكنه من القضاء على اليقظة العلمية فيها ، فندب لذلك رجلا هماما قويا ماكرا ، ليكمل المهمة وهو محمد علي باشا ، الذي قضى على اليقظة العلمية في مصر ، وأدخلنا في مسيرة الاتباع لأوروبا ، وهي نفق مظلم لم نخرج منه حتى الآن . وقد رضي علماؤنا أن يكونوا متسولين على موائد العلم الأوروبية ، يرضون بالفتات التي يلقيها لهم أسيادهم . فأخذت الهوة تتسع بيننا وبينهم حتى وصل حالنا اليوم إلى ما تعلمون . وإنا لله وإنا إليه راجعون . والأمر يحتاج إلى مزيد تفصيل لتتضح الصورة ، ولكن المقام لا يتسع للبسط أكثر من ذلك . فلعله يكون موضوع بحث آخر إن شاء الله .

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٨٥ – ٣٩٨) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٣٠٠) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٤١١) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٧٨) .

كان ممن جمع بين العلوم الشرعية والعقلية . وكان قرين الشيخ حسن الجبرتي وصنوه ، وقد ظهر نبوغة وحذقه ، فأجازه علماء المذاهب الأربعة . وترقى في درجات العلوم حتى أصبح شيخا للأزهر ، وكان له باع طويل في العلوم الرياضية والحسابية والهندسة ، بل والطب أيضا . قال الجبرتي : « أخذ عن الزعتري الميقات والحساب والمجيب والمقنطرات والمنحرفات وبعض اللمعة ، وعلى السحيمي منظومة الوفق المخمس وروضة العلوم ، وعلى الشيخ سلامة الفيومي أشكال التأسيس والجغميني ، وعلى عبد الفتاح الدمياطي لقط الجواهر ورسالة قسطا بن لوقا في عمل الكرة ، ورسالة ابن المشاط في الاسطرلاب ، ودرر ابن المجدي » ... كما أخذ عن علامة الهندسة والفلك الشيخ حسام الدين الهندي . أما مؤلفاته فأكثر من أن تحصر . منها فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية : « **إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد** » ، « **الدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية** » ، « **عين الحياة في استنباط المياه** » ، « **الأنوار الساطعات على أشرف المربعات** » وهو الوفق المثيني ، « **القول الصريح في علم التشريح** » ، « **القول الأقرب في علاج لسع العقرب** »[1].

١٢-الشيخ محمد بن حسن بن محمد بن أحمد السمنودي الأزهري (ت١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م). بعد أن نال حظا وافرا من العلوم الشرعية ، حصل قدرا من العلوم الطبيعية ، كالفلك والزيارجا والأوفاق . قال الجبرتي : « ويتنافس الملوك والأمراء للأخذ منه ، وأحدث فيه طرقا غريبة غير ما ذكره أهل الفن ». ومن مصنفاته «**رسالة في مساحة القلتين** » ، « **شرح الدرة. شرح المنظومة في علم الفلك** »[2].

١٣-الشيخ محمد بن موسى الجناجي الشافعي (ت١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م) كان من تلامذة الشيخ حسين المحلى . قال عنه الجبرتي : « وأخذ علم الصرف عن بعض علماء الأروام ، وعلم الحساب والجبر والمقابلة وشباك بن الهائم ، عن الشيخ حسين المحلاوي . واشتهر فضله في ذلك ، وألف فيها رسائل وله في تحويل النقود بعضها إلى بعض رسالة نفيسة ، تدل على براعته

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٢٥ – ٢٧) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٩٤) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (٢/ ٣٤٤) .

وغوصه في علم الحساب ، وكان له دقائق وجودة استحضار في استخراج المجهولات وأعمال الكسورات والقسمة والجذورات ، وغير ذلك من قسمة المواريث والمناسخات والأعداد الصم والحل ، والموازين ما انفرد به نظائره . وكتب على نسخة الخرشي التي في حوزته حواشي وهوامش ، مما تلقاه ولخصه من التقارير التي سمعها من أفواه أشياخه ، ما لو جرد لكان حاشية ضخمة في غاية الدقة ، وكذلك باقي كتبه . وله عدة رسائل في فنون شتى »[1].

١٤- الشيخ مصطفي الخياط الحيسوبي الفلكي (ت١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م) ، أدرك رضوان أفندي الفلكي وتتلمذ على تلاميذه ، لاسيما الشيخ حسن الجبرتي ، والد الشيخ عبد الرحمن المؤرخ . قال عنه الجبرتي : « وأقر له أشياخه ومعاصروه بالإتقان والمعرفة ، وانفرد بعد أشياخه . ووفد عليه طلاب الفن وتلقوا عنه وأنجبوا ... وكان يستخرج في كل عام دستور السنة من مقومات السيارة ، ومواقع التواريخ وتواقيع القبط والمواسم والأهلة ، ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة ، وينقل منها نسخاً كثيرة يتناولها الخاص والعام ، يعلمون منها الأهلة ، وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية والتواقيع والمواسم وتحاويل البروج وغير ذلك ، والتمس منه الأستاذ سيدي أبو الإمداد أحمد بن وفا تحريك الكواكب الثابتة لغاية سنة ثمانين ومائة وألف ، فأجابه إلى ذلك ، واشتغل به أشهرا حتى أتم حساب أطوالها وعروضها وجهاتها ودرجات ممرها ومطالع غروبها وشروقها وتوسطها وأبعادها ومواضعها ، بأفق عرض مصر بغاية التحقيق والتدقيق ، على أصول الرصد الجديد السمرقندي »[2].

١٥- مصطفي أفندي ابن سليمان أفندي ابن عبد الرحمن (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) ، كان من تلامذة الشيخ حسن الجبرتي . قال عنه عبد الرحمن الجبرتي : « عانى الجزئيات والرياضيات ، ولازم الشيخ المرحوم الوالد وقرأ عليه كثيرا من الحسابيات والفلكيات والهيئة والتقويم ، ومهر في ذلك وانتظم في عداد أرباب المعارف ، واشترى كتبا كثيرة في الفن واستكتب وكتب بخطه الحسن ، واقتنى الآلات والمستظرفات ، وحسب وقوم الدساتير السنوية ، عشرة أعـوام مستقبلة بأهلتها وتواريخها وتواقيعها ، ورسم كثيرا من الآلات الغريبـة

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٢٥) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٨١) .

والمنحرفات ، وكان شغله وحسابه في غاية الضبط والصحة والحسن » .

١٦- رضوان الطويل وهو من مماليك علي كتخدا الطويل (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) ، لازم الشيخ عثمان الورداني ، وأخذ عنه علم الفلك والرياضيات . قال عنه الجبرتي : « وكان من هذا القبيل متولعا من صغره بهذا الفن ، وقرأ على الشيخ المتقن الشيخ عثمان الورداني وغيره . وأنجب وحسب ورسم واشتغل فكره بذلك ليلا نهارا ، ورسم الأرباع الصحيحة المتقنة الكبيرة والصغيرة والمزاول والمنحرفات ، وغير ذلك من الآلات المبتكرة والرسميات الدقيقة ، واتسع باعه في ذلك ، واشتهر ذكره إلى أن قطفت يد الأجل نواره ، وأطفأت رياح المنية أنواره »[1].

١٧-الشيخ عثمان بن سالم الورداني ، كان حيا عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م ، كان من تلامذة الشيخ مصطفي الخياط المذكور آنفا ، فأخذ عنه العلوم ، ومن مصنفاته « **السلك القويم في معرفة التقويم من الدر اليتيم** »[2].

لم يعد هناك مجال لأحد ، لأن يقول أن مصر وسائر البلاد العربية ، قد انقطع فيها العلم وتفشى الجهل واندثر العلماء بسبب الحكم العثماني . وعلى هؤلاء الأساتذة الذين التقطوا هذه الفكرة السقيمة ، إن كانوا حقا من طلاب العلم ، أن يراجعوا أقوالهم في تلك المسألة ، وأن يلوموا أنفسهم على تقصيرهم في البحث ، وإعراضهم عن استخلاص المعلومات بأنفسهم من بطون المصادر التاريخية ، والاكتفاء بالنقل عن المستشرقين وأذنابهم ، دون عقل يفكر أو قلب يذكر .

البيمارستان المنصوري

لم يكن البيمارستان المنصوري ، وهو المستشفي التي أنشأها بالقاهرة السلطان المنصور قلاوون المملوكي (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) مجرد مستشفي ، بل كان به مدرسة للطب ، وتسمى « **فاروق خانه** » . وبالجملة فإن البيمارستان المنصوري ، يعد أحد صروح العلم في مصر . وقد أوقف عليه السلطان قلاوون ، ومن تلاه من السلاطين والأمراء وأهل الخيرات ،

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٢٢٤ ، ٢٢٥) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ١٨١) ، إسماعيل باشا البغدادي : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ٢٣) .

الأوقاف الكثيرة . ولم يفقد البيمارستان مكانته في العصر العثماني ، فقد وصفه لنا أولياء جلبي الذي زار مصر عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ، أي بعد ما يقرب من مائة وخمسين عاما من الفتح العثماني لمصر فقال : « بوسط حرمه العظيم الذي تبلغ مساحته مائة وخمسين خطوة طولا وعرضا ، والمفروش برخام مجلو ، حوض عظيم يتفجر الماء من فواراته ، طول قامة رجلين ، وبجانب الحوض مصلى ، وعلى الحوض قبة منقوشة السقف يحملها اثنا عشر عمودا رشيقا . وبكل جانب من جوانب الحرم ، قاعة عظيمة تتسع لألف رجل ، بجانبيها أروقة ذات سقوق منقوشه معقودة بالجير . والقاعات مفروشة برخام مختلف الألوان يمثل نقش الأرتنك . وبنهاية كل قاعة سبيل ، ارتفاعه طول قامة رجلين طويلي القامة ، ويجري منه الماء كالسيل إلى تلك الأروقة ، ثم يصب في الحوض الكبير الذي يتوسط الحرم . وقد بنيت القاعات الأربع كلها على هذا النظام ، وينام المرضى على ألحفة حريرية فوق تلك الأروقة ، وإذا ما قارب بعض المرضى الإفاقة ، سمح لهم بالاستحمام على حافة تلك المياه الجارية ، وحولهم الممرضون يخدمونهم كأنهم فراش حول الشمع ... وفي مكان صرف الطعام للمرضى من العمارة اثنا عشر طبيبا مع تلاميذهم ، يحضرون لكل مريض ما يوافق طبعه من الدواء والطعام . وللحكماء أتباع من الممرضين ، لهم جرأة وطبع الجلادين ، يطعمون بعض الإخوان الفاقدي العقل ، خشافا من عصا الشوم فيعقلون (يرتد إليهم عقلهم) . وإذا قدم إلى مستشفي قلاوون مريض مضى عليه ثلاثة أعوام ، أفاق في أربعين يوما بإذن الله ، وانقلب لون وجهه الشاحب ورديا ، لأن فيه حكماء كبقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث والتوحيدي وأبى على بن سينا ، كل منهم حكيم كالمسيح يحيي الموتى »[1].

لقد أطنب أولياء جلبي في وصف البيمارستان المنصوري ، ومن به من الأطباء الحذاق المهرة ، كما وصف كيفية صناعة الأدوية المختلفة في « الفاروق خانه » ، وكيفية استخراجها من أجساد الأفاعي ، ومعالجتها بطرق مختلفة لإنتاج عقاقير متنوعة تصلح لعلاج مختلف الأمراض . وأشهر تلك العقاقير « ترياق الفاروق » قال عنه : « ليكن معلوما للرحالين العلماء ، أن مادام على ظهر الأرض حكماء ، فهم يضنعون ترياق الفاروق في كل البلدان ،

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩) .

ولكن لا يمكن أن يكون ترياقهم كترياق الفاروق المصنوع بمصر ، فإن قرص الفاروق خاص بمصر وحدها » ... **وقال أيضا** : « لقد ألف الحكماء ضروبا من الترياق ، بيد أن أهمها هو الترياق الأكبر (الفاروق) ، الذي يستعمل دواء لستة وسبعين ومائة علة ، ويتألف هذا الترياق من ست وستين عقارا »... **وقال أيضا** : « وهكذا يصدر الترياق من مصر إلى بلاد الترك والعرب والعجم والإفرنج وسائر البلاد ، ويصنع دائما مرة في كل عام ، ولكنه صنع ثلاث مرات في عام ، كان الفقير (يعني نفسه) في مصر ، وذلك لأن كبير أطباء المستشفي كان من كمل الأساتذة »... ويتم صناعة أنواع أخرى من الترياق مثل : ترياق الطين المختوم ، ترياق أبانوش ، ترياق هرمس الكبير ، ترياق الأمير ، ترياق هليوش . كما يصنع أيضا من سموم الأفاعي دهنا يصـدر إلى الهند لعلاج أمراض الجذام والبهاق والبرص»[1].

هكذا ترى أن الرحالة **أولياء جلبي** قد انبهر أيما انبهار ، بما رآه داخل البيمارستان المنصوري من روعة البناء وحسن العناية بالمرضى ومهارة الأطباء ، ناهيك عن صناعة العقاقير العجيبة ، التي يصدر منها إلى جميع أنحاء العالم . وتعتبر شهادة أولياء على جانب كبير من الأهمية ، لأنه رحالة كبير ظل أربعين عاما يجوب البلاد ، حتى حط رحاله في مصر . فانبهار رجل مثله ليس بالأمر الهين . ومع ذلك ترى أن كثيرا من أساتذة التاريخ ذكر أن الطب في مصر في العصر العثماني ، شأنه شأن سائر العلوم كان في انحطاط وتأخر وتخلف وجمود ، ولقد نقلت طرفا من كلامهم فيما تقدم . وسأتعرض هنا لما قاله الأستاذ الكبير والمؤرخ العظيم ! **عبد الرحمن الرافعي**. ود. **صلاح هريدي** في هذا الشأن . فأما الرافعي فقد قال : « وفتكت بهم (أهل مصر) الأمراض والأوبئة التي كانت تتحيف بالبلاد ، وتجتاح مئات الآلاف من الناس وتأخذهم أخذا وبيلا . وكل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها ، وليس في البلاد طب ولا أطباء ، والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلاقين »[2].

أما د.صلاح هريدي فقد قال : « وكانت مهنة الطب والجراحة في أيدي الحلاقين والمشايخ الذين تخصصوا في إعطاء العلاج لبعض الأمراض ، عن طريق عمل الأحجبة والتمائم ضد

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٣٤٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٥٥) .

الأمراض ، ولم يكن شائعا أن نجد قاضيا أو عالما على رأس رابطة الطب ، أو رجال الدين يمارسون الطب . وكان الطب في تلك الآونة يعتبر تجارة أكثر منه علما من وجهة النظر الأكاديمية ، ولم يلق الاهتمام الكافي . وكان اليهود أكثر إقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين ، وأيضا بعض الأقباط ولاسيما الرهبان »[1].

قلت : لست في حاجة لأن أقول أن هذا الكلام ليس إلا أوهاما وله أساس من الصحة ولا يعتد به ، ولا يصمد أمام الوصف الذي نقلناه عن **أولياء جلبي** آنفا . ومن المؤسف أن نقول أن د.**صلاح** نقل هذا الكلام عن د.**جمال الدين الشيال** وعن المؤرخ الإنجليزي ستانلي لينبول . فأما الإنجليزي فهو أوروبي حاقد وأما المصري في ناسخ قائف . ومن الأرجح أن د.الشيال هذا ، وهو علم من أعلام التاريخ في مصر للأسف الشديد ، قد نقل ذلك الكلام بدوره عن ستانلي لينبول . والله إنه لعار على أي أستاذ جامعي ، يعتبر نفسه أستاذا جامعيا حقا ، أن ينقل عن أوروبي دون أن يرجع إلى المصادر الإسلامية ، فالمسلمون أعرف بتاريخ بلدانهم ، وهم أدرى بما في بيوتهم . وقديما قالوا « **أهل مكة أدرى بشعابها** ». ولكن للأسف الشديد ، فإن كثيرا من الأساتذة الجامعيين قد فقدوا الثقة في أنفسهم ، وفي آبائهم وأجدادهم من المؤرخين المسلمين الأقدمين ، ثم قدسوا الأساتذة الأوروبيين ، فلم يردوا لهم قولا ، ولم يخالفوا لهم رأيا ، وكأنهم يأتيهم الوحي من السماء أو ينزل عليهم الروح القدس .! نعوذ بالله من الخذلان ونسأل الله ثبات الجنان .

والعجيب أن د.**صلاح هريدي** ذكر في الصفحة التالية كلاما يناقض كلامه المذكور آنفا . فقد نقل عن **أولياء جلبي** وصف البيمارستان المنصوري ، وذكر مدرسة الطب والأطباء المهرة ... الخ ، وهذا تناقض يحتاج إلى تفسير. وكثير ما هي التناقضات التي تجدها في كتب أساتذة التاريخ . كما أن د.صلاح تحدث عن انحطاط علم الصيدلة فقال : « وقد انحطت علوم الصيدلة وخاصة بالنسبة للعقاقير المستخدمة في هذا العصر كان ينقصها التكوين الطبي »[2].

والعجيب أيضا أن د.صلاح نقل بعد ذلك عن أولياء جلبي ، صناعة ترياق الفاروق

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ١٧٦) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ١٧٨) .

المذكور آنفا ، وهذا تناقض أيضا يحتاج إلى تفسير . ثم كيف يمكن أن يتحدث أحد عن انحطاط علم الصيدلة في مصر ، في الوقت الذي كانت شتى أنواع الترياق الذي تنتجه ، يصدر إلى مختلف أنحاء العالم .؟! بل والأعجب من ذلك ، أن د.صلاح عندما ذكر الأطباء ذكر منهم مدين القوصوني وعبد الرؤوف المناوي فقط . فنرد عليه وعلى د.جمال الدين الشيال وعلى عبد الرحمن الرافعي ، الذين زعموا أنه لم يكن في مصر من علماء الطب ، وأن الطب كان بيد الحلاقين والدجالين . فنقول لهم أن من أطباء مصر في العصر العثماني :

١- يوسف بن اليوسفي (ت٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م)[١].

٢- داود الضرير الطبيب (ت٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) « حكيم القاهرة وكان يحكى عنه عجائب في تشخيص العلة وعلاجاتها »[٢].

٣- عبد الرحمن بن محمد الحميدي المصري (ت١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م) قال عنه الخفاجي : « وله في الطب يد مسيحية ، تحيي ميت الأمراض ، وتبدل جواهر الجواهر بالأعراض »[٣].

٤- داود الأنطاكي (ت١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م)

٥- عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م)

٦- أحمد بن سراج الدين بن الصائغ المصري (ت١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م) رئيس الطب ، قال عنه المحبي : « الشيخ الرئيس الطبيب الفاضل .... مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورياسة الأطباء » ، ثم إنه علم ابنته الطب ، فلما توفي تولت رئاسة الطب بعده[٤].

٧- مدين القوصوني رئيس الأطباء بمصر (ت١٠٤٤ع/ ١٦٣٤م)

٨- محمد بن أحمد الحتاتي المصري (ت١٠٥١هـ/ ١٦٤١م) ، قال عنه المحبي : « له في الطب باع طويل » . وقال عنه الخفاجي : « وله في الطب يد كثيرة الأيادي ، وطبع مفيد العناصر والمبادئ ، وبدائع مجربات شهدت لها الأسباب والعلامات »[٥].

---

(١) سبق التعريف به من ضمن العلماء الذين ذكرتهم . وكل من سبق التعريف به سأكتفي بذكر اسمه وتاريخ وفاته ومن شاء التذكرة فليرجع إلى ما تقدم ، مع العلم أنهم مرتبون وفقا لسنة الوفاة .

(٢) نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ١٣٤) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر بأعيان القرن الحادي عشر (٢/ ٣٦٥) .

(٤) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر بأعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٣٤) .

(٥) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر بأعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٣٥٢) .

٩- أحمد القليوبي (ت١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨)

١٠-إبراهيم المنوفي (ت١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م)

١١-أحمد الدمنهوري (ت١١٩٢هـ/ ١٧٨١م)

١٢-قاسم بن محمد التونسي (ت١١٩٣هـ/ ١٧٨١م) قال عنه الجبرتي : « وله يد طولى في العلوم الخارجة ، مثل الطب والحرف ، وكان معه وظيفة تدريس الطب بالبيمارستان المنصوري »[1].

فنقول لـ د.صلاح هريدي ، ولـ د.جمال الدين الشيال ، ولعبد الرحمن الرافعي ، هل كل هؤلاء الأطباء الذين تقدم ذكرهم من الحلاقين والدجالين .؟!. حسبنا الله ونعم الوكيل .

ومما يستحق العجب أيضا ، أن د.صلاح هريدي وغيره حملوا الحكم العثماني المسؤلية عن الطاعون ، فقد قال : « وقد شهدت مصر انتشار الطاعون ، إبان ولاية مسيح باشا (٩٨٣-٩٨٨هـ/ ١٥٧٥ – ١٥٨٠م) ، فلم يتخذ أيه إجراءات لمواجهة هذا المرض ... وانتشر الطاعون مرة أخرى ، في فترة علي باشا السلحدار ، الذي حكم في الفترة ما بين (١٠١٠- ١٠١٣هـ/ ١٦٠١-١٦٠٣م) ، وقد أودى هذا المرض بحياة الكثير من السكان بسبب سوء الأحوال الصحية ، لأن العثمانيين لم يهتموا مطلقا بصحة المواطنين ، إذ كان جل اهتمامهم النواحي العسكرية »[2].

وقال د.عبد الرحيم عبد الرحمن : « اعتبرت الدولة العثمانية الاهتمام بالصحة العامة للشعب أمرا خارجا عن اختصاصها ، ونتيجة لذلك ، كثيرا ما كانت الأوبئة الفتاكة تهاجم الشعب وتهلك الكثير من أفراده »[3].

قلت : أما بشأن ولاية مسيح باشا ، فلم يقع فيها طاعون ابتداء ، فلست أدري من أين جاء د.صلاح بهذا الكلام ، فإن المصادر المعاصرة لمسيح باشا ، لم تذكر ذلك . فلا ذكره البكري ولا الإسحاقي ، ولا حتى المؤرخين الذين جاءوا من بعدهما ، كالملواني ، وأحمد

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٢/ ٥٤) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٢٤٣ ، ٢٤٤) .

(٣) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : مقدمة تحقيق « أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » لأحمد جلبي بن عبد الغنى (ص١٢) .

جلبي بن عبد الغني ، والصفوي القلعاوي كل هؤلاء لم يذكروا شيئا عن أي طاعون وقع في عهد مسيح باشا . ولكن على أية حال ما وجه اللوم الذي رمى به د.صلاح هريدي الولاة العثمانيين بشأن الطاعون ؟! ما كان عساهم أن يفعلوا ؟! فلم يكن له علاج آنذاك ، ولم تكن هناك طرق معروفة للوقاية سوى الطرق التقليدية ، الحفاظ على نظافة الطرقات وتطهيرها باستمرار . وقد نص على ذلك قانون نامه مصر في المادة الثالثة والأربعين : « وليأمر أمير الأمراء المنادين ، الطواف في أزقة المدينة ينادون بكنسها ورشها كما جرت العادة قديما ، لكي تكون نظيفة وطاهرة . ومن لم يقم بتنظيف مكان عهدته ويتركه ملوثا ، يعاقب أشد العقاب ، لكي لا يترك مكان غير نظيف في الأزقة والأسواق »[1].

وقد ذكر أولياء جلبي أن القمامة في مصر ، كانت تجمع من الطرقات والأسواق ، ويعاد استخدامها كوقود للحمامات ، وأن الزبالين ينظفون الشوارع فلا يتركون فيها ذرة . وقال أيضا : « الكناسون عددهم (...)[2] يكنسون شوارع القاهرة وحاراتها وأزقتها فيطهرونها من التبن والفضلات ، ثم يحملونها إلى المستوقدات والشيشخانات[3] ، وتنانير الجير وأفران الفخار »[4].

إن الإدارة في العصر العثماني ، أحسنت استغلال القمامة على نحو لا نحسنه نحن الآن في القرن الحادي والعشرين . وكانت شوارع القاهرة في غاية النظافة ، وبرغم من تدهور الإدارة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، إلا أن شوارع القاهرة كانت أنظف من شوارع أوروبا ، كما شهد بذلك الرحالة الإنجليزي جون أنتيس إذ قال : « إن شوارع مدينة القاهرة الكبرى ، عامة ليست شديدة القذارة ، كما هي الحال في أغلب شوارع مدننا ، وبالتالي فلا توجد (في القاهرة) قمامة من أي نوع لا أعشاب ألخ ، أما جيف الحيوانات مهما كان حجمها ، فإنها تحمل إلى خارج المدينة »[5].

---

(١) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٨٤) .

(٢) بياض بالأصل .

(٣) مصانع الزجاج .

(٤) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٣٤٣ ، ٤٨٦) .

(٥) جون أنتيس : مذكرات عن المصريين . ترجمة د.سيد أحمد على الناصري (ص ٦٣) .

ولكن على أية حال نسأل د.صلاح هريدي ، ماذا كان على الولاة العثمانيين أن يفعلوا أكثر من ذلك ؟! بأي وسيلة عساهم كانوا يواجهون الطاعون ؟! فلم تكن أي بلد في العالم آنذاك تستطيع مواجهته ، فلماذا هذا الحمل على الحكم العثماني بغير سبب ؟! فمن أراد أن يصف الإدارة العثمانية بإهمال النواحي الصحية في مصر ، فعليه أن يثبت أن تدابير صحية معينة كانت تتخذ لمواجهة الطاعون في عاصمة الدولة اصطنبول ، أو في سائر المدن الكبرى في الدولة ، ولم يكن يتخذ مثلها في مصر . أما الكلام المرسل المجرد عن الأدلة العلمية فلا يعتد به .

والحقيقة أن الدولة العثمانية لا يمكن أن تهمل العلم في أي ولاية من ولاياتها ، لأنها دولة مؤسسة على العلم ، وتقدر العلماء ، ولم يكن ذلك العلم مسطورا في الكتب فحسب ، بل خرج إلى حيز الواقع . ومن أمثلة ذلك ما يلي :

أولا : الطب

نظرا لتقدم علم الجراحة ونبوغ الأطباء العثمانيين فيه ، لاسيما الجراح صابونجي أوغلو شرف الدين ، الذي صنف كتابه المسمى « **جراحية إيلخانية** » للسلطان محمد الفاتح في عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م ، وأورد فيه رسوما ملونه[١] . ففي عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م ، تمكن الطبيب نظر بن بوداق ، من إجراء عملية جراحية في الكلية لأحد المرضى في مدينة عينتاب ، يدعى صاتلمش ابن الحاج أحمد . وقد تم ذلك بإشراف قاضي المدينة وكتبت وثيقة رسمية بذلك[٢] .

ومن أشهر الأطباء الأتراك حلمي جلبي بقال زاده ، وكان رئيس الأطباء ، وتوفي عام ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م . وكان قبل وفاته يعمل علي تدبير علاج يقاوم الشيخوخة[٣] . وفي هذا دلالة علي مدى تطور البحث العلمي في مجال الطب ، إذ أن إيجاد هذا الدواء هو من أهم الأبحاث التي يعمل عليها الأطباء الغربيون في أيامنا هذه .

وفي مجال الطب النفسي ، كان السلطان محمد الفاتح قد أسس في اصطنبول مستشفى للأمراض العقلية ، وقام ابنه السلطان بايزيد الثاني بتأسيس مستشفي مماثلة في أدرنه . كما

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٣٢) .

(٢) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٦٢٦) .

(٣) حاجي خليفة : فذلكه (ص ٨٧) .

أسس السلطان سليمان القانوني مستشفى للمجانين في داخل المدرسة السليمانية في اصطنبول . وأسست زوجته خرم سلطان ، وهي أم السلطان سليم الثاني مستشفى للمجانين النساء . وقد قال د. Kraft Traite وهو أحد أشهر علماء الطب النفسي في القرن العشرين : « تعلمت أوروبا مداواة المرضى العقليين من الأتراك . أسس الأتراك مستشفيات خاصة للأمراض العقلية قبلنا بمدة طويلة جدا » ثم نقل قول الطبيب الإنجليزي Jhon Howard عام ١٧٨٨م قوله : « إن المستشفيات العقلية التركية في حالة إنحطاط بالنسبة للسابق ، لكنها مع ذلك ما زالت أرقى من مثيلاتها في أوروبا »... « لا يعتبر المرضى العقليون في فرنسا عام ١٨١٨م مرضى ، ويعاملون معاملة أسوأ من الحيوانات والجناة ، أما في العصور السالفة فكانوا يحرقون »... وفي مجال الأمراض الوبائية فقد اخترع الأطباء الأتراك لقاح الجدري ، وكان يجرى تطعيم الأطفال به في عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م . وفي عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م كانت الليدي مونتاجي ، زوجة القنصل الإنجليزي في اصطنبول ، قد شاهدت كيفية صناعة اللقاح وقامت بتطعيم ولدها به . ولكن أوروبا رفضت ذلك اللقاح مدة طويلة حتى أن ملك فرنسا لويس الخامس عشر أصيب بالجدري ، وكان قد رفض تناول اللقاح ، فمات . ولم يعتمد ذلك اللقاح في أوروبا حتى عام ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م[١].

ثانيا : العلوم الفلكية والرياضية والهندسية .

إن المدافع الكبيرة ، ومدافع السفن بعيدة المدى ، والبنادق اليدوية تشهد بتفوق العثمانيين في مجال العلوم الرياضية والهندسية ، وقد بسطنا القول في تلك المسألة فلا داعي للإعادة . كما أن الشيخ تقي الراصد الدمشقي (ت٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م) - المذكور آنفا - حصل من السلطان علي تسعة آلاف قطعة ذهبية ، وأسس مرصدا في اصطنبول وهو الذي اخترع « **جرخلي ساعت** » أي الساعة ذات الدولاب . والآلة الفلكية المسماة ذات الثقبين[٢]. وقد نجح **أحمد** جلبي ، الملقب هزار فن ، في عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٦م ، في أول محاولة للطيران الشراعي ، حيث تمكن عن طريق أجنحة دقيقة الصنع من عبور مضيق البسفور ، من برج غلطه على

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٣٣ ، ٥٣٤) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٣٦) .

الساحل الأوروبي إلي منطقة اسكدار علي الجانب الآسيوى ، وهي مسافة قدرها سبعة كيلومترات تقريبا ، على ارتفاع اثنين وستين مترا تقريبا . فسر به السلطان مراد الرابع وأعطاه كيسا من الذهب . أما العالم حسن جلبي ، الملقب لاغري ، فهو واضع اللبنة الأولى لعلم الصواريخ الفضائية ، وهو أول رجل يركب صاروخا . وكان ذلك في عهد السلطان مراد الرابع أيضا (ت ١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م) ، إذ نقل المؤرخ التركي المعاصر **أولياء جلبي** نجاح تلك التجربة فقال : « في مساء ولادة بنت السلطان مراد الرابع ، الأميرة قايا ، أقيمت أفراح ذبح أضحية العقيقة ، وكان حسن لاغري قد اخترع قذيفة تحتوى علي خمسين أوقية من معجون البارود ، وقام في قصر السلطان في سراي بورنو ، وأمام السلطان بركوب هذه القذيفة ، ثم أشعل معاونوه فتيلة القذيفة ، وقبيل طيرانه نحو السماء ، خاطب السلطان قائلا له : يا مولاي استودعك الله أنا ذاهب للتحدث مع عيسى عليه السلام . ثم انطلق إلي السماء ، ثم أشعل القذائف الأخرى التي كانت معه ، فنشر الأنوار في السماء وبعد نفاد البارود ، بدأت القذيفة بالتوجه نحو الأرض ، وهنا نشر أجنحة النسر التي كانت معه ، ونزل علي البحر قرب قصر سنان باشا ، ثم أتى إلي حضرة السلطان وقال له مازحا : مولاي إن النبي عيسى عليه السلام يسلم عليك . وقد أنعم السلطان عليه بكيس من الذهب ، كما سجله سباهيا براتب قدره سبعين أقجه »[1].

وفي عام ١١٣٢هـ/ ١٧١٩م استطاع رئيس مهندسي الترسخانة السلطانية ، إبراهيم أفندي صنع غواصة ، وجرى تجربتها بنجاح أمام السلطان أحمد الثالث[2].

ثالثا : الجغرافيا

كان المسلمون علي جانب كبير من التقدم في العلوم الجغرافية ، وفي العهد العثماني تطور ذلك العلم أكثر وأكثر ، ومن أنبغ هؤلاء بيري بيك أو بيري رئيس ، الذي كان يشغل منصب قبودان السويس . ولعلك تدهش إذا ما علمت أن بيري رئيس وغيره من الجغرافيين المسلمين ، كانوا علي علم بوجود أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس . ويشهد بذلك الخريطة

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٣٠٧-٣٠٩) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٥٣٧) .

التي رسمها بيري رئيس عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وقدمها للسلطان سليم الأول ، وتظهر بها إسبانيا وغرب إفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية للأمريكتين . وهي أقدم خريطة لأمريكا وفي ٢٦ أغسطس ١٩٥٦م ، عقدت جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ندوة إذاعية عن خرائط بيري رئيس ، فكان رأي جميع الجغرافيين المشاركين فيها أن خرائط بيري رئيس اكتشاف خارق لعادة . ومن أهم أعمال بيري رئيس « **كتاب البحرية** » الذي ألفه بيري رئيس ، وأهداه للسلطان سليمان القانوني عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م ، وذكر فيه أحوال بحر الروم (البحر المتوسط) وجزائره ومسالكه ومراسيه[1] ، كما ضمنه كثيرا من الخرائط ، وذكر عن أمريكا أنها اكتشفت عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م وقال : « إن بحر المغرب - يقصد المحيط الأطلسي - بحر عظيم يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته ، وفي طرف هذا البحر العظيم توجد قارة أنتيليا »[2]. فوفقا لما ذكره بيري رئيس فإن الجغرافيين المسلمين ، كانوا علي علم بوجود أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبس بسبع وعشرين سنة تقريبا . ومن جهة أخرى فإن كولومبس نفسه ظل فترة طويلة ، يعتقد أن الأرض التي اكتشفها هي الساحل الشرقي للهند . فقد خرج من أسبانيا في اتجاه الغرب بهدف البحث عن طريق آخر إلي الهند غير الطريق القديم ، فلما وصل إلي أمريكا ظن أنه وصل إلي الهند . وظل على هذا الاعتقاد سنوات طويلة ، ويتضح ذلك من رسالته إلي ملكي أسبانيا فردناند وإزابلا عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م إذ قال فيها : « أبحرت من بلادي إلي الهند حيث زرع في نفسي الإرادة لكي أقوم بهذا العمل »[3].

وقد اعترف بعض المنصفين في الغرب بفضل كتاب البحرية ، والخرائط التي رسمها بيري رئيس على علم الجغرافيا وسبقه في ذلك الميدان . ومن هؤلاء الخرائطي الأمريكي أرلنجتون مالليرى . وقد نقل د. **محمد الحرب** كلام الراهب الجيزويتي لاين هام ، مدير مركز الأرصاد في ويستون قوله : « خرائط بيري رئيس صحيحة مذهلة للعقل خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٢٢٧) .

(٢) د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٢٧٥ ، ٢٧٦) .

(٣) رسالة كرستوفر كولومبس إلي فرديناند وإيزابيلا لشن حملة صليبية للاستيلاء علي القدس عام ١٥٠١م ، ترجمة د. حاتم الطحاوي ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى (ص ٢٧٧).

لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه في القرن السادس عشر الميلادي[1] .... إن الجانب المذهل في مكانة بيري ، هو رسمه لجبال أنتراكتيكا (القارة المتجمدة الجنوبية) بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط . مع أن هذه الجبال لم يكن قد تمكن من اكتشافها إلا في عام ١٩٥٢م أي في أول النصف الثاني من القرن العشرين . وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت ، أما قبل القائد العثماني بيري رئيس ، يعنى قبل القرن السادس عشر الميلادي لم يكن أحد يعرف أن انتراكتيكا موجودة ، إذ كانت مغطاه بالجليد طوال عصور التاريخ »[2].

ولما لم يكن من اللائق أن نذكر علم الجغرافيا والخرائط البحرية ، دون أن نذكر سيدي على رئيس (ت٩٨٩هـ/ ١٥٨١م) ، وهو أحد فحول البحرية وعلم الجغرافيا ، فنقول عنه : كان السلطان سليمان القانوني قد أرسله في مهمة قتالية عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٣م في الخليج العربي ، فبعد أن فرغ منها رحل إلي الهند ، ووصل إلي أحمد أباد عاصمة سلطنة كجرات الهندية ، فأخذ يتجول في بلاد الهند والسند وكابل وسمرقند وبوخشان وخراسان وغيرها لمدة ثلاث سنوات ، ثم عاد إلي اصْطنبول ، وصنف كتابه « **مرآة المالك** » الذي ذكر فيه الجزر والسواحل والمدن التي مر بها منذ أن خرج من البصرة ، كما ذكر الأماكن الأثرية والبقاع المقدسة في تلك المالك ، وذكر عوائد الأهالي وأحوال معاشهم وما صادفه من النوادر والعجائب[3].

وبينما كان سيدي علي رئيس في الهند ، دعاه أحد سلاطين الهند همايون بادشاه إلى « دهلي » عاصمة السند و، طلب منه البقاء لتحصيل علما الفلك والإسطرلاب . وفي ذلك يقول **إبراهيم أفندي** : « كان سيدي علي قبودان صاحب علم وفير في ذلك الميدان ، والآن لا يعرف أن هناك شخصا في بلاد الروم وربما الشام ومصر وحلب قادر علي استخراج الخسوف والكسوف بالإسطرلاب غيره . والذين يقومون بهذا يستخرجونه من خلال تحركات النجوم والكواكب »[4].

ولسيدي علي رئيس مصنف في علم الهيئة (الفلك) سماه « **مرآة الكائنات** » . وقسمه إلى

---

(١) الأولي ، بل الصواب أن يقول ، لم يكن الأوروبيون يعلمون بأنها قد اكتشفت .
(٢) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٢٧٧) .
(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (٢٧٥ – ٢٨٧) .
(٤) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٢٨٢) .

خمس مقالات في الربع المجيب والإسطرلاب[1].

رابعا : الهندسة المعمارية

سبق أن تحدثنا عن العمارة العثمانية فيما تقدم من كلام ، في معرض الرد على شبهة أثارها بعض أساتذة التاريخ من أن العثمانيون منذ عصر السلطان محمد الفاتح كان ينقلون العلوم عن أوروبا . وقد بينت بطلان ذلك بالأدلة الدامغة والحجج الساطعة الناصعة فلا داعي للإعادة ، ولكن يطيب لي أن أضيف قول أحد الباحثين الأثريين الفرنسيين جان بول رو إذ قال : « أما الجسور كلها تقريبا فهي رائعة ، وبوسع المرء أن يتساءل عما إذا كانت الموهبة والخيال الخصب اللذان أبداهما دائما المعماريون الأتراك في تشييدها ، إنما ينجمان عن واقع أن أية ضرورة شعائرية أو ثقافية لم تكن تعترض سبيلهم . ففي مواجهة مشكلات تقنية صرفة سوف يتمكنون من حلها بأستاذية تامة للتوفيق بين الرسوخ والجمال »[2].

في حقيقة الأمر إن حديث أساتذة التاريخ عن الحياة العلمية في العصر العثماني لا يمت للواقع بأي صلة ، ويؤكد على أن هؤلاء الأساتذة الأفاضل الذين يسمون أنفسهم بالمؤرخين ، لم يراجعوا شيئا من مصادرنا التاريخية وإنما اكتفوا بالنقل عمن سبقهم ، سواء أكان من الأوروبيين أو ممن تتلمذ على أيدي الأوروبيين ، فرضوا لأنفسهم بأن يكونوا من الكتبة والناسخين ، وهو عمل يجيده أي امرئ يحسن القراءة والكتابة . انظر بالله عليك إلى د.محمد عبد المنعم الراقد الذي ينقل كثيرا عن ستانلي لينبول ، وكويلر ينج ، وجورجي زيدان وغيرهم ، فقد قال نقلا عن جورجي زيدان : « أما ما نطلق عليه اسم العلوم الحديثة فكانت في ذلك العهد تسمى بالعلوم الدخيلة ، وقد كانت هذه العلوم آنذاك في غاية الاضطراب وتحولت علوم الطبيعة والرياضة إلي خرافات وأوهام ، وقل المشتغلون بها أو المتفرغون لدراستها فأصابها انحطاط شديد ، يدل عليه عدم وجود مؤلف واحد له قيمة في أي فرع من

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١٦٤٩) ، إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ٧٤٩) .

(٢) جان بول رو : الفن العثماني في الأراضي التركية. ضمن كتاب : تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (ص ٣٩٣) .

فروع العلم كالطب أو الرياضيات أو الكيمياء »[1].

قلت : انظر بالله عليك إلى هذا الكلام الباطل ، وإلى هذا الوهم الساقط ، مما يتقممه مثل هؤلاء الأساتذة من أفواه المستشرقين وأذنابهم . وقد تقدم فيما سبق عشرات الأدلة التي تبطله ، ولكن المؤسف المنكي والمضحك المبكي ، أن هذا الكلام لم يصدر من أحمق أو من أبله يخرج الزبد من فمه ، ولا حتى من كاتب صحفي يهرف بما لا يعرف ، بل خطه قلم أستاذ جامعي في رسالة حصل بها علي درجة الدكتوراه في التاريخ ، فكيف فاتت هذه الأوهام عليه ، وعلي أساتذة الكبير المشرف عليه الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الحتة ؟! بل وكيف فاتت هذه الأوهام علي لجنة المناقشة التي منحته تلك الدرجة العلمية الرفيعة .! إنا لله وإنا إليه راجعون .

أحوال المعيشة

من المعلوم لدى العامة والخاصة أن أهل مصر يعتمدون في معيشتهم بعد الله ﷻ على نهر النيل منذ قديم الزمان . فعلى ضفافه يزرعون ، ومن مائه يشربون ويسقون دوابهم وأنعامهم . ويعتبر الفيضان السنوي للنيل هو الحدث الأهم في حياة المصريين ، الذي ينتظرونه بترقب يصاحبه قلق ووجل . فإن فاض النيل بحول الله وقوته ، كان العام عليهم سخاء رخاء ، وإن لم يفض النيل بحول الله وقوته ، كان العام عليهم قحطا وفقرا وربما مجاعة . وهناك عوامل أخرى تتوقف عليها أحوال المعيشة في مصر في ذلك العصر ، وإن أردنا ترتيبها من حيث الأهمية نقول :

١- **فيضان النيل .**

٢- **الطاعون .**

٣- **الفتن الداخلية .**

فأما فيضان النيل فيكون في فصل الصيف ، وتعتمد الأشهر القبطية في متابعة حركة النيل وهي : **توت** (سبتمبر) ، **بابه** (أكتوبر) ، **هاتور** (نوفمبر) ، **كهيك** (ديسمبر) ، **طوبه** (يناير) ، **أمشير** (فبراير) ، **برمهات** (مارس) ، **برموده** (إبريل) ، **بشنس** (مايو) ، **بؤونه**

---

(١) د. محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٤٢٤) .

(يونيو) ، أبيب (يوليو) ، مسرى (أغسطس) .

وبسبب الأمطار الغزيرة التي تهطل علي هضبة الحبشة ، يبدأ النيل في الزيادة في الخامس من شهر بؤونه ، ويستمر في الزيادة إلى أن تبلغ منتهاها ، في الثامن من شهر بابه ، ثم يمكث على ذلك اثني عشر يوما ، ثم يبدأ في النقصان في عشرين بابه . ويتم حجز الماء في القاهرة عن طريق السدود حتى تكتمل الزيادة ثمانية عشر ذراعا[١] وفقا لمقياس النيل بجزيرة الروضة ، ويكون ذلك في شهر مسرى ، ثم يتم كسر السدود ، فينساب الماء فيغمر أراضي الدلتا . ثم يبدأ النيل في النقصان اعتبارا من يوم العشرين من شهر بابه ، شيئا فشيئا حتى ينحسر الماء عن الأرض فتصبح مهيأة للزراعة بعد أن خصبها الطمي الذي ترسب علي سطحها بعد انحسار الماء .

ويختلف وقت انحسار الماء باختلاف درجة علو الأراضي وانخفاضها . لذلك تبدأ زراعة القمح في نصف شهر بابه إلي آخر شهر هاتور ، وذلك في الأراضي المرتفعة أما في الأراضي المنخفضة فيمتد موسم زراعة القمح حتى أواخر كهيك ، بسبب تأخر انحسار الماء عنها . وعلي هذا فإن لم يفض النيل أو جاء فيضانه ضعيفا ، فلم يصل الماء إلي كثير من الأراضي تتعطل الزراعة فيها . وإذا حدث العكس بأن جاء فيضان النيل زائدا عن الحد فتظل الأراضي مغمورة بالماء فيتأخر انحسار الماء عنها حتى يفوت الموسم ، فتتعطل الزراعة أيضا . وفي كلتا الحالتين يعم القحط والفقر وربما المجاعة . قال أولياء جلبي : « إذا فاض النيل وعلا ثمانية عشر ذراعا فإن المال السلطاني يستحق ويجبى ، وإذا صار عشرين ذراعا أثرى كل من الباشا والأمناء والملتزمين والكشاف والرعايا حسب مراتبهم ، ويقدرون على تسديد ما عليهم من الأموال المطلوبة . وإذا لم يفض النيل ولم يبلغ ثمانية عشر ذراعا معاذ الله ، فإن أراضي الإيالة لا تروى ولا تسقى ويعم القحط ويحصل العجز » .... « إذا بلغ عشرين ذراعا فتروى أراضى القطر ولا يبقى فيه موضع جاف ، وإن زاد على ذلك ، فهو ضرر ، اللهم عافنا »[٢].

---

(١) في زمن المقريزي في القرن التاسع الهجري كان يعتبر النيل قد أوفي إذا بلغ ارتفاعه ثمانية عشر ذراعا بمقياس جزيرة الروضة فالماء في تلك الحالة يعم جميع أراضى مصر ، ولكن في عصور سبقته كان الوفاء يتحقق بستة عشر ذراعا أو أقل ، بسبب ارتفاع الأراضي علي مر العصور .

(٢) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٠٦ ، ٤٠٨) .

كان هذا حال الزراعة في مصر منذ قديم الزمان ولم يختلف في العصر العثماني عنه في العصور التي سبقته . وليس للحكومة يد في ذلك ، ففيضان النيل من عدمه لا يملكه إلا الله ﷻ ، ويقتصر عمل الحكومة علي ترميم السدود والقناطر وتطهير مجاري الماء مما قد يسدها في وقت الفيضان ويمنع الماء عن الوصول إلي كثير من الأراضي . وقد قدمنا أن قانون نامه مصر الذي أصدره السلطان سليمان القانوني ، قد شدد على ذلك ، ووضع عقوبات صارمة لمن يهمله .

أما العامل الثاني فهو الطاعون ، فإذا ما وقع الطاعون الذي قد يستمر بضعة أشهر فيحصد أرواح الآلاف من الفلاحين . وقد تعدم بعض الأراضي من يزرعها ، مما يقلل من الإنتاجية الزراعية . وهذا أمر يخرج أيضا عن يد الحكومة ، كشأن كل بلاد العالم آنذاك . فلم يكن الطب قد توصل بعد إلى مصل أو علاج له . وقد كان الأطباء يقفون عاجزين عن مواجهة الطاعون .

أما العامل الثالث فهو الفتن والصراعات الداخيلة ، إذ تنقطع طرق المواصلات بين القرى والمدن ، مما يؤدى إلي قلة المعروض من الغلال والحبوب فترتفع الأسعار . والمسؤلية في تلك الحالة تقع بلا ريب على باشا مصر أمير أمرائها ، وسائر الأمراء الذين يتسبب الصراع بينهم علي السلطة في أزمات اقتصادية كبيرة ، وقد تطول تلك الصراعات في ظل عجز باشا مصر عن احتواء الموقف .

المؤسف في الأمر ، أن كثيرا من أساتذة التاريخ يخلطون هذه العوامل بعضها ببعض . وكلما وقع القحط وغلاء الأسعار في البلاد ، نسبوا ذلك إلي فساد الحكم العثماني ، وهو بريء بلا ريب من تلك التهمة ، لأن العامل الأول في تحديد الرخاء من عدمه في مصر هو فيضان النيل . وسأنقل فيما يلي من المصادر التاريخية ما يدل على أن القحط كان يحدث في مصر في العصور السابقة على العصر العثماني ، بسبب عدم فيضان النيل أو زيادة الفيضان عن حده ، وما يدل على أن الرخاء كان يعم إذا فاض النيل في حدوده المناسبة :

١- في عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م ، في عهد الظاهر علي بن الحاكم بأمر الله الفاطمي . **قال المقريزي** : « وانتهت زيادة النيل فيه إلي أربعة عشر ذراعا وإصبع واحد ... انصرف ماء النيل انصرافًا فاحشا ، ولم ترو منه الضياع ، وكثر ضجيج الناس واستغاثتهم ، وخرج أكثرهم بالمصاحف منشورةً إلي الجبل يدعون الله فلم يغاثوا . وتعذر وجود الخبز وازدحم الناس على

شراء الغلال ... واشتد الغلاء والقحط بمصر ، فبيع الخبز السميد رطلين بدرهم والحمل الدقيق بأربعة دنانير وثلثين ... وبلغ الناس الجهد ، حتى إن جزارًا طرح عظما لكلب فطرد رجل الكلب ، وأخذ العظم منه وابتلعه نيئا . وأكل المساكين الصماليخ من القنبيط واقتاتوا باليسير من كسب الوز وكسب السمسم وغلت عامة الحبوب »[1].

٢- في عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢هـ ، في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي . **قال المقريزي :** « وعظمت زيادة النيل وغرق النواحي[2] ، وكثر رخاء الأسعار بمصر ، فأبيع القمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا ، والخبز البائت ستة أرطال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم ، والموز ستة أرطال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم ، وحمل الخيار بدرهمين والتين ثمانية أرطال بدرهم ، والعنب ستة أرطال بدرهم ، في شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين ».

٣- في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م ، في عهد السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي . **قال المقريزي :** « ونقص ماء النيل بعدما بلغ اثنين وعشرين إصبعا من سبعة عشر ذراعا ، فرفعت الأسعار ، وشرقت البلاد ، وبلغ القمح كل أردب بدينار ، وأخذ في الزيادة ، وتعذر وجود الخبز ، وضج الناس وكثرت المنكرات » .

٤- في عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م ، في عهد السلطان العادل أبو بكر بن أيوب ، أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي . **قال المقريزي :** « وفيها تعذرت الأقوات بديار مصر وتزايدت الأسعار وعظم الغلاء ، حتى أكل الناس الميتات وأكل بعضهم بعضا ، وتبع ذلك فناء عظيم ، وابتدأ الغلاء من أول العام ، فبلغ كل أردب قمح خمسة دنانير ، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا يمد النيل فيها إلا مدا يسيرا ، حتى عدمت الأقوات ، وخرج من مصر عالم كبير بأهليهم وأولادهم إلى الشام ، فماتوا في الطرقات جوعا » .

٥- وفي أواخر عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م ، في عهد السلطان العادل أيضا . **قال المقريزي :** « وفيها كان الغلاء بمصر ، فلما طلع النيل رويت البلاد ، وانحل السعر » .

---

(١) تقي الدين المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (٢/ ١٣٤ ، ١٦٤) .

(٢) أي أن فيضان النيل كان مرتفعا فوصل إلى جميع الأراضي المنخفضة والمرتفعة على حد سواء فزرعت كلها .

٦- في عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون المملوكي ، قال المقريزي : « وفي هذه السنة قصر مد النيل ، ولم يوف بل كانت نهايته خمسة عشر ذراعاً وثلث ذراع ، فغلت الأسعار » .

٧- وأحيانا يكون القحط وغلاء الأسعار بسبب زيادة فيضان النيل عن حده ، فتفسد الزراعات الصيفية ، كما حدث في عام ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م ، في عهد السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، إذ بلغت الزيادة عشرين ذراعا وخمسة عشر إصبعا . قال المقريزي : « وزيادة النيل التي فسد بها الأقصاب والزراعات الصيفية . فلما أدرك الشعير هاف من السموم ، وهاف كثير من الفول أيضا وبعض القمح »[1].

وكانت أسعار الغلة والحبوب آنذاك ، هي أشبه بأسعار النفط في هذه أيامنا هذه ، فكما يتأثر سعر النفط صعودا وهبوطا بالتغيرات السياسية والدولية فور حدوثها ، كذلك كان يتأثر سعر الغلة صعودا وهبوطا ، وفقا لمعدل الزيادة في ماء النيل في موسم الفيضان فور حدوثها ، وحتى قبل أن ينعكس ذلك على واقع الزراعة . فمن ذلك .

٨- في عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م ، في عهد السلطان المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون . قال المقريزي : « وفيها توقف النيل في أوائل أيام الزيادة ، فارتفع سعر الغلال . ثم توالت الزيادة حتى كان الوفاء في رابع جمادى الأولى وهو تاسع مسرى ... وزاد حتى بلغ سبعة عشر (ذراعا) وخمس أصابع . هذا وسعر الغلة يتزايد إلى أن بلغ الأردب ستين درهم ، ثم تناقص حتى بيع بعشرين درهما »[2].

٩- في عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ، في عهد الساطان الناصر فرج بن برقوق الجركسي ، لم يفض النيل . قال ابن حجر العسقلاني : « فمضت مسرى من شهور القبط ولم يوف ، ثم نزل إصبعين في أيام النسيم ، ثم إصبعين ، فبادروا في أول يوم من توت وهو في العشرين من صفر ، وخلقوا المقياس وكسروا السد بغير وفاء ، ثم لم يزد بعد ذلك سوى نصف ذراع ، ثم انهبط دفعة واحدة فلم يصبح في الخلجان ماء ، وشرق غالب البلاد ، وذعر الناس بسبب

---

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٢٢١، ٢٣٣، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢/ ٢٥٦، ٣/ ٤٠٨).

(٢) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٤/ ٦٥) .

ذلك . وذلك في صفر ... وفي أول ربيع الأول وقع الغلاء في القمح ، واشتد الأمر وشرق غالب البلاد .. وفي رجب غلت الأسعار جدا ، حتى وصل القمح إلي أربعمائة ، وهو بالذهب خمسة مثاقيل ، والفول والشعير إلي مائتين وخمسين ونحو ذلك »[1].

وفي بعض الأحيان قد يفيض النيل في موعده ، ولكنه يسرع بالانخفاض قبل أوانه ، مما يحمل الفلاحين على الزراعة قبل أوانها خوفا من ذهاب الماء .

١٠-ومن ذلك ما حدث عام ٨٢١هـ/ ١٤١٨م ، في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي قال ابن حجر : « وفي هذه السنة انتهت زيادة النيل إلي عشرة أصابع من تسعة عشر ذراعا وذلك أنه كان يوم النيروز ، وكان يومئذ سادس عشري رجب ، قد انتهى إلى أصبع من تسعة عشر ، ثم نقص نصف ذراع ، ثم تراجع إلي أن كانت هذه غايته ، وارتفع سعر الغلال بسبب ذلك . ولما أسرع هبوط النيل بادر كثير من الناس إلي الزرع قبل أوانه ، فصادف الحر الشديد والسموم ، ففسد أكثره بأكل الدود ، ارتفعت الأسعار في القمح والفول والبرسيم بسبب ذلك ، وعز وجود التبن ، حتى بلغ الحمل دينارا ، وكان قبل ذلك كل خمسة أحمال بدينار ، ثم ارتفعت الأسعار في ذي الحجة ، وقل وجود الخبز في الأسواق ، وبلغ سعر الفول ثلاث مائة كل إردب لعزته ، ولم يبلغ القمح سوى مائتين وخمسين »[2].

قدمت فيما سبق أمثلة للأزمات الاقتصادية وغلاء الأسعار في مصر في عصور مختلفة . في عصر الفاطميين ، وعصر الأيوبيين ، وعصر المماليك البحرية (التركمان) ، وعصر المماليك الجراكسة . وكلها بسبب اضطراب فيضان النيل صعودا وهبوطا . حتى يتبين أنه هذا هو حال مصر من قديم الزمان ، سواء أكان يحكمها الفاطميون ، أو الأيوبيون ، أو المماليك ، أو العثمانيون ، لأن كثيرا من أساتذة التاريخ يجعلون حديثهم عن أحوال المعيشة في مصر العثمانية تحت عنوان (**الأزمات الاقتصادية في العصر العثماني**) ، ويذكرون حالات غلاء الأسعار ونقص الخبز في الأسواق ، ويحملون المسؤلية للحكم العثماني ، حتى وإن كان سبب الأزمة عدم فيضان النيل ، وكأن النيل يرتفع وينخفض بأمر السلطان أو الباشا العثماني ، متناسين أن هذا هو حال مصر

---

(١) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٥/ ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧) .
(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (٧/ ٣٢٣) .

عبر العصور ، ولا يسع الباشا أمير أمراء مصر ولا سائر رجال الحكم ولا أي شخص كائنا من كان أن يفعل شيئا ، إذا ما أمسك الله النيل عن الفيضان ، فوقع القحط أو المجاعة .

وأظن أنه من الصعب على أساتذة التاريخ أن يدركوا تلك الحقائق لأنهم يقرؤون التاريخ بمنهج فاسد ، إذ يقسمونه إلى عصور ثلاثة ، قديم ووسيط وحديث . ولو كان هذا المنهج هو من باب تسهيل الدراسة لما أنكرناه ، ولكن حقيقة الحال على العكس من ذلك ، إذ أن التاريخ العثماني ، مثلا يدخل ضمن العصر الحديث ، فترى أن الأساتذة المتخصصين في ذلك الفرع لا يعرفون شيئا عن العصر الوسيط ، ولا عن القديم . وكأن التاريخ عندهم قصص مقطعة ، لا علاقة لإحداهن بالأخريات . وهذا من أقبح ما يمكن ، إذ يعجز الأستاذ الكبير عندئذ ، عن عقد المقارنات والربط بين الأحداث . فأنى له أن يفهم التاريخ فهما صحيحا .!

وفيما يتعلق بالأزمات الاقتصادية ، ترى أن د.محمد عبد المنعم الراقد قد ضرب أسوأ الأمثلة في تزييف الحقائق التاريخية . بل يحق لنا أن نسميه درسا لكل من أراد أن يتعلم كيف يزيف التاريخ ، ويلوي أعناق النصوص التاريخية لتوافق أهواءه . وكان ذلك في حديثه عن المجاعة التي وقعت بمصر في عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م ، فقد نقل عن الجبرتي ما نصه : « اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساء وصبيانا ، وطلعوا إلي القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالأحجار فركب الوالي وطردهم . فنزلوا إلي الرميلة ، ونهبوا حواصل الغلة التي بها ، ووكالة القمح وحاصل كتخدا الباشا وكان ملآنا بالشعير والفول . وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة ، والشعير بثلاثمائة ، والفول بأربعمائة وخمسين ، والأرز بثمانمائة نصف فضة ، وأما العدس فلا يوجد ، وحصل شدة عظيمة بمصر وأقاليمها ، وحضرت أهالي القرى والأرياف حتى امتلأت منهم الأزقة ، واشتد الكرب حتى أكل الناس الجيف ، ومات الكثير من الجوع ، وخلت القرى من أهاليها ، وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ، ومن علي رؤوس الخبازين. ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطيف وبأيديهم العصي ، حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودون به . واستمر الأمر على ذلك إلى أن

عزل علي باشا ، في ثامن عشر المحرم سنة سبع ومائة ألف »[1].

هذا ما نقله د.الراقد عن الجبرتي ثم علق عليه بقوله : « إن هذه المجاعة لتدل على مدى التدهور الذي أصاب مصر ، ليس في سنة وقوع المجاعة فقط ، وإنما في سنوات الحكم العثماني السابقة عليها »[2].

قلت : لقد أخفى عنا د.الراقد سبب تلك المجاعة ، الذي ذكره الجبرتي نفسه ، فلقد استبق الجبرتي كلامه المذكور آنفا ، بقوله في أحداث السنة التي سبقتها عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م : « وقصر مد النيل تلك السنة ، وهبط بسرعة فشرقت الأراضي ، ووقع الغلاء والفناء ... وفي هذه السنة وقعت مصالحات في المال الميري بسبب الري والشراقي »[3].

وهذا مما لم يتفضل علينا د.الراقد بذكره . والحق أن د.الراقد لم يحسن بالرجوع إلي الجبرتي في تلك الواقعة ، فبالرغم من أن الجبرتي قد قرر أن سبب الأزمة هو انخفاض النيل ، إلا أنه ذكرها عرضا ، ولم يبين وقائعها معتمدا علي أن من سبقه من المؤرخين الذي عاصروا تلك المجاعة ، قد أطنبوا في ذكر تفاصيلها كالعوفي ، والملواني ، وأحمد جلبي بن عبد الغنى ، فكان الأولي بـ د.الراقد والأوفق لمنهج البحث ، أن يرجع إلي المؤرخين المعاصرين للواقعة دون المتأخرين ، ما لم يكن لدى المتأخرين ما أغفله المتقدمون .

قال العوفي في تلك الواقعة : « الشرقية أكثرها شراقي[4] ، والقليوبية أكثرها شراقي ، والمنيا كاملها شراقى ، وبنى سويف أكثر من نصفها شراقي ، وشرق أطفيح كاملها شراقي ، فإن في سنة تاريخة ، كان النيل المبارك مستأخر وحصل له توقف »[5].

قال الملواني : « لم يف (النيل) ستة عشر ذراعا وبعد الجبر (كسر السد) بيومين ، هبط وأخذ في النقصان ، ولم يشمل الأرض منه شيء ، وشرقت كامل قرى مصر ، سوى بعض الأراضي

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٢٦) .

(٢) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٤١٤ ، ٤١٥) .

(٣) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٢٥) .

(٤) الأرض الشراقي هي الأرض التي لم يصلها الماء بسبب انخفاض النيل .

(٥) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم ١٦٥ (ص ٨٧٠) .

بولاية الغربية والمنوفية . وكان بعد ذلك ، الغلاء والفناء الذي لم يسمع بمثله إلا في زمن الفواطم »[1].

أما أحمد جلبي عبد الغني ، فقد شهد بنفسه كسر السد فقال : « وكنت يومها في بيت بباب الشعرية ، وبت تلك الليلة هنـاك ، وكان ذلك اليوم لا يكـاد يوصف في نشف ما كان جـرى في الخليج (الخليج الناصري) لعدم الزيادة من فوق »[2].

فمما ذكره هؤلاء المؤرخون المعاصرون ، يتبين أن النيل في تلك السنة انخفض انخفاضا كبيرا غير مسبوق منذ سنين طويلة ، إلي حد بلغ أن أعفي كثير من ملاك وملتزمي الأراضي الشراقي من دفع خراج العام ، وهي البهنسا ، والمنيا ، وشرق إطفيح . وحتى الأراضي الموقوفة علي الحرمين أعفيت من أداء ما عليها من غلال ، على أن يتم أداؤها في العام الذي يليه[3]. لم يخف علينا د.الراقد ذلك فحسب ، بل أخفى علينا أيضا الإجراءات التي اتخذتها الدولة لسد حاجة الفقراء ، فقد تم عزل علي باشا السلحدار عن ولاية مصر ، وتعيين إسماعيل باشا ، فقام بما ذكره الملواني فقال : « لما استقر (إسماعيل باشا) في وقته ورأى ما فيه الناس من الكرب والغلاء وكثرة الشحاتين ، أمر بالنداء في شوارع مصر وأسواقها لجميع الشحاتين أن يحضروا إلي قراميدان ، فأتى منهم خلق كثيرون ، فأمر الباشا بتوزيعهم على الأمراء المصريين ، كل أحد بحسب مقامه وقدرته ، وأخذ لنفسه ولأعيان دولته ألف نفس منهم ، وعين لهم من الخبز والطعام ما يكفيهم ، صباحا ومساء إلي أن انقضى الغلاء »[4].

هكذا أخفى علينا د.الراقد الحقائق التاريخية ، فقد سولت له نفسه أن يخفي علينا أن سبب

---

(١) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٥٩) .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٨٩).

(٣) انظر إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٨٨٥) ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٠ ، ١٦١) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩١ ، ١٩٢) .

(٤) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٣) وانظر أيضا أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٧) ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٢٦) .

الأزمة هو انخفاض النيل ، كما أخفي علينا كيف واجه إسماعيل باشا هذه المجاعة ..! أخفي عنا د.الراقد هذه المعلومات ، حتى يتسنى له الطعن في العثمانيين كيفما يشاء . والله لقد فاض الكيل وطفح ، من القبح والعفن الفكري الذي تطفح به كتب أغلب أساتذة التاريخ ، والله عليم بذات الصدور .

ومن يتتبع سيرة إسماعيل باشا إبان ولايته على مصر يتبين له أنه كان واليا رحيما ، وإداريا ، قديرا ومحسنا كريما . إذ أنه بعد انقضاء المجاعة ، حل بالبلاد وباء عظيم ، فما كان من إسماعيل باشا إلا أن فعل ما ذكره الملواني فقال : « ثم أعقب ذلك الغلاء وباء عظيم مهول أمر فيه الباشا أمين بيت المال أن يكفن الفقراء والغرباء ، فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبوا[1] بهم إلي مغسل السلطان بسبيل المؤمنين ، فيكفنه أمين بيت المال ويغسله ، واستمر كذلك إلى أن انقضى الوباء . وأخبرني الفاضل عبد الكريم كاتب بيت المال ، أنه ضبط ثمن الأكفان فكانت عشرين كيسا ، عبرة كل كيس خمسة وعشرون ألف نصف فضة ، هذا خارج عن من كفنه أهل الخير »[2]..... وأضاف أحمد جلبي ، أن إسماعيل باشا « بنى لهم تربا عديدة يدفنون فيها ، وتسمى ترب الغرباء »[3].

وقد قدمنا أن إسماعيل باشا ، كان صاحب خيرات وله عمائر كثيرة ، ومن جملة محاسنه أن عندما ختن ابنه ، ختن معه ألفين وثلاثمائة وخمسة وستين غلاما من أبناء الفقراء ، وأعطى كل واحد منهم كسوة ودينارا[4] كما أنه كان حريصا على أحوال الرعية ، ويدور في الشوارع مستخفيا ليتفقد الأحوال[5].

---

(١) كذا بالأصل والصواب يذهبون .

(٢) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٣) وانظر أيضا أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٧) ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١ / ٢٧) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٨).

(٤) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٣) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٨).

(٥) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٨٩٩) .

وبالرغم من ذلك ترى أن أستاذا كبيرا ، آخر هو **د.صلاح هريدي** قد طعن في إسماعيل باشا ، فقال بعد أن ذكر أمر الوباء : « ونتيجة لذلك واجهت مصر أزمة اقتصادية طاحنة بسبب تلاعب الملتزمين بالأموال الأميرية ، وبسبب استيلاء هذا الوالي على أموال المتوفين ، ولكي يخفف من وطأة هذه الكارثة على الناس ، أمر السناجق والملتزمين بإطعام الفقراء وأدى ذلك إلي نقمة السناجق والملتزمين . وهكذا ترى أن الوالي العثماني في هذه الفترة ، بدلا من أن يقوم بواجبه كحاكم مسئول بتدبير الطعام للفقراء ، نجده يلزم الملتزمين بإطعامهم ، ولم يكتف بهذا العبء ، بل كان يستغل الموقف ويقوم بمصادرة أموال المتوفين ، ولم يراع في ذلك حقوق الورثة الشرعيين في هذه الأموال »[1].

قلت : هذا خلط ووهم كبير وقع فيه د.صلاح هريدي ، لأنه على الأرجح لم يرجع إلي المصادر التاريخية ، فوقع في هذه الأوهام ، إلى بلغت به حد الطعن في إسماعيل باشا ، بالرغم من أنه أحد أفضل باشاوات مصر في العصر العثماني . ويتبين بطلان كلام د.صلاح هريدي من خمسة أوجه :

١- إن الأزمة الاقتصادية التي وقعت ، لم تكن بسبب الطاعون ولا بسبب تلاعب الملتزمين كما زعم د.صلاح ، الذي لم يوضح لنا ما المراد بذلك التلاعب وما هي صورته . بل إن المجاعة كانت بسبب عدم فيضان النيل .

٢- إن إسماعيل باشا لم يستول على تركات المتوفين كما زعم د.صلاح ، فلم يرد ذلك في المصادر التاريخية المعاصرة أو المتأخرة . وليت د.صلاح ذكر لنا مصدر تلك المعلومات .!

٣- عاب د.صلاح على إسماعيل باشا أنه ألزم الأمراء والأعيان بإطعام الفقراء في المجاعة ، ولم يوضح لنا ما كان ينبغي عليه فعله لتدبير الطعام لهم . ماذا كان عساه أن يفعل في مجاعة لم يسمع بمثلها منذ عصور خلت ؟!

٤- إن توزيع الفقراء علي الأغنياء في المجاعة أمر دأب عليه سلاطين الدول المتعاقبة على حكم مصر ، ونذكر على سبيل المثال أنه في عام ٦٦٢هـ/١٢٦٣م ، قام السلطان الظاهر بيبرس المملوكي بجمع الفقراء ، **قال المقريزي** : « ثم أخذ ألوفا منهم وأعطى لنواب ابنه

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث (ص ٢٤٨) .

الملك السعيد مثل ذلك ، وأمر في ديوان الجيش ، فكتب باسم كل أمير جماعة على قدر عدته ... وأمر أن يعطى كل فقير كفايته مدة ثلاثة أشهر ، وأعطي للتجار طائفة من الفقراء ، وأعطى الأغنياء على اختلاف طبقاتهم كل أحد بقدر حاله »[1].

وفي عام ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م ، في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ابن قلاوون ، قال ابن حجر : « الغلاء قد تزايد جدا إلى أن بلغ الأردب بمائة وعشرة ، ثم بلغ في شعبان مائة وخمسة وعشرين ... وصار أكثر الناس لا يقدر إلا علي النخالة ، كل قرص أسود بنصف درهم ، وأكل الفقراء السلق والطين ، وكادت الدواب أن تعدم لكثرة الموت بها وأكلوا الميتات ، وأمر السلطان بتفرقة الفقراء علي الأغنياء ، فكان على الأمير المقدم على الألف مائة فقير ، وعلى كل أمير بعدد مماليكه ونحو ذلك ، وعلى الدواوين كل واحد بحسبه وعلى التجار كذلك »[2].

٥- من الأعاجيب أن د. صلاح لم يجد في نفسه حرجا من إلصاق هذه الطعون بإسماعيل باشا ، على ما فيها من تشويه لسمعة هذا الرجل الشريف ، الذي ما خرج من مصر في نهاية ولايته إلا والناس والعلماء قد خرجوا في أثره وتبعوه إلي العادليه ، يدعون له ويقدمون له الهدايا ، وفقا لما ذكره أحمد كتخدا عزبان ، الذي كان معاصرا للأحداث فقال : « صارت الخلق تدعو له من بيته إلي باب النصر ، وسادتنا العلما وقفوا له بالغورية ، ودعوا له بالسلامة التامة ، وسبب ذلك ، أنه كان يطلع الجوامك الشهري ، ثالث يوم في المهلول ، والمواجب كذلك ، ويخرج الجراية تماما إلى أربابها ، ويرسل غلال الحرمين سنوي تماما . وإذا بهم وصلوه إلي مضاربه في العادلية ، شربوا قهوة وشربات ، وأخذوا خاطره وأتوا منازلهم ، وأرسلوا له جمال محملة عازق هدية ، الحامل والمحمول شيء كثير »[3].

فلو كان إسماعيل باشا ظالما وسلب الناس حقوقهم لما تبعه العلماء والناس محملين بالهدايا متأسفين علي ذهابه عنهم . الحقيقة ، أنه من العسير على الإنسان أن يدرك لماذا يستعذب

(١) تقي الدين المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (٢/ ٦) .
(٢) شهاب الدين بن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٩٢) .
(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٣٩) .

أساتذة التاريخ الطعن في السلاطين العثمانيين وولاتهم ؟! ولماذا يحلو لهم تشويه صورتهم في التاريخ ؟! وكيف طابت نفوسهم بتشويه صورة رجل من أفضل الرجال الذين حكموا مصر وأكثرهم رحمة وشفقة بالناس ، بدون أي سند تاريخي لذلك . حسبنا الله ونعم الوكيل .

الأزمات الاقتصادية بسبب الفتن والصراعات الداخلية

ذهب معظم أساتذة التاريخ إلي أن الحكم العثماني في مصر أصابه الضعف منذ أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، وأنه ترتب على ذلك حدوث صراعات داخلية ترتب عليها أزمات اقتصادية . وهذا خلط ووهم كبير ، سببه أن كثيرا من أساتذة التاريخ يخلطون بين الأزمات الاقتصادية التي وقعت في مصر بسبب فيضان النيل ، وبين الأزمات الاقتصادية التي وقعت بسبب الفتن والصراعات الداخلية ، ومعظمهم يعتبر الحكم العثماني في مصر قد أصابه الوهن منذ أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي مستدلا علي ذلك بواقعة « الطلبة » ، التي سبق أن بسطنا القول فيها . وزعموا أنه منذئذ انتشرت الفوضى في مصر ، وأصبحت يد الدولة مغلولة ، وأن الأمراء المماليك استبدوا بالأمر ويفعلون ما يشاءون . وهذا وهم كبير وخلط للأحداث التاريخية . لأن واقعة الطلبة تلك واقعة استثنائية ، وهي عبارة عن تمرد لفرقة من الجنود السباهي ، ولم تنفرد بها مصر ، بل تزامن مع واقعة الطلبة وقائع تمرد في عدد من الأقاليم ، في جبل لبنان ، وفي حلب وفي الأناضول ، بسبب بعض الاضطرابات في مركز الدولة . وقد بسطنا القول في ذلك في موضعه في الباب الأول ، وبينا أنه تم التصدي لها في عهد السلطان أحمد الأول ، إذ عهد بولاية مصر إلى **محمد باشا السلحدار** الذي قضى علي تلك الفئة الباغية ، في عام ١٠١٧هـ/ ١٦٠٩م ، وانتهي الأمر ، ولم تحدث وقائع مماثلة إلا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . أي بعد أكثر من قرن من الزمان . وهذا دليل على قوة الحكم العثماني وليس العكس ، لأن محمد باشا استطاع القضاء على تلك الفتنة قضاء مبرما ، فلم تقم لأربابها قائمة بعدها . ولكن كعادة أساتذة التاريخ ، فإن بعضهم قد بالغ في وقائع ذلك التمرد ، بل واختلقوا له وقائع من عند أنفسهم لم ترد في المصادر التاريخية . فقد قال **د.عبد الرحيم عبد الرحمن** : « ووصل العنف بهم (المتمردين) أقصى درجاته ساعة قتلهم إبراهيم باشا ، وتحديهم بعد ذلك للسلطان وإعلانهم الاستقلال بمصر وتعينهم سلطانا

ورؤساء من بينهم وتقسيم البلاد فيما بينهم إلى مناطق نفوذ »[١]... وقال د.عمر عبد العزيز : « واتخذت هذه الثورة شكلا انفصاليا ، إذ عين الثوار سلطانا من بينهم »[٢].

قلت : هذان الأستاذان الفاضلان يتخيلان أشياء ، ويتوهمان أوهاما . وأتحدى أن يأتيني أحدهما أو كلاهما ، بمصدر تاريخي واحد ذكر فيه هذا الكلام ، سواء أكان معاصرا للأحداث أو متأخرا هنا . فهذا كلام لا أساس له من الصحة ، فلم يرد في أي مصدر تاريخي أن واقعة الطلبة كانت ثورة انفصالية ، أو أن المتمردين نصبوا سلطانا علي مصر من قبلهم . ولست أدرى من أين التقطه هذان الأستاذان الكبيران .! ولكن يبدو أنهما قرآه في أحد الكتب فوقع من قلبيهما موقعا ، فدوناه علي الفور ، دون أن يكلف أي منهما خاطره بالتأكد من صحته . فقد قدمت القول أن المناخ الثقافي العام السائد في البلاد يستعذب الطعن في العثمانيين بحق أو بباطل . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ومما استدل به د.عبد الرحيم على ضعف الحكم العثماني ، واقعة محمد بيك حاكم جرجا عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م . وملخصها أن السلطان محمدا الرابع أصدر فرمانا بنقل محمد بيك من ولاية جرجا إلي ولاية الحبش ، فامتنع من تنفيذ الأوامر السلطانية ، وتحصن في منفلوط . فما كان من غازي باشا أمير أمراء مصر آنذاك ، إلا أن جمع الجنود وخرج بنفسه إلي الصعيد لقتال محمد بيك . فلما وصل إلى المنيا ، أرسل على الفور قيطاس بيك علي رأس بعض الأمراء إلى منفلوط لقتال محمد بيك ، فلما التقى الجمعان هزمت عساكر محمد بيك في جزء من نهار وتشتت جيشه ، وفر هاربا حتى قبض عليه وضربت عنقه[٣]. وقد علق د.عبد الرحيم على تلك الفتنة بقوله : « وموقف محمد بيك هذا الرافض لتنفيذ أوامر السلطان ، يدل بصورة لا تقبل الجدل على مدى الضعف الذي بدأ يصيب الإدارة العثمانية ، نتيجة لازدياد النفوذ المملوكي ، واحتوائه لأوجاقات الحامية العثمانية »[٤].

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : مقدمة تحقيق بلوغ الأرب برفع الطلب للبرلسي السعدي ، المجلة التاريخية المصرية . المجلد الرابع والعشرون ١٩٧٧ (ص ٢٧٢) .

(٢) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ١٣٧) .

(٣) انظر إبراهيم الصوالحي العوفي : تراجم الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٩٣ - ١٠٤) .

(٤) د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : مقدمة تحقيق تراجم الصواعق في واقعة الصناجق للعوفي (ص ٨) .

قلت : هذا استدلال فاسد . فإن واقعة محمد بيك حاكم جرجا إن دلت على شيء ، فهي تدل بصورة لا تقبل الجدل علي قوة الحكم العثماني وليس العكس . فأمير أمراء مصر استطاع أن يقضي على التمرد في جزء من النهار ! ، فهل يصح بعد ذلك أن يقال أن الحكم العثماني كان ضعيفا ؟! فإن العبرة ليست بحدوث التمرد من عدمه ، لكن العبرة بالقدرة على القضاء عليه في أقصر وقت ممكن .

ثم إن هناك واقعة أخرى تسترعي الإنتباه ، وتدل علي قوة الحكم العثماني آنذاك وهي واقعة رضوان بيك الفقاري ، أحد أقوى أمراء المماليك في مصر ، وكان أميرا للحج لسنوات عديدة ، قال عنه المحبي : « واشتهر صيته وعظمت دائرته ، حتى صار أربعة من مماليكه مثله أصحاب لواء وعلم ، مع ما يتبعهم من الجند والكشاف والملتزمين »[1].... ولأسباب يطول شرحها عزله السلطان مراد الرابع من إمارة الحج ، فلم يسعه إلا الامتثال ، ثم توجه إلى اصطنبول لمقابلة السلطان ، فحبسه وأمر ببيع جميع أملاكه في مصر ، وظل محبوسا في اصطنبول حتى توفي السلطان مراد الرابع عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٤٠م[2]. فهذا الأمير الكبير ذو القوة والتمكين ، لم يسعه مخالفة أوامر السلطان بل لم يستطع أن يمنع نفسه وماله .

وهناك واقعة أخرى أدل من تلك ، وهي أن إبراهيم بيك أبي شنب ، الذي تولى منصب أمير الحج عام ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م . مما يدل على أنه كان من أكابر الأمراء ، قد وقعت له واقعة مع علي باشا أمير أمراء مصر عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م . إذ كان عليه مال متأخر للديوان يقدر بخمسة وثمانين كيسا ، فدفع خمسة عشر منهن ، وعجز عن دفع الباقي ، فاستدعاه علي باشا وطلب منه المال . قال أحمد جلبي : « فقال (إبراهيم بيك) مولانا الوزير إن شاء الله تعالى قبل نزول الحج أسدهم ، تعطيني مهلة إلى أخر محرم ، فلما سمع الباشا هذا الكلام زعق بأعلى صوته : شيلوه إلي العرقانه (سجن) ، وتحور تحورا زايدا . ثم إن مراد بيك الدفتردار تشفع عند الوزير أن يعفوه من الحبس ، فقبل الوزير شفاعته ، وحلف برأس السلطان إن لم يأت بالسبعين ثاني ديوان ، وهو بعد غد وإلا ضربت على اسمه حلقة وقتلته ».... عاد

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ١٦٠) .

(٢) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٣٤) .

إبراهيم بيك إلى بيته والموت بين عينيه ، ثم شاء الله أن ينجيه من تلك المصيبة ، إذ عزل علي باشا عن باشوية مصر وأصبح إبراهيم بيك المذكور قائم مقام ، حتى يأتي الباشا الجديد . الشاهد من تلك القصة أن إبراهيم بيك لم يسعه أن يخالف أوامر الباشا بل حتى ، أنه عجز عن الدفاع عن نفسه ، وقبع في بيته وقد تملكه الرعب ، حتى أنه لما سمع طرقا على باب بيته قال : « رحت ورب الكعبة » . فإذا به البشير بعزل علي باشا[1].

لذلك أقول بكل ثقة ، أن الحكم العثماني ظل قويا في مصر حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، فعندئذ أفلت الزمام ، ولم يعد لباشا مصر كلمة نافذة ، بل كان يعارضه أمراء المماليك ويخالفون أمره ، بل ويعزلونه من تلقاء أنفسهم ، ثم يرسلون إلى السلطان يسألونه تعيين باشا آخر . وقد تجلي ذلك بوضوح في فتنة إفرنج أحمد التي وقعت عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ، إذ دام القتال في القاهرة لأكثر من شهرين ، وتسبب ذلك في خراب كبير ، وأزمة اقتصادية كما سيأتي . ولكن بعض أساتذة التاريخ زعم أن كثيرا من الأزمات الاقتصادية التي مرت بها البلاد قبل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، كانت بسبب الصراعات الداخلية الناتجة عن ضعف الحكم العثماني ، وهذا ليس بصحيح على الإطلاق . ومنهم د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، إذ زعم أن نفوذ الأمراء المماليك ازداد مع مطلع القرن السابع عشر ثم قال : « وقد أدى ذلك النفوذ الذي حصل عليه الأمراء المماليك وسيطرتهم على أوجاقات الحامية العثمانية ، إلي الدخول في صراع مع رجال الإدارة العثمانيين من ناحية ، وإلى نشوب صراع بين البيوت المملوكية ذاتها من ناحية أخرى ... فكثيرا ما كان يصاحب هذه الصراعات حدوث أزمات اقتصادية ، لاضطراب الأمن وفرض مظالم على أبناء الشعب من جانب المتصارعين »[2].

قلت : لم يقدم لنا الأستاذ الفاضل مثالا واحدا لأزمة اقتصادية وقعت بسبب الصراعات السياسية في القرن السابع عشر ، والسبب أنه لا يوجد أصلا ذلك النوع من الصراعات السياسية خلال القرن السابع عشر . لأن الصراعات السياسية التي تحدث بسببها الأزمات

---

(١) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٤ - ١٩٦)

(٢) د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : مقدمة تحقيق تراجم الصواعق في واقعة الصناجق للعوفي (ص ٥ ،٦).

الاقتصادية وغلاء الأسعار ، هي ذلك النوع من الصراعات الذي يصاحبه معارك حربية داخلية ، ينعدم بسببها الأمن ، فتغلق المتاجر أبوابها ، وتتقطع سبل المواصلات فيتعذر نقل الغلال والحبوب من الصعيد وسائر الأقاليم إلي القاهرة ، فيقل العرض مع ازدياد الطلب فترتفع الأسعار . وهذا لم يحدث إلا في فتنة إفرنج أحمد ، أي بعد الفتح العثماني لمصر بقرنين من الزمان . أما الصراعات السياسية المعتادة ، كالتنافس على المناصب وإلقاء الدسائس للتخلص من الخصوم بالطرق السلمية ، فهذا لا يصاحبه أزمات اقتصادية ، وسيأتي أمثلة على ذلك . أما د.صلاح هريدي فقد كان أكثر تفصيلا وذكر عدة أزمات اقتصادية ، وربطها خطأ بالفتن والصراعات السياسية ، وسأبين فيما يلي أن تلك الأزمات الذي ذكرها لا علاقة لها بالفتن والصراعات الداخلية أصلا .

أولا : قال د.صلاح : « الصراع الذي وقع بين البيوتات المملوكية وكان ذلك في ولاية أحمد باشا الوزير الذي حكم في الفترة ما بين ١٠٢٤-١٠٢٧هـ/ ١٦١٥-١٦١٨م ونتج عن ذلك الصراع ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، فارتفع ثمن أردب القمح إلي تسعين نصف فضة »[1].

قلت : معلوم أن أزمة اقتصادية وقعت في تلك الفترة ، وقد أشارت إليها بعض المصادر التاريخية ، ولكن عن أي صراع بين البيوتات المملوكية يتحدث د.صلاح . فإن كلا من البكري والملواني وأحمد جلبي ، لم يذكر أحد منهم شيئا عن أي صراع بين المماليك[2]. ولست أدرى من أين جاء د.صلاح بهذا الكلام .

ثانيا : قال د.صلاح هريدي : « الصراع بين أوجاقي مستحفظان والينكجرية في ولاية عبد الرحمن باشا ، الذي حكم في الفترة من ١٠٨٧- ١٠٩١هـ/١٦٧٦- ١٦٨٠م ، وترجع أسباب هذا الصراع إلي قتل جاويش وكتخدا مستحفظان بجرجا ، بإيعاز من كوجك محمد من الينكجرية ، الذي التجأ إلي باب العزب ، فقامت على أثر ذلك أعمال الشغب على نطاق

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث (ص ٢٥٣) .

(٢) انظر محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٣٣- ١٣٥) ، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية (ص ١٩٣- ١٩٦) ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٢٦) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٣٤ - ١٣٦) .

واسع ، وخربت البيوتات والمخازن ، فأدى ذلك إلى أزمة اقتصادية تمثلت في ارتفاع سعر أردب القمح إلي مائة وخمسين نصف فضة ... »[1].

قلت : لنا في هذا الكلام أربع مسائل :

١- إن أوجاق مستحفظان هو نفسه أوجاق الينى جري (الإنكشارية أو الينكجرية) وإنما يطلق عليه أوجاق مستحفظان باعتبار وظيفته ، لأن أفراده مسئولون عن حفظ القلاع . ويطلق عليه أيضا أوجاق الينى جري ، باعتبار الطائفة العسكرية التي ينتمي إليها أفراده . ويتضح ذلك من المادة الثالثة من قانون نامه مصر في (فرقة مستحفظان قلعة مصر) : « إن الإنكشارية بحكم وظيفتهم من قديم يحافظون علي الخدمة العسكرية في نفس المدينة ، وفي مصر القديمة وبولاق ، ويعين أمثالهم من رجال هذه القلعة في الخدمة العسكرية ، ولا يعين أحد من طائفة أخرى لكي يمارس نفس العمل »[2].... فلا وجه إذا لقول د.صلاح (الصراع بين أوجاقى مستحفظان والينكجرية) .

٢- إن الذي حدث في أوجاق مستحفظان لم يكن فتنة على الحقيقة ، بل لم يزد الأمر عن كونه صراعا على النفوذ داخل الأوجاق ، كان من نتائجه أن تم إعدام فرد من الينى جري بأمر الباشا ، وإرسال أحد عشر إلى جرجا وقتل أحدهم ، ثم إعدام اثنين بأمر الباشا ، ثم تم نفي كوجك محمد إلي خارج مصر . وقد ذكر العوفي تفاصيل ذلك ، فمن أراد المزيد فليرجع إليه[3]. لكن لم يذكر في أي مصدر تاريخي على الإطلاق ، أنه وقع بسبب ذلك اشتباكات مسلحة بين الفرق العسكرية ، أو أعمال شغب أو تخريب أدت إلى رفع الأسعار . وهل يمكن أن ترتفع أسعار القمح والحبوب لمقتل رجلين أو ثلاثة ، ونقل أحد عشر رجلا إلي جرجا ؟!.

٣- إن ارتفاع الأسعار وهياج العامة وقيامهم بنهب الغلال من الحواصل (المخازن) والحوانيت ، قد حدث قبل وقائع الصراع المذكور الذي حدث داخل أوجاق مستحفظان . فقد ذكر العوفي الذي كان معاصرا للأحداث ، أن ارتفاع الأسعار كان في أواخر عام

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٢٥٣) .

(٢) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٢٠) .

(٣) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٦٩٩ ، ٧٠٢) .

١٠٨٨هـ/ ١٦٧٨م ، حتى بلغ سعر أردب القمح مائة وثمانين نصف فضة . فأمر عبد الرحمن باشا في الخامس عشر من صفر ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م أن يباع أردب القمح بمائة وثلاثين فقط ، فأغلق التجار باب رقعة الغلال وأبواب الحوانيت ، وانصرفوا لئلا يضطروا إلي البيع بذلك السعر المنخفض . فما كان من العامة إلا أن كسروا باب الرقعة وأبواب الحوانيت ، ونهبوا ما بها من غلال . أما نفي الأحد عشر إنكشاريا إلى جرجا وإعدام مصطفي باش جاويش ، فقد كان في الثاني عشر من ربيع الأول ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م ، وأما إعدام ذو الفقار كتخدا ، فقد كان في جمادى الأولى من نفس السنة . أما محرم جاويش فقد كان أحد المنفيين إلي جرجا وقتل فيها[1]. فكيف يقال أن تلك الأحداث ترتب عليها ارتفاع الأسعار . فهل يمكن أن يترتب الأسبق على الأحدث ؟!.

٤- **قال د.صلاح هريدي** : « وتفيد المصادر المعاصرة لتلك الفترة أن هذه الفتنة لم تهدأ إلا بعد سفر كوجك محمد إلى اصطنبول ، ولم تذكر المصادر شيئا عن انخفاض الأسعار »[2].

قلت : إن كوجك محمد نفي إلى قبرس ولم ينف إلي اصطنبول . **قال العوفي** : « نزل بيورلدي شريف (أمر من الباشا) بنفي كوجك محمد المذكور إلى قبرص ، فنزلوا به قبل الظهر ، وكتخدائه كور عثمان وأرسلوهم إلي قبرص »[3].... أما المؤرخان **الملواني وأحمد جلبي** فلم يذكرا جهة النفي تحديدا وإنما اكتفيا بالتعميم بقولهم : « أن ينفوه إلى بلاد الروم »[4]. ولست أدرى من أين جاء د.صلاح بأنه نفي إلى اصطنبول . وهل يعد الذهاب إلى اصطنبول نفيا ! أما قول د.صلاح (ولم تذكر المصادر شيئا عن انخفاض الأسعار) فهذا أيضا غير صحيح ، فقد **قال العوفي** بعد أن ذكر واقعة نهب الغلة من الرقعة والحوانيت : « فبعد ذلك

---

(١) انظر إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم ١٦٥ ص ٦٩٧- ٧٠١ ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (١٥٢ - ١٥٣) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٧٥ - ١٧٦) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٢٥٣) .

(٣) إبراهيم الصوالحى العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٧٠٢) .

(٤) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٥٣) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٧٦).

نزلت الأسعار بمصر »[١]. وقال أحمد جلبي عن أواخر ولاية عبد الرحمن باشا عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م : « وصارت مصر في أمان وسخاء ورخاء »[٢].

ثالثا : قال د.صلاح هريدي : « بسبب إرسال حسن باشا السلحدار الذي حكم في الفترة ما بين ١٠٩٩- ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨- ١٦٨٩م الكخيا إلي جرجا ، فقد كلفه حسن باشا بالإشراف على الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين ، ولكن يبدو أن الكخيا تصرف في الغلال بشكل رديء ، فأدى هذا التصرف إلي وقوع تصادم بين البيوتات المملوكية ، ونتج عنه أزمة سياسية واقتصادية ، كان من سلبياتها ارتفاع سعر المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا »[٣].

قلت : هذه الوقائع التي ذكرها د.صلاح آنفا هي محض أوهام وتخاليط ، وذلك من ثلاثة أوجه :

١- أن حسن باشا أرسل كخيته[٤] إلى جرجا لأجل غلال الحرمين ، ولكن حسن باشا قبض عليه وسجنه ، وقيل أنه قتله وهو بدير الطين[٥] جنوب القاهرة ، أي قبل أن يصل جرجا بمسافة طويلة . **قال العوفي** : « عزل حسن باشا كتخدايه وسجنه وضبط أمواله ، وأرسله إلى ناحية دير الطين ، قيل أنه أمر بخنقه بسبب أنه أفشا بأسرار لبعض الأمراء ، وأرسل حذرهم »[٦] ... **وقال الملواني** : « أرسله إلى دير الطين بناء على أنه حوالة الغلال ، يتوجه إلي جرجا للتحصيل ، فلما تجاوز دير الطين قطعت رأس كتخدا المذكور ، وسببه أنه أرسل لجماعة من المطلوبين إلى السلطان ، فحذرهم وأخبرهم »[٧].... أما أحمد جلبي بن عبد الغنى ، فذكر أن الكخيه قطعت رأسه في جرجا[٨]. والأقرب إلى الصواب تقديم روايتي العوفي والملواني لأنهما كانا أقرب إلى

---

(١) إبراهيم الصوالحى العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٦٩٩) .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٧٧) .

(٣) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث (ص ٢٥٤) .

(٤) الكيخيه أو الكتخدا هي كلمة فارسية الأصل تعنى النائب أو الوكيل .

(٥) على شاطئ نيل مصر في طريق الصعيد قرب الفسطاط متصل ببركة الحبش عند العدوية . **ياقوت الحموي** : معجم البلدان (٢/ ٢٧٦) .

(٦) إبراهيم الصوالحى العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٧٨٦) .

(٧) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٥٦) .

(٨) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٨٤).

الحدث ، فأما العوفي فتاريخه ينتهي بأحداث عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م . أما الملواني فينتهي تاريخه بأحداث عام ١١٣١هـ/ ١٧١٩م ، كما أنه بدأ في كتابته عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م[1]. أما أحمد جلبي فإن تاريخه ينتهي في عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م . وبصرف النظر عن ذلك ، فلم يذكر أي من المؤرخين الثلاثة ، أن الكخيه تصرف في الغلال بشكل رديء كما زعم د.صلاح . ولست أدرى من أين جاء د.صلاح بهذا الكلام ، فالمصدر الوحيد الذي أشار إليه هو أوضح الإشارات لأحمد جلبي ، وليس فيه شيء من ذلك ، لا تصريحا ولا تعريضا .!

٢- إن واقعة إرسال الكخيه إلي جرجا أو مقتله بدير الطين لم ينتج عنها أي صراع بين البيوتات المملوكية كما زعم د.صلاح ، فهذا لم يذكره أحد من المؤرخين المعاصرين ولا حتى المتأخرين . ونتساءل من الذين تصارعوا من المماليك ؟! وعلي أي شيء كان الصراع ؟! وعلام انتهى ؟! كل هذه الأسئلة ليس لها إجابة ، لأنه لم يحدث صراع أصلا .!

٣- إن ارتفاع الأسعار في عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م ذكرة المؤرخون الثلاثة[2]. دون أن يرجعه أحد منهم إلي واقعة مقتل الكخيه ، ولا إلى ذلك الصراع المزعوم الذي توهمه د.صلاح ، بل إن العوفي أشار إلى ما قد يفهم منه أن ذلك الارتفاع كان بسبب فيضان النيل . إذ قال بعد أن ذكر أسعار السلع : « أبيع القمح بستة وثلاثين نصفا الويبة ، والشعير بعشرين نصفا الويبة والفول بمائة وعشرين الأردب ... والأرز بثمانية قروش الأردب ، وكان نيل سنة تاريخه اثنين وعشرين ذراعا »[3].

ومن المتعارف عليه أن وفاء النيل آنذاك يكون بسبعة عشر ذراعا ، أو ثمانية عشر ذراعا أما اثنان وعشرون ذراعا ، فهذا فيضان كبير يؤدي إلى تلف المحاصيل الصيفية ، كالفول والشعير فترتفع الأسعار تلقائيا . وقد ذكر العوفي أيضا ، أنه في تلك السنة تهدمت سبع قناطر فعمرها

---

(١) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ٧٢ ، ٢٤٢) .

(٢) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٧٩٤) ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٥٧) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٨٤) .

(٣) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٧٩٤) .

حسن باشا[1]. وإن كان العوفي لم يصرح بأنها تهدمت بسبب الفيضان ، إلا أنه من العسير القول بتهدم سبع قناطر دفعة واحدة بغير سبب . فالأرجح أنها تهدمت بسبب ارتفاع منسوب مياه النيل إلى هذا الحد غير المسبوق ، والله أعلم .

رابعا : ذكر د.صلاح المجاعة التي حدثت في عام ١١٠٦ – ١١٠٧هـ/ ١٦٩٤ – ١٦٩٥م والتي تحدثنا عنها آنفا ، والتي قام فيها إسماعيل باشا بتوزيع الفقراء علي الأغنياء ليطعموهم . فقال د.صلاح : « ونتيجة للصراعات السياسية التي عرفت بحادثة كوجك محمد ، وبسبب انخفاض النيل إبان ولاية علي باشا الخازندار حدثت أزمة اقتصادية »[2].

قلت : **أولا** : مرة أخرى يتوهم د.صلاح وجود صراعات سياسية أدت إلي تلك الأزمة الاقتصادية ، وقد جعل انخفاض النيل هو السبب الثاني ، بالرغم من أنه هو السبب الوحيد الذي لا سبب غيره ، حيث أن تقريبا نصف الأراضي الزراعية في مصر لم يصلها الماء ، وقد ذكرنا الأدلة علي ذلك آنفا فلا داعي للإعادة . **ثانيا** : ما المراد بفتنة كوجك محمد والتي زعم د.صلاح أنها أدت إلى ارتفاع الأسعار؟! نقول اختصارا أن كوجك محمد الذي سبق أن ذكرنا أنه نفي إلي قبرس عاد من المنفى ، ثم تمكن في عام ١١٠٣هـ/ ١٦٩٢م من العودة إلي أوجاق مستحفظان . ولم يرق ذلك لكثير من أفراد الأوجاق ، ثم وقعت محاولة لاغتياله فقام على أثرها بنفي بعض الأفراد أو إخراجهم من الأوجاق[3]. ومن البديهي أن مثل هذا النوع من الصراع على النفوذ والتخلص من الخصوم ، لا يترتب عليه ارتفاع أسعار السلع . وإنما يحدث ارتفاع الأسعار بسبب الصراعات المسلحة التي ينعدم بسببها الأمن ، فتغلق المتاجر أبوابها وتتقطع سبل المواصلات بين المدن ، فتشح المواد الغذائية فيرتفع سعرها . وهذا لم يحدث فضلا عن أن المؤرخين المعاصرين ذكروا أن ارتفاع الأسعار كان بسبب انخفاض النيل . قال العوفي : « كان ابتداء الغلاء سنة ١١٠٦ ... أبيع القمح بثغر بولاق الأردب بمائة وعشرين نصف فضة ، وفي الرميلة الأردب بمائة وثمانين نصف فضة ، والشعير بمائة وعشرين نصفا

---

(١) إبراهيم الصوالحى العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم (١٦٥ ص ٧٩١) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٢٥٤) .

(٣) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٨٢٨ – ٨٦٨) .

والأردب الفول كذلك ، والتبن عليه لا تسأل ، وسبب ذلك كون أن سنة ١١٠٦ كانت شراقي ، وحصل شراقي في جميع أقاليم مصر »[١].... وقال **الملواني** : « واستمر يزيد ويغلو (السعر) حتى انتهى إلى ما سنذكره في حوادث سنة سبع ومائة وألف ، وكان سبب ذلك عدم طلوع النيل المبارك »[٢].... وقال **أحمد جلبي** : « الغلاء والكرب الشديد وكثرة الشحاتين التي امتلأت مصر منهم ، لأن جميع الأراضي التي لم تكن رويت جاء فقراؤها إلى مصر »[٣]... **وقال أحمد كتخدا عزبان** : « إذا بالنيل المبارك توقف سنة تاريخه ، وأهل البلاد فاتوها ودخلوا مصر (القاهرة) من الشراقي ، وطلع الأردب القمح في بولاق ستين نصف فضة »[٤].

قلت : إن هؤلاء المؤرخين الأربعة ، كانوا معاصرين للأحداث وكلهم أسندوا غلاء الأسعار إلى انخفاض النيل ، ولم ينسب أحد منهم شيئا من ذلك إلى الصراعات السياسية التي كانت بين كوجك محمد وخصومه .

ثالثا : إن كوجك محمد كان رحيما بالفقراء ، فلما رأي استغلال التجار لنقص الغلال والسلع ورفعوا أسعارها أكثر من اللازم ، فاستخدم ما لديه من نفوذ وفرض على التجار سعرا وسطا . **قال أحمد جلبي** : « لما رأي كوجك محمد هذا الحال ، ركب إلي بولاق وطلع إلى التكية وأرسل أحضر الأمناء والكيالين والرؤساء وأوصاهم ، بأنه إذا زاد سعر القمح على ستين فضة الأردب ، شنقهم جميعا ، وحلف لهم إن زاد عما قلت لكم ، لا تلومون إلا أنفسكم »... ثم إن التجار أرادوا أن يقدموا له رشوة ليتركهم يبيعوا كيفما شاؤوا فرفض . **قال أحمد جلبي** : « وجعلوا له خمسة آلاف دينار ويبيعوا الحنطة بأربعة قروش الأردب فحلف بالله العظيم ، إن زاد عما هو عليه ليقتلن الجميع » . **وقال للتجار** : « أنتم لمجرد عدم مجيء النيل في يوم واحد تبيعوه بأربعة قروش ، فيلزم من هذا أن تبيعوه في آخر السنة ببالغ ما بلغ ، وهذا أمر لم يمكن ، ولم يزد عن ستين فضة مع وجودي علي قيد الحياة »[٥].

---

(١) إبراهيم الصوالحي العوفي : الصواعق في واقعة الصناجق (ص ٨٧٠) .

(٢) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٠) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٧) .

(٤) أحمد كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ١٧) .

(٥) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٨٩، ١٩١).

وبعد بضعة أيام أطلق مجهول النار على كوجك محمد فأرداه قتيلا . فانشرحت صدور التجار إذ مات من كان يمنعهم عن استغلال الناس في وقت المجاعة ، فارتفعت الأسعار ارتفاعا كبيرا»[1].

ومن العجيب أن د.صلاح هريدي ذكر كل تلك الوقائع السابقة ، ثم ختم الكلام عن تلك الفتنة بقوله : « وانتهت هذه الأزمة بقتل كوجك محمد ، وسر تجار القمح الذين تضرروا من أجراءاته ، لذلك ارتفعت أسعار المواد التموينية »[2].

قلت : إن كلام د.صلاح المذكور لا يستقيم أوله مع آخره . فكيف يقول انتهت الأزمة ، ثم يقول ارتفعت الأسعار .! علي أية حال ، كل ما أردت أن أبينه أنه لم هناك صراعات سياسية من النوع الذي يؤدى إلي ارتفاع الأسعار ، وأن السبب الوحيد لغلاء الأسعار في تلك السنة هو انخفاض النيل ولا شيء غير ذلك .

فمما سبق يتبين أن د.صلاح هريدي افترض سببا وهميا لغلاء الأسعار ، فنسب الأزمات الاقتصادية إلى الفتن الداخلية والصراعات السياسية بين أمراء المماليك ، بسبب ضعف الحكم العثماني . وهذا الكلام لا يصح إطلاقا على الأوضاع في مصر لاسيما في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد . لأن كل تلك الأزمات كانت بسبب فيضان النيل صعودا وهبوطا . أما الفتن الداخلية التي تتسبب في رفع الأسعار فلم تحدث إلا في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، ولكن أساتذة التاريخ يسحبون واقع ذلك القرن على العصر العثماني كله ، وهذا ظلم عظيم ، وتبديل لحقائق التاريخ .

الفتن في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي .

أول واقعة من ذلك النوع هي ما يعرف بفتنة إفرنج أحمد التي وقعت في عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م إذ وقع الانقسام إلى فريقين . الأول : أمير الأمراء خليل باشا ، وأوجاق الينى جري ، وبعض أمراء المماليك كأيوب بيك ، ومحمد بيك الكبير أمير جرجا . وأما الفريق

---

(١) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٦٠) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٩٠) ، أحمد كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٢١) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث (ص ٢٥٥) .

الثاني فأوجاق العزب ، وسائر الأوجاقات ، ومن انضم إليهم من أمراء المماليك كعوض بيك وقانصوه بيك . واستمر القتال لأكثر من شهرين من أواخر صفر حتى أوائل جمادى الأولى . وقد استخدمت المدافع في القتال ، فهدمت البيوت والمتاجر واشتعلت النيران ، وانتهت باستسلام خليل باشا وإفرنج أحمد[1]. وقد كانت تلك الفتنة بلاء كبيرا على أهل مصر . قال الشاذلي الفرا : « فانطبق الجو بالدخان من ضرب المدافع والبندقيات ، وصارت ذخيرة المدافع تنور الجبل مثل البرق ، وكانت ليلة مشؤمة على أهل مصر ، حتى ظننا أن الأرض تنخسف بنا »... وقال أيضا : « وانحرق في ذلك اليوم بيت المرحوم محمد كتخدا بيرقدار والربع المجاور له ، وبيوت كثيرة وحوانيت شهيرة ، فاستمر الحرق ليلا ونهارا عشرة أيام لا يقدرون على إطفاء النار »[2]... ومما لا شك فيه أن تلك الفتنة أدت إلى ارتفاع كبير في الأسعار ، وإن كان لم يرد في المصادر إلا ارتفاع سعر قربة الماء إلى خمسة أنصاف[3] ، إلا أنه من الطبيعي أن ترتفع الأسعار في مثل تلك الأحوال .

وفي عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م ، قامت فتنة محمد بيك جركس الذي استطاع أن يتخلص من خصومه قتلا ونفيا ، وعلى رأسهم إسماعيل بيك بن عوض بيك ، حتى استبد بالأمر وأوقع المظالم بالناس وأصبحت الكلمة الأولى في مصر له . حتى أنه قام بخلع أمير أمراء مصر آنذاك محمد باشا النشانجي عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م . ولم تنته هذه الفتنة إلا بعد أن أرسل السلطان مبعوثا من طرفه يدعى مصطفى أغا جاووش لضبط الحال في مصر . وبعد وقائع يضيق المقام عن ذكر تفاصيلها ، وقتال استخدمت فيه المدافع تمكن مصطفى أغا من الانتصار على محمد بيك جركس الذي لم يجد بدا من الهروب من مصر . ولا شك أن إفراط محمد

---

(١) انظر علي بن محمد الشاذلي الفرا : ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة سنة ١١٢٣ ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر ١٩٦٨م ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٨٦ - ٢٠١) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٢٩ - ٢٥٠) ، أحمد كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٨٤ - ١٠٠) .

(٢) علي بن محمد الشاذلي الفرا : ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة سنة ١١٢٣ المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر ١٩٦٨م (ص ٣٦٣ ، ٣٦٦) .

(٣) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٩٦) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٤٠) .

جركس في المظالم من أسباب الارتفاع الكبير للأسعار آنذاك . حتى أن الناس كانوا يدعون عليه علنا على المنارات ، وكان أتباعه ينهبون التجار في الأسواق ، **قال أحمد جلبي** : « وقد ظهر في مدته الفساد العام والنهب من الأسواق والدكاكين ، ونهبت النحاسين والصاغة وخان الخليلي والخريزانية ، وأخذوا منها أربع ربط كهرمان كل ربطة نصف أوقية ... يأتي ثلاثة أو أربعة من السراجين يقعدون على دكان التاجر ، ويطلبون منه ما يريدونه ويأخذونه بلا شيء ، فإذا تبعهم صاحب الدكان يضربون عليه الطبنجات فيرجع ويحتسب الله »... **وقال أيضا** : « وصار يظلم الناس ثمانية وعشرين شهرا أولها صفر سنة ١١٣٦ ، وآخرها سابع جماد آخر سنة ١١٣٨ »[١].

ولم تكن مظالم جركس وحدها هي السبب في ضيق الحال ، بل شاء الله ﷻ أن يمسك النيل عن الفيضان فوقع الغلاء . ففي شعبان عام ١١٣٥هـ/ ١٧٢٤م ، **قال أحمد جلبي** : « أن المقياس امتلأ بالرمل ولم تدخل الماء إلى الفسقية ، وتأخرت المناداة عن ميعادها أحد عشر يوما »... أما في عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٥م زاد فيضان النيل عن حده فارتفعت الأسعار . **قال أحمد جلبي** : « أوفى النيل وزاد زيادة كثيرة ، وكان كلما زاد البحر زادت الغلال قرشا . وأبيع القمح بعد زيادة البحر ووفائه بثمانية قروش الأردب ديواني ، والفول بسبعة قروش ، وصاب البحر ، والغلاء زايد إلي أن حصل إلي الفقراء شدة كبيرة ».... ومن مظالم محمد جركس أنه انتهز تلك الفرصة ومنع مجيء الغلال من الصعيد ، لئلا ينخفض السعر حتى يبيع غلاله بالسعر المرتفع[٢].

وقد وقعت فتن أخرى في ذلك القرن ، فقد عاد محمد جركس بعد بضع سنوات ووقع قتال كبير . ثم وقعت بعد سنوات فتنة علي بيك الكبير ، ثم بعدها بسنوات فتنة مراد بيك وإبراهيم بيك ، الذين استبدا بحكم مصر ، حتى أرسل لهما السلطان عبد الحميد الأول حملة بقيادة حسن باشا الجزايرلي عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م . فالقرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، يصح أن ينسب غلاء الأسعار الذي وقع فيه إلى الفتن الداخلية والصراعات

---

(١) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٤٣٣ ، ٤٦٦ ، ٤٨٢) .

(٢) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٣٦٩ ، ٤٢٩)

السياسية التي وقعت بسبب ضعف الحكم العثماني ، وذلك إلى جانب الأسباب التقليدية كمنسوب النيل صعودا وهبوطا . أما القرنان السابقان عليه فمن الإجحاف أن نصفهما بذلك . لكن أغلب أساتذة التاريخ واقعون تحت تأثير المنـاخ الثقافي العام السائد ، فيستمتعون بالطعن في العثمانيين سواء بحق أو بباطل . والله يختص برحمته من يشاء .

يتبين مما سبق أن كثيرا من أساتذة التاريخ قدموا لنا صورة غير حقيقية عن أحوال المعيشة في مصر فإن د.الراقد – كما نقلنا كلامه آنفا – أسقط المجاعة التي حلت بمصر في عام ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م على العصر العثماني كله ، وهذا بهتان عظيم . أما د.**عبد الرحيم عبد الرحمن** ففي مقدمة تحقيقه لكتاب « أوضح الإشارات » لأحمد جلبي بن عبد الغني ، تحدث عن الأحوال الاقتصادية لمصر في العصر العثماني ، فلم يذكر إلا المجاعات وارتفاع الأسعار . ولم يذكر سنة واحدة من سنوات الرخاء التي عاشتها مصر . أما د.**صلاح هريدي** فقد تحدث عن الأزمات الاقتصادية وغلاء الأسعار في ثلاثين صفحة ، ثم تحدث عن الرخاء في أقل من صفحة فهل هذا من الإنصاف في شيء ؟! وإذا ما نظر أساتذة التاريخ في المصادر التاريخية بعناية ، سيتبين لهم أن القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، كان الأصل فيهما الرخاء وسعة الحال ، ولم تقع أزمات اقتصادية ولا غلاء في الأسعار إلا بضع مرات فحسب ، وكلها بسبب منسوب مياه النيل صعودا وهبوطا وهي :

١- في عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م عدمت الحنطة والشعير والفول ، وصار الناس يقتاتون ببذر الكتان ، فلما أوفى النيل انخفضت الأسعار .

٢- في أيام علي باشا السلحدار الذي تولي علي مصر لمدة عامين ، من سنة ١١٠هـ/ ١٦٠١م وكان في زمنه الغلاء العظيم ، وسبب ذلك قلة وفاء النيل[1].

٣- في زمن إبراهيم باشا الذي تولى على مصر عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م ، وكانت مصر قد أصيبت في العامين السابقين عليه بكارثتين الأولى عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م حيث كان فيضان

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٨ ، ١٢١) ، يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١١٢ ، ١٢١) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص١١٢، ١٢٧) .

النيل زائدا عن الحد ، ولم ينخفض إلا بعد فوات الموسم . **قال الإسحاقي** : « أما النيل فمكث فوق الأرض إلي غاية هاتور القبطي ، حتى كادت الناس تيأس من الزرع . والذي زرع شتويا هاف ولم يحصل منه إلا ما قل ، لكونه رزع بعد الأوان . وقد من الله على عباده بنمو زرع الذرة ، فإنه أخصب ونما وحصل به النفع لإقليم مصر وقراها ، وغيره من الأقاليم »[1]...وفي العام الذي يليه ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م وقع طاعون عظيم استمر ستة أشهر حتى جمادى الأولى ، وحصد كثيرا من الناس ، حتى أن الصلاة على الأموات في الجامع الأزهر وحده ، بلغت ستمائة نفس في اليوم[2]. فلما جاء عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م وتولى إبراهيم باشا علي مصر ، ازداد الأمر سوء ، ويبدو أن القحط كان حالة عامة في عدة بلاد ، إذ **قال الإسحاقي** : « وحصل في زمنه غلاء يزيد على ما تقدم ، وقد جاءت الناس من الأقطار الشامية والحجازية وغزة وغيرها إلى مصر وأقاليمها بقصد الميرة »[3].

٤- وفي زمن مصطفي باشا البستانجي الذي تولى على مصر عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٣٧م لمدة عامين وشهر . **قال الملواني** : « استمر وفاء النيل إلى آخر مسرى كما تقدم ، ثم أخذ في الهبوط فجبر ولم يوف خمسة عشر ذراعا ، فحصل في تلك السنة للناس غاية الكرب ، وحصل الغلاء حتى بيعت الويبة بثلاثين نصف فضة »[4].

٥- في زمن عبد الرحمن باشا الذي تولى علي مصر عام ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م ، وقع غلاء في الأسعار ، وقد تحدثنا عنه تفصيلا فيما سبق ، في معرض الرد على د.صلاح هريدي .

٦- وفي زمن إسماعيل باشا الذي تولى على مصر عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م وقعت المجاعة الشديدة بسبب انخفاض النيل ، وقد تحدثنا عنه آنفا .

خلاصة القول أن مصر لم تتعرض لموجات من القحط وغلاء الأسعار خلال القرنين

---

(١) محمد بن عبد المعطى الإسحاقى المنوفي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٤٠٤).

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٤٠) ، أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٣٨) .

(٣) محمد بن عبد المعطى الإسحاقي المنوفي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ص ٤٠٥ ، ٤٠٦)

(٤) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٣٥) ، وانظر أيضا أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٤٨) .

العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد ، إلا لبضعة أعوام بسبب منسوب النيل صعودا وهبوطا ، وهي سنوات ضئيلة مقارنة بها يقرب من قرنين من الزمان كان الأصل فيهما الرخاء والسخاء . أما في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، فقد كانت الفتن والصراعات السياسية وغش العملة الفضية ، من أهم أسباب الأزمات الاقتصادية التي عاشتها مصر في تلك الفترة . لكن أغلب أساتذة التاريخ يسحبون وقائع ذلك القرن العصيب على العصر العثماني كله ، فرسموا لنا صورة مشوهة عنه .

وسأذكر فيما يلي أمثلة عن سنوات الرخاء التي عاشتها مصر في العصر العثماني :

١- في زمن خسرو باشا ، الذي تولى على مصر عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م « كان في زمنه غاية الرخاء ، بحيث أن اللحم الضاني رطلين ونصف بنصف فضة ، والجاموسي أربعة أرطال بنصف ، والخبز ثلاثة عشر رطلا بنصف فضة ، العسل الحر كل جرة بنصفين ، والجرة عشرة أرطال ، والأرز بنصفين ، والربع والشمسي بخمسة أنصاف العشرة »[1].

٢- داود باشا الذي تولى على مصر لمدة إثنتا عشرة سنة . بدأت عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م . **قال البكري** : « إحسانه واصل إلي العلماء ، والرخاء في زمنه موجود ، والظلم والجور في دولته مفقود ، والرعايا في دولته في الرعاية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة ، فعليه الرحمة والرضوان مع توالي الأزمان »[2].

٣- في زمن قوجه سنان باشا الذي تولى على مصر عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م « وكان أيام دولته رخاء وسخاء ، وكان الأردب الحنطة بعشرة أنصاف ، وجميع القوت رخيص »[3].

٤- في زمن محمد باشا الشهير بقول قران ، معمر مصر ومبطل الطلبة ، الذي تولى على مصر عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م ، **قال البكري** : « حصل السرور التام والفرح العام ، واطمأنت البلاد ، ورخصت الأسعار ، وتقطرت الأمطار ، وعمرت الديار ، وحصل الأمان وطاب الزمان ، واعتدل الأوان »[4].

---

(١) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٠٨) .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٠٧) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١١٨).

(٤) محمد بن أبي السرور البكري : كشف الكربة في رفع الطلبة. المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون (١٩٧٦) (ص ٣٧٧) .

٥- في زمن محمد باشا طبان الذي تولى على مصر عام ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م ، كان الناس في زمانه في غاية الرخاء ، إلي حد أنهم لم يتأثروا بارتفاع الأسعار بسبب انخفاض النيل . قال أحمد جلبي : « مضت أيام الغلاء ، ولم يشعر أحد بها من كثرة المكاسب والحظ والبحبحة »[١].

٦- في زمن أيوب باشا الذي تولى على مصر عام ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م ، « حصل في أيامه رخص في الأسعار للغاية ، حيث أبيع الأردب القمح بعشرين نصف فضة ، والأردب الشعير بثمانية أنصاف فضة »[٢].

٧- في زمن عابدي باشا الذي تولى على مصر عام ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م : « كانت مدة عابدي باشا سخاء ورخاء وعلم وصحة »[٣].

٨- في زمن رجب باشا الذي تولى على مصر عام ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م : « كانت مدة رجب باشا سخاء ورخاء إلى أن أبيع الأردب القمح بسبعة وعشرين (نصف) فضة ، والفول بثمانية عشر نصف فضة ، والشعير باثني عشر نصف فضة »[٤].

كان ما سبق عرضا لأمثلة من أقوال المؤرخين عن فترات الرخاء الزائد عن الحد ، غير الفترات الطبيعية التي لا يذكر المؤرخون فيها لا رخاء ولا ضيقا ، مما يدل على أنها كانت سنوات طبيعية ، ومما يدل أيضا على أن الفترات التي تمتع فيها الناس بالأمن الغذائي كانت هي الأصل في العصر العثماني ، أما القحط والجدب فلم يكن إلا في سنوات معدودات كما تقدم ذكره . ولكن بما أن أساتذة التاريخ لا يعجبهم النقل إلا عن المستشرقين ، أو المؤرخين الأوروبيين ، فسأنقل لهم ما قاله الرحالة الألماني الأصل فنسلبيو في تقريره عن مصر عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م : « جميل ويفيض بكل نوع من المأكولات للبشر وللبهائم أيضا ، وكل شيء بثمن معقول جدا ، ففي مصر العليا يمكن الحصول بـ« جديد » واحد (وهو واحد على ثمانية من « المدين » وكل ثلاثة وثلاثين منه قطعة من الثمانية ريالات) على عدد كبير من

---

(١) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ١٤٢) .

(٢) يوسف بن محمد الملواني : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (ص ١٣٧) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٢٩١) .

(٤) أحمد جلبي بن عبد الغني : أوضح الإشارات فيمن تولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٣٢٠).

الخبز الأبيض ، يكفي أي أكول . وبمدين ونصف أي ما يساوى ثلاثة « بايوك » وثلاثة أرباع الفلوس الرومانية ، يمكن الحصول علي دجاجة كبيرة ، وبمدين واحد (أي اثنا عشر فلسا) زوجي حمام ، وبجديد واحد (أي بفلس ونصف) ثلاث بيضات ، وهكذا بقطعة من الثماني ثمانمائة وثمانين بيضة . لرطل من اللحم تدفع خمسة جدد ، وبمدين واحد يمكن الحصول على بطيختين من أجود ما يكون »[1].

هذا ما سجله المؤرخون المسلمون والأوروبيون على السواء ، ولكن أنف أساتذة التاريخ أن يذكروه في كتبهم ، وآثروا أن يسودوا أوراقا وأوراقا عن القحط والمجاعة والأمراض زاعمين تصريحا أو تعريضا ، أن الجوع كان هو السمة العامة للحكم العثماني . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

القضاء في العصر العثماني

معلوم أن القضاة في مختلف أنحاء الدولة كان يتم تعينهم من مركز الدولة في اصطنبول ، لكن لا يعني ذلك أنهم كانوا جميعا من الترك . بل كل مسلم في الدولة يستطيع أن يتولى القضاء إذا ما سلك سبيله . ولا يتصور عاقل أبدا أن جميع القضاة في أنحاء تلك الدولة المترامية الأطراف كانوا من الترك ، فمن أين للترك بهذه الأعداد الهائلة التي يملأون بها البلاد طولا وعرضا . وكتب التراجم حافلة بعلماء من مصر والشام وبلاد العجم ، تولوا القضاء في بلاد العرب والترك بل وفي الروم أيضا . ولكن لأن أساتذة التاريخ لا يقرؤون المصادر التاريخية ، ويفضلون النقل عن المراجع لاسيما الأوروبية منها ، فظنوا أن أبناء العرب لم يكن يسمح لهم بتولي القضاء ، وأن ذلك المنصب الرفيع كان مقصورا على أبناء الترك وحدهم ، وهذا وهم كبير . والحقيقة أن كثيرا من العلماء العرب تولى القضاء في الدولة العثمانية قبل الفتح العثماني للبلاد العربية وبعده . وسأذكر منهم قدر استطاعتي على سبيل المثال لا الحصر ، فمنهم ما ذكره صاحب الشقائق :

١- عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي ، تولي القضاء بعدة مدن في زمن السلطان محمد الفاتح ، وتوفي بمدينة كوتاهيه وهو قاض بها .

---

(١) جوفنى ميكيله فنسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة عن مصر (١٦٧١) (ص ٥٤) .

٢- عبد الرحيم بن علاء الدين العربي الحلبي ، كان مدرسا بإحدى المدارس الثمان باصطنبول ، ثم أصبح قاضيا لها ، وتوفي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وكان أبو الشيخ المذكور قد تولى منصب الإفتاء في اصطنبول .

٣- محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي ، تولى القضاء بعدة مدن في زمن السلطان سليمان القانوني وتوفي بمدينة كفه[1] وهو قاض بها .

٤- عبد الباقي بن علاء الدين العربي الحلبي ، تولى قضاء حلب ثم مكة ثم بورصه ثم القاهرة ، ثم تولى قضاء مكة مرة أخرى ، وتوفي بها عام ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م[2].

وأرى أن القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي هو خير القرون التي تؤكد لنا تواجد العرب في الهيئة القضائية في العصر العثماني . فمع بدايته يكون قد مضى سبعون عاما تقريبا على انضمام معظم بلاد العرب إلى الدولة العثمانية ، كمصر والشام والعراق والحجاز واليمن والجزائر ، واستقر نظام الحكم وأصبح المسلمون من عرب وترك وعجم تجمعهم مرة أخرى دولة واحدة ، بعد قرون من التمزق والتفرق ، فذابت الأعراق وانصهرت العصبيات الجاهلية المنتنة ، ولم يكن ثمة فرق بين تركي وعربي وعجمي في تولي المناصب . وسأسوق فيما يلي أسماء من تولى القضاء من علماء مصر ، والشام ، وبلاد العجم من خلال التراجم التي أوردها المحبي في تاريخه المسمى ، « **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** » .

١- المولي إبراهيم بن أحمد الكواكبي الحلبي تولي قضاء مكة وتوفي عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م.

٢- أبو البقاء بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن الصفوري الأصل الدمشقي ، تولى القضاء في أكثر من بلد ، مثل صفد وصيدا وبيروت وحماه والقدس ، وتوفي عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م.

٣- الشيخ أبو السعود بن عبد الرحيم بن عبد المحسن الشعراني المصري ، تولى قضاء القدس ثم قضاء بورصه وأدرنه ، بل وقضاء اصطنبول نفسها . ثم تولى منصب قاضي عسكر

---

(١) تقع بشبه جزيرة القرم علي ساحل البحر الأسود وهي حاليا في أوكرانيا .

(٢) أحمد بن مصطفي طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٨٠ ، ٣٦٠).

أناضولي[1] وتوفي باصطنبول عام ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م[2].

٤- أحمد بن إبراهيم بن تاج الدين الحنفي الدمشقي ، تولى قضاء الركب الشامي ، ثم تولي قضاء فوه[3] ، وتوفي عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م .

٥- المولى أحمد ابن المولى زين الدين العجمي النخجواني[4] الأصل الدمشقي المولد ، تولى قضاء حلب ثم قضاء الشام ، وتوفي عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م .

٦- الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي المصري ، تولى القضاء في الروميلي حتى وصل إلى أعلى مناصبها مثل أسكوب[5] ثم تولى قضاء سلانيك[6] ، ثم تولى قضاء مصر ، وتوفي عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م .

٧- الشيخ إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الأصل الدمشقي المولد ، تولى قضاء صيدا وتوفي عام ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م .

٨- الشيخ برهان الدين بن محمد البهنسي الدمشقي ، تولى قضاء صيدا ، وتوفي عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م.

٩- الشيخ حسين بن عبد النبي بن عمر الحلبي الأصل الدمشقي ، المعروف بابن الشعال تولى منصب إمام السلطان إبراهيم بن أحمد ، ثم تولي قضاء عسكر الروميلي ، ثم توفي عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م[7].

١٠-الشيخ خليل بن عبد الرحيم الشهير بالسعساعي ، ولد بسعسع[8] ، ونشأ بدمشق وتولى قضاء طرابلس الشام مرتين ، ثم تولى قضاء قيصرية ، وأعطى رتبة قضاء القدس . توفي

---

(١) أي قاضي قضاة الأناضول وهو المنصب الثالث في السلك القضائي ، إذ يأتي في الترتيب بعد منصب شيخ الإسلام ومنصب قاضي عسكر الروميلي .

(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٢٣ ، ١٣٧ ، ١٤٤) .

(٣) بتشديد الواو ، والآن هي مركز تابع لمحافظة كفر الشيخ .

(٤) نسبة إلي نخجوان وهي من بلاد العجم وحاليا تقع في أذربيجان .

(٥) عاصمة مقدونيا حاليا .

(٦) حاليا في اليونان .

(٧) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٣٧١ ، ٤٥٢ ، ٥٠٢ - ٢/ ٩٧) .

(٨) هي إحدى قرى مرج الصفر الذي يقع بين دمشق والجولان .

عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م .

١١-روح الله بن محمد أمين بن صدر الدين الشرواني[١] تولى قضاء القدس ثم حلب ومصر وأدرنه ، ثم تولى القضاء في اصطنبول نفسها ، توفي سنة ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م.

١٢-الشيخ شرف الدين العسيلي المقدسي ، تولى قضاء شبشير[٢] ثم قضاء المنزلة . لم أقف علي تاريخ وفاته .

١٣-الشيخ صنع الله بن محب الله بن محمد محب الدين الدمشقي ، تولى قضاء حمص ، ثم تولى قضاء معرة مصرين ، ثم قضاء سرمين ، وكلاهما من أعمال حلب . وتوفي في عام ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م.

١٤-الشيخ عبد الرحيم بن عبد المحسن بن عبد الرحمن الشعراني المصري ، تولى قضاء الحرمين ، وتوفي باصطنبول عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٤م[٣].

١٥-الشيخ عبد الكريم بن محمد المعروف بالعبادي الدمشقي ، تولى قضاء بيروت ، ثم تولي قضاء أبيار[٤] ، ثم قضاء بني سويف ، وتوفي عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م .

١٦-الشيخ عبد اللطيف بن بهاء الدين بن عبد الباقي البعلي ، نسبة إلى بعلبك ، تولى قضاء طرابلس الشام ، ثم قضاء بلغراد ، ثم قضاء فلبه[٥] ، وتوفي بها عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م.

١٧-عبد الله بن محمد بن قاسم المعروف بقاسم زاده الحلبي الأصل ، تولى قضاء القدس ثم أزمير ، ثم الشام ، وتوفي عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م .

١٨-السيد عبد الله بن محمد حجازي الحلبي الشهير بابن قضيب البان ، تولى قضاء دياربكر ، وقتل بحلب عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م .

١٩-عبد الوهاب بن عبد الرحمن الدمشقي المعروف بالتاجي ، تولى قضاء بعض البلاد

---

(١) نسبة إلي شروان من بلاد العجم وهي حاليا أذربيجان

(٢) قرية في صعيد مصر .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٢/ ١٣٠ ، ١٦٦ ، ٢١٧ ، ٢٥١ ، ٣٩٨).

(٤) بلدة في جزيرة في النيل بالقرب من دمياط .

(٥) بلغراد عاصمة صربيا حاليا ، أما فلبه فتقع في بلغاريا .

بالروم ، ثم تولى قضاء حماة ، وتوفي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م .

٢٠-السيد عطاء الله بن محمد المعروف بالصادقي الحلبي ، تولى القضاء بعدة بلاد ، ثم تولي قضاء الموصل ، وتوفي عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م .

٢١-عوض بن يوسف بن محي الدين ، المعروف بابن الطباخ الدمشقي ، تولى قضاء فلبه وبغداد ، والمدينة المنورة ، ثم أقام باصطنبول حتى توفي بها عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م .

٢٢-فضل الله بن شهاب الدين بن عبد الرحمن العمادي الدمشقي ، تولى قضاء بيروت وتوفي عام ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م(١).

٢٣-فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين الدمشقي ، تولى قضاء بيروت وتوفي عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م .

٢٤-محب الله بن محمد محب الدين الدمشقي ، تولى قضاء الحج ، وقضاء العسكر مع الوزير كوجك أحمد باشا في قتال العاصي فخر الدين المعني الدرزي ، ثم أعطى رتبة قضاء القدس ، وتوفي عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م .

٢٥-محمد بن إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن محمد الأكمل بن عبد الله بن محمد بن مفلح تولى قضاء بعلبك ، وصيدا ، وتوفي بدمشق عام ١٠١١هـ/١٦٠٣م .

٢٦-محمد بن أبي بكر بن داود محب الدين الحموي الدمشقي ، تولى قضاء فوه ثم تولى قضاء حمص ، وحصن الأكراد ، ومعرة النعمان ، ومعرة قنسرين ، وعزاز ، وتوفي عام ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م .

٢٧-محمد بن أحمد المعروف بالحتاتي المصري ، تولى قضاء أسيوط ، والجيزة ، وتوفي بها عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م .

٢٨-محمد بن جمال الدين بن أحمد ، الملقب حافظ الدين العجمي المقدسي الدمشقي ، تولى قضاء المنصورة ، ثم قضاء طرابلس الشام ، وتولي قضاء البوصنه وصوفيه(٢) ، وتوفي عام ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م .

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٩، ١٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٢) .

(٢) عاصمة بلغاريا حاليا .

٢٩-محمد بن سليمان بن محمد الكيلاني ، أصله من كيلان[1] ، تولى قضاء قيصرية وطرابلس الشام ، وتوفي عام ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م .

٣٠-محمد بن شعبان الطربلسي الحنفي ، تولى قضاء بلده طرابلس الغرب ، وتوفي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م .

٣١-محمد بن عبد الباقي بن محمد محب الدين الدمشقي الحنفي ، تولى قضاء بعلبك ، ثم قضاء صيدا ، توفي عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م[2].

٣٢-محمد حجازي بن عبد القادر بن محمد ، الشهير بابن قضيب البان الحلبي ، تولى قضاء أريحا ، وتوفي بحلب عام ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م .

٣٣-محمد بن عبد الوهاب بن تقي الدين ، المعروف بابن المهمندار الحلبي ، تولى التدريس بمدرسة السلطان مراد باصطنبول ، ثم تولي قضاء مدينة أيوب[3] ، وتوفي بها عام ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م .

٣٤-محمد بن علي بن محمد ، الملقب علاء الدين الحصني الدمشقي ، تولى قضاء عجلون ثم قضاء صيدا ، وتوفي عام ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م .

٣٥-محمد بن عمر بن محمد ، الملقب تقي الدين الفارسكوري المصري ، تولى قضاء القدس ، وتوفي عام ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م .

٣٦- محمد بن يس المنوفي الشافعي المصري ، تولى القضاء في مصر وتوفي عام ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م.

٣٧-مصطفي المعروف بابن العلبي الحلبي ، تولى منصب الإفتاء بحلب ، ثم أضيف إليه قضاء إدلب من أعمال حلب . ولم أقف علي تاريخ وفاته .

---

(١) تقع في إيران جنوب بحر قزوين .

(٢) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٣٦٧ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣٥١ ، ٣٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣).

(٣) مدينة صغيرة بالقرب من اصطنبول دفن فيها أبو أيوب الأنصاري ﷺ في إحدى المغازي علي القسطنطينية في خلافة معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما ، وقد عثر على قبره فيها بعد فتح القسطنطينية علي يد السلطان محمد الفاتح فنسبت المدينة إليه .

٣٨- يحيى بن محمد بن نعمان الإيجي الدمشقي ، تولى التدريس في المدرسة السليمانية في اصطنبول ، ثم تولى قضاء القدس ، ثم تولى قضاء مكة ، وتوفي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م[1].

قدمت فيما سبق أكثر من أربعين عالما من علماء العرب ، وبعض العجم الذين تولوا منصب القضاء ، وكلهم كانوا على المذهب الحنفي ، وهو المذهب الرسمي للدولة . أما منصب نائب القاضي ، الذي كان يتولاه ثلاثة علماء من سائر المذاهب (الشافعي والمالكي والحنبلي) ، فعددهم أكثر من أن يحصر . وقد كان يشترط لتولي منصب القاضي ، في أي إقليم من أقاليم الدولة العثمانية شرطان :

١- أن يكون على المذهب الحنفي .

٢- الملازمة : وهي أن يلازم أحد أكابر القضاة في اصطنبول ، لمدة عامين ، يحضر معه في محكمته[2]. كما أن القاضي بعد أن يعزل من قضاء معين ، كان عليه أن يلازم في اصطنبول حتى يتم تعيينه في قضاء آخر . وقد ورد في تراجم القضاة المذكورين آنفا أنهم رحلوا إلى بلاد الروم ولازموا . ولا فرق في ذلك بين التركي والعربي والعجمي . فمثلا المولى لطف الله بن زكريا ابن بيرام الرومي . **قال عنه المحبي** : « لازم من شيخ الإسلام سعد الدين بن حسن جان ، وولي بعض المناصب ثم أعطي قضاء فلبه ». وكذلك المولي روح الله بن محمد أمين بن صدر الدين الشرواني (العجمي) ، **قال عنه المحبي** : « ولازم من شيخ الإسلام المولي أسعد ودرس بمدارس قسطنطينية ، إلى أن وصل إلى إحدى المدارس السليمانية ، وولي منها قضاء القدس ». وكذلك الشيخ عوض بن يوسف بن محي الدين المعروف بابن الطباخ الدمشقي **قال عنه المحبي** : « سافر إلى الروم ولازم علي عادتهم .... ثم ولي القضاء بمدينة فلبه ، وبغداد والمدينة المنورة »[3].

فلا فرق على الإطلاق بين التركي والعربي والعجمي ، فمن استوفى الشروط ، تولى المنصب

---

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ١٤ ، ٣٤ ، ٦٤ ، ٨٢ ، ٢٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٧٢).

(٢) عن نظام الملازمة راجع د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٤١٥) .

(٣) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٣/ ٢٩١،٢/ ١٦٦،٣/ ٢٢٤).

أيا كان جنسه . ولعل هذين الشرطين يفسران قلة عدد القضاة العرب مقارنة بالترك ، ويرجع ذلك في رأيي لسببين ، أولهما : لأن أغلب علماء مصر والشام والحجاز كانوا من الشافعية متمسكين بهذا المذهب ، رافضين التمذهب بالمذهب الحنفي ، فقنعوا بمنصب نائب القاضي . أما ثانيهما : فإن بعد المسافة بين القاهرة واصطنبول شكل عائقا لدى كثير من علماء مصر لاسيما أنهم كانوا مضطرين للإقامة فيها عامين على الأقل ، وهذا يفسر زيادة عدد القضاة الشاميين عن عدد القضاة المصريين ، لأن الشام أقرب نسبيا إلي الروم لاسيما حلب وحمص وحماه .

لم يسلم القضاء في العصر العثماني من مطاعن أساتذة التاريخ ، فقد وصفوه بأبشع الصفات وأحط السمات . فأقول معلوم أن القضاء في أواخر العصر العثماني قد داخله الفساد لاسيما في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي (عصر محمد علي باشا) ، لكن كثيرا من أساتذة التاريخ غلوا فيه فنسبوا إليه ما ليس فيه . ولم يكتفوا بذلك بل سحبوا تلك المطاعن على العصر العثماني كله ، وهذا بهتان عظيم . ومن هؤلاء الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي ود.محمد الراقد ود.عائشة عبد العزيز التهامي . فقد **قال عبد الرحمن الرافعي** : « كانت مراسيم التعيين تصدر من الأستانة لقاضي القضاة ، ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء محاكم ، يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا . ومراسيم التعيين لا تصدر إلا في مقابل إتاوة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاء لحكومة الأستانه ... كانت مناصب القضاء تباع وتشترى وتعرض في سوق المساومة على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن أن يصل النظام القضائي في بلد من البلدان إلى مثل هذا الدرك من التدهور »........ **وقال أيضا** : « ولم يكن للتقاضي رسوم معلومة ، ولا مرتب محدود ، بل كان كل قاض يتقاضى في كل دعوى ما يقدره من الأجر بحسبها وكما يقدر »[1].

قال د.محمد الراقد : « كان على القاضي أن يدفع مبلغا من المال لأولي الأمر بالأستانه حتى يصدر قرار يعينه ، من ثم كان يحصله ببيع قضاء الولايات لمن يدفع أعلي ثمن » ... **وقال أيضا** : « كان القضاة يتقاسمون الرسوم مع أعوانهم من الكتبة الذين أطلق عليهم اسم السادة

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٤٩ ، ٥٠) .

العدول ، أو مأذون القاضي وكانوا يفرضون رسوما استبدادية »[1].

قالت د.عائشة عبد العزيز : « في أواخر الحكم العثماني كانت وظيفة قاضي العسكر تشترى من القسطنطينية ، ويدفع التزامها إلي رئيس قضاة الأناضول ، وشيخ الإسلام وكذلك وظائف القضاة الست والثلاثون »[2].

قلت : هذا الكلام باطل من أربعة أوجه :

١- أما بخصوص المبالغ التي يدفعها القاضي ، فقد ذكر لنا د.سيد محمد السيد من واقع دفاتر المالية العثمانية التي تعود إلى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ، أن قاضي مصر بعد أن تصدر له البراءة (قرار التعيين) من السلطان ، كان يدفع مبلغ خمسة عشر ألف آقجه كرسم براءة ، يوزع على جند الدركاه العالي ، ويعطي الهبات لأرباب الوظائف في الديوان الهمايوني[3]. وهذا المبلغ ضئيل جدا إذا ما علمنا أن مرتب قاضي مصر كان خمسمائة أقجه يوميا . كما كان يخصص له عشرون أردبا من القمح ، وعشرون أردبا من الشعير شهريا . وذلك بخلاف ما كان يتقاضاه من الرسوم على الدعاوى[4]. فيتبين لنا أن رسوم البراءة هذه لا تعدو عن كونها أقل من مرتب شهر ، فالإدعاء بأن القاضي يسعى في مدة ولايته إلى نهب الناس وقبول الرشا منهم لتعويض ما دفعه ، فهذا قول ليس له وجه ، وهو مردود على صاحبة .

ومن جهة أخرى لا يعتبر مبلغ رسوم البراءه هذا من قبيل الرشوة ، والدليل على ذلك أنه يثبت في الدفاتر الرسمية . كما أن ذلك المال يوزع على جند الدركاه العالي ، وموظفي الديوان ، وهؤلاء ليس لهم أي دخل على الإطلاق في تعيين قاضي مصر . بل هو من اختصاص قاضي عسكر الأناضول ، إذ يقوم بترشيح قاض لتولي هذا المنصب ، ثم يعرضه على الصدر الأعظم الذي يقوم بدوره بعرضه على السلطان ، فإذا صدق على ذلك الترشيح تصدر البراءة[5].

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٣٠٧، ٣٠٨) .

(٢) د.عائشة عبد العزيز التهامي : شاهد قبر أحد قضاة مصر في العصر العثماني. مجلة المؤرخ العربي العدد الحادي عشر (٢٠٠٣) المجلد الأول (ص ٢٣٢) .

(٣) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٩١) .

(٤) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٢١) ، د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٩٤) .

(٥) أولياء جلبي : سياحة نامه مصر (ص ٢٢١) ، د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٩١) .

وفي اعتقادي أن رسوم البراءة هذه ، إنما هي عادة قديمة عند العثمانيين ، وهي من قبيل الهدية فرحا بحصول الشخص على منصب رفيع ، وبمرور الوقت أخذت شكلا رسميا ودونت في الدفاتر . وهي شبيهة بالمنحة التي كان السلطان العثماني يوزعها على الجند عند جلوسه على العرش منذ أيام السلطان محمد الفاتح ، وبمرور الزمن أصبحت عادة لا فكاك منها ، إذ يتململ الجنود ويضطربون وربما يثورون إذا لم يحصلوا عليها ، والله أعلم . ولكن جدير بالذكر أن هؤلاء الأساتذة الأفاضل لم يقدموا لنا دليلا واحدا على مزاعمهم التي ذكروها ، بل والأنكى من ذلك أن د.عائشة قد نقلت ذلك الكلام عن موسوعة وصف مصر التي كتبها علماء الحملة الفرنسية . أما د.الراقد فقد نقل عن الرافعي . وأما الرافعي فلم يذكر مصدره الذي رجع إليه ، ولكن لا شك عندي أنه نقل عن موسعة وصف مصر أيضا. أي هوان هذا الذي أنتم فيه يا أيها الأساتذة ؟! ألا تجدون في صدوركم حرجا من نقل هذه المطاعن من كتب أعدائكم ، لاسيما بعدما تبين سوء نواياهم ، لمن عساه كان يحسن الظن بهم ؟! حتى قال المؤرخ الفرنسي الشهير **أندريه ريمون** : « لقد كانت أعمال مؤرخي الاستعمار الفرنسي تتجه بطبيعة الحال إلى تشويه صورة الحالة السابقة في البلدان التي زعم المحتل الجديد صراحة ، أنه يعيد توطيد السلام والرفاهية "الرومانية" فيها »[1].

وقال المفكر الفرنسي **هنري لورنس** : « نجد الأطروحة المستعربة التي تلقي المسئولية الأساسية عن انحدار الشرق على الأتراك المخربين المتعصبين . وتلك الأطروحة هي الأوسع انتشارا بين المؤرخين المحترفين »[2].

ألا تخجلون يا أيها الأساتذة ؟! ألا تستحون من أنفسكم ؟! ألا ترون أنكم أصبحتم في أيدي المستشرقين أطوع من الأغنام في أيدي رعاتها ؟! ألم تعلموا أن أمتكم كان بها مؤرخون ؟! وحقيق على كل أستاذ يحترم نفسه ، ودينه ، وأمته ، أن يرجع إليهم ! خير له من أن يخرج علينا يتبجح ويتنفخ بما ليس له به علم ! وإنما هو ناسخ قائف ! أهكذا تعلمون أبناءنا في الجامعات ؟! أي بلية هذه التي ابتلانا الله بنا ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى (ص ٣٤) .

(٢) هنري لورنس : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر. الاستشراق المتأسلم (ص ١٠١) .

٢- أما القول بأن مناصب القضاء كانت تباع وتشترى ، وتعرض في سوق المساومة ، وأن قاضي مصر كان يبيع قضاء الولايات بأعلى ثمن ، فهذا أيضا مما لم يتفضل علينا الأساتذة بتقديم دليل واحد عليه . وهو باطل بلا ريب ، لأن قضاة الولايات (قضاة النواحي) تصدر لهم براءات من السلطان أيضا ، بترشيح من قاضي عسكر الأناضول ، شأنهم شأن قاضي مصر . ولا يملك قاضي مصر أن يعين قاضي الإسكندرية ، ولا قاضي المحلة ، ولا قاضي رشيد ، وغير ذلك . وقد ذكر لنا أولياء جلبي أن قضاة النواحي كان عددهم ستة وسبعين ، ثم قال : « وتوجه هذه الأقضية كلها من الأستانة العلية ، ببراءات سلطانية بمعرفة قاضي عسكر الأناضول الذي يتبعه القلم الخاص بأقضية مصر ، قلم مستقل ، لا يتدخل في شئونه قضاة قط »[1].

هناك شبهة في هذه المسألة قد تقع للبعض ، فيما يتعلق بمنصب قاضي مصر . وهى كيفية حصول القاضي على مرتبه . فالنظام المالي العثماني كما هو معروف لدارسيه ، كان نظاما لا مركزيا ، ويعمل على تخفيف الأعباء المالية والإدارية عن أجهزة الدولة ، تحاشيا لتكدس الأوراق والدفاتر والموظفين . وقد ذكر لنا د.سيد من واقع الدفاتر العثمانية أن قاضي مصر لم يكن يحصل على مرتبه (الخمسمائة آقجه يوميا) نقدا ، بل كانت الدولة تمنحه قطعة أرض تدر خراجا يساوي مرتبه[2].

ومعلوم أن الخراج يحصل مرة في كل عام . فلو أن قاضيا شغل منصبه بضعة أشهر ، وكان عليه أن يرحل قبل أن يحين موعد تحصيل الخراج ، فكيف عساه أن يحصل على مرتبه ؟! ففي هذه الحالة كان القاضي الجديد المعين من اصطنبول يدفع للقاضي القديم قيمة الأشهر التي قضاها في منصبه ، على أن يقوم القاضي الجديد بتحصيل خراج الأرض كاملا في نهاية العام . وقد وقع ذلك لكثير من القضاة ، أنه لم يدم في منصبه سوى بضعة أشهر . ومن هؤلاء عثمان أفندي ابن محمد باشا عام ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م ، وكانت مدته ثمانية أشهر . ومحمد بن عبد

---

(١) أولياء جلبي : سياحة نامة مصر (ص ٢٢١) ، انظر أيضا د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٤١٤ – ٤١٧) .

(٢) د.سيد محمد السيد : مصر في العصر العثماني (ص ٣٩٤) .

الغني أفندي عام ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م ، وكانت مدته شهرين ويوم واحد . وعبد الكريم أفندي عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م ، وكانت مدته ستة أشهر وخمسة عشر يوما . وجدير بالذكر أن عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م ، قد تعاقب فيه ثلاثة قضاة على منصب قاضي مصر ، هم عبد الله أفندي ابن محمود ، ورضوان أفندي الشهير بالمحتشم ، والمولى موسى بن زكريا أفندي[١].

هكذا كانت حقيقة الحال ، فلربما اشتبه الأمر على بعض الناس ، فظن أن القاضي كان يبيع منصبه . والحق أنه لم يكن هناك بيع ولا غيره ، لأن القاضي لا يملك ذلك ، بل يأتي التعيين من اصطنبول رأسا . وجدير بالذكر أن الجبرتي عندما عدد مفاسد القضاء في أحداث ربيع الثاني ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م ، لم يذكر من بينها أن المنصب يباع أو يشترى[٢]. ولكن جدير بالذكر أن كلا من قاضي مصر ، ومن يتبعونه من قضاة النواحي ، كانوا ينفردون بتعين نوابهم من المذاهب الأربعة ، ويحتمل أن يوجد بعض القضاة الفاسدين ، فيأخذون منهم مالا على ذلك . وكان السلطان سليمان القانوني قد شدد على منع ذلك في قانونه ، كما جاء في المادة ٤١ الخطاب لأمير أمراء مصر : « إن ظهر لديك بعد التفتيش أن أحد القضاة باع نيابة محكمته لقاء مقطوع ، فلا تترك له مجال الإفلات ، بل زج به في السجن ، وابحث لنيابة المحكمة عن واحد من أهل العلم من المسلمين واعرض الأمر على العتبة العالية ، حتى يجيء إليك أمرنا فتنفذ ما يقتضيه . بالإضافة إلى ذلك فإن لدى القضاة الشرعيين بعض النواب والمحضرين الأشرار يرتكبون التزوير ، ويلبسون الحق ثوب الباطل ويفعلون الباطل على أنه الحق فيظلمون المسلمين ويعتدون عليهم ولا بد من إبعاد مثل هؤلاء . فلا يقدم قاض بعد اليوم على أن يلحق بخدمته نوابا ومحضرين من هذا النوع . وإن لم يرض الناس عن نائب أو محضر أو يمتدحوه نتيجة لظهور شره ، فلا يوكل إليه القاضي عملا . ومن لم يرعو من القضاة بعد هذا التنبيه ، ويدخل نوابا بهذه الصفات في الخدمة ، يعزله أمير الأمراء من المحكمة ، ثم يبحث عن بديل ينوب عنه ويعرض الأمر . ومن يظهر شره وفساده من النواب يسجل أمير الأمراء اسمه في دفتره ، ويرسل إلى أبوابنا العالية ليصدر بشأنه أمرنا جليل القدر ويعمل

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية (ص ١٧٠ - ١٧٤) .
(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤/ ٢٤٨) .

بموجبه »[1] .

فلا أتصور أن يقدم قاض على ذلك لاسيما في القرون الأولى من الحكم العثماني ، فإنني لم أجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى ذلك ، إلا ما قاله الجبرتي بخصوص ما استحدث من بدع في القضاء إبان حكم محمد علي باشا ، في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي . وسيأتي الكلام على ذلك .

٣- أما قولكم أنه لم يكن هناك رسوم معلومة للتقاضي ، وأن القاضي كان يفرض على الناس ما يشاء فهذا باطل أيضا ، فقد كانت الرسوم محددة لا يستطيع القاضي أن يتجاوزها ، وكانت في زمن الجبرتي خمسة أنصاف فضة ، وتسمى « معلوم الإمضاء »[2].

٤- بقي أن نشير إلى ما ذكره عبد الرحمن الرافعي محرفا كلام الجبرتي ، ومخرجا إياه عن سياقه ، ليبدو أن الجبرتي ذم القضاء في العصر العثماني بصفة عامة . وسأنقل نص كلام الجبرتي أولا ، فتدبره وتمعن فيه ، لأن الأمر فيه لبس كبير ، وسأجتهد في بيانه إن شاء الله ، ثم أبين كيف حرفه الرافعي . فقد قال الجبرتي في أحداث ربيع الثاني ١٢٣١ : « حصلت جمعية ببيت البكري وحضر المشايخ وخلافهم ، وذلك بأمر باطني من صاحب الدولة . وتذاكروا ما يفعله قاضي العسكر من الجور والطمع في أخذ أموال الناس والمحاصيل ، وذلك **أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة (اصطنبول) كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها في** أيام الأمراء المصريين (أمراء المماليك) . فلما استولت هؤلاء الأروام على الممالك ، والقاضي منهم ، فحش أمرهم وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعا وابتكروا حيلا لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل . وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذي كان قبله ، أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه ، حتى فحش الأمر ، وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة ، وكتخدا الباشا بل والباشا . وصارت ذريعة وأمرا محتما لا يحتشمون منه ، ولا يراعون خليلا ولا كبيرا ولا جليلا . وكان المعتاد القديم **أنه إذا ورد القاضي أول السنة التوتية** ، التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضي ، وكذلك تقرير الوظائف كانت

---

(١) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٨٢)

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤/ ٢٤٨) .

بالفراغ أو المحلول ، وله شهريات على باقي المحاكم الخارجة ، كالصالحية ، وباب السعادة والخرق ، وباب الشعرية ، وباب زويلة ، وباب الفتوح ، وطيلون ، وقناطر السباع ، وبولاق ومصر القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميري ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء وهو خمسة أنصاف فضة ... وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه . فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضاتها ابتدعوا بدعا شتى ... إذا ضبط تركة من التركات وبلغت مقدارا أخرجوا للقاضي العشر من ذلك ، ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز ، والتكفين ، والمصرف ، والديون ، وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة ، فيتفق أن الوارث واليتيم لا يبقى له شيء . ويأخذ من أرباب الديون عشر ديونهم أيضا ، ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة ، وقد كان يصالح عليها بأدنى شيء وإلا إكراما ... ومن الزيادات في نغمة الطنبور كتابة الإعلامات ، وهو أنه إذا حضر عند القاضي دعوى بقاصد من عند الكتخدا (وكيل الباشا) أو الباشا (محمد علي) ليقضي فيها ، وقضى فيها لأحد الخصمين ، طلب القاضي له إعلاما بذلك إلى الكتخدا أو الباشا ، يرجع مع القاضي تقييدا وإثباتا ، فعند ذلك لا يكتب له الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه ، إلا أن يسلخ من جلده طاقا أو طاقين . وقد حكمت عليه الصورة وتابع الباشا أو الكتخدا ملازم له ويستعجله ، ويساعد كتخدا القاضي عليه ويسليه على الظفر والنصرة على الخصم . مع أن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين ، لما قلدوا الشيخ أحمد العريشي القضاء بين المسلمين بالمحكمة ، حددوا له حدا في أخذ المحاصيل لا يتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط ، له منه جزء والكاتب جزء . فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكري كتبوا عرضا محضرا ، ذكروا فيه بعض هذه الإحداثات والتمسوا من ولي الأمر رفعها ، ويرجون من المراحم أن يجري القاضي ويسلك في الناس طريقا من إحدى الطرق الثلاث ، إما الطريقة التي كان عليها القضاة في زمن الأمراء المصريين ، أو الطريقة التي كانت في زمن الفرنساوية ، أو الطريقة التي كانت أيام مجئ الوزير (يوسف باشا) ، وهى الأقرب والأوفق ، وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه من الجور . وتمموا العرض محضرا وأطلعوا عليه الباشا ، فأرسله إلى القاضي فامتثل الأمر

وسجل بالسجل على مضض منه ، ولم تسعه المخالفة »[1].

قلت : كان اجتماع العلماء لبحث مظالم القضاء في عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م ، أي بعد أحد عشر عاما تقريبا من ولاية محمد علي باشا على مصر . **وقول الجبرتي (أن القضاة الذي كانوا يأتون من باب السلطنة (اصطنبول) كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها في أيام الأمراء المصريين)** . يتبين منه أن العلماء كانوا يشيدون بالنظام القضائي الذي بدأ منذ الفتح العثماني لمصر حيث أصبح القاضي يعين من اصطنبول . **وقوله (الأمراء المصريين)** يعني به أمراء المماليك الذين تسلطوا على البلاد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، وأصبحت لهم الكلمة النافذة ولم يعهد للباشا من الأمر شيء ، كأيام على بيك الكبير ، ثم محمد بيك أبي الذهب ، ثم مراد بيك وإبراهيم بيك ، حتى جاءت الحملة الفرنسية ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م . ثم بعد جلائها كانت الكلمة لبعض الأمراء المماليك أيضا كإبراهيم بيك ، ومحمد بيك الألفي ، وعثمان بيك البرديسي حتى قضى عليهم محمد علي باشا .

ويتبين ذلك أيضا من **قوله (كان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضي في أول السنة التوتية)** فإن الجبرتي يتحدث عن حال القاضي الذي كان يرد من اصطنبول ، بأنه لم يكن يتعدى العوائد المقرره له ، واستمر ذلك حتى تولى محمد علي باشا على مصر ، أي ما يقرب من ثلاثة قرون . ثم قال الجبرتي **(فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضاتها ابتدعوا بدعا شتى)** فالجبرتي هنا لا يمكن أن يكون قد أراد بقوله (الأتراك) أي العثمانيون الذين فتحوا مصر عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ، بل هو يعني الأتراك الذين تحكموا بالأمر بعد الأمراء المماليك . وهو محمد علي الذي قام بتصفية المماليك في ما يعرف بمذبحة القلعة عام ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م ، وهذا ظاهر في سياق الكلام . فكل المآخذ التي نقمها العلماء على أداء القضاة والتي ذكرها الجبرتي ، تتعلق بحكم محمد علي باشا ، بعد ما استطاع أن يغل يد السلطنة العثمانية عن مصر واستبد هو بالأمر . ومما يؤكد ذلك أيضا أن العلماء خيروا محمد علي بين ثلاث طرق ، إما الطريقة التي كان عليها القاضي أيام الأمراء المماليك . أي عندما كان القضاة يأتون من اصطنبول وهى باب السلطنة كما ذكر الجبرتي . ولا يظنن أحد أن المراد بالمماليك هنا الدولة

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤/ ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

المملوكية التي كانت قبل الفتح العثماني ، لأن هؤلاء كانوا سلاطين ولم يكونوا أمراء . ثم إن الدولة المملوكية كان مقرها القاهرة ، فلو كان الجبرتي يريد الدولة المملوكية لما قال (**يأتون من باب السلطنة**). وأما الطريقة الثانية هي التي كانت أيام الحملة الفرنسية ، عندما حددوا للقاضي الشيخ أحمد العريشي مقدارا محددا لا يتعداه . وأما الطريقة الثالثة هي التي كانت عند مجيء الوزير وهو يوسف باشا ضيا ، الصدر الأعظم ، وهو الذي جاء على رأس الجيش العثماني لإجلاء الفرنسيين عن مصر ، ثم مكث في مصر بضعة أشهر لضبط أحوالها ، وهي الطريقة التي ارتضاها العلماء وأوصوا بها .

خلاصة القول أن العلماء الذين اجتمعوا لأجل إصلاح القضاء ، مانقموا عليه إلا البدع التي استحدثها القضاة في زمن محمد علي باشا ، وطالبوا بأن يعود القضاء العثماني الذي كان أيام الأمراء المماليك ، أو الذي كان أيام يوسف باشا ضيا . لكن عبد الرحمن الرافعي لبس علينا وخدعنا ، وأوحى لنا بأن المظالم التي تحدث عنها الجبرتي إنما هي متعلقة بالقضاء في العصر العثماني بصفة عامة ، إذ أنه قال قبل أن ينقل كلام الجبرتي المذكور آنفا :

« ذكر الجبرتي طرفا من شكوى الناس من فساد النظام القضائي ، وكلامه وإن كان منصرفا إلى أوائل عصر محمد علي ، إلا أنه يتضمن وصف هذا النظام في عهد البكوات المماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع ونشترى ، وكيف زادت الحالة سوء لما عادت السلطة للأتراك بعد انقراض حكم المماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية »[1].

قلت : هكذا لبس علينا الرافعي ، وأوحى لنا أن المظالم القضائية التي ذكرها الجبرتي تتعلق بعصر أمراء المماليك ، بالرغم من أن الجبرتي وسائر العلماء أشادوا بتلك الفترة وتمنوا عودتها.. كما زعم الرافعي أن الحال ازداد سوء بعد جلاء الفرنسيين ، بالرغم من أن الجبرتي وسائر العلماء أشادوا بالقضاء في زمن الصدر الأعظم يوسف باشا الذي رتب أحوال مصر بعد جلاء الفرنسيين ، بل أن طريقته في تنظيم القضاء هي الطريقة التي فضلها العلماء وتمنوها وارتضوها لأنفسهم وللناس . والحقيقة أن كل المظالم التي اشتكى منها العلماء وسجلها الجبرتي في تاريخه إنما هي مظالم استحدثت بعد أن قضى محمد علي باشا على المماليك واستبد بالأمر .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في (مصر ١/ ٥١) .

أما د.عبد الرحيم عبد الرحمن كعادته فإنه يستدل بفساد الأحوال في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، على العصر العثماني كله فقال : « وبتدبر الأمر نجد أن إيكال مهمة جمع الرسوم إلى القضاة أنفسهم وأخذ أجرهم من المتقاضين ، أدت هذه الأمور إلى خراب ذمم نفر منهم ، وبالتالي أصاب القضاء في العصر العثماني التدهور بصورة مشينة »[1].... ثم أخذ د.عبد الرحيم ينقل عن الشيخ أحمد العريشي (ت ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م) من رسالته : « **رسالة في علم وبيان طريق القضاة وأسمائهم بمصر المحروسة وأقاليمها** » . والشيخ أحمد في حقيقة الحال ، إنما ذكر المفاسد التي وقعت في زمانه ، ولكن د.عبد الرحيم استدل بكلامه على فساد الأحوال في العصر العثماني كله . كما نقل د.عبد الرحيم عن الجبرتي مفاسد القاضي نجم الدين بن صالح التمرتاشي ، الذي تولى قضاء المنوفية في عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م[2]. فهكذا ترى أن د.عبد الرحيم يسحب مفاسد القضاء في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، والقرن الذي يليه ، على الحال في العصر العثماني كله متجاهلا أكثر من قرنين ونصف من الزمان من العصر العثماني ، كان النظام القضائي فيه منضبطا . وإلا فلماذا لا يأتينا بمثال عن الفساد في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، أو عن القرن الذي يليه .! ومن العجيب أن هذا القاضي الفاسد المذكور كان في زمن علي بيك الكبير ، الذي استبد بالأمر في مصر وغل يد الدولة على نحو شبه كامل ، حيث طرد الباشا ومنع الخراج وضرب اسمه على السكة كما سيأتي . وبالرغم من ذلك فإن د.عبد الرحيم لا ينسب فساد ذلك القاضي الفاسد إلى علي بيك ، بالرغم من أنه كان الآمر الناهي في البلاد آنذاك ، وإنما يحمله للحكم العثماني .! بل والأنكى من ذلك ، أنه اعتبر ذلك المثال البائس دليلا على فساد القضاء في العصر العثماني كله .! وهذا بهتان عظيم ، وأبعد ما يكون عن المنهج العلمي السليم .

ويطيب لي في هذا المقام ذكر أقوال بعض الأوروبيين في القضاء العثماني ، وأولهم السويسري

---

(١) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٣٤٣) .

(٢) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٣٤٣ – ٣٤٦).

دوسون ، الذي مكث في الدولة العثمانية حوالي ربع قرن ، في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي . والثاني هو الإنجليزي **بول ريكوت** ، الذي مكث ربع قرن أيضا ، ولكن في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . وهؤلاء تنتفي عنهم أية شبهة تحيز أو مجاملة . فقد **قال الأول** : « الجلسات الثانية أو الثالثة نادرة ، أكثرية الدعاوى يفصل فيها خلال ساعة واحدة » ... **وقال الثاني** : « يفصل في أهم الدعاوى خلال ساعة واحدة . وينفذ الحكم في الحال . لا تطبق أية ألاعيب لتأخير الحكم ، كما تجرى لدينا في أوروبا »[1].

ومما شنع به أساتذة التاريخ على القضاء في العصر العثماني ، أنهم زعموا أن القضاة الذين كانوا يردون من الأستانة كانوا يجهلون اللغة العربية ، مما أفسد عملية التقاضي وأدى إلى ضياع الحقوق . **قال عبد الرحمن الرافعي** : « كان قاضي القضاة في الغالب تركيا ، لا يعرف العربية ، فكان يتخذ ترجمانا يترجم له الأوراق ، وينقل أقوال الخصوم . والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول »[2]... **قال د.عبد الرحيم عبد الرحمن** : « يرسل (السلطان) قضاة عثمانيين لمساعدة قاضي العسكر في تطبيق أحكام العدالة ، مستعينين في ممارسة عملهم بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد »... **وقال أيضا** : « أثبت القضاة العثمانيون فشلهم في إدارة القضاء المصري ، نظرا لجهلهم لغة البلاد واعتمادهم على التراجمة »[3].

قال د.صلاح هريدي : « وفي بدء الحكم العثماني في مصر ، كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضي العسكر في تطبيق العدالة في مصر ، وهؤلاء يستعينون بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد وتقاليدهم »[4]... **قالت د.عائشة عبد العزيز** : « وكل هؤلاء القضاة كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، وللأسف فإنهم كانوا يجهلون لغة البلاد ، بما فيهم قاضي العسكر الذي كان يستعين بتراجمة يقرؤون له النصوص ويترجمونها كما يحلو لهم »[5].

---

(١) نقلا عن يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٨٢) .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٤٩) .

(٣) د.عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني (ص ٣٣٠، ٣٣٢) .

(٤) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ١١٨) .

(٥) د.عائشة عبد العزيز التهامي : شاهد قبر أحد قضاة مصر في العصر العثماني . مجلة المؤرخ العربي العدد الحادي عشر ٢٠٠٣ - المجلد الأول (ص ٢٣٢) .

قلت : مرة أخرى تنقل د.عائشة عن كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، وأظن أن الرافعي نقل عنه أيضا ، أما د.صلاح فلا أدرى عمن ينقل . والخلاصة أن كل هذا الكلام باطل من ثلاثة أوجه :

الأول : أن اللغة العربية عند العثمانيين منذ نشأتهم كانت لغة أساسية ، واستخدموها في التعليم وفي كتابة الوثائق . ويحتوى أرشيف طوب قبو على وثيقة رقم (٧٠٨١) وهي وثيقة وقف السلطان مراد الثاني لإنشاء دار الحديث في أدرنه ، فهي مكتوبة باللغة العربية[1]. ومعلوم أن السلطان مراد الثاني توفي عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ، أي قبل الفتح العثماني للبلاد العربية بما يقرب من سبعين عاما . قال المؤرخ التركي الكبير عثمان أركين في كتابه تاريخ التربية التركية : « اتخذ السلاجقة الأتراك في دولتهم السلجوقية اللغة الفارسية ، لغة رسمية لهم وهم أتراك . والعثمانيون مع استخدامهم للغتهم التركية في الأعمال الحكومية ، إلا أنهم لم يدرسوا هذه اللغة للشعب في أي مؤسسة من المؤسسات ، فاللغة السائدة والمسيطرة في المدارس والجامعات عند العثمانيين كانت اللغة العربية . ولم تتنح اللغة العربية عن المكانة الأولى في المؤسسات التعليمية العثمانية إلا مع إلغاء النظام التربوي العثماني عندما صدر قانون ١٩٢٣م »[2].

وإذا ما نظرنا في الكتب التي كانت تدرس في المدارس العثمانية ، لتبين لنا أن كلها كانت كتبا عربية ، ولتيقنا أن خريجي هذه المدارس حتما كانوا يجيدون اللغة العربية . ففي **الصرف** : « أساس التصريف » لشمس الدين الفناري ، « الشافية » لابن الحاجب ، « المقصود في التصريف » وينسب لأبى حنيفة النعمان . أما في **النحو** فكان يدرس « ألفية ابن مالك » ، « الكافية » في النحو لابن الحاجب ، « شذور الذهب » لابن هشام النحوي . أما في **التفسير** فكان يدرس « الكشاف » للزمخشري ، « أنوار التنزيل » للبيضاوي ، أما في **الحديث** فكان يدرس الصحيحان وسائر الكتب الستة . أما في **العقيدة** فكان يدرس « العقائد العضدية » للقاضي عضد الدين الإيجي و« العقيدة الطحاوية » للإمام الطحاوي . وأما في **الفقه** كان يدرس كتاب « الهداية » لبرهان الدين المرغناني ، « مختصر القدوري » لأحمد بن محمد القدوري

---

(١) د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٣٢٠) .

(٢) نقلا عن د.محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص ٣١٩) .

البغدادي ، « الفرائض السراجية » لسراج الدين الساجوندي ، « مختصر ابن الحاجب »[1]. ولم يكن ليدخل قاض إلى طريق القضاء ما لم يكن قد مر بتلك المراحل التعليمية ، بل وأكثر منها ، لذلك فكل القضاة كانوا يجيدون اللغة العربية . وإذا أردنا تقريب الصورة للأذهان فلننظر إلى خريجي جامعة الأزهر في أيامنا هذه ، من أبناء الترك ، والماليزيين والإندونسيين ، والهنود ، والأفارقة ، فكلهم يجيدون اللغة العربية ، لأن الدراسة لا تكون إلا بها .

الثاني : كانت الهيئات الرئيسية في الدولة هي العلمية ، والسيفية ، والقلمية . فأما العلمية فهم أهل العلم من القضاة والعلماء . وأما السيفية فهم العسكريون في الدولة بمختلف أصنافهم . وأما القلمية فهم من يديرون النواحي المالية والإدارية في الدولة . والطائفة العلمية التي منها القضاة ، يشترط في أعضائها إجادة اللغة العربية[2]. ولا أدل على ذلك من عشرات بل مئات الكتب التي صنفها علماء الأتراك باللغة العربية ، ومنها كتاب « موضعات العلوم » ، وكتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » لطاش كوبري زاده . وكتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لحاجى خليفة . وكتاب « صحائف الأخبار » لأحمد بن لطف الله الشهير بمنجم باشي .

ومن أشهر علماء الدولة العثمانية كمال باشا زاده ، المتوفى عام ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م ، وله مؤلفات كثيرة باللغة العربية منها « الآيات العشر في أحوال الآخرة والحشر » ، « إظهار الإظهار على أشجار الأشعار » ، « تصحيح لفظ الزنديق وتدقيق معاني الدقيق » ، « تعليم الأمر في تحريم الخمر » ، « شرح الجامع الصحيح للبخاري »[3]. ومن مؤلفاته أيضا « أشكال الفرائض » ، « إصلاح الوقاية » ، « تفسير القرآن » ، « رسالة الروح » ، «رسالة في سجود السهو »[4]. وله مؤلفات أخرى كثيرة رحمه الله . ومن أشهر علماء الدولة العثمانية ، المولى أبو السعود بن محمد العمادي ، كان شيخ الإسلام في زمن السلطان سليمان القانوني ، وهو صاحب التفسير الشهير بتفسير أبي السعود . وكذلك الشيخ محمد بن محمد قاضي زاده ،

---

(١) د.هدى درويش : الإسلاميون وتركيا العلمانية (٤٧ – ٥١) .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٧١) .

(٣) إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (١/ ١٤١) .

(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨١ ، ٤٣٩ ، ٨٦٩ ، ٨٧١) .

المتوفى عام ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٠م صاحب كتاب : « إرشاد العقول السليمة إلى الأصول القويمة بإبطال البدع السقيمة »[1]. ولو أردنا إحصاء ما ألفه الأتراك باللغة العربية لطالت بنا الأيام دون إدراك المرام . ولكن فيما سبق دلالة قاطعة على إجادة العلماء الترك للغة العربية .

الثالث : وهو الأهم أن كثيرا من الأتراك الذين تولوا القضاء كانوا ينظمون الشعر بالعربية فضلا عن الإلمام بقواعدها ، ومن هؤلاء :

١- سيدي جلبي وهو أول قاضي عسكر أرسل في زمن السلطان سليمان القانوني ، قال عنه ابن إياس : « وكان صفته أنه شيخ هرم أبيض اللحية طويل القامة على عينه اليمنى فص فلم ينظر سوى بفرد عين ، وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة »[2].

٢- المولى محمد بن بير علي الشهير ببركلي ، المتوفي عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م ، كان ملازما لأحد قضاة العسكر ، ثم انكب على طلب العلم ، وله مؤلفات كثيرة بالعربية منها « إظهار الأسرار » في النحو ، « إيقاظ الهالكين وإفهام القاصرين » ، « الدر اليتيم في التجويد » ، « ذخر المتأهلين والنساء في تعريف الأطهار والدماء » ، « السيف الصارم في عدم جواز وقف المنقول والدراهم » ، وغير ذلك[3].

٣- الشيخ مصطفي الشهير بجاد الله زاده ، المتوفي عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م وهو من سكان روسجق (شمال شرق بلغاريا) ، عمل قاضيا بالشام ، وكان له تفسير للقرآن ، وكان ينظم الشعر بالعربية ومن شعره :

سجع الحمام على الأفنان أفناني وفيض دمعي على الأجفان أجفاني[4]

٤- شيخ الإسلام أسعد بن سعد الدين بن حسن جان ، المتوفي ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م . له أشعار باللغات الثلاث (التركية والعربية والفارسية) ، ومنها قصيدة مدح به رسول الله ﷺ ،

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ١) .

(٢) محمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور (٥/ ٤٥٨) .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٨١ ، ٢١٤ ، ٧٣٧ ، ٨٢٢ ٢/ ١٠١٧) ، انظر أيضا علي بن بالي : العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ، طبع في ذيل كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٤٣٦) .

(٤) حاجي خليفة : فذلكة (ص ١٢٠) .

جاء فيها :

أنت محمـود لربـي فعلـى ذاتك لا أحصي الثنا يا أحمـد
صل يا رب على خير الورى بصـلاة سرمـدا لا تنفـد

٥- شيخ الإسلام حسين بن محمد بن نور الله آخى زاده المتوفي عام ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م. كان فصيح اللسان وينظم الشعر بالتركية والعربية ومن أشعاره العربية :

أيها المبتلى عليك بخمـر إنها للعليل خيـر عـلاج
ثـم لا تشـربن إلا بمـزج أول الواجبات أمر المزاج

٦- شيخ الإسلام عبد الرحمن حسام زاده ، كان متبحرا في العربية ، وتولى قضاء حلب والشام وغيرهما ، ومن أشعاره في مدح نجم الدين الحلفاوي :

عـليك بنجـم الديـن فالزمـه إنـه سيهـدي إلـى جنس العلوم بلا فصل
بنـور اسـمه السـامي هـدى كـل عارف إلا أنه شمس المعارف والفضل

٧- السيد عبد الله بن سيف الله السيد الشريف ، المعروف بابن سعدي القسطنطيني المتوفي عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م . كان يظم الشعر بالألسن الثلاثة ، وتولى قضاء مكة وغيرها ومن شعره :

يا سـاكنـا بشغافـي وعن عيونـي خافـي
طـولت مـدة بينـي وبعضهـا كان كافـي
كدرت بالبعد عيشي بعـد مـا كـان صـافي

٨- فيض الله بن أحمد المعروف بابن القاف الرومي ، المتوفي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م . كان فصيح اللهجة ، وتولى قضاء حلب وغيرها ومن أشعاره :

الحمـد لله منجـيا من الكـرب جئنا إلى حلب الشهبا بلا تعب
مصـر جـليل خليل الله عمـره طوبى لساكن مصر قد بناه نبي

٩- محمد بن أحمد بن مصطفى طاش كوبري زاده ، وهو ابن صاحب الشقائق ، وتوفي عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م ، وكان فصيحا بالعربية ، وتولى قضاء حلب ودمشق وغيرهما ، ومن أشعاره :

عاصف الحادثات أفناني   صرصر الدهر بد أفناني

كمدي آذاني وأعياني   ارحموا سادتي وأعياني

١٠-السيد محمد بن برهان الدين الشهير بشريف الحميدي المتوفي عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م تولى قضاء الشام ومصر وغيرهما ، ومن شعره ما قاله في أحمد باشا الحافظ :

أرسل السلطان بالعدل المبين   حاكما وافى لقمع الظالمين

أحمد وافى دمشق حافظا   بيضة الإسلام بالرأي الرزين

دام في عدل وإقبال وفي   عزة من لطف رب العالمين

مذ رأوه ليس من جنس الذي   قد خلا من قبله في الحاكمين

قال أهل الظلم من رهبة   وليس هذا الكعك من ذاك العجين

١١-شيخ الإسلام محمد بن حسن جان ، الشهير بخوجه سعد الدين أفندي ، المتوفي عام ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م. ومن أشعاره ما قرظ به على رسالة للشيخ محمد الشهير بمجنكزي الصوفي :

مجلة قد حوت معنا حلا وصفا   من رام وصفا يراها فوق ما وصفا

فيها التصوف والعرفان مندرج   كم من زوايا الزوايا وصفها كشفا

تعبيره كعبير وإلا داء له   حلاوة الشهد فيه للقلوب شفا

من مشرب قادري قد بدت وهدت   قلبا غدا عن طريق الحق منحرفا

فيها رموز من الأسرار ما أظهرها   نشراء سمي لشيخ السادة العرفا

أذاع فيها من الأسرار ما خفيت   كأنما هاتف في إذنه هتفا

١٢-محمد بن حسن القصطموني القسطنطيني ، المتوفي بعد عام ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م . كان ينظم الشعر بالعربية ، وتولى القضاء في مصر والشام وغيرهما . ومن أشعاره ما قرظ به كتاب المصابيح على الجامع الصحيح ، للقاضي عمر المغربي المالي :

كتاب لأنواع المسائل جامع   وجمع اشتات المباحث نافع

وفيه لطلاب الحديث كفاية   كما فيه للشيخ النبية منافع

جزى ربنا خير الجامعة غدا   بإذن لمن يوم الجزا هو شافع

عليه السلام التام منه وآله   وأصحابه مادام يشفع شافع

١٣-محمد بن داود الشهير برياضي الأطروش الرومي ، المتوفي عام ١٠٢٨هـ/ ١٦١٨م وتولى قضاء الشام ، وكان يجيد اللغة العربية ، وقد اختصر كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان .

١٤- محمد بن لطف الله بن زكريا بن بيرام ، المتوفي عام ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م ، كان فصيحا بالألسنة الثلاثة ، تولى قضاء مصر وغيرها ومن شعره :

سبى العقول بلحظة فكأنها ... سقيت سيوف جفونه بسلاف
سيفيه صاد القلوب بنظرة ... من بين نقل قوادم الخطاف

١٥- السيد محمد بن محمد بن برهان الشهير بشيخي الحميدي القسطنطيني ، المتوفي عام ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م ، تولى قضاء حلب ، والقدس ، ومكة وله معرفة تامة بلسان العرب ومن شعره :

ما الثلج ثلج على ذا الطور والحرم ... نور تجلى به الرحمن ذو الكرم
من عهد موسى تجلى لا نظير له ... لكنه شامل للعرب و العجم

١٦-شيخ الإسلام محمد بن مصطفى بستان زاده المتوفى عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م . كان فصيح اللسان بالعربية ، وتولى قضاء مصر مرتين قبل مشيخة الإسلام . ومن أشعاره في رثاء السلطان سليمان القانوني :

ألا أيها الناعي كأنك لا تدري ... بما قلت من سوء المقالة والشر
أسلت سيول الموت في الدهر بغتة ... وقد بلغ السيل الربى من جوى الصدر
وشقت قلوب المسلمين جراحة ... بصارم سيف قد مضى ماضي الأمر
سهام المنايا من قسي صروفها ... أصابت بدهر في ابتسام من الثغر

ومنها :

عزيمته في البحر كانت عظيمة ... وهمته فاقت على الأنجم الزهر
وأيامه كالشمس كانت مضيئة ... وأعوامه في الحسن أبهى من البدر

١٧-محمود بن محمد قره جلبي زاده ، المتوفي عام ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٢م ، وتولى قضاء مكة ودمشق ، ومصر وغيرهن ومن شعره بالعربية :

لك الحمـد اللهم في كل أوقاتـي بمنك لطفاً لـم يـزل بالعناياتـي
عـلى أنني ما زلت أشـكر نعمـة بتمليك ديـوان بخط العناياتـي[١]

هؤلاء سبعة عشر رجلا من القضاة الترك في الدولة العثمانية ، كلهم يجيدون اللغة العربية وأغلبهم ينظم الشعر بها . والمصادر التاريخية مشحونة بذكر أضعاف هؤلاء ، ولكني اكتفيت بهؤلاء السبعة عشر من باب ضرب المثل . وأظن أن هذا يكفي لبيان أن أساتذة التاريخ لا يحققون ما يقرؤون ، وإنما يقنعون بالنسخ والنقل ولا يحسنون إلا قيافة الأثر . والأنكى من ذلك أنهم لا يبالون أثر من يقتفون ، حتى وأن كانوا حفنة من المستشرقين لا هم لهم إلا إفساد العقول والأفهام وتضليل المسلمين. والله عليم بالظالمين .

انضمام العرب إلى الجيش

من ضمن المطاعن التي ألصقت بالعصر العثماني ، أن الأتراك حرموا العرب من الانضمام إلى صفوف الجيش . وهذا كلام تضافرت الأدلة على بطلانه ، فضلا عن أنه غير مقبول عقلا ، فلا يمكن أن يتصور عاقل أن الوحدات العسكرية في الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، كانت حكرا على الترك ! فمن أين لهم بكل هذه الأعداد التي تملأ البلاد طولا وعرضا . وقد ورد هذا الطعن في كتاب تاريخ مصر لعمر الإسكندري وسليم حسن ، الذي كتب تحت إشراف الكابتن الإنجليزي سفدج ، وكان يدرس في المدارس العمومية في مصر في أوائل القرن العشرين . ولعل ذلك يفسر لنا استقرار هذا المطعن في نفوس الكثيرين واعتبارهم إياه من المسلمات . قالا : « لما ولي أويس باشا على مصر (٩٩٥-٩٩٩هـ/ ١٥٨٧- ١٥٩١م)[٢] وأراد أن ينظم أولاد العرب من المصريين في سلك الجيش ، اشتعل لهيب الفتنة بين الجنود ، ولم يقبلوا أن يتشبه بهم غيرهم في لباسهم ، وهجموا على أويس باشا وأهانوه »[٣].

قلت : هذا الكلام لبس فيه الحـق بالباطل ، فأما الحـق فهو فتنة الجند والهجوم على أويس

(١) محمد أمين بن فضل الله المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٤٤٠ -- ٢/ ٧٧ ، ٣٤٢ -- ٣/ ٤٢ ، ٢٧٧ ، ٣٤١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٣ ، ٤٢٠ ، ٤٤٨ -- ٤/ ١٣٢ ، ١٧٦ ، ٢١٨ ، ٣١٦).

(٢) تبدأ ولاية أويس باشا في جمادى الآخرة ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م .

(٣) عمر الإسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر منذ الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر (ص ٧٦) .

باشا ، وأما الباطل فهو سبب الفتنة . ولكن قبل أن نتعرض لأحداث الفتنة ، فينبغي أن نعرف أن قانون نامه مصر الذي صدر عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م ، أي بعد الفتح العثماني ببضع سنوات ، لم يحظر على أولاد العرب من البدو والفلاحين الانضمام إلى الجيش ، إلا في أوجاقين اثنين ، هما أوجاق العزب ، وأوجاق الجاويشية . فقد جاء في المادة الرابعة المتعلقة بأوجاق العزب : « ينبغي أن يكون المعين من طائفة الروميلي ، وليس من بين الجراكسة أو من بين أولادهم أو من طائفة الأعراب » . وجاء في المادة السابعة المتعلقة بأوجاق الجاويشية : « ولا يسجل راتب على الإطلاق لفرد من أبناء الجراكسة أو من طائفة الفلاحين أو من العربان الذين يعملون في فرقة الكوكليان (الجنوليان) ، أو فرقة التفنكجيان (التفكجيان = التفكجية) السواري ، أو محافظي القلعة أو العزب »[1].

فمن الناحية النظرية تبين أن القانون يسمح بدخول العرب من البدو والفلاحين إلى صفوف الجيش . ويتبين ذلك أيضا من الناحية العملية ، فعندما كلف السلطان سليمان القانوني أمير أمراء مصر سليمان باشا بتجهيز حملة لقتال البرتغال في البحار الهندية ، كان من بينها جنود عرب من مصر والشام . **قال بجوي** : « شرع الوزير المشار إليه في بذل المساعي الجليلة حيث جمع وجهز عشرين ألف عربي من مصر والشام ، وأتم بناء الأسطول ببذل آلاف المنح والوعود من طوائف مصر وغيرها . ثم تحرك من ميناء السويس في اليوم الخامس عشر من شهر المحرم الحرام سنة خمس وأربعين وتسعمائة (١٥٣٨م) بثمانين سفينة ، مزدانة في صورة كاملة »[2].

وبالرغم من أن القانون السليماني يحظر على العرب الانضمام إلى العزب ، إلا أن ذلك تغير مع مرور الوقت . ففي عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م ، أراد أمير أمراء مصر محمد باشا النشانجي إخراج عرب هوارة والجنود التجار من الجيش ، فلم يمكنه الجنود من ذلك ، واحتكموا إلى الدفاتر القديمة ، **قال أحمد جلبي** : « فأرسل الباشا أحضر دفتر إبراهيم باشا الذي تقدم ذكره فوجد عرب هوارة انكشارية وعزب ، وأولاد البلد والتجار عسكرية في السبع أوجاق من قبل إبراهيم باشا بأعوام . فرجع عن ما كان طالبه ، وردته العسكر بالحق »[3].

---

(١) قانون نامة مصر : ترجمة د.أحمد فؤاد متولي (ص ٢٢ ، ٢٨) .

(٢) تاريخ إبراهيم أفندي بجوى : (ص ١٧٥) .

(٣) أحمد جلبي بن عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات (ص ٤٤٢) .

لم يعد هناك مجال لأن يخرج علينا أحد المتحذلقين من هنا ، أو أحد المتبجحين من هناك ليزعم أن أهل مصر وسائر البلاد العربية حرموا من الالتحاق بالجيش في العصر العثماني . أما بشأن فتنة أويس باشا المذكورة فقد كانت في أوائل فتنة الطلبة التي قام بها عدد من المتمردين في أوجاقات السباهي الثلاثة ، ففرضوا على الفلاحين مبالغ إضافية يأخذونها لأنفسهم ، وقد تحدثنا عنها تفصيلا فيما سبق . فلما تولى أويس باشا على مصر أراد أن يصلح الأمور ويجبر عجز الخزينة المصرية بإخراج الجنود الذين مارسوا أعمالا تجارية أو حرفية ، مخالفين بذلك قانون نامه ، فامتنع هؤلاء الجنود من الامتثال للأمر وأثاروا فتنة . **قال البكري** : « وجد (أويس باشا) أحوال الخزينة متضايقة جدا ، فتواطأ مع بعض الأجناد على قطع علوفات (مرتبات) أصحاب الدكاكين والحرف والمتسببين من الجند ، فركب عليه العسكر بسبب ذلك ، وتطرقوا إلى قطع علوفات أولاد العرب »[1].

فقانون نامه مصر يحرم على طوائف الجند ممارسة أعمال تجارية أو حرفية، ومن يخالف ذلك تقطع علوفته[2]. فلما طبق أويس باشا القانون على هؤلاء المخالفين ، ثاروا عليه وأرادوا قطع علوفات أولاد العرب . والذي يبدو لي أنهم أرادوا قطع علوفات أولاد العرب الذين التحقوا بأوجاق العزب مخالفين بذلك قانون نامه أيضا . فقد ذكرنا آنفا أن قانون نامه منع أبناء العرب من الالتحاق بأوجاق العزب إلا أن ذلك تغيير مع الزمن . وكأن الجنود الذين مارسوا أعمالا تجارية أو حرفية ، وأراد أويس باشا تطبيق القانون عليهم بقطع علوفاتهم ، قد طالبوه بتطبيق القانون على أولاد العرب أيضا الذين التحقوا بأوجاق العزب بقطع علوفاتهم والله أعلم .

ففي حقيقة الحال أن تلك الرواية التي احتج بها عمر الإسكندري وسليم حسن ، إنما هي حجة عليهما ، لأنها تثبت أن الجيش كان به أولاد العرب آنذاك . فكلام عمر الإسكندري وسليم حسن ، هو من ضمن الشبهات التي أثيرت في العصر الحديث للإيقاع بين العرب والترك . وقد طبع كتابهما هذا عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م ، أي بعد دخول الدولة العثمانية الحرب

---

(١) محمد بن أبي السرور البكري : كشف الكربة في رفع الطلبة. المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٦م (ص ٣١٤) .

(٢) قانون نامه مصر : ترجمة د.أحمد متولي (ص ١١، ٢٠) .

العالمية الأولى ضد بريطانيا .

بعد تفنيد الادعاءات بشان سوء الإدارة العثمانية ، ينبغي أن نوضح أن سائر الأقاليم العربية في الدولة العثمانية قد نالت حظها من العناية الإدارية ، سواء أكانت قريبة أو بعيدة . ففي الجزائر البعيدة عن مركز الدولة ، والتي كانت تعاني قبل الفتح العثماني من نقص في إمدادات ماء الشرب ، قام حسن باشا أمير أمراء الجزائر عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م ، بتشييد « قناة تلملي » ، ويبلغ طولها ثلاثة آلاف وثمانمائة متر لإيصال الماء العذب إلى المدينة . وفي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م قام كوسه مصطفى باشا بتشييد « قناة حماه » ، ويبلغ طولها أربعة آلاف وثلاثمائة متر . قال أندريه ريمون : « استمرت الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي وحتى عام ١٨٨٠م تعيش على موارد المياه التي نظمها حكام العهد العثماني ، وذلك بالرغم من ازدياد عدد السكان زيادة كبيرة »[١]. وفي حلب القريبة من مركز الدولة في عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م صدر فرمان سلطاني إلى قاض حلب ، باتخاذ إجراءات مناسبة لعلاج الزحام في سوق بانقوسه ، واختلاط النساء بالرجال في السوق ، الأمر الذي يفسد الأخلاق العامة[٢].

والحق أننا من العسير جدا أن نحصر مآثر الحكم العثماني في كافة البلاد ، فإن هذا يتطلب فريق بحث كبير يعمل لسنوات . ولكن مما لا شك فيه أن العثمانيين بلغوا قدرا ساميا في حسن الإدارة وسن القوانين . فمما يسترعي الانتباه صدور قوانين لحماية المستهلك ، ولحماية البيئة ، ولحماية حقوق الحيوان في زمن مبكر جدا ، ففي عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م ، في عهد السلطان بايزيد الثاني صدرت قوانين كثيرة منها :

- تتم بأمر المحكمة مراقبة ما يباع في السوق من ملبس ومشرب ومأكل ، ومراقبة الحبوب المباعة. ويتم تفتيش بائعي هذه المواد فإن وجد هناك أي نقص في الميزان أو في الكيلو أو الذراع يقوم المحتسب بمحاسبتهم .
- تتم بأمر المحكمة مراقبة ما يباع في السوق من ملبس ومشرب ومأكل ، ومراقبة الحبوب المباعة . ويتم تفتيش بائعي هذه المواد ، فإن وجد هناك أي نقص في الميزان ، أو في

---

(١) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني (ص ١٢١ ، ١٢٢) .
(٢) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني (ص ١٨٥) .

الكيلو ، أو الذراع ، يقوم المحتسب بمحاسبتهم .

• الخبازون : يقوم هـؤلاء بخبز الخبز بشكل نظيف ، وبيعه بالسعر الرسمى ، ويجب ألا يكون الخبز ناقصا من ناحية الوزن ، وأن يكون مخبوزا بشكل جيد ، فإن وجد فيه قسم محروق ، أو كان نيئا وغير مفرون ، يعاقب بغرامة مالية . ويجب أن يكون عند كل خباز مؤونة شهرين أو شهر واحد في الأقل من مخزون الدقيق ، لكي لا يبقى المسلمون في ضيق ، إن تأخر وصول الدقيق إلى السوق . ويعاقب كل من يخالف هذا .

• الخبز المعمول يجب أن يكون جيدا جدا ونظيفا ، وغير مخلوط بمواد أخرى .

• الطباخون : عليهم أن يطبخوا الطعام بشكل نظيف ، وأن يستعملوا الماء النظيف في غسل صحونهم ، وألا يستخدموا الكفار في محلاتهم ، وألا يطبخوا طعامهم بالشحوم .

ومن القوانين في عهد السلطان بايزيد الثاني أيضا : « ولا يستخدموا بغلا في ساقه عطب ، وليطبوا ساق الحصان والبغل والحمار ولينظروا في برذعته . ولا يحملوا عليها حملا ثقيلا ، فإنها حيوانات لا تنطق . ومتى وجدوا نقصا في إحداها ليلزموا صاحبها بإتمامه ، وليعاقبوا كما ينبغي ، من لا يكمل النقص ولا يرعوي . وفي الجملة فكل ما خلق الله تعالى مما لم يذكر هنا ينبغي على المحتسب النظر في حقوقها جميعا ورعايتها ، ففيه حكم شرعي ».

ومن الأوامر السلطانية التي أرسلها السلطان سليمان القانوني رحمه الله إلى مدينة أدرنه :

١- عدم رمي الأزبال والأوساخ أمام البيوت والدكاكين من الآن فصاعدا ، ورفع ما رمى منها .

٢- على موظف « صوباشي » إبداء غاية الاهتمام بنظافة الأسواق ، ومحلات السكنى ، وإجبار أصحاب البيوت والمحلات على رفع الأوساخ القريبة من بيوتهم ومحلاتهم . وفي حالة قول بعضهم إنني لم أرم هذه الأوساخ . البحث عن الفاعل وإجباره على تنظيف المكان .

٣- إذا كانت الطرق المؤدية إلى الحمامات مسدودة بالأوساخ ، يجبر أصحاب أقرب البيوت على رفعها ، فإن أنكروا أنهم أصحاب هذه الأوساخ ، يفتش عن الفاعل ويجبر على تنظيف المكان .

٤- يمنع القائمون على غسل الملابس ، وكذلك القائمون على فصد الدم ، سكب المياه القذرة

والدماء على الطرق العامة ، بل يجب نقلها إلى الخلوت . « الأماكن الخالية خارج المدينة ».

٥- يمنع الطباخون وبائعو رؤوس الأغنام المشوية والسراجون من رمي الأعشاب وفضلات الحيوانات على الطرق ، ويجبرون على نقلها إلى الخلوت .

٦- يمنع أصحاب العربات من تقديم العلف لحيواناتهم في دكاكين الحدادين ، ومنعلي الخيول ، وعليهم بعلفها مسبقا في الخان . وإن اضطروا لعلفها في هذه الدكاكين فعليهم القيام بتنظيف المكان ، وإلقاء الأوساخ في أماكن خالية خارج المدينة[1].

مما سبق يتضح أن القوانين العثمانية كانت في غاية الرقي ، ولا يمكن أن تتهم دولة هذه قوانينها بسوء الإدارة . ولكن المؤسف أن أكثر الناس للحق كارهون ، فإذا ما تدخلت الإدارة المركزية في شأن ما قالوا هذه « عثمنة » ، وإذا ما تركت أمرا ليقوم به أهل البلد بأنفسهم قالوا هذا « إهمال » فيصدق عليهم قول ابن الرومي :

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تعب قلت ذا قيء الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت حدهما ... سحر البيان يرى الظلماء كالنور

وقائع حربية

البحرية العثمانية

كان للبحرية العثمانية صولات وجولات في البحر المتوسط والبحار الهندية ، وقد تربع الأسطول العثماني على عرش البحار لفترة طويلة من الزمن . وقد قدمنا طرفا من تلك الملاحم العظيمة فيما مضى من كلام . ولكن هناك من بين أساتذة التاريخ من يقول ، أن هزيمة الأسطول العثماني في معركة اينه بختي (ليبانتو) عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م كان بمثابة النهاية للأسطول العثماني ، وهذا باطل بلا ريب ولكن للأسف ردده بعض أكابر الأساتذة :

قال د.محمد أنيس : « ليبانتو هي المعركة البحرية التي تحدد انهيار البحرية العثمانية في البحر الأبيض »[2].

---

(١) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك : الدولة العثمانية المجهولة (ص ٢٠١ ، ٢٥٦ ، ٦٢٣) .

(٢) د.محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي . هامش (ص ٧٩) .

قال د.عبد العزيز نوار : « نظرا لما كانت الدولة العثمانية تعانيه من نتائج الهزائم البحرية التي تعرضت لها خلال التاريخ الحديث من ليبانتو ١٥٧١ إلى نكبة الأسطول الروسي للأسطول العثماني في معركة ججمه ، خلال الحرب العثمانية الروسية ١٧٦٨ – ١٧٧٢ »(١).

قال د.حسين مؤنس : « هزيمة ليبانتو وقعت لأن سفن الأسطول العثماني كانت شراعية تقاتل سفن أوروبا التي كانت تسير بالبخار . وأبسط ما كان هذا الرجل يستطيع أن يفعله ، هو أن يبعث رجالا يدرسون حكاية البخار هذه ويدخلها في تركيا . أما أن يقول أحد مؤرخي الأتراك ، أن الذي هزم الإسلام في معركة ليبانتو كان البخار لا الأوروبيون فدفاع تافه وغير مقبول »(٢).

قلت : أما كلام د.حسين مؤنس فهو عبارة عن مجموعة من الجهالات ، لا يظن أنها تخرج عن شخص حصل على أدنى قدر من التعليم الجامعي ، فضلا عن أستاذ كبير يحمل أرفع الدرجات العلمية ، ويعد من أعمدة التاريخ الإسلامي . ولقد أفضت في الرد عليه في كتابي (**التنكيل بما يدرس في التاريخ من أباطيل**) ، وبينت أنه لم يكن هناك أي آلة على كوكب الأرض تسير بالبخار آنذاك ، وأن عصر البخار بدأ في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وأن أول سفينة بخارية حقيقية ، هي السفينة « كليرمونت » التي عبرت نهر هدسون في عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م . وأنه حتى لو وجد البخار ، فلا يتصور عاقل أن أوروبا ستنقل ذلك العلم للعثمانيين أعدائها الألداء .! ثم إن العكس كان هو الصحيح ، إذ أن « بولان » قائد الأسطول الفرنسي ، قد تعلم فنون البحر في اصطنبول على يد خير الدين باشا ، في زمن السلطان سليمان القانوني ، حتى أصبح أحد أشهر رجال البحرية في زمانه ، وفقا لما ذكره المؤرخ الفرنسي ليون جيرين(٣). فانظر بالله عليك كيف اعترف المؤرخ الفرنسي بالفضل وجحده المؤرخ المسلم د.حسين مؤنس . ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

---

(١) د.عبد العزيز نوار : الولايات العثمانية في شمال إفريقيا والحملة الفرنسية على مصر والشام (ص ٥٤).

(٢) د.حسين مؤنس : تنقية أصول التاريخ الإسلامي (ص ٨٨) .

(٣) انظر الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٥٤٥ ، ٥٥١) .

أما القول بأن ليبانتو كانت بداية انهيار البحرية في البحر المتوسط ، أو قول د.عبد العزيز نوار ، الذي يعني ضمنا أن البحرية العثمانية منيت بهزائم متوالية منذ ليبانتو ، فهذا كلام ليس له أساس من الصحة من وجهين :

الأول : أنه برغم الخسائر الفادحة في الرجال والسفن والمدافع في معركة ليبانتو إلا أنه لم يصحب ذلك أي خسائر سياسية ، بل على العكس لقد أعادت الدولة بناء قواتها البحرية في أقل من عام ، مما أدى إلى وقوع الخلاف بين الحلفاء الصليبيين ، فسارع البنادقة إلى عقد صلح مع الدولة ، يعترفون فيه بالسيادة العثمانية على قبرص ، ودفع غرامة حربية تقدر بثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، ورفع قيمة الجزية التي كانت تدفعها للدولة عن جزيرة زنتا من خمسائة إلى ألف وخمسائة قطعة ذهبية . لذلك اعتبر المؤرخون الأوروبيون أن المنتصر في ليبانتو كان الدولة العثمانية وليس الحلفاء الصليبيين . وقد ذكرت ذلك كله في الباب الأول مشفوعا بنصوص من كلام بعض المؤرخين الأوروبيين فليراجعه من شاء. ولكن أحب أن أضيف إليه ما ذكره د.عبد العزيز الشناوي عن الحوار الذي دار بين أنطونيو باربارو ، قنصل البندقية في اصطنبول وبين الصدر الأعظم صوقوللو محمد باشا بعد معركة ليبانتو . فقد قال له محمد باشا : « إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي ، ولكن فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا. إن استيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره . وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا ، لم تفعلوا شيئا أكثر من حلق لحانا . وإن اللحية لتنمو بسرعة وبكثافة تفوقان السرعة والكثافة التين نبتت بها في الوجه لأول مرة »[1].

الثاني : لقد صدق حدس محمد باشا ، واستعادت الدولة مكانتها في البحر المتوسط بعد أقل من عام . وبعد ذلك بعامين تم فتح تونس عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م ، وبعد ذلك بأربعة أعوام ، كان الانتصار الكبير على التحالف البرتغالي الأسباني في معركة وادي السيل عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م ، والتي قتل فيها ملك البرتغال سباستيانو ، وأخرجت البرتغال من مصاف الدول الكبرى ، إذ احتلتها أسبانيا لمدة ستين عاما .

---

(١) د.عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٤/ ٤٢٥) .

وانتصارات البحرية العثمانية أكثر من أن تحصر ، ولقد صنف المؤرخ التركي الكبير حاجي خليفة ، المتوفي عام ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م كتابا عن البحرية ، سماه « **تحفة الكبار في أسفار البحار** » ولكن للأسف لم أوفق في الحصول عليه . ولكني وجدت المؤرخ التركي يلماز أوزتونا قد ذكر شيئا من تلك الانتصارات منها : في عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م ، دخل الأسطول الإنجليزي إلى البحر المتوسط ، وكان مكونا من تسعة وأربعين قطعة بحرية ، فتم أسرهن كلهن واقتيادهن إلى الجزائر . وفي عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م تمكن الأسطول العثماني من الاستيلاء على جزيرة لندي الإنجليزية ، فأغلق بذلك قناة برستول ، فلم تعد تستطيع أي سفينة إنجليزية أن تمر فيها إلا بإذن الأسطول العثماني . كما استولى على جزر سكللي جنوب غرب إنجلترا ، مما أعاق خروج السفن الإنجليزية ، وضيق على الملاحة الإنجليزية والفرنسية في القنال الإنجليزي (بحر المانش) . وكانت ثلاثون سفينة تسير بصورة منتظمة بين قناة برستول وبحر أيرلنده ، ثم تعود إلى القاعدة العثمانية في جزر سكللي أو لندي . وقد استمر ذلك لسنوات طويلة . قال يلماز أوزتونا : « في عام ١٦٣١م أرغمت العثمانية العديد من الموانئ الإنجليزية على دفع الخراج . تغرق السفن التي تمتنع عن دفع هذه الضريبة ولا يسمح بدخولها إلى الموانئ الإنجليزية »[1].

ولعل في بعد المسافة بين إنجلترا واصطنبول ما يدل على مدى قوة الأسطول العثماني الذي استطاع بسط سيطرته على موانئ إنجليزية هي في غاية البعد عن مركز الدولة . وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي بدأت البحرية العثمانية تتعرض لهزائم ، كما كانت تتعرض القوات البرية لهزائم أيضا ، فقد كان ذلك القرن هو قرن التراجع للدولة كما بينا سلفا . ولكن بالرغم من ذلك تم إحراز انتصارات أيضا . ومن أعظم انتصارات البحرية العثمانية فتح ميناء وهران عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م ، وطرد الأسبان منها بعد أن قتل منهم خمسة عشر ألفا وأسر خمسة آلاف ومائتان . وكان القتلى من المسلمين سبعة آلاف وخمسمائة من الترك والعرب والبربر ، نسأل الله تعالى أن يتقبلهم في الشهداء . ولكن في عام ١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م تمكنت أسبانيا من الاستيلاء على وهران مرة أخرى . وفي عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م أرسلت أسبانيا

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧) .

حملة ضخمة على الجزائر ، إلا أن الأسطول تمكن من ردها على أعقابها . وفي العام التالي عاود الأسبان الكرة بالتحالف مع بعض البلاد الأوروبية ، فأرسلوا أسطولا كبيرا من مائة وستة وثلاثين قطعة ، ولكن تصدى له الأسطول العثماني في الجزائر ، وبعد معركة بحرية عنيفة ارتدت سفن الحلفاء خائبة . وقد ذكر الميرلاي إسماعيل سرهنك أن الإسبان عقدوا صلحا مع داي الجزائر ، دفعوا بموجبه أربعة عشر مليون فرنك ، كما سارعت ممالك نابولي والدانمارك والأسوج ومدن الاتحاد الثلاثي ، إلى دفع الجزية مقابل عدم التعرض لسفنها . وفي عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م ، تمكن الأسطول من استعادة وهران مرة أخرى[1].

مما سبق يتبين بطلان قول من زعم أن معركة ليبانتو كانت نهاية البحرية العثمانية ، وأن الأسطول العثماني بعدها لم يحرز أي انتصارات لها قيمة . ولست أدري يقينا من أين جاء هؤلاء الأساتذة الأكابر بهذه الأباطيل ، ولكن أغلب الظن أنهم نقلوها عن كارل بروكلمان[2] فهذا دأبهم وديدنهم وهذه طريقتهم . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

معركة فيينا ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م

تحدثنا عن معركة فيينا في الباب الأول تحت عنوان الفاجعة الكبرى ، وهي بحق فاجعة كبرى تغير عندها مجرى التاريخ ، إذ دخلت الدولة العثمانية بعدها في طور التراجع . ولكن ما استوقفني تعليق الأستاذ الكبير د.عمر عبد العزيز عليها بقوله : « يرجع إخفاق العثمانيين أمام فيينا دون شك إلى شجاعة جيوش الهابسبورج ، إذ كان الفرق واضحا في المستوى الحربي بين الدولتين ، فعلى حين تضاءلت صلاحية الإنكشارية للحرب ، أخذت نظم الحرب ووسائلها في أوروبا تتطور وتتقدم ، فاخترعت أسلحة جديدة ، وظهرت أساليب في التحصين والهجوم والدفاع »[3].

قلت : كلام د.عمر عبد العزيز يدل على أنه لا يعرف شيئا عن تفاصيل المعركة ، وإنما ينقل

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية (٢/ ٤٤٩ ، ٤٥٠) ، وانظر الميرلاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣٦٦ ، ٣٦٨) .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (ص ٤٧١) .

(٣) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ١١٥) .

كلاما من هذا المؤرخ الغربي أو ذاك . وأرجو منك أن تراجع تفاصيل المعركة الواردة في الباب الأول من هذا الكتاب ، حتى يتسنى لك فهم ما يلي ، ولتعلم أن كلام د.عمر عبد العزيز باطل من وجهين :

الأول : أي شجاعة تلك للجيش الألماني التي يتحدث عنها د.عمر ، لقد اضطر الإمبراطور نفسه ، ومعه القائد العام للجيش أن يفرا من العاصمة ، ولم يقدر الإمبراطور أن يواجه زحف الجيش العثماني .

الثاني : أي أساليب جديدة في الدفاع والتحصين تلك التي يزعم د.عمر أنها ظهرت في أوروبا ، مع العلم أن القلاع الألمانية كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى في تلك المعركة في أيدي العثمانيين ، حتى سقط شرق النمسا كله ، وأغلب القلاع السلوفاكية ، بل وبعض القلاع التشيكية أيضا ، ولم تستطع أي قلعة من تلك القلاع أن تصمد أمام هجمات الجيش العثماني .

إن الأسباب الحقيقية للهزيمة في تلك المعركة هو فساد نفوس المسلمين ، فمن جهة كان كل هم مصطفى باشا أن يحصل على المجد والفخار ، بأن يفتح بج (فيينا) ، تلك القلعة التي امتنعت على السلطان سليمان القانوني ، ومن جهة أخرى ، كان يريد أن تستسلم القلعة دون أن يقتحمها عنوة حتى لا يحصل المجاهدون إلا على خمس الغنائم فحسب . فلم تكن نية القتال خالصة لله ، ولم يكن القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، بل لقد خالطت تلك النية نية القتال شجاعة . فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : « **جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله ، قَالَ مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله** »[1].

وعلاوة على ما صاحب ذلك من طمع مصطفى باشا الذي حمله على ارتكاب خطأ عسكري فادح . وكبره الذي تسبب في أن تنكر له رجاله ، كخان القرم مراد كراي والوزير الثالث إبراهيم باشا . فقد خانه مراد كراي وتركه بين شقي الرحى وهذا من فساد النفوس أيضا ، إذ أنه قدم رغبته في الانتقام من مصطفى باشا على المصلحة العامة للمسلمين ، ولم

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٠) ، مسلم (٣/ ١٥١٣) ، أبو داود (٣/ ١٤) ، النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٢٨٤) ، أحمد (٣٢/ ٣٦٨) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٢) .

يكثرث لدمائهم التي سالت في أرض المعركة بسبب خيانته . وهناك أسباب غير مباشرة أدت إلى تلك الهزيمة ، وهي ما سبق أن تحدثنا عنه في الباب الأول ، وضربنا لكم الأمثال عن التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة بعد السلطان سليمان القانوني ، من انتشار الرشوة وتوسيد الأمر لغير أهلة ، والمكائد التي كان يدبرها رجال الدولة بعضهم لبعض ، بدافع الأحقاد الشخصية والمصالح الخاصة . والله عزيز ذو انتقام . وخير ما يمكن أن يعبر به عن واقع الحال ، هو ما رواه عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ فقال : « أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا . وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِم الْعَلاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِن الْبَحْرَيْنِ ، فَسَمِعَت الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى بِهِم الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ ، أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ . قَالُوا : أَجَلْ يَا رَسُولَ الله ، قَالَ فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَالله لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُم الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ »[1].

حقا لقد بسطت الدنيا على المسلمين في عهد بني عثمان فتنافسوها فأهلكتهم . كما وقع لآبائهم في زمن العباسيين فسلط الله عليهم التتر . وكما وقع للمسلمين في الأندلس فسلط الله عليهم الإسبان . وتلك سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

علي بيك الكبير

هو أحد أشهر الرجال في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . وهو أحد أمراء المماليك ، وقد استطاع أن يتخلص من خصومه ، ويصعد في الدرجات ، ويتقلد المناصب حتى وصل إلى منصب شيخ البلد . ثم حدثته نفسه بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، فانتهز فرصة انشغال الدولة بالحرب مع روسيا ، التي اندلعت

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٩٦) ، مسلم (٤/ ٢٢٧٣) ، الترمذي (٤/ ٦٤٠) ، ابن ماجه (٢/ ١٣٢٤) ، النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٨٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٢٥) ، كما رواه أحمد (٢٨/ ٤٦٩) ، البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٢٠) ، أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٤/ ١٩٧٩) بلفظ فتلهيكم كما ألهتهم .

عام ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م ، واستمرت ما يقرب من ست سنوات . فقام بخلع أمير أمراء مصر محمد باشا ، ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وسك عملة جديدة كتب عليها اسمه . كما كان على اتصال بالأسطول الروسي في البحر المتوسط ، الذي كان يعمل على إشعال حركات العصيان والتمرد في أنحاء مختلفة من الدولة .

وفي نفس الوقت كان في صيدا وعكا متمرد آخر ، اسمه الظاهر عمر الزيداني ، وكان على اتصال هو الآخر بالأسطول الروسي . فتحالف الرجلان ضد الدولة . وفي عام ١١٨٥هـ/ ١٧٧١م أرسل علي بيك مملوكه محمد بيك أبا الذهب ، لمؤازرة الظاهر عمر في قتال أمير أمراء الشام عثمان باشا ، فتمكن أبو الذهب من إحراز انتصارات كبيرة ، لاسيما وأن الأسطول الروسي كان يساعده بقصف القلاع من البحر . ولم تتمكن الدولة من إرسال المدد لعثمان باشا وسائر أمراء حلب والشام ، بسبب انشغالها في قتال الروس في البلقان والموره . ولكن حدث تغير مفاجئ ، إذ أن محمد بيك أبا الذهب اتفق مع سائر أمراء المماليك على العودة إلى مصر بدون إذن علي بيك ، الذي كان يرسل لهم رسائل بالاستمرار في التقدم . فغضب علي بيك على أبي الذهب بيك وأرسله إلى الصعيد وحاول قتله ، ولكنه نجى ونصب القتال لعلي بيك . فأرسل له علي بيك تجريدة بقيادة إسماعيل بيك ، فاستطاع محمد بيك أبو الذهب أن يستميل إسماعيل بيك إلى جانبه ، وتوجها معا لقتال علي بيك في القاهرة ، فالتقوا عند البياضة فهزم علي بيك وفر إلى جهة صديقه الظاهر عمر في محرم عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م . فأصبح محمد بيك أبو الذهب صاحب الأمر والنهي في مصر . وفي العام التالي عاد علي بيك إلى مصر ومعه رجاله ومجموعة من الجنود أمده بهم الظاهر عمر ، ولكن تصدى له أبو الذهب وقاتله ، وانتصر عليه . وجرح علي بيك في تلك المعارك فداواه محمد بيك ولكنه توفي ، وقيل أن محمد بيك أبا الذهب دس له السم ، والله أعلم[1].

---

(١) هذه قصة علي بيك اختصارا ومن أراد التفصيل فليرجع إلى عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٠٠) وما بعدها ، محمد خليل المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١/ ٥٤ ، ٣/ ١٨٤) ، محمد فريد بيك : تاريخ الدولة العلية العثمانية (ص ٣٣٨) ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٣٢ – ٦٣٤) .

وبالرغم من أن كلا من علي بيك الكبير والظاهر عمر هما خائنان عاصيان للدولة ، إلا أنه دائما ما يشيد بهما أساتذة التاريخ ، **فقد قال د.عمر عبد العزيز** : « استطاعت مصر أن تلعب دورا ظاهرا في السياسة العالمية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وأدى تدخل علي بيك ومحمد بيك أبي الذهب في شؤون سوريا السياسية ، واتصال علي بيك بروسيا ، ثم مجيء الحملة العثمانية ، إلى إنهاء عزلة مصر السياسية . وتلا ذلك تطورات سياسية هامة بالنسبة لمصر في القرنين التاسع عشر والعشرين »... **وقال أيضا** : « إن فترة حكم ظاهر العمر قد أثرت في تطور جنوب سوريا ، فلقد حقق الأمن والنظام ، ولم يثقل كاهل أتباعه بالضرائب الباهظة ، بل انتعشت التجارة في مدنه لاسيما مدينة عكا التي حولها إلى مركز مزدهر للتجارة الأجنبية ، واستخدمها مركزا لتصدير الحرير ، والقطن ، والقمح وغيرها من منتجات فلسطين إلى الأسواق الخارجية »[1].

أما د.عبد العزيز نوار فقد قال : « أدى توالي ضعف الحكم العثماني إلى محاولة العصبيات المحلية أن تتولى هي بنفسها حكم بلادها في إطار التبعية العامة للسلطان العثماني ، وإلى محاولة إنقاذ المنطقة من التدهور المتوالي الذي كانت تعانيه . ومن أبرز من قام بذلك علي بيك الكبير في مصر ، وظاهر العمر في فلسطين »[2].

قلت : هذا الكلام باطل من وجهين :

١ - إن علي بيك لم يكن يسعى إلى النهوض بالبلاد وتخليصها من التدهور ، بل أراد أن يحقق مجدا لنفسه ، إذ أنه امتص دماء الناس ونهب أموالهم ، **فقد قال الجبرتي** : « قبض علي بك على المعلم اسحق اليهودي ، معلم الديوان ببولاق ، وأخذ منه أربعين ألف محبوب ذهب وضربه حتى مات ، وكذلك صادر أناسا كثيرة في أموالهم من التجار مثل العشوبي والكمين وغيرهما ، وهو الذي ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادي ظهوره ، واقتدى به من بعده » .... **وقال أيضا** : « أخرج علي بك عثمان أغا الوكيل من مصر منفيا إلى جهة الشام وكذلك أحمد أغا ، أغات الجوالي ، وأغات الضربخانة إلى جهة الروم . وكان أحمد أغا هذا

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ١٥١ ، ١٨١) .

(٢) د.عبد العزيز نوار : النهضة العربية الحديثة (ص ٥٠) .

رجلا عظيما ذا غنية كبيرة وثروة زائدة ، فصادره علي بيك في ماله وأمره بالخروج من مصر ، فأحضر المطربازية والدلالين والتجار . وأخرج متاعه وذخائره ، وباعها بسوق المزاد بينهم . فبيع موجوده من أمتعة ، وثياب ، وجواهر ، وتحف ، وأسلحة ، وكتب ، وأشياء نفيسة ، وهو ينظر إليها ويتحسر . ثم سافر إلى جهة الإسكندرية »... **وقال أيضا** : « طلب علي بك حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجي ، وباش قلفة ، وإسمعيل أغا الزعيم ، وآخرين ، وصادرهم في نحو أربعمائة كيس ، بعد ما عوقهم أياما . وفي أواخره عمل علي بيك دراهم على القرى ، وقرر على كل بلد مائة ريال وثلاثمائة ريال حق طريق ، فضجت الناس من ذلك وطلب من النصارى القبط مائة ألف ريال ، ومن اليهود أربعين ألفا وقبضت جميعها في أسرع وقت »[1].

هكذا كان يفعل علي بيك مع الناس . وبالرغم من أن الجبرتي قد شهد له بأنه أمن السبل وضرب على أيدي قطاع الطريق وتتبع المرتشين[2] ، إلا أنه لم يكن يفعل ذلك حرصا على الرعية بلا شك ، بل لتأمين ملكه وسلطانه . بدليل أنه هو الذي ابتدع مصادرات الأموال من الناس ، وذلك لتمويل حملاته العسكرية ، ولم يكن يعبأ لأمر الرعية ألبتة . وقد قال عنه الشيخ إسماعيل الخشاب الذي كان معاصرا له ، بعد أن ذكر تأمين السبل ، والقضاء على قطاع الطرق : « حدث في أيامه حوادث لم يعهد وقوع مثلها ، منها أنه جعل الجامكية (المرتبات) نصفين ، نصف يقبض نقدا ، ونصفها أوراقا ، فيباع كل مائة نصف بخمسين ، وكان هذا مبادئ ظهور الفساد ، وكان لا يستطيع أحد أن يراجعه »[3].

٢- ماذا يقصد د.عمر بأن حركة علي بيك وتدخله في سوريا ، واتصاله بالروس أدى إلى إنهاء عزلة مصر السياسية ؟! هل يقصد أن العزلة هي الحماية السياسية التي نعمت بها مصر تحت الحكم العثماني ، وأمنت بها من الأطماع الغربية . فإن كان يقصد ذلك فلنعم العزلة هي ، وتبا لعلي بيك هذا الذي أزالها .! إن اتصال علي بيك بالأسطول الروسي المحارب والتواطؤ معه على قتال جيش الدولة ، لهو خيانة عظمى في كل الشرائع ، سماوية كانت أم أرضية .

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٠٩ ، ٣٣٤ ، ٣٥١) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٨١) .

(٣) إسماعيل بن سعد الخشاب : أخبار أهل القرن الثاني عشر (ص ٤٧) .

ولست أدرى كيف طابت نفس د.عمر أن يثني على علي بيك بهذه الفعلة الشنعاء . إن الموازين مقلوبة عند د.عمر . أما الظاهر عمر الزيداني ، فلا فرق بينه وبين علي بيك ، كلاهما خائن للدولة ولعامة المسلمين وأئمتهم ، ولا يشفع له إن التجارة كانت مزدهرة في زمانه مع أوروبا . فعن نَافِعٍ قَالَ : لَمَّا خَلَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ ، جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوَلَدَهُ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنِّي لا أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ الْقِتَالُ . وَإِنِّي لا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ وَلا بَايَعَ فِي هَذَا الأَمْرِ إِلا كَانَتْ الْفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ »[1].

إن علي بيك ، وظاهر العمر ، كلاهما خائن لله ولرسوله ، ولعامة المسلمين . فقد تحالفا مع المشركين على قتال خليفة المسلمين . وكل خير فعلاه في حياتهما لا يرجح على ذلك الجرم ، فضلا عن أن يساويه . **فإن قيل** : هذا تقييم للأحداث التاريخية من منظور إسلامي وينبغي على الباحث أن يكون محايدا .

قلت : لقد صدعتم رؤوسنا يا أساتذة التاريخ بهذه المقولة ، التي يبدو من كلامكم أنكم لا تفهمونها أصلا . وسأجيبكم عن ذلك وفقا لمنهجكم . فإن الحياد هو الأمانة في نقل المعلومة ، فلا ينسب لقوم مكرمة ليست فيهم ، ولا ينفى عن قوم مذمة ثابتة عليهم . وتقييم أفعال الناس ينبغي أن يكون وفقا للثقافة العامة السائدة في زمن وقوع الحدث . ففي أيام علي بيك والظاهر عمر ، لم تكن هناك سوى الثقافة الإسلامية التي تقوم على أساس الولاء للمسلمين والبراء من المشركين . ولم تكن المفاهيم القومية والوطنية بمفهومها الحديث قد ظهرت بعد . ويتضح ذلك بجلاء من الشعارات التي كان يرددها عامة الناس ، إبان الحملة الفرنسية على مصر « **نصر الله دين الإسلام** » ، « **نصر الله السلطان** »[2]. ولم يهتف أحد منهم بمصر ، أو الوطن ، أو العروبة ، أو أي من تلك الشعارات المعروفة في أيامنا هذه . ومما يدل ذلك أيضا على مدى حرص أهل مصر على البقاء تحت السلطان العثماني ، بصفته خليفة المسلمين ، أنه بعد استيلاء الحملة الفرنسية على مصر ، وهروب القاضي مع من هربوا تاركا

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٥٧) ، البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٧٥) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ٢٠٦) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس (ص ٥٨ ، ١٦٦ ، ٢٤٤) .

أهله في مصر ، فلم يحاول علماء مصر أن ينصبوا واحدا من بينهم مكانه ، بل نصبوا ابنه في منصب القاضي . وظل الحال على ذلك لأكثر من عام ، حتى أجبرهم بونابرت على عزله . وقد ذكر الجبرتي ذلك تفصيلا ، فقال في أحداث ٢٢ محرم ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م : « أرسل كبير الفرنسيس جماعة من العسكر ، وقبضوا على ملا زاده ابن قاضي العسكر ، ونهبوا بعضا من ثيابه وكتبه ، وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه . فانزعج عياله ووالدته انزعاجا شديدا . وفي صبحها اجتمع أرباب الديوان بالديوان ، وحضر إليهم ورقة من الفرنسيس قرئت عليهم مضمونها : أن صاري عسكر قبض على ابن القاضي وعزله ، وأنه وجه إليكم أن تقترعوا وتختاروا لكم شيخا من العلماء يكون من أهلها ومولود بها ، يتقلد القضاء ويقضي بالأحكام الشرعية ، كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأي العلماء للعلماء ، فلما سمعوا ذلك أجاب الحاضرون بقولهم : إننا جميعا نتشفع ونترجى عنده في العفو عن ابن القاضي ، فإنه إنسان غريب ومن أولاد الناس الصدور »[1].

قلت : فبالرغم من قيام بونابرت بمداعبة مشاعر علماء مصر ، بتذكيرهم بوقت أن كانت مصر مقر السلطنة المملوكية ، وأن منصب القضاء كان يتولاه علماء مصر ، إلا أنهم لم يبالوا بذلك وطالبوه بإطلاق ابن القاضي الذي حبسه . لأنهم يعلمون أن في تنصيب قاض من بينهم ، خروجا على السلطان خليفة المسلمين ، فلم يرضوا . فساومهم بونابرت على ذلك واشترط عليهم اختيار قاض من بينهم مقابل العفو عن ابن القاضي . بل لقد هددهم وتوعدهم إن لم يفعلوا . قال الجبرتي : « فأجاب الوكيل بعدما ترجم له الترجمان بقوله ، لا بأس بالشفاعة ، ولكن بعد تنفيذ أمر صاري عسكر في اختيار قاض خلافه ، وإلا تكونوا مخالفين ويلحقكم الضرر بالمخالفة . فامتثلوا وعملوا القرعة فطلعت الأكثرية باسم الشيخ أحمد العريشي الحنفي »[2].

الشاهد من تلك الواقعة ، أن علماء مصر لم يكن يدور بخلدهم أصلا الاستقلال عن الخلافة العثمانية ، فهم لم يسعوا إلى ذلك بالرغم من سنوح الفرصة ، بل لما طلب منهم

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٣/ ٧٢) .

(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٣/ ٧٢) .

بونابرت ذلك لم يوافقوا إلا مكرهين ، بدليل اضطرار بونابرت إلى تهديدهم بالعقاب إن لم يفعلوا . فلم تكن الأفكار الأوروبية المتعلقة بالقومية العرقية ، والعصبية الجاهلية المنتنة قد سممت أفكار أهل مصر بعد . فعلي بيك الكبير والظاهر عمر ارتكبا جرما كبيرا ، وفقا لمبادئ الثقافة الإسلامية ، ووفقا لأحكام القانون العثماني المستمد من الشريعة الإسلامية . والمسلم ما دام قد رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبالقرآن كتابا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فهو ملتزم بأحكام الإسلام . لكن كثيرا من أساتذة التاريخ يقيمون أفعال علي بيك والظاهر عمر وفقا للمبادئ القومية والوطنية الحديثة المستمدة من المفاهيم العلمانية . وهذا منهج فاسد بلا ريب وأبعد ما يكون عن الحياد . ومن كان يظن أن العلمانية هي اللادينية بمعنى التجرد عن الدين فحسب فهو واهم ، لأن العلمانية هي دين أرضي . ويتوفر لها كل أركان الدين ، فهي عقيدة ومنهج حياة . فعقيدتهم ، القول بقدم العالم ، وأنه لا خالق ولا مخلوق ، وأنه لا بعث ولا حساب ، وأن الأنبياء ما هم إلا مصلحون أرادوا حمل الناس على الخير ، أو أنهم قادة سياسيون اخترعوا الأديان لإضفاء القداسة على أقوالهم ، ليتبعهم الناس ولئلا يخالفوا لهم أمرا . وفي الحقيقة ليس هذا بالأمر الجديد على البشرية . فقد سبق أن قاله الكفار من الأمم السابقة .وقد بين لنا الله ذلك في القرآن . قال تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٥ - ٣٧]

وقال تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨]

أما من حيث أنها منهج حياة ، فإن كانوا شيوعيين ، فمنهجهم السياسي شمولي ، ومنهجهم الاقتصادي اشتراكي ، وأما إن كانوا ليبراليين ، فمنهجهم السياسي ديمقراطي ومنهجهم الاقتصادي رأس مالي . وغير ذلك من النظم التي تستحدث باستمرار . وهذه المناهج عندهم هي عقيدة لا يتخلون عنها أبدا ، ويعادون فيها ويوالون عليها ، ويخوضون الحروب لأجلها ، ويبذلون فيها النفس والنفيس . ولعمر الله ما الدين إلا ذلك . فتراهم أعداء لجميع الأديان ، ولكن عداءهم للإسلام أشد لأنه منهج حياة متكامل .

نعود لقصة علي بيك الكبير ، إذ ترى أن أغلب أساتذة التاريخ ، بل عامة الناس ممن لهم اهتمام بالتاريخ ، يقولون عن محمد بيك أبي الذهب أنه خان سيده علي بيك . وهذا من عجائب الأمور أيضا ، والصواب أن يقولوا أن محمد بيك أبا الذهب ، ثاب إلى رشده ورجع عن غيه ، وعاد إلى طاعة السلطان خليفة المسلمين . أليس كذلك ؟! ولكن لو سلمنا لكم بذلك ووافقناكم على قولكم ، أنه خان سيده علي بيك ، فلماذا لا تقولون عن علي بيك أيضا أنه خان سيده السلطان خليفة المسلمين ، الذي التزم له بالسمع والطاعة. وخان المسلمين عندما تحالف مع أعدائهم من الروس ، وقاتل المسلمين في الشام . ألا ترون أنكم تكيلون بمكيالين . ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون .

الحصار الفرنسي لعكا

أثناء الحملة الفرنسية على مصر ، تطلعت عينا بونابرت إلى الشام ، بعد أن علم أن الجيش العثماني يتأهب للانقضاض عليه في مصر . فأراد بونابرت أن يبسط سيطرته على الشام لتكون خط دفاع أول له . فخرج من مصر على رأس جيشه ، فاستولى على العريش ، ثم غزة ويافا وغيرهن من القلاع ، وخاض المعارك مع الوحدات العسكرية المحلية ، وقبائل الأعراب وأهالي الشام . حتى وصل إلى عكا ، وحاصرها ، وكان أميرها يومئذ أحمد باشا الجزار فاستمات في الدفاع عنها ، وأرسل يستعجل المدد من اصطنبول ، حتى جاءه حسين باشا مرابط زاده على رأس سبعين سفينة ، وتمكن من إنزال جنوده وإمداد القلعة ، وقتال الجيش الفرنسي ، حتى اضطر بونابرت للانسحاب بجنوده . وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول .

ولكن مما يسترعي الانتباه أن معظم أساتذة التاريخ ، يرجعون الفضل في هزيمة نابليون أمام أسوار عكا ، إلى أحمد باشا الجزار وإلى الأسطول الإنجليزي ، الذي كان يقصف مواقع الفرنسيين من البحر ، ولا يذكرون حسين باشا على الإطلاق ، ولا الإمدادات العثمانية التي أمد بها عكا . ولا يذكرون أنه لولا الله ، ثم حسين باشا لسقطت عكا في أيدي بونابرت . فقد قال د.عمر عبد العزيز : « وبلغ الجزار ذروة مجده في عام ١٧٩٩ ، بعد أن أوقف زحف نابليون الذي بلغ أبواب عاصمته ، وتمكن بمساعدة الأسطول الإنجليزي من الدفاع عن المدينة »[1].

---

(١) د.عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي (ص ١٨٤) .

وقال د.صلاح هريدي : « لقد استمات أحمد باشا الجزار في الدفاع عن مدينته ، وساعده على المقاومة وجود سفينتين حربيتين إنجليزيتين أمام الميناء . ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين » ... وقال أيضا عن أحمد باشا الجزار : « وعلاوة على وحداته المألوفة من المرتزقة ، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد في تسليحهم »[1].

قلت : لقد أشاد الأستاذان الفاضلان بجهود الإنجليز ، ولم يذكر أي منهما دور حسين باشا مرابط زاده ، بالرغم من أن الإنجليز فشلوا مرتين في محاولة إنزال جنودهم إلى البر ، أما حسين باشا فقد تمكن من ذلك ، ونجح في إمداد عكا . وسأنقل كلام لويس ألكسندر برتييه رئيس أركان الحملة الفرنسية ، فهو لم يكن شاهد عيان فحسب ، بل باشر الحرب بنفسه . فقد قال عن محاولة الإنجليز إنزال جنودهم في حيفا : « وحين شرع الإنجليز بالنزول إلى البر فوجئوا بقذائف مدفع رابض وراء كثيب متقدم ، وبوابل رصاص ستين رجلا من جنوده البسلاء ، فاستولى على أحد قواربهم ، وغنم مدفعا من عيار ٣٢ ، وأسر سبعة عشر رجلا منهم ، ثم سلط نيران مدافعه الأخرى نحو المراكب المسلحة ، وأكرهها على الفرار متكبدة خسارة مئة رجل بين قتيل وجريح . وهكذا عدل الكومودور الإنجليزي عن مخططاته ضد حيفا ، فأقلع من ساحلها ورسا في مياه عكا ».... ثم وقع اشباك آخر أمام عكا ، قال عنه لويس ألكسندر برتييه : « اندفع العدو بطلعة شاملة قوامها ثلاثة طوابير ، يتقدم كلا منها قوات إنجليزية استعيرت من طواقم الأسطول ... وقد رأس قوات هذا الخط قبطان إنجليزي هو توماس ألدفيلد ... انطلق هذا الضابط مع نفر من أبناء أمته الشجعان ، نحو طليعة القوات الفرنسية لكسرها ، والحلول مكانها إلا أنه وقع صريعا ، وكان لمقتله على هذا النحو الأثر الكبير للحد من جرأة أتباعه ، فولوا هاربين في كل صوب ، تاركين وراءهم جثث الإنجليز والأتراك ».

قلت : ثم يروى برتييه وقائع قدوم حسين باشا وقواته إلى عكا ، فذكر معاودة بونابرت الهجوم على عكا ، لعله يتمكن من الاستيلاء عليها قبل أن يدخلها حسين باشا ، ولكنه فشل في ذلك ، كما فشل أيضا في منع حسين باشا من إنزال قواته على البر أمام عكا ، فأصدر أوامره

---

(١) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٣١٢ ، ٣١٣).

بالانسحاب . **قال برتييه** : « تمكن العدو في النهاية من جمع صفوفه المتشرذمة ، ومن إنجاح الإنزال البحري ، ووجد المهاجمون أنفسهم في مواجهة الفرق الراسية في البحر والقوات التي نزلت إلى البر بقصد الدفاع عن الثغرة[١]. وكان الوقت ليلا والمعركة ما زالت في صالح العدو فصدر الأمر بالتراجع ».... ظل بونابرت يقصف القلعة ليومين تاليين ، ثم هجم عليها ثلاث مرات فلم يفلح في اقتحامها ، وجاءت النتيجة مروعة . **قال برتييه** : « فاندفع هؤلاء الشجعان لكن العدو احتاط للأمر ، فأقام خطا دفاعيا ثانيا وثالثا ، ولم يكن من السهل تخطيهما ، فتم التراجع مرة أخرى . وكلفت هذه المحاولات الثلاث حوالي مئتي قتيل وخمسمئة جريح ، كان بينهم من القتلى الجنرال بون ، ومساعد الجنرال فولر ، وقائد الفرقة الخامسة والعشرين ، والمواطن فونو ، والمساعد بينو ، والمساعد جيربو ، والمواطن كروازيه مساعد المعسكر المسؤول ، ومن الجرحى ... ».

وقد حملت هذه الخسائر بونابرت على طلب وقف إطلاق النار فلم يقبل طلبه ، وتم الرد عليه بقصف مدفعي عنيف على الوحدات الفرنسية القابعة أمام عكا . ثم عرض بونابرت وقف إطلاق النار مرة أخرى ، فلم يلق إلا مثل الرد الأول . **قال برتييه** : « وفي الرابع والعشرين من الشهر ، أرسل الوسيط نفسه من جديد ودخل الساحة . فعقب ذلك قصف شديد ، والحقيقة لم يكن هناك ما يشير إلى نية إيقاف النار ، بل عكس ذلك كان الصحيح . وعند السادسة مساء سمع دوى طلقة مدفع كإشارة ، قام العدو على أثرها بهجوم شامل ، لكنه رد على أعقابه ».... اضطر بونابرت في النهاية إلى رفع الحصار عن عكا ، والعودة إلى مصر[٢].

قلت : إن رواية برتييه تعلن بوضوح ، أن الذي أمد القلعة وأنقذهـا من السقوط في أيدي الفرنسيين هو القوات العثمانية بقيادة حسين باشا . وأن المعارك التي خاضها حسين باشا هي التي ألحقت خسائر كبيرة بالجيش الفرنسي ، مما حمله على الانسحاب من الشام ، إلى جانب

---

(١) الثغرة التي أحدثها الفرنسيون في سور قلعة عكا .

(٢) لويس ألكسندر برتييه : رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (ص ٧٥ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٨).

الطاعون الذي أصاب سبعمائة من أفراد جيشه . وقد ذكر **الميرالاي إسماعيل سرهنك** أن حسين باشا جاء على رأس سبعين سفينة تحمل اثني عشر ألف مقاتل ، وقد خاض مع الجيش الفرنسي إحدى وعشرين معركة ، كان الهجوم له في ثلاث عشرة منهن ، والهجوم للفرنسين في ثمان[١]. ولا أحد ينكر دور القصف الإنجليزي في تلك الواقعة ، ولكنه كان دورا ثانويا . والفضل يرجع إلى الله ، ثم لحسين باشا وقواته ، فالعجب كل العجب من الأساتذة الأفاضل الذين يرفعون من الدور الثانوي للإنجليز ، ويتغافلون عن صاحب الدور الرئيس .! ثم إن الأنكي من ذلك ما قاله **د.صلاح هريدي** : « أرسلت الدولة العثمانية جيشا لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا ، ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش ، والقضاء عليه في موقعة تل طابور »[٢].

قلت : إن موقعة تل طابور كانت بين الوحدات العثمانية في دمشق ، التي جاءت لإنقاذ عكا قبل مجيء حسين باشا بقواته . وبالفعل قد تمكن بونابرت من الانتصار عليهم[٣]. ولكن من العجيب ألا يغفل د.صلاح عن ذكر تلك الهزيمة من الوحدات العسكرية المحلية ، ثم يغفل ذكر حسين باشا وقواته ، بل إنه حتى لا يشير إليه ولو من بعيد .! وليس الحال في كتب التاريخ المدرسية بأفضل منه في كتب التاريخ الجامعية . **فكتاب الثانوية العامة** قد جاء فيه : « أرسل (بونابرت) قواته إلى الشام من جهة العريش ، ولكنه لم يستطع اقتحام مدينة عكا لحسن دفاع حاكمها أحمد باشا الجزار ، بمعاونة الأسطول الإنجليزي »[٤]. **أما في كتاب الإعدادية فقد جاء** فيه : « مقاومة جنود عكا عن مدينتهم بقيادة أحمد باشا الجزار بمعاونة الأسطول البريطاني ، وإمداده للمدينة بالمؤن والذخائر ، فاضطر نابليون بونابرت للعودة إلى مصر »[٥].

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٥٠) .

(٢) د.صلاح هريدي : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ص ٣١٢) .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٧٦ ، الميرالاي إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٦٥٠) ، لويس ألكسندر برتييه : رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (ص ٨٧) .

(٤) الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث ، المقرر على الثانوية العامة في العام الدراسي (٢٠٠٧ – ٢٠٠٨ ، ص ٨٢) .

(٥) الدراسات الاجتماعية للصف الثالث الإعدادي ، العام الدراسي (٢٠١٠- ٢٠١١) الفصل الدراسي الأول (ص ٧٦) .

قلت : هكذا يتأصل الفساد الفكري في عقل الطالب منذ نعومة أظفاره ، ثم إذا ما دخل الجامعة فيزداد فسادا على فساد . وجدير بالذكر أن كتاب الثانوية العامة المذكور ، قد ألفه فريق يتكون من ستة أفراد ، منهم أستاذان كبيران في التاريخ الحديث . هما أ.د. عاصم الدسوقي ، وأ.د. عبد العزيز نوار . أما كتاب الإعدادية المذكور ، قد ألفه فريق أيضا ، منهم فيما يتعلق بالتاريخ الحديث أ.د. إسماعيل زين الدين . مما يعنى أن أستذة التاريخ لم تنل أباطيلهم طلاب الجامعة فحسب ، بل طلاب المدارس أيضا .! وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المؤرخون المسلمون

يحلو لبعض أساتذة التاريخ الطعن في مصداقية مؤرخينا المسلمين ، فيتهمونهم بأنهم كان يتملقون الحكام ، أو يتقون شرهم وبطشهم ، فنقلوا لنا في كتبهم صورة غير مطابقة لحقيقة الحال . لذلك ولى كثير من أساتذة التاريخ وجهه شطر المؤرخين الغربيين ، وأخذ ينقل عنهم مفترضا فيهم الدقة والأمانة ..! ومن هؤلاء الأساتذة د.محمد عبد المنعم الراقد الذي قال : « من الملاحظ أن المؤرخين المصريين بعد ابن إياس ، لم يكن لديهم الحرية أو الشجاعة الكافية عندما شرعوا في الكتابة عن أحداث الغزو ... ودون عناء كبير وجدت الحقيقة أمامي ساطعة ، فإن سليم الأول ، لم يكن هاديا أو صاحب رسالة ، وإنما كان شأنه شأن جميع الغزاة المخربين ... » . لذلك فإن د.الراقد نبذ المصادر الإسلامية واعتمد على المصادر الغربية فقال : « وعندما شرعت في بداية الكتابة وجدت أن الفصل الأول يجب أن يحتوي على دراسة مقارنة لطرفي الصراع : الدولتين العثمانية والمملوكية ، فقمت بدراسة تحليلية لعناصر الدولة الأساسية ، وهي الإقليم ، والشعب ، ونظام الحكم . وقد أعانني على هذه الدراسة المؤلفات الآتية : فيما يتعلق بالدولة العثمانية : مؤلف كارل بروكلمان . الأتراك العثمانيون وحضارتهم .

M. Philips Price : A History Of Turky from Empire to Republic

A. D. Alderson : The Structure of the Ottoman Dynasty" .

أما في الفصل الثاني الذي يبين فيه د.الراقد أسباب « الغزو » العثماني لمصر فقد كانت مصادره :

Arnold Toynbee : A study of History

Hammer : Histoire de L Empir Ottoman

De la Martine : Histoire de la Turkie

ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور »[1].

قلت : هكذا ترى أن د.الراقد قد تعرف على التاريخ العثماني وحدد أهداف الفتح العثماني لمصر والشام ، من خلال كتب المستشرقين والمؤرخين الغربيين . أي بلية هذه ؟! أي منهج فاسد هذا ؟! كيف يمكن لأي باحث يقدر قيمة البحث العلمي ، أن يكتب عن التاريخ العثماني دون أن يرجع إلى مصدر تركي واحد .؟! فكل من عنده مسكة عقل يعلم أن المنهج الذي اعتمده د.الراقد هو منهج فاسد . ولكن الأنكى من ذلك ، أن د.الراقد قد حصل بهذه الرسالة على درجة الدكتوراه ، وكانت تحت إشراف الأستاذ الكبير د.أحمد الحتة . ثم كيف أجازت لجنة التحكيم هذه الرسالة التي بنيت على أساس فاسد ؟! أم تراها كانت لجنة من الصم البكم العمى الذين لا يعقلون . هذه جريمة ورب الكعبة . هل يريد منا د.الراقد وأستاذه ، ولجنة التحكيم أن نقوم على مصادرنا التاريخية ونلقيها في البحر ؟!. والله ما أراد المستشرقون إلا ذلك ، واتبعهم كل من هانت عليه نفسه ، وتمرد على ثقافته وتراثه وتاريخ أمته .

ولم ينفرد د.الراقد بذلك ، بل رأينا أن د.زبيدة عطا في كتابها « بلاد الترك في العصور الوسطى » لم ترجع إلى مصدر تركي واحد . وكذلك د.محمود الحويرى في كتابه « الدولة العثمانية في العصور الوسطى » لم يرجع إلى مصدر تركي واحد . فإن أردنا أن نكون منصفين لقلنا أن هذه ليست عملية بحث علمي بل هي عملية « **برمجة عقول** ». وأن هؤلاء الأساتذة وأمثالهم وهم كثيرون ، كانوا الواسطة التي بث من خلالها المستشرقون أفكارهم الفاسدة لتضليل المسلمين . ولكن المنكي المبكي ، أن أغلب أساتذة التاريخ ما زالوا لا يعون هذه المسألة ، ولا يعرفون أنهم من الأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ومن باب الرد على د.الراقد وأمثاله ، سأنقل عن المؤرخين ما يفيد أنهم لم يكونوا مجبورين على مدح الحكام . ولم يكتموا الحق خوفا من بطشهم ، بل إن كثيرا منهم أنكر كثيرا من أوجه الفساد ، حتى أن بعضهم امتد إنكاره حتى طال السلطان نفسه :

١ - فقد أنكر مرعي الحنبلي مسألة قتل بعض السلاطين لإخوتهم دون أن يظهر منهم ما يوجب ذلك . فقال : « لم يظهر لي جواز ذلك على الإطلاق ، لأنهم أطفال لا ذنب لهم أصلا

---

(١) د.محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر (ص ٤ - ٨) .

وكون يحصل منهم بغي وإثارة فتن فيما بعد ، فهو أمر غير محقق »[1].

٢- أنكر علي بن بالي على السلطان سليم الثاني قعوده عن الجهاد بنفسه فقال : « كان رحمه الله تعالى حاله من المفاخر والمآثر ، مصداق ما قاله الشاعر :

هو المقيم وقد سارت مآثره كأن علياه من دنياه تنتظم

حيث لم يباشر الحروب بنفسه ، حتى أوصلته المنية إلى رمسه ... وكان منهمكا على لذاته في المساء والصباح ، ويكب على اللعب واللهو ، ويرجح السكر على الصحو ، مبتلى بشرب الراح ... وقد من الله تعالى عليه قبل موته بالتيقظ والتنبه التام ، فأعرض عن الملاهي ورغب في صحبة المشايخ الكرام ، وقعد عن كل خلق ردى وتاب على يد الشيخ سليمان الخلوتي الآمدي »[2].

٣- أنكر إبراهيم أفندي بجوي الرشوة التي ظهرت في عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م ، وأخذ يتحسر على أيام السلطان سليمان القانوني ، حيث لم يكن للرشوة وجود . فقد أسهب في الكلام عن تلك المسألة ، ولكني اقتطع بضعة أسطر مما قاله : « محصول (خزينة) صنجق الأمراء المبتلين بهذا المرض (الرشوة) كان يؤخذ مضاعفا بطريقة الرشوة ، في الوقت الذي كان فيه المحصول لازال في أيديهم ، ولم تنته سنة التزامه ، ولم يتم تحصيل خراج الأرض . وربما يكون قد تولى المنصب أو لم يتوله عندما يباع هذا الصنجق مرة أخرى إلى أحد المبتلين بالرشوة ، قبل مرور شهر أو شهرين من ذلك . ولا يمكن المطالبة بما دفعه المعزولون ... ونلتمس المدد والهمة من روحانية المرحوم والمغفور له سلطان سليمان خان غازي ، الذي كان أعظم الغزاة . وعلى هذا يجب أن يستقيم حال الفقراء ، وأن يقدر سلطاننا صاحب السعادة والعظمة حال الأمراء الفقراء مع سائر المظلومين أيضا ... وينبغي أن أعود إلى الموضوع مرة أخرى وأبدأ في ذكر الأخلاق الحسنة للسلطان المغفور له ، ففي عصر السلطان سليمان كان لا يوجد شيء اسمه الرشوة ... »[3].

---

(١) مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي : قلايد العقيان في فضايل آل عثمان (ص ١٤) .

(٢) علي بن بالي : العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ، طبع في ذيل كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٤٥٥) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٨ ، ٩) .

٤- أما المؤرخ الحاج مصطفى الجلبي ، صاحب « **مختصر تاريخ مصر** » ، فقد شدد النكير على السلطان محمد الرابع الذي خلع عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م ، فقال عنه : « كان السلطان محمد في حين جلوسه إلى أن خلع لا يلتفت لأمور السلطنة ، بل غالب اشتغاله في الصيد والقنص ، ليلا ونهارا في الجبال ، يتصيد بالكلاب والصقور ، حتى كلت منه ساير الخدم والرعية وهو على هذه الحال . والعساكر والغزاة والمتصرفين في أمور السلطنة متصرفين يعزلوا ويولوا بخاطرهم ، ويأخذوا ويعطوا كيف شاؤا ، إلى أن حصل ما حصل (هزيمة فيينا) »[1].

ولا شك أن بطون المصادر التاريخية حافلة بمثل ذلك النكير على الأمراء والسلاطين . فمن ادعى أن مؤرخينا المسلمين كانوا يتملقون الحكام ، أو أنهم كانت تعوزهم الجرأة والشجاعة في تدوين الحقائق ، فهو مسكين واهم ، ولم يقرأ المصادر حق قراءتها . ومن تذرع بذلك ليدير ظهره لمصادرنا الإسلامية ، وينهمك في النقل عن الغرب ، فهو أعمى وأضل سبيلا . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

عبد الرحمن الجبرتي

هو شيخ المؤرخين وإمامهم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي وأوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي . ولا يمكن أن نتحدث عن المؤرخين في العصر الحديث ونغفل عن ذكر عبد الرحمن الجبرتي ، جبل التاريخ وإمام المؤرخين في زمانه . ويؤسفني ما يقوله عنه بعض أكابر الأساتذة ، منهم **د.عمر عبد العزيز** فقد تحدث عنه في مقدمة كتبها لكتاب « **تاريخ وقايع مصر المحروسة** » لمصطفى بن الحاج إبراهيم ، تابع حسن أغا عزبان ، والذي حققه **د.صلاح هريدي** . فبعد أن تحدث د.عمر عن بطلان الاعتقاد السائد عن تدهور الكتابة التاريخية في العصر العثماني ، قرر أن الجبرتي نفسه كان مسئولا إلى حد كبير عن شيوع ذلك الاعتقاد . ثم قال د.عمر : « وقد أرجع الجبرتي أسباب هذا التدهور إلى ثلاثة عوامل تمثلت في : تسرب الكتب التاريخية من مصر إلى غيرها من

---

(١) نقلا عن ناصر عبد الله عثمان : الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر (ص ٣٥٥) .

البلاد ، وإتلاف الكثير من المكتبات بسبب الفتن والصراعات بين الأوجاقات العسكرية والبيوتات المملوكية ، وأخيرا عدم اهتمام كتاب ذلك العصر بكتابة ودراسة علم التاريخ لنظرتهم الهابطة إليه ، وعدوه من شغل البطالين . والحقيقة أن ما وضعه الجبرتي من تصورات وافتراضات عن تدهور الكتابة التاريخية في مصر العثمانية ، يجب أن يخضع لمزيد من البحث والتقييم »[1].

قلت : من أراد أن يتبين بطلان إدعاء د.عمر على الجبرتي ، فعليه أن يرجع إلى ما قاله الجبرتي بنفسه ، ليرى إن كان د.عمر قد فهم كلامه على نحو صحيح.. فقد قال الجبرتي : « ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعتني بتدوينه (التاريخ) ، سلفا عن سلف ، وخلفا من بعد خلف ، إلى أن نبذه أهل عصرنا ، وأغفلوه ، وتركوه ، وأهملوه ، وعدوه من شغل البطالين وأساطير الأولين »[2].

قلت : فمن الواضح هنا أن الجبرتي يتحدث عن زمانه الذي بدأ يكتب فيه تاريخه ، وليس على العصر العثماني كله ، كما زعم ، أو كما ظن د.عمر عبد العزيز . ولعل في قول الجبرتي التالي ما يؤكد ذلك ، إذ قال : « وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق في الجملة مطبوع ، لشخص يقال له أحمد جلبي بن عبد الغني ، مبتدئا فيه من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية ، وينتهي كغيره ممن ذكرناه إلى خمسين ومائة وألف هجرية . ثم أن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب ، وزلت به القدم ووقع في صندوق العدم . ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا ، لم يتقيد أحد بتقييد ، ولم يسطر في هذا الشأن شيئا يفيد »[3].

قلت : لم يعد هناك مجال للشك أن الجبرتي كان يتحدث عن الوقت الذي بدأ يكتب فيه تاريخه ، بدليل قوله أنه منذ أحمد جلبي بن عبد الغني ، صاحب « **أوضح الإشارات في فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات** » ، الذي ينتهي بأحداث ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م . وقوله (حتى الآن) ، يريد به السنة التي بدأ يكتب الجبرتي فيها تاريخه ، و هي سنة

---

(١) د.عمر عبد العزيز : مقدمة تاريخ وقائع مصر المحروسة ، تحقيق د.صلاح هريدي (ص ب) .
(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٥) .
(٣) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٦) .

١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م[1]. فالجبرتي عندما تحدث عن إهمال علم التاريخ ، وأن الناس عدوه من شغل البطالين وأساطير الأولين ، كان يتحدث عن فترة السبعين عاما التي تبدأ من عام ١١٥٠ وحتى ١٢٢٠هـ/ ١٧٣٧ وحتى ١٨٠٥م. ولم يكن يتحدث عن العصر العثماني كله ، كما توهم د.عمر عبد العزيز .

ثم تمادى د.عمر عبد العزيز في طعنه في عبد الرحمن الجبرتي ، فقال : « فالجبرتي لم يكن محقا أو دقيقا فيما ذهب إليه وأوحى به عن تدهور الكتابات التاريخية في مصر العثمانية وأفولها ، فهذه الادعاءات لا تجد البتة ما يدعمها من مبررات أو حقائق . ولعل ما هو ماثل أمامنا يدل بوضوح على أن الجبرتي نفسه ، صاحب هذه الادعاءات قد نقل الجزء الذي كتبه عن الفترة العثمانية التي لم يعاصرها من معظم مصادر تلك الفترة ، وهي كثيرة وليس من أحمد جلبي عبد الغني مؤلف كتاب « أوضح الإشارات » وحده كما يدعى . ولذلك كان من حق الباحثين الدكتورة عصمت حسن ، والأستاذ دانيال كريسيليوس أن يقولا بحق أن (**الجبرتي ليس مصدرا أصليا لتاريخ مصر في القرن الثاني عشر الهجري ، لكنه نقل لمصادر مبكرة ، وأن مؤرخنا حاول عن عمد إخفاء مصادره الحقيقية ، وإعطاء الصحة الكبرى لعمله الوحيد**)»[2].

قلت : مما يؤسف له أن هذا الكلام الفاسد يرد على لسان أستاذ كبير مثل د.عمر عبد العزيز . كما أنه ورد على لسان د.عصمت ، في الرسالة التي حصلت بها على درجة الماجستير ، ولقد حاولت أن أحصل على نسخة من تلك الرسالة فلم أوفق . وهذا الكلام باطل من وجهين :

الأول : قولكم أن الجبرتي لم يذكر من مصادره التي نقل عنها سوى « أضح الإشارات » لأحمد جلبي بن عبد الغنى ، هو إدعاء باطل . فقد قال الجبرتي في مقدمة كتابه : « ولما عزمت على جمع ما كنت سودته ، أردت أن أوصله بشيء قبله ، فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ، ركيكة التركيب مختلة التهذيب والترتيب ، وقد اعتراها النقص من مواضع في خلال بعض الوقائع . وكنت ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق في الجملة مطبوع ، لشخص يقال له أحمد جلبي بن عبد الغني ، مبتدئا فيه

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ١٧٨ ، ٣٧٤) .

(٢) د.عمر عبد العزيز : مقدمة تاريخ وقائع مصر المحروسة تحقيق د.صلاح هريدي (ص ب) .

من وقت تملك بني عثمان للديار المصرية ، وينتهي كغيره ممن ذكرناه إلى خمسين ومائة وألف هجرية »....وقال الجبرتي عند فتنة إفرنج أحمد : « ورأيت مؤلفا للشيخ علي الشاذلي في خصوص هـذه الواقعة وما حصل فيها مفصلا »[1].

قلت : مما سبق يتضح أن الجبرتي نفسه أفصح عن أربعة مصادر نقل عنها وهي :

١- أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، لأحمد جلبي بن عبد الغنى .

٢- ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة سنة ١١٢٣ ، للشيخ علي الشاذلي الفرا .

ما عناه الجبرتي بكتب الأجناد :

٣- تاريخ وقايع مصر المحروسة ، لمصطفي بن الحاج إبراهيم تابع حسن أغا عزبان .

٤- الدرة المصانة في أخبار الكنانة ، لأحمد كتخدا عزبان الدمرداشي .

فإن قيل لماذا لم يذكر الجبرتي كتب الأجناد بأسمائها وأسماء مؤلفيها ؟ أقول لأنها كتب قليلة القيمة بالنسبة لمؤرخ محترف مثل الجبرتي ، فهي مكتوبة باللهجة العامية ، وقد كتبها أجناد يبدو أنهم ليسوا من أصول عربية ، ولم يتلقوا قدرا وافيا من التعليم ، حتى أن لهجتهم العامية قد يستعصى فهمها أحيانا ، لاسيما مصطفى بن الحاج إبراهيم ، صاحب تاريخ وقايع مصر المحروسة ، فقد تستوقف القارئ صفحة كاملة لا يستطيع أن يفهم منها شيئا واضحا . علاوة على أنها تعتبر تسجيلا لوقائع الصراعات بين الأوجاقات العسكرية وبين أمراء المماليك وليست تاريخا لمصر بالمعنى الصحيح ، فهي لا تحتوى على ذكر الأوبئة والطواعين التي تعرضت لها مصر ، إلا ما ذكره من طاعون عام ١١٣٠هـ/ ١٧١٧م ، وذلك بمناسبة وفاة إبراهيم بيك أبو شنب فيه[2] ، وطاعون عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٦م ، وذلك بمناسبة وفاة مصطفي بيك بلفيه ، وحسن كتخدا مستحفظان الدمياطي ، وإسماعيل بيك ابن قيطاس بيك فيه[3]. ولكنهما لم

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٦، ١٠٧) .

(٢) مصطفي بن الحاج إبراهيم : تاريخ وقايع مصر المحروسة (ص ٢١٩) ، أحمد كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ١٢٠) .

(٣) مصطفي بن الحاج إبراهيم : تاريخ وقايع مصر المحروسة (ص ٣٣٧) ، أحمد كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة (ص ٢٠٢) .

يذكرا مدة الطاعون ، ولا أعراضه ، ولا عدد الوفيات . أما الطواعين التي لا يموت فيها أحد من الأمراء وأكابر الأجناد ، فلا يذكرونها أصلا .

كما أن تواريخ الأجناد تلك تخلو من ذكر سائر الأحوال العامة لمصر ، كفيضان النيل إلا فيما ندر ، فلربما ذكروه مرة أو مرتين على الأكثر ، في حين أن الجبرتي مثلا ذكره في تاريخه في كل عام ، خلال الفترة التي عاصرها ١١٩٠ - ١٢٣٦هـ/ ١٧٧٦ - ١٨٢٠م . كما تخلو كتب الأجناد من ذكر أسعار السلع إلا فيما ندر ، كما تخلو أيضا من ذكر الحوادث ، كالزلازل والصواعق ، وموجات البرد الشديد ، والأمراض الغريبة ، كالمرض المسمى بأبي الركب . كما تخلو كتب الأجناد أيضا من ذكر الحوادث العجيبة ، كوجود عجلة برأسين ، ونزول ثلوج من السماء بحجم كبير ، وظهور الشهب في السماء . كما تخلو من ذكر عادات الناس ، وما يحدث في موالد الأولياء وغير ذلك الكثير[1]. وفي الجملة فتواريخ الأجناد هذه لا يمكن أن يعتبرها مؤرخ محترف عالم محقق مدقق كالجبرتي ، كتب تاريخ بالمعنى العلمي ، لذلك ذكرها عرضا وإنما اختص بالذكر « أوضح الإشارات » لأحمد جلبي بن عبد الغني ، و « ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة ١١٢٣ » ، للشيخ علي الشاذلي الفرا ، لأن تاريخيهما يعتبران من كتب التاريخ بالمعنى العلمي للكلمة ، وليس مجرد مذكرات لأجناد عن وقائع الصراعات بين الأوجاقات العسكرية .

الثاني : أما قولكم : (الجبرتي ليس مصدرا أصليا لتاريخ مصر في القرن الثاني عشر الهجري ، لكنه نقل لمصادر مبكرة) فهذا أيضا باطل . وإذا استعرضنا المصادر التاريخية التي كتبها العلماء للقرن الثاني عشر الهجري فهي :

١- « تراجم الصواعق في واقعة الصناجق » لإبراهيم الصوالحي العوفي ، وينتهي بأحداث عام ١١١٣هـ/ ١٧٠١م .

٢- « تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » ، ليوسف بن محمد الملواني وينتهي بأحداث عام ١١٣١هـ/ ١٧١٨م ، وقد أتمه مرتضى بيك الكردي الدمشقي حتى

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٣٧ ، ٥٠ ، ٢٢١ - ٢/ ٥١ ، ٨٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٨ - ٣/ ٣١٣ - ٤/ ١٣٤ ، ١٧٣) .

عام ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م .

٣- « أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات » ، لأحمد جلبي بن عبد الغني ، وينتهي بأحداث عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م .

فمنذ عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م ، وحتى قيام عبد الرحمن الجبرتي بكاتبة تاريخه في عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م ، لا أعلم أن أحدا خط كلمة واحدة عن تاريخ مصر من المؤرخين العلماء . وأما الأجناد فليس هناك سوى كتاب « الدرة المصانة في أخبار الكنانة » ، لأحمد كتخدا عزبان ، والذي ينتهي بأحداث ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م ، وقد بينا أن كتابه لا يعد مصدرا تاريخيا بالمعنى الحقيقي . وعليه فإن كل أحداث النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي قد سجلها الجبرتي بمحض جده واجتهاده . ثم إن هناك ما هو أهم من ذلك ، وهو أنه حتى المصادر التاريخية الثلاثة التي كتبها العلماء عن النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، قد تميز عنها الجبرتي بذكر أحداث كثيرة لم يذكرها هؤلاء المعاصرون ، مثل تراجم الأعيان من العلماء والأمراء . فتاريخ الجبرتي حافل بذكر مئات التراجم للعلماء والأمراء في ذلك القرن كله ، حتى عن الفترة التي لم يعاصرها الجبرتي . فقد استطاع رحمه الله أن يجمع تراجم هؤلاء الأعيان التي أهملها أسلافه من المعاصرين لهم كالعوفي والملواني وأحمد جلبي ، فكتب هؤلاء الثلاثة تخلو من التراجم . في حين أن الجبرتي في الفترة من ١١٠٠- ١١٦٢هـ/ ١٦٨٨- ١٧٤٩م ، وهي فترة لم يعاصرها فهو قد ولد عام ١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م ، وبالرغم من ذلك فقد أورد أكثر من مائتي ترجمة لعلماء وأمراء كثيرين ، منهم من لم نكن لنعلم عنهم شيئا لولا أن الجبرتي جمع لنا تراجمهم ، بعد أن أهملها مؤرخو النصف الأول من القرن . وحتى الأمراء الكبار المشهورين الذين ورد ذكرهم في المصادر السابقة على الجبرتي ، كإيواظ (عوض) بيك ، وقيطاس بيك ، وإبراهيم بيك أبو شنب ، وأيوب بيك وغيرهم من أمراء النصف الأول من القرن ، فقد جمع لنا الجبرتي تراجمهم فذكر فيها أصلهم ، وتبعيتهم ، والمناصب التي تولوها ، ومماليكهم ، والفتن التي شاركوا فيها وغير ذلك . وهذا لم ينقله الجبرتي عن أحد قط ، بل هو محض جهده واجتهاده الخاص ، بالرغم من أنه لم يكن معاصرا للأحداث . فتاريخ الجبرتي من ذلك الوجه ، هو المصدر الأصيل

الوحيد للقرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي .

ثم إن هناك أمرا آخر تميز به تاريخ الجبرتي ، فقد جاء فيه خبر بعض المناظرات بين العلماء وخلافاتهم العلمية ، كما جاء فيه أخبار عن الحالة الأدبية لتلك الفترة ، وكثير من المعارضات الشعرية للأدباء والعلماء . ومن ذلك الوجه أيضا فتاريخ الجبرتي هو المصدر الأصيل الوحيد للقرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي . لذلك فلا نكون مغالين أبد إن قلنا لولا أن قيض الله لنا رجلا مثل عبد الرحمن الجبرتي ، لصار تاريخ ذلك القرن ظلمات بعضها فوق بعض . فمن زعم أن تاريخ الجبرتي أنما هو نقل عن مصادر مبكرة في الفترة التي لم يعاصرها أو أن الجبرتي قد أخفى مصادره عند عمد ، فهو لم يقرأ تاريخ الجبرتي ، ولا سائر المصادر التاريخية المذكورة بعناية . أو لعله لم يقرأها أصلا . وإنما كعادة أساتذة التاريخ فقد خرج علينا متحذلقا متبجحا ، متدثرا بعباءة المحققين المدققين ، زاعما أنه ببطون المصادر التاريخية عليم ، طاعنا في شيخه وإمامه ، ناكرا لعلمه واجتهاده ، جاحدا لفضله عليه وعلى أقرانه . ولعل خير ما نرد به عليه ، هو ما أنشده شيخ المعرة أبو العلاء :

وطاولت الأرض السماء سفاهة	وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
وقال السهى للشمس أنت خفية	وقال الدجى للصبح لونك حائل

ولو نظرنا إلى ما صنفه المؤرخون من جيل الجبرتي ، عن وقائع ذلك القرن لتبين لنا قدر الجبرتي وقدر تاريخه . فمثلا الشيخ مصطفى الصفوي القلعاوي صاحب « **صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان** » ، وهو كتاب مختصر في تاريخ مصر من الفتح الإسلامي وحتى عام ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م . فأما الجزء المتعلق بأحداث القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، فقد ذكره المؤلف مختصرا في خمس وأربعين صفحة (في كل صفحة أربعة وعشرون أو ثلاثة وعشرون سطرا) . وأما الشيخ إسماعيل بن سعد الخشاب ، صاحب « **أخبار أهل القرن الثاني عشر** » ، فكتابه مختصر لا يتجاوز الثلاثين صفحة (في كل صفحة أربعة وعشرون سطرا). أما الجبرتي فقد سجل لنا أحداث ذلك القرن فيما يزيد عن خمسمائة صفحة ، وذلك في طبعة بولاق ذات الصفحات الكبيرة ، التي تحتوي كل منهن على ثلاثة وثلاثين سطرا . ولو تم تفريغها في طبعة حديثة لتجاوزت أحداث ذلك القرن الثمانمائة صفحة .!

ثم إن هناك أمرا آخر جديرا بالملاحظة ، وهو أن الوقائع التاريخية منذ عام ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م وحتى نهاية عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م ، وهي ستة وثمانون عاما كاملة ، ليس لهن مصدر تاريخي يعول عليه ، قد فصل أحداثهن ، وترجم علماءهن إلا تاريخ الجبرتي.. ولترغم أنوف الحاقدين والجاحدين . فلقد بذل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي جهدا عظيما في جمع تاريخ تلك الفترة الطويلة ، فقابله بعض أحفاده بالجحود والنكران ، فيا حسرة عليهم . اللهم اغفر لنا ولعبد الرحمن الجبرتي ، وجازه بالإحسان إحسانا ، وأنر له قبره ، واجعل مثواه الجنة ، وارفع درجاته فيها ، واحشره في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واجعلنا معهم يا رب العالمين ، نحن وسائر المسلمين . وصلي اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم أجمعين .

وقد سبق للدكتور **عمر عبد العزيز** أن قال كلاما أشنع من ذلك في حق الجبرتي ، في أحد أبحاثه . وهو « دراسة مقارنة بين عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك » . فأما نقولا الترك هذا فهو صاحب كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » ، وهو لبناني نصراني ، من أهل الذمة في الدولة العثمانية . وهو من أذناب الفرنسيين ، وقد رحل إلى مصر أثناء الحملة الفرنسية عليها ليسجل أحداثها . وهو ليس مؤرخا بالمعنى الحقيقي للكلمة فليس له من الأعمال التاريخية سوى ذلك الكتاب . وكان شديد التحيز للفرنسيين ، ويبدو من كلامه فرحه ، وسروره بانتصاراتهم حتى بلغ به الأمر أن نظم قصيدة في مدح بونابرت جاء فيها :

لله عصر قد زها ... فلك السعادة فيه دار
وجمال كوكب دولة الـ ... جيش الفرنساوي أنار
يا حسنها من دولة ... بالافتخار لها اشتهار
مقدامها ذو سطوة ... تهدي الملوك له الوقار
الشهم بونابارتة ... ليث الوغا والاقتدار

وجاء فيها أيضا :

و تملك الإسكندرية ... بسرعة دون اعتبار
وملأ الأراضي عسكرا ... حول الكنانة واستدار

مـن كل صنديـد فتـى　　　يوم القتال لـه اصطبار

وقال عن جيش مصر الذي هزم :

وتبددت تلك الجماهير　　　العديـدة فـي القفـار

وتشتـت أمراؤهـــا　　　وغدت بـذل وانكسار

وفتـوح مصـر كان في　　　صفـر وأمـر الله صـار

فـي يـوم سبت فيـــه　　　قدأرخت تم الانتصار

وقد بلغت محبة الفرنسيين في قلب نقولا الترك هذا مبلغا ، حمله على نظم قصيدة في رثاء كليبر (كليبر يتحدث عن نفسه) ، وليس ذلك فحسب بل بلغت به الخسة أن سب فيها سليمان الحلبي رحمه الله . وقد جاء فيها :

فهناك بددت الجيوش بصارمي　　　و تركتهـم أعجوبـة للناظـــر

من باب مصر للعريش أسقتهم　　　سوق الخراف أمام وجه الزاجر

وجاء فيها أيضا عن سليمان الحلبي

فغـدى أخس الخلق منهم قاتلي　　　والسائل الصعلوك أرخ غـادر[1]

تعمدت أن أنقل هذه الأشعار التي نظمها ذلك الرجل ، لتعلموا أنه فرنسي أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، بل هو خائن وليس له عقوبة إلا القتل في شتى الشرائع السماوية والأرضية . ولست في حاجة للتعليق على تلك الشماتة ، التي قالها عن جيش المسلمين وأمرائهم . وتلك السفالة التي وصف بها سليمان الحلبي ذلك البطل الذي نحسبه شهيدا عن الله . وقد قال العميد الركن ياسين سويد ، محقق ذلك الكتاب في وصف نيقولا الترك ، وهي عبارات مهذبة لا تتماشى في ظني مع قدر الجرم الذي ارتكبه ذلك الرجل ، وهو الخيانة العظمى . إذ قال : « إذا كان هناك شيء من حماسة أو حرارة في وصف الوقائع والمعارك ، فهو إما تحيز إلى موقف وغالبا ما كان تحيزا لموقف المحتل الفرنسي – أو تحيز ضد آخر ، يقرب أحيانا إلى درجة التشفي »[2].

---

(١) نقولا الترك : ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية (ص ١٦٧ ، ١٦٨) .

(٢) العميد الركن ياسين سويد : مقدمة تحقيق ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية (ص ١٥)

ولكن المؤسف المبكي ، والمهلك المنكي هو ما فعله د.عمر عبد العزيز من مقارنة نقولا الترك بالجبرتي . ولست أدرى كيف طابت نفسه لذلك ، فنحن لا نعدل نقولا الترك هذا بقلامة ظفر عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله . فمجرد وضع نقولا الترك على قدم المساواة مع الجبرتي ، لدليل بين على أن د.عمر عبد العزيز لا يعرف قدر الجبرتي . ولكن الأنكى من ذلك أنه قال عن نقولا الترك : « امتاز بدقة في النظر ، وصواب في الحكم ، وتحر لبعض المعلومات »... « صائب القياس ، بصير الحكم » ...وقد علل د.عمر مدائحه للفرنسيين بأنه مجرد إعجاب بالشجاعة الحربية لهم ، وبأنه كان يبغض الأتراك[1].

ولكن الأشنع من ذلك هو ما قاله د.عمر عبد العزيز عن شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي : « لم تكن لديه مثل معاصره نقولا الترك صورة واضحة عن أحوال أوروبا السياسية والحضارية في تلك الفترة ، فهو لم يتبين ما وراء الغزو الفرنسي من أهداف سياسية واقتصادية ، واقتصر تعليله على أنه فتح ديني قام به النصارى ، وهو يعبر بذلك عن معاصريه من المسلمين الذين كانوا يرون أنه إذا انهزمت جيوش السلطان ، واستباح النصارى أرضه ، فقد اختل ميزان الحياة واضطرب أمرها »[2].

قلت : فالجبرتي عند د.عمر لم يحسن تقدير الأمور ، لأنه عادى الفرنسيين ورآهم عزاة معتدين ، أما نقولا الترك فهو في نظر د.عمر مؤرخ ناقد بصير بالأمور .! أي بلية هذه التي حطت على رؤوسنا .؟! فهذا كلام أستاذ كبير يعد من أعمدة التاريخ الحديث . أهكذا تعلمون أبناءنا في الجامعات يا أساتذة التاريخ ؟! لقد علمنا الآن ورب الكعبة ، كيف أن شبابنا يتخرج من الجامعات ، وقد مسخت هويتهم ، وفسدت فطرتهم ، واختلت موازينهم . فما من سبب لذلك إلا تلك السموم الفكرية التي يزرعها في رؤوسهم بعض أساتذة التاريخ من أمثال د.عمر عبد العزيز . والحق أنه لا ينبغي لنا أن نتعجب من كلام د.عمر ، فهو قد تربى في جامعات إنجلترا ، فصب علماء الإنجليز في رأسه سمومهم ، ونفثوا فيه أحقادهم فأبصر مكنون صدورهم ، ثم سال قلمه ليسطرها في كتبه ، وينقلها إلى تلاميذه . ولا حول

---

(١) د.عمر عبد العزيز : عبد الرحمن الجبرتي و نقولا الترك ، دراسة مقارنة (ص ٢٥) .

(٢) د.عمر عبد العزيز : عبد الرحمن الجبرتي و نقولا الترك ، دراسة مقارنة (ص ٢٨) .

ولا قوة إلا بالله .. إياك إياك أن تظن أن هذه الكلمات هي من بنات أفكار د.عمر عبد العزيز أو أنها خلاصة ما توصل إليه بعد بحث شاق وجهد مضن ، بل هي من بنات أفكار المستشرق الحاقد الحاذق ، **برنارد لويس** ، وقد أشار إليها في كتابه « **اكتشاف المسلمين لأوروبا** » ، فقد قال : « تناقش الجبرتي ومعاصروه في مصر طويلا بعد رحيل حملة بونابرت على مصر ، حول الوصول والأفعال والنشاطات ، فلم يعيروا أي انتباه أو اهتمام للتاريخ الداخلي لفرنسا . وصل الفرنسيون ومكثوا فترة ، وقاموا بأفعال وأمور مختلفة ثم رحلوا ، ولم يهتم أحد بأن يسأل عن سبب مجيئهم ، ثم رحيلهم . مجيء الكفار كان ينظر إليه على أنه من الكوارث الطبيعية »[1].

هذا ما قاله برنارد لويس عن الجبرتي وإخوانه من العلماء ، ثم أطنب بعد ذلك في مدح نقولا الترك لفهمه حقيقة الأحداث « **وتفكيره المعقول والدقيق في سرد الأحداث** ». ولعلك تدرك الآن قدر الشبه بين كلامه وكلام د.عمر المذكور آنفا ، فإذا علمت أن برنارد لويس نشر أفكاره تلك عام ١٩٥٧م من خلال إذاعة B B C وفقا لما ذكره هو نفسه في مقدمة كتابه ، لتبين لك من يقتفي أثر من .! ولو كان د.عمر قد كلف خاطره بقراءة تاريخ الجبرتي قراءة متأنية ، لتبين له بطلان مزاعم برنارد لويس من أن الجبرتي ومعاصريه كانوا غافلين عما يحدث في أوروبا ، وعن الثورة الفرنسية بصفة خاصة ، بل لقد كانوا واعين مترقبين ، بل من المؤكد أنهم قد تباحثوا في تلك المسألة . وهناك واقعة تؤكد ذلك ، ففي عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م عندما جاءت حملة فريزر الإنجليزية ، واستولت على الإسكندرية ، أرسل محمد علي باشا إلى الأمراء المماليك يستعجلهم في إجراء الصلح ، ليقطع الطريق على الإنجليز في استمالتهم إلى جانبهم . وكان العلماء والفقهاء هم الوسطاء في ذلك الصلح ، فكان مما قاله العلماء للأمراء المماليك وسجله الجبرتي في تاريخه : « **إن الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم** »[2].

فهذا دليل واضح على أن علماء المسلمين كانوا على دراية بالتطورات الفكرية التي كانت

(١) برنارد لويس : اكتشاف المسلمين لأوروبا . ترجمة د.ماهر عبد القادر (ص ٦٤) .
(٢) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤/ ٤٩) .

تجري في أوروبا آنذاك ، ويعلمون أن الفرنسيين تنكروا للنصرانية بعد الثورة الفرنسية بخلاف الإنجليز الذين بقوا على دينهم . ولو كان د.عمر قرأ تاريخ الجبرتي بعناية لاستطاع أن يتبين ذلك ، ولكنه كأغلب أساتذة التاريخ غفل عن مصادرنا الإسلامية ، وأدمن مطالعة كتب المستشرقين ونقل أفكارهم ، كما لو كانت الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بل لو كان د.عمر قد قرأ كتاب برنارد لويس بعناية ، لتبين له أنه قال قولا ثانيا يناقض قوله الأول المذكور آنفا . فقد نقل لويس فحوى تقرير عثماني تم مناقشته في الديوان العام في اصطنبول قبيل الحملة الفرنسية على مصر ، وقد سجله جودت باشا في تاريخه ، وقد جاء فيه : « إن الملحدين المعروفين المشهورين روسو ، وفولتير ، أوسعوا شتما وسبابا ضد الرسل والأنبياء والملوك الكبار ، وعملوا على محو وإزالة الدين ، مع تلميحات حلوة عن المساواة ونظام الجمهورية ، وعبروا عن كل هذه الكلمات في عبارات سهلة الفهم على شكل سخرية وبلغة عامة الشعب »[1].

كما أن د.عمر عبد العزيز قد زعم أن الجبرتي ظن أن الحملة الفرنسية إنما هي غزو ديني ، قام به النصارى . وهذا باطل بلا ريب ، فقد قال الجبرتي في تعليقه على منشور بونابرت الأول : « والذي تحرر من عقايدهم (الفرنساوية) أنهم لا يقفون على دين ولا يتفقون على ملة ، فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله ، ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين ، لكن كل ذي دين منهم سائر مصر عليه موافق للجمهور في ضلالهم المصرين عليه ... فهؤلاء الأقوام خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين ، فتراهم دهرية معطلين ، وللمعاد والحشر منكرين ، وللنبوة والرسالات جاحدين ، ويقولون بقدم العالم[2] وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية ، وظهور الملل وانتقال الدول بموجب طبع القرانات[3] وامتزاج المناظرات . وربما اعتقدوا بتناسخ الأرواح إلى غيرها من الأشباح ، ومثل ذلك من الخبالات وأنواع الضلالات .

---

(١) برنارد لويس : اكتشاف المسلمين لأوروبا . ترجمة د.ماهر عبد القادر (ص ٢٠٧) .

(٢) أي أن العالم أزلي وليس بمخلوق .

(٣) القرانات : المهالك.. والمراد أن الدول تظهر ثم تندثر بطبائع الأحوال وليس بتقدير الكبير المتعال .

وعقيدتهم السالكين فيها تحكيم العقل ، وما تستحسنه النفوس بحسب الشهوات . ولا يبالون بكشف عوراتهم مع قبحه في العقل والنقل ... »[1].

فقول الجبرتي المذكور آنفا لهو دليل آخر على أن د.عمر عبد العزيز لم يحاول أن يتعرف على الجبرتي وفكره من خلال كتابات الجبرتي نفسه ، وإنما اكتفى بنقل رؤية برنارد لويس وغيره من المستشرقين .!! فمن كل ما سبق يتبين بطلان الزعم بأن المؤرخين المسلمين كانوا غافلين عن مجرى الحوادث في أوروبا ، ولكن يبدو أن د.عمر كأغلب أساتذة التاريخ ، ففضلا عن أنهم أشربوا المراجع الأوروبية في قلوبهم ، فإنهم لا يرون إلا ما يريهم إياه الأوروبيون .! على أية حال سيكون لنا حديث مفصل عن البعثات العلمية ، وأثرها في افساد الحياة الثقافية منذ عصر محمد علي باشا وذلك في كتابي التالي « **الصارم الذكير في الرد على أنصار محمد علي باشا الكبير** » الذي سأشرع في كتابته قريبا إن شاء الله .

حرص العثمانيين على نشر الإسلام

أراد كثير من الغربيين أن ينفوا عن العثمانيين هدفهم الأصلي من فتوحاتهم وجهادهم ، وهو نشر الإسلام . والحق أن الدولة العثمانية شأنها شأن ما سبقها من دول الإسلام ، لم يكن لها هدف إلا الجهاد في سبيل الله لنشر الدين ، فأيدهم الله بنصر من عنده ، حتى إذا تبدلت النوايا ، وكلت العزائم ، وصار حب الدنيا مقدما على حب الآخرة ، فسدت أحوالهم وتراجعت دولتهم حتى انتهى الأمر بزوالها . وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . ولكن كثير من الغربيين أرادوا أن يصوروا الدولة العثمانية على أنها دولة استعمارية هدفها التوسع وبسط النفوذ على أكبر رقعة ممكنة من العالم ، دون أن يكون لنشر الدين عندهم أي اعتبار . ومن ذلك ما قاله الأمريكي بيتر شوجر عن العثمانيين : « مع أن اعتناق الإسلام يعتبر غاية أهداف الدولة الإسلامية الحقة ، إلا أنه قد نتج عن الاعتناق العام للخاضعين فوضى اقتصادية واضطراب في الأمور ، يتمثل في انخفاض حصيلة جزية أهل الذمة على الأقل . ومن هنا فإن التسامح الشديد الذي عامل به الحكام العثمانيون الأوائل

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس (ص ٢٤ – ٢٦) .

رعاياهم من أهل الذمة – وهي سياسة غير عادية حتى بالنسبة لدولة إسلامية – واحترامهم للقوانين المحلية للبلاد المفتوحة ، وتطابق هذا مع ما جاء في الشريعة من حيث معاملة أهل الكتاب ، كان كفيلا برضى الرعايا عن وضعهم الجديد في الدولة كمنتجين يدفعون ضريبة وليس أهل ذمة يدفعون جزية ... وفي أعقاب انتصارات سليم الأول أصبح العثمانيون أقل تسامحا في تعاملهم مع أهل الذمة ، وإذ ذاك وضحت أنماط التعامل ، وكانت قوة العثمانيين كافية لاستمرار بقاء النظام الذي يفرضونه »[1].

قلت : لست أدري ما الذي يريده ذلك الأمريكي من كلامه . هل يريد أن يقول أن العثمانيين في أول أمرهم كانوا يتصنعون التسامح من باب احتواء أهالي البلاد المفتوحة ، فلما استعلوا وعلا شأنهم أسفروا عن وجههم الحقيقي .؟! أم لعله يريد أن يقول أن احتفاظ كثير من أهالي البلقان بعقيدتهم الدينية كان بسبب أن العثمانيين كان من مصلحتهم عدم دخول الناس في الإسلام ، لئلا تقل حصيلة الجزية ؟! أيا كان ما يريده فهو باطل ، وقد تحدثنا عن مدى سماحة العثمانيين حتى وهم في أوج قوتهم ، في عصر السلطان سليمان القانوني فلا داعي للإعادة . ولكني أحب أن أبطل الزعم بأن العثمانيين إنما كانوا يفضلون تحصيل الجزية ليملؤا خزائنهم ، على السعي في ادخل الناس في الإسلام ، وذلك من ثلاثة أوجه :

١ – أن السلطان بايزيد الثاني فرح بإسلام بعض النصارى وأكرمهم ، وقد روى صاحب الشقائق ذلك فقال : « لما بنى السلطان بايزيد خان جامعه بمدينة قسطنطينية ، حضر السلطان بايزيد خان الجامع في أول جمعة بعد بنائه ، فصعد الشيخ المذكور (بابا يوسف) المنبر والسلطان حاضر يسمع ، فوعظ الناس وذكرهم وحصل من نفسه تأثير عظيم في قلوب السامعين ، حتى غلب عليهم الحال وحصل لهم شوق عظيم . ولما شاهد هذا الحال بعض السامعين من النصارى المستمعين من خارج الجامع ، أسلم ثلاثة منهم على يد الشيخ ، ففرح السلطان بايزيد خان لذلك فرحا عظيما ، وأعطاهم مالا جزيلا ، وأمر الوزراء بالإحسان إليهم ، فاجتمع لهم أموال عظيمة »[2].

---

(١) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ٦١) .

(٢) أحمد بن مصطفى طاش كوبرى زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص ٢٢٤) .

٢- أن الدولة قبل السلطان سليم الأول كانت في سعة من المال ، ولم تكن تواجه أزمات اقتصادية تحملها على التخلي عن أهدافها الرئيسية . ففي عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ، في زمن السلطان محمد الفاتح كانت نفقات الدولة ١٣٧٥٠٠٠ عملة ذهبية أي ما يعادل ٤٩٠٨,٧٥ كيلوجرام من الذهب ، أما إيراداتها فكانت ١٨٠٠٠٠٠ أي ما يعادل ٦٤٢٦ كيلوجرام من الذهب(١). أي أن الفائض في الميزانية يتجاوز نسبة ٢٣٪ .

٣- أن الدولة بعد السلطان سليم الأول وفي زمن السلطان سليمان ، في أوج عظمتها وقوتها لم تكن تعاني كذلك من أزمات اقتصادية . ففي عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م ، كانت إيرادات الدولة ١٢٧٥٠٠٠٠ عملة ذهبية منها ١٠٠٠٠٠٠ من الجزية(٢). أي أن نسبة الجزية في إيرادات الدولة هي ٨٪ تقريبا ، فلا تعتبر دخلا أساسيا للدولة . هذا إذا أخذنا في الاعتبار أن تلك النسبة تشمل الجزية المحصلة من أهل الذمة داخل الدولة ، ومن المعاهدين من خارج الدولة ، كالجزية التي كان يدفعها الإمبراطور الألماني عن النمسا ، والجزية التي كانت تدفعها البندقية . فلو أردنا احتساب الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة من رعايا الدولة لكانت أقل من ذلك . ولم تكن الدولة التي أوتيت سعة من المال ، لتتخلى عن أهم واجبتها لأجل حفنة دنانير . ومما يدل على أن المال المحصل من الجزية لم يكن ذا أهمية لميزانية الدولة ، أنه كان يعطى للعلماء ، ثم جعلها السلطان سليمان القانوني وقفا على الحرمين الشريفين . **قال بجوي** : « صدقة الجوالي يعني خراج أهل الذمة ، هي واحدة من تلك الصدقات ، وكانت قبل ذلك شيئا قليلا جدا ، وكانت مقصورة على بعض العلماء والأعيان فقط ، ولكن عينت لمعظم سكان الحرمين في عصر دولة المرحوم سليمان خان »(٣).

---

(١) نيكورا بيلدبسينو : تنظيم الإمبراطورية العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران (١/ ١٧٥) .

(٢) بيتر شوجر : أوروبا العثمانية (ص ١٠٢) .

(٣) تاريخ إبراهيم أفندي بجوي (ص ٣١٤) وانظر أيضا مرعي بن يوسف الكرمي : نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولي مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (٥٢٩٨) . ورقة (٧٣) ، محمد بن أبي السرور البكري : المنح الرحمانية في الدولة العثمانية (ص ١٢٨) .

فلم تتخل الدولة العثمانية يوما عن واجبها في نشر الإسلام إلا في عصورها المتأخرة ، مما كان مؤذنا بسقوطها ، وتلك سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

عيوب الحكم العثماني

لا شك أن للحكم العثماني عيوبا شأنه شأن غيره ، ولكني لن أسهب في هذه المسألة كثيرا لأن عيوب الحكم العثماني ، مازال الناعقون يذيعون بها بحق أو بباطل منذ أكثر من قرن من الزمان . فالساحة الثقافية ليست في حاجة إلى ذكر عيوب العثمانيين ، بل في حاجة إلى إنصافهم . ولكن من باب إنصاف العثمانيين أيضا أن نذكر عيوبهم في إطار النقد البناء ، بعيدا عن تشنيع الحاقدين ، أو افتراءات المبطلين ، أو سخافات الجاهلين . وكنت قد ذكرت في الباب الأول بعض تلك العيوب من ضمن التغيرات التي طرأت على إدارة الدولة بعد السلطان سليمان القانوني و، التي ظهرت آثارها السيئة بعد فترة من الزمن ، فأدخلت الدولة في مرحلة التراجع في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي . كما تحدثت بإسهاب عن قتل الإخوة ، بعيدا عن تشنيعات المستشرقين ، وبينت أنه أحد أهم أسباب تدهور الدولة . ولكن بدا لي عيبان آخران :

الأول : المركزية العسكرية ، بمعنى أن الحملات العسكرية التي تفتح البلاد ، كانت تخرج من عاصمة الدولة . ولم يكن ذلك يمثل عائقا في المراحل الأولى للدولة ، ولكن بعد أن توسعت توسعا كبيرا في عهد السلطان سليمان القانوني . أصبح ذلك عبئا كبيرا على أداء الجيش ، وللأسف لم تتخذ أي إجراءات لتلافيه . وبما أن مناطق الفتوحات العثمانية كانت في بلاد شديدة البرودة ، سواء في أوروبا الشرقية أو في آسيا ، فكان موسم العمليات العسكرية يبدأ مع ذوبان الثلوج في فصل الربيع ، وينتهي بسقوط الثلوج في الشتاء . فمع سعة مساحة الدولة أصبح موسم العمليات العسكرية قصيرا جدا . إذ أن الحملة إذا خرجت من اصطنبول فربما يستغرق سيرها حتى تصل إلى الحدود أكثر من شهرين . فما أن تتوغل وتفتح عددا قليلا من القلاع ، حتى يدخل فصل الشتاء وتسقط الثلوج فتضطر إلى العودة . ثم إن الدولة العثمانية كانت تقاتل الصليبيين على حدودها الغربية ، كما كانت تقاتل الصفويين على

حدودها الشرقية . والمسافة بين الجبهتين شاسعة جدا .

أما في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى ، فقد كانت تؤسس قواعد عسكرية مستقلة على الجبهات المختلفة . فمثلا الجيش الذي خرج لفتح الشام ، خرج من المدينة ، أما الجيش الذي خرج لفتح مصر فقد خرج من الشام ، وأما الجيش الذي خرج لفتح إفريقية فقد خرج من مصر ، وأما الجيش الذي خرج لفتح الأندلس فقد خرج من إفريقية . ولكن ربما كان ذلك الترتيب يصلح للعصر الإسلامي الأول ، لأنه كان خير القرون . فعن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله ﷺ : « **خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عِمْرَانُ : فَلا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْذُرُونَ وَلا يَفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمَنُ** »[1].

فقد كانت حركات العصيان والتمرد في أضيق الحدود آنذاك . أما في العصور التالية فقد زادت وتفاقمت ، وقد شهد العصر العثماني نفسه كثيرا من حركات العصيان كما تقدم ذكره على صفحات هذا الكتاب . فلو تم تأسيس قيادة عسكرية مستقلة على كل جبهة لربما آل الأمر إلى انفصالها عن الدولة المركزية . فلربما كان ذلك هو السبب الذي حتم على الدولة العثمانية أن تتبع سياسة المركزية العسكرية ، والله أعلم .

الثاني : إهمال قلب جزيرة العرب . وهذا العيب لم ينفرد به العثمانيون ، بل إن قلب جزيرة العرب تم إهماله منذ أواخر القرن الثالث الهجري تقريبا . فتلك المناطق المقفرة ذات الصحاري القاحلة ، والرمال الساخنة لم يكن يلقى لها بال ، بل كان الاهتمام منصبا على الحجاز ، والسواحل الجنوبية والشرقية كاليمن والأحساء . وعندما آل الحكم إلى العثمانيين بقي الحال على ما هو عليه . وقد أدى ذلك الإهمال المتراكم إلى أن عاد العرب إلى الجاهلية ، فعادوا قبائل متناحرة ، يقطع بعضهم الطريق على بعض ، حتى أن قوافل الحجاج لم تسلم من عدوانهم ، كما أنهم حادوا عن الدين القويم ، وظهرت فيهم بدع شنيعة كتقديس القبور والأشجار ، بل لقد عاد بعضهم إلى عبادة الأصنام . فقد أعاد أهل تبالة – وهي قرية من بيشة

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢) ، مسلم (٤/ ١٩٦٤) ، أحمد (٣٣/ ٧٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢٨) ، النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٤٥٠) ، الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٣) ، أبو عوانة في المستخرج (٤/ ١٧٢).

على طريق اليمن- صنم ذي الخلصة الذي كانت تعبده دوس في الجاهلية . حتى هدمه الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمه الله (ت ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م)[١] وكان رسول الله ﷺ قد تنبأ بذلك ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ، حَوْلَ ذِي الخَلَصَةِ** »[٢].

ولا شك أن ذلك كان حصادا لقرون طوال من الإهمال قبل الحكم العثماني وبعده ، فلم تكن تبنى المدارس في بلاد وسط جزيرة العرب ، فحرمت من العلم والعلماء فانتكست وعادت إلى الجاهلية . حتى جاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فأحيى السنة ، وأزال البدعة بمعونة الإمام محمد بن سعود رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي : عنوان المجد في تاريخ نجد (١/ ٢٨ ، ٣٧٢) .

(٢) رواه البخاري (٩/ ٥٨) ، مسلم (٤/ ٢٢٣٠) ، معمر بن راشد في جامعه (١١/ ٣٧٩) ، نعيم بن حماد في الفتن (٢/ ٦٠٠) ، أحمد (١٣/ ١٠٦) ، أبو بكر بن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٨) ، أبو بكر البزار في مسنده (١٤/ ٢١٢) ، أبو حاتم بن حبان في صحيحه ١٥/ ١٤٩ ، الطبراني في مسند الشاميين (٤/ ١٦٦) .

الخاتمة

لقد تعرضت فترة الخلافة العثمانية من تاريخ المسلمين إلى كثير من التشويه ، على أيدي المستشرقين ومن تبعهم من تلاميذهم ، وتلاميذ تلاميذهم من أساتذة التاريخ المسلمين الذين استسلموا للمستشرقين ، وتلقوا منهم السموم الفكرية ، وتبعوهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع حذو القذة بالقذة . وتبنوا أقوالهم وراحوا يرددونها مثنى وفرادى ، زرافات ووحدانا ، بما تحتويه من أباطيل وشبهات عن التاريخ الإسلامي عامة ، وعن العصر العثماني خاصة . رددوها وأذاعوا بها وكأنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !. ولقد أنشأ جهاز الاستشراق مؤسسات تعليمية ، تمكن عن طريقها من بث تلك السموم الفكرية ، كمدرسة الألسن ، ثم الجامعة الأهلية ، ثم الجامعة المصرية ، ثم جامعة فؤاد الأول ... وقد تولى التدريس في هذه المؤسسات ، المستشرقون ثم النابغون والنابهون من تلاميذهم المسلمين ، الذين شحنت عقولهم بالأباطيل والشبهات ، وتلوثت أفكارهم بفيروسات الغزو الفكري . فأصبح خريجو هذه المؤسسات التعليمية - وهم صفوة القوم آنذاك - بمنأى عن ثقافتهم الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة . فأقبلوا على كتابات المستشرقين فنهلوا منها وعلوا ، وأعرضوا عن المنابع الأصلية للثقافة الإسلامية ، ونفروا عن المصادر التاريخية الأصلية . ويصدق فيهم قول عنترة بن شداد :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم[1]

وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الخريجون أساتذة ، يدرسون في تلك المؤسسات التعليمية ، ويبثون السموم الفكرية بلا وعى إلى تلاميذهم ، وهكذا دواليك ، كل جيل يسلم الراية إلى الجيل الذي يليه ، ففسدت الحياة الفكرية فسادا عظيما في بلاد المسلمين . وإنا لله وإنا إليه راجعون . ولقد قدمت على صفحات هذا الكتاب أكثر من مثل يؤكد أن أساتذة التاريخ لا يرجعون إلى مصادرنا التاريخية ، وإنما يكتفون بالرجوع إلى المراجع لاسيما الأوروبية منها ، ثم

---

(١) يصف عنترة بن شداد ناقته فيقول أنها شربت من موضع ماء يسمى الدحرضين فلما بلغت حياض الديلم لم تكن في حاجة للشرب منها .

إذا ما قرأوا مصادرنا فهم يقرؤونها بفكر مسبق ، فينتقون منها ما يوافق أهواءهم .! ومشروع الغزو الفكري هذا ، كان أبا عذرته نابليون بونابرت . بهدف إيجاد ما سماه « حزب فرنسا في مصر »[1]. وهم بتنفيذه إبان الحملة الفرنسية على مصر ، عن طريق إيفاد بعض الأعيان من المصريين إلى فرنسا ليتشبعوا بالثقافة الفرنسية ، ثم يعودوا إلى مصر لنشرها بين الناس . ولكن فشل الحمل الفرنسية وجلائها عن مصر بعد ثلاثة أعوام تقريبا ، أفشل ذلك المشروع النابليوني . ثم قام مسيو جومار ببعث هذا المشروع من جديد ، في أربعينيات القرن التاسع عشر . وجومار هذا كان من العلماء الذين حضروا إلى مصر صحبة بونابرت ، وكان عضوا في المجمع العلمي . وقد عينه محمد علي باشا رئيسا لأول بعثة علمية إلى فرنسا في سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م . ثم توالت البعثات تلو البعثات ، تحمل أبناءنا من الشباب الغض ، ذي العود الطري ، الذي لم يتشبع بعد بثقافة أمته ، فتلقيه في عواصم أوروبا ، فيبهره ما استجد فيها من نهضة صناعية ، ويلعب بعقله ما ابتدعوه من نظريات فكرية ، سياسية واجتماعية . فيستسلم لها ويولي وجهه شطرها ، وكأنها الأمل المنشود وغاية المقصود ، فينهل من ثقافتها ويعل ، متنكرا لثقافة أمته . تلك الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة . ولعل خير ما يشير إلى ذلك ما سمعته من الأستاذ محمد حسنين هيكل ، المفكر السياسي الكبير ، ورئيس تحرير جريدة الأهرام الأسبق . فقد ذكر أن اللقاء جمعه بعد نكسة ١٩٦٧م مع من سماهم « أعلاما » ، وعد اجتماعهم هذا مجمعا علميا .! وهم توفيق الحكيم ود.حسين فوزي ، ونجيب محفوظ ، ود.لويس عوض . وكان من المفترض أن يشاركهم د.طه حسين لكنه تخلف عن الحضور ، لأنه لا يخرج من بيته ليلا أبدا . وكان سبب الاجتماع هو مناقشة ما حل بالبلاد من نكسة عظيمة ، على أن يقوم هيكل بإيصال آرائهم إلى الرئيس جمال عبد الناصر . ففوض الحاضرون د.حسين فوزي ليتكلم عن لسانهم ، فقال ما ملخصه إن وجود مصر في إطار عربي هذا أمر جديد عليها ، ما لنا وللعرب ، إن مصر محيطها البحر المتوسط ، وهي تتجه شمالا إلى فرنسا ، أما محيطها العربي فهذا أمر مستحدث . ثم ما الإشكال

---

(١) هذه الجملة وردت نصا في رسالة نابليون التي أرسلها إلى خليفته كليبر قبل أن يغادر مصر مبينا له الهدف من مشروعه .

بيننا وبين اليهود فإن لهم في التاريخ إسهاما حضاريا كبيرا ... إلخ .

أنا سقت هذه الحكاية لأبين نوعية العائدين من البعثات العلمية ، وكيف مسخت هويتهم إلى حد ظنوا فيه ، أن فرنسا أقرب لمصر من العرب . فتوفيق الحكيم هذا ، كان قد حظي ببعثة علمية إلى فرنسا ، أما لويس عوض ، فقد تعلم تحت أشجار الدردار عند الشلال في جامعة كامبردج بإنجلترا . أما نجيب محفوظ ، فلا أعلم أنه تلقى تعليما في أوروبا ، لكنه نشأ وترعرع في أوائل القرن العشرين ، بعد أكثر من ستين عاما من بداية البعثات العلمية إلى أوروبا . أي عندما أصبح حزب فرنسا في مصر حزبا قويا راسخ الأقدام ، بل أصبح جيشا جرارا ينشر الثقافة الأوروبية في مصر على حساب الثقافة الإسلامية . وأما د. طه حسين ، فبالرغم من أنه لم يحضر الاجتماع المذكور آنفا ، لكن من المؤكد أنه لو كان قد حضره ، ما كان ليخرج عن أقوالهم . فهو الذي تربى في فرنسا . وقد قال بنفسه : « إن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل ، إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط » .... **وقال أيضا** : « وإنما كانت مصر دائما جزء من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها »[(١)].

ولا شك أن فكر طه حسين امتد إلى جيل تلامذته ، فالأستاذ الكبير د.حسين مؤنس يتحدث عن أن مصر طالما كانت منفتحة على البحر المتوسط ، وأن ما سماه « الفتح العربي » قد ألحقها بالشرق ، فضلت طريقها وأضاعت رسالتها . وقد أخذ يدندن حول هذا المعنى وقال كلاما كثيرا ، منه : « عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠م كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية . وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨م وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التي حملت اسما جديدا هو استامبول أو الأستانه . ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠ ، كان الناس في بؤس وذل وكان البلد في خراب . فكأن اثني عشر قرنا من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى . كأن السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدون عن الوجود . شيء لم يحدث في تاريخ بلد مثل مصر قط ... تصور اثني عشر قرنا ونصفا تذهب سدى »... **وقال أيضا** : « وما انتعشت مصر من جديد إلا عندما عادت إلى

---

(١) د.طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر (ص ٢٠ ، ٢٨) .

نشاطها الإفريقي ، وانفتح أمامها باب البحر المتوسط من جديد من أوائل القرن التاسع عشر . هنا ولدت مصر من جديد وبعثت بعثا حقيقيا » .... **وقال أيضا** : « أرجو أن يكون قد استقر في ذهن القارئ أن لنا مكانا خاصا في عالم البحر المتوسط ، وفي الغرب كله بالتالي ، وأن علينا أن نحتل هذه المكانة إذا أردنا تصحيح اتجاهنا »[1].

إن د.حسين مؤنس يقول بمنتهى البساطة ، أن مصر طالما كانت منفتحة على الغرب لكن الفتح الإسلامي ألحقها بالشرق ، وغير اتجاهها فضلت طريقها . وظلت ضالة تغط في سبات عميق مدة اثني عشر قرنا من الزمان ، حتى جاءت الحملة الفرنسية ففتحت مجال البحر المتوسط أمامها ، فانتعشت وولدت من جديد . وفي خاتمة كتابه يقرر د.حسين أن اتجاهنا مازال لم يصحح بالكلية ، فعلينا أن نتوجه إلى الغرب إن أردنا تصحيح اتجاهنا الذي انحرف منذ الفتح الإسلامي !! هذا هو فحوى كلام الأستاذ الفاضل ، فبئس القول وبئس القائل . هذه بلية كبرى ورب الكعبة . ولو كان جومار حيا وسمع هذا الكلام وأمثاله ، لابتهج وانشرح ولمد عنقه لتناطح عنان السماء ، فخرا وخيلاء بنجاح مشروع الغزو الفكري الذي عكف على تنفيذه ، ولكنه لم يعش ليرى النتيجة بنفسه . فليهنأ جومار ، وليخسأ تلاميذه من المتفرنجين و « المستغربين » ، وصبية المستشرقين من أبناء جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا . وللدكتور حسين مؤنس شطحات كثيرة تصل إلى حد السفه ، حيث أنه عندما تحدث عن السلطان سليم الأول لم يصفه إلا بأنه « أنكد آل عثمان » ، وأما السلطان سليمان القانوني فلم يصفه إلا بأنه « هباب »[2].

قلت : إن أدنى طالب علم ليعلم أن هذا التطاول البذيء من د.حسين مؤنس ، أتفه من أن يرد عليه وينطبق عليه قول رسول الله ﷺ : « سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَات يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ »[3].

---

(١) د.حسين مؤنس : مصر ورسالتها (ص ٦٧ ، ٧٤ ، ١٢١) .

(٢) د.حسين مؤنس : تنقية أصول التاريخ الإسلامي (ص ٨٨) .

(٣) رواه ابن ماجة (٢/ ١٣٣٩) ، الحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٢) ، كما رواه أحمد (١٣/ ٢٩١) ، الطبراني في الكبير (١٨/ ٦٧) ، بلفظ الرجل السفيه . وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٥٠٨) .

ولقد اكتفيت بالرد على ذلك بقولي : سنحمل قول د.حسين مؤنس على أن السلطان سليما هو أنكى آل عثمان ، أي أشدهم نكاية في العدو ، وأن السلطان سليمان القانوني كان هبّابا بتشديد الباء ، أي لا يفتر عن الغزو والجهاد .

ولعلك تدرك الآن خطورة الأمر . فإن هذه الأفكار لا يتداولها العامة والدهماء ، بل هي أفكار الصفوة والنخبة ، ممن يظن بهم تقويم أي خلل فكري يلم بعقول الناس . فترى أنهم أنفسهم بحاجة إلى من يقوم عقولهم . والحق أن البعثات العلمية والمؤسسات التعليمية قد أخرجت لنا أجيالا مسخت هويتها – إلا من رحم ربي – وصارت أوروبية الهوى . وقد تحقق هدف نابليون ، وأصبح لفرنسا حزب قوى في مصر . وكل جيل من ذلك الحزب يسلم الراية إلى من بعده ، حتى أصبح المناخ الثقافي العام السائد في البلاد فاسدا جدا . وأحد أهم أركان فساده ، هو ذلك التاريخ المشوه لا سيما الحقبة العثمانية منه . ولم تسلم الكتب المدرسية من ذلك الفساد الفكري ، مما يفسر لنا فساد عقول الشباب . وقد قدمت أمثلة على ذلك خلال صفحات هذا الكتاب . ولكن من أوضح أمثلة الفساد الفكري هو طريقة تناول الكتب المدرسية للحملة الفرنسية على مصر . فكتاب التاريخ للثانوية العامة في العام الدراسي ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨ ، وكتاب الدراسات الاجتماعية للعام الدراسي ٢٠١٠ – ٢٠١١ ، قد ورد الحديث فيهما باستفاضة عن نتائج الحملة الفرنسية ، وكأنها إنجازات عظيمة مثل : **محاولة شق قناة السويس ، وكتاب وصف مصر ، والعثور على حجر رشيد ، إنشاء الدواوين** « وهدفت تلك الدواوين إلى تدريب الأعيان والعلماء المصريين ، على نظام مجالس الشورى من حيث الاستشارة وتلقي الآراء ، فيما يعود على الأهالي بالنفع العام في المجالات المختلفة » ، مشروع مينو العظيم للنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة والصحة العامة .

عددت الكتب المدرسية تلك الإنجازات ، وكأنهم يريدون الطالب أن يلهج لسانه بحمد الفرنسيين وإكبارهم وإعزازهم ، وأن يتحسر على طردهم من مصر .! وفي الوقت نفسه لم يرد في تلك الكتب أعمال التخريب التي قام بها الفرنسيون ، فلم يرد لا تكسير أبواب الدروب والبوابات والنوافذ ، ولا إحراق أبي زعبل ، ولا هدم قصر صلاح الدين بالقلعة ، وغيره من عمائر السلاطين السابقين ، ولا قصف أحياء القاهرة بالمدافع لا سيما الجامع الأزهر ، ولا

إعدام مشايخ الأزهر الذين قادوا المقاومة الشعبية ، كالشيخ أحمد الشرقاوي ، والشيخ سليمان الجوسقي ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوي ، والشيخ يوسف المصيلحي ، والشيخ إسماعيل البراوي . ولا نهب القرى والبلاد في الدلتا والصعيد ، ولا اقتحام بيوت الأمراء والأعيان لنهب أموالهم . ولا حبس الشيخ السادات وإهانته ، بالرغم من مكانته الكبيرة ، ثم حبسوا زوجه وأخذوا يضربونه بحضرتها وهى تبكي ، ثم نهبوا كل ما وجدوه في بيته . وقد فصل الجبرتي ذلك تفصيلا في تاريخه ، وفي كتاب « **مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس** » . وعن أعمال الهدم والتخريب قال الجبرتي : « توالى الهدم والخراب ، وتغيير المعالم وتنويع المظالم ، وعم الخراب خطة الحسينية ، وباب الفتوح ، والخروبي ، فهدموا تلك الأخطاط ، والجهات والحارات ، والدروب ، والحمامات ، والمساجد ، والمزارات ، والزوايا ، والتكايا ، وبركة جناق ، وما بها من الدور والقصور المزخرفة ، وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر ، وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام والمنارة العظيمة ذات الهلالين . واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح ، وباب القوس إلى باب الحديد ، حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحدا »[1].

أما عن إحراق القرى وقتل الناس بحق أو بباطل فحدث ولا حرج ، ويشهد بذلك ما كتبوه هم بأيديهم . ففي بيان كتبه **مينو** قال : « لقد كان سكان السالمية أشرارا ، ومتوحشين وإن عددا منهم وعلى رأسهم شيخهم الكريه سلامة واكد ، قد قتلوا منذ شهر ثمانية فرنسيين كنت قد أرسلتهم إلى القاهرة ، لحمل رسائل إلى الجنرال بونابرت . وأمس انتقلت إلى السالمية مع جنود فرنسيين ، وأصدرت الأمر بقتل جميع المسلحين ، وأمرت بمصادرة البهائم ، كما أمرت بإحراق القرية ، حتى تعرف مصر كلها لأي شيء يتعرض الناس إذا ما قتلوا الفرنسيين ».... وفي أمر أصدره بونابرت إلى دوجا للتوجه إلى قرية سنباط ، قال : « احرقوا تلك القرية ، اضربوا مثلا رهيبا ، ولا تسمحوا بعد لهؤلاء العرب بالعودة إلى سكنى هذه القرية ، إن لم يسلموا لكم عشرة رهائن من الأشخاص المهمين ، ترسلونهم إلي لاحتجازهم في قلعة القاهرة ».

---

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٣/ ١٥٩) .

وقد أحرق مينو كفر شباس عامر ، وأحرق ديزيه قرية طهطا الكبيرة ، أما دمنهور ، فقد كان خرابها على يد لانوس الذي أرسل إلى دوجا قائلا : « إن الجندي الفرنسي يأخذ ثأره من مدينة دمنهور ، ومن سكانها ففي البداية ، جرى قتل ٢٠٠ أو ٣٠٠ من هؤلاء السكان على مشارف المدينة ، وهم يلوذون بالفرار ، وبعد ذلك أبحت هذه المدينة الشائنة المسلك لأهوال النهب والقتل . إن دمنهور لم يعد لها وجود ، وقد تم إحراق ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ من سكانها ، أو إعدامهم رميا بالرصاص »[1].

وقد كتب برتييه إلى دوجا قومندان مديرية المنصورة قائلا : « لقد نكلنا بالثائرين في مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا منهم ألفين أوثلاثة آلاف »... وصدر الأمر العسكري من بونابرت : « بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم أسلحة وعليكم إرسال الجثث في هذه الليلة إلى شاطئ النيل ، فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها في النهر »... وفي رسالة بونابرت إلى الجنرال رينيه قومندان الشرقية : « عادت السكينة إلى القاهرة ، وفقد الثائرون نحو ألفي قتيل ، وفي كل ليلة نقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالي ».... وقال بوربين سكرتير بونابرت الخاص : « سيق المسجونون إلى القلعة ، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثني عشر سجينا كل ليلة . وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل ، واستمر ذلك ليالي عديدة . وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية »[2].

وقد أكثر الفرنسيون من القتل ببشاعة ، حتى أن دوجا حصل من القائد العام على تصريح بأن يتم تنفيذ الإعدام بقطع الرؤوس ، بدلا من الإعدام رميا بالرصاص لأجل توفير الذخيرة .!! وقد جاء في رسالة من بونابرت إلى مينو : « إن الأتراك (المسلمين) لا يحسنون التصرف إلا عبر أكبر قدر من القسوة ، إنني أصدر الأمر كل يوم بقطع خمس أو ست رؤوس في شوارع القاهرة . وكان قد تعين علينا حتى البارحة أن نراعي جانبهم سعيا إلى تبديد سمعة الإرهاب

(١) هنري لورنس : الحملة الفرنسية على مصر ، بونابرت والإسلام (ص ١٨١ ، ٢١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٨٠ ، ٣٧٥) .

(٢) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (١/ ٢٨٣ ، ٢٨٤) .

تلك التي سبقتنا . أما اليوم خلافا لذلك ، فلا مفر من استخدام اللغة الملائمة حتى ينصاع هؤلاء الناس ، والانصياع لهم مستحيل دون الخوف »[1].

وجاء في رسالة من بونابرت إلى زايو نشك قومندان المنوفية ، في ٣٠ يوليه ١٧٩٨م :
« و يجب أن تعاملو الترك (أي المسلمين) بمنتهى القسوة ، وإني هنا أقتل كل يوم ثلاثة ، آمر أن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، فهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح »[2].

كل تلك الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون في مصر ، وأكثر منها ، لم يذكرها الأساتذة الأفاضل في كتب التاريخ المدرسية ، وإنما اكتفوا بذكر « الإنجازات » ! ، انظر بالله عليك إلى هذا الفساد الفكري الذي يلقن الطالب إياه ، في مراحل التعليم الأولى ، التي يفترض أن تتشكل فيها هويته وثقافته . فلا عجب أن نرى شبابنا في هذه الأيام ، قد فسدت ثقافتهم ومسخت هويتهم ، والفضل في ذلك لأساتذة التاريخ .! فحسبنا الله ونعم الوكيل . والحقيقة المريرة أن إكبار وتقدير الحملة الفرنسية على مصر ، إنما هو أمر شائع في المناخ الثقافي العام في البلاد . وقد شاهدت ندوة تليفزيونية منذ عامين تقريبا ، شارك فيها بعض أساتذة الجامعة وبعض السينمائيين ، والأستاذة نعم الباز ، التي تعد من أبرز القائمين على ثقافة الطفل ، ويطلق عليها « ماما نعم » . وقد دار الحوار بينها وبين أحد الأساتذة الجامعيين – لا أذكر اسمه – فقال ذلك الأستاذ الجامعي : « يجب أن نعلم الطفل التفاعل مع الآخر ، لا أن يكره الآخر ، وأن يكون متحفزا له في تعامله معه ».

فردت عليه نعم الباز : وأين التحريض على كره الآخر .

فقال الأستاذ الجامعي : في الكتب التعليمية في المدارس ، تحريض على كره المستعمر الأجنبي .

فاستنكرت الأستاذة نعم الباز كلامه ، وشددت على ضرورة أن يكره الطفل المستعمر الأجنبي .

فرد الأستاذ الجامعي : المستعمر الأجنبي هـذا كيان تاريخي ، انتهى ، يجب ألا نسقطه على

---

(١) هنري لورنس : الحملة الفرنسية على مصر ، بونابرت والإسلام (ص ١٥٧ ، ٣٨٥) .
(٢) أبو فهر محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا (ص ١٢٢) .

الواقع الحاضر .

فقالت نعم الباز بزهو وافتخار : نحن احتفلنا بمائتي عام على الحملة الفرنسية ، لأنها جاءت بالمطبعة وجاءت بوصف مصر ، ثم انصرف الفرنسيون ولم يستعمرونا .

انظر بالله عليك إلى هذين القولين السفيهين .! لقد شددت نعم الباز على ضرورة كره المستعمر الأجنبي ، ثم لما وصل الحديث إلى الحملة الفرنسية ، نكست على رأسها ، وكالت المديح للفرنسيين .! أي فساد فكري هذا ؟! فإن كانت هي وأمثالها من القائمين على تعليم الطفل وتثقيفه . فيا حسرة على أطفالنا ..

ومن العجائب أيضا التي تستحق النظر أن الرحالة الإنجليزي جون أنتيس شن الغارة على كتابات الرحالة الفرنسيين ، مثل سافاري وفولني . فعلق د.سيد أحمد على الناصري على ذلك بقوله : « ولعل مرجع ذلك إلى الضغائن السياسية التي كانت قائمة بين فرنسا وإنجلترا بسبب التنافس الاستعماري والتبشيري »[1].

قلت : لقد اعتبر د.سيد الناصري قيام جون أنتيس بفضح أكاذيب فولني وسافاري من قبيل الضغائن السياسية بين الإنجليز والفرنسيين !. بالرغم من أغلب الباحثين اليوم يعلمون أن الرحالة الفرنسيين إنما قاموا بتعمد تشويه صورة مصر في كتبهم ، لخدمة الأغراض الاستعمارية ! هذا أمر عجيب ورب الكعبة ، هذا الولاء العجيب الذي يكنه كثير من الأساتذة للفرنسيين ، والتصدر للدفاع عنهم بحق أو بباطل !! ولكن لو سلمنا لك يا د.سيد الناصري بذلك ، فنقول لك ، ليتك تتخذ نفس هذا الموقف من مطاعن المستشرقين على العثمانيين ، وتدرك أنها أيضا من الافتراءات بسبب الضغائن السياسية ، والصراع القائم بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية الحديثة .!

والحقيقة المرة التي يجب أن نواجهها بشجاعة ، هي أن نظام التعليم في المدارس والجامعات ، والذي أرسى دعائمه اللورد كرومر و « دنلوب » ، ذلك القس الإنجليزي ، الذي عهد له كرومر بمسؤلية التعليم في مصر ، فوضع منهجا على القواعد والأسس التي كان قد وضعها

---

(١) د.سيد أحمد على الناصري : صورة مصر في عيون الرحالة الأوروبيين . ضمن كتاب مذكرات رحالة عن المصريين من خلال وصف الرحالة جون أنتيس . (ص ١٢) .

إخوانه الفرنسيون ، ومازال ذلك المنهج هو السائد حتى الآن . وأتساءل في تعجب ، ما الذي يمنعكم يا أساتذة التاريخ من التغيير؟! فإن وزارة التعليم العالي لا تفرض عليكم منهجا معينا ، بل أطلقت لكم الحرية ، فلا رقيب على أستاذ الجامعة فيما يكتبه في كتابه الذي يدرسه للطلاب . وإن زعمتم أن العائق هو اللوائح ، فلماذا لا تقومون بتعديلها من خلال المجلس الأعلى للجامعات المنوط به ذلك الأمر ؟! لقد رأيناكم قد خرجتم في المظاهرات في عام ٢٠٠٨م ، مطالبين بتعديل اللوائح المالية الخاصة بكم ، ولم ينطق واحد منكم بكلمة عن تعديل اللوائح التعليمية ، بالرغم من أن تعديلها لا يحتاج إلى مظاهرات . أوّه ، لقد أصبح العلم مهنة يتكسب بها ، لا رسالة ترتقي بها الأمم . والله عليم بذات الصدور .

ومن أمثلة الفساد الفكري ، أن الأساتذة يقسمون التاريخ إلى قديم ، ووسيط ، وحديث . القديم منذ بدء الخليقة حتى عام ٤٧٦م ، وهو عام سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية . ثم يبدأ التاريخ الوسيط ويمتد حتى سقوط الإمبراطورية البيزنطية ، على يد السلطان محمد الفاتح عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ، ثم يبدأ التاريخ الحديث . هذا هو التقسيم الذي ابتدعته الأوروبيون ، وتبعهم في ذلك أساتذة التاريخ المسلمون ، دون بحث أو تفكير . فلو افترضنا أن هذا التقسيم يناسب أوروبا من الزاوية التي تنظر منها إلى التاريخ – وهو ليس كذلك – فإن هذا التقسيم لا يناسبنا على الإطلاق . وذلك لأننا إذا بحثنا في صفحات التاريخ عن حدث جلل يصلح لأن يكون بداية للعصر الوسيط ، فالأولى أن يكون بعثة رسول الله ﷺ ، فهو حدث غير وجه العالم ، وقد ذهب إلى ذلك الأستاذ أبو فهر محمود محمد شاكر . أو فتح مكة الذي انطلقت من بعده الفتوحات الإسلامية مرسية دعائم دولة عظمى ، غيرت تاريخ البشر الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي .

ولكن إن استثنينا هذين الحدثين العظيمين ، فلا يبقى أمامنا إلا واقعة سقوط الإمبراطورية الفارسية عام ١٦هـ/ ٦٣٦م ، على يد الفاتحين المسلمين . وهو بلا ريب حدث جلل . ولكن أوروبا لا تأخذ به ، لأنها دائما ما تنظر إلى الأمور من زاويتها الخاصة ، وتسعى لفرضها على العالم . ولمزيد من التفصيل في تلك النظرية أقول ، إن سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦م لا يصلح لأن يكون بداية للتاريخ الوسيط في رأيي . إذ أن تلك الإمبراطورية

ظلت تسقط لما يقرب من قرن من الزمان ، تتقطع أوصالها شيئا فشيئا ، حتى باتت في السنوات الأخيرة لا تعدو عن كونها مملكة صغيرة أو حتى إمارة . ثم إن سقوطها على يد القبائل الجرمانية القادمة من شمال أوروبا ، لم يحدث تغييرا ثقافيا كبيرا في أوروبا الغربية ، بل بالعكس ، لقد وقع التأثير على الغزاة أنفسهم ، فقد دخلت أغلب هذه القبائل في النصرانية وهى الدين السائد في أوروبا الغربية آنذاك . وكذلك اللغة لم تتغير ، فقد بقيت اللاتينية هي السائدة في أوروبا الغربية ، حتى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م . فالواقع أن الجرمان هم الذين تأثروا بالأوروبيين الغربيين ، أكثر مما تأثر الأوروبيون الغربيون بهم . فالوضع في أوروبا الغربية سنة ٤٧٦ لا يختلف كثيرا عنه في سنة ٤٧٠ أو ٤٦٠ أو حتى ٤٨٠ أو ٤٩٠ . وإنما اختلفت الأسماء فقط ، فقد أصبح في أوروبا إمبراطور واحد ، هو البيزنطي بدلا من إمبراطورين . ثم نشأت ممالك في غرب أوروبا ، لا تختلف كثيرا دينيا وثقافيا عن الوضع قبل ٤٧٦م .

أما سقوط فارس عام ١٦هـ/ ٦٣٦م ، وهو الحدث الذي يبدو لي أنه الأنسب ليجعل بداية للتاريخ الوسيط . فقد أعقبه تغير كبير جدا في حركة التاريخ . فإمبراطورية فارس التي كانت قطبا من أقطاب العالم ، وتحكم مساحات شاسعة من أراضي آسيا ، قد أزيلت من على وجه الأرض في أقل من ثلاثة أعوام . فقد بدأت الفتوحات الإسلامية لها عام ١٣هـ/ ٦٣٣م في أواخر خلافة أبي بكر الصديق ﷺ ، ثم سقطت عاصمتها المدائن عام ١٦هـ/ ٦٣٦م في خلافة عمر ﷺ . ثم انتشر الإسلام في فارس ، وجرجان ، وكرمان ، وهمدان ، وسجستان وسائر البلاد التي كانت تحت حكم الفرس . ثم انطلق المسلمون بعدها إلى بلاد ما وراء النهر في سنوات معدودة . خلاصة القول ، إن هذه الإمبراطورية العظمى التي كانت قطبا من أقطاب العالم ، بعد أن أزيلت من على وجه الأرض في أقل من ثلاثة أعوام ، حدث تغير ديني كبير ، بدخول أغلب السكان في الإسلام . وتغير ثقافي كبير بانتشار لغة العرب ، صحيح أنها لم تصبح اللغة الأم في تلك البلاد كما حدث في شمال إفريقيا ، ولكنها كانت لغة الصفوة ، لغة العلوم الشرعية التي سعى الأكابر إلى تعلمها لدراسة علوم الدين ، أرفع العلوم مكانة آنذاك. ولا ينسى أحد منا البخاري ، ومسلم ، وأبو داود السجستاني ، والحاكم النيسابوري

والخطيب التبريزي ، وعماد الدين الأصفهاني ، وأبو حاتم الرازي ، وغيرهم رحمة الله عليهم أجمعين . ممن كانوا يجيدون اللغة العزبية إجادة العرب لها ، وتشهد كتبهم على ذلك . كما حدث تغير اجتماعي كبير ، بتغيير العادات الاجتماعية التي تخالف أحكام الإسلام .

فمما لا شك فيه أن واقعة سقوط الإمبراطورية الفارسية أصلح لأن تكون بداية للعصر الوسيط ، من واقعة سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية . والعجيب أن أساتذة التاريخ تقبلوا النظرية الأوروبية وجعلوها قيدا عليهم في أبحاثهم ، ولم يجرؤ أحد منهم على الخروج بنظرية جديدة تنقضها . وقد سمعت الدكتور **قاسم عبده قاسم** يقول : « تأسيس قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة تم بمعرفة الأوروبيين ، ولذلك فقد أنشئ وفقا لرؤيتهم ولنظريتهم في تقسيم التاريخ إلى قديم ، وسيط وحديث . ولم يكونوا متآمرين ، ولكنه تراثهم وثقافتهم . وقد نتج عن ذلك عيوب كثيرة جدا في قراءة التاريخ ، نظرية وعملية . وللأسف فإن كل مؤسسي الجامعات العربية تعلموا في جامعة القاهرة ، التي كان الأوروبيون يتولون رئاسة قسم التاريخ في كلية الآداب فيها حتى عام ١٩٣٦ ، فتم نقل تلك العيوب إلى جامعة دمشق وجامعة بغداد وغيرهما ».

أضيف إلى كلام الدكتور قاسم ، أن من تولى رئاسة قسم التاريخ بعد عام ١٩٣٦ هم من تلامذة الأوروبيين الذي تشبعوا بأفكارهم ونظرياتهم . واستسلموا لهم استسلام الميت بين يدي المغسل ، وإلا لماذا لم يتم إصلاح هذه العيوب ، بعد مرور أكثر من سبعين عاما على تسلمهم مقاليد الأمور ؟! الجواب لا يخفى على كل ذي لب ، وهو أن الأوروبيين لم يسلموا تلاميذهم المصريين دفة الأمور ، إلا بعد أن تأكدوا أن هؤلاء التلاميذ ، هم مصريون جسدا أوروبيون روحا ، وثقافة ، وفكرا . ولقد ذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه (زكي مبارك) ، أن د.زكي مبارك قال : وقف المستشرق ماسينون يوم أديت امتحان الدكتوراه فقال : إنني حين أقرأ بحثا لطه حسين أقول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا »[1].

ومن أمثلة الإتباع الأعمى لأوروبا ، ما يعرف عند الأساتذة والمفكرين والسياسيين باسم

---

(١) نقلا عن د.محمد إسماعيل المقدم : عودة الحجاب (١/ ١٧٨) .

« الشرق الأوسط » أو « الشرق الأدنى » . وحقيقة الأمر أن هذه الإصطلاحات وضعها الأوروبيون للدلالة على منطقة مصر والشام والعراق ، وبعضهم يدخل تركيا الحديثة وجزيرة العرب ، وبعضهم يتوسع أكثر ، فيضم إليها إيران وباكستان . والحقيقة أن هناك تباينا كبيرا عند كل من يستخدم هذين الإصطلاحين في أوروبا نفسها . وبعضهم يجعلهما اصطلاحا واحدا ليميزه عن الشرق الأقصى . فأقول في ذلك ، الشرق الأدنى لمن ؟! والشرق الأقصى لمن ؟!. على كل حال ، كل هذه الأقاليم التي ذكرناها آنفا ، إنما تقع إلى الشرق من قارة أوروبا ، فلربما كان هذا المصطلح مناسبا لهم . لكن من العجب ، بل من العبث أن نستخدم نحن هذا المصطلح . فلو أن رجلا عراقيا أطلق على مصر الشرق الأدنى بالرغم من أنها تقع إلى الغرب من بلاده ، فهل يعد هذا الرجل عاقلا ؟!. ومن جهة أخرى ، فإن مصطلح الشرق الأقصى قد يناسب رجلا في فرنسا أو إسبانيا أن يطلقه على الصين . ولكن هل يصح لرجل بالعراق مثلا يعتبر نفسه بالشرق الأوسط ، أن يقول عن الصين ، أنها الشرق الأقصى ، بالرغم من أنه لا يفصل بينه وبينها إلا أقل من ثلاثين خط طول ، من أصل مائة وثمانين خطا ، هي عدد خطوط الطول في الكرة الأرضية ؟!. إن هذا لأمر عجاب .! والصواب أن تحدد الجهات وفقا لموقعها من خريطة العالم ككل ، وليس وفقا لموقعها من أوروبا الغربية أو أمريكا .

ومما يسترعى الانتباه أنه في الوقت الذي يتجاهل فيه أساتذة التاريخ تلك الاعتبارات السابقة ، وغيرها الكثير والكثير ، تراهم يتمسكون بشكليات ، وبأمور ثانوية يسمونها بالمنهج العلمي في البحث . كطريقة الكتابة في الحواشي ، وطريقة كتابة قائمة المصادر والمراجع الخ . كما يهتمون جدا بتوثيق المعلومة التاريخية بصرف النظر عن صحتها . فيكفي عندهم إسناد المعلومة التاريخية إلى مرجع لأستاذ كبير ، أو إلى مصدر تاريخي معلوم ، ولا يتكلفون عناء البحث عن صحة المعلومة من عدمه . مثلا عند تناول القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام ، فقد ينقل الباحث عن الطبري ، كأهم مصدر تاريخي لهذه الفترة ، فيكتفي الأستاذ المشرف أو الأستاذ المناقش له ، بأن يتأكد من ورود هذه المعلومة في تاريخ الطبري فعلا . فلو كانت واردة في تاريخ الطبري ، فيشهد الأستاذ للباحث أنه قد استوفى شروط المنهج العلمي .

دون أن يكلف الأستاذ نفسه عناء النظر في صحة تلك المعلومة من عدمه . فتاريخ الطبري وغيره من الكتب المسندة يحتوي على الكثير من الروايات الضعيفة والموضوعة . وقد أشار الطبري نفسه إلى ذلك في مقدمة كتابه ، وأحال القارئ على السند . فالمنهج العلمي السليم في تلك الحالة هو تحقيق الروايات ، أسانيدها ومتونها قبل اعتمادها . فإن صحت سندا ومتنا فبها ونعمة . وإن لم تصح فترد ولا تذكر إلا لبيان ضعفها . ولكن أساتذة التاريخ لا يبالون بهذا ، بل أهم شيء عندهم توثيق المعلومة في الحاشية توثيقا سليما ، من المصدر الذي نقل عنه . كما لو كان طالب الدراسات العليا ناسخا أو ناقلا . فوفقا لمنهجهم الفاسد هذا ، يكون الباحث قد أخرج نفسه من زمرة الباحثين المحققين ، وأدخلها إلى زمرة الكتبة والناسخين . كيف لا ، وأساتذته أنفسهم لم يسلموا من ذلك . ولقد ضربت في كتاب « **التنكيل بما يدرس في التاريخ من أباطيل** » أمثلة كثيرة على ذلك في طول الكتاب وعرضه .

ولأساتذة التاريخ تقليد آخر يدخل فيما يسمونه منهج البحث العلمي ، عند التوثيق في الحاشية . فيكتبون اسم المؤلف ، ثم اسم كتابه لأول مرة فحسب . ثم يكتفون بعد ذلك حتى نهاية البحث بأن يكتبوا اسم المؤلف ، يتلوه عبارة (المصدر السابق) أو (مصدر سبق ذكره) ويتمسكون بتلك الطريقة كما لو كانت قرآنا منزلا . والويل للطالب الذي يتجاهل ذلك ويكرر اسم المصدر أو المرجع . وهذه الطريقة في رأيي فاسدة جدا . فأقل ما فيها أنها تقطع حبل أفكار القارئ ، إذ يضطر إلى أن يرجع بضع صفحات ليتبين اسم المصدر ، وأحيانا قد يرجع صفحات وفصولا ، مما يقطع عليه اتصال أفكاره . هذا بخلاف ما قد يحدث عنده من لبس إذا كان الباحث قد رجع إلى أكثر من مصدر لمؤلف واحد . ناهيك عن الخطأ الذي قد يقع فيه الباحث نفسه ، إذا كتب عبارة (المصدر السابق) ، دون أن يلتفت إلى أن آخر مصدر رجع إليه ليس هو المراد ، بل مصدر آخر لنفس المؤلف ، قد رجع إليه في الصفحة التي قبلها .. وماذا عليهم لو أنهم كتبوا اسم المؤلف واسم كتابه في كل مرة ؟! قد يقول قائلهم لماذا هذا التكرار الذي لا فائدة فيه ؟! فأقول إن تكرار اسم المؤلف ، واسم كتابه في كل مرة له فائدة كبرى ، وهو ثبات اسم المؤلف واسم كتابه كاملا في ذهن طالب العلم ، الباحث والقارئ على حد سواء . لتكرار وقوع بصره عليه مرات عديدة أثناء القراءة . قال تعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، فلا أرى سببا لهذا التمسك العجيب بهذه الطريقة ، بالرغم من طغيان مفاسدها على منافعها ، في الوقت الذي تهمل فيه الأمور الجسام المتعلقة بثقافة الأمة وهويتها .

ولأساتذة التاريخ تقليد آخر عند كتابة قائمة المصادر والمراجع . إذ يكتبون الاسم الأخير لمؤلف المصدر أو المرجع أولا ، ثم اسمه الأول من بعده . على غرار الطريقة الأوروبية مثلا :

الطبري : محمد بن جرير .

الذهبي : محمد بن عثمان بن قيماز .

فلماذا لا يكتب الاسم كاملا من أوله إلى آخره ؟!

الجواب : تقليد أوروبا . لذلك فإنني لن أتقيد بما يسمى بالمنهج العلمي ، لنرى ما إن كان البحث العلمي ممكنا بدونه .

الواقع مؤسف ومرير ، وعلماؤنا يتبعون الأوروبيين كما تتبع النوق فصالها . كما لو كنا أمة جاهلية ، لا تاريخ لها ، ولا ثقافة ، ولا حضارة . فلو كان هذا مقبولا في العلوم المادية كالطب والهندسة الخ – وإن كان يجب على علمائنا أن تكون لهم أبحاثهم الخاصة – لأن هذه العلوم لا ترتبط بثقافة معينة بل هي تراث بشري ، تناقله بنو آدم على اختلاف أجناسهم . قدماء المصريين ، والصينيون ، واليونانيون ، ثم أخذه المسلمون وطوروه وأضافوا إليه ، ثم أخذه عن المسلمين الأوروبيون ، فطوروه وأضافوا إليه وهكذا . أما في العلوم الاجتماعية كالتاريخ واللغة والدين ، فإن هذا الاتباع لا يمكن أن يكون مقبولا فيها على الإطلاق . لأنها علوم مرتبطة ارتباطا وثيقا بثقافة الأمة ، التي لا يمكن لأي مستشرق مهما بلغ من المكانة العلمية أن يلم بتفاصيلها . ومعلوم لدى الجميع كيف كان موقف المسلمين الأوائل من فلسفة اليونان ، فقد قبلوا منها ما وافق دينهم ، ونبذوا منها ما لا يوافقة . في أجل عملية تنقيح فكري تمت لهذه الفلسفة في التاريخ . ولا يفوتنا أن نذكر اسهام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) ، في « **الرسالة التدمرية** » و « **الرسالة الصفدية** » . ثم في أحد أهم كتبه على الإطلاق وهو « **نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان** » الذي يعد العمدة عند أوروبا في فهم علم المنطق . ومما تنفطر منه القلوب انفطارا ، وتعتصر اعتصارا ، أنني قد

سألت أحد أساتذة الفلسفة عن هذا الكتاب ، فلم يكن يعرف عنه شيئا .!

كما لا يفوتنا أن نذكر إسهام الشيخ مصطفى صبري رحمه الله (ت ١٩٥٥م) ، آخر شيخ إسلام في الخلافة العثمانية ، الذي سار على درب السلف ، فقبل ما يمكن قبوله ، ورد ما لا يمكن قبوله في كتابه الجليل الماتع (**موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين**) وقد كان دائما يقول : « لو نظرنا إلى موقف السلف من فلسفة اليونان ، وإلى موقف الخلف من الحضارة الأوروبية الحديثة ، لعلمنا كيف أن البون بيننا وبينهم شاسع ».

رحم الله الشيخ ، فهذه الكلمة تعبر أصدق تعبير عن حقيقة الحال . فقد صار اليوم حال الأستاذ المستشرق مع تلاميذه ، كحال فرعون مع قومه ، كما قال الله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر : ٢٩] ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤]

ولقد سمعنا على مدار القرن العشرين عن رجال حصلوا على درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية من جامعات فرنسا وإنجلترا . ثم يعود الواحد منهم إلى مصر ليتبوأ أرفع المناصب . أصبح المسلم يتعلم دينه على يد رجل كافر ، بل ويفتخر بذلك ويتباهى أنه حصل على الدكتوراه من السوربون أو من أكسفورد . أنى لهذه الأمة أن تنهض ، وحال علمائها كما ترون . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قد يقول قائل ، ها أنت ذا تزعم أن أساتذة التاريخ مغيبون عن ثقافتهم الإسلامية ، وأنه قد تم اختراقهم منذ عقود طويلة ، وما هم إلا أدوات يستخدمها الغرب لنفث سمومه الفكرية ، لإفساد الثقافة الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة . وتزعم أنه ليس لهم فكر خاص ولا اجتهاد ، وإنما هم تبع للأوروبيين لا يرون إلا ما يرونه . وهذا تطاول منك لا يليق . **فأقول ردا على ذلك** :

أولا : أنا لم أقل كل أساتذة التاريخ ، بل قلت - إلا من رحم ربي - وهذا استثناء يشمل في تقديري قلة قليلة جدا منهم . أما الغالبية العظمى التي تشكل المناخ الثقافي العام في البلاد ، ومنهم أسماء كبيرة تعد من أعمدة التاريخ في العصر الحديث ، فهي للأسف مغيبة عن ثقافتنا الإسلامية ، وتربت على يد المستشرقين أو على يد من تربى على أيديهم .

ثانيا : أنا لا أقول هذا الكلام من باب التطاول عليهم ، أو التقليل من شأنهم . بل أقوله

والأسى والحزن يعتصران قلبي ، أن يبلغ المناخ الثقافي العام في البلاد إلى هذا الحد من التردي . فالأمر أكبر من أي اعتبارات ، أو مجاملات شخصية لأشخاص بأعينهم ، أو لجماعة أو لفئة . فهذا تاريخ أمة قد زيف وشوه بأيدي أبنائها . وسواء أكان ذلك عن عمد أو عن جهل وإهمال فإن النتيجة واحدة . فإن الطبيب إذا أهمل في الجراحة بما يضر جسد المريض ، فإنه يؤاخذ على ذلك . فكيف بمن أفسد العقل وأتلف الفكر ؟! وكيف بمن امتد إفساده لأجيال بأسرها ؟! وإن كانت أمتنا لن تنهض من كبوتها إلا بوحي من تاريخها ، فلكم أن تتخيلوا قدر الجرم الذي ارتكب في حقها . فالأمر جلل والخطب عظيم . وهو ليس مجرد خلاف في وجهات النظر التاريخية ، فلو كان الأمر كذلك ، لما كلفت نفسي عناء كتابة هذا الكتاب ، ولكن الأمر تعدى إلى أخطاء علمية فادحة ، وأباطيل تاريخية شنيعة ، أدت إلى إفساد الثقافة العامة للأمة الإسلامية ، واقتلعت المسلمين من جذورهم إلا من رحم ربي . عسى الله أن يجعلنا من المرحومين . والحقيقة التي لا أستطيع أن أخفيها ، هي أن كتب أكثر أساتذة التاريخ لا سيما الكتب التي تناولتها في كتابي هذا ، تحتوى على قدر تجاوز المدى من الشبهات والأباطيل ، بحيث لا يمكن إصلاحها ولا تهذيبها ، وهى أشبه بالبناء الذي بلغ من التصدع ما يجعل ترميمه مستحيلا ، بل يجب أن يهدم ، ثم يعاد بناؤه مرة أخرى على أسس سليمة وقواعد متينة .

ومرة أخرى أقول ليهنأ جومار وليخسأ تلامذته من المتفرنجين و « المستغربين » ، وصبية المستشرقين ، وليعلموا أن الله ﷻ قضى لهذه الأمة أنها لن تموت إلا عندما تطلع الشمس من مغربها ، فقد تنتابها الغفوات ، والإغماءات إلا أنها سرعان ما تولد من جديد . فلما غزانا الصليبيون ، ظن الناس أن الأمر قد ارتد علينا ، وأن الصليبيين سيتسلطون على بلادنا ، فما لبثت الأمة أن ولدت من جديد ، وطرد أبناؤها الصليبيين شر طردة . ولما جاءنا التتر ، ظن الناس أن الأمة مقتولة لا محالة ، إلا أنها ما لبثت أن ولدت من جديد ، وأوقفت زحف التتر ، بل لقد دخل التتر أنفسهم في الإسلام ، وأسسوا حضارة إسلامية في بلاد الهند دامت عدة قرون . ولما أعاد الصليبيون الكرة علينا ، فجاس الإسبان والبرتغال خلال الديار واستولوا على شمال إفريقيا ، فيما أطلقوا عليه حرب الإسترداد ، ما لبثت الأمة إلا أن ولدت

من جديد ، وطردهم المسلمون شر طردة ، وأوقفوا زحفهم على يد بني عثمان . وحتى عندما تسلط الأوروبيون على بلادنا في القرن العشرين ، وظنوا أنهم سينجحون في تنصير المسلمين فشلوا فشلا ذريعا بالرغم من الاحتلال العسكري ، وقد أقروا بذلك في مجامعهم . وفي القرن الحادي والعشرين يصرخ الأوروبيون من انتشار الإسلام في بلادهم وبين أبنائهم ، فاضطروا إلى التضيق بقوانين حظر الحجاب ، وحظر المآذن وبإحراق المصاحف ، فداسوا بأقدامهم على قيم حرية الرأي ، وحرية الفكر والمعتقد ، التي يتشدقون بها ليلا ونهارا ، ففضحوا أنفسهم وظهر كذبهم ، فأيقن كل من له مسكة عقل أن أحد أهم أسباب شقاء البشرية في هذا الزمان هو أن أوروبا وابنتها أمريكا تحكمان العالم .

ولو نظرنا في صفحات التاريخ ، لتبين لنا أن الجرائم البشرية التي تعتبر سبة في جبين الإنسانية ، كلها من فعل الأوروبيين ، فهم الذين أقاموا المذابح الجماعية للمسلمين في الأندلس ، وهم الذين أقاموا المذابح الجماعية لسكان أمريكا الأصليين ، وهم الذين أبادوا سكان أستراليا الأصليين ، وهم الذين نكلوا بالأفارقة وخطفوا ما يزيد عن عشرين مليونا منهم ، وساقوهم إلى أوروبا وأمريكا عبيدا أرقاء ، وهم الذين أقاموا المذابح الجماعية للمسلمين في البوصنه والهرسك وكوسوفو ، وهم الذين أقاموا نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا ، وما زالوا يشعلون الحروب في أنحاء متفرقة من القارة السمراء ، ولو أردنا أن نعدد جرائمهم لطال بنا الزمان ، وبالرغم من ذلك ترى أنهم يتهموننا بالعنصرية ، وكراهية الآخر ، والتعصب الشديد !. بالرغم من أن تاريخنا لم يشهد مثل تلك المذابح والجرائم ضد الإنسانية ، فعندما فتح المسلمون البلدان ، اختلطوا بالسكان وتزاوجوا بهم حتى صاروا شعبا واحدا ، أما الأوروبيون فعندما فتحوا الأمريكتين واستراليا ، أبادوا السكان واستوطنوا أراضيهم . وبالجملة فإن تاريخهم أسود ، ودأبهم الكذب ، الذي يتلقفه المتفرنجون و « المستغربون » الذين أشربوا الثقافة الأوروبية في قلوبهم ، وتنكروا لثقافتنا الإسلامية المتكاملة التي حفظت دار الإسلام قرونا طويلة .

وختاما أود أن أؤكد على أمر هام ، وهو أن الدولة العثمانية دامت ستة قرون من الزمان تولى فيها الأتراك قيادة المسلمين ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ،

وإن كان قد حدث خطأ وزلل في القرنين الأخيرين ، فلا ينبغي أن ينسينا ذلك حسناتهم وفضائلهم وأياديهم البيضاء في القرون الأربعة الأولى . كما ينبغي أن يكون معلوما أن التاريخ العثماني ، هو جزء من التاريخ الإسلامي الكبير ، الذي صنعه العرب ، والترك ، والفرس والكرد ، والهنود ، وهو ليس تاريخا خاصا بالأتراك ، بل هو تاريخ إسلامي . معلوم أن الأتراك كانوا هم أصل الدولة العثمانية ، وعمادها ، ولكن ينبغي ألا ننسى أن الأمم لا تقوم على الحكم فحسب ، بل إن المكونات الثقافية والحضارية للدولة العثمانية مرجعيتها إسلامية في المقام الأول ، نشأت وشبت ونضجت من خلال إسهامات العرب والفرس والترك والهنود عبر العصور ، ثم انضم إليهم إخوانهم الصقالبة من أبناء البلقان ، الذين دخلوا في الإسلام وأثروا تلك الدولة بجهادهم وعلومهم . ففي العصر العثماني تولى الأتراك القيادة ، فكتبوا صفحة مجيدة من تاريخ المسلمين ، وقاموا بالأمر خير القيام ، بمعونة إخوانهم من سائر الأعراق الإسلامية ، فلا ينبغي للتركي أن يستأثر بالتاريخ العثماني أو يظن أنه حكر عليه ، ولا ينبغي للعربي والفارسي والكردي والصقلبي أن ينأىَ عنه ، أو أن يعتبره تاريخا أجنبيا عنه .

أرجو أن أكون قد وفقت في عرض الحقائق ، وتفنيد الأباطيل ودحض الشبهات . ولا أزعم أنني قد تعرضت لكل جوانب الحكم العثماني ، بل هو قدر ما مكني فيه ربي . سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم أفندي بجوي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)

١- تاريخ بجوي : ترجمة ناصر عبد الرحيم حسين محمد . رسالة ماجستير لم تنشر بعنوان « تاريخ بجوى إبراهيم أفندي ، ترجمة ودراسة ». عام ١٩٩٩م

إبراهيم بك حليم

٢- تاريخ الدولة العثمانية العلية. مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت ، لبنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

إبراهيم بن عامر العبيدي (ت١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م)

٣- قلايد العقيان في مفاخر آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية ، ميكروفيلم رقم (٤٦٧٨) .

إبراهيم الصوالحي العوفي الحنبلي (ت ١١١٣هـ/ ١٧٠١م)

٤- الصواعق في واقعة الصناجق . مخطوط بمكتبة الإسكندرية. ميكروفيلم رقم (١٦٥) عن نسخة دار الكتب المصرية رقم (٢٢٦٩) .

٥- تراجم الصواعق في واقعة الصناجق . تحقيق د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم لنسخة مكتبة ميونخ الوطنية . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة .

إبراهيم مصباح عبد القوي أحمد

٦- السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوجوس ، رسالة ماجستير لم تنشر من كلية الآداب جامعة طنطا عام ٢٠٠٥م .

أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي البزار (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م)

٧- البحر الزخار (مسند البزار) . تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ، عادل بن سعد ، صبري عبد الخالق الشافعي . مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ١٩٨٨ - ٢٠٠٩م .

أبو بكر بن أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني الشهير بابن أبي عاصم ت٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)

٨- الآحاد والمثاني . تحقيق د .باسم فيصل الجوابرة . دار الراية ، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩١م

٩- السنة. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٠هـ

أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بسكر بن أبي شيبة (ت٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)

١٠- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار. تحقيق كمال يوسف الحوت . مكتبة الرشد ، الرياض ١٤٠٩هـ

أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)

١١- المبسوط . دار المعرفة ، بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م)

١٢- صحيح ابن خزيمة . تحقيق د.محمد مصطفى الأعظمي . المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي الآجري (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)

١٣- الشريعة . تحقيق د.عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي . دار الوطن ، الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

أبو بكر محمد بن هارون الروياني (ت ٣٠٧هـ/ ٩١٩م)

١٤- مسند الروياني . تحقيق أيمن علي أبو يماني . مؤسسة قرطبة ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م

أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)

١٥- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . تحقيق شعيب الأرناؤط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو السجستاني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)

١٦- سنن أبي داود . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت .

أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)

١٧- مسند أبي داود الطيالسي . تحقيق د.محمد عبد المحسن التركي . دار هجر ، مصر. ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

١٨- تحفة النظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار . أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الضبي الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)

١٩- المستدرك على الصحيحين . تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م

أبو عوانة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم بن يزيد الإسفراييني (ت ٣١٦هـ/ ٩٢٨م)

٢٠- مستخرج أبي عوانة . تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي . دار المعرفة ، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

أبو فهر محمود محمد شاكر (ت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)

٢١- أباطيل وأسمار . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

٢٢- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .

أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)

٢٣- تاج العروس من جواهر القاموس . دار الهداية .

أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) .

٢٤- معرفة الصحابة . تحقيق عادل بن يوسف العزازي . دار الوطن للنشر ، الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٨٨م .

أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي (ت ٣٠٧هـ/ ٩١٩م)

٢٥- مسند أبي يعلى الموصلي . تحقيق حسين سليم أسد . دار المأمون للتراث ، دمشق . ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي، المعروف بابن القلانسي (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)

٢٦- ذيل تاريخ دمشق. مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م

أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك

٢٧- الدولة العثمانية المجهولة. وقف البحوث العثمانية ، اصطنبول ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

أحمد بن الحسين بن على بن موسى الخسروجردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)

٢٨- السنن الكبرى .تحقيق محمد عبد القادر عطا.دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

٢٩- شعب الإيمان . تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد . مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند . ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

٣٠- دلائل النبوة . تحقيق د.عبد المعطي قلعجي . دار الكتب العلمية – دار الريان للتراث ، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣١- معرفة السنن والآثار . تحقيق د.عبد المعطي قلعجي . جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي – باكستان) ، دار قتيبة (دمشق – بيروت) ، دار الوعي (حلب – دمشق) ، دار الوفاء (المنصورة – القاهرة) ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

أحمد بن زنبل الرمال (ت بعد ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) .

٣٢- واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني . تحقيق عبد المنعم عامر. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٧م .

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) .

٣٣- مجموع الفتاوى . تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة النبوية ، المملكة العربية السعودية . ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر النسائي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م) .

٣٤- السنن الكبرى . تحقيق حسن عبد المنعم شلبي . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) .

٣٥- مسند الإمام أحمد . تحقيق شعيب الأرناؤط ، عادل مرشد . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الطحاوي (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م)

٣٦- شرح مشكل الآثار. تحقيق شعيب الأرناؤط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م

أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب المرواني الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) .

٣٧- العقد الفريد . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري (ت ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) .

٣٨- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير . المكتبة العلمية ، بيروت .

أحمد بن محمد بن عمر بن الحمصي الأنصاري (ت ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) .

٣٩- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران . تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش . دار النفائس ، بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

أحمد بن مصطفى طاش كوبري زاده (ت ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م) .

٤٠- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

أحمد بن يوسف القرماني (ت ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) .

٤١- أخبار الدول وآثار الأول . تحقيق د.فهمي سعد ، د.أحمد حطيط . عالم الكتب ، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

أحمد جلبي بن عبد الغني الحنفي (ت ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م)

٤٢- أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات . تحقيق د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٧٨م .

د.أحمد عبد الرحيم مصطفى .

٤٣- في أصول التاريخ العثماني . دار الشروق ، القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

د.أحمد فؤاد متولي .

٤٤- الفتح العثماني لمصر والشام ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م .

٤٥- تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى نهاية العصر الذهبي . ايتراك للنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠٠٢م .

أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي (ت بعد ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م) .

٤٦- الدرة المصانة في أخبار الكنانة . تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٩م .

إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م) .

٤٧- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . وكالة المعارف الجليلة ، اصطنبول ١٩٥١م .

٤٨- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا ، رفعت بيلكه الكليسي . دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

إسماعيل بن سعد الخشاب (ت ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م) .

٤٩-أخبار أهل القرن الثاني عشر . تحقيق عبد العزيز جمال الدين ، عماد أبو غازي . العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠م .

إسماعيل باشا سرهنك (ت بعد ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م) .

٥٠- حقائق الأخبار عن دول البحار . المطبعة الأميرية ، بولاق ، القاهرة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م .

إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م) .

٥١-كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥١هـ .

ألبرت فارمان

٥٢- مصر وكيف غدر بها . ترجمة عبد الفتاح عنايت . تحقيق ابتسام عبد الفتاح عنايت . الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٥م .

لويس ألكسندر برتييه

٥٣-رواية الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام . ترجمة د.هلال سليمان ، مارون عيسى الخوري . المؤسسة الحديث للكتاب ، طرابلس ، لبنان ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

أنجيلو جيوفاني

٥٤- رسالة عن سقوط القسطنطينية ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة

ودراسة د.حاتم عبد الرحمن الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

أندريه ريمون

٥٥- المدن العربية الكبرى في العصر العثماني . ترجمة لطيفة فرج . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩١م .

أودو الدويلي

٥٦- رحلة لويس السابع إلى الشرق . ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية . الجزء السابع . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

إيرين بلديسينو

٥٧- عثمان وأورخان ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران . ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

أولياء جلبي (ت ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م) .

٥٨- سياحة نامه مصر . ترجمة محمد على عوني . تحقيق د.عبد الوهاب عزام ، د.أحمد السعيد سليمان . دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

برنارد لويس

٥٩- اكتشاف المسلمين لأوروبا . ترجمة د.ماهر عبد القادر . المكتبة الأكاديمية القاهرة ١٩٩٦.

٦٠- الإسلام والغرب . دار الرشيد ، دمشق - بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

د.بشرى خير بك

٦١- الدخول العثماني لشمال إفريقية ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

بنفينيتو قنصل أنكونا

٦٢- شهادة على فتح القسطنطينية . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة

ودراسة د.حاتم عبد الرحمن الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي ، الشهير بابن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) .

٦٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق د.جمال الدين الشيال . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

بول دومون

٦٤- فترة التنظيمات . ضمن كتاب : تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

بيتر شوجر

٦٥- أوروبا العثمانية (١٣٥٤ – ١٨٠٤). ترجمة د.عاصم الدسوقي . دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٩٨م .

تشارلز وبربرا بيلافيتش

٦٦- تفكيك أوروبا العثمانية (١٨٠٤ – ١٩٢٠) . ترجمة د.عاصم الدسوقي . دار العالم الثالث ، القاهرة ٢٠٠٧م .

تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م) .

٦٧- تاريخ ابن قاضي شهبة . مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ميكروفيلم رقم ٩٩/ ٢.

٦٨- تاريخ ابن قاضي شهبة . تحقيق عدنان درويش . المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٩٤م .

تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) .

٦٩- السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

٧٠- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م

٧١- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . تحقيق د.جمال الدين الشيال ، د.محمد حلمي محمد أحمد . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .

جان بول رو

٧٢- الفن العثماني في الأراضي التركية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

جان - لوى باكي - جرامون

٧٣- أوج الإمبراطورية العثمانية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م.

حاجى خليفة (كاتب جلبي) (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) .

٧٤- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . نسخة إلكترونية ضمن الموسوعة الشاملة الإصدار الثاني .

د.حسان حلاق

٧٥- دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش . بيروت المحروسة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

حقي باشا العظم

٧٦- تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان.مطبعة الترقي ، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م .

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) .

٧٧- نظم العقيان في أعيان الأعيان . تحقيق فيليب حتى . المكتبة العلمية ، بيروت .

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله (ت ٨٧٤هـ/ ١٣٧٢م) .

٧٨- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م

٧٩- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي . تحقيق د.محمد محمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

٨٠- حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور . تحقيق محمد كمال عز الدين . عالم الكتب ، القاهرة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

د.جمال زكريا قاسم

٨١- سلطنة مسقط وعمان ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

جمال كمال محمود محمد

٨٢- نظام الالتزام في ريف الصعيد في العصر العثماني . رسالة ماجستير غير منشورة . كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

جورجي دولفين

٨٣- ضمن الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة ودراسة د.حاتم عبد الرحمن الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

جورجى زيدان

٨٤- مصر العثمانية . تحقيق د.محمد حرب. دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٤م .

جوفنى ميكيله فنسلبيو

٨٥- تقرير الحالة الحاضرة عن مصر ١٦٧١م . ترجمة وديع عوض . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ٢٠٠٦م .

جون أنتيس

٨٦- مذكرات عن المصريين . ترجمة د.سيد أحمد على الناصري . ضمن كتاب مذكرات رحالة عن المصريين من خلال وصف الرحالة جون أنتيس . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧م .

جياكومو تيدالدي

٨٧- الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الإمبراطور التركي . ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة ودراسة د.حاتم عبد الرحمن الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

جيل فاينشتاين

٨٨- الولايات البلقانية ١٦٠٦ - ١٧٧٤ ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية ، تحت

إشراف روبير مانتران . ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

٨٩- الإمبراطورية العثمانية في عظمتها ، ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية ، تحت إشراف روبير مانتران . ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

ج. كامبفماير

٩٠- مصر وآسيا الغربية . ضمن كتاب وجهة الإسلام . تحت إشراف هاميلتون جب . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . المطبعة الإسلامية ، القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م .

ج.ج. لوريمر

٩١- دليل الخليج . القسم التاريخي . مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر .

الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي (ت ٥١٠هـ/ ١١١٦م) .

٩٢- معالم التنزيل. تحقيق عبد الرزاق المهدي . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٢٠هـ

حسين خوجه بن علي (ت بعد ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م) .

٩٣- بشاير أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ميكروفيلم رقم (١٣٤٨٦) .

د.حسين مؤنس

٩٤- تنقية أصول التاريخ الإسلامي . مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٥م .

٩٥- مصر ورسالتها . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩م .

د.خالد محمد نعيم

٩٦- الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر . دراسة وثائقية . المختار الإسلامي للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة ١٩٨٨م .

خليل إينالجيك

٩٧- العثمانيون : النشأة والازدهار . ترجمة د.سيد محمد السيد ، ضمن كتاب دراسات

في التاريخ العثماني . دار الصحوة للنشر ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) .

٩٨- كتاب العين . تحقيق د.مهدي المخزومي ، د.إبراهيم السامرائي . دار ومكتبة الهلال ، بغداد ١٩٨٥م .

خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) .

٩٩- الإشارات في علم العبارات . دار الفكر ، بيروت .

د.رءوف عباس

١٠٠- ديليسبس أمام التاريخ . تعليق ضمن كتاب ديليسبس الذي لا نعرفه . تأليف د.أحمد يوسف . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤م

روبير مانتران

١٠١- بدايات المسألة الشرقية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية . ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م.

د.زبيدة عطا

١٠٢- بلاد الترك في العصور الوسطى . دار الفكر العربي .

زهدي الفاتح

١٠٣- لورنس العرب . تقارير لورنس السرية . دار النفائس، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .

زين الدين بن عبد العزيز بن زين الدين بن علي المعبري (ت بعد٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) .

١٠٤- تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين. طبع تحت عناية الحكيم السيد شمس الله القادري ، مدير مجلة التاريخ ، حيدر آباد دكن ١٩٣١م .

د.سعيد عبد الفتاح عاشور

١٠٥- العصر المماليكي في مصر والشام . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦م.

سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) .

١٠٦- المعجم الكبير. تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ... ونسخة إلكترونية ضمن المكتبة الشاملة الإصدار الثاني .

١٠٧- المعجم الأوسط . تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني . دار الحرمين القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

١٠٨- مسند الشاميين . تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي . مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م .

د.سيد أحمد علي الناصري

١٠٩- صورة مصر في عيون الرحالة الأوروبيين . ضمن كتاب مذكرات رحالة عن المصريين من خلال وصف الرحالة جون أنتيس . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧م .

د.السيد الدقن

١١٠- السلطان الأشرف طومان باي والمقاومة المصرية للغزو العثماني . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨م .

د.سيد محمد السيد

١١١- مصر في العصر العثماني في القرن السادس عشر. مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

شارل فيرو

١١٢- الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي . ترجمة د.محمد عبد الكريم الوافي . جامعة قاريونس ، بني غازي ١٩٩٤م.

شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

١١٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق إحسان عباس . دار صادر ، بيروت .

شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) .

١١٤- الشرح الكبير على متن المقنع . دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع .

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) .

١١٥- سير أعلام النبلاء . تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

١١٦- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . تحقيق عمر عبد السلام التدمري : دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) .

١١٧- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان . وضع حواشيه خليل المنصور . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

١١٨- إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى . تحقيق محمد أحمد دهمان . دار الفكر ، دمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

شمس الدين محمد بن محمود الحلبي الشهير بابن أجا (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) .

١١٩- رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار . تحقيق محمد أحمد دهمان . ضمن كتاب العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك . دار الفكر ، دمشق ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) .

١٢٠- صبح الأعشى في صناعة الإنشا . تحقيق محمد حسين شمس الدين . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨م .

شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) .

١٢١- إنباء الغمر بأبناء العمر . تحقيق عبد الله بن أحمد بن محمد المديحج العلوي الحسني الحضرمي ، وساعده فيه سلطان محيي الدين كامل . تحت إشراف محمد عبد المعيد خان ، مدير دائرة المعارف العثمانية بالهند . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

١٢٢- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة . تحقيق د.إكرام الله إمداد الحق . دار البشاير ، بيروت ١٩٩٦م .

١٢٣- تقريب التهذيب . تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٢٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري . ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، إخراج وتصحيح محب الدين الخطيب . دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٩هـ

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الشهير بابن عرب شاه (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) .

١٢٥- عجائب المقدور في أخبار تيمور . مطبعة وادي النيل بباب الشعرية ، القاهرة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م .

شهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الشهير بابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) .

١٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب . تحقيق محمود الأرناؤط ، وخرج أحاديث عبد القادر الأرناؤط . دار ابن كثير ، دمشق ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

شهاب الدين محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي (ت٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م).

١٢٧- المسند . تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م .

د.صلاح أحمد هريدي .

١٢٨- دراسات في تاريخ العرب الحديث . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م .

١٢٩- دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م .

د.صلاح محمد ضبيع

١٣٠- العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والعثمانيين في عهد آل باليولوجوس . ١٢٦١- ١٤٥٣م . رسالة دكتوراه من كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادي ١٩٩٨م . لم تنشر .

د.طه حسين .

١٣١- مستقبل الثقافة في مصر . دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٦م .

د.عائشة عبد العزيز التهامي .

١٣٢- شاهد قبر أحد قضاة مصر في العصر العثماني . مجلة المؤرخ العربي العدد الحادي عشر ٢٠٠٣ - المجلد الأول .

عاشق جلبي : أحمد بن علي زيد العابدين بن محمد بن جلال الدين الرضوي (ت ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م) .

١٣٣- ذيل الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية . تحقيق د.عبد الرازق بركات . دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

د.عاصم محمد رزق عبد الرحمن .

١٣٤- مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩م .

د.عبد الجواد صابر إسماعيل .

١٣٥- دور الأزهر السياسي في مصر إبان الحكم العثماني . مكتبة وهبة ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد بن محمود (عبد الحميد الثاني) .

ت ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م

١٣٦- مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة وتقديم د.محمد حرب . دار القلم ، دمشق ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١م) .

١٣٧- عجائب الآثار في التراجم والأخبار . ترتيب وتصحيح محمد قاسم . دار الطباعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م .

١٣٨- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس . تدقيق وعناية أحمد عبده علي . مكتبة الآداب ، القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

عبد الرحمن الرافعي .

١٣٩- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر . دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧م.

د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

١٤٠- الدخول العثماني إلى أقاليم الوطن العربي (الشام ومصر والعراق) ، ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم . تونس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

١٤١- فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في العصر العثماني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠م .

عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م) .

١٤٢- المصنف .تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي . المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

د.عبد الرؤوف سنو .

١٤٣- النزعات الكيانية في الدولة العثمانية ١٨٧٧ – ١٨٨١م . بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٨م .

د.عبد العزيز محمد الشناوي .

١٤٤- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ٢٠٠٤م .

د.عبد العزيز نوار .

١٤٥- النهضة العربية الحديثة . عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

١٤٦- الولايات العثمانية في شمال أفريقيا والحملة الفرنسية على مصر والشام . مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات ، القاهرة ٢٠٠١م .

عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ العيدروس (ت ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م) .

١٤٧- النور السافر عن أخبار القرن العاشر . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الشرقاوي (ت ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م) .

١٤٨- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين . تحقيق رحاب عبد الحميد القادري . مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي(ت٢١٩هـ/ ٨٣٤م).

١٤٩- مسند الحميدي . تحقيق حسين سليم أسد الداراني . دار السقا ، دمشق ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي . (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) .

١٥٠- السنن . تحقيق حسين سليم أسد الداراني . دار المغني للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي (ت ١٨١هـ/ ٧٩٧م) .

١٥١- مسند عبد الله بن المبارك . تحقيق صبحي البدري السامرائي . مكتبة المعارف ، الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م) .

١٥٢- سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي . تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) .

١٥٣- فقه اللغة وسر العربية . تحقيق عبد الرزاق المهدي . دار إحياء التراث العربي ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ/ ٨٢٨م) .

١٥٤- السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي . مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م .

د.عبد المنعم ماجد .

١٥٥- طومان باي آخر سلاطين المماليك . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨م .

عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري الشهير بابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) .

١٥٦- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة . تحقيق رضا معطي ، عثمان الأثيوبي ، يوسف الوابل . دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الشهير بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)

١٥٧- الكامل في التاريخ . تحقيق عمر عبد السلام تدمري . دار الكتاب العربي ، بيروت

١٤١٧هـ١٩٩٧م .

د.عفيف البهنسي .

١٥٨- العمارة في مصر والشام في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية . المجلد الخامس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

علي بن بالي (ت ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م) .

١٥٩- العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم ، طبع في ذيل كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية . دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

علي كمال بن السيد محمد أمين مدرس زاده (ت أواخر القرن ١٣هـ/ ١٩م) .

١٦٠- كمال الإنسان في معرفة آل عثمان . مخطوط بدار الكتب والوثائق القومية . ميكروفيلم رقم (١٨٨٩٨) .

علي بن محمد اللخمي الأشبيلي (ت بعد ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) .

١٦١- الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان . تحقيق هانس أرنست . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٦٢م .

علي بن محمد الشاذلي الفرا (ت ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م) .

١٦٢- ذكر ما وقع بين عسكر مصر المحروسة سنة ١١٢٣ ، تحقيق د.عبد القادر أحمد طليمات . المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر ، القاهرة ١٩٦٨م

عماد الدين إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير القيسي الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) .

١٦٣- البداية والنهاية . تحقيق على شيري . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) .

١٦٤- الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق محمد محمود صبيح . الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٣م .

عمر الإسكندري وسليم حسن .

١٦٥- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر . مكتبة مدبولي ، القاهرة .

د.عمر عبد العزيز عمر .

١٦٦- تاريخ المشرق العربي . دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٤م .

١٦٧- عبد الرحمن الجبرتي ونيقولا الترك ، دراسة مقارنة . بيروت ١٩٧٨م .

د.فاروق عثمان أباظة .

١٦٨- أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط في القرن السادس عشر . دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٤م .

فرانسوا جورجو وبول دومون .

١٦٩- موت إمبراطورية . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية ، تحت إشراف روبير مانتران . ترجمة بشير السباعي . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م .

قاسم خلف الجميلي .

١٧٠- التنظيم المالي والضريبي في العصر العثماني . ضمن الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية ، المجلد الخامس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (ت ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م) .

١٧١- البرق اليماني في الفتح العثماني. تحقيق حمد الجاسر. منشورات المدينة ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٧٢- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام . ليبزج ، ألمانيا ١٨٥٧م .

كاتب جلبي (حاجي خليفة) (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) .

١٧٣- فذلكة . ترجمة أحمد علي أحمد. ضمن رسالة ماجستير بعنوان « كتاب فذلكة كاتب جلبي ١٠٠٠- ١٠٣٠هـ/ ١٥٩١- ١٦٢١م ترجمة ودراسة » ، من كلية الآداب جامعة عين شمس ، لم تنشر ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

كارل بروكلمان .

١٧٤- تاريخ الشعوب الإسلامية . ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي . دار العلم للملايين ، بيروت ٢٠٠٥م .

كرستوفر كولومبس .

١٧٥- رسالة إلى فرديناند وإيزابيلا لشن حملة صليبية للاستيلاء على القدس عام ١٥٠١م ،

ترجمة د.حاتم الطحاوي ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطي ، مجموعة أبحاث مهداة إلى الأستاذ الدكتور قاسم عبده قاسم بمناسبة بلوغه الستين عاما . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

كرستوفورو ريشيرو .

١٧٦- الاستيلاء على القسطنطينية في يوم التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الشهير بابن العديم (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) .

١٧٧- زبدة الحلب في تاريخ حلب . تحقيق خليل المنصور . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

كمال قارابط .

١٧٨- الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر . ترجمة د.سيد محمد السيد ، ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني . دار الصحوة للنشر ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

لاونيكوس خالكوكونديلاس .

١٧٩- التاريخ التركي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م.

لو شاتلييه

١٨٠- الغارة على العالم الإسلامي . ترجمة وتلخيص محب الدين الخطيب ، مساعد اليافي . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م .

ليوناردو الخيوسي .

١٨١- تقرير لبابا روما عن سقوط القسطنطينية ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية . ترجمة د.حاتم الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة (٢٠٠٣م) .

مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي (ت ١٧٩هـ/ ٧٩٥م) .

١٨٢- موطأ الإمام مالك رواية أبي مصعب الزهري . تحقيق بشار عواد معروف ، محمود خليل . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

د.محمد إسماعيل المقدم .

١٨٣- عودة الحجاب . دار العقيدة للتراث ، الإسكندرية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

محمد أمين بن فضل الله المحبي (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م) .

١٨٤- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

د.محمد أنيس .

١٨٥- الدولة العثمانية والشرق العربي . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٣م.

محمد بن أبي السرور البكري (ت ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م) .

١٨٦- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية . تحقيق د.ليلى الصباغ . دار البشائر .

١٨٧- اللطائف الربانية على المنح الرحمانية في الدولة العثمانية . تحقيق د.ليلى الصباغ ، طبع في ذيل المنح الرحمانية ، دار البشاير .

١٨٨- التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية . تحقيق د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

١٨٩- كشف الكربة في رفع الطلبة . تحقيق د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٦م .

١٩٠- النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية . تحقيق عبد الرازق عبد الرازق عيسى . العربي للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨م.

محمد بن أبي القاسم القيرواني ، الشهير بابن أبي دينار (ت بعد ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م) .

١٩١- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. مطبعة الدولة التونسية ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م .

محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) .

١٩٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور . تحقيق محمد مصطفى زيادة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) .

١٩٣- الجامع الصحيح . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه . تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

١٩٤- التاريخ الصغير . تحقيق محمود إبراهيم زايد. دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

محمد البرلسي السعدي (ت القرن ١١هـ/ ١٧م) .

١٩٥- بلوغ الأرب برفع الطلب . تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع والعشرون ١٩٧٧م .

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) .

١٩٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن . تحقيق أحمد محمد شاكر . مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

١٩٧- تاريخ الأمم والملوك . تحقيق إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي . دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م) .

١٩٨- التذكرة الحمدونية. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٨٧م.

محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد الإسحاقي المنوفي (ت١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م) .

١٩٩- لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول . تحقيق د.عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . الكويت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م .

محمد بن يزيد القزويني . الشهير بابن ماجة (ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م) .

٢٠٠- سنن ابن ماجة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء الكتب العربية .

د.محمد حرب .

٢٠١- العثمانيون في التاريخ والحضارة . المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني المرادي (ت١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) .

٢٠٢- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . دار البشاير الإسلامية ، دار ابن حزم ،

بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م).

٢٠٣- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٢٠٤- التبر المسبوك في ذيل السلوك . مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) .

٢٠٥- سنن الترمذي . تحقيق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، إبراهيم عطوة . مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

محمد بن علي بن سليمان الراوندي (ت بعد ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) .

٢٠٦- راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية . ترجمة إبراهيم أمين الشواربي ، عبد النعيم محمد حسنين ، فؤاد عبد المعطي الصياد . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٥م.

محمد بن مكرم بن علي الشهير بابن منظمور الإفريقي المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) .

٢٠٧- لسان العرب . دار صادر ، بيروت .

محمد عبد المنعم السيد الراقد .

٢٠٨- الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي . مؤسسة شباب الجامعة . مصر ١٩٦٨م .

محمد فريد بك .

٢٠٩- تاريخ الدولة العلية العثمانية . تحقيق إحسان حقي . دار النفائس ، بيروت ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

د.محمد محمد الحسين .

٢١٠- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٦٢م .

محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني (ت١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)

٢١١- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢١٢- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة . مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢١٣- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

٢١٤- صحيح الجامع الصغير وزيادته . المكتب الإسلامي ، بيروت .

٢١٥- صحيح الترغيب والترهيب . مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

محمود شاكر

٢١٦- موسوعة التاريخ الإسلامي . المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

د.محمود محمد الحويري .

٢١٧- تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى . المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ٢٠٠٢م.

محيى الدين يحيى بن شرف بن حسب بن حسين الحازمي النووي (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) .

٢١٨- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

٢١٩- المجموع شرح المهذب . دار الفكر ، بيروت .

مجتبى ايل كوره ل .

٢٢٠- الدولة العثمانية خلال القرن ١٨م/ ١٢هـ ترجمة د.سيد محمد السيد ، ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني . دار الصحوة ، القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) .

٢٢١- نزهة الناظرين وأخبار الماضين في تاريخ من ولي مصر من سالف العصر من الخلفاء والسلاطين العادلين . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (٥٢٩٨) .

٢٢٢- قلايد العقيان في فضائل آل عثمان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية . ميكروفيلم رقم (٥٢٩٨) .

مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) .
٢٢٣- صحيح مسلم ، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . دار التراث العربي ، بيروت .
مصطفى أفندي سلانيكي (ت بعد ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م) .
٢٢٤- تاريخ سلانيكي . ترجمة أحمد حنفي عبد الرحيم . ضمن رسالة ماجستير بعنوان « تاريخ سلانيكي (١٥٦٣-١٥٩٣م) لمصطفى أفندي سلانيكي ترجمة ودراسة ». كلية الآداب بسوهاج ، جامعة جنوب الوادي . ١٩٩٩م لم تنشر .
مصطفى بن الحاج إبراهيم تابع حسن أغا عزبان الدمرداشي (ت بعد ١١٥٣هـ/ ١٧٣٩م).
٢٢٥- تاريخ وقايع مصر القاهرة المحروسة كنانة الله في أرضه . تحقيق د.صلاح أحمد هريدي . دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .
مصطفى بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الصفوي القلعاوي (ت ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م)
٢٢٦- صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان . مخطوط بمكتبة الإسكندرية .
مصطفى صبري (ت ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) .
٢٢٧- النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة . تحقيق د.مصطفى محمد حلمي ، ضمن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية . دار ابن الجوزى ، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .
٢٢٨- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .
د.مصطفى محمد حلمي .
٢٢٩- الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية . دار ابن الجوزي ، القاهرة ، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .
معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي (ت ١٥٣هـ/ ٧٧٠م) .
٢٣٠- الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي . المجلس العلمي بباكستان ، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٣هـ

ميخائيل دوكاس .

٢٣١- التاريخ البيزنطي ، ضمن كتاب الحصار العثماني للقسطنطينية ، ترجمة د.حاتم الطحاوي . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣م .

ناصر عبد الله عثمان .

٢٣٢- الحركة العلمية في مصر في القرن السابع عشر. دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م) .

٢٣٣- الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة . تحقيق خليل المنصور . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي (ت ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م) .

٢٣٤- كتاب الفتن . تحقيق سمير أمين الزهيري . مكتبة التوحيد ، القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

نقولا الترك .

٢٣٥- ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية . تحقيق العميد الركن د.ياسين سويد. دار الفارابي ، بيروت ١٩٩٠م.

نيقولا فاتان .

٢٣٦- صعود العثمانيين . ضمن كتاب تاريخ الدولة العثمانية .تحت إشراف روبير مانتران ، ترجمة بشير السباعي دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م.

نيقولو باربارو .

٢٣٧- يوميات الحصار العثماني. ترجمة د.حاتم الطحاوي ، ضمن كتاب الفتح الإسلامي للقسطنطينية . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية . القاهرة ٢٠٠٢م.

نيقولو مكيافللي .

٢٣٨- الأمير. ترجمة خيري حماد ، تعقيب د.فاروق سعد . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ٢٠٠٢م.

نيكورا بيلدبسينو .

٢٣٩- تنظيم الإمبراطورية العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ضمن كتاب

تاريخ الدولة العثمانية تحت إشراف روبير مانتران . ترجمة بشير السباعي دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٣م.

نيقل ألكسندروفنا دولينا .

٢٤٠- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر . ترجمة أنور محمد إبراهيم . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٩م.

هاميلتون جب .

٢٤١- وجهة الإسلام . ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة . المطبعة الإسلامية ، القاهرة . ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

د.هدى درويش .

٢٤٢- الإسلاميون وتركيا العلمانية . دار الآفاق العربية ، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

هربرت فيشر .

٢٤٣- تاريخ أوروبا في العصر الحديث . ترجمة أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع . دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣م .

هنري لورنس .

٢٤٤- الحملة الفرنسية على مصر . بونابرت والإسلام ، ترجمة بشير السباعي . سينا للنشر ، القاهرة ١٩٩٥م.

٢٤٥- الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر . الاستشراق المتأسلم . ترجمة بشير السباعي . دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩م.

ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) .

٢٤٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . تحقيق خليل شحادة . دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٢٤٧- مقدمة ابن خلدون . تحقيق إيهاب محمد إبراهيم. مكتبة القرآن للنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠٠٦م .

وليم الصوري .

٢٤٨- تاريخ وليم رئيس أساقفة صور . ترجمة د.سهيل زكار ضمن الموسوعة الشاملة لتاريخ الحروب الصليبية الجزء السابع . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

يلماز أوزتونا .

٢٤٩- تاريخ الدولة العثمانية . ترجمة عدنان محمود سليمان . مؤسسة الفيصل للتمويل ، اصطنبول ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

يوسف بن محمد الملواني الشهير بابن الوكيل (ت ١١٣١هـ/ ١٧١٩م) .

٢٥٠- تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب . تحقيق محمد الششتاوي . دار الآفاق العربية ، القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٥١- القانون الأساسي . مطبعة الآداب ، بيروت ١٢٣٦هـ/ ١٩٠٨م .

٢٥٢- قانون نامه مصر. ترجمة د.أحمد فؤاد متولي

٢٥٣- ألقاب السلطان سليم الثاني : مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية. جامعة طوكيو رقم (١٤٥٨) .

٢٥٤- Kritovoulos

History of Mehmed the conqueror. Translated from greek by Charles Riggs

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

منهل الظمآن





لإنصاف

دولة آل عثمان



دار الفوائد

القاهرة: خلف الجامع الأزهر

المنصورة: ش جمال الدين الأفغاني

فارسكور: خلف المستشفي الأميري

فاكس: 057441550

موقعنا على الإنترنت :

info@daribnragb.com

دار ابن رجب

هاتف: 0020225141015

هاتف: 0020502312068

هاتف: 0020573454454

0020573441550

جوال: 0122368002 - 0126655248

www.daribnragb.com

ibnragb@gmail.com

لإنصاف دولة آل عثمان منهل الظمآن لإنصاف دولة آل عثمان منهل الظمآن لإنصاف